

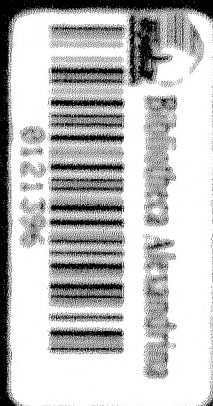
أنور الرفاعي

الإسلام

في حضارتها ونظمها

الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية

والاجتماعية والاقتصادية والفنية



ر.ب. ٧١٠٨٩ رأيك يهمنا!

الرجاء ملء البيانات بعد قراءة الكتاب

موضوع الكتاب:	<input type="checkbox"/> هام جداً	<input type="checkbox"/> هام	<input type="checkbox"/> غير هام
الأفكار:	<input type="checkbox"/> قيمة	<input type="checkbox"/> مقبولة	<input type="checkbox"/> غير مقبولة
الأسلوب:	<input type="checkbox"/> واضح	<input type="checkbox"/> مقبول	<input type="checkbox"/> غير مقبول
الإخراج الفني:	<input type="checkbox"/> ممتاز	<input type="checkbox"/> مقبول	<input type="checkbox"/> غير مقبول
الطباعة:	<input type="checkbox"/> جيدة	<input type="checkbox"/> مقبولة	<input type="checkbox"/> غير مقبولة
مراجعات الكتاب:	<input type="checkbox"/> جيدة	<input type="checkbox"/> مفيدة	<input type="checkbox"/> غير مفيدة
إصدارات الدار:	<input type="checkbox"/> هامة	<input type="checkbox"/> مقبولة	<input type="checkbox"/> غير مقبولة
متابعتك لها:	<input type="checkbox"/> دائماً	<input type="checkbox"/> أحياناً	<input type="checkbox"/> نادراً

اقتراحات:

.....

.....

بنك القارئ النهم

عزيزي القارئ ... أملأ بيانات هذه المطابقة وأرسلها إلى عنوان دار الفكر لنتيم تسجيلها في حركت الخاص في بنك القارئ النهم، حيث يكون بإمكانك الحصول على نسخ مجانية من مطبوعاتنا لتتاسب طروداً مع اقتلاك على قراءة مطبوعات دار الفكر

البيانات الدقيقة

تساعدنا على خدمتك بالشكل الأمثل

الاسم الثلاثي:

تاريخ ومكان الولادة:

المهنة: المؤهل العلمي:

الاهتمامات الفكرية والثقافية:

☐ علمية ☐ دينية ☐ أدبية ☐ تاريخية ☐ ☐

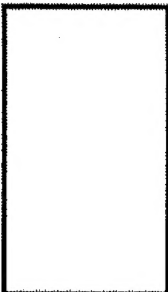
العنوان: الدولة المدينة

ص.ب.: الهاتف

هل ترغب في الحصول على نشرات الإعلاية بشكل دائم؟ ☐ نعم ☐ لا



بنك القارئ النهم



دار الفجر

للطباعة والتوزيع والنشر

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٦٢

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢١١٦٦ - ٢٢٣٩٧١٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاسلام
في حضارته ونظمه

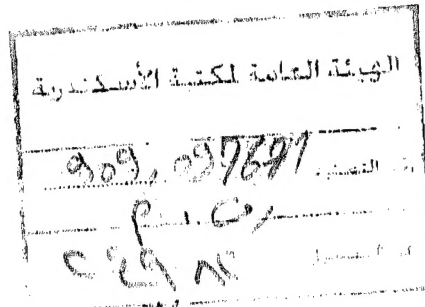
الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية . . . / أنور
الرفاعي . - ط ٣ . - دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٧ .
٧٠٤ ص ؛ ٢٤ سم .
١ - ٩٥٦ رف ١ ٢ - العنوان ٣ - الرفاعي
مكتبة الأسد

ع - ١٧٥ / ٢ / ١٩٩٧

أنور الرفاعي

الاسلام في حضارتها ونظمها

الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية
والاجتماعية والاقتصادية والفنية



دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي: ٣٢٥,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-342-9

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: الإسلام في حضارته ونظمه

التأليف: أنور الرفاعي

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل - بيروت

التجليد الفني: علي الحمصي - بيروت

عدد الصفحات: ٧٠٨ ص (فني)

قياس الصفحة: ٢٥×١٧ سم

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع

والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي

والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن

خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص. ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧

<http://www.fikr.com/>

E-mail: info @fikr.com



إعادة

1417 هـ = 1997 م

ط ٣: 1983 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

جاء الإسلام ، بدعوة دين ، ودعوة دولة ، ودعوة حياة اجتماعية وسياسية
واققتصادية وفكرية ، ووضع اسس العقيدة التي يجب ان يؤمن بها اتباعه ،
ورسم حدود المعاملات بمختلف أنواعها التي تساعد على اقامة مجتمع
« اسلامي » متميز .

وانتشر الاسلام كدين ، وظهر الإسلام كدولة ، وحمل العرب في
الحجاز أولاً أعباء الدعوة وتأسيس الدولة ، ثم حملها عرب الجزيرة قاطبة ،
وحرروا الأرض العربية خارج شبه الجزيرة ؛ الشام والعراق ومصر ، وشمال
افريقيا حتى بحر الظلمات ، كما حمل المسلمون غير العرب هذه الدعوة ، بعد أن آمنوا بها .
وتجاوزت الدعوة الدينية وإقامة دولة الإسلام ، حدود الأرض العربية
إلى ما وراء جبال زاغروس شرقاً ، ومضيق الزقاق (جبل طارق) غرباً ،
وتسربت عبر الصحارى والجبال . وظهرت للوجود « امبراطورية »
عربية — إسلامية كبرى تمتد حتى حدود الصين ، وسهول سيبيريا ، واحواض أنهار
فرنسا الجنوبية والغربية ..

وانتقل الاسلام كدين ، دون أن يرافقه حكم العرب المسلمين إلى
أقطار أخرى متباعدة ، كاندونيسيا والصين والفيليين ، ومناطق افريقية
كثيرة ...

وامتزج ، تحت الحكم العربي الإسلامي ، أفراد شعوب كثيرة اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ، وتنوعت عقائدها الدينية ، لكنها جميعاً ، ارتضت بغلبة اللغة العربية على انتاجها الفكري ، وبالدوق العربي الأصيل المشوب بما في أذواق الشعوب الأخرى من جمال ، على انتاجها المادي ، وبالدين الإسلامي على عقيدتها .. فاصبحت السمة المميزة لهذه المجتمعات المتعددة في شتى أنحاء الدولة العربية والإسلامية استعمال اللغة العربية ، لغة الحكم ولغة القرآن ، ولغة العبادة ، وانتشار الدين الاسلامي بتعاليمه السمحة .. مع بقاء لغات محلية ، وعقائد دينية أخرى . وأسهم في هذه السمة المميزة كل من العرب وغير العرب ، ومن المسلمين وغير المسلمين ، ونتج عن ذلك كله حضارة خاصة ، ليست حضارة عربية خالصة ، وليست حضارة إسلامية خالصة ، بل حضارة سداها العروبة ولحمتها الاسلام ، تشوبها التأثيرات الفكرية والفنية والاجتماعية والاقتصادية الأخرى .

فماذا تسمى هذه الحضارة الجديدة : هل تسمى حضارة اسلامية ، لأن الإسلام بعثها ورسم حدودها ؟ أم تسمى حضارة عربية لان العرب حملوا لواءها وأثروا فيها أكثر ما أثروا وخاصة في نشأتها ؟ وكيف نسميها اسلامية بحتة ، وعقائد الفرس ، وعقائد وتأثيرات المسيحية واليهودية برزت في بعض جوانبها ؟ وكيف نسميها عربية ، وعادات وتقاليدها وعلوم وفنون الامم غير العربية من اعاجم وهنود وتركستانيين وخزر وأتراك وبربر وزنج ونبط قد بقيت ظاهرة أو خفية ، تلعب دورها في حياة الناس اليومية وفي أعمالهم وتصرفاتهم ...؟

فاذا بقيت الصفة الغالبة في الأرض التي كانت عربية قبل الاسلام واستمرت بعده هي صفة العروبة والاسلام ، فان حضارة إسلامية فارسية ،

وإسلامية هندية ، وإسلامية مغولية ، وإسلامية تركية ، وإسلامية اندلسية
وإسلامية اندونيسية .. الخ كانت فيما وراء الحدود العربية الطبيعية .

لهذا ، لم يتفق الباحثون على اسم عام شامل لهذه الحضارة ، فسموها بعضهم
حضارة عربية ، لغلبة العروبة عليها ، وسموها بعضهم حضارة اسلامية لروح
هذا الدين المسيطر عليها ؛ وسموها بعضهم حضارة عربية - اسلامية إشارة إلى
انها من نتاج العروبة والاسلام ؛ مع ما فيها من تأثيرات غير عربية
وغير اسلامية ..

وإذا انطبقت هذه التسمية الاخيرة على اكثر اجزاء الامبراطورية
العربية ، فإنها لا تنطبق على البلاد التي لم يصلها الحكم العربي لامن قريب
ولامن بعيد، كجاوه وسومطره، لهذا آثرنا تسمية كتابنا : الاسلام في حضارته
ونظمه .

وقد حاولنا جاهدين تزويد الكتاب بأكبر عدد من الرسوم الاصلية
لمظاهر الحضارة المادية في ظل الاسلام ، بعد أن بسطنا هذه الرسوم
بخطوط توضح الشكل الاصيل .

والله الموفق

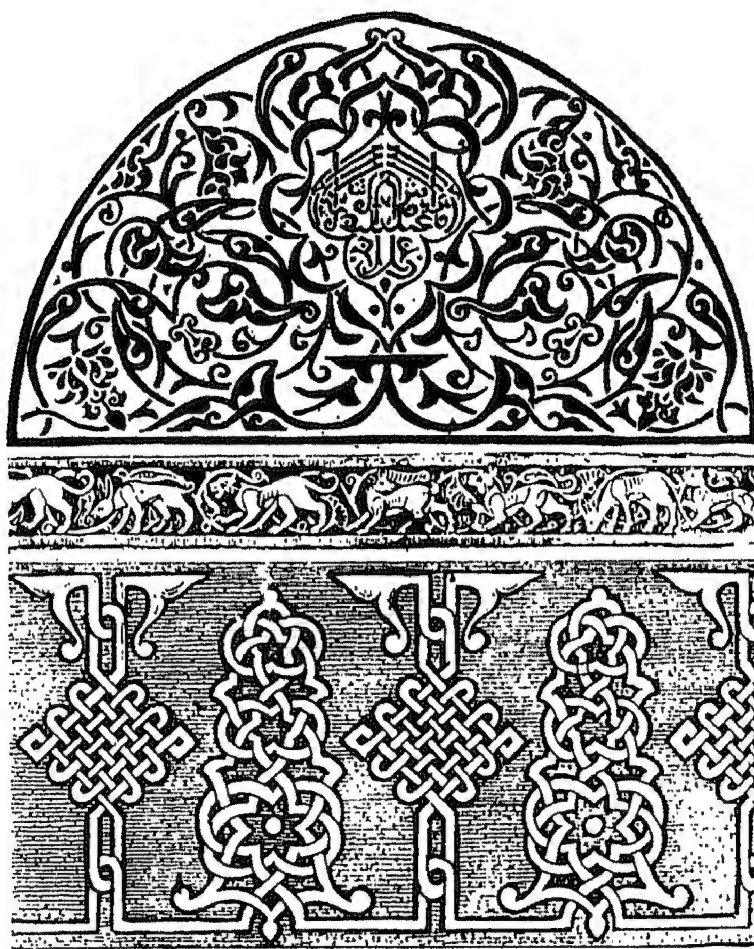
أنور الرفاعي

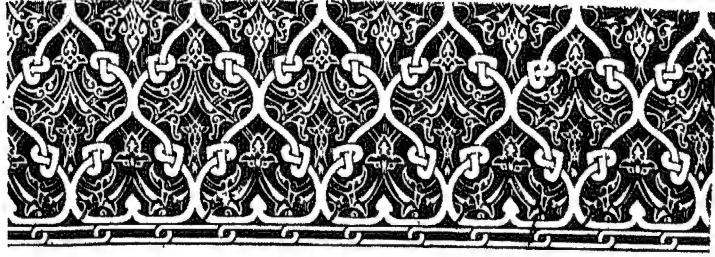
دمشق في ١٥/٢/١٩٧٣ م

١٣٩٣/١/١١ هـ

金剛經

الباب الأول
حضارة عرب الجاهلية





الفصل الأول

حضارة عرب الأطراف في الجاهلية

عرب الجاهلية

خضع الوطن العربي قبل الإسلام إلى نفوذ أجنبي في أكثر أجزائه ، فالفرس احتلوا بلاد الرافدين ، والشام ومصر ، وأخرجهم منها الإغريق ، لينشئوا دويلات هلنستية كالبطالسة والسوقيين . وتخلّى هؤلاء للرومان الذين أعقبوهم في إخضاع الشام ومصر وشمال أفريقيا لإمبراطوريتهم ، ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية ، استعاد الفرس أنفاسهم ، وما جاء القرن السادس الميلادي حتى كان سير الحضارة العربية مزلزلاً وثيداً ، ومعظم أطراف الجزيرة مع مصر وشمال أفريقيا تحت سيطرة السلطين الكبيرتين في العالم آنذاك وهما البيزنطيون والفرس . . . وإذا كان نصيب الروم حكم الطرف الغربي من الهلال الخصيب أي الشام ومن فيها من غساسنة وقبائل عربية أخرى ، فإن الفرس استأثروا بالنصيب الأوفى ، فكان لهم العراق ومن فيه من لحم وإياد وتغلب وشيبان وبكر

وتقيم ، ولهم سواحل البحرين وعمان وحضرموت ، كما بات لهم اليمن بعد أن طردوا الأبحاش منه . . . وبذلك لم يسلم من الحكم الأجنبي سوى المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية أي الحجاز ونجد والربع الخالي . . . والحجاز سيتمنح بعد قليل عن نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، وسترتفع فيه راية الإسلام ، فتحرر أقطار الوطن العربي ، وتحمل الرسالة إلى ما وراء الحدود العربية .

فكيف كانت حضارة عرب الأطراف في الهلال الخصيب ، عند الفساسة والمناذرة ، وكيف كانت حضارة عرب الجزيرة في المدن والبوادي ، في هذه الفترة التي سبقت الإسلام والتي أطلق عليها اسم العصر الجاهلي .

مصادرها عن العصر الجاهلي : من أين نستقي معلوماتنا عن هذا العصر الذي سبق الإسلام بقرن أو قرنين ، ولم نعتز بعد على أوابد وقائيل ، أو نقوش وصور ، أو نصوص ، أو بناء من هذا العصر ، نعتمد عليها ، كمادة ، للبحث ، وجل ما وصلنا ، هو اشعار العرب الجاهليين ، وبعض حكمهم وامثالهم وقصصهم ، فهل يكفي هذا ليكون « مرآة الحياة الجاهلية » ؟ ويرى طه حسين ان هذه المرآة يجب ان تلتبس في القرآن الكريم ، لا في الأدب الجاهلي ، لان القرآن حين ردّ على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية ، ورد على اليهود ، ورد على النصارى ، ورد على الصابئة والمجوس ، انما رد على اتباع هذه المعتقدات في جزيرة العرب وفي مكة ويثرب بشكل خاص ، والا لما حفل بهذا الرد سكان هاتين المدينتين وما جاورهما من مناطق سكنية ، لان الامر لا يعنيه مباشرة . . . والقرآن إذن هو الذي يمثل لنا الحياة الدينية القوية التي دعت اصحابها الى ان يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل ، وهو الذي يمثل العقلية القوية القادرة على الجدل والحصام والخوض في المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون ان يوفقوا لحلها : في البعث ، في الخلق ، في مكان الاتصال

بين الله والناس ، في المعجزة وما الى ذلك ، وهو الذي يمثل لنا الحياة السياسية حين يحدثنا عن اتصال عرب الجزيرة بمن حولهم من الامم ، هذا الاتصال القوي الذي قسمهم احزاباً ، وفرقهم شيعاً ، وجعلهم يعنون بسياسة الفرس والروم والحبس والهند وتتبع اخبارهم ، وهو الذي يمثل لنا الحياة الاقتصادية ، فيقسم العرب الى فريقين : فريق الاغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين في الربا ؛ وفريق الفقراء المعدمين او الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من ان يقاوموا هؤلاء المرابين او يستغنوا عنهم . وهل يعنى القرآن هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة وفرض الزكاة لولم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو الى ذلك ؟ .. وهو الذي يمثل لنا الحياة الاجتماعية حين يقسم العرب الى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم ، وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ . وحين ينظم ويدعو الى البر بالوالدين ، ويحدد العلاقات بين الرجل والمرأة ، ويفصل بالارث ، ويحبب تحرير الرقيق الى النفوس ، ويدعو الى مكارم الاخلاق جميعها .

وينهي طه حسين رأيه بقوله : واذا كان العرب اصحاب علم ودين ، واصحاب شرف وقوة وبأس ، واصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، متصلة بها مؤثرة فيها ، واصحاب اقتصاد داخلي وخارجي معقد ، فما اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة راقية ، لا امة جاهلة همجية^(١). وهذا ما يؤيد رأي العلماء من ان اسم الجاهلية اطلق على العصر الذي سبق الاسلام ، لا بمعنى الجهل ضد العلم ، بل بمعنى السفه والغضب والنزق لتقابل كلمة الاسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز ، وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم^(٢).

(١) طه حسين ، في الادب الجاهلي (فصل مرآة الحياة الجاهلية)
(٢) شوقي ضيف : العصر الجاهلي (فصل العصر الجاهلي)

١- حضارة المناذرة والغساسنة

تأثر المناذرة والغساسنة بالفرس والبيزنطيين : كان هذا التأثير أمراً طبعياً ، فقد دخل كل من المناذرة والغساسنة في الدارة الحضارية لمدينتين كانتا أقوى وأعرق المدينت المعروفة ، بينما لم يحمل هؤلاء ولا أولئك معهم من الصحراء ومن اليمن ، سوى آثار حضارية محدودة . وقد تناول ذلك التأثير الحضاري مختلف نواحي الحياة عند المناذرة والغساسنة بحيث يمكن أن يظهر بوضوح لو درسناها واحدة واحدة .

فأما في الحياة الاجتماعية فقد اقتبس الغساسنة ، كما اقتبس المناذرة^(١) ، مظاهر المجتمع الرومي أو الفارسي في الملابس والأعياد والعادات واتخاذ القصور والبلاطات والحاشية وارتداد المسارح وإقامة الألعاب . وكانت الغساسنة من هذه الناحية أكثر تأثراً بالروم من المناذرة بالفرس لكثرة ترددهم على القسطنطينية ، ودخول الحضارة البيزنطية بعمق إلى المدن الرئيسية التي انتشرت بها قبل وصولهم إلى الشام بزمان طويل ، على أن شعب الإمارات من قبائل العرب احتفظ مع ذلك بمظاهر الحياة البدوية حتى نكاد نعهده رغم الاستقرار نصف بدوي . وأثر ذلك على الأمراء أنفسهم ، فقد ظل المناذرة يعتزون بأنسابهم العربية لا يشوبونها . ويجوز أن اللطائم (القوافل

(١) واحتلت الحيرة وأماؤها حيراً كبيراً في أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن قصري الخورنق والسدير .. وكان المناذرة أوسع سلطاناً من الغساسنة إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وأكثر الشعراء من استعطائهم حتى لا تغزوهم جيوشهم ، كما أكثروا من مدحهم تلمسا لاعطياتهم .

التجارية) لحسابهم إلى أسواق العرب كل سنة ، ويلحقون بالبادية - ومنزلهم في ذلك الغساسنة - كلما ألم بهم أمر ، ويضربون الخيام خارج المدينة لاستقبال الضيوف . بل إن أسرة الغساسنة كانت تقيم في الجولان في « معسكر » لا في مدينة .

وأما في التنظيم السياسي فإن أمير المناذرة كان صودة عن ولاية كسرى الإقطاعيين المطلقى السلطة مدى الحياة ، ولكنه لا يحكم سوى القبائل العربية المستقرة أو المتجولة في الحدود على طول وادي الفرات . وقد منحه الساسانيون لقب « ذي التاج » وقد يستعمل له لقب ملك (كما ورد في نقش النارة للملك امرئ القيس) . وكذلك كان الأمير الغساني « أمير بدو » تدفع له بيزنطة المال ليقوم بما يكلف به من عمل ، ولكن سلطته مقيدة بسلطة الحكام المدنيين والحريين الذين ترسلهم الحكومة المركزية . إنما هنالك تحت إمرته عدد غير قليل من العمال الصغار في ولايته الواسعة ذات الصحاري الممتدة حتى ما وراء تدمر ، وكلهم يرجعون إليه زمن الحرب وفي بعض الأمور زمن السلم . وقد منح الروم أمير غسان لقب (فيلارك) منذ سنة ٥٣٦ م ثم رفعوا رتبته إلى (السيد البطريق) ، وهو لقب سام جداً لأن طبقة البطارقة في بيزنطة تعد أعلى الطبقات الاجتماعية على الإطلاق ، وهي أرقى من رتبة القنصل ، وعلاقتها بالامبراطور تشبه علاقة الكرادلة بالبابا . ولم يكن الروم قبل الغساسنة ينعمون على عمالهم من العرب إلا « بالأكاليل » فأنعموا عليهم سنة ٥٨٠ « بالتاج » لكن لم يعطوهم لقب (ملك) . وتقلبات ألقاب الغساسنة وسلطاتهم كانت تتبع التقلبات الإدارية والقوانين التنظيمية التي يصدرها أباطرة بيزنطة .

بجانب هذا عرف المناذرة والغساسنة كلاهما الجيوش النظامية بتأثير
الفرس والروم ، وكان الجيش العربي يعد قطعة هامة في جيش الدولتين ،
وينظم في كل دولة على طريقتهما ، بشكل كتائب مثل كتبتي الشهباء
والدوسر عند المناذرة ، والكتائب التي وصفها النابغة الذبياني عند الغساسنة .
ولاشك أن الإماراتين كانتا تحتفظان بجيوش بدوية غير نظامية للصحراء ،
إذ كان على الأميرين حماية خط الحصون القائمة على الحدود الصحراوية سواء
في الشام أو العراق ، ولعله كان لهما نوع من الخدمة العسكرية على عرسيهما
كالذي يكون عادة في القبائل .

وأما في الدين : فلم يتأثر المناذرة والغساسنة بحضارة الإمبراطوريتين
إلا أقل التأثير ؛ بلى ! قد اعتنقوا المسيحية — دين الروم إذ ذاك — اعتنقها
المناذرة والغساسنة جميعاً ، ولكن كلاً من الإماراتين كانت تخالف دولتها على
نحو ما فالغساسنة اعتنقوا النصرانية على المذهب يعقوبي (القائل بالطبيعة
الواحدة للمسيح) مع أن مذهب الدولة هو المملوكاني . وكان الجدل والحقد
على أشده بين هذين المذهبين ، وعقدت المجامع الروحية العديدة لحل الخلاف
دون طائل . كما أن المناذرة خالفوا ، بتنصرهم ، دين الفرس الرسمي :
الزرادشتية المجوسية . وقد حاول الروم كما حاول الفرس التأثير بالقوة
في هذه الناحية فلم يفلحوا ؛ حاولت بيزنطة تحطيم ذوي المذهب الواحد
ولكن أمراء غسان احتالوا في صرف تدابيرها . وحاول الفرس ، حين
ظهور المزدكية ، فرضها على النعمان بن المنذر ففشلوا !

وأما في الثقافة والعمران : فقد كان الأثر البيزنطي في الإماراتين واضحاً
إذ لم يكن للغساسنة والمناذرة من تقاليد فكرية سابقة ولا أسلوب في
العمران مؤثر فتلقفوا تقاليد وأساليب البلاد التي غشوها . وكانت بلاد

فارس في مرحلة تأثر واسع بالثقافة الهلنستية ، فكان من الطبيعي أن يتأثر المناذرة لاسيما وأن عدداً من أسرى الروم أنزلوا بالحيرة فكونوا بها مستعمرة ثقافية لعلها هي التي أذاعت النصرانية فيها ، وهكذا نجد أن الحياة الفكرية في الحيرة وفي أطراف الشام (بين تدمر ودمشق وبصرى والجولان) تقعان تحت تأثير متشابه من المراكز الثقافية الهلنستية : انطاكية والرها وحران وجنديسابور أيضاً وكلها تحيط ، عن قرب ، بالهلال الخصيب . على أن كلاً من أهل الحيرة ومن الغساسنة لم يكتبوا بالفارسية ولا باللاتينية بل كتبوا بالخط النبطي الآرامي في آخر صوره قبل أن يتحول الى الخط العربي ، فكان الآرامية لجأت أمام ضغط الثقافات الأخرى إلى أطراف الصحراء ، وهذا لا يمنع أنه وجد في الإمارات من يقرأ ويكتب باللاتينية والفارسية ويترجم منها وإليها . وأثر اللاتينية يمكن أن يرى في النقوش الغساسنية واضحاً . كما أن الغساسنة لم يخرجوا في أساليبهم العمرانية عن الأسلوب اليوناني - الروماني . والمناذرة قد تأثروا لحد ما بهذا الأسلوب ؛ نستنتج ذلك من قصة ذلك البناء الروماني (سنار) الذي بنى للنعمان الأول قصر الحورث في عشرين عاماً فجراه بجزاء سنار : بالموت ! لكن ما من شك في أن المناذرة قد بنوا معظم أبنيتهم الأخرى على الأسلوب الفارسي .

مدينة بصرى : بدأت حضارة بصرى قبل مجيء الغساسنة إليها بقرون متطاولة بعيدة . فقد ورد ذكرها في رسائل ملوك آشور إلى فرعون مصر آمنوفيس الثالث ثم الرابع (١٤١١ - ١٣٨٥ ق.م .) كقاعدة للقسم الشرقي من أرض آدوم ، وقد تتالت عليها الحضارات المختلفة ، وكان آخرها وأظهرها الحضارة النبطية ثم الهلنستية ثم الرومانية . ولما وصل الغساسنة آخر العصر الروماني .

مدينة بصرى إذن وإن زاد فيها الغساسة إلا أنها كانت موطئ قدم
المعالم من قبلهم ، ولا تعكس تأثيرهم بقدر ما تعكس تأثير الحضارة اليونانية
- الرومانية في العرب المتحضرين بالشام وقتئذ .

كانت بصرى في عهد الأنباط مركزاً للدين والتقاليد والحكم والتجارة
النبطية ، ولعلها صارت عاصمة الأنباط (في أيام رثال الثاني سنة ٢٧١ م)
فأقاموا فيها عدداً كبيراً من الهياكل والقصور التي لم يبق منها إلى اليوم
سوى واجهة قصر فريد في مثاله ، وعمود واحد من بناء ! وما كاد
الرومان يسقطون بطرا (سنة ١٠٦ م) في عهد تراجان (٩٨ - ١٠٧ م)
حتى اتجهوا إلى بصرى فوسعوها وشادوا بها كثيراً من الأبنية الرائعة
حتى سميت : « بصرى - تراجان الجديدة » ، وفازت في عهد اسكندر
سيفروس (٢٠٧ - ٢٣٥ م) بامتيازات كثيرة ، وحين تولى فيليب العربي
من صلخد عرش روما (٢٤٢ م) زاد في أبنيتها وامتيازاتها حتى
أبلغها مرتبة المدن الكبرى فأضحت « بصرى متروبوليس » . واختلاف
الأشكال والأسماء الإدارية لم يكن يؤثر في مركز بصرى فقد كانت هي
قاعدة الولاية دوماً . وبلغ من أهميتها في مطلع الإسلام أن قال فيها خالد
ابن الوليد : بصرى « ميناء الشام والعراق » . ويجب أن نشير إلى أن
سقوط تدمر قد انعش تجارة بصرى ووسع عمرانها كما أن إقامة الحاكم
الروماني ومعسكر الجيش (الفرقة البرقاوية الثالثة) فيها أدخل إليها جميع
مظاهر الحضارة اليونانية الرومانية ، فكانت حضارتها نسخة راقية من حضارة
كل مدينة يونانية - رومانية في الشام كله ؛ كان لبصرى سور قوي
يطيف بها ويدخل منه إلى المدينة بباب روماني ذي قوسين يعلو أحدهما
الآخر ، ويحترقها - على الطريقة الهلينية الرومانية - شارع ذو أعمدة من
الجانين وأروقة ، وفي صدره قصر الحاكم الروماني ، وبالقرب منه هيكل وثني

هائل لم يبق منه اليوم سوى عمود قائم كما أن بالمدينة بناء لسقاية السكان أقام في القرن الثاني ، كانت عضادات واجهته مؤلفة من أربعة أعمدة ترتفع (١٤ م) . وما زالت وحدها قائمة ، وكان ببصرى سوق تجارية مسقوفة كشفت حديثاً وأزيلت عنها الأتربة ، وفيها إلى جانب هذا عدد من الكنائس الكبيرة أشهرها كنيسة الراهب بجيوا (أو هكذا يسمون أطلالها الآن) وكاتدرائية جوليانوس التي أقام الإمبراطور جوستينيان على مثالها كنيسة (أيا صوفيا في القسطنطينية) وكنيسة رافنا في (إيطاليا) . وفي منتصف الشارع ذي الأروقة أقامت الفرقة المرابطة في المدينة قوس نصر ذكرى لمجدها الحربي ، وبجانب قوس النصر نجد : المسرح وهو أجمل ما في بصرى من الأوابد :

بناء ضخيم على شكل نصف دائرة يطوقها من أعلاها رواق ذو أعمدة بماء بالمقاعد الحجرية ، ومن دون الرواق تتدرج السلالم الحجرية صفوفاً مقسمة إلى ثلاثة مجاميع تقطعها بالطول وبالعرض بمرات وأبواب للدخول والخروج . وتنتهي السلالم في أرض المسرح بدائرة ، تستعمل للمصارعة ، أمام جدار مرتفع به قاعة التمثيل وما يليها . وهي ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ، وبعد رفع الأتقاض عنه ، برز لنا أجمل وأكمل مسرح في العالم الهلينستي .

ولمى جنوب المسرح يقوم الملعب المستطيل وكان يجري فيه ما كان يجري في كل مدينة رومانية : سباق للعربات وللخيل وألعاب لها دورة كدورة الألعاب الأولمبية كل أربع سنوات ، وتتصل ببصرى بعد هذا كله بأهم المدن بطرق مبلطة عليها الصوى (علامات الطرق) .

لكن إذا لم يظهر للغساسنة أثر كبير في بصرى فإن لهم آثاراً أخرى

خارجها ، فقد أعادوا بناء القناطر التي تجري فيها المياه إلى مدينة الرصافة (سرجيوس) المقدسة جداً . كما بنوا القناطر والصهاريج والكنائس في أنحاء إمارتهم ، ولعل عدم ظهور آثارهم في بلدة معينة يرجع إلى أنهم كانوا ينتقلون ويستقبلون الشعراء في تلك الحصون - القصور التي أقاموها على حدود الصحراء . وقد اكتشف المستشرق الفرنسي (دوسو) أنها تؤلف في شرق حوران سلسلة دفاعية تبدأ بحصون الصفا ثم القصر الأبيض ثم الهارة ثم صلخد والسويداء ودير الكهف والقلعة الزرقاء ثم قصر المشق والقسطل واللجون والكرخ ومعان . وربما كان بعض هذه القصور - الحصون من بناء الغساسنة وقد توسع كثير منها حتى أصبح مدناً فيها المسارح والكنائس والقصور . وقد وجد منها آثار مدهشة أهمها بقايا قصر المشق (التي ذهبت إلى برلين هدية السلطان عبد الحميد الثاني إلى الامبراطور غليوم) وطول واجهته عشرون متراً بارتفاع خمسة أمتار فيها أفريز من النقوش البارزة الرائعة . ثم بقايا القصر ذو المربع والنقوش الجميلة من صور الطير والحيل والفهود والسباع والبقر والافعال والسمك .

ومن مراكز الغساسنة عدا ما مرّ ، بلدة أم قيس وكانت المياه تأتيها بأقنية من الحجر ، وفيها مسرح للتمثيل والألعاب ، ويعتقد أن بناءها كان متأخراً .

ولعلنا أخيراً نتمم وصفاً لمدينة الغساسنة إذا نحن أوردنا هذه الصورة التي رسمها حسام بن ثابت شاعر الغساسنة ثم شاعر النبي لمجلس الأمير جبلة بن الايهم الغساني : « . . . رأيت عشر قيّان : خمس روميّات يغنين بالرومية ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . وكان (جبلة) إذا جلس للشراب فرش تحته الأكس والياسمين واصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صفحات الذهب والفضة . وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، إذا كان شاتياً ؛ وإن كان صائفاً بطن بالثلج ، واوقد له العود المندى

بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساير صيفية ينفصل (يتميز) هو وأصحابه بها ، وفي الشتاء بفراء الفَنَك (دابة فراؤها أطيب الأنواع) وما أشبهه .

مدينة الحيرة : اتعب العرب اذهانهم في تسقط اشتقاق عربي لاسم هذه المدينة ، وهي كلمة سريانية معناها (معسكر) أو (حظيرة) عربها العرب إلى الحيرة^(١) ولعل هذا الاسم يلقي بعض الضوء على نشأتها . فحين نزل اللخميون موقع الحيرة بنى زعيمهم على الطريقة المعروفة في اليمن ، قصراً حصيناً ونزلت قبيلته بالحيام عنده ، ثم اتسعت الأبنية مع الزمن حول القصر ، فأصبحت بلداً واسعاً زاد في أهميته حسن موقعه وتعدد أجناس سكانه وانتهاء طريق الحجاز التجاري به وهكذا تحتلف الحيرة عن بصرى بأنها نشأت وتحضرت مع تحضر المناذرة . واتخذها هؤلاء عاصمة لهم فكانت تنسب إليهم ، ولاشك بعد هذا أنها كانت أقل عمراً من بصرى كما كانت أقل تأثراً بحضارة الفرس ، ولذلك كان ميل العرب إليها أشد واتصلهم بها أقوى ، ويظهر أن الحيرة كانت ميداناً لهو واسع بما فيها من حانات وجوارٍ وغناء ، حتى لقد تميز سكان الحيرة بنوع خاص بهم من الغناء عرف باسمهم . والحياة الاجتماعية في الحيرة كانت مزيجاً بدوياً حضرياً وغالب السكان كانت تجمعهم الديانة المسيحية ، ويسمون بالعباد ، ويدهم الصناعات والأعمال والثقافة ، وبلاط المناذرة بصورة خاصة كان رفيع التقاليد لدرجة دفعت يزدجرد لأن يرسل ابنه بهرام إلى النعمان بن المنذر (٤٣١ - ٤٧٣ م) ليتولى تربيته على الطريقة العربية ، فتعلم لديه الكتابة والرمي والقانون والحكمة والفروسية ، مما يدل على مبلغ رقي البلاط الحيري في القرن الخامس للميلاد ومبلغ الثقة به

(١) قصر الحير الغربي الذي وجد قرب تدمر لهشام بن عبد الملك اشتق اسمه من المصدر نفسه .

وقد بني في الحيرة عدد كبير من القصور الحجرية التي اشتهرت وعرفنا بعض اسمائها كقصر الرواء والقصر الابيض وقصري الخورنق والسدير، وهما قصران كبيران كالقلاع بنيا في شرقي الحيرة . الخورنق منها على مرتفع متسلط على المدينة بجانب الفرات ، وبلغ من فخامة القصرين أن سمي العرب ملك الحيرة « رب الخورنق والسدير » . وعدا هذا فقد كان في الحيرة عدد كبير من الكنائس والأديرة والبيع منها بيعه كبرى كانت مقراً للأساقفة النسطوريين تولاهما جماعة منهم ، ثم عدد من الأديرة ساهم نساء القصر المالك في بنائها كدير هند الكبرى (أم عمرو بن المنذر) وهند الصغرى ابنته . وبعض هذه الأديرة أقيم على الطراز الفارسي أو البيزنطي كدير حنظلة ودير علقمة ودير عبد المسيح .

وكانت دولة المناذرة منظمة على الطراز الفارسي فيها عدد من وجوه الدولة وفيها الجيش والدواوين والكتاب الذين يعرفون الفارسية والعربية ويتوجهون منها واليها ، وقد أرسل ملوك الحيرة بعض ابنائهم ليعملوا في بلاط كسرى ، ويظهر أن الكتابة كانت شائعة في أوساط الحيرة ، وأقدم من تعلم الكتابة في العرب إنما تعلمها فيها بطريق الاتصال التجاري . وأقدم الخطوط العربية التي سبقت عصر النبوة كانت تنسب للحيرة وللأنبار . والخط الحيري هو ما نعرفه اليوم بالكوفي القديم .

ولم تقتصر حضارة المناذرة على الحيرة ، فقد وجد بجانبها عدد من المدن التابعة لها مثل هيت والأبلة والأنبار . ومعظمها بقي إلى العهد الاسلامي.



الفصل الثاني

حضارة عرب الحجاز في الجاهلية

الحياة الاجتماعية :

لاحظ الباحثون أن الجزيرة العربية كانت طوال تاريخها ولا تزال حتى اليوم تحوي نوعين متقابلين من الحياة : حياة البدو الرحل في الوسط ، وحياة الزراع المستقرين في الاطراف . وهذه الظاهرة يجب أن نفتش عن تفسيرها في البيئة والظروف الجغرافية ، فالجزيرة العربية ليست صحراء مطلقة ولكنها في معظمها بيئة سهلية ، محدودة الثروة ، فقيرة الانبات تجف مناطقها واحدة بعد أخرى ، وتتخللها خاصة على الأطراف ، واحات تسمح بالزراعة والاستقرار ، وهكذا يضطر السكان إلى التدرج من حياة النقلة الدائمة ، تبعاً للجفاف الدوري ، إلى الاستقرار الدائم وبناء المدن في الواحات . وبعبارة أخرى هكذا يحدد الانتاج نوع الحياة ويتبدل شكل الحياة بتبدل شكل الانتاج . وكل البقاع التي تتفق مع الجزيرة العربية في

ظروفها الجغرافية كصحارى منغوليا وتركستان وإيران ... الخ تتفق معها في أنماط الحياة ، وفي تنظيم المجتمع وتتفق معها لحد كبير في التاريخ .

لإذن فقد وجد في الحجاز ونجد بدو وحضر . والبدو هم الكثرة الغالبة في نجد ، بينما غلب الحضر على القرى والواحات الغربية : في الحجاز .

ويقوم التنظيم الاجتماعي ، لدى البدو والحضر على السواء ، على القبيلة . وكل الشعوب في طورها البدوي مرت بهذا النظام فالأغريق الأوائل والرومان في بدء عهودهم والتتر والمغول جميعاً كانوا ينقسمون قبائل ، وعدم الارتباط بالأرض يورث الحرية التي ترفض كل سلطة . وللبداوة في الصحراء قوانين عامة لاتقل شأنها في وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة الصناعية في المدن ، ومعظم مظاهر التنظيم القبلي مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل أمة ، ثم تغادرها الأمة إلى المرحلة المدنية فينظم المجتمع إما على أساس الفرد الحر ، كما في اليونان ، أو العائلة كما فعل الرومان ، أو الملك - الآله كما كانت مصر القديمة ، أو جمهور المؤمنين كما صار إليه المجتمع الاسلامي .

ونحن نستعمل كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع البدوي غلب على الأقسام الأخرى ، فهناك ما هو أكبر منها وما هو أصغر وهي بالترتيب : الشعب (كعدنان) والقبيلة (كربيعة ومضر) والعمارة (كقريش) والبطن (كعبد مناف ومخزوم) والفخذ (كهاشم وأمية) والفصيل (كبنو طالب) .

تقوم الرابطة القبلية على الدم والنسب الواحد لا على العقيدة ولا المدينة والعصبية القبلية شديدة تظهر في أقوالهم : انصر « أخاك ظالماً أو مظلوماً » وقول الآخر :

لايسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا !

وتشبه قبيلة العرب القبيلة الكورسيكية في تنظيمها ، فرييس القبيلة أو

شيخها يصل إلى زعامته غالباً بالنسب أو بالغنى والشجاعة والرأي، وسلطته مطلقة إلا في أمور الحرب والقضاء، فينظر فيها بالاستراخ مع المجلس القبلي المؤلف من كبار القبيلة، إنما له على القبيلة حقوق الرئاسة وهي كما في قول الشاعر :

لك المرباع منا والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول^(١)

والعائلة في القبيلة يمثلها ربها، وهو في القبيلة جندي لا يملك سوى بيته من الشعر، مطلق السلطة له على أولاده حق الوأد وحرمان الارث والخلع (التبرؤ) والطلاق والزواج بمن شاء . أما الفتيان فلم تكن القبيلة تعترف برجولتهم إلا بعد حفلة تكريس ذات مراسيم كان يقوم بها الشيوخ في مجلسهم، فيقلدون الفتى السيف رمزاً لاضافة محارب للقبيلة ؛ وكذلك الفتيات كن يكرسن بالباسن دراعة بدل المؤصد . ولعل هذه الاحتفالات كانت ذات لون ديني إلا أن معالمها ضاعت .

ويتبع القبيلة طبقة الموالي ، فمن ليس له قبيلة تحميه يدخل القبيلة بالولاء ، كما يتبع العائلة العبيد ، وهم يأتون إما شراء أو امراً بالحرب أو لسداد دين . وهناك خارج نظام القبيلة أناس عرفهم العرب باسم الصعاليك أو الذؤبان أو الخلاء وهم من تخلت عنهم القبيلة أو تخاوا عنها . وفقدان عضوية القبيلة في الفيا في مصيبة لا يحتملها إلا الأشداء ، ولذلك كان لهؤلاء الصعاليك ذكر خاص في تاريخ الأدب العربي ، ومعظمهم كان من الشعراء ومن العدائين الذين يسبقون الخيل .

ولم يكن تنظيم الحضر ، سكان الواحات ، يختلف عن تنظيم الاعراب القبلي سوى أن الملكية عندهم موطدة ، بينها المرعى والماء والأرض عند البدو مشاعة للجميع .

(١) المرباع : ريع الفئيمة . الصفايا : ما يصطفيه الرئيس لنفسه . النشيطه : ما يصيبونه في الطريق قبل الغزو . الفضول : هو ما فضل من الفئيمة مما لا تصح قسمته .

وكان قمة عداء بين البدو والحضر قوامه اختلاف طراز الحياة ورفق المستوى العقلي في الحضر... إن صدى هذا الاختلاف يظهر في الآيات الكريمة . قال تعالى : « الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » (التوبة آية ٩٨) « قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . (الحجرات آية ١٤) .

وكان الحضر أغنى ، لغنى أرضهم ، بالحصب أو بالموقع ، فتأثرت زعامة القوى بالغنى لحد كبير وكثيراً ما ظلم الفقير فيها . وقد ظهرت في المناطق الحضرية محاولات لايجاد تنظيم اجتماعي وسياسي جديد كالذي جرى في مكة ويثرب ولدى قبائل بكر ، وكان ظهور الإسلام انقلاباً قفز بهذا التطور البطيء فواصله إلى غايته .

الاخلاق والعادات العربية :

الاخلاق العربية في مجموعها نتيجة مباشرة للوضع الاجتماعي والاقتصادي . وصدى لتلك البيئة القبلية الشحيحة الموارد ؛ ويرى المستشرق (جولد زهر) أن جماعها يمكن أن تشمل كلمة « المروءة » والفضائل العليا في كل مجتمع تنتج دوماً من الحاجات ، ويكون الخلق عادة كالضمان المعنوي والمؤيد لتلك الحاجة .

والعربي المثالي شجاع ، لأن القبيلة المهددة دوماً بالغزو محتاجة دوماً للحماية ، سريع النجدة حتى التهور لأن السير في الصحراء الفلاة غير مأمون وكلهم قد يسير فيها ، لاينام على ثأر لأنه إن نام ، نام الناس عن الثأر له فهي أفانية في شكل غيرية ... وهكذا فالكرم حتى الاسراف دليل الاعسار ، بل إن فقر البيئة هو الذي يظهر ميزة هذا الخلق ويدعو لوجوده والتمدح به ، والعصبية الشديدة مظهر دفاعي ضد تفكك القبيلة

وكذلك حماية الجار والوفاء بالعهد ... وكان أكثر ما تمدح به شعراء الجاهلية اغاثة المملوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، والانفة وإباء الضيم ، فالعرب لا تنكر شيئاً مثل انكارها للهوان والضم فهي السواة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل .

وهذه الأخلاق التي نخلها جميعاً من لوازم الطور البدوي نجدها لدى كل أمة في بدء نشأتها ، على أن ثمة أخلاقاً عريقة في النفس العربية ، أصيلة فيها ، هي التي تميز العربي ، كالحرية : التي يبالغ بها العربي حتى تدفعه للتمرد على الأرض وعلى الاستيطان . والفردية : التي لا تذوب إلا أمام الولاء القبلي وهذا الولاء نفسه ما هو إلا فردية اتسعت فشملت القبيلة كلها . والارستقراطية : فالعربي يملؤ بالاعتزاز بنفسه وبقومه شديد الانفة حتى ليقتل إذا شعر بطيف الاهانة ، والعدل : حتى كان يقوم هذا الخلق مقام القانون والمؤيدات في المجتمعات المنظمة .

والعادات العربية في معظمها تطبيقات للخلق العربي ولحاجات الوسط الاجتماعية والاقتصادية وأقوى العادات عندهم : الغزو ، وهو ناحية من نواحي اللهو القومي والحاجة المادية ؛ وليس ضرباً من اللصوصية وإن كان أشبهها . فالقتال في شريعة الصحراء سجية من سجايا الرجولة وهو من هذه الجهة ركن من أركان الحياة الاجتماعية ، ويقضي العرف ألا تسفك الدماء فيه إلا عند الضرورة الماسة . ثم إن الغزو يعمل على انقاص عدد النفوس التي يجب أن تُعال ، فهو من هذه الجهة ضرورة اقتصادية وإن لم يزد في مجموع ما في البلاد من الاقوات . والغزو هو القاعدة العامة والسلم هو الشاذ عندهم . وكانوا إذا أعوزهم النهب اغاروا على الجيران :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أنحانا !

وهذا المذهب في التحليل يفسر كل عادات العرب الاخرى ، فالمفاخرة بالانساب نوع من الارستقراطية وهو من مستلزمات حياة البداوة . والمعاقرة تطبيق للكرم وهو ان يتسابق اثنان أيها اكثر ذبحاً لإبله . والنضال تمرين على الحرب وهو المباراة برمي السهام والاصابة بها ولها أنواع ثلاثة : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة .

وهناك عدا هذا عادات اجتماعية أخرى لها مراسيمها الخاصة كالاستقسام بالأزلام عند هبل . وهي نوع من استشارة الغيب أو معرفة رأي الآلهة ، والزجر والعيافة وهي الاستدلال بطيران الطير أو بصوته على الحوادث . والطرق بالخصى لنفس الغرض . والفأل والطيرة وهي التفاؤل والتشاؤم بالطيور والاسماء والاعمال . النخ وجزر النواصي وهو أنهم كانوا إذا اطلقوا الشريف من الاسر جزوا ناصيته ليفخروا بها . وإذا اسروا شاعراً عدواً ربطوا لسانه بنسعة ، وإذا مرض الامير حملوه على الاعناق ، وإذا تنصبوا للثأر حرموا على انفسهم الخمر ... الخ .

وهناك آفات تشيع في المجتمع الجاهلي ، كالادمان على الخمر واستباحة النساء والقمار ، ولعل فيما يصف طرفة في معلقته من خصال الفتى الثلاث وهي : الخمر والقروسية والتمتع بالنساء ، ما يشير إلى الفخار ببعض الآفات الاجتماعية . فحديث الخمر في الجاهلية جرى على كل لسان ، واشتهر بالحديث عنها وعن كؤوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها اعشى قيس ، وعدي بن زيد العبادي الحيري . وعرض لها كثيرون في اشعارهم مفاخرين بانهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم . واكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى وكانوا يجلبونها من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة . ويقال ان باعة الخمر المتجولين بين القبائل كانوا يضربون خيامهم في بعض الاحياء او بعض القرى أو ببعض الخيمات عند المنتهجات ، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم ، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا القيان من يصاحبهم .

مكانة المرأة في الجاهلية :

كل حكم مطلق فيما يتعلق بمكانة المرأة الجاهلية يخطيء في الغالب ، ذلك لأن قيمة المرأة كانت تختلف باختلاف الزمن وباختلاف القبائل والحضر ، وباختلاف المكانة الاجتماعية . والشيء العام الاكيد هو أن عمل المرأة في البيت دوماً الاحتطاب وجمع الماء وخياطة الثياب ونسج الحباء . الخ ... فاذا كانت الحرب خرجت تشجع الرجال وتنقر على الدف وتضمد الجراح وتمنع من الفرار .

ونستطيع القول بجانب ذلك ان المرأة كانت تعطى المكان الثاني في المجتمع البدوي ، لأن القيم الاجتماعية عند الاعراب مبنية على أسس لا يمكن للمرأة ، بحكم عوامل كثيرة فيزيولوجية واجتماعية ، أن تحوزها ، ومتى كانت لإحدى النساء تتخطى قدرها ، وتمتاز بشيء مما يميز الرجال رفعت مكانتها ولم يضمن عليها الناس بالتقدير . وهكذا وجدت بين نساء العرب شاعرات وتاجرات وكاهنات ذوات شرف وسيادة ومكانة كما اشتهرت الغازيات في الحروب والتميزات ببيعة كزرقاء اليمامة مثلاً ... وكان من تقاليد الاشراف مثلاً ألا يزوجوا بناتهم إلا بعد مشورتهم ، ومنهن من كانت تشتوط حق الطلاق فلا تدافع . كما ان العربي كان ينتسب لأمه انتسابه لأبيه . ثم ألم يكن الشعراء يستفتحون قصائدهم بالنسب كأحب شيء إلى قلب البدوي ؟

غير ان الذي نذكره هنا هو حوادث فردية محدودة ويجب ألا تحجب عنا الواقع : فالمرأة كانت دون الرجل ولو أنها تمتعت بحرية واسعة لديه ، ويظهر ذلك في نواحي كثيرة نذكر منها ما صوره القرآن الكريم مثلاً قال تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى عن القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب

ألا ساء ما يحكمون . ونفهم مبلغ هذا الحزن لولادة الانثى إذا عرفنا ان المجتمع كان يتطلب قوى لحمايته والانتاج له ، والمرأة في حاجة للحماية وهي مستهلكة وتنتج مستهلكين !!

ونقف عند ظاهرة « الواد » فقد طالما ذكرت ، وندد الكتاب بها ، والحق أنها أول كل شيء لم تكن عامسة في العرب ، ولكن في بعض قبائلهم ، ولم تكن عامة في هذه القبائل ولكن لدى الفقراء فيها ، ثم لم يكن يلجأ الفقراء إلى الواد إلا في سني القحط والاملاق ... وأخيراً لم يكن جميع الفقراء يقومون به فهو ظاهرة محدودة تماماً نستطيع ان نعرف قلتها من فخر الفرزدق بأن جده افتدى قبل الاسلام مائة مؤودة ، فلو أهملنا مبالغة الفرزدق جانباً ، لرأينا أن هذا العدد بالنسبة لسكان الجزيرة العربية ضئيل ، عدا ان هذا الثري وامثاله كانوا يفقدون المؤودات ، فيخفقون بذلك من خطر تلك الظاهرة . ولم يكن الواد خوف العار ولكن « خشية إملاق » ولعله صورة من تنازع البقاء للتخفيف من النسل المتكاثر.

ولعله حل عملي للتخلص من عدد النساء الذين كن يزدن كثيراً عن الرجال بسبب الغزوات المتوالية والحروب الطوال التي تقلل اعداد الذكور ، اذ من الثابت ان عدد النساء في الجاهلية زاد دائماً على عدد الرجال اضعافاً مضاعفة ؛ فاذا اضفنا إلى ذلك مدرك العرض عند البدوي الجاهلي خاصة وقسوة الحياة الاقتصادية ، وضحت لنا المشكلة التي تعرضت لها الحياة الاجتماعية يومذاك . والحل المحتوم الذي قبلته الحياة الجاهلية هي ان يجعل الرجل الواحد في عصمته عدداً كبيراً من النساء ، حتى تظل الانساب معروفة في عمودها المخصوص من الرجال ، ولو قبل الجاهلي ان يترك النساء الزائدات على عدد الرجال يتصفحن وجوه الرجال لاختلطت الأنساب ، وفقد البدوي الجاهلي الفخر الاعظم في حياته الاجتماعية .

من اجل ذلك ساد تعدد الزوجات سيادة مطلقة ، ولم يحدد عرف او تقليد عدد الزوجات المطلق ، وتعددت اشكال الزواج فعندهم غير الزواج العادي بالصداق او العقد (وهو الشكل الذي اقرّ به الاسلام فيما بعد) زواج المتعة وهو زواج لأجل ، متى انقضى وقّع الفراق ، وزواج الشغار وهو تبادل الاخوات بين المتزوجين . وزواج الاستبضاع (وهو لا يختلف عن الزنا في شيء ، فكان إذا اعجب رجل بفارس او بطل شريف اذن لاحدى زوجاته ان تستبضع منه . وكان هذا نادراً جداً) وزواج الرهط دون العشرة بامرأة واحدة ، وزواج المقت (وهو ان يرث اولاد الرجل نساءه اذا مات ، على الا يتزوج احدهم أمه التي ولدته) وزواج الاسترقاق (بالشراء) ، وزواج السبي . . . الخ . . وهذا كله ان دل على شيء فعلى بقاء النسل في كل قبيلة صريحاً معروفاً . حتى الاتصال بالبغايا في الجاهلية كان كثيراً ما ينحو هذا المنحى . فمعاوية يلحق زياد بن سمية بنسب ابيه ويعتبره اخاه شرعاً . واذا كان اليعنيون يفتخرون بان حكمهم النساء ، فان بعض العرب غيرهم بان حكمهم امرأة .

وهذا كله إن دل على شيء فعلى أن مكانة المرأة لم تكن كبيرة الاحترام إلا في بعض الأحوال الخاصة .

الحياة الفكرية :

لم يكن عرب الجاهلية في جزيرتهم في عزلة عن العالم المعاصر لهم ، فإن الامارات التي على التخوم الشمالية والدول العربية القديمة ، والتجارات الرائجة الغادية بين بوادي العرب وواحاتهم ، من جهة ، وبين مناطق الحضارة الفارسية والبيزنطية من جهة أخرى ، ثم دخول كثير من اليهود والنصارى مع كتبهم السماوية وعقائدهم إلى بلاد العرب ، كل ذلك كان من شأنه أن

يخرج عرب الجزيرة من العزلة ويصل بين أفكارهم وبين العالم . وانا لنجد أثر حياتهم العقلية المتطورة واضحاً في القرآن الكريم الذي صورهم يجادلون ويخاصمون كأقوى ما يكون الجدل والخصام ، حول مسائل شائكة كالروح والقدر وصفات الله والمعجزات الخ ...

غير أن هذا الاتصال بالأمم الأخرى رغم كثرة وسائله كان ضيقاً بسبب تفاوت المستوى العقلي والاجتماعي بين عرب الصحراء وبين الروم والفرس ، والاقتباس أكثر ما يكون حين تتقارب مستويات الفكر ، ثم بسبب انتشار الامية بين الجاهليين ، هذا عدا ما يلحق النقل الشفهي للمعارف والأفكار من تشويه وتحويل واجتزاء ... وسنجد في بعض معارف عرب الجاهلية شيئاً من الاقتباس ، يقل ويكثر حسب نوع المعرفة وقابليتهم للاقتباس فيها . وسنرى أيضاً أن بجمال المعارف العربية الجاهلية لا يصح أن يسمى علوماً ، ولكنها معلومات تجريبية تحدد اتساعها وضيقها ، الحاجة والبيئة . وكذلك كانت هذه المعلومات شفوية تنقل بالمران ولم تعرف التدوين إلا في زمن متأخر بعد ظهور الإسلام .

الشعر :

ما استطاع عرب الشمال أن يبنوا حضارة مادية على الرمال قبلت حضارتهم في إتيان « اللفظ » الذي يحبونه . وهم يفوقون شعوب الأرض جميعاً باستحسانهم لهذا « السحر الحلال » الذي هو إحكام الألفاظ وجمال المنطق . ولذلك كان أعظم ما أثر عنهم هو توطيد اللغة العربية وقول الشعر . والشعر عند العرب — كما عند اليونان — أول الأنواع الفنية التي ظهرت . وهو بضاعة الأمم في البداوة . وشعر الجاهلية — كالشعر العربي كله —

غنائى . بمعنى أنه شخصي يمثل نفسية قائله ثم انه يعتمد على الموسيقى .
ولعله اشتق من ضلوعها ، فاعتمد عليها أول أمره فكان يغنى . وأخذ منها
أوزانه ، ثم تدرج في الانفصال عنها وبقي له منها إلى اليوم الإنشاد .

ثم إن الشعر الجاهلي - كالشعر العربي الإسلامي من بعده - يعتمد على
سحر اللفظ لا على الحداث الزمني كما في الشعر اليوناني والغربي ، فكل روائعه
صور تجمدت ، ولحظات فقدت الزمن فجأة فوقفت ، لا تتعلق بما قبلها
ولا ما بعدها ، وحكمة اقتطعت من الحياة وليس فيها ذلك النسيج الخفي
المتصل من الخيال الذي يربط الأجزاء ويدخل في الصورة عامل الزمن .
وأخيراً فالشعر الجاهلي قليل الابتكار والتنوع يصرح أصحابه أن ليس من
جديد يأتون به « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » .

وقد انصبت مواضيع الشعر الجاهلي على ما يشغل خاطر البدوي :
المرأة والناقة والحصان ، والفخر والمديح والهجاء والحكمة . وقد وصلنا
من هذا الشعر نماذج كثيرة لعل معظمها منحول ، حمل على أصحابه لما ضاعت
أقوالهم الأولى . وليس الانتحال مقصوراً على العرب ولكنه موجود لدى
الأمم جميعاً كالرومان واليونان .. وكان للانتحال أسباب كثيرة منها
السياسي ومنها الديني ومنها لتفسير القصص أو لهوى الرواة أو للشعبوية والدس !

وكان للشعر مقام كبير لدى العرب . كان يرفع ويضع ، ويشير
الحرب ويرأب الصدع . ولعل قصة المعلقات تفيدنا هنا ، فالرواة يزعمون
أن العرب تنخلت الشعر وانتقت منه سبع أو عشر قصائد كتبتها بلاء
الذهب على الرقاق وعلقتها بالكعبة تعظيماً لها . وهذه الأقصوصة إن لم تكن
تدل على شيء ، فإنه يبقى لنا منها فكرتها أي مبلغ تعظيم العرب للشعر .
وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أولت له واعتزت به اعترازها

بالمحاريين ، لأن دوره يشبه عن قرب دور الصحافة اليوم في نشر المفاخر ورد المثالب ومهاجمة الأعداء . وكانت سهولة حفظ الشعر وسيلة لروايته ونشره ، وقصائد الشعر كانت تعرض في الأسواق التجارية مع البضائع . ويروون ان قبة من آدم كانت تضرب للنابعة الذبياني في عكاظ ليحكم بين الشعراء الذين يقدمون لإنشاد قصائدهم عليه في الموسم . وهو تنظيم للسوق الأدبية لا ندرى مداه ولا من كان يقوم به ؟ ويشبه ما كان لدى اليونان من تنظيم لمسابقة المأساة التمثيلية .

وقديماً قيل « الشعر ديوان العرب » بمعنى انه مستودع أمرهم كله ، وباعتمادنا على ما وصلنا من شعر جاهلي ، نلاحظ ان اوزان الشعر التي صنفها الخليل بن احمد بخمسة عشر مجزاً ، تدل على عهد طويل من التكامل والرفق .

والقصائد الجاهلية في تركيبها وتبويبها تدل على وجود مدرسة طويلة العهد بالمران والتنظيم ، تبدأ ببكاء الاطلال ، ثم تنتقل الى وصف الناقة ، ثم الى غرض الشاعر من فخر او اعتذار او تشييب او مديح . . ومن هنا جاء اتهام شعراء الجاهلية بعدم التنوع وقلة الابتكار .

الامثال والحكم :

هي أصدق دلالة على المستوى العقلي من الشعر ، لانها صوت الشعب العادي ، لم يداخلها صنعة الشاعر ولا وزنه ولا قوافيه ونخته ، والصعوبة في فصل أمثال الجاهليين عن الامثال الاسلامية بعد ان جمعها الجامعون معاً في كتب واحدة دون تمييز . وان كان بعضها واضح الاصل بموضوعه ولغته وروحه .

ودراسة ما ثبت لدينا من امثال جاهلية تدل على اثار الجاهليين النظرة
الجزئية الموضوعية لا البحث الكلي الشامل .

ويلحق بالامثال ، ما عرف باسم الاحاجي والالغاز ، وهي نوع من
اللعب الفكري ، وما ورد من قصص على لسان الحيوان وهو كثير ،
ضرب للعبرة والعظة ، ويمكن أن نلحق أيضاً بالامثال العديد من الحكم
التي كثر اجتماعها في خطب الخطباء .

القصص :

وهو باب كبير من أبواب الأدب ، ووجه من وجوه العقل الجاهلي ،
والقصص الجاهلي متنوع الموضوع ، فهناك القصص عن ايام العرب ووقائعهم
الحربية ، وهناك احاديث الهوى ، وهناك قصص المسامرة حول نار القافلة
مساء ، وفيها المقتبس من قصص يونانية وفارسية .

الخطابة :

تتصل نشأة الخطابة عادة بنشأة النثر الفني ، وهذا النثر لا ينشأ إلا
متأخراً بسبب الحاجة فيه إلى الروية والفكر وإلى مستوى من الروية
والفكر لا يتفق للبديوي البدائي . ثم إن الخطابة بصورة خاصة لا تظهر
في الشعوب عفوياً كما تظهر باقي الفنون ، ولكنها ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى
نوع خاص من الحياة العامة المتطورة ، ويحتاج حفظ الخطب إلى دراية
بالكتابة ، وليست كالشعر يساعد وزنه وقافيته على استدكاره . ولا شك
ان الخطابة العربية قد تأخرت كثيراً في ظهورها عن الشعر . وقد وصلنا
من خطب العرب شيء يسير وهو على قلته ظاهر الانتحال في معظمه ،
كخطبة قس بن ساعدة الايادي ، وخطب الوفد الذي قيل ان النعمان
أوفده لكسرى . ونستخلص من هذه الخطب الخصائص التي كانت تميز
الخطابة العربية الجاهلية . فهم كانوا يسجعون على الغالب ، ويوجزوت

ليسهل الحفظ ، ويملأون خطبهم بالحكم والأمثال ، متلاحقة ، متتابعة ، في ذلاقة وإحكام . وأحياناً يمزجونها ببعض الشعر ، وبحال الخطابة واسع فكان العرب يخطبون في المفاخرة والمنافرة واصلاح ذات البين وفي الزواج وعند الرعظ . ومن عادات الخطباء أن يقفوا على نشز من الارض أو على راحلة وأن يستعينوا بالاشارات مع الكلام وقد يعتمدون على محصرة في السلم وعلى السيف في الحرب .

والخطيب لسان قومه يقدمونه للكلام ؛ ومن هنا نشأت مكانة الخطيب المهمة ، ولو أنها لم تكن تساوي مكانة الشاعر . ومن اشهر خطباء الجاهلية قصي بن كلاب جد الرسول العربي ، واكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الايادي ، ودريد بن زيد الحميري ، وزهير بن جناب ، والحارث بن عباد البكري ، وقيس بن مسعود الشيباني ، وهامر بن الطفيل ، وكعب بن لؤي ... الخ .

المعارف العربية : يمكن ان نجملها فيما يأتي :

علم النجوم :

وردت بعض معلومات العرب بهذا العلم في القرآآت الكريم وفي الاخبار . ومنها يتبين لنا انه تسربت إلى عرب الشمال في الجاهلية بعض معلومات العرب القدماء مثل الكلدان وبابل من الشمال ، واليمن من الجنوب ، وقد احتاج العرب إلى علم النجوم للسرى بالليل وللتنجيم . وعبدت لديهم بعض الافلاك . ونستنتج من الاسماء الكثيرة التي اعطوها للنجوم ان لعرب الشمال باعاً طويلاً فيها فهناك المجرة والفرقدان والدبران والعيوق والثريا وسهيل والسماكان والشعريان والزهرة ... الخ . بل ان أبا الحسين عبد الرحمن الصوفي (٩٨٦ م - ١٠٣٧ م) اثبت نحو ٥٢٠ اسماً لمختلف النجوم عند عرب الجاهلية .

وقد لوحظ على صور العرب الفلكية انها مغايرة لصور اليونان وانها تجعل السماء صورة من حياة البادية ، يؤلف فيها البدوي ، في السموات العلى ، قصة حياته من جديد . كما لوحظ على معلوماتهم الفلكية أنها عملية ولا تعتمد على المسامات العلمية والحساب ، وكانت تتناقل بالمران ولم يعن أحد بتدوينها أو التأليف فيها إلا فيما بعد الاسلام .

ولعل الكثير من هذا العلم إنما اقتبسه عرب الجزيرة من الكلدانيين من العرب القدماء وخاصة من الصابئة - عبدة الكواكب - يدل على ذلك تشابه اسماء البروج بين العربية والكلدانية ، أو لعل مردّ هذا التشابه هو اصل اللغتين الواحد ... فمن اسماء البروج مثلاً الثور والسرطان والجدي يقابلها في الكلدانية : ثورا - سرطان - كديا . واسماء الكواكب ، فالمرخ في العربية يقابله مرداخ في الكلدانية .. وفي كلام العرب واشعارهم كثير من اسماء الكواكب كالفرقدين والسماكين والشعرى والجوزاء والزهرة والعيوق .

علم الأنواء :

كانت لعرب الصحراء مخايل في السماء والجو يستظهرون منها اوقات الحصب والمحل ، ونتاج الحيوان ، والحر والبرد ، وتفصيل الازمنة ، وسقوط المطر وهبوب الريح ، وكانت حاجتهم لمثل هذه المعلومات ملحة فاكثروا منها .

الطب والبيطرة :

لا يكاد يستغني مجتمع عن الطب . والطب عند عرب الشمال في الجاهلية كان يقوم على مصدرين :

- ١ - التجربة العملية ، وكانت تتناقل بالتوارث والمران .
- ٢ - المعلومات العلمية ، وكان بعض عرب الجزيرة يسافر الى عواصم العالم

المتمدن آنذاك — فارس وبيزنطة — لتلقي الطب . ومن أولئك : الحارث ابن كلدة الثقفي الذي قدم اليمن كما ذهب الى جند يسابور في فارس وتعلم بها .

وكانت المعالجة مزيجاً من الرقي والعقاقير النباتية والحجامة والسكي والبتور والفصد . وإذا اتخذنا اللغة دليلاً مُخَيَّلَ إلينا أن العرب عرفوا معظم الأمراض ووصفوا أعراضها واستعملوا كثيراً من الآلات الجراحية وذلك لغنى معجمهم بالمفردات والأسماء الطبية .

ومن أشهر الأطباء بجانب الحارث بن كلدة ابنه النضر ، وهو ابن خالة الرسول العربي ، التقى بالعلماء وتلقى عنهم الحكمة والفلسفة والطب ، أسر في معركة بدر فقتل . ومنهم ابن حذيم من تميم الرباب ويروون أنه أظب من الحارث ، ومن الجراحين ابن أبي رومية التيمي .

واقترضت حياة البداوة والرحلة والتنقل إلى العناية بالخيول والجمال والسوائم بأنواعها ، ومداواتها ولمكثارتها واستخدام كل منها لما يصلح له ، من البان أو لحوم أو جردّ وحمل أو ركوب ، ومن أشهر بياطرة الجاهليين العاص بن وائل .

الأنساب :

والعلم بها ظاهرة تعرفها جميع الشعوب في الطور البدوي ، وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً « في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معنائهم » ويعلل ذلك بالعزلة الصحراوية التي يعيشونها .

عني العرب أي عناية بالأنساب وتفاخروا بها لأن مجتمعهم القبلي يقوم على رابطة الدم والرحم ، وكثيراً ما كانت الأنساب القديمة ترمم وتسد فراغاتها ، غير أن الأنساب الحديثة كانت تحفظ بتفاصيلها ، ويدعى

الناس لتعلمها ، ونجد صدى ذلك في قول عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم من أنت ؟ قال من قورية كذا ! »

قسم النسابون المجتمع الى مراتب ست على ترتيب بنية الانسان وهي ما علمناه من الشعب والقبيلة والعمارة ... الخ . وكانوا يحفظون بجانب الأسماء في النسب المفارخ والمخازي فكان علم النسب بمثابة تاريخ للقبائل العربية وأيامها .

واشتهر من علماء النسب دغفل بن حنظلة الدوسي الذي ضرب به المثل . فقيل : أنسب من دغفل . ومنهم ابن لسان الجرّة واسمه ورقاء الأسقر وعبد الله بن حصين من تيم اللات . والنخار بن أوس القضاعي . وزيد ابن الكيس النمري ، وصعصة بن صوحان وأبو بكر الصديق .

الفراسة والقيافة :

الفراسة هي الاستدلال بهيئة الشخص وكلامه وظاهر اعضائه على اخلاقه وصفاته . والقيافة هي تتبع الأثر أباً كان قدماً أم خفأً أم حافراً . ونعرف ضرورة هذا العلم القائم على التجربة والمران الطويل اذا عرفنا أن البدوي معرض للغزاة دوماً . وللتيه في الفلاة وللتقصير عن قومه . الشيخ وقد ذكر عن العرب في هذا الباب ما يكاد يعد من المستحيلات . قالوا إنهم كانوا يميزون بين قدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب ، والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير ، وربما نظر القائف أشخاصاً عديدة فألحق الابن بأبيه ، وميز الاجنبي عن الغريب . ولعلنا نذكر قصة أولاد نزار الذين وصفوا بغيراً ضائعاً لصاحبه دون أن يروه فاتهمهم باغتصابه !

واشتهر بالقيافة من العرب بنو مدليج من كنانة وبنو لهب من الأزد ولا يزال هذا العلم في البدو إلى اليوم .

ولدى عرب الجاهلية عدا هذه المعارف ، الريافة وهي معرفة مكان
الماء في الأرض . ولديهم أيضاً :

الكهانة والعرافة :

وكلاهما يعني التطلع للغيب ، وربما اختصت الكهانة بالمستقبل
والعرافة بالماضي . ويتمثل جزع البدوي من القدر في هذين العاملين اللذين
وجد مثلها في بابل ، ولعلها إرث من تلك الحضارة ، كما وجد شبهه بها لدى
الآغريق في معبد دلفي ، وعند المصريين في معبد سيوه ، وعرفنا شيئاً قريباً
منها لدى الرومان .

لقد كانت الكهانة العربية بكثير من الأساطير بحكم طبيعتها ويمكن أن
نبين مما يروى أن الكاهن كان مرجع القيلة في كل معضل : يستشيرونه
في الحوائج ويستنبئون المستقبل ويستفسرونه الرؤيا . وكان العراف خاصة
يكشف الخبآت ويعالج المرضى ، وتتصل العرافة من هنا بالطب . ويعمل
الأعراب هذه المعرفة الشاملة عند الكاهن والعراف بأن لهما أتباعاً من الجن
تسترق السمع إلى السماء وتحمل إليهما كل خبر . ولسؤال العراف والكاهن
وجوابها مراسيم معينة ، وكانت أجوبة الكهان تعطى سجعاً ، وقد حمل
عنهم من السجع شيء كثير . وكثرة ما وصلنا من أسماء الكهان دليل على
انتشار الكهانة على مقياس واسع لدى عرب الشمال والجنوب على السواء .
ومن مشاهير الكهان : سطيج بن مازن قيل إنه يدرج كما يدرج الثوب ،
لا عظم فيه إلا جمجمة رأسه . وشق بن صعب وكان شق رجل أي ذا
يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . . إلخ وطريقة الكهانة الحميرية
وزبراء من بني وئام وسلمى الهمدانية وضافر بن التوأم وسواد بن قارب .
ومن مشاهير العرافين : عراف اليمامة ، رباح بن عجلة ، وعراف نجد الأبلق
وفيها يقول الشاعر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إنهما شيفاني

العقائد الدينية قبل الاسلام :

عرف عن عرب ما قبل الإسلام أنهم وثنيون ، وعرفت وثنتهم وتقاليدها في القرآن الكريم « بالجاهلية » . وبالرغم من ذهاب معظم أخبارها ، فقد تسرب إلينا نتف كثيرة من أساطير الجاهليين ومعتقداتهم وأفكارهم ، وكلها تدل على أن الوثنية العربية ليست بسيطة التركيب ولا قريية المتناول ، فما وصلنا منها يدل على أنها في مرحلة راقية ، وأن كثيراً من قديمها قد بقي في متأخرها وأن بعض أحوالها صبغ بالأفكار اليهودية أو الصابئية أو المسيحية ، أو اتحد مع عقائد أجنبية . ومن الضروري أن نلجأ في تفهمها إلى تصنيف تاريخي يهد لبيان تطورها وتعقدها مع الزمن .

واستعراض الأساطير والعقائد العربية الجاهلية يدلنا على أن الوثنية العربية مرت في أطوار تشبه تلك التي مرت بها وثنيات الأمم الأخرى فإنها عرفت :

١) الطور الحيوي : وفيه اعتقد العرب أن في كل شيء حياة ، فعبدوا الشجر والحجر والجن ، واعتقدوا أن العنبر شجر الشياطين . وأن الصفا والمروة هما : رجل وامرأة فسقا في الحرم فسيخا حجرتين وأن الضب هو يهودي مسيخ فلا يؤكل لحمه .. وأن حجارة الحرم تحمل قدسيته فهم يحملون منها للعبادة في ديارهم .. الخ .

٢) الطور الطوتمي : وفيه تحصر الحياة والأرواح في أشياء محدودة ؛ ومن بقايا هذا الطور ما وجد عندهم من تسمية الإنسان بأسماء الحيوان ومن عبادة بعض البهائم ، كالجلل الأسود عند طيء ، والكبش الأبيض ؛ ومن التشاؤم بالغراب والبوم . ومن عبادة أصنام على شكل الحيوان كيغوث وهو على شكل نسر ، ويعوق وهو على شكل فرس . الخ .

٣) الطور الوثني وتعدد الآلهة : وفيه وصل العرب إلى تصور الإله

بأشكال إنسانية ، وتعددت الآلهة عندهم وتخصصت ومهدت للطور الوجداني الذي جاء به الإسلام .

وقد أدرك الإسلام العرب وهم في هذا الطور الوثني فلندرسه في وضعه الأخير :

يزعم الرواة أن عمرو بن لحي هو أول من نصب الأصنام في الكعبة : رأى جماعة في هيت يتعبدون فطلب منهم صنماً فأعطوه . كما يزعمون أن أبا كبشة هو أول من أتى بعبادة النجوم . وهما روايتان رمزيتان لا يستخلص منها إلا أن بعض الوثنية العربية قد دخلت إلى العرب من البلاد الأجنبية . وهي لاشك تسربت تسرباً مع التجارة والاختلاط والتقليد فأضيفت إلى الوثنية المحلية المتطورة . وإلى ما ترسب من أطوار العقيدة الأولى ووجدت جميعها معاً .

وقد عرف الجاهليون — الحضريون خاصة — حياة دينية عميقة يعكس لنا القرآن الكريم صورة واضحة لها في ذلك الخليط من المتدينين بكل دين الذين أحاطوا بالنبي يجادلونه وينافحونه ويدفعون عن آلهتهم ومعتقداتهم ضده . ولا شك أن الأعراب أقل تديناً من أهل القرى ، بعضهم يرمي الصنم بالازلام حين لا يوافق رغبته (كما رمى القيس) ، وبعضهم يأكل ربه « المصنوع من التمر » (كبني حنيفة) ، وثالث يضرب الإله — الوثن بالحجر لان إبله أجفلت منه ففرقت . ومع ذلك فكل من أهل القرى والأعراب كانوا يشتركون في تقاليد دينية واحدة يحجون ويعتصمون ويصومون وينشثون البيوت الدينية (كالهياكل) ويتوجهون إلى الأوثان بالرغائب . على اختلاف في مدى الاحترام لها . ويمكن أن نعد من العقائد العربية الخالصة في الجاهلية عبادة :

ذات أنواط : وهي شجرة قرب مكة يناط بها السلاح وينبجون عندها كل سنة ويعتكفون يوماً .

ذو الخلفة : وهو بيت في قرية ثروق قرب اليمن له سدنة وحجاب، ويحج إليه الناس ويطوفون وينحرون كما يفعلون عند الكعبة ، فيه صخرة بيضاء وشجرة هي الخلفة ، ويستقسمون عنده بالأزلام ، كما فعل امرؤ القيس .
سعد : وهو صخرة طويلة قرب الشاطيء ومثلها الحطيم وهي عدة صخرات قرب مكة .

الكعبة : وسأني على ذكرها بعد .

أما العقائد الدخيلة على العرب فهي أكثر عدداً وأوضح صفات ، ومنها :
هبل : وهو كبير الآلهة العربية الجاهلية ، كان تمثلاً لمن عقيق أحر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلت له يداً من ذهب ، ونصبته في الكعبة ؛ ويستقسمون عنده بأقداح سبعة . ويقارب أن يكون اسمه (هبل = البعل) ولعله يقابل (مردوخ) البابليين وبعل الكلدانيين . فاصله لاشك دخيل ، وبمقارنة وظائف هذه الآلهة مع ما روي عن هبل يتضح لنا أنه كان إله الحصب والرزق ، ومن ثم إله السعادة عند العرب وربما كان أيضاً إله الحرب

وكان في جوف الكعبة امام هبل ، سبعة أقداح مكتوب في احدها « صريح » والآخر « ملصق » فإذا شكوا في مولود اهدوا الى هبل هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهام) فان خرج صريح الحقوه بأبيه ، وان خرج ملصق دفعوه . كما كان فرع آخر منها مخصصاً للزواج ، ورابع للسفر ، وخامس للتجارة وهكذا .. فإذا اختصموا في امر أو ارادوا اما سفراً او عملاً أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه ... وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله .

اللات : وهي إلهة الشمس ، وقد عرفنا أنها عبدت لدى الأنباط ، أخذها العرب غالباً عن طريقهم وكانت تمثل عند النبط بصخرة مربعة

العزى : هي عشتار ، أوفينوس ، عبدها العرب القدماء في اليمن وبابل ولدى الأنباط والتدمريين ، وكان لها بيت وعليه سدنة وبه تمثال للعزى : امرأة ذات قناع ولعلها ترمز إلى إلهة الجمال والزواج .

وهناك أيضاً مناة : إله الموت (كما عند الأنباط) ، ثم (ود) إله العشق والحب .. النخ ، ويغوث : الذي كان يحارب مع عبده ، و (يعوق) و (نسر) و (سواع) ، كما كانت من آلهتهم رضا وتيم وشمس لتيم وذو الشرى وله معبد ضخم في سلع (بطرا) ، ويقابل الإله ديونيسوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وقد عبد العرب بجانب هذه الأصنام ، الأفلاك ولكن في عصر متأخر جداً . لأن عبادة الشمس والقمر والنجوم تحتاج إلى تجريد لم تستطعه العقلية العربية أول الأمر . ويظهر أن عبادتها كانت ترفق ببعض الطقوس فلها هياكل عليها السدنة ، ولها صلوات ثلاث في اليوم ، ولها صوم أيام معلومة من الشهر . يتبعها عيد ورقص وغناء ومعازف .. النخ . ويرى أن ملوك الحيرة كانوا يقدمون الضحايا البشرية من أسراهم للإله - الكوكب الزهرة (فينوس) أو (عشتار) - وإذا كانت عبادة الأفلاك خطوة نحو الرقي الديني ونحو التفكير بالإله فإننا نستطيع أن نتبين هذا التقدم الفكري في ناحية أخرى حين بدأ اسم « الله » الذي كان يعطي لكل صنم معبود ، ينفصل عن الصنم ويقوم بنفسه ، وأضحت الأوثان بعد ذلك واسطة للعبادة لا هدفاً لها . « وما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » . (القرآن الكريم) .

وسجلت العقلية العربية تقدماً آخر يشهد به القرآن أيضاً حين رد بعض العرب كل أمر لعل واحد هي (الدهر) « وما يهلكنا إلا الدهر » . ولا شك أن الحنيفية دين إبراهيم الخليل التي كثر أتباعها قبل ظهور الإسلام في مكة ، وجدت بتأثير التقدم العقلي من جهة ، والاتصال بالديانات الموحدة من جهة أخرى ، يدلنا على ذلك أشخاص معتنقها : ورقة بن نوفل . وعبد المطلب بن هاشم . واكثم بن صيفي . وقس بن ساعدة الأيادي وأمية ابن أبي الصلت . . الخ .

وأخيراً وجدت في جزيرة العرب أيضاً الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية :

اليهودية : وقد دخلت إلى الجزيرة من يهود فلسطين بدليل انتشارها في الحجاز على الطريق الشامي . ولا نعرف تاريخ دخولها ولعل يرجع إلى أيام الاضطهاد الروماني ، والساوق من قبله ، لليهود . ولانستطيع أيضاً أن نجزم بشأن يهود الجزيرة هل هم يهود الأصل أم هم عرب تهودوا ، ولعلمهم خليط من الاثنين . وقد نشر اليهود ثقافتهم وأفكارهم الدينية وصدى مجالاتهم الفلسفية بين العرب ، واشتهروا بمعرفة الأنبياء والإلهيات ، حتى سألهم العرب عن نبوة محمد بن عبد الله ﷺ . وأعظم مراكزهم كانت في يثرب وخيبر .

النصرانية : ولم تنتشر هذه الديانة كثيراً بالرغم من إحاطتها بالجزيرة العربية من الشمال ومن انتشار بيعها في الصحراء ، ومن محاولة الأبحاش في اليمن بثها ونشرها حتى بين عرب الحجاز ونجد ، زمن كنيسة « القليس » وحملة الفيل . ولعل سبب ذلك حداتها ، وقصور الأعراب عن تفهم الفلسفة التي أحيطت بها وعن قبول أعاجيبها . الخ بدليل أن أفكارها إنما وصلت إلى الطبقة المستنيرة من حضر العرب .

الحياة الاقتصادية :

فرضت البيئة نوع الاقتصاد الذي يعيش به البدو فالمواد الاولية هي لدى البدو ، المنتجات الحيوانية من الوبر والصوف والشعر ، والألبان ومشتقاتها واللحوم والجلود والشحوم والتمر . ثم لدى اهل القرى نجد منتجات الواحات من قمح وزراعات محدودة . والقبيلة كالواحة وحدة اقتصادية مغلقة فيها نجار وحداد وحلاق وبعض الصناعات البدائية من طب وبيطرة وإصلاح اسلحة ونسيج ...

ولما كان الفقر هو الصفة العامة وبغض المهن واحتقار الزراعة هما الفكرتان السائدتان لأن العمل والانتاج في العرف البدوي ليسا جديرين بالرجل الشريف ؛ نتج عن ذلك أن توجه العرب إلى :

١ - الغزو المتبادل : غزو قوافل التجار ومناطق الحضر والقبائل الاخرى .

٢ - استغلال موقع البلاد بالتجارة ما داموا لا يستفيدون منها في الانتاج.

أما الغزو فقد ذكرناه ؛ وأما التجارة فقد احتلت بالضرورة مكاناً محترماً لدى العرب فعملوا بها : وسطاء ، وناقلين للبضاعة أو تجاراً لحسابهم . وساعد انهيار اليمن والانباط وتدمير وقلة اهتمام الشام والعراق بالعمل التجاري على ارتفاع قيمة الواحات والقرى الحجازية الواقعة على الطريق بين اليمن والشام . وعادت الحياة لهذه الطريق القديمة ، عبر الجزيرة العربية بين الشرق والغرب . وبرز للعالم التجاري قبيلة وقرية حجازيتان ، أما القبيلة (فقريش) وأما القرية (فمكة) أم القرى .

وتجارة الجزيرة كانت قسمين : تجارة خارجية وتبادل داخلي .

استولت قريش على التجارة الخارجية في القرن السادس ونظمت رحلات

قوافلها ووطدت علاقاتها مع الامم المجاورة « بالإيلاف » ، وهي المعاهدات التجارية . وفتحت في مكة بيوتاً تجارية (وكالات) للروم والاحاييش وعرف العرب القروض بالفائدة وبالغوا في الربا واصبحت عقلية الكثيرين عقلية تجارية انعكست في تفكيرهم ولغتهم وأعمالهم ؛ نجد ذلك واضحاً تمام الوضوح في خطاب القرآن الكريم لهم كقوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله » « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . » رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . ونجد مثل ذلك في الأمثال العربية وفي « مبيعة » الخلفاء بالملك ، وفي كثرة ألفاظ السفر والبيع والتجارة في اللغة . الخ . .

وبلغ من تعلقهم بالتجارة أن رسول الله كان مرة يخطب لصلاة الجمعة فوصلت القافلة ، فترك المصلون الصلاة إليها فأنزلت الآية « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . . » ولعل بما يستلزم النظر ان الرسول العربي (ﷺ) والخلفاء الثلاثة الأول كانوا تجاراً وكذلك معظم الصحابة ، أما عروض التجارة فهي عروض تجارة اليمن القديمة مضافاً إليها التمر والزيت والأدم والبرود ، وكانوا يرجعون من الشام والحيرة بالزيت والخمور التي عم شربها والنسائج الحريرية ... الخ . وقد اختص اليهود بالربا والمعاملات المالية وباستيراد البلخ والشعير والقمح في شمال الحجاز .

أما التبادل الداخلي في الجزيرة فكان يتم في :

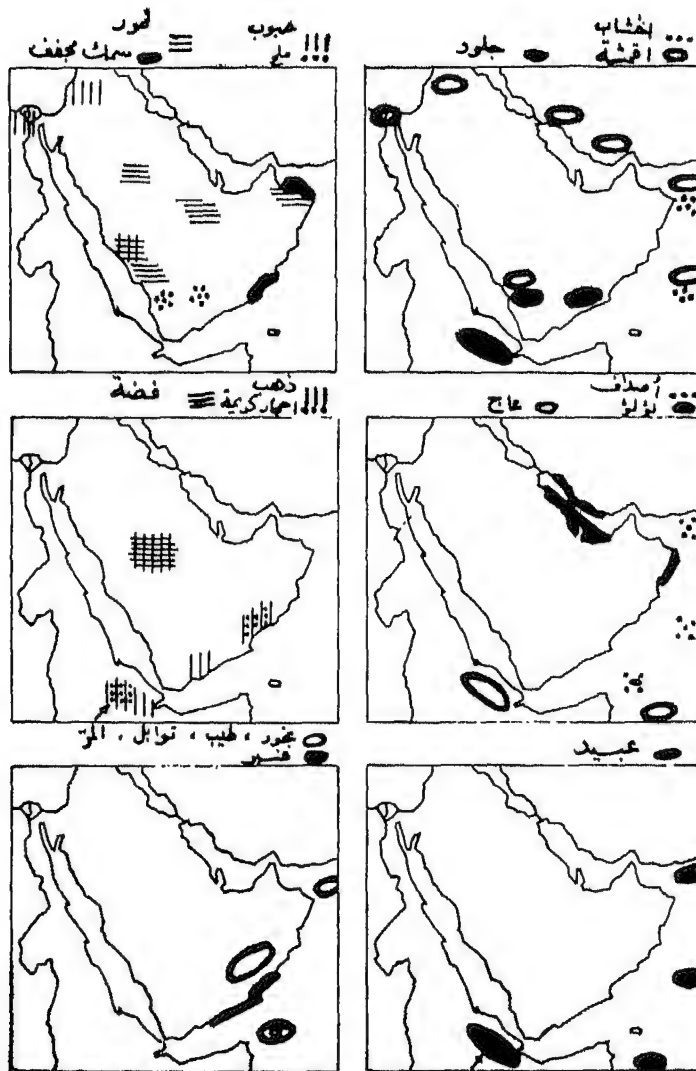
أسواق العرب :

وهي أماكن معينة يلتقي الناس بها في مواعيد معينة لتبادل عروض التجارة ، ولا تهمنا منها الأسواق المحلية بين قريتين أو قبيلتين ، ولكن تهمنا

منها الأسواق العامة التي تتجاوز التجارة إلى كثير من الشؤون الاجتماعية الأخرى . وكانت الأسواق القريبة من السواحل أو الطرق أهم من الأسواق الداخلية ، لأن هذه مقصورة على قبائل العرب وتلك أكثر تنوعاً في الرواد وفي السلع .

كانت هذه الأسواق حولية أي دورية من الحول إلى الحول ؛ ينتقل العرب والتجار من إحداها إلى الأخرى فلا يحول الحول حتى يعودوا إلى السوق الأولى وهكذا .. وتحمي الأسواق من عبث الفاتكين والغزو بطرق شتى ، فأما ما كان في مناطق النفوذ الفارسي كسوق الحيرة والبحرين وعمان والمشرق فيحميه عامل الفرس وتغلب عليه الصبغة الفارسية . وما كان منها في نفوذ الروم كسوق بصرى وأذرع (درعا) وأبله (العقبة) وغزة فيحميه الروم ويغلب عليه التنظيم الروماني . وما كان في جزيرة العرب فإما أن يحميه الأمير القريب من السوق كأمير دومة الجندل في في السوق التي تقوم في بلده وأمير اليمامة في سوق حجر .. الخ . وإما أن تحميها الأرض الحرم والاشهر الحرم أي أن تقام في أرض حرم العرب بها على أنفسهم سفك الدم (حول الكعبة مثلاً) أو في أشهر اتفق على إلقاء السلاح فيها كشهر ذي القعدة وذو الحجة والحرم ورجب الاصح .

وهذه الهدنة المقدسة أوجدتها لدى العرب ضرورات اقتصادية واجتماعية فالتحمت مع المعتقدات الدينية . ويتناول حماة الاسواق في العادة « مكساً أو عسراً » من التجار مقابل الحماية والاذن بالتجارة ، إلا لأسواق الاشهر والبقاع الحرم . وهذا النظام كله شبيه بما كان في أوروبا في القرون الوسطى إذ كانت أسواق التجارة تعقد حول قصر السيد الاقطاعي فيجمع من أهلها إناوة معينة ؛ أو حول الكنائس التي تعتبر منطقة حراماً لا يقربها



شكل - ٩٤ -

جزيرة العرب والمواد الاساسية لتجارة عرب الجاهلية ومناطق تواجدها

أحد بالأذى . كما كان رجال الدين يعلنون الهدنة الإلهية في أيام من الأسبوع والسنة معينة ، فيحرم القتال وتسلك البضائع طريقها آمنة .

وكان للعرب أنواع مختلفة من البيع كالرمي بالحصى (يأخذ المشتري ما يصيبه بالحصى ببلغ معين) والملاسة (البيع دون النظر) والمعاومة (بيع نتائج عدة أعوام سلفاً) وحبل الحبل (بيع ابن الجنين الذي في بطن الناقة) والمزانة والسرار .. الخ .

ولكن سوق نوع من البيع فسوق دومة الجندل بيعها بالحصى وبيع سوق المشقر بالملاسة والإيما والمهمة . . الخ .

وما كان اجتماع العرب في كثير من هذه الأسواق للبيع والشراء فقط بل كانت تقضى فيها كثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية . وكما كبوت السوق وزاد روادها زادت أهميتها واتسعت أغراضها فيجري فيها الفداء والأسر ودفع الديات والقضاء بين القبائل وطلب الزواج وجمع الإناث كما يعرض فيها نتائج القرائع من شعر وخطب وتجري فيها الدعوات الدينية المختلفة كما كان يفعل قس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت ثم محمد عليه السلام .

اهم اسواق العرب في الجاهلية عشرون :

كانت سوق دومة الجندل أول سوق تقوم في العام (أول ربيع الأول حتى منتصفه) ثم ينتقل إلى هجر (أول ربيع الآخر) ومنها إلى المشقر (أول جمادى الأولى حتى سلخه) ثم إلى سوق عمان (التي تنتهي بنهاية جمادى الاولى) ومن بعدها إلى سوق حباشة (الأيام الثلاثة الأولى من رجب) ومنها إلى سوق صغار (من عاشر رجب حتى الخامس عشر منه) فسوق دبا بجانبها (آخر يوم من رجب) ثم يتوجهون إلى سوق الشحر (في

النصف من شعبان) فإلى سوق عدن (العشر الأول من رمضان) يليها سوق أخرى في الحجاز (من نصف رمضان لآخره) فإذا كان أول ذي القعدة بدأت سوق عكاظ التي تنتهي في منتصف الشهر (وتقوم في نفس الوقت سوق حضرموت وتستمر حتى آخر الشهر) فإذا كان العشر الأخير من ذي القعدة اجتمع الناس في سوق بجنة ثم ينفذون منها إلى سوق ذي الحجاز (الأيام الثمانية الأولى من ذي الحجة) ثم يخرجون ويخرجون إلى سوق خيبر بعد الحج ثم ينتهون إلى سوق حبير (بين عاشر المحرم ونهايته) ومنها يصعدون شمالاً حتى سوق دير أيوب (وهي قرية شيخ سعد اليوم بحوران) وبعدها بسبعين يوماً يقيمون سوق بصرى ثم سوق أذراعت (درعا) وقد يقصدون سوق الحيرة بالعراق حتى إذا أهل ربيع الأول كان الحول قد حال فيعودون إلى دومة الجندل ...

عكاظ . هي نخيل في واد بين مكة والطائف في أرض الحرم .. وكانت سوق عكاظ أهم أسواق العرب على الإطلاق ونحسبها المرء مدينة من الحيام تقوم مع هلال ذي القعدة وتنفض متى أضحي بدرأ إلى قابل. وهي أحفل الأسواق بالناس يؤمها العرب من كل فج كجا يؤمها غيرهم . ويحفظ الناس لهذه السوق حرمتها المزدوجة . (في المكان والزمان) فإذا قاتلوا فيها - وقد فعلوا مرات معدودة - سموا حروبهم تلك « بحروب القجار » وأهم ما في هذه السوق أنها كانت سوقاً أدبية وسياسية بجانب كونها سوقاً تجارية ، وكل ما ذكرناه من أعمال العرب بالأسواق كان يتمثل بها ، أولاً يجري الكثير منه إلا فيها .. ففيها المنافرة والمفاخرة والبغاء وحانات الخمر وإقامة الأنصاب للغادرين والأوفياء والمعظمة في المصائب وجمع الإناءات والأحلاف السياسية ، هذا عدا مجامع الشعر والوعظ والدعوة الدينية

بقي كثير من أسواق العرب بعد ظهور الإسلام قائماً مدة طويلة .
وعمرت سوق عكاظ أكثر من قرنين ونصف القرن (بدأت قبل الهجرة
ببضعين سنة واستمرت في الإسلام حتى سنة ١٢٩ هـ) وكانت سوقاً
حباشة التي انفضت سنة ١٩٧ هـ آخر الأسواق العربية اندثاراً .

ولانغالي إذا قلنا أنه كان لهذه الأسواق أثر كبير جداً في ظهور
العصبة العربية بين الجاهليين وفي توحيد عاداتهم ولغتهم ودفعهم في تيار الحضارة
وتبيان حاجتهم إلى الانقاذ والوحدة السياسية .
المدن : أهم حواضر الحجاز هي :

مكة :

اختلف الناس في اشتقاق هذا الاسم والأرجح أنه اسم بابلي أصله
بكاء = بيت وإذا تذكرنا الآية الكريمة « ولما يبنى إبراهيم القواعد من
البيت وإسماعيل » رجع بناء مكة إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد
ورجع اسمها أيضاً إلى الاسم الذي أعطاه لها إبراهيم وابنه . ولا ننسى
أنها من بين النهرين .

أقيمت قرية مكة حول البيت الذي هو معبد للعبادة « بواد غير
ذي زرع قرب ماء أجاج (بئر زمزم) . وفاريجها الأول غامض ، ولعلها
سلخت مئات من السنين في النسيان . سكنها خلالها — حسب رأي الرواة —
العمالة أول الساكنين . أتراهم يقصدون بالعمالة قوم إسماعيل ؟ الذي نعلمه
أن إسماعيل قد تزوج من (جرم) وهذه القبيلة البانية ما لبثت أن سادت
مكة دون العمالة ودامت ولايتها حتى سنة ٢٠٧ م إذ غلب على البلدة
قبيلة (خزاعة) وهم يانيون أيضاً يقودهم عمرو بن لحي (أول من أدخل
الأصنام إلى العرب ؟) فلما كانت سنة ٤٤٠ م استطاع قصي بن كلاب
أن يغلب على مكة فيدخل إليها قسماً من قومه : (قريش) ، قريش

البطاح (الأطراف) ، لا قریش الظواهر (الضواحي) ، ويتندى بقصي تاريخ جديد ليس لقریش ولكن لمكة كلها ، فهذا الفكر المنظم المبسّع الذي يمكن أن يقارن لحد ما بصولون اليوناني أو بكبار رؤساء جمهورية البندقية . قطع البلدة أرباعاً وأنزل كل بطن من قریش في ربع . واستطاع بالمصاهرة أو بالغلبة أن يستلم مفاتيح الكعبة من آخر خزاعي يملكها . وقيل أنه اشتراها بزق خمر !! . ثم نظم أمور مكة على شكل مبتكر جمهوري - قبلي أو أوليغاركيه أسرية يمكن أن تشبه بجمهورية البندقية وقرطاجة لسيطرة المالين من أرباب التجارة ورؤوس الأموال عليها .

أقام إزاء هيكل الكعبة داراً سميت دار الندوة جعل بابها إلى الهيكل ويجتمع فيها شيوخ قریش وأشرافها وهي أشبه بمجلس الشيوخ في النظم اليونانية والرومانية الأولى . ويشترط في عضو الندوة شرف المولد وبلوغ الأربعين ، وقد تولى قصي رئاستها ، ثم قن باقي السلطات في المدينة وضمها إليه فكان له :

- ١ - اللواء : وهي سلطة الحرب فلا تعقد راية إلا بيده .
- ٢ - الحجابة : وهي حجابة البيت الحرام أي السلطة الدينية .
- ٣ - الحكومة : وهي السلطة القضائية وكان يشترك فيها مع الندوة ولعلها منحت لبني سهم .

ووزعت بعض الوظائف الثانوية على الأمر الأخرى فكان لبني أسد المشورة ، ولبني تم الأشناق (الديات) ، ولبني عدي السفارة ، ولبني جمع الأزلام .. الخ

ولا يفترق قصي في وضعه هذا عن (الملك) في الملكية الرومانية الأولى . إلا بأنه لا يحمل لقب الملك . والمؤرخون المسلمون منحوه فيها

بعد هذا اللقب رمزاً لهذه السلطة الواسعة . وقد دعم قضي هذه السلطة بأن أوجد عملين يؤيدان مكانة الكعبة ونفوذ مكة الديني والاقتصادي وهما : السقاية والرفادة ، أي سقاية الحبيص وإطعامه . وفرض لذلك ما يشبه الضريبة على أهل مكة ، وقد أورث هذه السلطات جميعاً لابنه البكر عبد الدار . غير أن بني عبد مناف ، ابنه الثاني ، نازعوا ، فيما بعد ، أولاد عمهم عبد الدار ذلك كله . ثم اتفقت قريش على أن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف وزعيمهم إذ ذاك (هاشم) . وتبقى الحجابة واللواء لبني عبد الدار . أما الحكومة فقد اختص بها بنو سهم .

لم يتغير نظام مكة بعد ذلك ولكنها تعرضت لخطر داهم في زمن سيادة عبد المطلب بن هاشم هي محاولة الأحباش تحطيم الكعبة سنة ٥٧٠ م وهم أصحاب « الفيل » ، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .

وترجع أهمية مكة في القرون التي سبقت الإسلام إلى أمرين :

١ - مركزها التجاري وقد عززته قريش بكل قوتها : نظمت القوافل ، فكان لها رحلتان : رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، عدا الرحلات إلى الحيرة . وتزيدت في الدين ، وبالغت في نشر قداسة البيت الحرام لحماية نفسها وحماية تجارتها في الصحراء من غزو الفتاك . وربطت علائقها مع الأمم المجاورة « بإيلاف » أي باتفاقات أو بأذون تجارية : عقد هاشم بن مناف أحدها مع أمراء الغساسنة والرومان فأذن له ولقومه بالتجارة مع الولاية العربية في بصرى ومع ولاية فلسطين في غزة ، وعقد عبد شمس أخوه إذناً آخر مع ملوك الحبشة بأكسوم ، ونال مثل هذا الإذن أخواه نوفل والمطلب من الحميريين في اليمن ، ومن فارس والمناذرة في العراق . ونشأت في مكة بيوت تجارية (وكالات) للحبشة وللرومان لها نتيجة لهذه الاتفاقات .

وبلغ من تغلغل التجارة في قریش أن قيل « من لم يكن من قریش
تاجراً فليس بشيء » .

وقد هباً لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر تجارتها ،
وكانت قریش تأخذ إتاوة تسمى « الحریم » إذا نزل تجاراً من غير مكة
في بلادهم ، سواء كانوا عرباً أو أجنباً إذ ثبت أنه كان ينزلها ييزنطيون
وفرس للتجارة يدل على ذلك تواجد الصحابين الجليلين صهيب الرومي وسلمان
الفارسي في الحجاز ، واشتهرت عدة بيوت مكية بالثراء مثل بيت الأمويين
والخزرميين وعبد الله بن جدعان حتى أن بعض العرب كانت ترى سادة
قریش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى . وكان
الشعراء يقصصونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال وقد جاء في تاريخ
اليقوي أن عبد المطلب جد الرسول عليه السلام دفن في حطتين قيمتهما
الف مثقال من الذهب

وذاع الربا الفاحش فبلغ من ٤٠٪ إلى ١٠٠٪ وكثر الفقراء لتفاوت
الثروات ، وانتشرت طبقة المدينين ، وكانت سداد الدين المستحق من القسوة
بحيث عيس الأعراض أحياناً ، وعيس الحرية الشخصية
وقد أثرت التجارة على بعض القرشيين فتعلموا القراءة والكتابة من
الحيرة كما تعلموا المفاصد الاجتماعية ، فكل كهراء قریش كانوا مثلاً ،
شربون الخمر ! وبعضهم يلعب الميسر .

٢- مركزها الديني ووجود الكعبة فيها :

الكعبة : هي بناء مربع رفع قواعده على ما علمنا إبراهيم وابنه اسماعيل
(عليهما السلام) وفي ركن منها الحجر الأسود ، ويظن أنه قطعة من نيزك
سقطت من السماء ، وقد تهدمت الكعبة وأعيد انشاؤها مرات - على ما يظهر -

وكان آخر تهم أصابها ، قبل الاسلام في أوائل القرن السابع ، فالتمس القرشيون بعض الروم المسافرين في البحر الأحمر فأعادوا بناءها ورفع محمد ابن عبد الله ﷺ (قبل البعثة) بيده حجرها الأسود إلى مكانه ، بعد أن اختلفت القبائل على شرف رفعه . وكانت الكعبة تكسى - كما هي حالها حتى اليوم - بكبسي شتى من الحبروات والبرود وعصب اليمن والأنماط . ويجعل ما بقي من الكساء المهدى لها في خزانة بداخلها فإذا بلى شيء مما عليها أخلف عليها ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شيء .

وكانت القبائل تشترك في ثمن الكسوة عدا ما يهدى لها من الطيب والمجامر . وتعظيم الكعبة كانت عاماً في العرب أشار إليه مؤرخ يوناني من القرن الأول للميلاد هو (تيودور الصقلي) . وقد عظم العرب الأرض التي تقع بها الكعبة فسموها الحرم وكانوا يرفعون حرمتها أكثر من رعايتهم للأشهر الحرم بدليل أنهم انتهكوا حرمة هذه الأشهر فحاربوا أثناءها وتلاعبوا بها فكانوا ينسئونها (يؤجرونها) ، ولم يجترئ أحد على حرم الكعبة . وكان المنصرف من الحج يحمل معه حجراً من منطقته يتعبد به . وإذا خاف أحدهم من فتاك الطريق جعل في عنقه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يعرض له أحد بسوء . وقد حاول الأحباش صرف الناس عنها إلى المسيحية فبنوا كاتدرائية « القليس » في اليمن وزينوها بأروع التماثيل والزخارف فلم يفلحوا في ذلك فقدموا بجملة الفيل لهدمها ففشلوا أيضاً بما عزز مركزها تمام التعزيز .

دخلت الأوثان إلى هيكل الكعبة زمن خزاعة على ما يظهر وما زالت تكثر وتزيد القبائل فيها حتى حطم فيها رسول الله ﷺ عام فتح مكة (سنة ١٠ هـ) (٣٦٠) صنماً متعددة الأشكال والحجوم والمادة . وأكبرها صنم قريش العقيقي (هبل) وقد كانت جدران الكعبة مزينة

بالرسوم الوثنية ، ولعل الذين رسموها هم أولئك البناؤون الروم ، ففي إذن
صور من الوثنيات اليونانية ؛ وقد أمر الرسول ﷺ علياً بن أبي طالب
بمحوها ، عام الفتح فمحاها .

وكان للعبادة في الكعبة مراسيم معينة : يحج الناس إليها في التاسع
من ذي الحجة فيحرمون ويطوفون ويلبون ويرمون الحجارة ويتمسحون
بالأنصاب والأوثان والأصنام التي فيها ويهدون مامهم مهدون ، ثم ينصرفون .
وكان أهل الحرم يؤمّون الناس في المناسك ، وسدانة البيت عندهم وراثية
في آل (عبد الدار) وهم يشبهون الأسر الدينية التي كانت بيدها تنظيم
الأعياد الدينية لدى اليونان .

يثرب :

تختلف عن مكة في أنها واحة كبيرة ذات بساتين فيها الفواكه والنخيل
والوان الثمرات . تقوم بين ثلاث حرار (الحرة الاحجار السوداء المتجمعة)
ويجري إليها ماء (بطحان) كما يجري إلى غربها وادي العقيق .

وتاريخها كتاريخ مكة غامض المطلع ، وسكانها الأوائل لانعرف عنهم
إلا أنهم يمانيون أي بعكس سكان مكة العدنانيين ، فإذا تذكرنا النزاع العدناني
والقحطاني وأضفنا إليه ارتفاع نجم مكة وغناها بالتجارة وليس ليثرب شيء
من ذلك ، وكلتاهما محطة قوافل ، عرفنا أن هناك منافسة كبيرة وعداء
يختلف بين الهدوء والصخب كان يقوم بين حاضرتي الحجاز .

وقد قدم اليهود إلى يثرب ، في زمن نجهله ، والأرجح أنه كان في
أيام الاضطهادات الآشورية ثم السلووية والرومانية . ثم دخل يثرب قبيلتان
عربيتان من الأزدي هما الأوس والخزرج .

ويظهر أنهم أخرجوا اليهود إلى الحرة الشرقية ، حرة واقم ، حيث
تجمعت قبائلهم بعضها بجانب بعض ؛ بنو قريظة وبنو ظفر وبنو هذيل
وبنو النضر وبنو قينقاع وبنو عبد الأشهل وبنو حارثة .. الخ

وظل الأوس والخزرج في السيطرة على الواحة حتى مطلع القرن
السابع للميلاد إذ اختلفوا فكانت بينهم حروب تهادنوا بعدها واتفقوا ؛
وكاد يتم في يثرب تنظيم دولة يرأسها ملك ، هو عبد الله بن أبي . لكن
هجرة النبي ﷺ إلى المدينة غيرت مصيرها

وقبيل هذه الهجرة كان قد ظهر في يثرب رجل من حكمائها اسمه أبو عامر
الراهب تأثر باليهودية كما تأثر بالمسيحية في الشام ورجع يدعو إلى دين ألفه
فلما فشل بعد الهجرة الإسلامية ، فر إلى الشام ومات فيها .

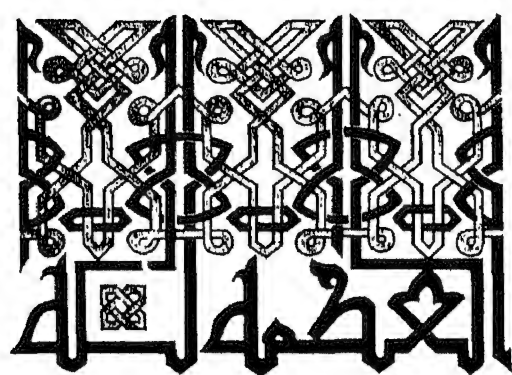
وهاتان المحاولتان محاولة الدولة والدين ، تدلان على أنه كان في يثرب
حركة فكرية وسياسية تحاول أن تتبلور وتأخذ شكلاً منظماً وجدته فيما بعد بالإسلام .

الطائف :

هي مصطاف أهل مكة وتقع في شرقها الجنوبي ، بلد النخيل والأعناب
والمناخ الحسن . تقوم من دونها الحدائق والبساتين ويظف بها سور لا تجد
له شبيهاً في مكة ولا في يثرب ، ولعل سكانها وهم قبيلة بني ثقيف قد
اقتبسوا فكرته عن اليمن .

وكان لبعض سراة المكيين أرباض وبساتين في الطائف لكن معظم
الأرض لثقيف التي اشتهرت بالغنى . ويظهر من مجموعة أخبار البلدة أنها
عرفت تقدماً حضارياً حسناً فكان أهلها يعلمون العرب الكتابة . واشتهرت
فيها بعض الصناعات كالديباغة . كما أنها كانت ذات زراعة متقدمة ، وتجارة
متصلة ، وشهرة بالربا ، والمعاملات المالية . وقد عرفت من آلات الحرب
الجانيق والدبابه فاستعملتها في حربها ضد الرسول العربي (ﷺ) حين
حاصرها بعد فتح مكة .

الباب الثاني
حضارة العرب لمسلمين





الفصل الأول

أنظمة الحكم في الاسلام

الجاهلية والاسلام : تعتبر البعثة النبوية الحد الفاصل في تاريخ العرب من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية ... ويسمى العهد الذي سبق البعثة بالعصر الجاهلي ، كما ذكرنا ، والذي تلاه بالعصر الاسلامي . وليست كلمة الجاهلية مأخوذة من الجهل بمعناه المعروف وهو ضد العلم ، وإنما المقصود منها جهل العرب السبيل الحقيقي لمعرفة الله وعبادته ، واتصافهم بكثير من العادات التي يجب أن لا توجد في مجتمع راقٍ متمدن ، وقد أبطلها الاسلام بتعاليمه ، كالفسق والأففة والغضب والحمية ، والمفاخرة بالنسب لا بالعمل الطيب ، وقد أطلقت كلمة الجاهلية على جميع ما يمت بصلة إلى الفترة التي سبقت العهد الاسلامي .

وكلمة الاسلام جاءت من السلم وهي تؤدي معنى السلام والأمن والمسالمة وعدم الخصام ، ثم أدت إلى معنى الخضوع والانقياد لأوامر الله ورسوله ، وأطلقت أخيراً كلمة مسلم ، على كل من اتبع ديانة محمد عليه السلام ، وأصبحت كلمة اسلام تدل مع الزمن على معانٍ ثلاثة هي

دين - دولة - ثقافة : إذ يقصد بالاسلام الدين الاسلامي بجميع تعاليمه وعقائده ، ويقصد به الدولة الاسلامية التي أنشأها العرب بعد إيمانهم بالدين الجديد ، إذ بقي كثير من سكان البلاد التي فتحت في الشام والعراقين ومصر على دينه الأصلي ، مع خضوعه للدولة العربية الجديدة التي اتخذت الاسلام دينها الرسمي ، وكثير منهم دخل الدين الاسلامي لغاية سياسية بحتة وهي تخلصه من دفع الجزية التي تفرض على الذميين ، ولتقرب من الطبقة العربية الحاكمة . كما يقصد بكلمة اسلام ، الثقافة الاسلامية التي تطورت مع الزمن وأصبحت تمثل مزاجاً من ثقافات الأمم القديمة كالفرس واليونان والهند والبربر والاراميين ، فقد أحييت الثقافة الاسلامية بحق ثقافات الشرق الأدنى المندثرة وخلقت من تمازجها ثقافة جديدة ، ساهم بها العرب والعجم على السواء ، وكان انتصار العرب فيها من ناحيتي اللغة والدين ، وانتصار العجم فيها من النواحي العلمية والفنية التي اتخذت الطابع العربي - الاسلامي .

والواقع كان الاسلام عامل وحدة عربية بين العرب في الجزيرة والاطراف ، وعامل وحدة روحية بين اتباعه على اختلاف الوانهم ولغاتهم وتباعد ديارهم ، وعامل وحدة قومية لجميع الذين اصبحوا يتكلمون العربية مسلمهم ومسيحيهم ، فبفضل القرآن حفظت اللغة العربية الفصحى ، وبفضل القرآن والحديث نشأت علوم دينية ولغوية وأدبية ونتاج فكري عام ، وصار الاسلام فيما بعد ، منذ بعث محمد ، حتى اليوم ، لا ينفصل عن الثقافة العربية ، وطارت الحضارة العربية ، حضارة الاسلام ، سواء ساهم فيها المسلمون أو غير المسلمين ، عرب أو عجم ، واصبح الاسلام ينظر للمسلمين عقيدة وشريعة وحضارة ومثلاً عالية ، وينظر العرب للمسلمين والمسيحيين معا ثقافة وحضارة وتراثاً روحياً وإمجاداً مشتركة^(١) .

(١) نكتفي هنا أن نورد قولاً واحداً لكاتب مسلم ، وأقول بعض كتاب النصراني في القومية العربية أو في الحضارة العربية يؤيدون هذا الرأي :

تعاليم الاسلام : تقسم تعاليم الاسلام إلى قسمين : عقائد وأعمال :

العقائد : ويقصد بها الإيماء القلبي ومنها قوله تعالى : « آمن

قال طه حسين في مؤتمر الادباء الثالث عام ١٩٥٨ م : « اذا أردنا أن نعرف متى تكونت القومية العربية ، فينبغي أن نردها الى ظهور الاسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها - الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا - انما هو النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق ، حتى كانت الهجرة ، وحتى أسست اولى مدينة اسلامية ، أو بعبارة أدق ، اولى مدينة عربية منظمة عرفها التاريخ ، تكونت فيها النواة الاسلامية للقومية العربية ، وهي مدينة يثرب ، ولم ينتقل النبي الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها هو القرآن ، ولها نظامها السياسي الذي يقوم على ما دعا اليه القرآن في العدل والانصاف والمساواة بين الناس ، ولها حكماها المنظمون والمنظّمون أيضا .

وبعد ان اتم النبي توحيد الامة العربية ونهض خلفاؤه من بعده ، جعلت هذه القومية العربية تتجاوز الجزيرة العربية الى الاقطار الاخرى . . ولم يكد القرن الثاني ينتهي حتى ننظر الى القومية العربية فنجدها ليست في الجزيرة وحدها ، وانما هي قبل كل شيء في هذه البلاد التي فتحت والتي امتزج فيها العرب بغيرهم من سكان البلاد الاصليين .

اذن هناك قومية عربية جديدة انشأها ، لم تتألف من عنصر عربي خالص ، وانما تتألف من جميع العناصر التي كانت تسكن هذه البلاد ، فانشأ الاسلام اذن أمة جديدة ، وجعل هذه الامة عربية ، عربية اللغة وعربية التفكير والشعور ، وعربية الحضارة وعربية الادب . . » .

وأعلن أمين نخلة ان للاسلام اعتبارين : أحدهما العقيدة وهي خاصة بالمسلمين ، وثانيهما الثقافة واللغة والتاريخ ، حتى لكان العرب جميعا مسلمون بهذا الاعتبار فقال : « ان ملة القرآن والانجيل تتلاقيان ، حتى كان الاسلام اسلامان ، واحد بالديانة ، وواحد بالقومية واللغة ، أو كان العرب جميعا مسلمون حين يكون الاسلام اهتداء بمحمد وتمسكا بقوميته وكافا بلغته . . » وأكد « أن محمدا صاحب رسالة عامة للبشر جميعا وهو في الوقت نفسه مفخرة للعرب كلهم » ، وأيده فيما ذهب اليه الياس خليل بقوله : « محمد هو لنصارى العرب كما هو لمسلميهم . ايها المسلمون ليس محمد لكم وحدكم ، ولكنه لنا ولكم ، هو نبي دينكم وهو شهادة حق مقدسة في ديننا ودينكم . ومحمد للقومي منا عربي عظيم من قريش . . مولد ابن عبد الله القرشي مولد للقوة ، وتحرر للجهاد لاخوة عربية مقدسة هي انقى اخوة عرفها بشري في عين بشري . . » .

الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ،
وكتبه ورسله .. »

فالاعتقاد بالله ، أول ركن من العقائد الاسلامية ، وإذا كان الاعتقاد
بوجود إله للعالم يكاد يكون عاماً بين الشعوب المتمدنة بعد اضمحلال
عبادة الأوثان ، ونبد فكرة تعدد الآلهة ، فان مفهوم الاله يختلف من
اتباع ديانة إلى أخرى ، ويدعو الاسلام لعبادة إله واحد لا شريك له ،
لم يلد ولم يولد ، رب السموات والارض ورب العالمين خالق العالم ومدبر
أمره ، أحاط بكل شيء علماً . ومن العقائد الايمان بوجود ملائكته ،
وكتبه المرسلة ، ورسول يختارهم الله من البشر فيبعثهم لهداية الناس ،
وخاتم هؤلاء الأنبياء هو محمد عبده ورسوله أي هو بشير ، بعثه الله ،
وبلغه أوامره كما بلغ من سبقه من الأنبياء بواسطة الوحي الذي لم يكن
أبداً عبارة عن تجسد الله وإنما من طريق روعي لم نعلمه حق العلم ، وقد
أنزل القرآن على محمد فصار كتاب المسلمين المقدس والمرجع الأساسي لهم
في جميع أمورهم الدينية ، كما أن من العقائد أيضاً الايمان باليوم الآخر
أي يوم القيامة ، والحساب ، وبالجنة والنار ، وبالشياطين ، وبالقدر خيره
وشره من الله تعالى .

الاعمال : وتتناول شتى أنواع الاعمال التي يقوم بها المسلم وهي :

١- **عبادات :** وهي ما يقوم بها المسلم لعبادة ربه كالصلاة ، والزكاة ،
والصوم ، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

٢- **اخلاق :** ولم يكتف الاسلام أن يؤمن اتباعه بمعتقداته ويؤدوا
فرائضه بل وضع لهم أسساً أخلاقية ، وطلب اليهم أن يعيشوا في الحياة
معيشة دينية أساسها الفضائل وحسن المعاملة والتعاون على الخير ، فهدم

كثيراً من العادات الجاهلية كالوحدة القبلية والوحدة الجنسية وأحل محلها الرابطة الدينية ، وكان التفاضل بشرف القبيلة أو الجنس فأحل محلها العمل الصالح والتقوى ، ومنع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، والربى ، والكذب والغش والخداع ، والتجسس ، كما دعا إلى مكارم الاخلاق كالصدق ، والعفو عند المقدرة ، والوفاء بالوعد ، وما إلى ذلك من الاخلاق الحميدة وقد قال عليه السلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

٣- اجتماع : وضع الاسلام أسس كثير من الامور الاجتماعية ، كقواعد الإرث ، والزكاة ، وغنائم الحروب ، وأصول المبيعات والمفاوضات ، وحدد نظم الأسرة وتكوينها ، والزواج والطلاق ، وبين علاقة الفرد بالمجتمع ومعاملة الأفراد ، وما يتعلق بالقصاص وحدوده ، كما هدى إلى الآداب العامة كبداية التحية والسلام واحترام المسنين والنساء ..

٤- سياسة : وحتم على أتباعه إطاعة الله ورسوله ، وأولي الأمر في الأمة ما أطاع أولو الأمر أوامر الله . وأمر بالجهاد ، والاستعداد للحروب ضد الأعداء والدعوة للدين .

٥- انسانية حضارية : صحيح ان دعوة الاسلام انصبت فيما انصبت فيه إلى محاربة الوثنية والتأكيد على عبادة الله ، الاحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولكنها في نفس الوقت نقلت مثالية العرب من صعيد الصحراء ، إلى صعيد البشرية جمعاء ، ومن إطار القبيلة إلى إطار الانسانية فوحدت بين القبائل في العمل وفي الهدف ، وألقت في روع العربي انه إنسان في هذه الحياة ينضم إلى الأسرة الانسانية ، يسهم معها في رفاه الانسان وتقدمه ، وتنظيم حياته واستثماراته لقوى الطبيعة ، وحولت غريزته وحيويته من الغزو والصراع القبلي المحلي في سبيل بعير يغنمه ، أو متاع يسلبه ، أو ارض يرعى فيها سوائمه ومورد ماء يقيم حوله ، أو

من قتال في سبيل انفة جاهلية او تفاخر في النسب ، إلى الجهاد في سبيل تحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، وتحريرهم من مختلف انواع العبوديات : تحرير الرقيق. من عبودية الرق ، وتحرير المرأة من الظلم الاجتماعي الذي سلبها حقوقها ، وتحذير الطبقات السكادحة من عبث الحكام ، ومنع الغش والفساد والخيانة والغدر والاستيلاء ، وأكل الاموال بالباطل وما إلى ذلك من أمور ، كما حثت دعوة الاسلام على استخدام العقل البشري في البحث والتجربة وتتبع العلم ودراسة آلاء الله ، ومخلوقاته ، وما في الطبيعة من اسرار ، واستجلاء غوامضها والافادة من طاقاتها .

ومرجع تعاليم الاسلام الاساسي هو القرآن ، ثم ما أثر عن الرسول من حديث ، ثم أخذ المسلمون فيما بعد يقيسون على ما ورد في هذين المصدرين او يجمع علماءهم على صحة أمر أو بطلانه . وهو ما عرف بالاجماع .

القرآن : وهو كما ذكر في بعض آياته « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وقد نزل على رسول الله منجماً في نحو عشرين سنة ، حسب مقتضى الحال ، وتطور الظروف وتبعاً للمناسبات ، وكان رسول الله ﷺ ينقل لأصحابه ما ينزل عليه من سورة وآياته ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، ويكتبونها على عصب النخل (جريدة النخل) أو ألواح اللغاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) أو قطع العظم ، وهو بلغة عربية جذلة ، ومن السهل الممتنع ، حتى ان بلاغته سحرت العرب وآمنوا به لعجزهم عن مجاراته ، وكان بلغة قريش ، واستعمل بعض كلمات من لغات القبائل الاخرى ، كما عربت فيه بعض الكلمات الاعجمية ، وأوجدت فيه كلمات جديدة ذات معان جديدة . وتقسم سورة إلى مكية

وهي التي نزلت بمكة من البعث حتى الهجرة ، وتشمل معظم القرآن ، وتمتاز بقصرها وإيجازها ، وأسلوبها المتين ، وهي تدعو إلى وحدانية الله ورفض عبادة الأوثان ، وتبين صفات الله تعالى ، وتثبت اليوم الآخر والحساب والجنة والنار ، وتبين ما يستطيع الإنسان أن يتقرب به إلى الله تعالى من اخلاق فاضلة ومعاملة حسنة ، كما ذكر فيها بعض العبادات العملية التي تربط الإنسان بالله وتوجهه نحو الخير كالصلاة ، وفيها أمر الرسول بالجهاد في سبيل نشر دعوته . أما السور المدنية وهي التي نزلت بعد الهجرة فتمتاز بقلّة عددها وطولها وتبلغ ثلث القرآن ، وتمتاز بما فيها من قصص تاريخية للأقوام الغابرة لتكون عبرة للمعتبرين ، وكثير من هذه القصص موجود في الكتب المقدسة للمدائنتين الموسوية والمسيحية ، وقد تناولت الشرائع الاجتماعية والمدنية التي تكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض والقيام بالأعمال الدينية فذكرت فيها احكام الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وفيها تحريم الخمر والميسر ولحم الخنزير ، وذكر الاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمهر والميراث ، وذكرت ايضاً كثيراً من القوانين المدنية والجزائية كالقصاص ، والقتل ، والنار ، والسرقه ، والقذف والزنا ، وعق الرقبة ، وكانت آخر آياته تلك التي نزلت على الرسول عليه السلام في حجة الوداع قبل وفاته بثلاثة اشهر : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وبعد وفاة الرسول ﷺ رأى أبو بكر ان كثيراً من الحفاظ قد قتلوا في حروب الردة فخاف على القرآن من الضياع ، وأشار عليه عمر بجمعه في كتاب واحد ، فجمع القرآن وسجل في نسخة واحدة بقيت عند أبي بكر ثم عند عمر من بعده ، ثم عند ابنته حفصة إحدى زوجات الرسول عليه السلام ، ولما كان عهد عثمان نقلت منه ست نسخ ، وارسلت اربع

منها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام وابقيت واحدة لأهل المدينة ، واحتفظ عثمان بالنسخة السادسة ، ومن هذه النسخ الأصلية نقلت النسخ التي وصلت إلى أيدينا ، والقرآن هو الكتاب الوحيد في العالم الذي لا يوجد فيه اختلاف في نصه أو تشكيله أو روايته مهما تعددت طبعاته وتنوعت وقد قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .
لا جدال في أن القرآن الكريم معجزة النبوة وآية رسالة محمد ﷺ وقد تحدى القرآن العرب حين نزوله على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله فعبثوا .

والتحدي بالبيان والبلاغة والاسلوب والايجاز وبالأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية .. ولهذا قال بعض الباحثين المعاصرين ان القرآن ليس شعراً ولا يوصف بأنه نثر . فقدم الكلام إلى ثلاثة اقسام : شعر ونثر وقرآن ...

وقد عدّ القرطبي في القرن السابع الهجري (المتوفى ٦٧١ هـ) اوجه اعجاز القرآن في عشرة اوجه ، ومنها تشريعاته ... وشرح الامام محمد عبده (المتوفى سنة ١٩٠٥ م) هذه الواجه العشرة ... ان تشريعات الكتاب الكريم منها ما هو تنظيم اجتماعي ومنها ما هو خاص بالسياسة والحكم ، ومنها ما هو خاص بالنظام المالي والانظمة المدنية ، ومنها ما هو خاص بأمن الجماعة وسلامتها ، ومنها ما هو خاص بنظام الحرب والسلام ، وعلاقة غير المسلمين بالدولة الاسلامية ، ومنها ما هو خاص بمقاومة الرق والقضاء عليه تدريجياً ..

إذا ادركنا هذا بدقة ووعينا وفهمناه ، يتبين لنا ان تشريعات القرآن الكريم هي باب عظيم من ابواب اعجازه للبشر وتحديهم^(١) .

(١) من مقال للدكتور أحمد عبد المنعم البهي الاستاذ بجامعة الكويت العربي عدد ١٢٨ .

الحديث : والحديث أو السنة هو ماورد عن الرسول عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، فلقد روي عن الرسول كثير من الاقوال التي قالها في مناسبات كثيرة ، وأجاب عن كثير من أسئلة صحابته يفسر لهم ما غرض عليهم من آي الذكر الحكيم ، أو يشرح لهم المجمل منها أو المطلق أو العام كأوقات الصلاة وعددها وكيفيتها ، وما يطلها . (إذ فرض القرآن الصلاة ولم يبين تفاصيلها) ، كما قام الرسول بكثير من الاعمال الدنيوية الثانوية التي لم يرد ذكرها في القرآن . فجميع ما أثر عن الرسول ، وما نقله صحابته عنه من بعده يعرف بالحديث ، وللحديث قيمة كبرى في الدين الاسلامي تلي رتبة القرآن مباشرة ويعتبر متمماً لتعاليم القرآن وسنتعرض في كلامنا عن الحياة الفكرية إلى القرآن وتفسيره وأصول الفقه المستنبطة منه ، وإلى الحديث وجمعه وتدوينه وتفسيره .

اثر الاسلام في حياة العرب : كان طبعياً أن يؤثر الاسلام بتعاليمه ومعتقداته الجديدة بالعرب تأثيراً واضحاً ، حتى لقد خلطهم خلقاً جديداً ، وجعلهم في مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان يوحدون شملهم في الجزيرة العربية ويخرجون منها ليرثوا ملك دولتي الأكاسرة والقيصرة ، وليؤسسوا دولة قوية متمسكة تصل حدودها إلى المحيطين الاطلسي والهندي ، وتتأخم في الشمال الدولة البيزنطية وتقف في الجنوب عند الصحراء ، ولا يذكر التاريخ عاملاً دينياً واقتصادياً وسياسياً أثر في أمة ما ، تأثير الاسلام بالعرب ، فاذا استطاع موسى أن يخرج بني اسرائيل من مصر ويرفع عنهم نير العبودية ، وإذا دفع الجذب والجفاف الأقوام الآسيوية إلى الهجرة نحو الغرب ، وإذا نقل بطرس الاكبر الروس من شعب شرقي إلى أمة أوربية ، فان جميع هؤلاء لم يستطيعوا

أن يتركوا الأثر الذي تركه الاسلام في العرب ، وكان تأثير التعاليم الاسلامية متدرجاً ولكن سريعاً ، وكان أول ما فعل بالعربي أن رفع مستواه العقلي وجعله يفكر بوجوده وبالله وبآلاء الله ، فنقله من عبادة نصب وأوثان لا تضر ولا تنفع إلى عبادة رب العالمين ، ووضع له مثلاً أعلى يختلف عن مثله الأعلى في الجاهلية الذي كان يتمثل في التمتع بملذات الحياة ولذائدها والانغماس في اللهو والشراب ومعاقرة بنت الحان ولعب القمار وعدم التفكير سوى بالحياة الدنيا ، وأصبح مثله الأعلى الخلق الفاضل ، وعبادة الله والتقوى والصالح والعمل للسعادة في الحياتين : الدنيا والآخرة ، والتمسك بكثير من العادات الاجتماعية والاخلاقية .

« و يروى أن جعفر بن أبي طالب الذي هاجر إلى الحبشة بعداً عن اضطهاد المشركين أجاب النجاشي عندما سأله عن حال المسلمين وتعليقات الدين الجديد بقوله: « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده فخرنا وأبائنا من دونه من الأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً . . . » (ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ - ٣٠٥) وفي هذا القول مقارنة لطيفة لحال العرب في جاهليتهم وأثر الاسلام في أتباعه منهم .

ولم تؤثر تعاليم الاسلام تأثيراً وبدرجة واحدة على جميع أتباع العرب

وغيرهم ، إذ نلاحظ نزاعا محتدما بين النزعات الجاهلية والنزعات الاسلامية ، بين العادات والتقاليد القديمة ، وبين التعاليم والديانة الجديدة . وظهر هذا النزاع في كثير من الحوادث سواء في عهد الرسول أو الخلفاء الراشدين أو العصر الاموي . وكان الدين الجديد ينتصر بالتدريج على مايت بصلة إلى الجاهلية ، وكان هنالك أناس لازالوا ينزعون الى شيء من التسامح أو عدم التقيد بأوامر الدين ونواهيه ، كشرب الخمر ، والانغماس في الترف ، وترك الصلاة ، أو عدم دفع الزكاة ؛ كما كان هناك أناس آخرون ، دخل الاسلام إلى قلوبهم فلا عليهم جوارحهم وصرفهم عن كل شيء الا عن اتباع تعاليمه والتقيد بها ... واذا لم يستطع الاسلام أن يجعل من العرب أفرادا متساوين في ايمانهم وعقيدتهم وأعمالهم الفردية ، فانه استطاع أن يجعل من العرب كمجموع ، أمة جديدة ، ذات خلق جديد وأهداف جديدة ، فانسبوا مدفوعين بعامل نشر الدين الجديد ورفع راية الاسلام ، آملين بالفوز في الحياة الدنيا ، أو بجنات النعيم في الآخرة ، الى البلاد المجاورة لجزييرتهم وتزعموا الحضارة العالمية في عصور كانت فيها بقية انحاء العالم تتخبط في دياجير الجهل والتعصب والانحطاط .

الْمَلِكُ الْمَلِكُ الْمَلِكُ

تطور نظام الحكم في الاسلام

نظام الحكم في عهد الرسول : أخذ الرسول عليه السلام بعد البعثة في الدعوة لدينه الجديد ، وما لبث أصحابه ان ازدادوا ، ولما كانت بيعة « العقبة الثانية » التي اجتمع فيها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب وبايعوا الرسول عليه السلام فيها « على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وبناتهم » ، انتخب الرسول منهم اثني عشر نقيباً ، نسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وقال لهم « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومي » فكان ذلك أول تنظيم حكومي للرسول ؛ وعندما هاجر الرسول من مكة الى يثرب واستقبله أهلها وأحباؤه المحل الأول في مدينتهم ، واستغنوا عن تتويج عبد الله بن أبيّ ، أصبح الرسول الرئيس الأعلى لحكومة يثرب ، وقد نزلت عليه سور التشريع المختلفة وهو في يثرب ، وكانت هذه الآيات تساعد على إيجاد دستور حكومي عام منتظم ، وأخذ المسلمون يرجعون الى الرسول لحل جميع مشاكلهم ، وهكذا جمع الرسول السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وكان يحكم بوحى من الله ، أو بإجتهاد يراه مناسباً ، وكان حكمه في كلا الحالين قاطعاً غير قابل للتمييز . واخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور ، إذا كان الرسول يجلس في مسجد المدينة المنورة ويقبل عليه الناس يسألونه حل قضاياهم ، أو يتعلمون منه تعاليم الدين الجديد ، أو يقدمون طاعتهم وإيمانهم به وبدينه ، وكثيراً ما كان الرسول يستشير أصحابه وخاصة أبا بكر قبل أن يقطع بأمر لم ينزل فيه نص شرعي ، حتى ان بعض الاعاجم

اعتبروا أبا بكر وزيراً للرسول تشبيهاً له بوزراء أكابرهم أو قادتهم . ولم يكن الرسول يصر على رأيه الخاص ، فيما اذا اقتنع بوجود رأي أحسن منه كما روي مرة انه « نزل منزلاً للحرب فقليل له : إن كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة ، فقال : باجتهاد ورأى ، ورحل » ولكن من المتفق أن الرسول لا يقر على خطأ .

وكانت آيات التشريع تنزل حسب تطور جماعة المسلمين ، وانتقلت بهم بالتدريج من العادات والتقاليد الجاهلية الى التعاليم الاسلامية الجديدة ، وهذا هو سبب وجود آيات النسخ والمنسوخ في القرآن ، إذ لا بد للقوانين الالهية من مراعاة الحال التي تطبق عليها الاحكام ، ومن قوله تعالى: « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وقد تعرض التشريع الجديد الذي أصبح أساساً لنظام الحكم الاسلامي الى جميع ما يصدر عن الانسان من أعمال ، سواء من عبادات كما ذكرنا ، أو من أمور مدنية كالبيع والشراء ، والقروض والايجار ، أو أمور جنائية كالقتل والسرقة وقطع الطرق ، أو تنظيم للأسرة ، كالزواج والميراث أو أمور سياسية دولية كالقتال ، ومعاملة أهل البلاد المفتوحة ، والذمين ، وتقسيم الغنائم . وكانت أعمال الرسول ﷺ هي المفسر لكثير من هذه الآيات التي جاءت بجملة عامة ، كما أنه قام بوظيفة رئيس الحكومة المدني بتعيين كتاب الوحي وإرسال الصحابة في تفقيه القبائل في الدين ، وأئمة المسلمين في الصلاة ، وجباية الزكاة ، وإرسال الكتب الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، وقاد بنفسه كثيراً من الحروب ، وعين القواد ، ورسم لهم خطط القتال الى غير ذلك من الأمور الدنيوية ، إلى جانب قيامه برسالة الأساسية وهي الدعوة الدينية .

نظام الحكم بعد الرسول : ترك الرسول (ﷺ) من بعده مصدرين
أساسيين للتشريع ولأنظمة الحكم هما : القرآن وما فيه من آيات للتشريع ،
وأعماله التي قام بها وأحاديثه التي فاه بها وهو ما عرف بالحديث والسنة ،
وقد واجه المسلمون من بعده كثيراً من المشكلات أخذوا يحلونها بالقياس
بما حدث في عهد الرسول ، كما أخذوا بالتدريج يقتبسون أنظمة الحكم التي
كانت سائدة عند غيرهم من الممالك كالفرس والبيزنطيين والافريق . وقد
وضع عمر بن الخطاب أسس نظام الدولة الإسلامية ، إذ قسم دولته إلى أقسام
إدارية كبيرة ، وولى عليها الولاة ، وعيّن القضاة وعمال الخراج ، وبين
لهم وظائفهم وأعمالهم ، وأمر قادته باتخاذ مدن جديدة ليقم فيها الجند حتى
لا يختلطوا مع السكان ويميلوا إلى الحياة الزراعية والاستقرار ، فضعف فيهم
روح الجندية والجهاد ، وكثيراً ما غادر عاصمته المدينة إلى الولايات
ليتفقد حال رعيته وسيرة ولاته ، ويشرف على أمور دولته ، كما أوجد
ديوان الجند لترتيب إعطيات المحاربين . وزاد معاوية وعبد الملك بن مروان
في أقسام الجهاز الحكومي ، فأوجد الأول نظام البريد والعسس ، وعرب
الثاني الدواوين وسك نقوداً عربية . وتطورت أنظمة الحكم من بعدهما
وخاصة في العصر العباسي حيث أوجدت الوزارة واستحدثت كثير من
الدواوين الجديدة . ويمكن القول بأن نظام الحكم كان في عهد الخلفاء
الراشدين نظاماً دستورياً أساسه الآية الكريمة « وشاورهم في الأمر » ، كالنظام
الجمهوري الدستوري ، وانقلب إلى نظام ملكي في العهد الأموي وصارت
تؤخذ البيعة لابن الخليفة قبل وفاة أبيه ، كما أدخلت فكرة حق الملوك
الالهى المقدس التي يؤمن بها الفرس على الخلافة في العصر العباسي ، وسنلاحظ
تطور نظام الحكم الإسلامي في كثير من الظواهر التي سنذكرها فيما يأتي من
أبحاث في عهد الخلافة الإسلامية ، من نظام شورى إلى نظام ولاية العهد والبيعة

إلى تطوير الدواوين وتنظيمات الشرطة والقضاء وبيت المال ووسائل الدفاع وغيرها .

الشورى والبيعة : آمن المسلمون بالرسول (ﷺ) واتبعوا أوامره وانتهوا عن نواهيه ، واعتبروه مصدر جميع السلطات ، ولم يكن لهم الخيار في ذلك لأن الله قد اختاره هادياً وبشيراً ، وبعثه بالرسالة ، وأوحى إليه ، وقد قال تعالى : « والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى » (سورة النجم) .

ولما انتقل الرسول عليه السلام إلى جوار ربه ، شدة الناس لهذه الفاجعة المفاجئة واتجهوا في آرائهم وجهات مختلفة ، فبعضهم رأى أن الرسول الذي بلغهم أوامر الله ونواهيه قد فارقه إلى ربه ، ولا يوجد إنسان آخر من البشر يخلفه ويتصف بصفاته ، فأخذوا يفكرون في من يلي أمورهم من زعمائهم حتى لا يخضعوا لشخص آخر غريب عن قبائلهم أو بطونهم ، وتداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر خلفه ، وقد انفضى اجتماعهم إلى انتخاب أبي بكر الصديق ، خلفاً للرسول ، وكان انتخابه بطريقة شورية ، إذ رشح الأنصار للأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعد نقاش طويل بين الأنصار والمهاجرين ، وحجى أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، وإدلاء كل فريق بحججه بأنه هو الأحق بخلافة الرسول (ﷺ) ، وبعد خطبة أبي بكر في هذا الصدد ، تقدم عمر وبابع أبا بكر وتبعه أبو عبيدة ثم زعماء المجتمعين ، ودعيت بيعة أبي بكر هذه بالبيعة الخاصة ، إذا لم يبايعه سوى الحاضرون في السقيفة . ثم أقرت عامة مسامي المدينة هذه البيعة في مجلس عام عقد بمسجد الرسول (ﷺ) في المدينة ، وعرفت بيعتهم بالبيعة العامة ، ووافق مسامر الجزيرة بعد ذلك على هذه البيعة . ولما شعر أبو بكر

بدنو أجله أوصى لعمر من بعده ، بعد أن استعمل فكره في اختيار أليق شخص لهذا المنصب الجليل ، وبعد أن استشار أصحابه ووافقوا على ذلك . أما عمر فانتخب ستة من الصحابة فوُض لهم اختيار خلفه ، ووضع لهم نظاماً يتبعونه في المشاورة والاختيار ، وحدد لهم المدة الكافية لذلك ؛ وأمر بضرب عتق من يخالف رأي الجماعة والاعلوية . ولما قتل عثمان انتخب أهل المدينة علياً وبايعوه .. وإذا نظرنا إلى انتخاب هؤلاء الراشدين الأربعة رأينا أن انتخابهم كان شورياً ، فليسوا من قبيلة واحدة ، وكان المسلمون يوافقون على هذا الاختيار ، وكانوا لا يجبرون أحداً بالقوة على مبايعتهم ، وإذا كان بعض الناس يظن أن في انتخاب أبي بكر شيئاً من المفاجأة أو عدم الاجماع لأن عدد المجتمعين في سقيفة بني ساعدة كان قليلاً ، فإن ذلك ليس من الحقيقة في شيء ، لأن انتخابه كان فيه نقاش طويل ، وكانت المجتمعون هم وجوه الصحابة من المهاجرين والانصار .

هذا ما كان من انتخاب خلفاء الرسول عن طريق شوري ، أما في العهد الذي تلا عهد الراشدين فلم تكن هناك شورى في اختيار أمراء المسلمين ؛ وهناك نوع آخر من الشورى ، ويقصد به المشاورة في الأمر « وشاورهم في الأمر » ، وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ نفسه كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ، كما أن خلفاءه كانوا يجتمعون مجلساً من وجوه الصحابة لاستشارتهم في ما يعرض لهم من الأمور .

أما البيعة ، فيقصد بها مبايعة الخليفة على أنه رئيس للمسلمين ينظر في أمورهم الدنيوية ويتولى إدارة زمامهم ، وكانت بيعة أبي بكر أن تقدم منه الناس وجعلوا أيديهم في يده وصافحوه وبايعوه على أن يسير بهم على سنة رسول الله ﷺ ، وصارت مصافحة اليمين بعد ذلك عامة في المبايعة ، وبايع الناس عمر على أن يسير على سنة الرسول وأبي بكر ،

ويقال إنه عندما اتفق الستة الذين انتخبهم عمر للتشاور فيما بينهم لانتخاب خليفة ، كانوا عبد الرحمن بن عوف أن يشاور في الامر ، ويختار من بينهم ؛ واحداً فلما كان بالمسجد ، وكان يفكر في أحد شخصين هما : عثمان وعلي ، قال لعلي : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده ، قال علي : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ عامي وطاقتي ، وسيرة الخليفين من بعده ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلي ، فقال عثمان نعم وكرر جملة عبد الرحمن ، وكان ذلك وحده كافياً لترجيحه على علي ومبايعته ، أي أنه فضل عثمان على علي لأن الأخير لم يرض أن يعد بالعمل بسنة الرسول ومن خلفه ، بل وعد بأن يعمل بحسب علمه ومقدرته ..

وكانت البيعة تؤخذ في مسجد المدينة المنورة من وجوه أهلها ، ثم يرسل الخبر إلى الأمصار فيوافقون على ذلك ويبايعون ولانهم باسم الخليفة . ولما اختلف الناس في عهد علي ومعاوية ، صاروا يبايعون من شاؤوا ، وبعد أن استقر الامر لمعاوية وأوجد فكرة ولاية العهد ، بايع الناس يزيداً في حياة معاوية ، ثم جددوا له البيعة بعد وفاته ، وهكذا أصبحت البيعة تعطى للخليفة قبل توليته ، ثم تجدد ثانية عند توليته منصبه ، وتطورت فيما بعد عندما صار الخليفة يختار ولين لعهد ، كما تطور شكل البيعة ، فبرز قادة بني أمية مثلاً لا يكتفون من أهل الحجاز بمبايعة الخليفة كما جرى في بقية الاقطار الاسلامية ، بل أصروا على أن يعترف كل منهم أثناء بيعته على أنه خول للخليفة يزيد ، كما صارت هناك نصوص خاصة تقال عند البيعة وخاصة في العصر العباسي ، وأصبحت في بدء القرن التاسع الهجري في عصر ابن خلدون كما يصفها هو تشبه : « تحية الملوكة الكسروية من تقبيل الارض أو اليد أو الرجل أو الذيل .. واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل ، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكي ... »



الفصل الثاني

الخلافة الاسلامية

« الخليفة موظف سياسي قبل ان يكون
موظفاً دينياً ، وان الواجبات الدينية الملقاة
على عاتقه ، لا تعطيه حقولاً دينية او روحية
تجعله يمتاز عن غيره من المسلمين » .
« ارنولد »

الخلافة : ما كاد مسلمو المدينة المنورة يستفيقون من الصدمة التي
فاجأتهم ب وفاة الرسول ﷺ حتى فكروا فيمن يخلفه ، واجتمع بعضهم
- كما ذكرنا - في سقيفة بني ساعدة ، وبعد نقاش حاد ، التفت عمر إلى
أبي بكر وقال : « ألم يأمر النبي ﷺ بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟
فانت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً »
(ابن هشام) ثم قال : « ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعه ، وبايعه
المهاجرون والأنصار » .

وقد لقب أبو بكر بلقب خليفة رسول الله ، ومعنى ذلك أنه إذا
انقطعت النبوة بموت الرسول ، فلقد خلفه أحد أتباعه في رئاسة أمور
المسلمين الدنيوية ، فمزلته من المسلمين من الناحية الدنيوية كمنزلة الرسول

منهم ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق تنفيذ شرائع الدين بإقامة الحدود ومعاقبة المرتدين ؛ وهو يجمع بين السلطين الدينية والروحية ...

معنى كلمة خلافة : الخلافة لغة مصدر خلف . يقال : خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده ، والخليفة السلطان الاعظم ؛ والجمع خلائف وخلفاء وقد سمي من يخلف رسول الله ﷺ في اجراء الاحكام الشرعية خليفة . أما الخلافة في الاصطلاح : فهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي . يقول ابن خلدون في ذلك : والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخرية والدينية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

القرآن والسنة ونظام الحكم : يحاول الفقهاء أن يلتمسوا للخلافة سنداً من القرآن والسنة ؛ ويدللون على صحة دعواهم بما نزل في القرآن الكريم من الآيات التي وردت فيها كلمة خلافة : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم .. » (س.النور) . « وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم » (س.الانعام) « واذكروا لى جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » (س. الاعراف) نلاحظ من هذه الآيات ان الكلمة هنا ذات معنى عام وليست خاصة بشخص واحد له السلطة والزعامة . ولكن ورد في القرآن آيتان فيها معنى فرديا لشخص مميز وهما : « ياداوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين

الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (س . ص) « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (س . البقرة) .

ويقول بعض الفقهاء معلقين انه عندما أعلن الله عن نيته في خلق آدم دعاه خليفة ، لان آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الأرض قبل خلق الانسان . ويفسر بعضهم الآخر كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف بمعنى الذي يفوز بنبص سام وهكذا فانهم يشرحون أن آدم وداود سميّا باسم خليفة اذ كان كل منهما على الأرض نائباً عن الله في هداية الناس وانذارهم بأمر الله . وهذا التفسير يزيد في هبة وسلطة الخليفة . اما الملاحظ ان كلمة خليفة في هاتين الآيتين لا يقصد منها معنى الحكم والنفوذ السياسي .

فالقرآن كما رأينا لم يشير الى نظام الحكم الذي يجب أن يتبعه المسلمون بعد النبي ﷺ ولكن آياته تنص على طاعة أولي الأمر : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

واذا ما لجأنا الى الحديث النبوي لمعرفة ما لم نعتبر عليه في القرآن عن وضع المسلمين السياسي ، نجد بعض الاحاديث تذكر كلمتي الخلافة والامامة مثل ما روي عنه عليه السلام قوله : (الخلافة في قريش والحكم في الانصار والدعوة في الحبشة) . (الخلافة بعدي أربعون سنة ثم تصير ملكاً عضواً .) (الائمة من قريش) . (يا أيها الناس اتقوا الله وان أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا) . الا أنها أحاديث يشك في صحتها بعض المؤرخين ، لان المسلمين لم يسمعوا بها الا بعد وفاة النبي ﷺ . ولو كانت معروفة أو سمعها الناس لما اختلفوا فيما بينهم حين اختيار من يخلف النبي ﷺ .

ويعتقد بعض المؤرخين ان معظم الاحاديث التي تبحث في شؤون الحكم قد دست على النبي من قبل بعض الجماعات والفرق الدينية ذات النزعات السياسية لتأييد وجهة نظرها فيما يتعلق بالحكم . ونحن نعلم ان الخلافة كانت أول مسألة استند فيها الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت آراؤهم ، وتكون حولها أهم الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة .

آراء الفرق الاسلامية والمؤرخين حول اختيار الخليفة :

لم ير المسلمون بدأ من إقامة خليفة للنبي بعد وفاته يقوم بنشر الدين ويدبر شؤون المسلمين ؛ وبما أنه لم يوص بالزعامة لاحد من أصحابه أو أهله الا ماروي عن لسانه فيما بعد أثناء بيعته أبي بكر ، فقد اتجهت كل فئة منهم تريد أن يكون الخليفة منها ، وبذلك قام النزاع واستند الخلاف بينهم لحوفهم أن يحكم من يحل محل الرسول هو وه عشيرته في رقاب الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلي هذا المركز من شأن القبيلة التي ينتمي اليها الخليفة . وكانت أهم الآراء التي ظهرت حول اختيار الخليفة هي :

١ - راي المهاجرين : وحجتهم أنهم أول من آمن بالنبي ﷺ وصبروا على الاذى ولم يستوحشوا لقله عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش ، والعرب لا تدين إلا لهم . ولو انتخب الخليفة من قبيلة أخرى لقامت القبائل ينافس بعضها بعضا وانتشرت الفتن الداخلية.

٢ - راي الانصار : وحجتهم أن النبي ﷺ لبث في قومه في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام فما آمن الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الاذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الانصار وآمنوا به وأعزوا دينه ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، وتوفي ﷺ وهو عنهم راض وهم قريش عين فهم أولى الناس أن يخلفوه .

٣ - رأي الشيعة : وهم أنصار أهل البيت ، لا يجذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة ، ويرون أن تكون الخلافة في بيت النبي (يشبههم البعض بأصحاب النظرية الالهية) وأقرب الناس اليه عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه علي بن أبي طالب . ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين . فأولى الناس من قرابة النبي علي . فهو أول الناس اسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبي ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر .

ويقول الشهرستاني ان الامامية وهي احدى فرق الشيعة يعتقد أصحابها أن النبي عين علياً خلفاً له تصريحاً وتعريضاً أما تصريحاً فقولهُ : ومن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله أما تعريضاً فهي أن النبي ﷺ مثلاً أمّر في كثير من البعث أناساً على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ، ولكنه ما أمّر على علي أحداً قط .

٤ - رأي الخوارج : وهو أن الخلافة يجب أن تكون باختيار عربي حر من المسلمين ، وإذا اختير مسلم ، فلا يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً . وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب ان يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله وإلا وجب عزله . وقد أدخلوا بعض التعديل على رأيهم فشرطوا الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية . لهذا دعاهم فارت فلوطن بالجمهوريين لمبادئهم الديمقراطية المتطرفة . وقد خالفوا نظرية الشيعة القائلة بالحصار للخلافة في بيت النبي ونظرية أهل السنة القائلة بان الخلافة في قريش . وهذا ما دعاهم الى الخروج على خلفاء بني أمية ثم على العباسيين لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين ، لم تنطبق عليهم شروط الخلافة في نظرهم .

٥ - رأي المرجئة : وهم محايدون ، لا ضد الدولة ولا معها ، نظرهم واحدة نحو جميع الذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة . فكلهم مصدق بالله ورسله وكلهم مؤمن . فهم لا يكفرون أحداً من الذين تقاتلوا في سبيل الحكم كالمويين والشيعة والخواارج وغيرهم . وهم يرون مهادنة بني أمية صحيحة ، وأن خلفاءهم مؤمنون لا يصح الخروج عليهم . وقالوا لسنا نستطيع أن نعين المصيب فلنترك امرهم جميعاً الى الله . من هذا نلاحظ ان موقفهم ازاء حكم الامويين موقف تأييد ولكنه تأييد سلبي لا ايجابي .

٦ - رأي المعتزلة : يقولون بجزية ارادة الانسان ، وان الامة تختار إمامها ، إذ ان القرآن لم ينص على الصفات التي يجب أن تتوفر في حاكم المسلمين . إلا أنهم لم يتفقوا فيما بينهم في اشتراط ان يكون الامام من قريش . وقالوا : ان حديث (الائمة من قريش) لم يكن متواتراً ، إذ لو تواتر لما ادعت الانصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل ان عمر بن الخطاب كان يجوز إمامة المولى فقد قال : لو كان سالم (مولى حذيفة) حياً لوليته .

كما قالوا بصحة خلافة الراشدين . وقد اختلفوا في أيهم أفضل ، إلا أن معظمهم يجعلون ترتيب الاربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . اما في الحرب بين علي ومعاوية فانهم يؤيدون وجهة نظر علي . وبناء على ذلك تكون نظرهم الى خلافة بني أمية على انها غير صحيحة ، وكان موقفهم منهم موقف كراهية وان لم يثوروا ثورة الخوارج . ويجب ألا يغرب عن بالنا انهم ايدوا بعض الخلفاء : من امويين (يزيد بن عبد الملك) وعباسيين (المأمون والمعتصم والواثق) لما اعتنق هؤلاء مبادئ المعتزلة الدينية .

٧ - رأي ابن خلدون : رأى في السياسة الدينية الخير للبشر . لأن هذه السياسة تؤدي إلى إسعاد المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة أو معاملة

حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني ، أي أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات . والخلافة في نظره وكالة عن النبي ، والخليفة يمثل النبي في السلطة السياسية والدينية ولا يمتاز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين . ولم ير بأساً من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أيأ كانت جنسيتهم : « وليس الملك لكل عصبية ، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويحجي الأموال ويبعث البعث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، فمن قصرت به عصبيته عن بعضها فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته ... واشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها ليستبعضوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية » .

ويرى ابن خلدون ضرورة وجود الخلافة في قريش بعد وفاة النبي للأسباب التي ذكرناها سابقاً كما يقول أيضاً : (ان قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم ، وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك) . فهو يرى أن اختيار الخليفة من قريش كان لأنها أكثر القبائل كفاية لها ، وليس للنسب وعراقة الأصل سبباً في هذا الاختيار . ويرى المؤرخ آرنولد انه روعي في اختيار الخلفاء الراشدين طريقة اختيار شيخ القبيلة ، مع مراعاة الحال والجاء والاحترام بسبب السن أو المسكنة والنفوذ ، أو بالنسبة للعلم والتفقه ، أو ما أدى من خدمة المصاحبة العامة . وهذا ما يؤيد رأي ابن خلدون .

نشأة الخلافة وتطورها في زمن الراشدين والامويين والعباسيين الخلافة زمن الراشدين :

مات النبي ﷺ ولم يخلف ذكراً ولا أوصى بالخلافة لأحد (إذا استثنينا

رأي الشيعة في ذلك ، فاختلف المسلمون عند موته من مهاجرين وأنصار وغيرهم فيمن يخلفه كما مر معنا . وكان الأنصار أول من فكر في ضرورة الاسراع لانتخاب خلف للرسول كي لا تدب الفوضى وتتشعب الآراء إذا ظل المسلمون بدون رئيس . لهذا تداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة ليتشاوروا في الأمر ويختاروا من بينهم خليفة . فاتفقت كلمتهم على ترشيح سعد بن عبادته وهو سيد الخزرج . فسمع بذلك المهاجرون فهجل إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . وقام بين الطرفين نقاش طويل وأدلى كل فريق منهم بالحجة على أن هذا الأمر له دون غيره . وقال أحد الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، فرد عليه عمر مبيناً أن هذا الأمر لقريش وقال : « هيهات أن يجتمع اثنان في قرن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ... »

وقد انحازت الأوس إلى صف المهاجرين إذ كرهت أن يكون للخزرج السلطان .

وخاف عمر من انقسام المسلمين وأراد أن ينهي الأمر في ذلك الاجتماع فبادر إلى أبي بكر وبايعه وقال له : « ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . ثم تبعه أبو عبيدة وباقي الناس . وتعرف هذه البيعة بالبيعة الخاصة . ثم أقر عامة مسلمي المدينة في اليوم التالي هذه البيعة في مسجد الرسول ﷺ وعرفت بيعتهم بالبيعة العامة .

والأسباب التي سهلت انتخاب أبي بكر دون سائر المهاجرين من بيت النبي وغيرهم هي :

١ - تكليف النبي له أثناء مرضه أن يؤم المسلمين في الصلاة .

٢- كي لا تجمع النبوة والخلافة في بني هاشم ، وكان هؤلاء قد اعتبروا بأن النبي منهم . وقدروي عن الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية قوله : « أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا » ..

٣- سبق في الاسلام .

٤- كان رفيق النبي الوحيد في هجرته إلى المدينة وساعده الأيمن ، ونزول الآية الكريمة مشيرة إليه « الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار » .

انتخاب عمر : لما مرض أبو بكر واحس بدنو أجله خشي أن ينقسم المسلمون على أنفسهم من أجل الخلافة ، كما كاد أن يحصل من قبل . فرأى ببعد نظره أن يحتاط لذلك بتعيين خلف له . ولكنه رغب أن لا ينفرد برأيه ، فاستدعى إليه أصحاب الرأي في الأمة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان وأسيد بن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار فاثنوا كلهم على عمر وبذلك عينه أبو بكر خلفاً له .^(١)

انتخاب عثمان : ألح بعض الصحابة على عمر لما طعن وأشرف على الموت أن يعين خلفاً له . وبعد نقاش بينه وبينهم عين سبعة أشخاص هم : علي وعثمان وسعد وابن عوف والزبير وطلحة بن عبيد الله وابنه عبد الله ابن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء . وأوصى أن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار . وقد اجتمعت الآراء على تعيين عثمان أو علي . فانتخب آخر الامر عثمان .

(١) راجع : انور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ ص ١٦٧ وما بعدها عن كيفية اختيار الخلفاء الراشدين ومبايعتهم .

انتخاب علي : قامت فتنة أدت إلى قتل عثمان وانتخب علي بعده ، إلا أن انتخابه لم يكن عاماً ، إذ امتنع عن ذلك بنو أمية وطلحة والزبير والمغيرة وغيرهم . وازداد عدد المستأين منه لما عزل ولاية عثمان ومنهم معاوية ، ونقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة مما حدا بالاستاذ نيكلسون إلى القول بأنه كان ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية .

انتخاب الخلفاء الراشدين : جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: « وأمرهم شورى بينهم » ، ويمكننا مع بعض التحفظ ان نقول أن في انتخاب الخلفاء الراشدين الأربعة فكرة الشورى إذ بيعتهم تبعد عن النظام الوراثي . إذ حصل في انتخابهم جميعاً ترشيح ومشاورة وقبول أكثر الزعماء المسلمين ثم موافقة سائر الأمة . فلم يكن هناك اكراه أو ضغط أو استعمال للسلاح في تعيينهم ، إنما جرى الانتخاب باتفاق وتأييد الأثرية . وإذا وجد معارضون ومخالفون ومستنكفون فهو أمر طبيعي إذ نلاحظ في عصرنا هذا مثل ذلك أو أشد منه لما يجري انتخاب رؤساء الجمهوريات . وتذكر المصادر انتخابات تمت بأكثرية ضئيلة جداً . ورب معترض يقول إن هذه الأثرية لم تحصل في بعض الأحيان كما جرى لعلي بن أبي طالب إذ لم يبايعه سوى أهل المدينة ولم يؤخذ في انتخابه رأي غيرهم من المسلمين . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبني على رأي أهل المدينة .

الخلافة زمن الأمويين : لما انتقلت السلطة الى الأمويين أصبحت الخلافة ملكاً استبدادياً آل إلى أصحابه بقوة السيف والسياسة والمكايد . وبذلك تبدل نظام الخلافة ، فبعد ان كان يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين ، أصبح يقوم على أساس التوريث ، ويستند إلى السياسة أولاً والدين ثانياً . وادخلت كل مظاهر الابهة التي تتمتع بها الملوك والقيصرة .

إلا أنه ينبغي ألا يغرب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور شكل الحكم. كانت المدينة حاضرة الدولة العربية زمن الراشدين وسكانها من العرب وكانت الخلافة تتلاءم مع العادات والتقاليد العربية ، ولكن عندما أصبحت دمشق عاصمة الدولة واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة المتأثرين بالنظم والعادات البيزنطية والفارسية ، كان على الأمويين أن ينسجموا والبيئة الجديدة ، فتبدل نظام الخلافة وأصبح أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري . ومن ثم زادت السلطة الزمنية للخليفة . على أن الطبيعة العربية والنفوذ العربي ظلّا سائدين . وقد قال سيد أمير علي في ذلك : « كانت الحكومة في العهد الأموي حكومة مطلقة مشبعة بحرية القول التي فطر عليها عرب الصحراء والعلماء ورجال الدين ، تلك الحرية التي مكنتهم من تغيير نزعة الخليفة معتمدين في ذلك على آية من القرآن أو بيت من الشعر » .

الخلافة زمن العباسيين : هذا العباسيون حذو الامويين في التوريث . وبما أن دولتهم قامت على اكتاف الفرس تأثرت الخلافة بنظم الحكم لدى ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب . والذين كانوا يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ، لذلك ازدادت الصفة الروحية في الخليفة لاعتقاد الفرس بنظرية الخلق الملكي المقدس وغدا البلاط العباسي أشبه شيء ببلاط الاكاسرة ، فصار الخليفة شخصاً مقدساً وأصبح ظل الله في الارض كما يبدو ذلك في قول المنصور « إنما انا سلطان الله في أرضه » . وهذا يخالف تماماً حال الخلافة في العهود الماضية ، ويتجلى ذلك في قول أبي بكر « ان احسنت فشجعوني وان اسأت فقوموني بحمد سيفكم » وقول عمر ابن عبد العزيز « لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً » .

سلطة الخليفة ومقارنتها بنظم الحكم الأخرى التي عرفت في القرون الوسطى :

تشمل سلطة الخليفة جميع النواحي المدنية والدينية والحربية ؛ إذ له على الأمة الولاية التامة والطاعة التامة وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شؤون دينهم أيضاً . بيده وحده زمام الأمة فكل ولاية مستمدة منه وكل خطة دينية أو دنيوية متفرقة عن منصبه فهو الحاكم الزمني والحاكم الديني .

وجمع كل هذه السلطات بيد الخليفة كان سبباً رئيسياً في قوة العرب وازدياد نفوذهم واتساع سلطانهم كما قال غوستاف لوبون : « وقد كانت تلك النظم السياسية سبب عظمة العرب ... ولا شيء أصوب من جمع « محمد » لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت العرب مجزأة ، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور « محمد » .

إنما يجب أن لا يغرب عن بالنا أن الخليفة مهما اتسعت سلطته لا يستطيع مخالفة القانون الذي يتألف من القرآن والسنة . مع العلم أن سلطة الخليفة واسلوب الحكم وتطبيق الشرع يختلف زمن الراشدين عنه زمن الامويين والعباسيين . ففي زمن الراشدين كانت الخليفة يستعين في تصريف مهام الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الاولين يجتمعون في مسجد النبي يساعدهم جمع من الأشراف والرؤساء .

أما بعد ذلك فالخليفة كان الحاكم المطلق يستشير ان اراد أو ينفرد بحكمه كما كان يفعل في غالب الأحيان . إلا أن اعتماد الخلفاء على العناصر الأجنبية زمن العباسيين أضعف من سلطتهم وجعلهم آلة بيد الأتراك والسلاجقة والبهمنيين وغيرهم حتى قال أبو الريحان البيروني (٤٤٠ هـ) « أنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء اللهم الا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته » .

وكان العثمانيون حريصين جداً على إبراز هذه السلطة الدينية حتى على غير رعاياهم . ففي معاهدة كوتشوك قينارجي بين العثمانيين والروس سنة ١٧٧٤م انتهز العثمانيون فرصة مطالبة الروس بحماية مسيحي الارثوذكس في الدولة ليطالبوا بحق مماثل للسلطان العثماني على مسلمي الامبراطورية الروسية . كما أن السلطان عبد الحميد الثاني جعل السلطة الدينية رسمية وقد نص عليها في الدستور الذي أصدره سنة ١٨٧٦م .

وإذا نحن قارنا الخلافة بغيرها من نظم الحكم عند الامم الاخرى في القرون الوسطى، كما فعل توماس ارنولد، نجد في الغرب حاكمين أحدهما زميني وهو الامبراطور والآخر روحي وهو البابا . أما في الشرق فالخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

فالامبراطورية الغربية لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة حتى أن شارلمان تلقب بالقباب الاباطرة الوثنيين . أما الخلافة فإنها لم تقم على نظام سياسي سابق بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت على أثر ظهور الاسلام .

والخلافة تختلف عن الباباوية وقد وقع بعض الكتاب والمؤرخين في خطأ تشبيه سلطتها أمثال : ماركو بولو عندما كتب عن بغداد بأنها مدينة عظيمة اعتادت أن تكون كرسي خليفة كل المسلمين في العالم كما هي في روما كرسي البابا لجميع المسيحيين . وياقوت الحموي (١٢٢٩) م الذي قال عن روما أنها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يعطيه الفرنجة وهو لهم بمنزلة الإمام متى خالفه أحد منهم كان عاصياً عندهم ومخطئاً يستحق النفي والطرود والقتل ، وابن الجوزي (١٢٥٧) م الذي يدعو البابا خليفة الفرنجة .

فالبا با هو قسيس أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وأن يغير ويلغي القوانين التي وضعها أسلافه . أما الخليفة فلا يستطيع أن يشرع مبدأ دينياً جديداً ولا يعفو عن الخطايا ولا يمارس وظيفة كهنوتية ما . فسلطة الخليفة اذن دينية ولكن ليست روحية ، أي أنه يستطيع باعتباره حامى الدين ان يعلن الحرب ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة .

وبقيت الخلافة قائمة بالرغم من كثير الظروف التي لا يستها سواء بشكلها العائلي الملكي في العهد الأموي ، أو بشكلها المقدس في العصر العباسي أو بانقسامها عندما وجد أكثر من خليفة واحد في العالم الاسلامي ، أو بضعفها وانقراضها ثم إحيائها كما حدث عقب غارات التتر على بغداد ، وإعادتها في عهد المماليك في مصر ، وانتقالها إلى غير العرب وهم الأتراك العثمانيون ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى ، وانهزام تركيا ، وقيام مصطفى كمال باشا ، وإلغاؤه الخلافة رسمياً في آذار سنة ١٩٢٤م .

وإذا كان الخلفاء الراشدون أشبه برؤساء الجمهورية من حيث طريقة انتخابهم الشورية ، فان سلطتهم كانت تتعدى سلطة رؤساء الجمهورية بمعناها الحديث ، إذ كانوا خلفاء النبي يجمعون كلتي السلطين الدينية والمدنية ، ويبيدهم جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والادارية ، يعينون مساعديهم والموظفين ، ولهم الحق في قبول رأي مجلس الشورى أو عدم التقيد به ، أما الامويون فقد حولوا الخلافة إلى ملكية وراثية ، وبالرغم من سيورهم على سياسة معينة وهي اعتمادهم على العنصر العربي وعلى الاحتفاظ بعروشهم بجميع الوسائل ، واستخدام بيت المال والوظائف الادارية ، والقتل والتهديد والحروب والضرب على كل من تحدته نفسه في منازعتهم السلطات ، فإنهم

قد تركوا لبعض ولايتهم صلاحيات واسعة في إدارة ولاياتهم ، كما فعل معاوية إذ أعطى ولاية مصر لعمر بن العاص ، وهبه خراجها طيلة حياته ، كما أعطي زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج سلطات واسعة أيضاً ، وما انتقلت الخلافة إلى العصر العباسي حتى أصبح الخليفة يحكم بحق مقدس ، وعاد إلى جمع السلطات كلها بيده ، وانتقم لذلك العباسيون الأوائل من كل من أوجسوا منه خيفة كأبي سلمة الحلال ، وأبي مسلم الحراساني ، والبرامكة ولما ضعف أمر الخلفاء العباسيين في الدور العباسي الثاني والأخير ، واستقلت كثير من الدويلات بإدارة شؤونها ، بقي أمراء هذه الدويلات يعترفون بسلطان الخليفة الديني ، ويرسلون إليه الهدايا والأموال مقابل اعتراف الخليفة الشرعي لهم بامارة ما استحوذوا عليه ، ونجد أن بعض المتنفذين وخاصة أمراء الأمراء ، والسلاجقة والبهمنيين والأتراك من قبلهم ، قد كانوا يضغطون على كثير من الخلفاء ، بل يسومونهم سوء العذاب ، بسمل أعينهم أو تقطيع ألسنتهم ، أو وضعهم في قيظ الشمس دون طعام أو شراب حتى يموتون ، دون أن يجسروا على إلغاء الخلافة أو تحويلها إليهم وهم من غير العرب ؛ مما يدلنا على تطور سلطة الخليفة وكيف أصبحت دينية بجته وليست سياسية ، أي أن الخليفة أصبح يتولى هذا المنصب ، ولا يشرف أبداً على أمور الدولة السياسية وإنما يوافق على تعيين أكبر رجال الدولة ، ويرسل الخلع وشارات الأمانة ، كما أن قيام الخلافة الفاطمية بمصر وجنوبي الشام ، والخلافة الأموية بالاندلس إلى جانب خلافة بغداد ، وكل خلافة تدعي أنها الشرعية في العالم الإسلامي ، وما عداها متعده عليها ؛ يدلنا على ذلك كثير من الوثائق التي تبودلت بين الخلافتين العباسية والفاطمية في ادعاء كل فريق أحقيته بالخلافة ، وكل يدعي نسبه برسول الله ، وإنه يجب أن يرث ولاية المسلمين وخلافتهم

كما يدلنا على ذلك الحروب التي نشأت بين الفاطميين والأمويين ، في الأندلس مثلاً ، أو محاولات العباسيين للقضاء على خلافة الأندلس الأموية واتفاقهم ، مع شارلمان أو غيره من ملوك الفرنجة في سبيل محاربة الخلافة الأموية في الأندلس .

أما في العصر العثماني ، فلقد فضل السلاطين أن يتلقبوا بلقب « خادم الحرمين الشريفين » ، لما في ذلك من شرف لهم وبأنهم يمثلون الزعامة الدينية في البلاد الإسلامية إلى جانب الزعامة العسكرية التي أخذوها بقوة الفتح ؛ ولقد أخذوا لقب الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين الذي كان يقيم في القاهرة ، في العصر المملوكي ، وليس له إلا وظيفة الرئيس الديني ، الذي يتوج أو يوافق على مركز السلاطين الممالك ، هذا وإن اختلفت الآراء في أنه هل كان السلطان سليم الأول الذي فتح سوريا ومصر هو أول من تلقب بلقب خليفة المسلمين أو أن ابنه السلطان سليمان هو أول من تلقب بهذا اللقب ، فإنه بما لا شك فيه أن سلاطين آل عثمان وقد كانوا أقوياء ، كانوا يجمعون جميع السلطات العليا بأيديهم ، وكانت إرادتهم هي القانون النافذ في جميع البلاد التي تخضع لهم ، ولما ضعف أمرهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذوا يستغلون كلمة (خليفة المسلمين) في غايتهم السياسية ليظهروا أمام الدول الأوروبية بأنهم زعماء البلاد الإسلامية لا التي تخضع لهم فحسب ، بل الخاضعة لغيرهم من الأمم المستقلة ، وأخص من استفاد من هذا اللقب هو السلطان عبد الحميد ، الذي دعا إلى جامعة إسلامية ليكسب عطف الشعوب الإسلامية في الهند واندونيسيا والبلقانات وليظهر أمام أوروبا بظهر القوي ، وبعد سقوط عبد الحميد ، حددت سلطة الخليفة أو السلطان العثماني بالوظيفة الدينية وسلب كل سلطة سياسية ، حتى كانت جمهورية مصطفى كمال والغاء الخلافة رسمياً ، ولا يزال بعض المسلمين

يفكرون بضرورة إحياء الخلافة ، كمركز ديني لاسياسي ، ولكن لم يزل الخلاف حول من يتولى هذا المنصب الجليل .

القاب الخليفة : لقب أبو بكر بخليفة رسول الله ، ولما ولي عمر ، ارادوا تلقيبه بخليفة خليفة رسول الله ، فاستقل ذلك على اللفظ ، ولقبوه بأمير المؤمنين بمعنى أنه أمير ، أي قائد المؤمنين ويجمع السلطين الحربية والادارية ، ثم أطلق عليه وعلى من أتى خلفه لقب خليفة فقط ، وأراد بعضهم أن يطلق عليه اسم الامام ، وخاصة الشيعة ، بمعنى إمامة المسلمين في الصلاة والأمر الدينية ، وفرقوا بين الامام والخليفة ، وكان للشيعة أئمة خاصون مع وجود الخلافتين الأموية والعباسية ، حتى إذا استطاعوا تأسيس الدولة الفاطمية ، جمع خليفتهم اللقبين في شخصه .

وقد اتخذ الخلفاء المسلمون القاباً بجانب اسمائهم ، ولم يهتم بذلك الامويون بقدر العباسيين ، ويروي القلقشندي نقلاً عن ابن حزم ان لقب معاوية الناصر لحق الله ، ولقب مروان بن محمد القائم بحق الله ، وتذكر مصادر اخرى ان لقب عمر بن عبد العزيز المهدي كما لقب الناس الخليفة هشاماً بالأحول ، ومروان بن محمد بالجعدي والحمار ، ويزيد الثالث الاموي الناقص . . .

ولما قامت دولة بني العباس ، و ارادت ان تحكم على اساس ديني ، وتبنت فكرة « الحق الالهي المقدس » عمل خلفاؤها على تثبيت هذه الفكرة بالقاب غلب على اسمائهم ، واول خليفة عباسي هو ابو العباس الذي لقب بالسفاح ، ويظهر انه كان يقصد به الكرم والسخاء ، لا التقتيل والمجازر او كلا المعنيين معاً . وقد استعمله ابو العباس في خطبته لاهل الكوفة فقال : « انا السفاح الميسح » وذلك في صدد وعدهم بالعطاء الكثير والسخاء

الوفير ، ولم يكن في معرض توعدهم بالقتل والتشريد وان كانت سيرته فيما بعد اثبتت انه لسفاح بمعنى قاتل او جزار .
واتخذ الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر لقب المنصور بعد قضاؤه على الثورتين العلويتين في عهده : ثورة الحجاز بقيادة محمد النفس الزكية (المهدي العلوي) وثورة البصرة بقيادة ابراهيم بن عبيد الله المحض .
ويرى فان فلوتن ان القصد من اتخاذ هذا اللقب يعني انه « الشخص الذي اعانه الله تعالى على احراز النصر » .

واتخذ الخليفة الثالث محمد بن عبد الله لقب المهدي وقد لقبه اخوه المنصور بهذا اللقب وذلك لاعلاء شأنه في نظر الرعية . . وهكذا تعاقبت الالقب مثل : الهادي والرشد وكلها القاب تضيفي على الخلفاء العباسيين الاوائل معنى القوة والسلطة الآلهية . . بينها تحولت الالقب مع ضعف الخلفاء الى : المتوكل على الله ، والمعتصم بالله والمستنصر بالله والمستعين بالله وغيرها ممن يعتمدون على نصر الله وتأيدده .

وفي العهود الاخرى في محاولات انقاذ العالم الاسلامي من الخطر الذي يتهده عادت الالقب الى صيغة جديدة .. الناصر لدين الله أو (خادم) او (حامي) الحرمين الشريفين .

الشورى : اعتمد الخلفاء الراشدون على الشورى في البت في الامور الهامة وحل المشاكل العامة ، وكانت الشورى على نوعين : جماعة من كبار الصحابة يعتمدهم الخليفة ويستشيرهم فيما يعرض له من أمر ، قبل البت فيه ، وعامة اهل المدينة وزعماء الوافدين اليها ، كما فعل عمر ، حين كان يأمر المنادي ان ينادي « الصلاة جامعة » وبعد الصلاة يخاطب عمر بالمصلين ويعرض عليهم الموضوع الذي يريد ان يعرف فيه رأي سواد الناس ، وبما روي عن عمر انه خطب مرة وقال : « انني لم ازعجكم الا لان تشركوا معي

فما حملت من امورك ، فاني واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقررون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقتني من وافقتني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر اريده . ما اريده الا الحق .

وبما يروى انه بهذه الطريقة فصل في عدة مسائل خطيرة ، كان ذلك ، حين اثبت مسألة قسمة اراضي الشام بالعراق بين الجند المحاربين ، ومانع عمر ، فقد استغرق الجدل فيها عدة ايام ، وحين عزم عمر بعد نهاوند قيادة الجيش بنفسه فعارضه عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر في مجالسه هذه في المسجد قد حلّ قضايا رواتب المجاهدين وانشاء الوظائف والدواوين وتعيين العمال وبعض قادة الجيوش .. ويروى ان عمر قال : لا خلافة بدون شورى . ومع تطور الدول الاسلامية نظم امر الشورى واصبح ركناً جوهرياً يرتكز عليه نظام الحكم .

شروط الخلافة وصفات الخليفة : لقد أورد بعض المؤرخين كالماوردي والبيروني وابن خلدون ضرورة توفر صفات في الخليفة والا فالمسلمون في حل من الخضوع له . لذلك نجد أنه في العهد العثماني استفاد البعض من أفراد الاسرة المالكة والسياسيين من ضعف بعض الخلفاء فاستصدروا فتوى من شيخ الاسلام بخلعهم وإقامة غيرهم .

وهذه الصفات هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواص واختلاف في شرط خامس وهو النسب القرشي .

١- العلم : أي أن يكون عالماً بشؤون الدين والاحكام الشرعية . ويقول ابن خلدون « ولا يكفي من العلم الا أن يكون مجتهداً ، لان التقليد نقص ، والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال » .

٢- **العدالة** : أي أن يكون مستقيماً متجنباً للمعاصي معروفاً بحسن السيرة والاخلاق الحميدة بين الناس .

٣- **الكفاية** : أي قادراً على حماية الحدود بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها قوياً على معاناة السياسة ، كفيئاً على حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدير المصالح .

٤- **سلامة الحواس والاعضاء** : أي أن يكون سليماً من الجنون والعمى والصمم والحرس وما يؤثر فقده من الاعضاء على العمل كفقده اليدين والرجلين

٥- **النسب القرشي** : وقد أجمع عليه الصحابة يوم السقيفة معتمدين الحديث « الائمة من قريش » . ولكن بعد تسلط الاعاجم على الخلفاء شك كثير من المحققين والفقهاء في هذا الشرط حتى ذهبوا الى نفيه . وعولوا في ذلك على احاديث أخرى كالتى تقول : « اسمعوا وأطيعوا وان ولي عليكم عبد حبشي »

ولابن خلدون رأي خاص هو أن يكون الخليفة من أصحاب العصبة أياً كانت جنسيته . وبما أن الغلبة والنفوذ كانتا لقريش بعد وفاة النبي ﷺ فمن الضروري أن تكون الخلافة فيهم وقتئذ .

ولاية العهد : يقول ابن خلدون : « بما أن الخليفة هو الناظر في مصالح الامة الدينية والدنيوية وهو وليها والامين عليها وقد منحه ثقته فانه من متممات مهمته أن يؤمن مصلحة المسلمين بعد وفاته ، وأن يعين لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها . » وقد جرى ذلك في عهد الراشدين بشكل شوري فقد عهد أبو بكر لعمر من بعده بحضر من الصحابة الذين أجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر . وكذلك عهد عمر الى سبعة أشخاص أمر اختيار خليفة من بينهم ، على أن يستثنى ابنه عبد الله فينتخب ولا ينتخب . فتركزت

الآراء على عثمان وعلي . فحكم عثمان وبعد مقتله تولى الخلافة علي . وهذه الطريقة أيدها كثير من المؤرخين والناقدين لأنها تجمع بين الجمهورية والملكية المطلقة والشورى . فهي جمهورية لأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لأن الانتخاب كان بالشورى؛ وهي ملكية مطلقة لأن الخليفة كان مطلق التصرف .

ثم لما آلت الخلافة الى الامويين والعباسيين وأصبحت إرثية كلف الخلفاء يبيعون لأولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوي قرابتهم . وقد أيد ابن خلدون ذلك التغيير الذي جرى في تعيين ولي العهد بين عهد الراشدين والعهد الاموي والعباسي إذ يقول : ان بعض الخلفاء كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية ، والسفاح والمنصور والمهدي والرشد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ؛ ولا يعاب عليهم إظهار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك ... لأن العصية قد أشرفت على غايتها من الملك ، والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني ... » .

وكان الخلفاء إذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم أهلاً للخلافة يبيعوا لاحدهم ، وشرطوا أن يخلفه فلان ، أو فلان كما فعل يزيد بن عبد الملك لما بايع أخاه هشاماً على أن يخلفه ابنه الوليد الذي كان صغير السن . كما كان الخلفاء يعرضون عزمهم في تعيين خلفهم على أهل الرأي كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدي وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقام الخطباء فتكلموا ، وقامت الشعراء فاكثرت في وصف المهدي فرجحت بذلك كفته .

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختتمه بخاتمه وخواتم

أهل بيته ويحفظ في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة كما فعل الرشيد . كما انه يدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة .

البيعة : البيعة هي العهد على الطاعة فاذا بايع الرجل اميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لا يخالفه في شيء؛ وكان العرب اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري . وصارت البيعة مصافحة الايدي وهو مدلولها بعرف اللغة .

واقدم بيعة في الاسلام بيعة الانصار للنبي ﷺ بالعقبة قالوا: ((يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا نمنحك بما تمنع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا .)

ولما يبايع الخليفة يأتون له بركب الخلافة ، وهي افراس مسرجة ، ولكل دابة سائس ، باللبسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ويشي بين يديه رجل يحمل حرباً . ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينها الى دار الحكومة . ثم يرد عليه وفود المهنيين وكانت العادة أن يبدأ كبار الدولة بالمبايعة ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة قادة الجيش وقضاة بغداد في كثير من المرات .

وكان العرب يملون في المبايعة الى الاختصار، وكانت البيعة تتلى شفاهاً ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت تتألف من كلمات فصارت صفحات كثيرة بما ادخل فيها من الحشو والاطناب .

علامات الخلافة : وهي ثلاثة أشياء : البردة والحاتم والقضيب توارثها الخلفاء عن الرسول عليه السلام . وكان الخليفة الجديد يستلمها من القديم ويورثها لمن بعده .

١ - **البردة :** هي بردة النبي ﷺ التي خلعها على الشاعر كعب بن

زهير لما رجع إلى النبي ثانياً مستغفراً ومدحه بقصيدته المشهورة « بانت
سعاد فقلبي اليوم متبول » وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها
معاوية أثناء خلافته بأربعين ألف درهم وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون^(١) .

٢- **الخاتم** : اتخذ الخلفاء تشبهاً بالنبي . وقد استعمل النبي الخاتم لما
كتب إلى قيصر وكسرى يدعوها إلى الإسلام . وخاتمه من فضة نقش
عليه « محمد رسول الله » كل كلمة بسطر . وانتقل هذا الخاتم إلى أبي بكر
ثم إلى عمر وعثمان . ويقول البخاري أنه سقط من يد عثمان في بئر ولم يعثر
عليه ، فاعتم عثمان وتطير من ذلك وصنع آخر على مثاله .

وكان كل من ولي الخلافة بعده يصنع له خاتماً . ولم يكن الخلفاء
ينقشون على خواتمهم أسماءهم بل عبارات فيها مواعظ وحكم مثل « على الله
توكلت » و « اعتمادي على الله وهو حسبي » الخ ...

ولما نشأت السلطنات ، جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة
وسموها الطغراء ، وهي نقشة فيها ألقاب الملك وسميت كذلك نسبة إلى
الحسين أبي اسماعيل الطغرائي وزير السلطان مسعود السلجوقي وكان خطه
جَمِيلاً ويقال أنه أول من كتبها .

٣- **القضييب** : هو ثالث علامات الخلافة . لم يشرح المؤرخون المقصود
منه لعله قضييب النبي ﷺ توارثه الخلفاء أو قلده في حمله .
شارات **الخلافة** : وهو أيضاً : الخطبة والسكة والطرارز .

١- **الخطبة** : ويقصد بها الدعاء للخليفة على المنابر في جميع مساجد البلاد
التابعة له . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو
الامراء يشاركون الخلفاء فيذكرون أسماءهم بعدهم . وكان أحياناً يستقلون
في الدعاء لأنفسهم .

(١) يروي العباسيون قصة طويلة عن وصول البردة والخاتم والقضييب
إليهم من الأمويين ، لم تؤكد هذه الرواية من جمهرة المؤرخين .

٢ - **السكة** : وهي أن يضرب اسم الخليفة على النقود المتعامل بها بين الناس ، وكان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الفارسية والرومية وغيرها من يمانية ونبطية وتدمرية الخ . . ثم لما جاء الاسلام ضرب الخلفاء والأمراء النقود مشتركة بينهم وبين الروم والفرس . كما فعل خالد وعمر ومعاوية وعبد الله بن الزبير . ولما آلت الخلافة الى عبد الملك اراد تغيير الطراز الذي يستورد من بلاد الروم فهدده ملكها بان ينقش على دنانيره شتم النبي . فعظم هذا الأمر على عبد الملك فأمر بضرب النقود وهدد بالقتل من يتعامل بغيرها . وكانت الآلة التي تستعمل لضرب النقود تسمى السكة .

٢ - **الطراز** : وهو قديم في الدول في عصر الروم والفرس . وذلك ان يرسم الملوك اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة لباسهم ، وكان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصورة الملوك واشكالهم او اشكال وصور معينة . وقد اعتاض الخلفاء عن ذلك بكتابة أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو الدعاء . وكان هناك طراز خاص وأشكال معينة لثياب الخليفة ولموظفي البلاط والأمراء والقواد .

تعدد الخلافة - ضعفها وزوالها : بقيت الخلافة محتفظة بسلطانها وقوتها في عهد الراشدين والامويين وأول عهد العباسيين . ثم بدأ ضعف الخلفاء لتسلط الاعاجم عليهم من ترك وسلاجقة وبويهيين وغيرهم يسومونهم سوء العذاب من خلع وقتل وتمثيل . واقتصرت سلطة الخليفة في عهود الضعف على الامور الدينية فقط .

كما أن العالم الاسلامي قد تجزأ وزالت وحدته . فالاندلس استقلت وتأسست خلافة أموية فيها . وكذلك نشأت خلافة فاطمية في المغرب ومصر . هذا الى جانب الخلافة العباسية في بغداد . وبذا أصبح هنالك ثلاثة خلفاء في وقت واحد .

يضاف الى ذلك انه في منتصف القرن الرابع الهجري اتخذ حاكم سجلماسة لقب أمير المؤمنين . كما ان عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في بلاد المغرب اتخذ لقب خليفة و أمير المؤمنين . واخيراً لما سقطت الدولة العباسية ٦٥٦ هـ استقدم الظاهر بيبرس أحد افراد الاسرة العباسية الذين نجوا من المغول وهو الامام احمد بن الخليفة الظاهر . وعقد بيبرس مجلساً من كبار رجال الدولة وبايعوه بالخلافة ولقبوه « المستنصر بالله » وذلك ليقوي بيبرس مركزه في العالم الاسلامي ضد منافسيه .

وجملة القول انه بزوال الخلافة العباسية في بغداد ، اختل نظام الخلافة واصبح في مقدرة كل امير قوي ان يتخذ لنفسه لقب خليفة ، كما حصل في فارس وما وراء النهر ومصر وتونس ومراكش . وبهذا التعدد في نظام الخلافة اصبحت كلمة خليفة لاتدل على الرجل الروحي المتسلط على العالم الاسلامي ، وانما اصبحت تدل على مجرد حاكم .

ثم لما فتح السلطان سليم الشام ومصر (١٥١٧ م) استولى على الخلافة كما يذكر بعض الكتاب من المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس الذي تنازل له عنها . الا ان معظم المؤرخين يميلون الى الشك بصحة هذا الخبر لاسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن . وبعد ان اعلنت الجمهورية برئاسة مصطفى كمال فصلت السلطة السياسية عن الدينية ثم الغيت الخلافة رسمياً سنة ١٩٢٤ م .





الفصل الثالث

الوزارة

تعريف الوزارة : يقول الماوردي في « ادب الوزير » الوزارة اسمها مشتق من معناها ، واختلف فيه على ثلاثة أوجه :

- ١ - من الوزر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله .
- ٢ - من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره .
- ٣ - من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى: « كلا لا وزر ، أي لا ملجأ ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته .

وقد عرف لنا هارون الرشيد الوزير لما عين يحيى بن خالد وزيراً له أنه « نائب مفوض يحكم البلاد كلها باسم الخليفة . وقد اطلقت يده في التولية والعزل والعطاء والحرمان لا يشاركه في ذلك أحد » .

وقد وردت كلمة وزير في موضعين من القرآن . في سورة طه حيث يخاطب موسى ربه قائلاً : « ... رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أشدد به أزري واشركه في أمري » وفي سورة الفرقان : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيراً » .

الوزارة قبل العصر العباسي : ليست الوزارة من مستحدثات الاسلام ، فقد عرفها بنو اسرائيل والساسانيون الفرس وربما غيرهم . وإذا أريد بالوزارة المساعدة والمعاونة والاستشارة فإنها عرفت لدى معظم الدول المنظمة ، فإن ملوك العرب قبل الاسلام في اليمن والحيرة والشام كانوا يسمون من يؤازرهم أعباء الملك (الراهن) لأنه مرتين بالتدبير . (والزعيم) لأنه زعيم بصواب الرأي . و (الكافي) لأنه يكفي الملك مهمات الأمور . و (الكامل) لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

وفي صدر الاسلام كان النبي ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين خالطوا الفرس والروم والأجباش يسمون أبا بكر وزيره . ويقول بعض المؤرخين أن الوزارة ظهرت مع الخلافة فكان عمر وزيراً لأبي بكر وكذلك علي وعثمان مع عمر ومروان بن الحكم مع عثمان .

ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين وجعلوها إرثية تعتمد على السياسة والدهاء احتاجوا إلى من يستشيرونهم ويستعينونهم في شؤون القبائل وتدبير أمور الدولة بعد أن تطورت بالنسبة لما كانت زمن الراشدين . فاستغلّموا أناساً لذلك يقومون بعمل الوزراء ولكن لم يطلق عليهم هذا اللقب . إلا أن بعض المؤرخين يقولون عن زياد بن أبيه وعمرو بن العاص أنها وزيرا معاوية . ويذكر المسعودي في كتابه التنبية والاشراف : أن بني أمية كانت تنكر أن تخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من الوزارة . والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة .

الوزارة زمن العباسيين : قال ابن طباطبا أحد الذين ارجخوا في الوزارة . « الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس . فاما

قبل ذلك فقد كان الملوك يستشيرون ذوي الحجا والآراء الصائبة من اتباعهم وحاشيتهم فكان الواحد منهم يجري بحرى الوزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً .

ويميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن العباسيين قلدوا الفرس واخذوا عنهم بعض نظم حكمهم ومنها الوزارة وما يترتب عنها ، وقد تناقل المؤرخون هذا القول حتى أصبح كأنه حقيقة ثابتة لاجدال فيها .

ولكن إذا نظرنا إلى سنة تطور الدول ونظام رقيها نرى أن العرب كانت قد مضى على تأسيسهم دولتهم الكبرى مدة طويلة وانتشر نفوذهم وتنظمت حكوماتهم كما تنظمت غيرها من الدول بفعل الزمن وقوانين التطور . والدولة العربية كانت واسعة الأرجاء بعيدة الحدود لا يستطيع الخليفة أن يقوم وحده بأمور السياسة والادارة كلها ، فلا بد له من الاستعانة برجال آخرين يؤازرونه ويشاركونه ويتسمون بأسماء مختلفة . وقد عرف العرب ذلك قبل الاسلام وبعده . وقديماً قالوا : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعيان . فمن بحرى الحوادث التاريخية نلاحظ أن العرب عرفوا منصب الوزير كما نلاحظ أيضاً أن علماء اللغة القدماء جعلوا كلمة الوزارة عربية كما مر معنا . نضيف إلى ذلك أن الكلمة وردت في القرآن . كما استعملها أبو بكر في اجتماع السقيفة لما خاطب الأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .

كان أبو سلمة الخلال أول من دعي بالوزير في دولة بني العباس . وقد اغتاله السفاح ؛ ثم استوزر أبا الجهم ومن بعده خالد بن برمك جد البرامكة .

الذين نبغوا وسما نفوذهم في الدولة حتى قضى عليهم الرشيد ، وجرى جميع الخلفاء العباسيين هذا المجرى من اتخاذ الوزراء والاعوان .

ووصف المأمون الوزير الذي يرغب أن يستوزره بقوله : « إني التمت لاموري رجلاً جامعاً لحُصَالِ الخير ، ذا عفة في خُلُقِهِ ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، واحكمته التجارب ، إن أوثقت على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهبات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللحظة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . إن حسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالأساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه ، وقد جمع أحد الشعراء الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوزير بقوله :

بديته وفكرته سواء إذا اشتبهت على الحال الأمور
واحزم ما يكون الدهر يوماً إذا أعيى المشاور والمشير
وصدر فيه لهم اتساع إذا ضاقت من الهم الصدور

نوعاً الوزارة : يقسم علماء التشريع الاسلامي كالمأوردي وغيره الوزارة في العهد العباسي إلى نوعين :

١ - وزارة التفويض ٢ - وزارة التنفيذ .

١ - **وزارة التفويض :** يرأسها شخص يفوض إليه الخليفة تدبير الأمور برأيه ، وامضاتها على اجتهاده دون الرجوع إليه . ومن أشهر وزاره التفويض : جعفر البرمكي وزير الرشيد والفضل بن سهل وزير المأمون ، فسلطة التفويض إذاً مطلقة شبيهة بسلطة الخليفة إلا في ثلاثة أمور :

١ - ولاية العهد : فالخليفة يولي ولياً للعهد ولا يجوز ذلك للوزير .
ب - الاستعفاء : أي ان الخليفة يستعفي الأمة من الخلافة ولا يجوز للوزير أن يستقيل .

ج - العزل : أي للخليفة أن يعزل من عينه الوزير وليس للوزير أن يعزل من عينه الخليفة .

٢ - وزارة التنفيذ : يرأسها شخص لا يحق له تدبير الأمور باجتهاده .
وانما يكون عمله قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة . وهو واسطة بين الخليفة وبين الرعية . فيقوم بما يأمره الخليفة به من تعيين الولاة وتجهيز الجيوش وإدارة شؤون الدولة .

الفرق بين الوزارتين : ذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية الفرق بين الوزارتين وجعلها باربعة نقاط يجوز لوزير التفويض القيام بها وليس لوزير التنفيذ مثلها .

١ - مباشرة الحرب والنظر في المظالم .

٢ - الاستبداد في تقليد الولاة .

٣ - الانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب .

٤ - التصرف في أموال بيت المال .

كما أنه يمكن إضافة فرق خامس وهو أنه يجب أن يكون وزير التفويض واحد ، بينما يجوز أن يكون وزيران للتنفيذ .

شروط وزير التفويض : يستوجب الماوردي من وزير التفويض أن يكون جامعاً للشروط المطلوبة في الخليفة ينقص عنه في واحدة وهي

النسب . ويزيد في واحدة وهي المعرفة بأمرى الحرب والخراج لياشرهما بنفسه أو يختار من يياشرونهما تحت إشرافه .

شروط وزير التنفيذ : لا يشترط فيه أن يكون حراً ولا علماً لأنه ليس له أن ينفرد بعمل . ويراعى فيه ثمانية شروط وهي :

١ - الامانة . ٢ - صدق اللهجة . ٣ - قلة الطمع . ٤ - بعيداً عن عداوة الناس . ٥ - ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة . ٦ - الذكاء والفتنة . ٧ - ألا يكون من أهل الاهواء . ٨ - الحنكة والتجربة إذا كان بما يحتاج الخليفة إلى رأيه ومشورته .

عدد الوزراء : يقول الماوردي : إنه يجب ألا يكون في الدولة الا وزير واحد للتفويض ويجوز أن يكون اثنان للتنفيذ كما مر معنا ، ولم يعرف تعدد الوزراء إلا في أواخر العهد العباسي زمن عضد الدولة . ويقول آدم مئز « ... أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شيئين لم يكونا قبله . أولهما اتخذ وزيرين معاً ، والثاني أن أحد هذين الوزيرين وهو ابن منصور نصر بن هارون كان نصرانياً أبقاه الخليفة في بلاد فارس وطنه وأخذ الوزير الثاني معه إلى بغداد . » ولما جاء بهاء الدولة جرى على طريقة أبيه فعين وزيرين .

وإذا وجد وزيران في وقت واحد يجب حسب رأي الماوردي ألا ينفذ لهما أمر إلا حين يجتمعان على رأي واحد . إذا انفرد أحدهما برأي فلا يؤخذ به وإذا اختلفا في شيء رُدَّ إلى الخليفة فنفذ فيه حكمه . ولا ضرر من أن يختص كل وزير بعمل معين أو بلاد معينة . كأن يكون أحدهما

للحرب ، والآخر على الخراج ، او احدهما لبلاد المشرق ، والآخر لبلاد المغرب .

ولما جاء السلاجقة جعلوا لأنفسهم وزيراً وللخليفة وزيراً . وكان وزير الخليفة ضعيف الأمر .

بينما أوجد الترك الذين سيطروا على شرق الدولة العباسية أيام ضعفها وظيفة « الدويدار » وهي وظيفة محصورة في استتباع كاتب السر وصاحب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة كما يقول ابن خلدون في مقدمته . وكان من وظائفه أيضاً الوقوف في مجلس السلطان أو التقدم بين يديه بالوفود ، وتقديم التحية ...

سلطة الوزير : لقد ذكرنا بصورة مجملة سلطة وزيري التفويض والتنفيذ . ولكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار حالة الدولة في أدوار قوتها وضعفها ومكانة الخلفاء ومدى نفوذهم نجد أن سلطة الوزير كانت تتأثر إلى حد بعيد بقوة الخلفاء وضعفهم .

ففي العصر العباسي الأول كانت سلطة الخلفاء قوية حتى أن الوزراء كانوا يخافون على أنفسهم من بطشهم . ويبدو هذا الخوف في أنهم كانوا يتجنبون أن يطلق عليهم اسم وزير بعد مقتل أبي سلمة الخلال وأبي الجهم الذي سمّه المنصور ، فلما أحس أبو الجهم بالسقم قام لينصرف فقال له المنصور إلى أين ؟ قال : إلى حيث بعثني يا أمير المؤمنين :

أسوأ العالمين حالاً لديهم من تسمى بكاتب أو وزير^(١)

(١) من قصيدة للشاعر ابن حبيبات الكوفي .

ثم استوزر المنصور عدداً من كبار الشخصيات كان نصيب البعض منهم القتل ونصيب الآخرين العزل . فالوزراء في عهده لم يكن لهم شأن كبير لاستبداده واستغناؤه برأيه وكفاءته .

أما في عهد الرشيد فقد بلغ نفوذ الوزير منتهاه . وقد قال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي لما اتخذته وزيراً له « اني قد كنتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك ما ترى من الصواب واستعمل من رأيت وامض الأمور على ما ترى » ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة . ولكن الرشيد ماعتم أن نكب البرامكة لما رأى ازدياد سلطانهم واتساع نفوذهم .

ثم في الأدوار التالية لما ضعف شأن الخلفاء ازداد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة على الوزارة ونفسي الدس والرشوة . وإذا أظهر أحدهم استعداداً لشراء هذا المنصب يدفع مبلغاً كبيراً من المال للخليفة . ثم يرجع ويسترده من أي وجه بعد توليته .

وبلغت الوزارة في مطلع القرن الرابع أي زمن المقتدر في عهد ابن الفرات شأواً بعيداً من حيث الابهة والنفوذ وكثرة المال . حتى قال أحد المؤرخين : ما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والآث ما يحيط بعشرة آلاف الف غير ابن الفرات . وقد ظهر بمظهر الفخامة التامة فكان يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم . وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم سوى ما يصلهم به متفرقاً وعند مديحهم إياه . وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب هم خاصة كتابه

وكان منهم اربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين .

وفي أسباب تطور نفوذ الوزارة يقول ابن خلدون : « ولما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف إليه النظر فيه ، ثم يشرح ابن خلدون كيف تطورت سلطة الوزير وجعل له النظر في المكاتبات لمعرفته بأسرار الخليفة . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان في أيام الرشيد ، وذلك اشارة إلى عموم نظره ، وقيامه بالدولة .

ضعف شأن الوزارة : أخذت سلطة الوزير منذ القرن الرابع تتسع أو تنقلص حسب حالة الدولة وموقف الخليفة . إلا أنها كانت تضعف وتسوء بما دعا الخلفاء إلى تبديل الوزراء وتغييرهم إلى أن انتهى الأمر في عهد الراضي إلى سيطرة امراء الامراء على الحكم مباشرة كما سيمر معنا فكانوا يعزلون ويولون وينظرون في جميع الامور ، وليس للوزراء من سلطة سوى الاسم . ثم في عهد المستكفي دخل امراء بني بويه بغداد وحجروا على الخلفاء فلم يعد هؤلاء يستوزرون وإنما كانت تولية الوزراء لبني بويه .

القاب الوزراء ورواتبهم : لم يكن للوزراء في العهد العباسي الأول القاب يضيفونها إلى لقب الوزارة وينفردون بها . إنما نجد في المصادر أن جعفر

ابن يحيى البرمكي قد دعي بالسلطان اشارة إلى اتساع نفوذه واستلامه كل مقدرات الدولة .

ولعل المهدي هو أول من أطلق على وزيره لقباً ولكن دون أن يشتهر به . فقد لقب وزيره يعقوب بن داود الاخ في الله . وجاء المأمون فلقب وزيره الفضل بن سهل ذا الكفايتين ولقب الحسن بن سهل ذا الرياستين لأنه جمع له بين السيف والقلم .

وفي أواخر العهد العباسي وفي زمن الدولة الفاطمية ظهرت الألقاب الفخمة . وأول من لقب بالألقاب الكثيرة وزير جلال الدولة (٤١٦) هـ إذ لقبه سعد الدولة وأمين الملة وشرف الملك . كما لقب المسترشد (٥١٣) هـ أحد وزرائه بهذه الألقاب جلال الدين وسيد الوزراء وصدر الشرق والغرب وظهر امير المؤمنين . ولكن المسترشد قبض عليه وعزله لان وزير السلطان السلجوقي كان يحقد عليه .

ورغم ان وزراء الفاطميين لم تكن سلطتهم تتعدى سلطة وزير التنفيذ فان الخلفاء اطلقوا عليهم القاباً فخمة مثل : ظهير الامة و خليل امير المؤمنين .
رواتب الوزراء : كانت الرواتب تختلف باختلاف العصور والاشخاص . ونحن نجعل قيمة رواتب الوزراء في أوائل الحكم العباسي . ويبدو أنها كانت غير محدودة وتتألف من الهبات الكبيرة والمدايا النفيسة والضياع والخلع . ولا نعلم متى بدأ الخلفاء يخصصون رواتب لوزرائهم . انما تذكر المصادر ان المقتدر بالله العباسي فرض لوزيره علي بن عيسى (٥٠٠) دينار في الشهر . هذا الى ما كان يعطي من الرواتب لاهل الوزراء ولاخوتهم واولادهم وحواشيهم .

ولقد جاء وقت كان فيه الوزراء يضمنون واردات الدولة ضماناً ،

فيتصرفون بما يفيض عن مبلغ الضمان ويصيبون ثروة عظيمة من الرشوات والمصادرات والهدايا ونحوها . وقد ذكر المؤرخون ان ابن الفرات وزير المقتدر اكل من اموال المصادرات اكثر من مليون دينار في حادثة واحدة . ولما عزل صودر من امواله مليون وستمائة الف دينار سوى الاثاث والعقار والضياع وغير ذلك .

أما مخصصات الوزير الشهرية في العهد الفاطمي وما يلحقه من رواتب اهله واتباعه كانت على النحو التالي :

الوزير (٥٠٠٠) دينار . ولكل واحد من أبنائه واخوته (٢٠٠ - ٣٠٠) دينار . ولكل واحد من حواشيهم (٣٠٠ - ٥٠٠) دينار هذا عدا الاقطاعات والهدايا والخلع .

وقد بلغت رواتب بعض وزراء العباسيين والفاطميين مائة الف دينار في السنة

تعيين الوزراء وعزلهم : كان تعيين الوزراء في اول الامر يتم بأسهل طريقة وذلك بأن يدعو الخليفة اليه الرجل الذي وقع عليه اختياره للوزارة ويبلغه ارادته فينطلق هذا الى عمله .

أما فيما بعد فقد بلغت مراسيم التعيين حد الروعة والبهاء . فكان من يستوزره الخليفة يأتي الى القصر بعد ان يصله الكتاب الرسمي الذي كان يحمله اليه أميران من أمراء الدولة ، وعند وصوله الى باب الحجرة كان يقدمه الحاجب الى الخليفة ، وبعد أن يؤدي الطاعة كان يتحدث معه قليلا ، ثم يذهب إلى حجرة أخرى حيث يلبس ثياب التشريف . ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف إلى الديوان منتظياً فرساً مطهماً ، وكان يسير بين

يديه كبار الموظفين والجيش والامراء وموظفي البلاط وخدام الخليفة والحجاب ، وعندما يصل إلى ديوانه كان يستقبل استقبالاً حافلاً ويقرأ عليه مرسوم التعيين .

عزل الوزراء : كان اكثر الوزراء لايعزلون ، وانما يقتلون أو يسجنون وتصادر أموالهم ويعزل معهم كتابهم وأصحابهم . وربما قتلوا معهم أو حبسوا وصودروا . ولا يسلم أولاد الوزير وأقرباؤه أحياناً من أذى الخليفة . وقد ذكر احد المؤرخين حالة اعتبرها شاذة وهي : ان السلطان جلال الدولة ملكشاه طلب من الخليفة المقتدي عزل وزيره ابي شجاع ، فخرج توقيع المقتدي بعزله على حالة جميلة ، لم يصرف بشئها وزير .

قيل ان ابا أيوب المورياني كان في مجلسه فأثاه رسول الخليفة المنصور فامتقع لونه وتغير . فسأله بعض أصحابه عن خوفه فذكر لهم قصة البازي والديك . وذلك أن البازي كان يعجب من الديك لا يدنو منه أحد حتى يطير بمنة ويسرة ويصيح ويصوت ، بينما يلزم البازي الهدوء . فقال له الديك لو رأيت في سفافيدم التي يشوي فيها اللحم من البزاة مثل الذي رأيت أنا فيها من الديكة لكنت شراً مني .

واردف المورياني يقول : ولكنكم لو كنتم تعلمون ما اعلمه لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكني .

الوزراء في الاندلس : قلدت باقي الدول العربية والاسلامية العباسيين في اتخاذ الوزراء كما جرى في الاندلس ومصر .

اما في الاندلس فيقول ابن خلدون ما معناه : « ان مؤسسي دولة بني امية في الاندلس انقوا من اسم الوزير في مدلوله اول عهد الدولة . ثم قسموا همه اصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً . ففعلوا :

- ١ - لحسابان المال وزيراً (المالية) .
- ٢ - وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً (العدالة) .
- ٣ - وللارسال وزيراً (الخارجية) .
- ٤ - وللنظر في أحوال أهل النخور وزيراً (الحربية) .

وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أوامر السلطان هناك كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم ، فارتفعت وظيفة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها .

الوزارة لدى الفاطميين والمماليك : عرف منصب الوزير زمن الاخشيديين قبل عهد الفاطميين . ولما اقبل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر كان فيها الوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات . وقد ابى جوهر في بادىء الامر أن يلقبه بالوزير لما اقره في منصبه اذ ان سياسته كانت ترمي الى عدم احلال الشيعيين محل السنين دفعة واحدة حتى لا يقف دولا ب الاعمال الحكومية . ولم يبق لابن الفرات من منصبه الا الاسم فقط .

ثم عهد المعز بالوزارة الى يعقوب بن كلثوم اليهودي الاصل . الا أن هذا الاخير اولى ابن الفرات ثقته التامة واعتمد عليه وتوثقت أواصر الصداقة بينهما . ولا سيما عندما زوج ابن كلثوم ابنته الى ابن صديقه ابن الفرات .

ومن استعراض اسماء وزراء الفاطميين نجد ان الخلفاء لم يتقيدوا في أن يكون الوزير شيعياً اسماعيلياً ، فاستوزروا ابن كلثوم واما منصور صدقة بن يوسف الفلاهي وأبا الحسن بن أبي سعد التستري وكنوا يهوداً قبل اسلامهم ، واستوزروا عيسى بن نسطورس ، وأبا العلا فهد بن ابراهيم ، والشافعي زرة

ابن نسطورس وأبا سعد منصور بن أبي اليم سورس بن مكر واه وبقوا على دينهم المسيحي ، يقال ان الاخير أسلم ، وأنكرت النصارى إسلامه - كما استوزروا اليازوري السني الحنفي وكان وزير تنفيذ .

ويجب أن نلاحظ ان الفاطميين ، كما لم يتقيدوا بمذهب الوزير تقيداً تاماً ، لم يتقيدوا بجنسيته أو ببلد نشأته ، ان صح التعبير ، فجوهر الصقلي مغربي ، وقد جعل الى جانب كل موظف مصري ، موظفاً مغربياً ، وجاء من بعده ابن كلس وهو بغدادى الاصل ، والجرجاني ، عراقي من السواد ؛ واليازوري فلسطيني .

يضاف الى هذا أن اهم من لعب دوراً في تاريخ الفاطميين من وزراء التفويض كانوا من الارمن مثل بدر الجمالي وابنه وحفيده ، ويانس وزير الحافظ ، وبهرام والصالح طلائع بن زربك . ثم اصبحت الوزارات إرثاً في بعض الأسر ، كعائلة أمير الجيوش .

وكانت سلطة الوزير لدى الفاطميين كسلطة وزير التنفيذ في العصر العباسي . وصار يطلق على الوزارة في عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ) اسم الوساطة .

وضعف شأن الوزراء والخلفاء منذ عهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٧٨ هـ) حتى انه قد تعاقب اربعون وزيراً في تسع سنوات ، لذلك استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكا لاصلاح أمور مصر فتمتع بالسلطة المطلقة حتى وفاته ، ثم تولى الوزارة بعده ابنه الافضل بن بدر الجمالي الذي استبد بالحكم حتى اصبحت الوزارة في عهده كالحجور عليه . ودخلت الوزارة في عهده في طور جديد ، اذ أصبح الوزير رب السيف والقلم وفي قبضة يده خراج الدولة . وازدادت سلطة الوزراء وتضخمت ثروتهم واصبح الخلفاء العوبة في ايديهم .

الوزارة في عهد الماليك : استلم الوزارة في أواخر العصر الفاطمي في

عهد العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) أسد الدين شيركوه . وخلفه في هذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي لقب نفسه بالملك الناصر وقضى على الدولة الفاطمية وأسس دولة المماليك الايوبية .

وظلت الوزارة قائمة في مصر في عهد المماليك ، إلا أنه وضع إلى جانب الوزير الذي أصبح عمله تنفيذ رغبات سلطان المماليك واسداء النصيح له : النائب ؛ وهو الذي يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ، كما اوجد منصب وزير الصعبة ، وهو الذي يصحب السلطان في حروبه واسفاره ليتسنى للوزير الاصلي القيام بامور الدولة .

ثم بعد ذلك ، اضعف المماليك من نفوذ الوزارة واحدثوا وظيفة ناظر الدولة وناظر الخاصة وكان كل منهما يقوم بهام الوزارة . ولعلمهم ارادوا بذلك ألا يتعرضوا للخلع والاضطهاد كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .





الفصل الرابع

امرة الامراء والصلطين والملوك

امير الامراء : يقول ابن خلدون ما معناه : « لما ضعف شأن الخلافة واستبد الاعاجم بالحكم وكان من المتعذر عليهم التحال لقب خليفة واستنكفوا مشاركة الوزراء في اللقب لانهم دونهم مرتبة ومقاما ، لهذا تسموا بالامارة والسلطان ، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو السلطان او غير ذلك من الالقب الخاصة بالخليفة التي يمنحهم إياها » .

وفي عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) تعذر على الوزراء ادارة شؤون البلاد لازدياد نفوذ كبار القواد الاعاجم وتدخلهم في أمور الدولة . بما دعا الخليفة الى استمالة ابن رائق وكان والياً على واسط والبصرة وسلم إليه مقاليد الامور ولقبه امير الامراء . وأمر أن يخاطب له على المنابر وخلع عليه وأعطاه اللواء وكانوا يسمونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد . ولم يكن ابن رائق أول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه : (تجارب الامم) أن المقتدر قلد هرون بن غريب إمرة الامراء سنة (٣١٦ هـ) . كما قال أيضاً : « انه منذ تولية ابن رائق منصب امارة الأمراء بطل امر الوزراء ولم يكن للوزير سوى اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواقب

دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكناً . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الامر كله . وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الامراء فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ويطلقون لنفقات الخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الاموال ، وكانت حالة الخلفاء العباسيين في عهد امرة الامراء تشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين مع نظار السراي : Mayors of Palace اذ لم يكن لهم من الأمر شيء الا ما كانت من ظهورهم في الحفلات الرسمية .

وقد وصف المؤرخ اينهارت سكرتير شارلمان ومؤرخ حياته ضعف ملوك الميروفنجيين المتأخرين وصفاً دقيقاً قال : « ولقد ظل البيت الميروفنجي سنين طويلة خالوا من كل قوة ولم يحط بالملك شيء من مظاهر العظمة سوى اللقب الملكي . لان حكام قصرهم قد آلت اليهم ثروة البلاد واصبحوا المتصرفين في مهام الدولة جميعها . ولم يبق للملك من سلطة سوى الرضا بلقبه الملكي وما كان من جلوسه على عرشه بشعره الطويل ولحيته المدلاة . فكنت تراه اذا ماسمع خطب سفراء الدول يرد عليها بكلمات قد تلقها من قبل .. وإذا أراد الملك السفر رحل في عربة مغطاة يجرها ثوران ويسوقها رجل من رجال الريف... » . وهكذا كان حال أواخر خلفاء بني العباس في بغداد .

السلطان : اما ظهور لقب سلطان فقد سبق لقب امير الامراء . وقد مر معنا في بحث القاب الوزراء كيف لقب جعفر يحيى البرمكي بالسلطان من قبل الرشيد اشارة الى اتساع نفوذه .

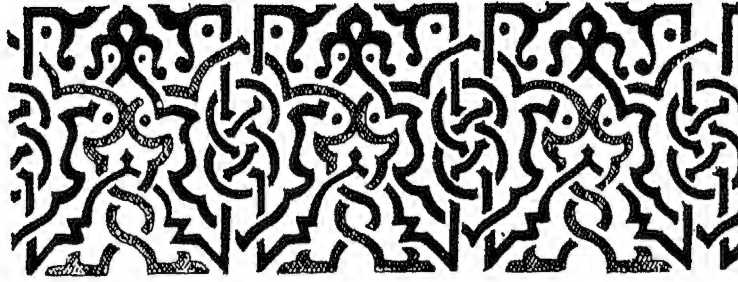
كما ان الواثق لقب قائده اشناس بلقب السلطان ووضع على مفرقه تاجاً مرصعاً وقلده قلادة وسوارين . وبقي هذا المنصب مهماً حتى تأسست دولة آل بويه فأخذ الخلفاء يعينونهم ويحتفلون بتوليتهم احتفالاً رائعاً . ولم يكن لقب سلطان مقصوراً على امراء آل بويه فحسب . بل كان

الخليفة يسند هذا اللقب ايضاً الى الغزاة الفاتحين امشال محمود الغزنوي والاب ارسلان وملكشاه وصلاح الدين ومن اليهم . وعندما كان الخليفة يمنح هذا اللقب لأحد الامراء كان يغدو وراثياً على شرط أن يقدم اليه الامير عند التولية طلباً رسمياً . وكان الخليفة بطبيعة الحال يوافق على التعيين ويخضع عليه التشريف .

ونلاحظ ايضاً انه في العصر العباسي الثاني صار يطلق اسم السلطان على الخليفة نفسه . ولما كان عصر المماليك في مصر والشام سمي الامير بالسلطان . فقبل السلطان احمد بن قلاوون مثلاً ، والسلطان بيبرس ، لانهم لم يتجاسروا على اتخاذ لقب الخلافة احتراماً لهذا المنصب الديني الجليل . وقد لقب ايضاً ملوك آل عثمان وخلفاؤهم باسم السلاطين . كما أن حكام المغرب الاقصى اتخذوا نفس اللقب فكان يقال سلطان مراکش .

الملك : انشأ الخلفاء لقباً جديداً اطلق عليه اسم الملك وكان يمنح أحياناً لحامل لقب السلطان ويمنح أحياناً اخرى الى غيره . ولكنهم كانوا إذا ما انعموا به على احد قرونوه عادة بعبارة تتناسب وصفات الملك البارزة . واول من انعم عليه بهذا اللقب هو نور الدين محمود زنكي الذي لقب بالملك العادل .





الفصل الخامس

الحجاجة

معنى الكلمة : يراد بها حجب الخليفة عن الناس . ويشرف عليها الحاجب الذي يغلق باب الخليفة دون الناس أو يفتح لهم . ثم تطورت وظيفته وأصبح عمله تنظيم مقابلة المراجعين للخليفة وترتيبهم في الدخول عليه مراعيًا في ذلك مركزهم الاجتماعي وأهمية أعمالهم .

الحجاجة زمن الراشدين والامويين : لم يمنع الراشدون احداً من مقابلتهم . وقال ابن خلدون في ذلك : (اما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشرعية فلم يفعلوه) .

وكان من الجائز ان يبقى الحال كذلك بعد أن انتقل الحكم إلى الامويين لان التأثير بالأعاجم كان بعد ضعيفاً ، ولا تزال روح البداوة مهيمنة على العرب . حتى قال الجاحظ : (ان دولة بني أمية عربية اعرابية) ، لولا مؤامرة الخوارج على : علي ومعاوية وعمرو بن العاص التي ذهب ضحيتها الامام علي وجرح معاوية . اذ بعد هذه الحادثة اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب خوفاً على أنفسهم .

ونستدل من أخبار عبد الملك بن مروان عن حدوث امرين هامين
يتعلقان بالحجبة وهما :

- ١ - اباحة الدخول لثلاثة في أي وقت شاؤوا . فقد قال عبد الملك
لما ولي حاجبه « قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه
داعي الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » .
- ٢ - اتخاذ الحجاب من قبل الولاة . نستدل على ذلك من وصية عبد
الملك لأخيه عبد العزيز والي مصر اذ قال له : « أبسط بشرك ، وألن
كنفك ، وآثر الرفق في الامور ، فانه ابلغ بك ، وانظر حاجبك فليكن من
خير أهلك فانه وجهك ولسانك ، ولا يقفن احد ببابك الا أعلمك مكانه لتكون
انت الذي تأذن له او ترده » .

الحجابة زمن العباسيين : كانت مرتبة الحاجب لدى العباسيين دون
مرتبة الوزير (اي خلاف الحال في الاندلس) وزاد الحجاب في منع الناس عن
مقابلة الخلفاء إلا في الامور الهامة . وقد احدثوا دارين بينهم وبين الناس ، دار
للخاصة ودار للعامة . كما احدثوا حاجيين : حاجب لكل دار . وكان الخليفة
يقابل كل طائفة من الناس في مكانها المعين لها .

وقد علت مرتبة الحاجب مع الزمن في ايام العباسيين . فأصبح يستشار
في كثير من امور الدولة . ومن ابرز الحجاب الفضل بن الربيع الذي
وقع بالبرامكة في عهد الرشيد والذي كان له اثر بارز في احداث الخلاف
بين الامين والمأمون حينما اغوى الامين بتحويل ولاية العهد لابنه وخلع اخيه
المأمون عن ولاية العهد .

وكان الحاجب في بعض الاحيان يستبد بالنفوذ دون الوزير ، وينظر في
امور الدواوين ولا يفصل في اعمالها الا بعد موافقته . نستدل على ذلك
من قول مسكويه (تجارب الامم) عن حوادث سنة (٣٢٣ هـ) « ... غلب

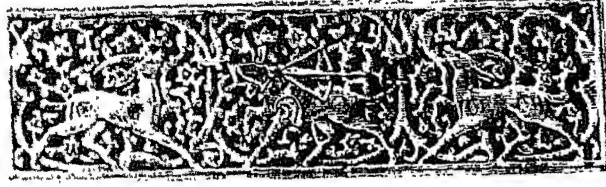
محمد بن ياقوت على تدبير الامور ونظر في جباية الاموال وحضور اصحاب الدواوين مجلسه وتفرد به بعمله الوزراء .

الحجابة في مصر : عرفت الحجابة في مصر زمن الفاطميين والمماليك ، الا ان مرتبة الحاجب هي دون مرتبة النائب كما يذكر ابن خلدون : « وهذه الوظيفة عندهم هي الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليه واجبار من ابي الانقياد للحكم . » اي شبيهة بوظيفة رئيس الشرطة .

الحجابة في الاندلس : لقد ذكرنا في بحث الوزارة في الاندلس أن الخليفة ميز احد الوزراء وجعله صلة الوصل بينه وبينهم يقابله متى شاء ودعي بالحاجب . وارتفعت مرتبة الحاجب على سائر الرتب وخاصة في اواخر عهد الدولة الاموية في الاندلس حتى صار ملوك الطوائف فيما بعد ينتحلون لقبها الى جانب لقب ملك كما يتخذون لقب ذي الوزارتين ويعنون به السيف والقلم .

الحجابة في المغرب : اتخذ بنو ابي حفص في افريقيا الحاجب ولكن مهمتهم كانت تختلف عن مهمة الحاجب في الشرق والاندلس . اذ كان عمل الحاجب عندهم هو الاشراف على قصر السلطان والنظر في امور الطعام والكساء والذخيرة والعطاء الخ . . . بالاضافة الى عمله الاصلي وهو حجب السلطان عن الناس ؛ وكان يضاف اليه في بعض الاحوال ختم السجلات الرسمية ، ثم جمع له في آخر عهد الدولة السيف والحرب والرأي والمشورة . فصارت مرتبة الحاجب ارفع المراتب واحمها .





الفصل السادس

الولاية وادارة الولايات

معنى الكلمة : كانت البلاد الخاضعة للعرب تقسم الى ولايات أو امارات . وهي تقسيمات ادارية لا بد منها في كل حكومة منظمة . فكان الخليفة يدير الامور في عاصمة ملكه ويعين على كل ولاية عاملاً أو والياً يقوم مقامه في ادارة شؤونها . ويدعى أيضاً بالامير وهي مأخوذة من الامارة الحربية ، لان الخليفة كان يعين الرجل على جيش الفتح فاذا انتصر ودخل البلاد فقد يستبقه عاملاً عليها فيسميه الناس باسمه الذي عرفوه به من قبل .

الولايات وادارتها زمن النبي : كان النبي ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن . فكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله . وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الامامة في الصلاة وجمع الصدقات اذ لم يكن هناك خراج .

وجاء في طبقات ابن سعد « أن النبي كان يختار الولاة من المنظور اليهم في العرب ومن الذين يحسنون العمل . وكان يفتشهم ويسمع ما ينقل اليه من اخبارهم . ويدقق في محاسبتهم . ويطلع على وارداتهم ونفقاتهم . وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا

لكم وهذا أهدي إلي . فقال النبي ﷺ : « ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدي الي . فلو قعد في بيته أكان يُهدى إليه شي . »

الولايات وادارتها زمن الراشدين : لما تولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول ﷺ على أعمالهم . ولم تتجاوز رقعة الدولة العربية في أيامه أكثر من جزيرة العرب التي قسمت إلى اثنتي عشرة ولاية أهمها : مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت ونجران والبحرين .

وجرى أبو بكر على معرفة أحوال العمال واستقصاء أخبارهم . وكان يختار أكثرهم علماً وعملاً . ومن وصايا أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام : « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً عن الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقا تل بمجروح فان بعضه ليس منه . وإذا قدمت عليك وفود العجم فانزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين . »

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية في خلافة عمر بن الخطاب قسمها إلى أقسام إدارية كبرى وهي : ولاية الاهواز والبحرين . وولاية سجستان ومكران وكرمان . وولاية طبرستان ، وولاية خراسان . وجعل العراق قسمين أحدهما حاضرتة الكوفة ، والثاني البصرة . وقسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما قاعدته حمص والثاني دمشق . وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته . وقسم إفريقية إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحراء ليبيا .

كانت سياسته ترمي إلى تماسك بلاد العرب وادماج بعضها في بعض لتكون أمة واحدة . ويهدف إلى عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضعف قوميتهم .

وكان عمر لا يفتأ يوصي ولاته ، فكان يريد أن يستعملوا الذين في غير ضعف والقوة في غير عنف ، وألا يأخذوا أنفسهم بأسباب النعيم وأن يكونوا مثله في إظهار الحشونة . وكانت له أساليب عديدة دقيقة في معرفة أحوال الولاة ، منها إرسال أحد الذين يعتمد عليهم فيجمع هذا الناس ويسألهم إن كانت لهم شكوى . فإذا فعل أحدهم اقتص من الوالي أو عزله .

وبقيت السلطة موزعة كما كانت زمن النبي ﷺ أي تعيين عامل خراج للشؤون المالية إلى جانب الوالي وكان بمثابة الرقيب على أعماله .

أما في عهد عثمان فقد ضعفت الإدارة في النصف الأخير من حكمه لشيخوخته ، بما أدى إلى تدمير المسلمين بالولايات فشقوا عصا الطاعة وأضرموا نار الفتنة التي انتهت بقتله .

الولايات وإدارتها زمن الامويين : بلغت الدولة العربية أقصى اتساعها زمن الامويين وكانت تقسم إدارياً إلى خمس ولايات كبرى هي :

١ - الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢ - مصر بقسميها السفلى والعليا .

٣ - العراق العربي والعجمي . والعجمي يشمل كل المناطق الواقعة شرقي العراق وحاضرتة في الكوفة . وكان يعين والياً من قبله على خراسان مركزه مدينة مرو .

٤ - بلاد الجزيرة ويتبعها ارمينية واذريجان وبعض أراضي آسيا الصغرى .

٥ - افريقية الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الاندلس وجزر صقلية ومردنية والبلبار ومركزها القيروان .

وقد سار الامويون على سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة من

العرب ، وبلغ من اعتمادهم باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب إلى أفراد البيت المالك .

الولايات وادارتها زمن العباسيين : في العصر العباسي الاول كان نظام الحكم مركزياً وبذلك تقلص نفوذ العمال . وكان يوجد إلى جانب الوالي موظفون كل حسب اختصاصه ، فهناك صاحب المال وصاحب البريد والقاضي . واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند .

ولم تختلف التقسيمات الادارية اختلافاً كبيراً عما كانت عليه زمن الامويين إلا من حيث تجزئة بعض الولايات الكبرى . فكانت المناطق الشرقية من العراق تتألف مثلاً من : اذربيجان ، عراق العجم ، خراسان ، ماوراء النهر ، السند ، البنجاب ، الاهواز ، جنوب فارس . بينما كانت زمن الامويين تشكل ولاية واحدة كبرى . ثم لما جاء الرشيد عدل التقسيمات الادارية وفصل نخوم الشام وكيليكيا عن أمانة الجزيرة وقنسرين وجعلها امانة واحدة واطلق عليها اسم العواصم حاضرتها طرسوس .

وكان الخليفة يختار عمال الاقاليم بنفسه . ولم يكن المنصور يحتفظ بخدمات أي أمير في ولاية واحدة لمدة طويلة . فكان دائب الاسراف على عماله يعزلهم إذا لاحظ منهم ضعفاً أو تهاوناً . كتب اليه عامله على ارمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال . فكتب اليه « اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » .

ثم دب الضعف في الدولة في العصر العباسي الثاني واستبد الولاة وابتكروا الاساليب لجمع المال والاسراف في انفاقه . وكان الوالي يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له وضرب النقود باسمه . فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله إما استقلالاً

ثاماً واما على مال معين . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبية في افريقية وابن طاهر في خراسان وابن طولون في مصر .

انواع الولايات : قال الماوردي : إذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين :

١ - إمارة عامة أي تكون للوالي سلطة شاملة تامة وهي نوعان :

أ - إمارة استكفاء أو تفويض أو استيلاء بعقد عن اختيار . أي يولي الخليفة باختياره .

ب - إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار . أي يولي الخليفة وهو مكروه .

٢ - إمارة خاصة .

إمارة الاستكفاء أو التفويض : هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء ، فيفوض اليه إمارة الإقليم على جميع أهله ويجعله عام النظر في كل أموره لا يراجعه إلا في الأمور الهامة جداً ويشتمل نظره على سبعة أمور :

١ - تدبير الجيوش وتربيتهم في النواحي وتقدير أرزاقهم (إلا إذا كان الخليفة قدرها) .

٢ - النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ - جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها .

٤ - حماية الدين والدفاع عن الحرم .

٥ - إقامة حدود الشرع .

٦ - الامامة في الصلوات .

٧ - تسيير الحج .

وإذا كان الاقليم متاخماً لعدو ترتب على العامل واجب ثامن هو :

٨ — جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم بين المحاربين .

إمارة الاستكفاء زمن الامويين : وأشهر ولايات الاستكفاء العامة زمن الامويين كانت مصر والعراق وخراسان . وأشهر الولاة زياد بن أبيه ، والحجاج ، ومسلمة بن عبد الملك ، وخالد بن عبد الله القسري . فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في إمارته تصرف الملوكة المستقلين . فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته . ويحيي الأموال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور واحتفار الترعة ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده إلى بيت المال في الشام .

إمارات الاستكفاء زمن العباسيين : وفي عهد العباسيين لما تمكن البرامكة من الدولة وازداد نفوذهم ولى الرشيد أحدهم جعفر بن يحيى الغرب كله من الانبار إلى افريقية . وقد أخاه الفضل بن يحيى الشرق كله حتى أقصى بلاد الترك . وقد جعل جعفر مقامه في مصر وأرسل العمال إلى الشام وافريقية . أما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل خراسان فأصلح وبدل واستخلف عمالاً وعاد الى العراق .

وكانت امارات الاستكفاء زمن العباسيين من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة لاستبداد الولاة واحتكارهم كل السلطات في ولايتهم ، وكان أشهرهم الاغالبية في افريقية ، وابن طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر .

إمارة الاستيلاء : وهي كما يفهم من معنى الكلمة أن يستولي الوالي بالقوة على اقليم تابع للخليفة ، فيقر الخليفة الحالة الراهنة استصلاحاً للأمر ورغبة في حقن الدماء واستدعاء للطاعة ، ويقبل المتغلب الامارة ويفوض

اليه تدبير الاقاليم التي تغلب عليها ، كل ذلك حفظاً لمنصب الامامة
ولأحكام الدين .

ولأمير الاستيلاء أن يعين الوزراء ويحق له بصورة خاصة أن يستوزر
وزير تقويض ولا يحق لأمير الاستكفاء .

ومن أشهر هذه الولايات في العصر العباسي : الدولة الحمدانية في
الموصل وحلب ، والبويهية في فارس وكرمان ، والغزنوية في الافغان
والهند ، والاشيدية في مصر والشام . وكلها كانت امارات مستقلة تدعو
للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه وترسل اليه مالاً معيناً في السنة يتم
الاتفاق عليه ، وهو الذي يشبث امراءها ويكون الحكم متسلسلاً في اعقابهم .

الامارة الخاصة : هي التي تكون سلطة الأمير مقصورة فيها على
تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية السكان والدفاع عن الحريم ضمن حدود
معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام أو لجباية الخراج أو
الصدقات . حتى الامامة في الصلاة فربما كان القاضي أولى بها منه . والخليفة
يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده . فالجباة يجمعون الخراج لحساب
بيت المال المركزي وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه .
والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية كثيرة زمن الامويين .

تعيين الولاة وعزلهم : كان الخليفة اذا ولى أميراً على جهة ما كتب
له بذلك كتاباً يسمى التقليد أو العهد يحدد له فيه مهمته ويوصيه بالآداب
التي ينبغي له التعمل بها والسياسة التي يلزمه اتباعها .

كان الخلفاء الراشدون يذكرون في كتاب التعيين اسم الوالي والبلد
الذي أرسل اليه وكلمات تلخص سلطته ثم يكترون من الوصايا . وقد
كتب علي بن أبي طالب الى الأستور : « هذا ما أمر به علي أمير المؤمنين

مالك بن الحارث الاشر في عهده اليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ،
وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله
وايثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد
أحد الا باتباعها . . . »

وفي العهدين الاموي والعباسي والعصور المتأخرة كانت التقاليد تصدر
عن كتاب يتنافسون في عمل التقاليد ويشحنونها بضروب الصناعات البيانية
والبديعة ويطولون فيها كثيراً . وكانت التقاليد اجمالاً غنية بالتفاصيل التي
تظهر فيها سلطات الأمير وأعماله .

إن الوالي اذا قلده الوزير ينزل بعزله او موته . اما الوالي الذي
يقلده الخليفة فلا ينزل بموته . وكان الخلفاء الجدد يملون اجمالاً الى تولية
بعض اصحابهم وانسابهم الذين يثقون بهم . وربما كان الخليفة الجديد له
رأي في الولاية غير رأي الخليفة الذي سبق فيبدأ عمله بصرف الولاية كلهم
او بعضهم ، وقد فعل هذا عمر بن الخطاب على شدة حبه لأي بكر
وإعجابه به .

وكان العزل يتم احياناً بالكتابة الى الأمير وبلاغه صرفه عن الخدمة
او نقله الى مكان آخر ، وحياناً بتولية الأمير الجديد فاذا وصل مركز
الامارة أظهر كتاب توليته وتسلم الاعمال ، ويعتبر ذلك عزلاً ضمياً
للأمير السابق . وربما رافق العزل مصادرة اموال الامير وعماله .

راتب الولاية : كان عمال النبي ﷺ عمالاً على الصدقات ولهم نصيب مما
يجمعون ، أما الأمراء والولاة الذين لا يأخذون من مال الصدقات فلا ندرى
اذا كان النبي قد فرض لهم رزقاً مخصوصاً ، ويذكر بعض المؤرخين ان
النبي لما استعمل عتّاب بن أسيد والياً على مكة خصص له كل يوم

درهماً فقام يخطب ويقول : « ايها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني الله درهماً كل يوم فليست بي حاجة الى احد » . فكان هذا الرواتب اول ما وُضِع من الرواتب للولاة .

اما عمر بن الخطاب فانه قدر رواتب العمال بعد تدوين الدواوين وتعيين أرزاق الجنود ، وأول ما فعل ذلك لما وجَّه عمار بن ياسر الى الكوفة فجعل له (٦٠٠) درهم في الشهر ونصف شاة ونصف جريب كل يوم . وعين الرواتب لبقية الولاة والموظفين . ولما ولى معاوية بن ابي سفيان على الشام جعل له الف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال فاذا رأهم ربحوا مالاً من شيء قاسمهم وأخذ النصف لبيت المال .

واما بنو امية فقد نال عمال الأقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة منحهم اياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم له . فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد . وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر . كما اطلق عبد الملك يد الحجاج في العراق .

وجرى العباسيون على نحو ذلك . فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له (٣) ملايين درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته .





الفصل السابع

الدواوين

مفهوم الكلمة : اختلف في أصل كلمة ديوان هل هي عربية أم فارسية . قال البعض ومنهم سيبويه أنها عربية ومعناها : الأصل الذي يرجع إليه . وقال آخرون ومنهم الأصمعي : بل هي فارسية معربة ومعناها سجل او دفتر . واطلقت من باب المجاز على المكان الذي تحفظ فيه السجلات الرسمية . ويقال عن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يرددون بصوت منخفض ما يدونونه كأنهم يتجادثون فقال : (ديوانه) أي بجانين . فسمى موضعهم بهذا الاسم وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان .

وقيل إن ديوان هو اسم للشياطين بالفارسية . سمي الكتاب بذلك لسرعة تفهمهم للأمور ووقوفهم على الجلي منها والحلقي ، وجمعهم لما شذت وتفرق . ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم .

ويقول الماوردي : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال . ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

نشأة الدواوين واقسامها زمن الراشدين : أول من أنشأ الديوان عند المسلمين عمر بن الخطاب . أما قبل ذلك فلم يحتاج المسلمون إلى أي من التدوين الحكومي سوى كتاب الوحي للرسول عليه السلام والكتاب الذين كتبوا له رسائله إلى ملوك الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الاسلام .

ولما كان عهد عمر اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية وكثرت وارداتها فاحتاج إلى ضبط أحوالها فأنشأ ديوان العطاء أو الخراج . كما ازداد عدد المحاربين وكثرت الجيوش واتسع نطاق الفتوحات فرأى من الضروري تقدير أعطيات الجند وتسجيل أسمائهم ، فأنشأ ديوان الجند .

وذكر المؤرخون رأيين في سبب وضع عمر الديوان وهما :

١ - أن أبا هريرة عامله على البحرين قدم ومعه مال كثير وتعب عمر في قسمه وضبط العطاء ، فأشار عليه خالد بن الوليد (وقيل بل هو هشام بن الوليد بن المغيرة) بتأسيس الديوان وقال : « رأيت ملوك الشام يدنون » فقبل عمر ووضع ديوان العطاء أو الخراج .

٢ - وقيل إن الذي أشار على الخليفة عمر بوضع الديوان هو أحد زعماء الفرس الذين أسلموا إذ كان حاضراً مجلس الخليفة وقد رآه يرسل بعضاً (جيشاً) فقال له : « هذا البعث قد أعطيت أهله الأموال فإن تخلف منهم رجل بمكانه فما يدري صاحبك (قائدك) به » وأشار عليه بوضع الديوان وفسره له وشرحه . فأمر عمر بإنشاء ديوان الجند .

تطور الدواوين : أشهر الدواوين التي عرفت زمن الامويين هي : ديوان الجند - ديوان الخراج - ديوان الرسائل - ديوان الخاتم - ديوان الطراز - ديوان المصداقات .

١ - ديوان الجند : بقي هذا الديوان في أول العهد الاموي على ما أنشأه الخليفة عمر ، وهو أكبر ديوان في الدولة ، تحدد فيه مقدار اعطيات جميع العرب ، والجنود المقاتلة من عرب وغير عرب .

ولما خفت حركة الجيوش ، لهدأة الحروب الخارجية ، أبطل الخليفة هشام بن عبد الملك الاعطاءات لمن لا يقوم بالعمل العسكري بنفسه أو من يبعث مكانه نائباً عنه ، والغى أسماء جميع من يستكفون عن المساهمة في الجندية ولو كان أميراً أموياً ، وبهذا الإصلاح ، تحدد الأشخاص الذين يتناولون اعطيات مقدرة ومقررة من ديوان الجند ، ولم يعد أموال هذا الديوان حقاً لجميع العرب .. وقد أعجب المنصور العباسي بإصلاح الخليفة هشام الأموي وأمر بتنفيذه .

٢ — ديوان الخراج : وواجباته جمع الخراج والاتفاق من موارده على شؤون الدولة ، وكان في كل ولاية ديوان أشبه بالإدارة المالية المحلية ، يجمع الخراج ، ويحتفظ بما يحتاج إليه الولاية من مصروف ، ويرسل الفائض إلى العاصمة ، حيث يجمع دخل الأراضي الزراعية في ديوان مركزي ، لقاء إيصالات استلام وصرف وتجري عن طريقه محاسبة دواوين الولايات .

٣ — ديوان الرسائل : يقول القلقشندي : ان ديوان الرسائل ويسمى أيضاً ديوان الانشاء هو أول ديوان أنشئ في الاسلام وذلك أن النبي ﷺ استعمل كتاباً يكتبون عنه إلى امرائه وأصحاب سراياه ، وإلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الاسلام ، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والهدن والامانات إلى غير ذلك .

فهؤلاء الكتاب وإن لم يطلق عليهم اسم الديوان كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان الرسائل . فلما جاء العهد الأموي كان كل خليفة يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره .

ثم جاء العهد العباسي فكان الذي يتولى ديوان الرسائل هو الوزير نفسه . وفي كتاب الوزراء والكتاب للجيشياري صور للنشرات والرسائل

التي كانت توجه للعمال والرعية .

وقد ألف الفلقشندي لمن يرشحون أنفسهم لمنصب ديوان الرسائل كتاباً قيماً ذكر فيه تاريخ هذا الديوان وتفاصيل العلوم والمعارف التي ينبغي لصاحبه أن يعلمها . قال : « ليس في منزلة خدم السلطان والمتصرفين في مهامه أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والافضاء إليه بمهامه وإطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ... »

ومن آداب صاحب الرسائل أن يكون صريح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، ملازماً للديوان ليكون قدوة لسائر الموظفين فيه .

وكان هذا المنصب لا يتولاه في عهد الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة ، وله حاجب من الأمراء والشيوخ . حتى شبه ديوان الرسائل ، في عهدهم ، بديوان رئاسة مجلس الوزراء في أيامنا هذه .

أما اختصاص صاحب ديوان الرسائل فهي :

- ١ - التوقيع على الرسائل الموجهة إلى جميع الولايات والموظفين في كل ما يتعلق بشؤون الدولة .
- ٢ - النظر في الكتب الواردة .
- ٣ - رد الاجوبة في يومها وعدم تأخيرها .
- ٤ - النظر في الألقاب التي تكتب على الرسائل حتى لايزاد فيها ولا ينقص .

٥ - الاطلاع على ما يكتب في ديوانه ويوقع عليها إشارة إلى موافقته على مضمونها .

٦ - النظر في أمر البريد ومتعلقاته .

٧ - النظر في أبراج الحمام المستعمل في الخباير .

٨ - النظر في أمر السعاة الذين يسيرون بالرسائل عند تعذر إيصالها بطرق البريد .

٩ - النظر في أمر المناور والمحروقات وهي أمكنة في رؤوس الجبال توقد فيها النار وتستعمل للمخابرات .

١٠ - النظر في أمر العيون والجواسيس .

١١ - النظر في الأمور العامة أي كل ما يجلب الخير للدولة ويدفع عنها الأذى .

ب - ديوان الخاتم : لم يكن القصد من الختم أن يوضع الخاتم في أدنى الرسالة . وإنما كانت الرسالة تطوى ويلصق طرفها بالشمع أو العطين الأحمر الذي يطبع عليه ، وهو طري ، خاتم الخلافة . ويترك حتى يجف . فإذا فتحت الرسالة من قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك .

وأول من وضع هذا الديوان معاوية ؛ وقد ذكر الصولي في أدب الكاتب ان معاوية حين افرد ديوان الخاتم ولاء عبيد بن أوس النسائي وسلم الخاتم إليه ، وكان منقوشاً على فسه « لكل عمل ثواب » ، وسبب ذلك أنه كتب لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم إلى زياد عامله في العراق . ففرض عمرو الكتاب وجعلها مئتي ألف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية ما كتبت له إلا بمائة ألف درهم . وكتب إلى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المائة ألف

منه ، وان يعتقله بتهمة التزوير ، فدفع عبد الله بن الزبير المبلغ إلى معاوية وحصل على اطلاق سراح عمرو . وصارت العادة أن يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة عن كل ما يوقع من رسائل وحسابات ، وكذلك فعل الولاة ، وذلك للرجوع اليها والمطابقة والمقارنة ، وخاصة في العصر العباسي حين نكب عدد كبير من الوزراء بدعوة الرشوة والتلاعب بالقيود والغنى غير المشروع .

وانشأ الأمويون في دمشق داراً خاصة للمحفوظات الرسمية ، وكذلك فعل العباسيون . . وقد ظل هذا الديوان قائماً حتى عهد الامين (٨٠٩ - ٨١٦ م) على حد قول الجهشيارى ، بينما يرى فون كيرير وسيد أمير علي ومتر أنه حل ديوان التوقيع محل ديوان الخاتم في أول العهد العباسي ، ويروون أن جعفر البرمكي تولى رئاسة ديوان التوقيع في عهد الرشيد (٧٧٦ - ٨٠٩ م) وعرفت الأوامر الصادرة عن هذا الديوان باسم التوقيعات . . ولكن المصادر الأخرى تذكر ديوان الخاتم في عهد المأمون . . . مما قد يستنتج أن ديوان الخاتم بقي قائماً مع أحداث ديوان التوقيع لمدة من الزمن ثم حل الثاني محل الأول .

ديوان الطراز : يقول ابن خلدون : « الطراز هو أن يرسم أسماء الملوك والسلطين أو علامات تختص بهم في طراز أوثابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج » .

يضاف إلى هذه الدواوين ديوانا الجند والخراج وقد أحدثها الخليفة عمر كما مر معنا ، وديوان البريد وقد أفردنا له فصلاً خاصاً لأهميته . وعلى كل ليست هذه كل الدواوين التي عرفت في العهد الأموي بل هي أهمها ؛ إذ تفرعت عنها دواوين أخرى كثيرة . وقد ذكر المؤرخون أنه كان في عهد

عمر بن عبد العزيز ديوان يعنى بالمرضى والمقعدين وترتيب الخدمة لهم والانفاق عليهم . وكان في عهد هشام بن عبد الملك ديوان للصدقات . كما كان عندهم دواوين للنفقات والريق وغيرها .

تعريب الدواوين : كانت لغة الدواوين حتى زمن عبد الملك في العراق الفارسية وفي الشام الرومية وفي مصر القبطية واليونانية .

كان سرجون بن منصور يتقلد ديوان الشام فأمره عبد الملك يوماً بشيء فتناقل عنه وتوأنى فيه . فعاد لطلبه وحشه فيه ، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد وكان يتقلد له ديوان الرسائل : أما ترى إِدلال سرجون علينا ، وأحسبه قد رأى ضرورتنا اليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب إلى العربية . قال : فافعل ، فحول ، فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام .

كما حول الحجاج في العراق ديوان الخراج من الفارسية إلى العربية . وذلك أنه كان يتقلده زاذان فروخ وكان يكتب معه صالح بن عبد الرحمن . وقال صالح مرة لزاذان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولست آمن أن أزيلك عن عملك . فأجاب زاذان : لا تظن ذلك لأنه لا يمكن أن يجد من يكفيه حسابه غيري . فقال صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . قال : فحول شطراً حتى أرى . ففعل صالح . وبذل له زاذان مائة ألف درهم كي يظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية فأبى . ولما قتل زاذان خلال ثورة ابن الأشعث خلفه صالح وترجم الديوان إلى العربية . وفي رواية للبلاذري والجهشياري أن زاذان خشى أن يلحظ الحجاج مهارة صالح فأمره أن يدعي المرض ، فأرسل الحجاج طبيبه الخاص لمعالجة ثم عينه بعد مقتل زاذان ، وتقول هذه

الرواية أن الذي عرض على صالح المائة ألف درهم ، هم اصحاب المصالح من الفرس بعد تعيينه في عمله الجديد وبعد وفاة زاذان .
أما في مصر فقد ظلت الدواوين تدون باليونانية إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فسار على سياسة أبيه في تعريب الدواوين فحول ديوان خراجها إلى العربية ؛ وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبد الله ابن عبد الملك بن مروان سنة (٨٧) هـ .

وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية . فقد أصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ غير العرب . أما من الناحية الأدبية فقد أصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية واليونانية ، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت . وكان عبد الحميد الكاتب يقول : « لله در صالح بن عبد الرحمن ما أعظم منته على الكتاب » . وكان حري به أن يقول لله در عبد الملك .

الدواوين في العهد العباسي : تأثر العباسيون بالنظم الإدارية الفارسية كما أن الأمور تعقدت وتشعبت بعد العصر الأموي فأنشئت دواوين عديدة عدا التي عرفت زمن الراشدين والأمويين . وكان أهمها :

ديوان العزيز : كان مجلس الخليفة يسمى بديوان العزيز كما كانت الحكومة العثمانية تسمى بالباب العالي . وكان يرأس المجلس الوزير الأكبر ولهذا سمي مجلس العزيز (كان رؤساء الدواوين المختلفة يسمون بالوزراء أحياناً ولكنهم كانوا أقل درجة من الوزير الأكبر الذي كان رئيس الإدارة) .

٢ - **ديوان الأزمّة :** يقول البلاذري بأن هذا الديوان أحدث زمن

الامويين ؛ بينما سيد أمير علي يقول : انه من ابتكار الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٨ هـ) وقد سمي ديوان الأزمّة في العاصمة رديوان الزمام في الولايات كما يقول الجهشيارى .

وصاحبه يشبه وزير المالية الذي يجمع أنواع الواردات كلها ، وأنواع النفقات كلها ويقيم الموازنة بينها . وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الخلافة كلها ، وذلك بما يشبه ديوان المحاسبة اليوم أو الجهاز المركزي للرقابة المالية .

٣ - ديوان النظر في المظالم : كان الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدون من بعده يستمعون إلى شكاوي الناس وينصفونهم في كل وقت تعرض عليهم هذه الشكاوي ، ولكن بعد مقتل الامام علي ، والاعتداء على معاوية ، احتجب الخلفاء ، وخصصوا أوقاتاً محدودة للنظر في المظالم ، كما فعل عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فلما جاء العباسيون وانشغل الخلفاء بأمور الدولة المتشابهة ، افردوا للمظالم ديواناً منظماً ، كان بمثابة المحكمة العليا الاستئنافية ، تعرض عليها الأمور التي لم يقبل اصحابها بحكم القضاة ، وذكر ان جعفر البرمكي قد تولى رئاسة هذا الديوان في عهد الرشيد ، وأن المأمون قد انفرد من بين سائر خلفاء بني العباس ، وترأس مجلس ديوان المظالم يوم الأحد من أكثر الأسابيع . ويذكر الماوردي أن امرأة تقدمت بشكوى ضد ابن الخليفة المأمون ، فحضر المأمون بنفسه جلسة النظر بالدعوى ، واستمع إلى أقوال المرأة وابنه ، وأصدر القاضي الحكم ضد الامير ونفذ الحكم .

٤ - ديوان النفقات : واختص بمطالب البلاط ، من تأمين الرواتب وبناء واصلاح القصور وملحقاتها ، وشراء المواد الغذائية والحيول ، وما يطلبه

سكان القصور من ملابس وأدوات وأثاث ... وتكاليف الحفلات والمآدب .
وما شابه ذلك .

٥ - **ديوان الصوافي** : تعني الصوافي أراضي الدولة ، وهذا يعني أيضاً اهتمام هذا الديوان بجميع أملاك الدولة من تأجير واستئجار أو شراء وبيع . وهو أشبه بدائرة الاملاك العامة اليوم .

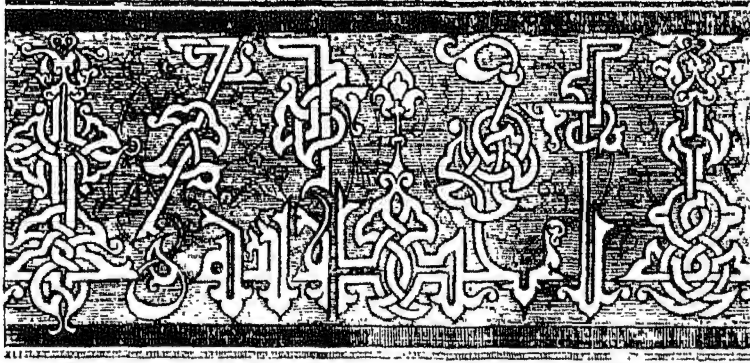
٦ - **ديوان الضياع** : ويقصد بها ضياع وقرى وأراضي الخليفة الخاصة ، إذ انفرد لإدارتها واستثمارها ديوان خاص ؛ لا علاقة له بالديوان السابق .

٧ - **ديوان الموالي والفلماني** : وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده .

٨ - **ديوان الجهبذة** : وهو خاص للمحافظة على مصالح غير المسلمين .
يضاف إلى هذه الدواوين دواوين أخرى كثيرة منها : ديوان البريد ، ديوان الشرطة ، ديوان العطاء ، ديوان الدية ، ديوان الري .

وكان يعهد بإدارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر . أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون بالمشرفين أو النظار ، وكان مشرف الممتلكات يضطلع من حين لآخر بالتفتيش على دواوين الدولة ويرفع التقارير الوافية عنها إلى الخليفة .





الفصل الثامن

البريد

معنى الكلمة وأصلها : البريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً . وفي الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وقد اختلف في الكلمة فبعضهم يقول إنها عربية مشتقة من برد أو أبرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وذهب آخرون إلى أنها فارسية الأصل (بريده دم) ومعناها مقصوص الذنب وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب دواب البريد لتمتاز بذلك عن غيرها من الدواب الأخرى . وكان يطلق البريد على الرسول الذي يحمله .

مصلحة البريد وزمن انشائها عند العرب : مصلحة البريد قديمة عرفت عند الفرس والروم . وأول من اتخذها من المسلمين معاوية بن أبي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق .

ورغم أن المصادر لا تذكر شيئاً عن وجود البريد زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، إلا أننا لا نشك بأنه عرف شبيه به في ذلك الوقت . نستنتج ذلك من الاخبار التاريخية التي تذكر ارسال الكتب من قبل النبي عليه السلام إلى من جاوره من الملوك والامراء يدعوهم فيها إلى الاسلام . كما أنه لما اتسعت رقعة الدولة وكثرت الفتوحات زمن الراشدين لابد أن الخلفاء كانوا دائمي الاتصال بالقواد والامراء والولاة . وفي عهد عبد الملك ادخلت على البريد تحسينات كثيرة لأهمية في تأمين المواصلات والاخبار بين الخليفة والولاة .

قال عبد الملك مرة لأحد رجاله : « وليتك حجابة بابي إلا عن أربعة : المؤذن فإنه داعي الله فلا حجاب عليه . وطارق الليل فسر » ما أتى به ولو وجد خيراً لنام . والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة إذا حبس البريد ساعة . والطعام إذا أدرك » . وفي الازمات ، وخاصة اثناء الحروب ، نظمت برودة حربية خاصة ، من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب اثناء فتوح العراق ، من نقل الاخبار بينه وبين جند سعد بن ابي وقاص يوماً بعد يوم ، وتبادل الرسائل والتوجيهات والتعليقات والاخبار بين الطرفين ، وما رواه آدم متر في كتابه الحضارة الاسلامية عن أن علي بن عيسى قد رتب الجمازات (الجمل والجمال) من مصر إلى بغداد عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م لتبلغه اخبار محاربة صاحب القيروان . كما جعل الخلفاء والامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرية يتفقون عليها ، حتى لا يزور عليهم شيء ، ولو كان محتوماً بخاتمهم ، من ذلك ما فعله ابو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور وكان يخشى مغبة هذه المقابلة ، فقد استخلف ابو مسلم على عسكره ابا نصر بن الهيثم وقال له : ان جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو خاتمي ، وان كان محتوماً بكل الخاتم فاعلم انه ليس ختمي . . ولما امر المنصور بقتل ابي مسلم ، اخذ

خاتمه وختم به رسالة الى ابن الهيثم ، فلما اطلع عليه هذا الاخير عرف انه كتب وختم رغم ارادة ابي مسلم ، أو دون علمه ..

البريد زمن العباسيين وانشاء ديوان له : ازداد اهتمام العباسيين بالبريد فأنشؤوا له ديواناً خاصاً . واعتمد الخلفاء عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم . كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة وهى . أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي . والثالث صاحب خراج لا يظلم الرعية . والرابع .. (ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات وقال :) صاحب بريد يكتب إلي بخير هؤلاء على الصحة » .

وقد كتب اليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد فكتب إلى هذا الوالي : « ثكلتك أمك وعمدتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعدتها للنكابة في الوحش ؟ إنما استكفينك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا إلى (فلان بن فلان) والحق بأهلك مذموماً مدحوراً » .

مهمة صاحب البريد : نلاحظ في الامثلة السابقة أن البريد كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل أوامر الخلفاء إلى ولايتهم وأخبار الولاة إلى خلفائهم . إلا أن عمل صاحب البريد لم تقتصر على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التي يمد بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الاقاليم ، أي أنه كان رقيباً ومفتشاً وعيناً للخليفة يرفع التقارير عن أحوال الجند والمال وأحكام القضاة واسعار الحاجيات من قمح وحبوب وماكولات وغيرها ؛ فكان عمله يشبه نظام المخابرات والشعبة السياسية كما كان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من قطاع والاعداء والجواسيس .

ومن تقارير صاحب البريد نص مقدم الى الخليفة المتوكل ، وكان خارج بغداد ، فيه شكاية على حاكم بغداد ، لانغماسه في ملذاته وإهماله امر المدينة يقول التقرير : بسم الله الرحمن الرحيم : يا أمير المؤمنين إن محمد بن عبد الله اشترى أمة بمقدار ١٠٠ ألف درهم ، وهو يسري بها عن نفسه من الظهر الى المساء ويهمل شؤون الدولة . وإن أمير المؤمنين لا يجب ان يرى بغداد في سخط ، لان أمير المؤمنين يجد صعوبة عندئذ في اقرار النظام . وإن العبد الخاضع يرفع ذلك الى أمير المؤمنين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقد بالغ العباسيون في استخدام البريد حتى قيل إن بعضهم كانت يشرف بنفسه على فض البريد للاطلاع على أحوال الولاة والرعية . ولقد بلغ من انتظام ادارة البريد في عهد المنصور أن عماله كانوا يوافونه بالأخبار مرتين في اليوم ، فكان يوقف القاضي عند حده اذا ظلم ، ويرجع السعر الى حالته الأولى اذا ارتفع ، وإن رأى نقصيراً من أحدهم ويخه ولامه أو عزله عن عمله مهاناً .

وسائل نقل البريد :

١ - النقل البري :

كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين ، وكانوا يعلقون في أعناقها جلاجل أو سلاسل اذا تحركت سمعت لها قرقة تعرف عندهم بققعة البريد .

وكان الذي ينقل البريد على الخيل في عهد المماليك يسمى بريدي ، ويحمله في خريطة (اي حقيبة) ، ويضع حول عنقه شرابة من حرير اصفر .. والذي ينقل البريد على الجمال يسمى النجاب .

وفي بعض الأحوال كان يعتمد على السعاة لنقل البريد وهم رجال

خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة . وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة . انشأهم في بغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً . ونسب في أيامه ساعيان هما فضل ومرعوش فاقا سائر السعاة . وعم استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية .

٢ - **النقل الجوي** : كان يعتمد في النقل الجوي على الحمام الزاجل . فيكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كاتي تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا . وكانت الرسالة تشد تحت جناح الطائر أو في ذيله . وكانت الرسالة يكتب منها صورتان ترسلان مع طائرين يطلقان في أوقات متباعدة قليلاً حتى إذا ضل أحدهما أو قتل أو افترسته الجوارح أمكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة الا يطاق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي . يقال ان استخدام الحمام الزاجل كان معروفاً عند اليونان والرومان . ولم يستعمل لدى العرب الا في عهد المعتصم عندما طيرت اليه أخبار أسر بابك الحُرَمي . ثم لم يلبث أن انتشر استعماله في الأمور البريدية العادية . وكان نور الدين محمود يستخدمه للاغراض العسكرية كما أنشأ له في كل محطة حظيرة خاصة .

وقد افردت بعض الدول الاسلامية للحمام ديواناً خاصاً ، وألف الكتاب في انساب الحمام المستخدم كتباً ، وميز حمام البريد بمخلائيل من الذهب في أرجله ، وألواح خفيفة في أعناقهم .. وكان الذي يشرف على ابراج الحمام في القلعة بالقاهرة في عهد المماليك يسمى براج .

وكانت بين الاسكندرونة وبين بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمى حمام حلب . على أن العرب لم يعتنوا به العناية الكافية وينشئوا له الادوات

الخاصة إلا منذ القرن الحادي عشر الميلادي ولا سيما في مصر حيث كانت له أبراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدده « ١٩٠٠ » طائر لها عمال ينادونهم أمر العناية بها .

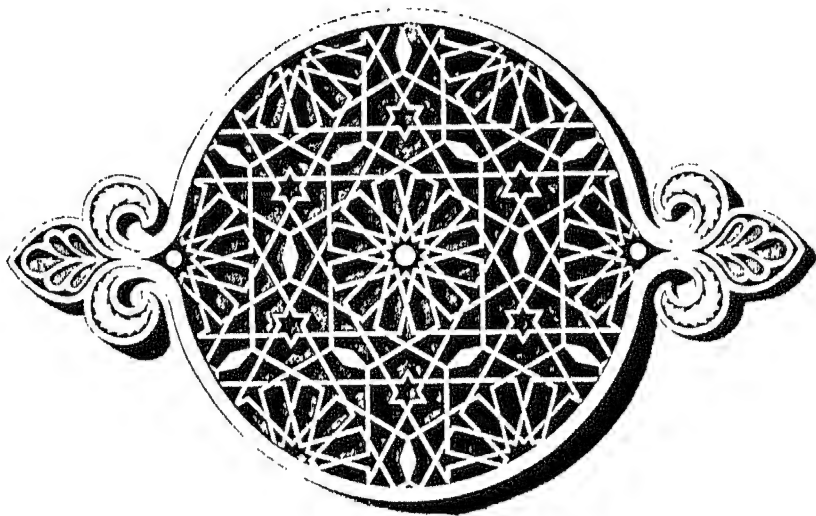
٣ - **النقل المائي** : وكان يرسل البريد أيضاً على السفن في البحار والانهار وكان الاعتماد على هذا النوع من النقل ضعيفاً إلا اذا كانت الطرق البرية صعبة الاجتياز أو خطيرة أو طويلة .

٤ - **المخابرات بالنار والدخان** : أنشأ العرب المسلمون أبراجاً عالية بين بعض البلدان كما فعل الحجاج ، والمأمون ، فينشر الدخان نهراً من أحد الابراج وتوقد فيه النار ليلاً فيراه موظفو البرج التالي فيخبرون بذلك البرج الذي يليهم ... وهكذا دواليك . وكانت هناك اصطلاحات بينهم تشبه اصطلاحات ملاحى السفن البحرية عندما يتخابرون بالمرايا والانوار والأعلام ، واصطلاحات الكشافين بمخابراتهم بالنور وباعلام « السيفور » .

ماذا ينقل البريد : إلى جانب تأمين المراسلات والأخبار بين الخليفة وعماله ، كان يستخدم البريد لحمل الناس إلى الخليفة أو الأمير التماساً لسرعة قدومهم ، كما أن الجنود كانوا ينقلون من بلد إلى آخر بواسطة دواب البريد . ومعظم المصادر تذكر أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة ولا ندرى إذا كان يستخدم لنقل مراسلات الجمهور أو لنقل المسافرين كما يذكر سيد أمير علي ، إلا أنه بما لا شك فيه أن الطرق التي أقامتها الحكومة للبريد اعتمد عليها التجار في أسفارهم ونقل سلعهم بسبب الأمن الذي كان يسودها . كما أنها كانت نواة للرحلات الجغرافية والبحوث العلمية .

محطات البريد : انشئت في رأس كل مرحلة ، تستطيع وسائط النقل

الحيوانية أن تجتازها بيسر ، محطة للقوافل ، عبارة عن خان حصين ، فيه غرف لاقامة رجال البريد . وأماكن لدواب البريد ، واصطبلات لتبادل الخيول ، والعناية بها ويطيرتها ، ومطاعم تؤمن حاجة القوافل من الطعام الجاهز أو للمؤونة في الطريق . والتزويد بالمياه اللازمة ... وكان لدى ديوان البريد في كل ولاية تقاويم خاصة فيها ذكر للمسالك في الولاية وأسماء ومراكز محطات البريد ؛ وفي ديوان بريد العاصمة ، نسخة عن كل ما في الولايات ، مع ترتيب وتصنيف بشكل يغطي شبكة المواصلات ومراكز البريد في جميع الامبراطورية . واعتمد كثير من كتاب المسلمين الجغرافيين على هذه التقاويم في أبحاثهم الجغرافية .





الفصل التاسع

الشرطة

مفهوم الكلمة : جاء في القاموس المحيط : « الشرطة ... هم أول كتيبة تشهد الحرب وتتمياً للموت ، وطائفة من أعوان الوالي ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها . »

وقال القلقشندي : « صاحب الشرطة بضم الشين وإسكان الراء هو المعبر عنه في زماننا بالوالي ... وفي اشتقاقه قولان : أحدهما أنه مشتق من الشرط بفتح الشين والراء وهي العلامة لأنهم يجعون لأنفسهم علامات يعرفون بها . ومنه اشتراط الساعة يعني علاماتها . وقيل من الشرط بالفتح أيضاً وهو رذال المال لأنهم يتحدثون في رذال الناس وسفلتهم من لا مال لهم من اللصوص ونحوهم . »

نشأة الشرطة : قال السيوطي : إن أول ، من شرط الشرطة في الاسلام عمرو بن العاص لما ولي أمانة مصر . ويميل أكثر المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو أول من استعمل الشرطة .

ولكن إذا اعتبرنا العسس نواة للشرطة وهو الطواف ليلاً لتبضع اللصوص وطلب أهل الفساد ومن يخشى شرهم ، فإن تأسيس الشرطة يرجع إلى ما قبل عمرو بن العاص ومعاوية ، إلى زمن أبي بكر وعمر . فقد

ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العسس في عهد أبي بكر . وأن عمر بن الخطاب تولى هو نفسه العسس ، وكان يصطحب معه ، مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف .

وكان الناس يتولون حراسة أنفسهم نهاراً . أما ليلاً فكانت رجال العسس يتولون أمر السهر عليهم . ثم لما تكاثر المفسدون وظهر أمرهم في وضوح النهار أنشأ الخلفاء الشرطة لحفظ الأمن والسهر على النظام .

ويظهر أن الشرطة وجدت في الأمصار الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين ، إذ يذكر الطبري أنه وكل إلى أربعائة منهم حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن أبي موسى الأشعري ، وقد برهنوا على تمسكهم بواجبهم فقاوموا الزبير عندما جاء مع عائشة يحرض البصريين على الخليفة علي بن أبي طالب ، فلم يسلموه المنشآت التي وكلوا بحراستها إلا بعد أن اقنعهم بأحقية دعواه ، مما يدل على ارتباطهم بالمؤسسات دون الأمير شخصياً . وذكر المدائني أن زياد بن أبيه أنشأ له حرساً خاصاً عدد أفرادهم خمسمائة رجل وأسند قيادتهم إلى عبد الله بن حصن وشيبان بن عبد الله وهما من العرب البارزين في البصرة . وقد كلف زياد شرطته بوظيفة حفظ الأمن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق والاشقياء والمتمردين والثوار . فكان عملهم محلياً ولا علاقة لهم في الفتوح أو الحملات العسكرية .

وقد جعل لكل حي فرقة من الشرطة مسؤولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيه ليلاً ونهاراً . وكان عدد رجالها يتفاوت حسب الأحوال ؛ وقد بلغت في عهد زياد بن أبيه جيشاً كثيفاً ، يتسلحون بالعمد والحراب وعليهم رئيس يسمى صاحب الشرطة . وكانت تدفع له ولرجالها رواتب حسنة كي يقوموا بأعمالهم بأمانة وإخلاص .

والشرطة في الأصل تابعة للقضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة

أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، وإقامة التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه ، وإقامة الحدود كحد الزنا وحد شرب الخمر . ثم تنزيهاً للقضاء ما لبثت أن استقلت وانفصلت عنه ، وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر في الجرائم بعد أن كان عمله محصوراً في منع الفتن والجرائم والقبض على القائمين بها . كما كان يسمى صاحب الشرطة أحياناً « صاحب الاحداث » ووظيفته حينئذ تصبح نصف حربية ونصف مدنية ، اذ عليه المحافظة على القانون والنظام ، وعليه أيضاً تأديب النافرين وإخماد الفتن بالقتال .

ويقول ابن خلدون في ذلك : « وكان أيضاً ، النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس ، والعبيدين بمصر والمغرب راجعاً الى صاحب الشرطة ، وهي وظيفة اخرى دينية ، كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول ، توسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا ، فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ؛ ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القود والقصاص ، ويقيم التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة .. »

تطور الشرطة وسلطة صاحبها : كانت الشرطة في العهد الأموي آلة تنفيذ فقط . لا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة أو الأمير ؛ ثم لما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وخاصة بعد انفصال الشرطة عن القضاء وأصبح له حق النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات .

يقول ابن خلدون : « ولم تكن سلطة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كانت حكمهم على الدماء وأهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ، ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالاندلس ونوعت إلى

شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامّة . ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجال الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة .

وكان رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالي . وقد شغل هذه الوظيفة في عهد المأمون طاهر بن الحسين حيناً من الزمن ثم عين عاملاً على خراسان .

اعمال الشرطة : من واجبات الشرطة :

١ - حفظ النظام : وذلك بمنع الفوضى والتجمعات في الطرق والسهر على المراكب . ومرافقة الخلفية أو الأمير في تنقلاته .

٢ - حفظ الامن : وذلك بمراقبة الأشرار والدعار واللصوص .

٣ - مراقبة المقاهي والحانات وأماكن الشرب واللعب : ومنع ما يقع فيها من المخالفات . وقد تشارك الشرطة موظفي الحسبة في أخذ الناس بالصلوات ونحوها من أمور الدين ونهيم عن المنكرات وتأديبهم عليها .

٤ - تنفيذ أوامر السلطات : من تعزيز وتكريم إلى مقتل أو مصادرة أو حبس .

٥ - تنفيذ أوامر القضاة كلما احتاجوا إليهم

٦ - مساعدة عمال الخراج : بإكراه المكلفين على دفع ما يستحق في ذمتهم .

٧ - ادارة السجون : واتخاذ سجل يذكر فيه أمر كل واحد من

المساجين وسبب سجنه .

والسجون ظهرت منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكنها نظمت في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أوجد لها ديواناً يشرف عليها ، وأمر باعطاء المسجونين رزق الصيف والشتاء ، وكسوة الصيف والشتاء ، والعناية برضاهم ، وان لا يقيد أحد في المحابس بقيد يمنع من اقامة الصلاة ، والفصل بين فئات المسجونين ، بين من يسجن في دين ومن يسجن في جرمية ، وجعل للنساء حبساً على حدة ... بينما تذكر سجون الحجاج في العراق بعدم ملائمتها للصحة العامة ، والقسوة في معاملة المسجونين ؛ وهو أمر تكرر بعد الامويين . فقد ذكر المقرئ في الخطط : ان سجون الفاطميين في مصر كانت أشبه بجهنم الجراء ، حيث كان السجناء يحشرون في مكان غير مسقف وهم في الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وزمهرير الشتاء ، ويتركون هكذا من غير أن يطعموا شيئاً إلا بما يتصدق به الناس عليهم ، وكان منهم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين يستخدمون في الحفر والعبائر ونحو ذلك تحت اعين « الاعوان » فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن في حديدهم . نلاحظ أنهم كانوا في بعض الأحيان يجمعون بين الشرطة والحسبة . وكان لصاحب الشرطة نواب يشبهون المفوضين في هذه الأيام . وربما كان له أصحاب أخبار أو شرطة سرية . نستنتج ذلك بما ذكره القلقشندي قال : « لما عين احد الخلفاء صاحب الشرطة والحسبة » قال له موصياً : « ... وأوعز إلى رجالك باطلاعك على الخفايا وإبانة كل مستور من القضايا وأن يتيقظوا لسكنات الليل وغفلات النهار ... » .

ويذكر القلقشندي أن والي الشرطة في مصر يقدم صباح كل يوم تقريراً إلى السلطان يطلعه فيه على كل ما يحدث من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك .

تعيين صاحب الشرطة والشروط التي يجب ان تتوفر فيه : كان الخليفة يعين صاحب الشرطة في عاصمة الدولة . أما في الأقاليم فكان كل أمير يولي صاحب شرطته . وكانوا يتخيرون لهذا المنصب كبار القواد وعظماء الخاصة . وقد ذكر ابن أبي الربيع في كتابه (ساوك المالك في تدبير الممالك) الذي ألفه للخليفة المعتمد بالله (٢١٧ - ٢٢٧) هـ ما ينبغي أن يكون عليه صاحب الشرطة من الحصال قال :

« أما صاحب الشرطة فينبغي أن يكون حليماً مهيباً دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور ... »

وأن يكون غليظاً على أهل الريب في تصارييف الحيل شديد الفطنة . وأن يكون طاهر النزاهة غير عجول . وأن يكون نظره شزراً قليل التبسم غير ملتفت إلى الشفاعات ، وأن يأمر أصحابه بملزمة المحاييس وتفتيش الأطعمة وما يدخل السجون .

ويجب عليه عمارة سور المدينة وأبوابها ولم شعثها ومعرفة من يدخلها . وإذا أفرج عن أحد من السجن ثم عاد مجرم فليجعل الحبس قبوره .

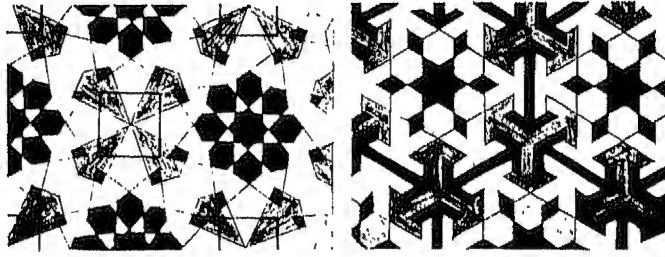
ويأمر العامة ألا يجيروا أحداً ولا ينهبوه للهرب بل يدلوا عليه وينبغي أن تكون عقوبة الخاص والعام واحدة كما أمرت الشريعة .

ويذكر المقرئ في الخطط ان الشرطة كانت من أهم وظائف الدولة في مصر ، وكان صاحبها من عظماء الرجال ، وكان يتوب عن الوالي في الصلاة ، وفي توزيع الاعطيات ، وبعد بناء مدينة العسكر جعل فيها شرطة اخرى واصبحت الشرطة قسمين :

١ - الشرطة السفلى ومقرها مدينة الفسطاط .

٢ - الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر (قرب جامع ابن طولون
وسميت بالعليا لوقوعها على الجبل في مكان عال) .
ويذكر آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع
الهجري ، أن الشرطة كانت تحمل سلاحاً يسمى « الطبرزين » عبارة عن
سكين طويلة تحمل معلقة في أوساط رجال الشرطة .

ويمكن أن نلحق ببحث الشرطة وظيفة « العريف » إذ تروي كتب التاريخ،
ان العرفاء كانوا أهم طبقة من الموظفين الذين اعتمد عليهم الأمراء في تثبيت
سلطانهم في الامصار ، وفي توزيع العطاء والسيطرة على السكان ، والمساعدة في
الأعمال الادارية ، وكانت وظيفة العريف معروفة منذ الجاهلية ، وكانت
صفة الشخص الذي يقود عشرة مقاتلين (انظر بحث امرة الجيش في نفس
هذا الكتاب) ، لكن عمر بن الخطاب كلف العرفاء بتسهيل عملية دفع
العطاء . واصبح العريف في العهد الأموي مسؤولاً عن « عرافة » يوزع
العطاء على أفرادها ، ويحق له زيادة العطاء لأي فرد يقوم بدور هام في
المنطقة ، أو يقترح على الأمير أن يزيدها ، وكان لدى العرفاء سجلات تحوي
اسماء النساء والأطفال والمقاتلة وتجهيزاتهم ومقدار عطائهم ومواليهم في عرافتهم ،
وهم مسؤولون عن جمع الجند عند النفير كما ذكر الطبري . ومسؤولون
عن الأمن والنظام في عرافاتهم ، فكانوا يحق حلقة الوصل بين عامة
الناس وبين الامارة ، يخدمونها بتوزيع العطاء وجمع الجند ومراقبة المشاغبين
والمتمردين ، وبذلك حلوا محل شيوخ العشائر الذين أخذ سلطانهم يتناقص مع
نمو الحياة في المدن . وقد جاء في رسالة لعمر بن عبد العزيز إلى أمير
البصرة في عهده عدي بن أرطاة « ان العرفاء من عشائركم بكان ، فانظر
عرفاء الجند ، فمن رضىت امانته لنا ولقومه فأثبتته ، ومن لم ترضه فاستبدل
به من هو خير منه وابلغ في الأمانة والورع » .



الفصل العاشر

القضاء

تعريف القضاء : قال ابن خلدون ما معناه : « القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات حسبما للتداعي وقطعا للنزاع ، بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة . وهو من الوظائف التابعة للخلافة . لهذا كان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم . »

وهذا تعريف ناقص لانه يقصر القضاء على فصل الخصومات القائمة بين الناس . وهذا هو الاصل في القضاء . ولكن القضاء ينظر في غير الخصومات أيضاً كمسائل الاوقاف والايام والحجر وغير ذلك كما سيرد معنا . ويعبر ايضاً عن القضاء بالحكم بمعنى المنع ومنه سمي الحاكم حاكماً لمنعه الظالم من ظلمه . ومعنى قولهم حكم الحاكم اي وضع الحق في أهله ومنع من ليس له باهل .

مصادر التشريع الاسلامي : ان مصادر التشريع الاسلامي هي : القرآن والسنة والاجماع (أو القياس والرأي والاجتهاد) .

١ - **القرآن :** هو عماد التشريع لأنه يعتبر أساس الأصول التي يرجع اليها فقهاء المسلمين في استنباط الأحكام الشرعية وقد ذكرنا أن آياته تقسم إلى مكية ومدنية .

وإن الآيات المكية قصيرة تدعو إلى توحيد الله وتقيم البراهين على وجوده وتذكر بيوم القيامة وما سيحدث فيه من بعث وحساب يتبعهما ثواب وعقاب. بينما الآيات المدنية طويلة تبحث في التشريع التفصيلي وقصص الغزوات وما كان فيها وأسبابها. وفي القرآن شرائع اجتماعية فيما يتعلق بالأسرة وتكوينها ونظامها وهو يسمى اليوم بالاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث أو النهي عن أكل أموال اليتامى والحض على المحافظة على أموالهم إلى غير ذلك. وشرائع مدنية أي ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض كالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل، والحض على الوفاء بالعهود، وإباحة الربح في التجارة، وحظر التعامل بالربا، والامر بكتابة الدين والاستشهاد عليه إلى غير ذلك. وما يتعلق بالقصاص أي الامور الجنائية. كما نجد فيه الشرائع الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة. وقد قام التشريع في القرآن على أسس ثلاثة :

١ - عدم الحرج ألواضيقي : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » .
« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٢ - تقليل التكاليف : هو نتيجة لازمة للاساس الاول « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

٣ - التدرج في التشريع : وعماد هذا المبدأ أخذ الناس بالرفق لاصلاح أمورهم وبالتدريج حتى يصل شيئاً فشيئاً إلى المستوى المراد رفعهم اليه دون أن يشعروا بانقلاب أو بالارهاق المعجز عن بلوغه . وفي القرآن آيات كثيرة تبحث في ذلك أهمها التي نزلت في الحمر والميسر .

٢ - السنة : هي أفعال وأقوال النبي ﷺ . وهي تستمد أحكامها من القرآن ومن اجتهاد النبي وفطنته واستشارته لأصحابه . وتعتبر السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل من أحكامه ، ومن الأحكام التي فصلتها

السنة وكانت مجملة في القرآن كما سبق أن ذكرنا أحكام الصلاة إذ فرضها القرآن دون ذكر أوقاتها أو طرق أدائها وعدد الركوع والسجود فيها . وقد قال عليه الصلاة والسلام « صلوأ كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم » . وقد أمر القرآن بالزكاة ، ولكنه لم يعين المقدار الواجب أدائه ولا موعد الأداء وشرطه . كما أن السنة تبحث في قضايا لم يرد ذكرها في القرآن . وذلك أن السنة قد ورثت الجدة على حين أن القرآن لم يجعل لها نصيباً في الميراث .

٣ - **الاجماع** : أوجد القرآن الكريم أحوالاً عامة في التشريع وترك لعلماء المسلمين باب الاجتهاد مفتوحاً لكل ما يعترض حياتهم الجديدة من أمور لم تكن في حياة الرسول ، فإذا أجمع علماء مصر من الأمصار على أمر من الأمور الدينية مستندين بذلك إلى روح الشريعة الإسلامية كان ذلك حجة . وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في بعض الأمور . وكذلك فعل أبو بكر من بعده فانه إذا ورد عليه الحُصوم ولم يجد في كتاب الله ولا في السنة نصاً يقضي به وأعياه الامر كان يجمع كبار الناس وخيارهم يستشيرهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به .

ويعتبر الاجماع مفتاح التطور في الشريعة الإسلامية لانه يكفل لها حياة متجددة تتمشى مع مقتضيات الاحوال المتغيرة .

٤ - **القياس** : وهو قياس حادثة طارئة على حادثة ثانية فيها نص أو اجماع لاتحاد العلة فيها .

ولكن بعض المسلمين توسعوا في القياس حتى أطلقوه على النظر والبحث في مسائل لم يرد فيها نص . وكانوا يطلقونه أحياناً على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، أي جعلوه مرادفاً للرأي . وخاصة أهل العراق الذين اعتمدوا كثيراً

على الرأي وزعيمهم في ذلك أبو حنيفة . وكان ذلك طبيعياً بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية واختلاف نظام المعيشة بين الحجاز والعراق .

وفقهاء العراق لم يقتصروا في الاجتهاد أو الافتاء على ما يقع من أحداث بل تعدوا إلى فرض الفروض والاجتهاد في استخراج الحكم الصحيح في حوادث لم تقع أو يندر حدوثها ، وذلك بعكس علماء المدينة الذين وقفوا موقفاً معاكساً فقد كرهوا الرأي والقول به وامتنعوا عن الفتيا وقد ساعدتهم على ذلك كثرة الحديث عندهم وعدم تطور الحياة تطوراً كبيراً عما كانت عليه زمن النبي .

التشريع الاسلامي والقانون الروماني :

يتهم بعض الباحثين كالاستاذ شيرمان Sherman والاستاذ آموس Amos والاستاذ غولد زيهر Goldziher وغيرهم الشريعة الاسلامية بانها استحدثت بعض احكامها من القانون الروماني . معززين اتهامهم :

١ - بوجود تشابه في بعض المصطلحات العامة بين الطرفين مثل Jurisprudencia (فقه) و Opinio (رأي) :

٢ - بوجود تشابه في بعض النظم القانونية بين الشريعتين من حيث التقسيم الى : اشخاص والتزامات واموال .

٣ - بوجود مبدأ : البيئة على من ادعى واليمين على من انكر في كلا الشريعتين .

ان اقوال هؤلاء الباحثين لاتستند على اساس علمي ولا منطقي صحيح ، ووجود التشابه ، ليس من باب الاقتباس ، وإنما تشابه الأحكام في نفس الظروف ، والدين والمنطق السليم ، يتماشى ولا يختلفان ، والتشريع الديني انزل لمصلحة بني البشر ، وحل مشاكلهم اليومية ، وكذلك

القوانين ، فلا حاجة للاقتباس مع وجود التشابه وجميع القوانين القديمة قالت ببدا العين بالعين دون ان تقتبس من بعضها . ويدحض الكتاب ادعاءات هؤلاء المتهمين ويرون ان زعمهم باطل لاسباب عديدة منها :

١ - ان نظريتهم لا تؤيدها براهين قاطعة ولا تستند على حجج قوية كما يمكن ان نلاحظ من اراءهم السابقة .

٢ - اذا وجد تشابه فلعل سببه تلك الظروف الاجتماعية الواحدة التي مرت بها كل منها .

٣ - اننا لانجد مصدراً عربياً او غير عربي يشير الى ان العرب اخذوا شيئاً عن القانون الروماني .

٤ - انه لا يوجد سبب يدفع المؤرخين العرب وغيرهم فيما لو كان هناك اقتباس الى انكاره . فالمصادر التاريخية تثبت ان العرب نقلوا كثيراً من العلوم واقتبسوا وتوجعوا حتى انها تذكر اسماء المترجمين والكتب التي عربوها ولكنها لاتلمح قط انهم نقلوا شيئاً عن القانون الروماني .

تطور القضاء :

القضاء زمن النبي ﷺ : احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول عليه السلام واعتبر حكمه ملازماً حين نزلت الآية : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » .

وبذلك يعتبر النبي أول قاض في الاسلام ، وكان يستمد أحكامه من الله سبحانه بقوله تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما

جاءك من الحق» كما أنه كان يستشير أصحابه ويجتهد في بعض الأحكام وكانت طرق الإثبات عنده : البيعة واليمين وشهادة الشهود .

ولما فتح المسلمون بعض الأمصار بعث النبي عليه السلام ولاية . فكان والي هو الحاكم وهو القاضي . ولم يعرف أنه عين في بلد من البلدان رجلاً اختص بالقضاء . كما أنه أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس معتمدين على الكتاب والسنة والاجتهاد .

القضاء زمن الراشدين : سار أبو بكر بسيرة الرسول في الإدارة الإسلامية ولما استلم الخلافة قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فكثرت عمر سنة ، وقيل سنتين ، لا يأتيه متخاصمان . ولكنه لم يتخذ لقب قاض ؛ إذ أن أبا بكر كان يباشر هذه المهمة بنفسه وقد فوض إلى عمر أحياناً النظر في الوقائع التي كان يدلي بها الخصوم إليه .

ثم لما جاء عمر فصل بين الولاية والقضاء بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة البلاد الإسلامية ، وبعد أن تعذر على الخليفة أو والي أن يجمع مع النظر في الأمور العامة الفصل في الخصومات .

ولم إلى جانب ذلك يمتاز عهد عمر في القضاء بذلك الكتاب المشهور الذي أرسله إلى أبي موسى الأشعري قاضي الكوفة والذي يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل بها القضاة . وقد بين فيه كثيراً من نظام القضاء وأصوله والذي نعتبره بمثابة دستور القضاة الذي يسرون على هديه في الأحكام وفيه يقول : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك ؛ أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم لماذا أدلي إليك ، وانفذ إذ تبين لك فإنه لا ينفع تكلم لا نفاذ له . آس

بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . . . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجسج في صدرك بما ليس في كتاب الله ، ولا سنة النبي ﷺ ثم اعراف الأشباه والأمثال ، ففس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدٍّ أو مجرياً عليه شهادة زور أو ظنيماً في ولاء أو نسب ، فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتكسر عن الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس في نفسه شأنه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

وكان عمر يستشير الصحابة وخاصة علي بن أبي طالب عملاً بقوله : (ما شقي امرؤ عن مشورة ولا سعد باستبداد برأي) : وكذلك فعل علي من حيث استشارة الصحابة . وبما يؤثر عنه أنه عرضت عليه قضية كثر فيها الشهود فدعاهم متفرقين وأخذ إفادتهم ، والكتاب يسجل أقوالهم فوجد تناقضاً في أقوالهم فهددهم وضيق عليهم فأقروا بالحقيقة فقال علي : (الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين) .

القضاء زمن الامويين : تميز القضاء في هذا العهد :

- ١ - كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء ودفعه إلى من يقوم به ، وانقطع هو عن النظر فيه لانشغاله في أمور الدولة .
- ٢ - تقدم فكرة الرأي باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع .
- ٣ - ظهور أهل الحديث الذين قاوموا أهل الرأي ولم يأخذوا إلا بنصوص الكتاب والسنة .

٤ - البدء بتسجيل الاحكام ، وسبب ذلك أن قاضي مصر في خلافة معاوية حكم في الميراث بين ورثة متخاصمين ، ثم تناكروا الحكم فعادوا اليه ف قضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه الجند .

القضاء زمن العباسيين : حصلت تطورات هامة في القضاء زمن العباسيين .

- ١ - اتساع سلطة القاضي وأعماله إذ عليه الفصل في الدعاوى والاوقاف والنفقات وتنصيب الاوصياء وأضيفت إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال وغيرها .

٢ - نشوء المذاهب الأربعة وهي :

آ - مذهب الامام أبي حنيفة إمام أهل الرأي والقياس .

ب - مذهب الامام مالك الذي يعتمد على الحديث .

ج - مذهب الامام الشافعي الذي جمع بين الحديث والرأي والقياس .

د - مذهب الامام ابن حنبل الذي يتفق مع مذهب الامام مالك من حيث اعتماده على الحديث .

وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر حكمه وفق هذه المذاهب أو أحدها .

٣ - تدخل السياسة في القضاء إذ عمل الخلفاء على حمل القضاة على السير

وفق رغبتهم في الحكم . حتى امتنع كثير من الفقهاء من تولي القضاء كما فعل أبو حنيفة لما كلفه المنصور .

٤ - وجود منصب قاضي القضاة وهو بمثابة وزير العدل اليوم . يولي القضاة من قبله على الأقاليم ويقيم هو في حاضرة الدولة . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك في عهد الرشيد .

٥ - ظهور الاصطلاحات الفقهية ، كما وضعت الكتب في صفات القاضي وعمله ومجلسه .

ديوان المظالم : كان ديوان المظالم بمثابة محكمة استئناف عليا يلجأ اليه المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل . كما يلجأ اليه المتظلمون من تعدي ذوي الجاه والحسب أي من الولاة أو جباة الأموال أو كتاب الدواوين أو من أحد أبناء الخليفة أو الأمراء وغيرهم .

لم يفرد للمظالم أوقافاً محدودة أحد من الخلفاء الراشدين لأن المتظلمين كانوا يستطيعون مراجعة الخليفة متى شاؤوا .

ثم أفرد الخلفاء يوماً خاصاً لرد المظالم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، وكان يكلف أحياناً قاضيه ابن ادريس الأزدي القيام بهذه المهمة . وكان عمر بن عبد العزيز شاورها بنفسه ثم أهملت بعده إلى زمن العباسيين وكان أول من جلس منهم للمظالم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد والمأمون . وآخر من تولاهم منهم المهدي . على أنهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب إلى وزراءهم كما فعل المأمون ليعيى بن أكرم والمعتصم لأحمد بن أبي دؤاد . وثم لما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم إليهم .

كانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد وتتألف من خمس جماعات لا يستغني عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم :

١ - **الحماة والاموان :** للتغلب على كل من تحدته نفسه بالالتجاء إلى القوة أو العنف أو الفرار أثناء القضاء .

٢ - **الحكام :** ليردوا الحقوق إلى أصحابها بعد الإحاطة بما يجري بين الخصوم وما يصدر من الأحكام .

٣ - **الفهاء :** ليرجع إليهم عندما يشكل على صاحب المظالم مسألة من المسائل الشرعية .

٤ - **الكتاب :** لتدوين ما يحصل أثناء الجلسة من أقوال الخصوم .

٥ - **الشهود :** الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضي لاينافي الحق والعدل والشرعية الاسلامية .

وكان اختصاص من ينظر في المظالم واسعاً يشمل كما يذكر صاحب كتاب الاحكام السلطانية :

١ - النظر في تعدي الولاة على الرعية ، وأخذهم بالعسف في السيرة .

٢ - جور العمال فيما يجبونه من الاموال .

٣ - كتاب الدواوين ، فيتصفح أحوال ما وكل إليهم .

٤ - تظلم المستزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم . وإجحاف النظر بهم .

٥ - رد الغصوب ، سواء كانت سلطانية تغلب عليها ولاية الجور ، او كانت بما تغلب عليها ذوو الايدي القوية .

٦ - مشاركة الوقوف (الاوقاف) فيتصفحها ليجريها على سبيلها ، ويمضيها على شروط واقفها إذا عرفها .

٧ - امضاء ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ، لعاقلة المحكوم عليه وعظم خطره .

- ٨ - النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة في المصالح العامة .
- ٩ - مراعاة العبادات الظاهرة كالجُمع والاعياد والحج ، والجهاد ، من تقصير فيها واختلال بشروطها .
- ١٠ - النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين .
- وهذا يبين لنا الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة ومدى سلطة قاضي المظالم .

دار العدل ومجلس القاضي : كان القاضي يجلس في داره أو في المسجد أو في السوق ، وربما ركب وتجوّل في البلد ، ويقف حيث يُطلب للقضاء . وأول من بنى داراً خاصة للقضاء الملك العادل نور الدين زنكي في دمشق وأسماها دار العدل . كما فعل ذلك من بعده الأيوبيون في مصر . ثم انتشرت بعد ذلك في سائر الأمصار .

وكان القاضي يبعث حاجبه إلى موضع جلوسه فيحفظ من جاء أولاً فأولاً ، فيقدمهم على هذا الترتيب حتى يأتي القاضي للفصل في الخصومات ولا يقدم أحداً على من جاء قبله لفضل منزلته أو سلطته ، ويقعد الرجال على حدة والنساء على حدة . وكان للغرباء ميزة في أن القاضي يقدمهم على غيرهم في معالجة الأمور .

مساعدو القاضي : كان يساعد القاضي في أعماله :

- ١ - الحاجب : الذي يرسله إلى موضع جلوسه ليحفظ ترتيب المتقدمين
- ٢ - الجلواز : أو الشرطي ، يتقدم على رأس القاضي لتهذيب المجلس ، ويبيده سوط يؤدب المنافق وينذر به من يخل بأداب المجلس .
- ٣ - الكاتب : لتدوين أقوال المتخاصمين وتسجيل الأحكام .
- ٤ - الخازن : لحفظ إضبارات الدعاوى .

- ٥ - الأعوان : يرسلهم القاضي لاحضار الخصوم .
- ٦ - الترجمان : لنقل أقوال الأعاجم إذا كان في بلد يكثر فيه من لا يحسن العربية ويكفي واحد والاثنان أفضل .
- ٧ - العدول : أي الشهود الذين يعتمد القاضي عليهم وقد نشأت مهمتهم لما تكثر شهود الزور . من شأن أصحابها :
- آ - أن يكتبوا للمتعاقدين عقوداً صحيحة على وجه الشرع ويشهدوا عليها .
- ب - أن يشهدوا أمام القضاء بما يقع من الأمور في حضرتهم .
- ج - أن يكشفوا للقاضي عن حقيقة الشهود الذين يسمعون المتخاصمون فيما ان يزكّوهم فتقبل شهاداتهم ولما أن يجرحوهم فترفض .
- ٨ - أهل الشورى : وهم من أهل الفقه والعلماء (وكانت لهم دار خاصة في قرطبة) يرجع اليهم القاضي في تقرير الاحكام ويستشيرهم إذا عصى عليه أمر كي لا يقع في خطأ . إلا أنه يستشيرهم أمام الخصوم .
- القضاء وأهل الذمة :** يقضي الدين الاسلامي باحترام حرية الأديان السماوية ، فأوامر القرآن والسنة صريحة في تقرير المساواة التامة بين المسلمين والذميين في جميع المعاملات وتحض على العمل في قضائهم بمقتضى أحوالهم الشخصية . فقد قال تعالى : « فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » . ومن هذه الآية الكريمة نعلم أن الذميين كانوا غير مجبرين على العمل باحكام الشريعة الاسلامية ، بل كانت لهم الحرية في اتباع أحكام دينهم في كل المسائل حتى في الجنائية منها . وهو ما يستفاد من قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » وقال تعالى : « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه » .

وتشير المصادر إلى حوادث كثيرة كان الذميون فيها يتقاضون لدى القاضي المسلم الذي يفصل في أمورهم سواء كان الخصم مسلماً أو غير مسلم. ولما فتح عمرو بن العاص مصر قسمها إلى عدة مناطق وعين على كل منطقة قاضياً قبطياً يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين ، وفق شرائعهم ، لانه أكثر فهماً لحالتهم ولاخلاقهم . واذا وقع نزاع بين عربي وقبطي عرض النزاع على مجلس مؤلف من قضاة الطرفين .

شروط القاضي وتعيين القضاة : كان يشترط في القاضي شروط كثيرة وهي :

١ - **الحرية :** لأن العبد لا يملك الولاية على نفسه فمن باب أولى أن لا يملكها على غيره .

٢ - **العقل :** أي العقل الذي يجعل صاحبه صحيح التمييز ، جيد الفطنة ، بعيداً عن السهر والغفلة يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أسكل .

٣ - **البلوغ :** لأن الصبي ناقص التمييز وليس له ولاية على نفسه فلا يعقل أن تكون له ولاية على الناس .

٤ - **الاسلام :** ويجوز تقليد غير المسلم القضاء بين أهل دينه .

٥ - **العدالة :** يفسرها الماوردي بقوله : « أن يكون صادق اللهجة ، صادق الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقياً المآثم ، بعيداً عن الريب ، مأموناً من الرضا والغضب .. »

٦ - **سلامة السمع والبصر والنطق**

٧ - **العلم :** أي أن يكون عارفاً بأسرار التشريع وأن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره بتفسير أو تأويل . وبعضهم أجاز تولية الأمي القضاء إذا كان صحيح الفهم ولا يوجد في البلد أصلح منه .

٨ - الذكورة : أي ليس للمرأة أن تتولى القضاء في أي شيء .
ولكن أبا حنيفة أجاز قضاءها فيما يصح فيه شهادتها .

هذه هي الشروط ، إنما يجب أن تتوفر في القاضي صفة لا بد منها
لينجح في عمله كالفهم في الوقائع والاستدلال بالامارات وشواهد الحال
ومعرفة بالفراسة مع جودة القرينة وحدة النظر .

ويروى عن فطنة وذكاء القضاة قصص كثيرة منها : أن شريحاً بن
الحارث (توفي سنة ٧٨ هـ) قاضي الكوفة جاءته امرأة تخاضم رجلاً فأرسلت
عينها وبكت فقال له أحدهم يا أبا أمية ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة
فقال ان إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يكون .

ويروى عن نباهة القاضي إياس (توفي ١٠٤ هـ) قاضي الكوفة أن
رجلاً أودع عند آخر مالا فجهده ، فسأله فأنكر ، فقال المدعي . أين دفعت
إليه ؟ فقال : في مكان في البرية . فقال : وما كان هناك ؟ قال : شجرة . قال :
أذهب إليها فلعلك دفنت المال عندها ونسيت فتتذكر اذا رأيت الشجرة ، فضى
وقال للخصم : اجلس حتى يرجع صاحبك . وإياس يقضي وينظر إليه ساعة بعد أخرى
ثم قال له : يا هذا أترى صاحبك بلغ مكان الشجرة ؟ قال : لا . قال : يا عدو الله
انك خائن : قال : اقلني أقالك الله . فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال
له إياس : اذهب معه فيخذ حقلك منه .

ويروى عن نزاهة القضاة أن قاضي مصر ابن عبد السلام (المتوفي
٧٠٢ هـ) أفتى بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ فنأدى في المدينة عن نفسه : من
أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فانه أخطأ .

أما في تعيين القضاة فإن عمر بن الخطاب قال ما من أمير عين والياً

أو استقضى قاضياً محاباة إلا كان عليه نصف ما اكتسب من الائم . وان
أمره أو استقضاه لمصلحة المسلمين كان شريكه فيما عمل من طاعة الله تعالى
ولم يكن عليه شيء مما عمل من معصية .

كان الخليفة نفسه هو الذي يختار القاضي في العاصمة ؛ أما في الأقاليم فكان الوالي
يفعل ذلك . وكانوا في المدن الكبرى يعينون عدة قضاة . كما كانوا يعينون
قاضياً للعسكر في مصر للفصل في خصومات الجند .

وكانت عادة الخليفة إذا أراد أن يعين قاضياً أن يكتب له سجلاً
(مرسوماً) وفيه يبين فضله واحتياج الناحية إلى قضاائه . وكان هذا السجل
يقرأه أحد اتباع القاضي على المحتشدين احتفالاً بالقاضي الجديد في المسجد
ثم يسلمه سجل الخليفة .

ثم صار قاضي القضاة بعد أحداث هذا المنصف زمن الرشيد هو المسؤول
عن تعيين القضاة والمشراف على أمورهم .

قال النبي ﷺ : « إذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر » .
ومع ذلك كان الفقهاء ينظرون إلى القضاء كواجب يصعب على الإنسان
القيام به بطريقة ترضي الله والعباد لكثرة اشغاله وخطورة مسؤوليته .
وكانوا إذا عرض عليهم تخوفوا منه وتهربوا عنه . وكان من أسباب تخوفهم
بعض الأحاديث مثل « قاض في الجنة وقاضيان في النار » « ومن استقضى فقد
ذبح بغير سكين » إلا أن العلماء يقولون إن مثل هذه الأحاديث موجهة
للقضاة الظالمين الجائزين الجاهلين . ويراد بالحديث الأخير أن القاضي
ذبح الحق .

ومن مشاهير الفقهاء الذين رفضوا القضاء الامام أبو حنيفة ، فقد عرض
عليه قضاء الكوفة في آخر زمن الامويين فأبى ، فكانت الوالي ابن هبيرة

يضره في كل يوم عشرة أسواط مدة عشرة أيام فلما رأى امتناعه تركه .
وفي زمن العباسيين دعاه المنصور إلى القضاء فأبى ، فسجنه .

رواتب القضاة وملابسهم : عمر بن الخطاب هو أول من رتب أرزاق
القضاة فجعل للقاضي سليمان بن ربيعة الباهلي (٥٠٠) درهم في الشهر ورتب
لشريح قاضي الكوفة مائة درهم مع مؤنته من الخطة . أما الإمام علي
فقد قال لحامله على مصر : أفسح للقاضي في البذل ما يزيل علته وتقل معه
حاجته إلى الناس . ورتب لشريح (٥٠٠) درهم في كل شهر .

وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك زمن الراشدين . أما في عهد
الامويين فقد تصاعدت رواتب جميع موظفي الدولة ومنهم القضاة . وكان
راتب القاضي في عهد مروان بن محمد (١٠) دنانير في الشهر .

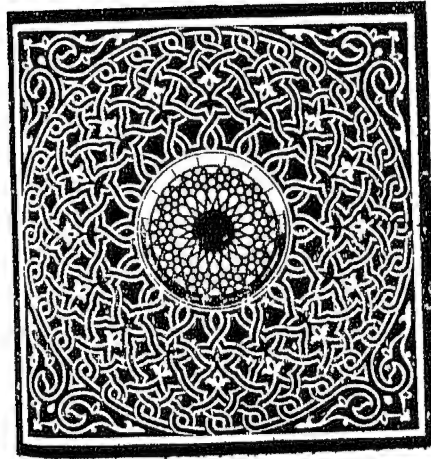
فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر في الشهر مثلاً (٣٠) ديناراً .
ثم تصاعد الراتب زمن المأمون وأصبح (٤٠٠٠) درهم أي نحو (٢٧٠)
ديناراً شهرياً . وربما كان ذلك لسبب خاص إذ بعد ذلك عاد الراتب إلى
(١٠٠٠) دينار في السنة ثم تدنى إلى (٥٠٠) زمن المعتضد .

ومن بعد ذلك دخل القضاة في الالتزام مثل الخراج . وأول ما جرى
ذلك في أيام معز الدولة بن بويه سنة (٣٥٠ هـ) فقد التزمه ابن أبي الشوارب
وسمي قاضي قضاة بغداد على أن يؤدي (٢٠٠٠٠٠) درهم كل سنة .

لم يكن للقضاة زي مخصوص قبل عهد قاضي القضاة أبي يوسف إذ أنه
ميزهم بلباس خاص يعرفون به . ويقول القلقشندي : كان القضاة والعلماء
يلبسون العباء من شاشات كبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه
ذوابة تلحق طرف مرجه إذا ركب ، ومنهم من يلبس فوق ثيابه دلقاً
متسع الاكمام طويلها ، مفتوحاً فوق كتفيه سابلًا على قدميه . ويتميز قاضي

القضاة الشافعي والحنفي يلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره . وان كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم الصوف الأبيض . ويلبسون الخفاف من الادم الطائفي .

وكان القضاة يركبون البغال النفيسة المساوية في الاثمان لمسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج فرجية من جوخ . وكان قاضي القضاة في الدولة الفاطمية يقدم له من اصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائماً وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة .





الفصل الحادي عشر

الحسبة

أصل الكلمة في اللغة ولدى الفقهاء : اختلف الكتاب في معنى كلمة المحتسب فبعضهم يقول انها مشتقة من قولهم حسبك بمعنى اكتف لأن المحتسب يمنع الناس من الغش وارتكاب المحظورات . وفي القاموس المحيط : « احتسب عليه ، أنكر ، ومنه المحتسب » ويقال فعلت هذا الأمر حسبة لله واحتسبته عند الله . أي جعلت حسابي عليه وأجرى منه . أما الفقهاء فيقولون : إنها أمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكذلك عرفها ابن خلدون بقوله « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين » .

وعرفها ابن تيمية بأنها « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما ليس من اختصاص الولاية والقضاة والديوان ونحوهم » فالمحتسب على رأي ابن تيمية « يأمر بالجمعة والجماعات ، وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والحيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك والغش يدخل في البيوع بكتان العيوب وتدليس السلع ، كما يدخل في الصناعات » .

منشأ الحسبة : تضاربت أقوال المؤرخين في منشأ الحسبة . فالبعض يقول : ان الرسول ﷺ كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال : من غشنا ليس منا . وورد في صحيح مسلم : أن الرسول عليه السلام مر على صبرة طعام فأدخل يده بها فنالت أصابعه بللًا ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فقال أصابته السماء يا رسول الله . قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس منا .. ويروى أن الرسول عليه السلام ولى سعيد بن سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة . وولى عمر بعده أم الشفاء الانصارية على السوق، وربما كان لأمر تتعلق بالنساء ؛ ولذلك يقول آخرون بأن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة . وكان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه (هي من جلد البقر أو الجمل محشوة بنوى التمر) فتمت رأى غشاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه وربما اتلف بضاعته .

لأنك بأن الخلفاء والأمراء كانوا يقومون بعمل المحتسب من مراقبة التجار وأرباب الحرف بمنع الغش واستعمال المكيال والموازين الصحيحة الخ . ولكن القصد متى عيّن للحسبة موظف مخصوص ؟

اجمع المؤرخون على أن الحسبة نشأت في العهد العباسي . ولكنهم اختلفوا في تحديد تاريخ نشوئها . فبعضهم يجعلها في عهد الرشيد وآخرون يجعلونها في أيام المهدي أو الهادي أو المأمون

ولكن المرجح أنها كانت معروفة زمن المنصور إذ جاء في تاريخ الطبري عن اخبار سنة (١٤٦ هـ) .. أن رجلاً يقال له أبو زكريا ولاء المنصور حسبة بغداد والأسواق ..

الحسبة والقضاء : يقول ابن خلدون : « ان الحسبة خادمة لمنصب القضاء » . وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية « في مصر والمغرب والأندلس » داخلة في أعمال القاضي يولي بها باختياره من يقوم عليها .

وكانت الحسبة تجمع أحياناً إلى منصب آخر غير القضاء . فنجم الدين الانصاري مثلاً كان (٦٥٧ هـ) وكيل بيت المال في دمشق ومحتسباً .

كما كانت تجمع إلى الشرطة أيضاً . اذ يروى أن اتابك سلطان دمشق طلب محتسباً ، فذكر له رجل من أهل العلم فأمر باحضاره فأما نظره قال : إني وليتك أمر الحسبة على الناس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الامر كما تقول فقم عن هذه الطراحة وارفع المسند فانها حريم واخلع هذا الخاتم فانه ذهب وقد قال النبي ﷺ . هذان حرام على ذكور أمتي ، حلّ لآثائها . فنفض السلطان عن طراحته وأمر برفع المسند وخلص الخاتم من اصبعه وقال : ضمنت إليك النظر في أمور الشرطة .

ثم تنزهاً للقضاء وتخفيفاً من الأعمال الكثيرة أفرد موظف خاص للحسبة .
أعمال المحتسب : أعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية ؛ ولا نجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً أو دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، فانه يشبه رئيس البلدية ومدير الاعاشة ورئيس الشرطة الاخلاقية ومدير الشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف . ويمكن أن نجمل أعمال المحتسب بالنواحي التالية :

١ - مراقبة التجار وأرباب الحرف : أي مراقبة كل صاحب مهنة يتكسب منها . مهما يكن نوع هذه المهنة . حتى أنه كان يراقب الأطباء ويأخذ عليهم عهد ابقراط . ويجبر الطبيب على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه . وكانت الشروط التي توضع على الجبازين في النظافة لا نجد لها مثيلاً في الوقت الحاضر .

جاء في كتاب معالم القرية في احكام الحسبة لابن الاخوة القرشي في فصل الحسبة على الفرانين والجبازين : « ينبغي ان يأمرهم المحتسب برفع سقائف افرائهم ، ويجعل في سقوفها منافس واسعة للدخات ، ويأمرهم

بكنس بيت النار كل تعميرة ، وغسل المعاجن وتنظيفها .. ولا يعجن العجان بقدمه ولا بركبته ولا بمرفقيه ، لان في ذلك مهانة للطعام وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه او بدنه .

ويراقب المحتسب ما يغشون به الخبز من الكرم والزعفران ، فانهما يوردان وجه الخبز . ومنهم من يغشه بالحمص والبقول .. ويلزمهم الا يخرزوه حتى يختمر ، فان الفطير يثقل في الميزان والمعدة ، وكذلك اذا كان قليل الملح .. ولا يخرجون الخبز من بيت النار حتى ينضج نضجاً جيداً من غير احتراق ... ويجب ان يكون العجان ملثماً لانه ربما عطس أو تسكلم .. ويشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق قيقطر منه شيء في العجين . وإذا عجن في النهار فليكن عنده انسان على يده مذبة يطرد عنه الذباب .

٢ - مراقبة الاسعار والموازين والمنكرات الاقتصادية :

يرى ابن تيمية ان من وظيفة المحتسب مراقبة المنكرات الاقتصادية ، مثل عقود الربا والميسر ، ويبيع الغرر .. والنجش وهو زيادة في ثمن السلعة لمن لا يريد شراءها كما يفعل الكثيرون في المزايدات .. وتحديد اسعار المواد الغذائية والضرورية فقال : « لولي الأمير ان يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه ، مثل من عنده طعام لا يحتاج اليه والناس في نخصة (مجاعة) فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل .. وما احتاج الى بيعه وشرائه عموم الناس فانه يجب ان لا يباع الا بثمان المثل اذا كان الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة .. » وعلى المحتسب منع الاحتكار ، والمحتكر هو الذي يعتمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاؤه عليهم ، وهو ظلم للخلق

وابلغ من هذا ان يكون الناس قد التزموا الا يبيع الطعام او غيره الا آناس معروفون . فهنا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون الا بقيمة المثل ، ولا يشترون الا بقيمة المثل . ومن المنكرات تلقى السلع قبل ان تجيء الى السوق فان النبي عليه السلام نهى عن ذلك لما فيه من تغيير البائع ، فانه لا يعرف السعر فيشتري منه المشتري بدون القيمة . .

كما ذكر البلاذري انه كان من عادة الامام علي بن ابي طالب ، ان يطوف بسوق الكوفة ويده الدرة ، ويراقب الاوزان والمقاييس المستخدمة فيها ، حتى يمنع التلاعب بها . . كما يروى ان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك طاف بنفسه في اسواق دمشق وراقب الموازين والمكاييل ، وامر بتخفيض الاسعار ، رغم أن هذه المراقبة كانت من واجب « المحتسب » .

٣ - مراقبة الاخلاق العامة : كمنع شرب الخمر علنا ومنع الناس من تطيير الحمام ومنع السحار والكهان عن منكراتهم ومنع تعرض الرجال للنساء الخ . . .

وقد جاء في كتاب معالم القرية : وكذا طرح الكناسة على جوار الطريق ، وتبديد قشور البطيخ ، او رش الماء بحيث يخشى منه التزحلق والسقوط ، وكذا إرسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط الى الطرق الضيقة ، فان ذلك ينجس الثياب ، ويضيق الطريق ، وكذا ترك مياه المطر والاحوال في الطريق من غير كسح ، فذلك كله منكر ، وليس يختص به شخص معين ، فعلى المحتسب ان يكلف الناس به .

٤ - مراقبة العبادات : اذ يأخذ المحتسب المسامين بصلاة الجمعة والجماعة والأعياد ويمنعهم من الافطار في رمضان . ويعنى بنظافة الجامع وهيبته . حتى ان أحد المحتسبين في بغداد منع القاضي من الجلوس في

الجامع حرصاً على نظافته من المتخاصمين « ... وانه لتدخل المرأة اليك ومعها الطفل فيبول على الحصير . أو يأتيك رجل غير منتحل يكون قد مشى في المواضع القذرة فيطأ الحصير ودارك أولى » .

٥ - مراقبة الابنية والطرق : فيأمر بهدم الابنية البارزة . ويمنع فتح النوافذ في الابنية التي تشرف على غيرها . ويدعو أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع انقاضها . ويراقب متقاعد الاسواق (البسطات) فيمنع ما يضر منها بحركة المرور .

٦ - أعمال مختلفة : اجبار السادة بمعاملة عبيدهم وامائهم بمعاملة حسنة وأخذ أرباب البهائم بعافيتها وان لا يستعملوها في ما لا تطيق (يكون المسلمون قد سبقوا بمئات السنين جمعيات الرفق بالحيوان التي يدعي الغربيون أنهم أول من أنشأها) والسهر على الاطفال اللقطاء والتكفل بهم . وجمع وحفظ الأشياء الضائعة وإعادتها إلى اصحابها . . ومنع معلمي المكاتب من ضرب الصبيان ضرباً مبرحاً ، ومنع الخالين واهل السفن من الاكثار في الحمل .

مجلس المحتسب وراتبه : كان للمحتسب دار خاصة به تسمى دار الحسبة يقيم فيها ويصرف منها جميع أعماله . فهو اما ان يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها . أو يرسل نوابه في الشارع لتفقد الاحوال فيها . وكان أحياناً أخرى يخرج ويطوف بنفسه في الاسواق ويراقب نظامها ويعاقب المخالفين . ويمنع المنكرات ويزوج ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك أو يرفع إليه .

وتذكر المصادر ان مجلس المحتسب يكون أحياناً في المسجد . ففي

مصر مثلاً كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والازهر وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

العقوبات : كانت عقوبات المحتسب : اتلاف البضائع الفاسدة . اراقة الخمر . منع التاجر الغشاش من العمل و اعلان اسمه ليتجنبه الناس . وأما الضرب والحبس والتعنيف فكانت أموراً مألوفة . كذلك كان يستعمل عقوبة (التجريس) اي التشهير ببعض الصناع الذين يسيئون الائتمان ويغشون ، وذلك بان يركب المذنب على جمل أو حمار من الخلف ويطاف به في الاسواق ويجل بلباس خاص يحوي الكثير مما يلفت أنظار الناس كالاجراس وأذئاب الثعالب . وتتبعه افواج الصبيان ينعته بـ « باعنف الاوصاف » وينالون من شرفه وكرامته بشكل لا يقوم له بعد ذلك كيان . فقد ذكر انه اذا كذب احد التجار في مصر على عهد الفاطميين ، على أحد المشتريين أو باع بأكثر من الثمن ، فانه يدفع بالتاجر على جمل ، ويعطى جرساً بيده ، ويطوّف به في المدينة وهو يدق الجرس ويقول : قد كذبت وها انا اعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب .

وكان المحتسب يستعين بطائفة من الموظفين لتنفيذ العقوبات على المستحقين لها يسمون « الاعوان » .

الله



الفصل الثاني عشر النظام العسكري — الجيش

المقاتلون في صدر الاسلام : لم يعتد العرب في جزيرتهم ترتيب الجيوش المنظمة ، كما كان عند الأمم الأخرى كالفرس والرومان ، أو عند العرب القدماء كالأشوريين والمصريين والفراعنة وغيرهم ، بل كان كل شاب قادر على حمل السلاح يفزع مع قبيلته ويسير للغزو ، حاملاً سلاحه التقليدي من سيف وقرص ورمح وقوس ، ولم يعرف تنظيم الجيوش منهم إلا من كان باحتكاك دائم مع الدول المجاورة كالمناذرة والغساسنة الذين كانت لهم فرق خاصة للقتال . فقد ذكر أن المناذرة اتخذوا كتيبتين دعيت إحداهما الدوسر ، ودعيت الثانية الشهباء . ولما جاء الإسلام وأمر المسلمون بالقتال ، أرسل الرسول أصحابه للتعرض لقوافل قريش ثم قام بالحروب ضد الجاهليين ، فصار يقود بعض المواقع بنفسه ، ويرتب رجاله قبيل القتال ، ويضع الكمين ، ويأمر بعض الأفراد بالتريث في الهجوم ليفاجئوا العدو ... ونبغ في عهده كثير من القادة العرب الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على الدفاع عن الدين الجديد ونشره . وأهم القادة خالد بن الوليد المبكر والمبدع في فنون القتال ، الذي

قسم جنده إلى فئات ، وكان يرسل الامداد تلو الامداد في بعض المواقع حتى يدخل في روع العدو كثرة عدده أو يبدل مواقع الميمنة والميسرة والقلب ، يشعر عدوه بحلول فرق جديدة بدل القديمة ، حتى يمكن اعتباره بالنسبة لفنون القتال العربية في الصحراء مبدعاً في خططه وأعماله ، كما يعتبر الاسكندر المقدوني ، وفريدريك الأكبر ونابليون بونابرت مبدعين في الفنون العسكرية في أيامهم ...

الجهاد في الاسلام : كان القتال محرماً على النبي ﷺ قبل الهجرة لضعف المسلمين وقلة عددهم . وكان يدافع عن مبادئه بالحجة والبرهان والنصح والاقناع . هكذا أمره تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به » أي بالقرآن .

فلما اشتد اذى قريش هاجر النبي الى المدينة ، وكثر عدد المسلمين فيها ، وأصبحوا أهلاً للدفاع عن انفسهم بالحرب والنزال والله كفيل بنصرهم وتأييدهم (أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) . وكانت أهم الاسباب التي دفعت المسلمين الى الحروب هي :

- ١ - الدفاع عن النفس رد المغيرين . (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)
 - ٢ - تأمين الدعوة والدفاع عنها .
 - ٣ - محاربة من ينقض العهد .
 - ٤ - رد الامن الى نصابه اذا قامت الفتن والثورات
 - ٥ - فتح الفتوح وتوسيع رقعة البلاد .
 - ٦ - الدفاع عن الرأي الذي يراه المسلمون صالحاً لاستقامة الامور كما جرى في عهد عثمان لما حصلت الفتنة .
- وكان النبي ﷺ يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته بخدم

الجرحى ويهيئ الطعام ويقدم الماء ويحطن الثياب والقرب ويحمن من يحتاج الى تحميس، واشتهر منهم: ربيعة الاسمية وأختها كعبه ونسيبة بنت كعب المازنية التي ردت عن النبي ﷺ ضربة تلقتها بجسمها في معركة أحد فجرحت جرحاً أجوف له غور.

وصايا أمراء الجيوش :

استن الرسول عليه السلام لمن بعده من حكام المسلمين ، أن ينصحوا الجيوش الغازية ، ويعظوا القادة ، فكان عليه السلام يوصي سراياه المقاتلة أحسن الوصايا من ذلك ما روي عنه قوله : « أغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغرروا ، ولا تمثأوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً » وكان عليه السلام ينهى في مغازيه عن النهبة فيقول : « من انتهب نهبة فليس منا » كما قال في صدد منع التفريق في السبي بين الولد والوالدة : « من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » .

وقلده أبو بكر ، فأوصى جميع الجيوش الإسلامية الغازية أو الذاهبة لإعادة الإسلام بين المرتدين ، ومن قوله إلى جيش أسامة بن زيد : « أيها الناس ! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغرروا ، ولا تمثأوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكتب أبو بكر إلى قواده في حرب الردة عهداً صورته واحدة قال فيه : « هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ (لفلان) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره ، كله ، سره وعلايته . وأمره بالجد في أمر الله ، وبجاهدة من تولى عنه

ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤثّر المسلمون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل . ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

ومن وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص حين أنفذه لفتح العراق :
« وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامى الأنفس والكراع (الخيل) . وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمّون (يصلحون) ، أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلّا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولّوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو ، فأذكّر العيون بينك وبينهم ، ولا يخفّ عليك من أمرهم شيء . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة . واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاء ، ولا تخص أحداً بهوى ،

فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ، أو نكابة ، فإذا عانيت العدو فاضم إليك أقاصيك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها ، فتضع بعدوك كضنجه بك . ثم أذك حراسك على عسكريك ، وتيقظ من البيات جهديك .

الجندي الإجبارية : وإذا كان جمهرة المسلمين تطوعوا راغبين في الجهاد امتثالاً لأوامر الله ، وحباً في النصر في الدنيا أو جنات النعيم في الآخرة ، فإن فئة منهم تقاعست عن واجبها حتى في عهد الرسول ﷺ فدعيت بالمنافقين ، وفئة أخرى اندفعت للقتال بعدما رأت ما يفتح الله على يديها من بلاد ، وما تغنم من أموال ومتاع وزخرف الحياة ، ولما نذب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب المسلمين لحرب الروم والفرس لاحظ تقاعس بعض الناس رهبة من هاتين الدولتين الكبيرتين ، فعمد إلى الحزم في التجنيد فأرسل كتبه إلى الأقاليم لتجنيد المقاتلة ذكر فيها « ولا تدعوا ... أحداً من أهل النجدة ، ولا فارساً إلا جلبتموه ، فإن جاء طائعاً ، وإلا حشرقوه » ولما وضع عمر الديوان سجل فيه أسماء المسلمين جميعاً ورتب لهم أرزاقهم السنوية ، وأفرد للجنود منهم دفاتر خاصة هي « ديوان الجند » تدفع لهم فيها رواتب من بيت المال ، إضافة إلى ما يصيبهم من الغنائم من أسهم ، وكان على هؤلاء تلبية داعي الجهاد كلها دعا إلى ذلك ، مع بقاء باب التطوع لمن يريد من لم يذكر في الديوان من سكان البوادي والأمصار . ولما قامت الحروب الداخلية أيام الخلاف بين علي ومعاوية ثم من بعدهما ، انضم إلى كل فئة فريق من المحاربين ، ووقف فريق آخر موقف الحياد ، ولكن بعد استتباب الأمر للأُمويين ، لم ير الخلفاء بدءاً من إيجاب الناس على الجهاد حسب أوامر الخليفة ، وكان أول

من شعر بذلك هو الخليفة عبد الملك بن مروان عندما أراد أن يخمد الثورات التي قامت في عهده ، وقام الحجاج والي العراق بتطبيق مبدأ الجندية الاجبارية ، يدلنا على ذلك خطبته في أهل العراق عندما أمرهم بمحاربة الخوارج مع جيش المهلب بن أبي صفرة وقوله فيها : « وإني والله لا أجد رجلاً تأخر بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه » وقيل إن الرجل صار يسرع إلى معسكر الجيش قبل أن يستكمل معداته ويهيئ طعامه - إذ كان الجندي يؤمن بجميع معداته ووسائل حياته لا الحكومة - ويطلب إلى أهله أن يوافوه بها في المعسكر العام خارج المدينة خوفاً من انتقام الحجاج منه ، وهذا أول الجندية الاجبارية ، ثم صار من بعد ذلك لدى الدولة الاموية نوعان من الجيوش : الدائمة ودعيت بالمرتزة ، والاحتياط أو المطوعة ، وهي التي تتطوع للقتال في الايام العصبية .

واصبحت الجندية في العصر العباسي - كما يقول ابن الاثير في الكامل « مهنة مربجة ، وكان الجند يترقبون المرتبات فان سلمت إليهم في إبانها ، والاشغبوا على من أخرها ، وربما قتلوه . كما كانوا لجشعهم ينتهزون ادنى المناسبات للمطالبة بالمال ، والشطط في ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدماً أو أكثر » ويصف في موضع آخر ، كيف اشترط احد قادة الأميين على علي الخليفة حين امره بالخروج لملاقاة جيش الاميين منها : « أن يأمر لاصحاب هذا القائد برزق سنة مقدماً ، وتحمل معهم ارزاق سنة أخرى ، ويزاد أهل البلاد ، وان لا يسأل الخليفة قائده عن حساب ما فتحه من المدن والاقاليم » وهل بعد هذا تعسف من قائد عسكري تجاه خليفة ؟

ادخال العناصر غير العربية في الجيش : وإذا كان اعتماد الجيوش العربية في عهد الراشدين والامويين على العصر العربي فقط ، فان العباسيين

اعتمدوا على العناصر غير العربية ، فألفوا منهم فرقاً خاصة كالفرق الفارسية والتركية ، وأبقوا لديهم الممالك ، وعرفت بعض الفرق الخراسانية بالاشروسية كما أطلق على سكان الجوف من مصر اسم المغاربة ، وقد أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء . وشهد العصر العباسي نزاعاً بين العنصرين العربي والاعجمي رؤيت آثاره في كثير من حوادث ذلك العصر ، كمقتل أبي سامة ، وأبي مسلم ، ونكبة البرامكة ، والنزاع بين الأمين والمأمون ، وقتل هريثة بن أعين القائد العربي ، وقيام الدولة الحمدانية العربية ، وكانت نتيجة هذا النزاع أن اضمحل النفوذ العربي وتسلبت الاعاجم على الدولة ، واحتفظ الخليفة بسلطته الدينية الرمزية فقط .

المعسكرات : كان المسلمون في بادئ الامر يحرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا عليه في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط وحوله فساطط الأمراء والخاصة ؛ وإذا كانت النساء والاولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر . وقد منع عمر بن الخطاب الجنود من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة وأمرهم أن يسكنوا في معسكرات خاصة تقام في ضاحية المدينة على ألا يكون بينهم وبين الخليفة بحر أو نهر . ولذلك لم يقيم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى بل أقاموا على ضفاف الفرات بما يلي بادية الشام في البصرة والكوفة . ولم يقيم جند مصر في الاسكندرية عاصمة البلاد بل في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط على شاطئ النيل الشرقي قرب موقع القاهرة اليوم .

وبازدياد عدد الجنود والحاشية صار المعسكر أشبه ببلد فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأرباب الحرف والأتباع وغيرهم .

وكان للعرب على حدود دولتهم من جهة البر والبحر ، وخاصة بينهم وبين البيزنطيين ، معسكرات دائمة ، بل مدن محصنة دعت بالثغور والعوامم ،

معسكر اسلامي في القرن الثامن الهجري



شكل ٥ - معسكر اسلامي في القرن الثامن الهجري

فيها الحاميات والاسلحة ، يكون فيها الجند على أهبة الحرب للدفاع عن حدود المملكة أو الهجوم على العدو وغزو بلاده . وأشهرها : طرسوس وبياس ومرعش وملطية ومنبج ورفح والعريش ودمياط والاسكندرية في مصر .

التدريب العسكري : كان اهتمام العرب في الجاهلية للتدريب على القتال اهتماماً كبيراً فحياتهم البدوية نفسها من تقشف وتنقل وغزو ودفاع عن النفس هي عبارة عن مران حربي دائم . وكان أفراد القبيلة يتمرنون منذ حداثتهم على لعب الرمح ورمي الشاب وركوب الخيل وأساليب الدفاع عن النفس .

ثم لما تنظّموا في زمن النبي ﷺ وتوحدت صفوفهم أصبحت الضرورة تقضي بالاستعداد والتأهب لقتال الأعداء . وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى ذلك منها :

« ... فارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا »
« ومن ترك الرمي بعد ما علمه فلنما هي نعمة كفرها » وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي .

وكانت للعرب ألفاظ ومصطلحات خاصة لكل حركة من حركات الجيش منها : الميل . الانقلاب . الانقتال . استدارة صغرى وكبرى . رجوع إلى الاستقبال . استدارة مطلقة . اتباع الميمنة . اتباع الميسرة . جيش منحرف . جيش مستقيم . تقدم . الخ ..

فكانوا إذا أراد القائد أن يميل جنده إلى جهة أو يتخذ شكلاً خاصاً من هذه الأشكال أو حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات .
فرق الجيش : كان الجيش العربي في بادئ الأمر يتألف من المشاة

والفرسان يحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام ويلبسون الخوذ والدروع . كذلك وجد منذ عهد النبي فرقة المدرعات التي استعملت المنجنيق والدبابات والضبور . وسنتكلم عنها في بحث الأسلحة .

ثم بتقدم ورقي الدولة العربية تنوعت أساليب القتال وتعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص الأعمال . وكانت أشهر فرق الجيش التي عرفت زمن ازدهار الدولة العربية الإسلامية هي :

١ - **الفرسان** : وكان يتألف منهم معظم الجيوش العربية في العهود الإسلامية الأولى ، ويتسلحون بالرماح ، وتشكل منهم فصيلة من رماة السهام كان أكثر أفرادها في العهد العباسي من الخراسانيين أو من سكان شمال فارس المشهورين منذ القديم بتسديد السهام وإصابة المرمى على متن الخيل

٢ - **المشاة** : ويعملون عقب هجوم الفرسان .

٣ - **الطليعة** : هي سرية من الفرسان يلبسون الدروع والخوذ ، ويحملون الرماح المربوط بأسنحتها باقات من ريش النعام ، يتقدمون الجيش عادة بعدة أميال .

٤ - **الكشافة** : يعتمد عليها للاستطلاع . وقيل أن قتيبة استخدمها أيضاً لاستحضار خرائط البلاد التي كان ينوي غزوها .

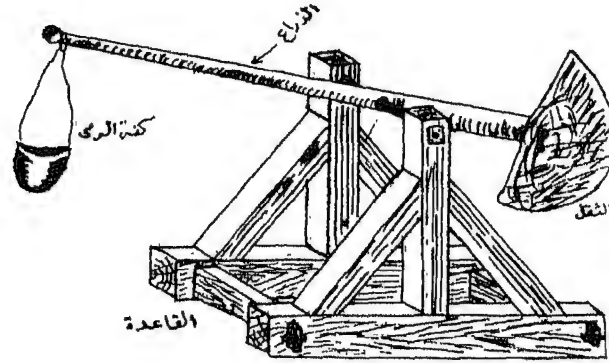
٥ - **الحرس الخاص** : لحراسة الخليفة أو أمير الجيش وكان أكثرها أيام الدويلات المنفصلة .

٦ - **الفلمان** : وهي فرقة يقوم أفرادها كخدام خصوصيين للخليفة ويتدربون على الفنون الحربية ويعيشون في ثكنات منفصلة عن ثكنات باقي الجيش بمقتضى نظام عسكري خاص ، وتشكلت هذه الفرقة بعد أن كثرت اقتناء الممالك .

٧- **النشابون أو الرماة :** وقد اشتهرت منهم فرقة تدعى رماة الحلق لمقدرتهم على رمي احدى عيني الغزال دون الأخرى . وجاء في العقد الفريد أن الواحد منهم كان يعلق ضباً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائه حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطئ واحدة منها ، وكانت هذه المهارة في الرمي مشهورة منذ الجاهلية إلى مختلف العصور الاسلامية .

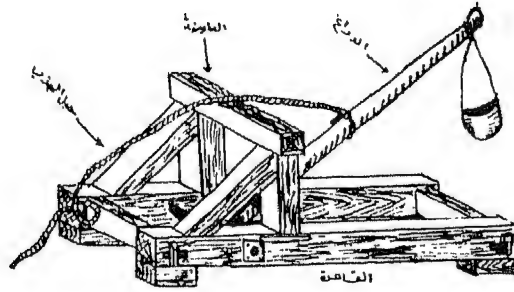
٨- **النفاطون :** الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء .

٩- **المنجنيقيون :** رماة المنجنيق ويسمون أيضاً بالمهندسين وكان يطلق على رئيسهم اسم أمير المنجنيين . وكان من أشهرهم يعقوب بن جابر المنجنيقي الذي اشتهر في الدراسات العسكرية وألف كتاباً اسمه « عمدة المسالك في سياسة الممالك » عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب كالتعبئة



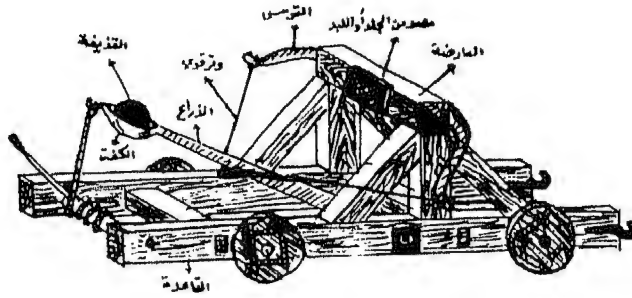
شكل - ٦ -

منجنيق ، قامدته من الخشب السميك ، يرتفع في وسطه عمود خشبي متين ، يركب في أعلاه ذراع المنجنيق القابل للحركة ، يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد . وتقف هذه المواد بجذب أعلى الذراع نحو الأرض بقوة ويؤمن قوة الجذب عدة رجال اشداء



شكل - ٧ -

نموذج آخر من المنجنيق الذي استخدمه المسلمون
ويمتاز باستخدام حبل يساعد على شدة القذف



شكل - ٨ -

منجنيق استعمل في عصر متأخر في البلاد الاسلامية

والاستيلاء على الحصون وتشديد القلاع والفروسية والهندسة والحصار وتركيب
المكائن الحربية وصفات الخيول وأنواع الخيالة .

١٠ - العيارون : رماة الاحجار من الخالي .

١١ - المماريون : يحملون المعاول مع السيوف والتروس .

١٢ - مستشفيات الميدان : فيها الأطباء والصيادلة ونقالات هي عبارة
عن محفات تحملها الابل .

١٣ - الجواسيس : وقد اعتمد عليهم العرب منذ أيام النبي ﷺ .
إذ قبيل يوم حنين بعث الرسول عليه السلام عبد الله الأسامي وأمره أن
يدخل في صفوف عدوه فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق
عبد الله حتى دخل فيهم وسمع منهم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين .
ثم أتى النبي وأخبره الخبر . كما كان لقريش جواسيس على النبي أيضاً .
ثم في عهد الأمويين والعباسيين كان يعتمد على رجال يتزويرون بزي التجار
والأطباء وغيرهم ويدخلون أراضي العدو ويتسقطون أخباره .

عدد الجند : كان عدد الجند الاسلامي في أواخر أيام النبي ثلاثين
الفاً من المشاة وستة آلاف فارس . أما في أيام أبي بكر وعمر فقد بلغ
مئة وخمسين الفاً وتضاعف العدد في أواخر أيام الراشدين . أما في زمن
الأمويين فقد بلغ عدد جنود العراق (١٤٠٠٠٠) ومعهم من النساء
والأولاد (٢٠٠٠٠٠) . وكان في مصر أربعون ألفاً ما عدا النساء والأولاد
وكان جند الشام نحو ذلك غير من في فارس وغيرها .

ونجهل عدد الجند في أيام العباسيين إلا أننا نستدل من بعض الروايات
أنه كان كبيراً . قيل إن الرشيد حمل على هرقلية بجيش عدده (١٣٥) ألفاً
من المرتقة عدا الأتباع والمطوعة . وروى ابن خلدون أن المعتصم نازل
عمورية بجند عدده (٩٠٠٠٠٠) . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة
الإخشيدية بمصر (توفي سنة ٢٣٤ هـ) (٤٠٠٠٠٠) جندي وثمانية آلاف
مملوك .

إمرة الجيش : كان النبي ﷺ نفسه هو قائد الجيش وكان يسند
القيادة إلى غيره في بعض الأحيان . وفي زمن الراشدين أصبح من الصعب
على الخليفة أن يقوم بهذه المهمة بنفسه فأخذ يختار القواد بمن عرف بالشجاعة
والمقدرة والإقدام وحسن التدبير .



شكل - ٩ -

صورة حامل اللواء في الجيش ، موجودة على صحن اسلامي
عشر عليه في خرائب مدينة سامراء العباسية من صنع القرن الثالث الهجري

وجرى بعض التعديل في امرة الجيش في العهد الأموي عما كان عليه
في صدر الاسلام . كما حدث تغيير في العصر العباسي أيضاً . وسنكتفي
بذكر الوضع الأخير لرتب الجيش في العهد العباسي .

- ١ - العريف على عشرة رجال .
- ٢ - النقيب » » عرفاء أو (١٠٠) نفر
- ٣ - القائد » » نقباء أو (١.٠٠٠) نفر
- ٤ - الأمير » » قواد أو (١٠.٠٠٠) نفر

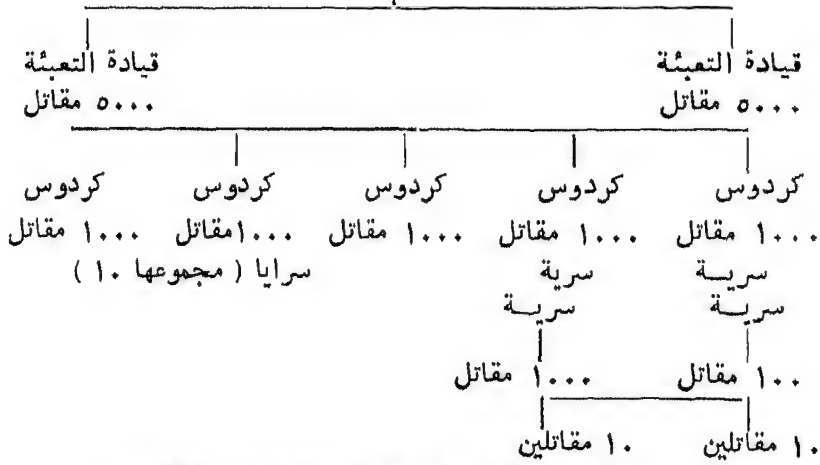
تنظيم القوات البرية لجيش المسلمين

في عهد نشر الدعوة خارج الجزيرة العربية

وتحرير عرب الاطراف

الجيش (١٠ آلاف مقاتل او أكثر)

القائد العام (الامير)



جدول يبين قيادات المسلمين في عهد الراشدين والامويين

ومقارنته بقيادات الروم والقيادات العربية الحالية

عدد المقاتلين	قيادة جيش المسلمين	قيادة جيش الروم	الرتب العربية الحالية
١٠ آلاف	أمير الجيش	بطريق	
٥ آلاف	أمير التعبئة	طومر خان	عميد
الف	أمير الكردوس	طرنجارية (درانجري)	مقدم
٢٠٠	قائد السرية	القومس	نقيب
١٠٠	النقيب	القومس	
٤٠	الخليفة	القمر طخ (القمطرخ)	ملازم
١٠	عريف	الدمرداخ	رقيب

شكل - ١٠ -

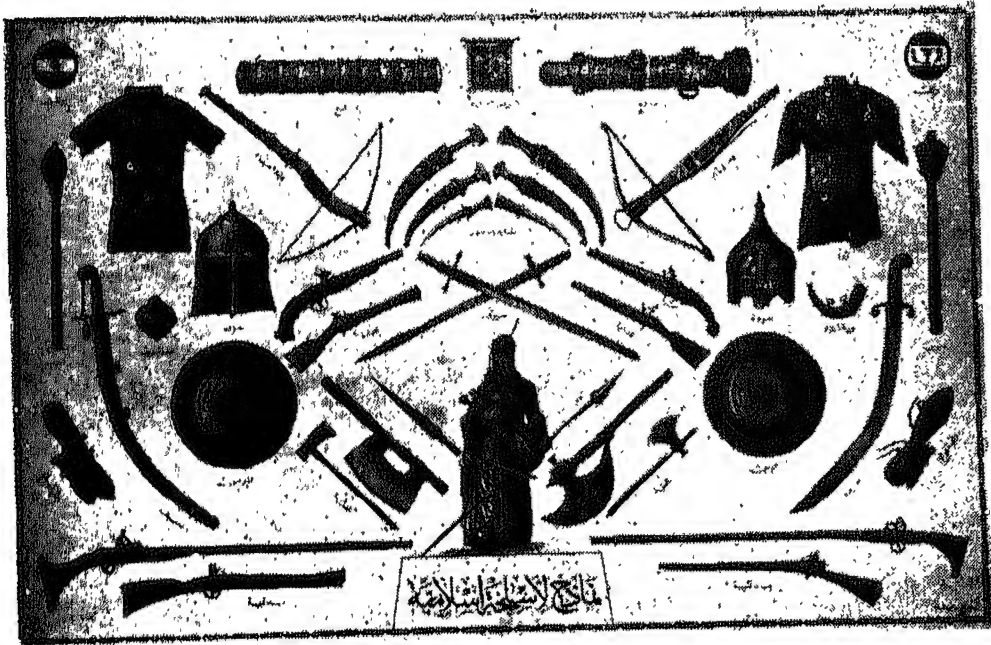
جدول لتشكيل الفرق العسكرية الاسلامية ولرتب الضباط

عن مقال في مجلة المجمع العلمي

المراقي مجلد ٢١

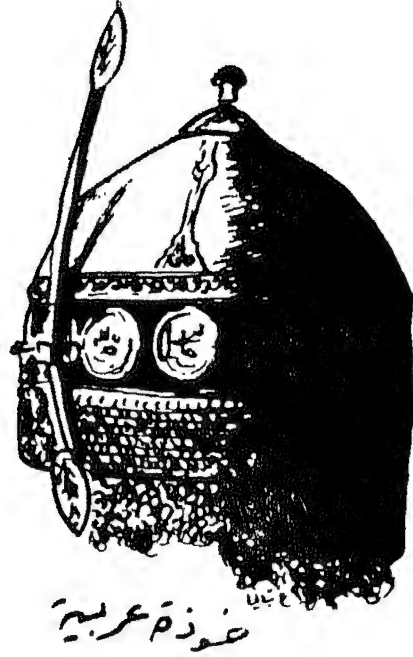
أسلحة الجند : كانت الأسلحة التي استعملها العرب في الجاهلية هي :
السيوف والرماح والحرايب والأقواس والسهام والدروع والحوذ وقد
استعملوها في صدر الاسلام أيضاً . وأدخل النبي ﷺ أسلحة جديدة .
يقال انه أرسل إلى اليمن بعضاً من أصحابه لتعلم صناعة الدبابات والمجانيق
والضبور . وتذكر بعض المصادر أن سلمان الفارسي هو الذي أرشد
المسلمين إلى المنجنيق ويقال إنه صنعه لهم بيده .

وقد اصطنع العرب لرمي السهام آلات لعلمهم أخذوا بعضها عن الفرس
كالـ **الجرأة** التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر وهي عبارة عن أنبوب من
حديد أو خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً . كما اصطنعوا
ضروباً من المنجنيق لرمي عدة سهام .

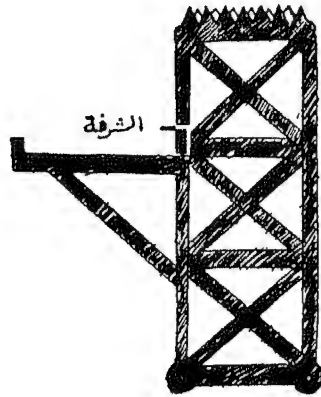


شكل - ١١ -

نماذج الأسلحة الإسلامية ، مما جمعه أحد المتاحف



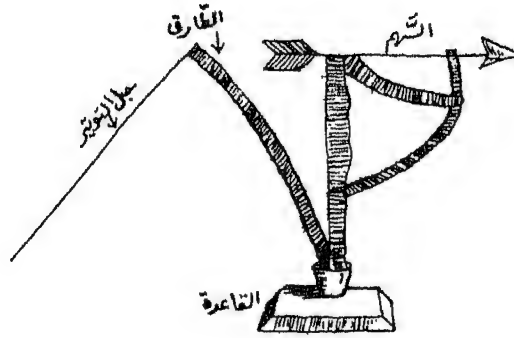
شكل - ١٢ - خوذة عربية عليلها كتابات بالكوفية



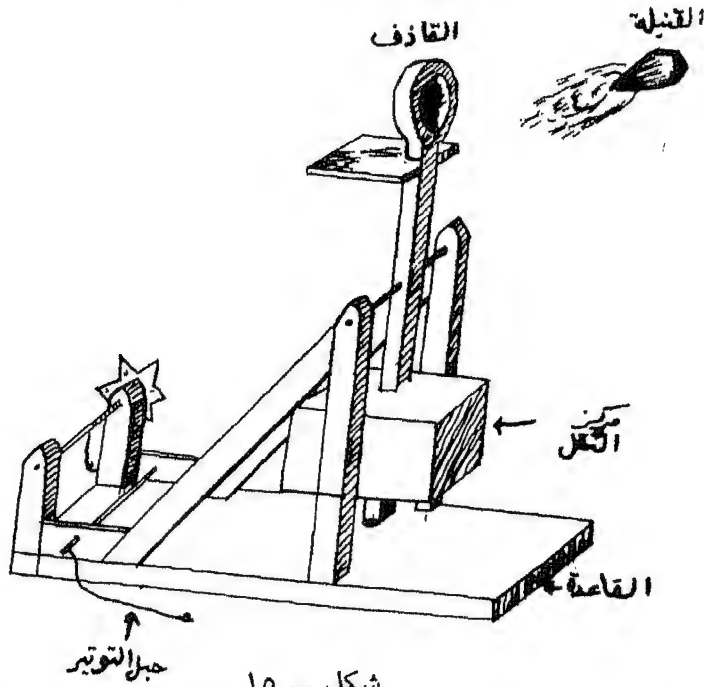
الدبابه

شكل - ١٣ -

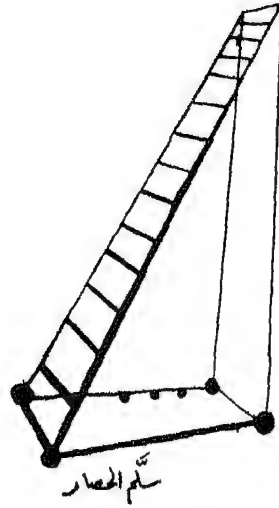
شكل من أشكال الآلة الحربية التي سماها العرب الدبابه
وكانت معروفة في جزيرة العرب قبل الاسلام وخاصة عند أهل الطائف



شكل - ١٤ -
رمي السهام الى مسافات بعيدة لا يقدر عليها الرامي
العادي بواسطة النشاب



شكل - ١٥ -
يعتبر هذا المنجنيق ، أحد الأسلحة المتطورة التي استخدمها
المسلمون ، بعد العصر الأموي ، حيث ادخلوا الصنعة في إنتاج
حاجاتهم العسكرية ، والعلم التطبيقي فيما كانوا يستعملونه



شكل - ١٦ -

سلم من سلالم الحصار ، يصعد المحاربون بواسطته الى أعالي الاسوار ، ليقتحمونها من الأعلى . وقد استعمل العرب المسلمون الأوائل سلالم من الحبال والخشب ، كما فعل خالد بن الوليد في حصار دمشق

وكانت **السيوف** على أنواع منها اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية والدمشقية وكانت قليلة الصلابة وكانت أسياف البيزنطيين أمتن منها . لذلك كان العرب إذ صابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وتوارثوه مثل سيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب توارثه أهله ثم أخذه المهدي ثم الهادي فالرشيد كما تقول الرواية . وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب .

وأشهر آلات الحصار التي عرفوها **المنجنيق** لرمي الحجارة أو النار وأول من استعمله الفينيقيون وعندهم أخذ اليونان والفرس ومثله المقلع ، وكان أول استعمال لهاتين الآلتين الحربيتين في حصار دمشق سنة ١٣ هـ ، وروي انه كان لمحمد بن القاسم الثقفي منجنيق يدعى « العروس » استعمله في حصار الديبل في بلاد السند ، وكان ضخماً لدرجة ان طاقمه من

الجند الذي يعمل على تحريكه والرمي به يبلغ خمسمائة جندي . وكان يرمي بها حجارة ثقيلة على اسوار العدو وما وراءها ، وذكرت كتب التاريخ ان الرشيد في حصار هيراقلية رمى على الروم حجارة مخلوطة بالكبريت والنفط ، ملفوفة بقطع من الكتان تشعل قبل ان تقذف . ومن ثم اصبحت مهمة القاء المواد المشتعلة بالنفطين ... وتطورت صناعة الآلات القاذفة مع الزمن ، فاستعمل جيش صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين آلة جديدة اسمها الزيار ترمي اعداداً من السهام الثقيلة دفعة واحدة .

أما الدبابات : فهي آلات من الحشب المغلف بالبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار . وتركب على عجلات يصعد الجند إلى أعلاها للنزول فوق الأسوار . وتستخدم أيضاً لهدم الأسوار ويجمعون بجدرانها . وهي أقدم من المنجنيق ، استعملها المصريون القدماء والآشوريون واليونان والرومان والفرس والعرب .

وكان سلاح المقاتلة الموجودين في اعلى الدبابة القسى والسهام ومهمتهم حماية المقاتلة الموجودين في اسفل الدبابة ليتمكنوا من فتح ثغرات في اسوار العدو باستخدام المعاول والمثاقب .

والضبور : (جمع ضبرة) هي كالدبابة تصنع من الحشب المغطى بالجلد لتقب الأسوار .

والكبش : كالدبابة لكن رأسه مثل الكبش متصل بعمود غليظ داخل الدبابة معلق بجبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة يدفعه الجنود وهم داخلها لتقب الأسوار .

أما البارود : فرغم ما يدعيه بعض الغربيين من أنه اخترع في أوروبا

سنة (١٣٢٠ م) إلا أن مصادر كثيرة تشير إلى أن العرب عرفوه قبل ذلك بمدة طويلة وهو إما من اختراعهم أو نقلوه عن غيرهم (لعله من الصين) من ذلك أن المستشرق الاسباني كوندي (١٢٨٠ م) يقول إن أهل مراکش استخدموا الأسلحة النارية في محاربتهم سرقسطة سنة (١١١٨ م) . ويذكر ابن خلدون أن أبا يوسف سلطان مراکش لما فتح سلجاسة (سنة ١٢٧٣ م) استعمل أسلحة نارية « .. ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارها .. »

وكان قادة المسلمين يشنون في نفوس جيوشهم الحماس بالتكبير أثناء القتال وتلاوة الآيات القرآنية ودق الطبول وقرع الصنوج . كما كانت يرافق الجنود قصابون يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية أو يشدونهم القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي ليقووا قلوبهم ويشيروا مهمهم . ويقول غوستاف لوبون أن العرب أتموا استعدادهم الحربي في بضعة سنين . وُهبّت البيزنطيون حين حاصر العرب دمشق ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية .

كما يمكن أن نعتبر أن من أسلحة العرب المعنوية تلك المعاملة الحسنة العادلة التي عاملوا بها الأمم المغلوبة ، التي كانت تتلقاهم بترحاب وحبور . ويصف المسعودي في مروج الذهب في حديثه عن حصار جند المأمون لبغداد أنواعاً من الأسلحة حين يقول : « ونصب هزيمة بن أعين على بغداد (المنجنيقات) وقد اتخذ المدافعون لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ودرقاً (ترس من الخوص) والبواري (حصير من قصب) وقد قيّرت (طليت بالقار وهو الزفت) وحشيت بالحصا والرمل .. مع أصحاب الخيول الفره (النشيطة) والجواشن (ج جوشن وهو لباس من حديد يلبس على الظهر

مؤلف من حلقات متداخلة فيها صفائح من التنك (والدروع والتجافيف
(ج تجفاف وهو ما يجلل به الفرس من سلاح وزرد بقيه الجراح)
والرماح والدرق .. » واستعملت الدويلات المستقلة آلات خاصة لهدم
الاسوار دعيت بالزحافات والقطاطيع .

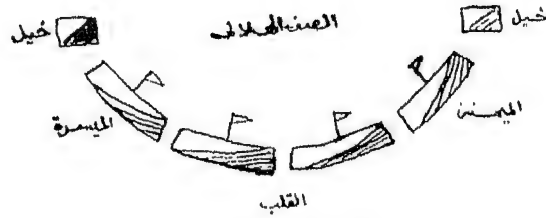
أساليب القتال : كان العرب في جاهليتهم وفي صدر الاسلام أحياناً
يتبعون طريقة الكر والفر في حروبهم . ويجعلون نساءهم وأولادهم
وأرزاقهم وراءهم وكان ذلك مما يثبت أقدامهم في الحروب .

فلما ظهر الاسلام أخذ العرب يقاتلون زحفاً أي صفوفاً عملاً بقوله
تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

ثم بعد أن اختلط العرب بالأعاجم عمدوا إلى نظام جديد وهو نظام
الكراديس . وهي كلمة يونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة . ويقسم
الجيش بموجب ذلك إلى خمسة أجزاء رئيسية كبرى ومنها تسمية الجيش
بالخميس : أي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

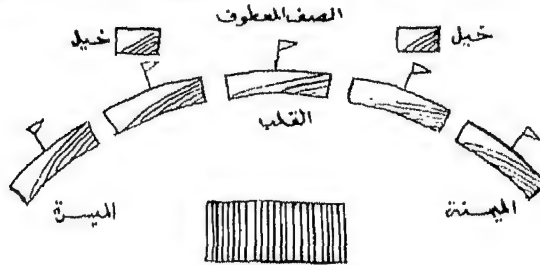
ويقول ابن خلدون إن أول من استعمل الكراديس في الإسلام
وأبطل نظام الصفوف هو مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي ولكن
يجب ألا ننسى أن خالد بن الوليد استعمل في واقعة اليرموك (٦٣ هـ) نظام
الكراديس لمحاربة الروم بمثل نظامهم . كما اتبع ذلك سعد بن أبي وقاص
في معركة القادسية (١٤ هـ) .

وبازدياد رقي الدولة العربية وبما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء
وترجمة كتبهم ودراسة نظمهم ازداد تفنن العرب في أساليب القتال وتعددت
خططهم الحربية حتى صارت سبع خطط وهي :



شكل - ١٩ -

أحد أساليب تعبئة الجيش الإسلامي (الصف الهلالي)



شكل - ٢٠ -

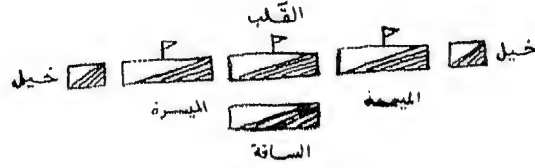
شكل من أشكال تعبئة الجيش الإسلامي (الصف الموقوف)



شكل - ٢١ -

صورة مرسومة في مخطوطة عربية بريشة « رشيد الدين » عام ١٣٠٦ م تمثل معركة حربية ، ويلاحظ من ملامح الوجوه ان جيشاً عربياً بملابسه واسلحته وهيأته يحاصر قلعة مغولية . والنص الأصلي ، التي كانت الصورة ايضاحاً له ، يذكر ان عشرة آلاف فارس اجتمعوا تحت راية الأمير نصر بن ناصر الدين وغيره وزعيم العرب وحاصروا المردة في قلعة أرك . سنة ٣٩٣ هـ

الصف المستوي



شكل - ٢٢ -

الصف المستوي ، وهو نظام التعبئة التقليدية في معارك العرب

- ١ - ان ترتب الجيوش بشكل هلال . وهو نوعان مرسل أو حاد بسيط مثل هلال السماء .
- ٢ - الهلال المركب أي يكون إلى جانب الهلال شبه هلالين كأنها جناحان .
- ٣ - المربع أو المستطيل (لقد اعتمد نابليون في ترتيب جيشه على شكل المربع وقد دوخ به المماليك وهو عمدة الجنود المنظمة اليوم) .
- ٤ - الهلال المقلوب .
- ٥ - المعين أو المربع المنحرف .
- ٦ - المثلث .
- ٧ - الدائرة المزدوجة وهي دائرتان أحدهما داخل الأخرى .

وتفوق الجيوش العربية لم يكن يرجع إلى تنظيم جيشهم فحسب، بل كان لسرعة الحركة ضلع كبير ، إذ بينما كان الروم ينقلون أمتعتهم وعتادهم على عربات تجرها البغال والحمير والخيول كان العرب على الأغلب يستخدمون الجمال في حمل الأثقال وهي أخف حركة وأكثر سرعة من العربات . حتى قال أحد المؤرخين : « لم يحتل العرب الشام بهذه السرعة المدهشة إلا بفضل الجمال . »

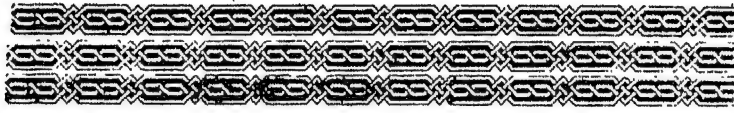
رواتب الجند : لم يكن للجند رواتب زمن النبي وإبي بكر إذ كانوا يأخذون حصتهم من الغنائم والفيء . ولما أنشأ عمر ديوان الجند نظم أعطيات

المسلمين حسب نسبهم الى النبي وسابقتهم في الاسلام او غير ذلك . وكانت رواتب الجنود بموجب ذلك تقدر بين (٣٠٠ - ٥٠٠) درهم في العام ؛ وهذا التفاوت بسبب بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . ورواتب ضباط الجند من (٤٠٠٠ - ٥٠٠٠) درهم هذا غير ما كان يدفع للنساء وأولاد الجنود والضباط وما كان يفرض لهم من الخنطة .

ولما آل الحكم الى بني أمية زاد معاوية أعطيات الجند لاعتبارات سياسية وخصص للجندي الف درهم في السنة أي أكثر من ضعف ما فرضه عمر . كما خصص لليمنية عطاء مضاعفاً وجعلهم فرقة مستقلة . وبقي الامر كذلك مع شيء طفيف من الاختلاف حتى أواخر الدولة الاموية اذ قلت الرواتب ونقصت الى (٥٠٠) درهم ، وكان تأخر عطاء الجنود في عهد مروان بن محمد من الاسباب التي دفعت الجنود الى عدم القتال باخلاص وحماس

وفي العصر العباسي جعل السفاح راتب الجندي (٩٦٠) درهماً في السنة وكان للفارس ضعف هذا المبلغ . ثم قلت الرواتب في عهد المأمون وأصبحت (٢٥٠) درهماً ، وسبب ذلك أن الاعاجم كانوا يرضون بالراتب القليل لأنهم لا يحسنون مهنة غير الجندية . وقد أوجد نظام الاقطاع إلا أنه ازداد في أيام السلاجقة بصورة واسعة فكان يعطى للامير مدينة او ولاية يحكمها حكماً مطلقاً ويمارس فيها سلطة الرئيس الاقطاعي . وكان عليه مقابل ذلك أن يدفع الى السلطان جزية سنوية في أوقات السلم . أما في أوقات الحرب فكان عليه ان يلتحق مع عدد من جنوده في جيش السلطان كما عليه أن يجهز جنوده بالمؤونة والعتاد .

وفي أواخر الدولة العباسية كانت الرواتب تتأخر وتتراكم وكان يفوز بالخلافة من يتمكن من أرضاء الجند .



الفصل الثالث عشر

النظام البحري - الاسطول

العرب والملاحة : تحيط البحار بشبه جزيرة العرب من ثلاثة أطرافها ، وهي تقع في مركز القلب من العالم القديم ، لذا كانت ولا تزال صلة الوصل بين مختلف أجزائه ، واشتهر سكان السواحل بالملاحة منذ أقدم الأزمنة ، فقد احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى عدة قرون كما سيطر الفينيقيون على التجارة في المتوسط والاطلسي ، وكان على شواطئ الجزيرة الجنوبية مرافئ ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادي الفرات أو وادي النيل ، وكان في اليمن مرفأ اسمه (موزا) ينون فيه السفن الكبرى لقطع المحيط الهندي . ولهذا السبب عمرت جزيرة سوقطرة يومئذ لتوسطها في طريق تلك التجارة كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب . أما عرب الحجاز وسكان المناطق الداخلية من الجزيرة فانهم كانوا يخافون البحر ويهابون ركوبه ، نستدل على ذلك من أخبارهم ومن اهتمامهم بكل ما يتعلق بشؤون البادية والبعير والحيل حتى لنجد في لغتهم أسماء كثيرة ومصطلحات عديدة للشيء الواحد منها ، بينما هي نسبياً فقيرة في أسماء أجزاء السفن وما يتعلق بالبحر ، ففي كتاب « المختص » لابن سيده « ١٧٦ » صفحة عن الابل و « ٧ » صفحات عن السفينة .

نشأة الاسطول وتطور الملاحة في العصور الاسلامية : سمى العرب مجموع السفن اسطولاً ، وهو لفظ يوناني « Stolos » عربوه ، كما كانوا

يطلقونه على المركب الحربي الواحد . ويقال اسطولي للعسكري الذي يعمل في البحر .

ولقد وردت آيات قرآنية تشير إلى فوائد ركوب البحر ومنافعه منها : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولكن العرب المسلمين لم يهتموا بركوب البحر إلا بعد أن احتلوا الشام ومصر ، إذ كانت سواحل هذه البلاد عرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة ، فكان عليهم أن يتحملا وطأة العدوان دون مقابله بالمثل .

لذلك رأى معاوية والي الشام ضرورة انشاء اسطول فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في ذلك فأبى ، فألح عليه ، ورغبه في الكسب . فكتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص والي مصر يطلب إليه فيه أن يصف له البحر وراكبه فأجابه : « يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد احزن القلوب ، وإن ثار أراغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، إن مال غرق وان نجى برق » فلما قرأه كتب إلى معاوية : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

وكانت العلاء بن الحضرمي عامل الخليفة عمر على البحرين يرغب في فتح سواحل فارس وأن تكون له من الشهرة ما لسعد بن أبي وقاص في بلاد فارس ، فجهز اسطولاً واستعان بسكان البحرين ونزل سواحل فارس (سنة ١٧ هـ) دون أن يستأذن الخليفة إلا أنه لم يفلح في غزوته ، ولما علم عمر بأمره قاصصه بأن جعله تحت إمرة سعد ، وبذلك يكون العلاء أول من غزا في البحر في الاسلام .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان أعاد معاوية الكرة واستأذنه في غزو قبرص وهون الامر عليه فأبى ، ثم في سنة (٢٧ هـ) كتب إليه مرة ثانية ملحاً ومبيناً له فائدة ذلك . فأجابه عثمان إلى طلبه على أن يجعل ركوبه اختيارياً « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا . ولا تنتخب الناس ولا تقرر بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » .

وفي سنة (٢٨ هـ) أقلع من عكا اسطول كما رافقه من مصر اسطول آخر . وانتصر معاوية وصاحبه أهل قبرص على جزية قدرها (٧٠٠٠) دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم العرب عن ذلك . مما شجعهم على ركوب البحر وتقوية الاسطول حتى كانت لمعاوية في السنة غزوات : في الصيف والشتاء عرفت باسم الشواني والصوائف البحرية . وفي عهد عثمان نفسه هاجم قسطنطين بن هرقل بألف سفينة سواحل مصر يريد استردادها من أيدي العرب ، فوقفت مائتا سفينة للمسلمين أمامه وتغلبت عليه في موقعة ذات الصواري ، فرفعت هذه المعركة البحرية من معنويات البحارة المسلمين وشجعت العرب منهم على ركوب البحر .

وسار الأمويون على سنة معاوية من حيث الاهتمام ببناء الاساطيل وتجهيزها والقيام بالغزو والفتوحات حتى نافسوا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وملكوا معظم جزره وهددوا القسطنطينية نفسها مرات عديدة وحاصروها . وقد ازداد العرب قوة في البر والبحر في العصر العباسي . وبنوا السفن وغزوا جزر البحر المتوسط حتى صاروا أسياده وهاب الافرنج جانبهم كما غزوا بعض سواحل الهند سنة (١٥٩ هـ) ولم تكن غزواتهم وحروبهم البحرية لتقطع أبداً . ولم تكن الاقطار العربية الاخرى أقل اهتماماً وقوة من الدولة العباسية كما في مصر والمغرب والاندلس .

فقد اهتم الطولونيون بانشاء المراكب النيلية التي تسير في النيل وتحمل حاصلات البلاد بين الوجيين البحري والقبلي، واهتموا بانشاء المراكب الحربية وكانت تصنع في جزيرة الروضة والفسطاط . كما بذل الفاطميون عنايتهم نحو الاسطول لما رأوا تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التابعة لهم . وكانت تبنى سفنهم في القاهرة والاسكندرية ودمياط . وبلغ عدد السفن التي بناها المعز لدين الله الفاطمي في مدينة المقس (٦٠٠) مركب لم يعرف مثلها كبراً ووثاقة وحسناً كما قال أحد المؤرخين . ثم ضعف شأن الاسطول من بعده . ولما انتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي اهتم بأمر الاسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدّهم عن الموانئ العربية . وقد نسج على منواله سلطان المماليك الظاهر بيبرس .

وكان للأغلبة في افريقية غزوات كثيرة إلى سردينية وصقلية وقد فتحوا الأخيرة واستولوا عليها سنة (٢١٢ هـ) وبقيت في حوزة الفاطميين بعد الاغلبة مدة قرن ونصف القرن . كما اشتهر المرابطون والموحدون في المغرب الاقصى بالاعمال البحرية فكانت سفنهم تصل حتى جزر الخالدات (قناريا) واستولوا على جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا ومدينة جنوة . أما في الاندلس فقد بدأ الاهتمام بأمر البحرية منذ أيام عبد الرحمن الثالث (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) وزاد عدد اسطوله عن مائتي سفينة تمكن بواسطته من الاستيلاء على كثير من ثغور وسواحل الفرنج .

ضعفت سلطة العرب البحرية بعد ذلك وازداد الفرنج قوة وقاموا بفتوحاتهم واكتشافاتهم العظيمة ولم يسترد المسلمون والعرب شيئاً من نفوذهم في الأعمال البحرية إلا في عهد العثمانيين ومحمد علي باشا .

دور الصناعة : يراد بكلمة دار الصناعة تلك المعامل التي تقام على ساحل بحر أو شاطئ نهر لبناء السفن واعتماد معاوية حين بدأ بانشاء الأسطول

الإسلامي على الروم وسكان بلاد الشام الساحلية الذين حذقوا في صناعة السفن ومهروا فيها . وكانت أهم دور الصناعة في بلاد الشام : عكا وصور وطرابلس ، كما اشتهرت منذ منتصف القرن الثامن للهجرة : بيروت وحيفا . وتذكر بعض المصادر التاريخية أن أول دار صناعة بنيت في الإسلام كانت في خلافة عبد الملك بن مروان ، إذ أمر عامله على أفريقية حسان بن النعمان باتخاذ دار صناعة في تونس لإنشاء الآلات البحرية . وإذا صح هذا القول فإن معاوية مؤسس الأسطول العربي لم ينشئ دوراً جديدة للصناعة بل اعتمد على القديمة منها الموجودة في بلاد الشام واكتفى فقط بتوسيعها وتحسينها .

وكانت في مصر دور قديمة للصناعة، إذ ذكر أن معاوية لما غزا أول مرة قبرص ساعده أسطول مصري . إلا أن أول صناعة انشئت في مصر كانت في جزيرة الروضة سنة (٥٤ هـ) وظلت الصناعة فيها حتى آخر عهد الطولونيين وأول حكم الأخشيديين الذين نقلوها إلى الفسطاط . وقد أنشأ المعز داراً للصناعة في المقس . كما اشتهرت بهذه الصناعة قبل القرن السادس للهجرة : القاهرة والاسكندرية ودمياط ، وعيذاب على ساحل البحر الأحمر . وفي المغرب : طرابلس وتونس وسوسة ووهران وسلا وطنجة والصويرة (مוגادور) والرباط . وفي الاندلس : اشتهرت بها دانية والمرية وشلطيش (غرب اشبيلية) ومالقة . وفي خليج البصرة : البصرة وهرمز وسيواف وعمان .

وقد اعتمد العرب لما أنشؤوا اسطولهم في البحر المتوسط على سكان البلاد المحتلة في صناعة السفن أو في الملاحة . ثم ظهر منهم صناع تفننوا في عمل السفن البحرية واشتهر أشخاص برعوا في الثقافة البحرية . وكانوا يصنعون السفن على أشكال وأنواع متعددة وأحجام مختلفة ، ومنها ما جعل جزؤها السابح في الماء يشبه الحوت في عومه ، كما أشار ابن خلدون إلى

ذلك بقوله « . . . » وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبجه في الماء بقوامه وكثافته ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسماك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما الاسطول ..

هذا من حيث شكلها العام ، أما طريقة بنائها فكانت تختلف حسب المناطق والبحار والعادات ، فسفن **البحر المتوسط** كانت ذات دفتين وهي لا تصنع إلا في هذا البحر وتستعمل فيها المسامير كما يقول ابن جبير . وهي أكبر من مراكب المحيط تحمل بضعة آلاف من الرجال وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في ستة وثلاثين يوماً .

وكانت سفن **البحر الأحمر** (اسمها جُلُبات جمع جلبلة) تصنع في عيذاب على الساحل المصري وتحاط الاخشاب بجبال الليف لانهم لا يستعملون فيها المسامير ويضعون خلالها دسراً من عيدان النخل ثم يطولون الاخشاب بالشحوم . ويعمل القزويني عدم استعمال المراكب ذات المسامير في هذا البحر إلى خوف الملاحين من جذب جبال المغناطيس للمراكب وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها . وقيعان سفن هذا البحر عراض دون تعميق حتى لا تصطدم بصخوره الكبيرة . ولتفادي خطر تحطمها لا يسافر فيها إلا نهاراً ، كما أن الربان يبقى دائماً في مقدم المركب ينتبه إلى الاحجار . أما سفن **المحيط الهندي** و**الخليج العربي** فان ماركو بولو يصفها بانها من أسوأ صنف ، وذلك لأنه لا يستعمل المسامير في بنائها وإنما تثقب الألواح بعناية قرب أطرافها ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها ببعض بنوع من الليف ولا يطل بعد ذلك بالقار بل بزيت يتخذ من دهن الحوت . وهذه السفن ذات طبقة واحدة وشرع واحد في معظم الاحيان .

السفن الحربية واشهر انواعها : إن المراكب التي استعملها العرب في حروبهم كثيرة تتفاوت حجماً وشكلاً وقوة ، منها ما هو من أصل عربي ومنها ما هو أعجمي .

١ - **السفينة :** وهو اسم عام للمراكب وردت في الشعر الجاهلي والقرآن قال تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين . »

٢ - **الشونة :** جمعها شواني (وذكر باسم شني وشينية) وهي أكبر أنواع السفن وأكثرها استعمالاً . تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم . وكانت أهم القطع في الاسطول العربي ، متوسط حمولتها (١٥٠) رجلاً وتجذب باكثر من مائة مجذاف . وصفها ابي حمديس في قصيدة خاطب بها احد امراء بني زيري بالمغرب الادنى فقال :

انشأت شواني طائرة	وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها	في شئم شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت	لعدو محرقة بطننا
وبنفط ابيض تحسبه	ماء ، وبه تذكي السكنا

٣ - **البارجة :** سفينة حربية كبيرة هندية الاصل (بيرة) .

٤ - **القرقور :** جمعها قراقير وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للاسطول . أصل اسمها بالاسبانية (كاراكا) .

٥ - **الصندل :** وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح والمؤن وهي لاتينية الاصل يسميها العرب أيضاً الشلندي (جمعها شلنديات) . وكانت تسمى في الاندلس باسم الاجفان الغزوية او الغزوانية .

المسطح : جمعها مسطحات وهي من سفن الاسطول العربي الكبيرة

الحجم ، وتحمل الاسلحة للاسطول ، وسميت بالاندلس باسم الحملة .

٧ - الطراد : أو الطريدة (جمعها طرائد) سفينة صغيرة سريعة السير والجري تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لاربعين فارساً . وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يسهل على الخيل الصعود اليها والنزول منها .

٨ - الحراقة : (جمعها حرايق) فيها منجنقات تلقى منها النيران على العدو . وكان للخليفة الامين خمس حراقات في نهر دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس . وعرفت ايضاً في الاندلس وعند الاغالبية والفاطميين . وصفها الشاعر الاندلسي ابو عبد الله بن الحداد بقوله :

ذات هدب من المجاديف حاك هدب بالكِ لدমেه إسعاد

حمم فوقها من البيض نار كل من ارسلت عليه رماد

٩ - المشاري : جمعها عشاريات (أعجمية) أكثر ماكانت تعرف هذه المراكب في النيل وسميت في العصر المملوكي الحراقات وسمي بعضها باسم اللطاف ، وبعضها باسم السماويات ، لأنها مكشوفة للسماء . واطلق عليها اسماء ألوانها فعرفت بالذهبي والفضي والاحمر والاصفر واللازوردي وأكثرها كان خصوصاً .. يمكن الاغنياء والحكام للنزهة في النيل .

١٠ - السميريات : جمع سميرية من سفن البحر والنهر وهي معدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين : فيها أربعون مجذافاً كما يذكر الطبري .

١١ - الغراب : جمعها أغربة مقدمتها على شكل رأس الغراب .

١٢ - الحربية (جمعها حرابي وحريات) : نوع من الشواني ، لكنها

اصغر حجماً ، وتمتاز بسرعتها وخفة حركتها . واستخدمت في الاندلس
والغرب ومصر الفاطمية . وصفها ابن حمدى بقوله :

يخوضون بحراً كل حين اليهم ببحر يكون الموج فيه فوارساً
وحربية ترمي بمحرق نفط فيغش سعوط الموت فيها المعاطس

وأما حربية ترمي بنفط لاختاد النفوس له استعار
كان المهمل في الانبوب منه الى شيء الوجوه له ابتدار
كان منافس البركان فيها لأهوال الجحيم بها اعتبار
فحاش ينبري منه شواظ لأرواح العلوج به بوار

١٣ - البطسة (جمعها بطس) : مراكب كبيرة الحجم مكونة من
عدة طوابق ، ومزودة بعدد كبير من القلوع يصل أحياناً الى أربعين قلوعاً
تستخدم لنقل الميرة والأسلحة والمقاتلة وقد تصل سعتها الى ٧٠٠ راكب
عدا الحمولة .

١٤ - الفيطنى : مركب عرف في مصر الفاطمية ، لحمل الركاب
والبضائع ومثله العجزي .

١٥ - الجلبة (جمعها جلاب وجلبات) : وقد سبق ان ذكرنا انها من سفن
البحر الاحمر ، ويذكر ابن جبير انه لم يكن يستعمل فيها مسبار البتة ،
انما هي مخططة بأمراس من القنبار (قشر جوز النارجيل) مسقي بالسمن
او بدهن الخروع او بدهن سمك القرش وهو احسنها .

الأسلحة الاسطول : إن أشهر معدات السفن الحربية عند العرب هي
الأسلحة البرية ويضاف إليها :

١ - **الكلايب** : تلقى على مركب العدو عند الاقتراب منه فيوقفونه ثم يشدونه إليهم ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاؤون . ويمكن ابطال فعل الكلايب بفأس ثقيلة من فولاذ تضرب بها تلك الكلايب فتقطع .

٢ - **الباسليقات** : هي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد ، تكسر كل ما تقع عليه لشدة دفعها .

٣ - **التوايت** : هي صناديق مفتوحة من أعلاها توضع في أعلى السواري يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في محلاة معلقة بجانب الصندوق . فيرمون العدو بالحجارة وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط أو جرار النورة (وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ) يرمون بها مراكب الاعداء فتعمي الرجال بخبارها ، وقد تلتهم عليهم إذا تبددت . أو يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فإنه يزلق أقدامهم .

٤ - **اللجام** : أداة كالفأس طويلة محددة الرأس جداً وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها السطام فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فيجتالون لطعن المراكب فيغرقها وتنصب المياه فيها .

٥ - **النار اليونانية** : هي مزيج من كهريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعل أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو

قطع من الكتان الملوث بالنفط وهذه النار تشتعل في الماء والهواء . وهي في الأصل من اختراع السوريين ، تعلمه البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه كالينكوس في القرن السابع للميلاد أثناء محاولات العرب المسلمين فتح القسطنطينية ثم استخدمه المسلمون وأساطيلهم .

واستعمل المسلمون (النفط البحري) ويحرق من القطران والكبريت ومواد أخرى ملتهبة ، تزداد اشتعالاً عند ملاستها الماء بدل أن تنطفئ . ويقذف بآلة تسمى النفاطة ، كما كانوا يلقيونها أحياناً بالسهم والنشاب والمنجنيق . قال في وصفها ابن حمديس :

وما للماء بالاطفاء حكم عليه لدى الوقود ولا اقتدار

٦ - وسائل الدفاع : ومن وسائل الدفاع عندهم أنهم كانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنظرون لدفع أذى النفط .

وكانوا في الليل لا يشعلون ناراً ولا يتركون فيها ديكاً . أما في النهار فكانوا يسدلون قواعاً زرقاء كيلا تظهر عن بعد

امرة الاسطول : كان لكل سفينة قائد ورئيس . فالقائد يدير أمر سلاحه وحربه وجنوده ، والرئيس يشرف على الملاحين ويدير أمر جري السفينة بالريش أو بالمجاديف . وكان يدعى الربان في البحر الأحمر والمعالم في المحيط الهندي . وفي السفينة أيضاً المنادي ومهمته تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين بصوته .

وكان يعين على جميع قطع الاسطول أمير يدعى أمير البحر أو أمير الماء . وكان يعلق فانوس على مركب أمير البحر فتهتدي به بقية السفن وتقلع باقلاعه وترسو بارسائه .

اشهر المعارك العربية : كانت الحروب والغزوات البحرية بين العرب والافرنج لا تنقطع أبداً في أدوار القوة والضعف لكلا الطرفين . وذكرنا سابقاً كيف أنها بدأت منذ عهد معاوية الذي نظم الشواتي والصوائف برأ وبحراً لغزو بلاد الروم . إلا أنه كان لبعض المعارك التي حصلت بين الطرفين من الأهمية الكبرى والنتائج الخطيرة ما يدفعنا إلى ذكرها :^(١)

١- **فتح قبرص :** سنة (٢٨٥ / ٦٤٩ م) من قبل معاوية . لهذه الغزوة أهميتها لأنها أول محاولة انتصر فيها العرب . وازدادوا بعدها رغبة في ركوب البحر واندفاعاً لتقوية أسطولهم .

٢ - **فتح أرواد وصقلية ورودرس وجزر بحر ايجه وكريت :** وقد تم ذلك كله بفضل أسطول الشام الذي نظمه معاوية .

٣ - **معركة ذات الصواري :** في سنة (٣٤٥ هـ) جهز قسطنطين ابن هرقل أسطولاً يعد خمسمائة مركب وقيل ستمائة . وقصد مصر . فخرج إليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر بأسطوله المؤلف من (٢٠٠) سفينة كما اقبل معاوية بنفسه بأسطوله لمساعدته . وتلاقيا مع قسطنطين واشتبكا في معركة هائلة دون خوف أو وجل رغم قلة عددهم . وكانت السفن تقاتل بصورة افرادية ، إلا ان العرب أدركوا بعد ذلك أن هذه الحطة قد تؤدي إلى تحطيم أسطولهم برمتيه فأجمعوا أمرهم على التكتل وتطويق أسطول الاعداء ، ثم انقضوا عليهم بالسيف والنار حتى انتصروا عليهم انتصاراً باهراً وحطموا أسطولهم شر تحطيم وانهمزم قسطنطين جريحاً .

(١) راجع : انور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ ص ٢٠٧ وما بعدها بحث : أعمال الجند العربي البحرية في عهد بني أمية . ففيه وصف لهذه المعارك البحرية .

وسميت هذه المعركة بذات السواري لكثرة المراكب التي اشتركت فيها .
ومن نتائج هذه الموقعة الكبرى ان ازدادت قوة العرب المعنوية وادركوا
ان العبرة ليست بالعدد انما بالتكتل والاستبسال وتنظيم الخطط .

٤ - **حصار القسطنطينة** : برأ وبحراً عدة مرات بما يدل على تفوق
الاسطول الاسلامي بقدرته على اجتياز البحار الرومية دون خشية من
أساطيل الروم .

٥- **غزو الاندلس** : غزا طارق بن زياد الأندلس سنة (٥٩٢ هـ) في
أربع سفن ، ورغم أن الفتح كان برأ أكثر منه بحراً ، الا ان إنزال القوى العربية
بعد اجتيازها المضيق ووصولها سالمة الى البر الاوروبي كان له أعمق الأثر
في تأمين الفتح ومتابعة ارسال الامدادات .

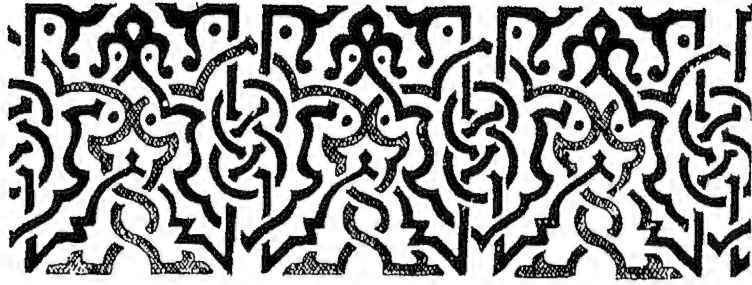
٦ - **غزو جزر البحر المتوسط والاستيلاء عليها** : غزا العرب معظم
جزر البحر المتوسط واستولوا عليها في فترات متقطعة واشتبكوا للحصول
عليها في مواقع عديدة تذكرها المصادر التاريخية انما بدون تفصيل . وكانت
أعظمها تلك التي حصلت في سبيل الاستيلاء على جزيرة صقلية التي لم يستطع
العرب احتلالها إلا بعد غزوات عديدة ومعارك شديدة سنة (٥٢١٢ هـ)
وأهم الجزر التي استولى عليها العرب هي : ميورقة ومنورقة وسردينية
وصقلية ومالطة واقريطش وقبرص وكورسيكا . وترددوا على الجزر الخالدات
(قناريا) كما استولوا على مدينة جنوة وغزوا سواحل فرنسا وإيطاليا .
وقد تم معظم ذلك بواسطة اسطولي الشام ومصر واسطول الاغالبة الذي
يعد من أعظم الأساطيل العربية .

٧ - **غزو الساحل الهندي** : في سنة (١٥٩ هـ) وجه المهدي حملة
في البحر إلى بلاد الهند تعد (٩٢٠٠) رجلاً منهم (٧٠٠) من أهل الشام

مع قائدهم ، مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند فتغلبوا على حاميتها وأسطولها واشعلوا فيها النيران والنفط .

تراث العرب في الملاحة : اعتمد العرب المسلمون على سكان البلاد التي فتحوها وعلى البيزنطيين في تعلم أصول الملاحة . ولكنهم ما لبثوا أن انتقلوا إلى حيز الابتكار والاختراع وأصبحوا أساتذة أوربا في الملاحة ، يدلنا على ذلك كثرة المصطلحات العربية البحرية التي اقتبسها الأوروبيون ، الأمر الذي دفع المؤرخ فون كريمر إلى القول : « وبما يوضح أن الأسطول العربي كان نموذجاً لأساطيل الأقطار الأوروبية أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوب أوروبا . نذكر من بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ حبل العربي . وكلمة Arsenal أو Darsenal المأخوذة عن لفظ دار الصناعة . وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ غراب العربية و Admiral المأخوذة عن أمير البحر .

وأهم شيء أخذه الأوروبيون عن العرب (الحُك) أي الابرة المغناطيسية . وهي ذات فائدة كبرى في الملاحة . وإذا اختلفت الروايات وتضاربت الآراء عن أوجد أو اكتشف المادة المغناطيسية . فكانت كل من إيطاليا وفرنسا وإنكلترا واسكندنافيا تدعي أنها نفسها صاحبة الفضل الأول بايجادها . فان بما لاشك فيه أنها من مكتشفات الصين وأخذها عنهم العرب . ويذكر أحمد بن ماجد (القرن ١٥ الميلادي) في كتابه « الفوائد في أصول البحر والقواعد » ... ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحُك بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب .. ، وابن ماجد هو الذي قاد الملاح البرتغالي (فاسكو دوغاما) في بحار الهند وأطلعها على كثير من الآلات البحرية العربية التي كان يستعملها كالاسطولا ب والمغناطيس وغيرها .



الفصل الرابع عشر

مالية الدولة

بيت المال : إن المال هو العصب الحساس في كل دولة قائمة ، ولا يمكن لدولة أن تقوم وليس لها مال تصرفه على شؤونها ولا موارد تجمع منها حاجاتها المالية ، وقد حدد الاسلام بعض موارد الدولة المالية ، وكانت تجمع في مكان يقال له بيت المال وهو أشبه بخزينة الدولة العامة أو بوزارة المالية في العصر الحاضر ، وأول من أنشأ بيت المال هو الخليفة عمر ، إذ كان الرسول عليه السلام وأبو بكر من بعده ، يوزعان الموارد في حينها ، فلما تدفقت الاموال أيام عمر وكثر المستحقون منها ، وزاد عدد المجاهدين ، وتنوعت الموارد العينية ، أمر عمر ، عملاً باقتراح الوليد بن هشام باتخاذ بيت للمال . رغم معارضة الامام علي ، وعين عبد الله بن الارقم أميناً له ، كما عين عبد الرحمن بن عبيد القاري ومعيقيب مساعدين له ... وجعل لكل ولاية أميناً لبيت المال ، له اختصاص مستقل عن عمل الوالي والقاضي ، ورتب لكل بيت حرساً لحراسته ... ويروى أن مشادة وقعت في عهد عثمان بين سعد بن أبي وقاص والي الكوفة وقد عرف بأسرافه ، وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال ، ورفع الامر إلى الخليفة الذي أيد أمين بيت المال ضد الوالي .

وكان بيت المال يعتبر في عصر الراشدين ملكاً للمسلمين عامة ، لكل منهم نصيب فيه ، وينال كل محارب أو موظف مقداراً معيناً في كل شهر . ولكن الامويين اعتبروه ملكاً لهم يتصرفون به كيف يشاؤون ، فنرى معاوية يهب بخراج مصر إلى عمرو بن العاص طيلة حياته ، أو يفرق الاموال بلا حساب لاكتساب الأنصار ، وتبعه الأمويون والعباسيون الذين صاروا ينفقون ، اموال بيت المال حسب أهوائهم ، ثم حددت رواتب الخلفاء وسائر الموظفين فيما بعد ، وأصبح الخليفة أو الوالي لا يستطيع أن يتصرف بأكثر مما حدد له ، وتصرف بقية الأموال على شؤون الولاية أو مركز الخلافة .

ومنذ العهد الأموي طرأ تغيير واضح على النظام المالي في الامبراطورية الاسلامية ، ففصل معاوية « الصوافي » عن بيت المال وجعلها للخليفة ، واصل الصوافي في فارس : « كل أرض لكسرى أو لأهله ، وكل من فرق عن أرضه ، وقتل في المعركة ، وكل مغيض ماء أو أجمة ... » وهي تختلف عن الفياء . وعمم معاوية الصوافي على جميع أنحاء الامبراطورية ، فآمن لنفسه ولاسرتة وخزانة الخليفة مورداً ضخماً من المال . فقد ذكر أبو يوسف في كتاب « الخراج » ان صوافي العراق وحدها بلغت سبعة ملايين درهم سنوياً .

وزاد الامويون في الضرائب نوعاً وكماً .

موارد بيت المال : إن موارد بيت المال الأساسية في صدر الاسلام وعصر الفتوح هي :

الخراج . العشر . الزكاة . الجزية . الغنيمة . الفياء . وموارد ثانوية أخرى .

١ - الخراج : هو أقدم انواع الضرائب ، عرف منذ أيام الفراعنة وربما قبل ذلك وسبب وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان ، والأهالي يتمتعون بريعتها على أن يدفعوا للحكومة حصة من ذلك الربيع وهو الخراج . وكان للرومان ضريبة الارض TRIBUTUM Soil والفرس ضريبة مشابهة تسمى الخراج ، كما كان لهاتين الدولتين ضرائب معينة على أراضي مملكتهم التي حررها المسلمون مثل مصر والشام والعراق وفارس وغيرها . وترك المسلمون دواوين الخراج من حيث ادارتها على ما كانت عليه زمن الروم والفرس .

والخراج عند المسلمين هو مقدار من المال أو الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة . ويؤخذ الخراج :
أ - عن الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين بعد أن عوضهم عن نصيبهم فيها .

وقد استن عمر بن الخطاب هذه السنة ، وبقيت عليها الدولة الاسلامية حتى عهدها الأخيرة ، وهي الملكية العامة للأرض المفتوحة ، فقد أعلن بعد جدل ونقاش مع الصحابة أن الأرض المفتوحة هي ملك لجميع المسلمين وليست ملكاً للمقاتلين منهم فقط ، ولذا ابقى عليها أهلها مقابل « خراج » يدفعونه للدولة . فالأرض إذن وهي وسيلة الانتاج الاساسية آنذاك غدت « ملكاً للأمة » .

ب - عن الاراضي التي إفاء الله بها المسلمين أي استحوذوا عليها دون قتال .

ج - عن الاراضي الموات التي أحيهاها المسلمون وكانت في أرض خراج ولم يحتقر لها بئر أو يستنبط لها قناة .

د - عن اراضي شبه الجزيرة لان العرب من عبدة الاوثان فيها ، حكمهم القتل أو الاسلام ، ولاتقبل منهم الجزية (كتاب الخراج لأبي يوسف) .
ويستوفى الخراج على نوعين : اما مبلغاً مقدراً من المال ، او حصة معينة مما تنتجها الارض . وبعض الأراضي يؤخذ منها مال في وقت ويؤخذ منها غلة في وقت آخر . أما مقداره فكان غير ثابت يرتفع حيناً ويقل حيناً آخر بحسب الاسعار والازمنة وحاجة الدولة . فرض النبي ﷺ على يهود خيبر نصف محصولهم ، فكان يبعث اليهم عبد الله بن رواحة فيقسم المحصول ويخيرهم أي النصفين شاؤوا . وكذلك فعل الهادي في منطقة السواد ، فكان يأخذ منها ستة أعشار منتوجها (وهذا اقصى مبلغ فرض) ثم جعلها الرشيد النصف فقط وخفضها المأمون إلى أربعة أعشار .

وكان الخراج يحصى بعد المحصول ، وكانت السنة المالية للخراج هي السنة الشمسية وليست السنة القمرية ، ، لارتباط الزراعة بالنظام الشمسي والفصول . واعتبر بدء هذه السنة في العراق وما وراءه من أراضين كفارس وغيرها ، هو أول يوم من السنة عند الساسانيين وهو يوم نيروز ، لكن هذا لا ينطبق مع السنة الشمسية ، فأجريت عايه عدة تعديلات كان أتمها ماجرى في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣١٠ هـ) .

وكان الخراج يقوم على أساس مساحة القرية كلها ، أو على أساس المساحة المزروعة ، أو على أساس تقويم الانتاج . وقد عرف نظام تقويم الخراج على أساس مبلغ اجمالي للقرية أو الولاية باسم « التكملة » ، وقد أبطلها المقتدر لما في ذلك من اجحاف بحق الفلاحين في السنين العجاف حين يجبرون على تأدية نفس المبالغ التي دفعوها في السنين الحسبة ، على اختلاف القحط والخصب في المنطقة نفسها .

ويظهر أن جمع هذه الضريبة استمرت حتى العصر العباسي الأول في أيدي الملتزمين ، الذين كانوا يعتمدون إلى جمع ما دفعوه والأرباح بشتى الطرق . فلما كان عصر الرشيد ووضع قاضيه أبو يوسف كتاب الخراج ، حرم أبو يوسف تحريماً تاماً عملية بيع وشراء الضريبة المفروضة على الأرض ، وإباح أبو يوسف هذا النظام بشروط أوردها في كتابه منها إذا اقترح أهل القرية ، قيام نفر من أهل الثقة من بينهم بجمع الضرائب ودفعها للدولة باسمهم . . وعرف نظام الالتزام بالتقييل ، واسم الملتزم « المقبل » ثم استعملت كلمة الملتزم في العصور المتأخرة .

٢ - العشر : وهو ضريبة على الأراضي مقدارها عشر غلتها مالا أو عيناً . والأراضي التي تدفع العشر هي :

- أ - الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب .
 - ب - الأرض التي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم .
 - ج - الأرض الموات التي أحيها المسلمون وكانت في أرض عشر أو استنبط لها قناة أو احتفر لها بئر .
- ويقول القاضي أبو يوسف أن الأراضي التي يقطعها الخليفة لأحد ، فإن كانت في أرض خراج دفعت خراجاً ، وإن كانت في أرض عشر دفعت عشراً . ولا يمكن للخليفة تحويل الخراج إلى عشر أو أن يفرض عليها عشراً ونصفاً أو عشرين أو أكثر .

٣ - الزكاة : الزكاة ضريبة فرضها الله على المسلمين وهي أحد أركان الإسلام التعبدية الخمسة ، فإذا امتنع المسلم عن أدائها فقد هدم ركناً أساسياً من أركان الإسلام ، وقد ذكر الفقهاء أن من منع الزكاة معتقداً وجوبها أخذت منه قهراً .

ومن انكر وجوبها هو مرتد تجرى عليه احكام المرتدين . وقد اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة كما فعل ابو بكر يوم قال : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . وكانت الدولة تتولى جمعها وانفاقها ، فأخرجها عثمان بن عفان من اطار بيت المال ليتصرف بها المسلم حراً وفريضة عليه ، شأنها في ذلك شأن الصلاة والحج .

وذكر الفقهاء اقوالاً شتى في اصل الكلمة فهي اما :

آ - من زكا الشيء اذا نما وزاد . يقال زكا الزرع إذا كثر وزاد .
ورجل زكي اي زائد الخير . والزكاة التي تؤخذ عن المال لا تنقصه انما تنميه بالبركة او بالاجر الذي يشاب به صاحبه .

ب - او من الثناء الجميل ويقال زكي القاضي الشاهد . فكأن من يعطي الزكاة يحصل على الثناء الجميل .

ج - او من التطهير فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيها للمساكين ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء . قال الله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » . ومصادر الزكاة خمسة :

أ - زكاة السوائم أو المواشي : أي الإبل والغنم والبقر . ولا زكاة في الخيل والبغال والحمير الا إذا كانت للنجارة ففيها زكاة التجارة . ولا تؤخذ الزكاة عن المواشي إلا اذا حال عليها الحول ، كما لا تؤخذ إذا علفها صاحبها . وتختلف نسبتها باختلاف نوع الماشية وعددها فالإبل بين (٥ - ٢٥) يؤخذ شاة عن كل خمسة منها . وبين (٢٦ - ٧٥) يؤخذ ناقة واحدة تختلف سننها باختلاف عدد الإبل ، اي تكون سننها اكبر كلما زاد

العدد . **أما الغنم** (ضأناً ومعزاً) فيؤخذ منها شاة اذا كان عددها بين (٤٠ - ١٢٠) ثم يكون في كل مئة شاة واحدة . **أما البقر** فلا يؤخذ منها الا اذا بلغ عددها (٣٠) فيؤخذ منها تبيع او تبعة (الذي يتبع أمه وهو ما أوفى سنة) ، واذا كانت (٤٠) يؤخذ مسنّ (ما أوفى سنتين) ثم اذا كانت (٦٠) فضعف ما يؤخذ عن الثلاثين .

ب - زكاة النقد (الذهب والفضة) : لا يدفع زكاة عنها الا اذا حال عليها حول وبلغا النصاب أي ٢٠٠ درهم للفضة و ٢٠ مثقالاً للذهب (اي ما يقرب من ١٣ ليرة عثمانية ذهب) ويكون مقدار الزكاة واحداً من أربعين ، اي ٢،٥ بالمائة .

ح - زكاة التجارة : يؤخذ عنها ٢،٥ بالمائة بشرط ان تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة وان يحول عليها الحول .

د - زكاة المعادن والركاز : (اي المعادن الغفل والكنز) فاذا وجد في ارض الحرب ففيها الخمس (اي مثل الغنائم) واذا كانا في ارض السلم ففيها الزكاة اي ٢،٥ بالمائة .

هـ - زكاة الزرع والثمار : لا يدفع عنها زكاة الا اذا بلغا حداً معيناً . وحكم زكاتها العشر اذا كانت الارض تسقى بالمطر او المياه الجارية . ونصف العشر اذا كانت تسقى بالدلاء او بواسطة اخرى تكلف نفقات .

مصرف الزكاة : تصرف الزكاة حسب قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . **الفقراء** هم الذين لا شيء لهم . **والمساكين** هم الذين لهم مالا يكفيهم وهم افضل

حالا من الفقراء . ويقول القاضي ابو يوسف عن عمر بن الخطاب ان
المساكين هم فقراء اهل الذمة . **والعاملون عليها** هم القائمون بجبايتها
وتفريقها . **والمؤلفة قلوبهم** هم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف
اذاهم عن المسلمين او لتوغيهم في الاسلام . **والرقاب** اي شراء العبيد
وعتقهم . **والفارمون** هم المدينون فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم في سبيل الله ،
اي يعطى للغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم . **وابناء السبيل**
هم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

ومن هذه الآية نستدل أن الزكاة خصصت لما يسمى بلغة العصر
« الشؤون الاجتماعية » لانها تنفق على الطبقات الاجتماعية التي تستحق العطف
والمساعدة ، فالفقير هو من لا يملك نصاب الزكاة ، والمساكين هو الفقير المحتاج
المتعفف والسائل . والمساكين في رأي ابي حنيفة اشد حاجة من الفقير .
ويشمل هذا الباب المسلمين والمعوزين من اهل الكتاب ، ويستدل الفقهاء على
ذلك من عمل عمر بن الخطاب حين رأى ذمياً مكفوفاً مطروحاً على باب
المدينة فأجرى عليه رزقاً مستمراً وقال لحازن بيت المال : ابحث عن هذا
من الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: « انما الصدقات للفقراء والمساكين »
وقصد بذلك اهل الكتاب ذوي الامراض المزمنة والعاهات المانعة من
الكسب .. **والعاملون** عليها الذين يتولون جمعها ويوزعونها على مستحقيها ،
والمصرف الرابع اعطي لجماعة من الناس تأليفاً لقلوبهم او تأليفاً لقلوب
ذويهم من قبيل الدعوة الى الاسلام او الدفاع عنه .. في عهد الرسول عليه
السلام . وتوقف العمل به في عهد عمر لان زوال السبب اقتضى زوال
المسبب ، وهكذا رأى الفقهاء ان الحكم فيه بات ينفذ ان وجدت الحاجة
اليه فيجب تنفيذه في عصرنا هذا في الدعاية للاسلام وبيان حقائقه لمن يجهلونه .

أما فك الرقاب فيقصد به تحرير الارقاء ، فكان من اول واثبت الدعوات لتحرير الرقيق . والصنف السادس هم الغارمون اي الذين ركبهم دين ولا فاء عندهم . والمصرف السابع : في سبيل الله وقد فسرهما المسلمون بما يعم كل مصالح المسلمين . والمصرف الاخير : ابن السيل وهو من انقطعت به الاسباب وكان في سفر .

والزكاة لها في العربية مدلول مزدوج : الاول انها تزكية وتطهير للروح والثاني انها تزكية وتنمية للمال . فلها هدف روحي تعبدي ، ولها هدف اقتصادي فقهي .

٤ - الجزية : ليست من محدثات الاسلام . لقد وضعها اليونان على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس ق . م مقابل حمايتهم من هجمات الفينقيين . ووضعها الرومان على الامم التي اخضعوها وعرفت عندهم باسم ضريبة الرأس Tributum Capitis وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . كما كان الفرس ايضا يأخذون الجزية من رعاياهم وعرفت عندهم باسم الجزية Gezit .

والجزية مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم . وهي مقابل الزكاة عند المسلمين حتى يتساوى الفريقان في دفع الضرائب . وتسقط عنهم الجزية اذا اسلموا . وهي مفروضة على جميع الذكور الذين القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين بالسن الذين لا يستطيعون العمل ولا من العميان والمقعدين والمجانين ، ولا من رجال الدين الا اذا كانوا اغنياء . اي انها فرضت على كل الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

أما مقدار الجزية فلم يكن ثابتاً زمن النبي وابي بكر . ثم عيها عمر

ولكنها عدلت بعد ذلك وتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم فكانت (٤٨) درهما على الاغنياء تدفع شهرياً و (٢٤) على متوسطي الحال و (١٢) على الفقراء .

٥ - **الفنيمة** : هي ما يكسبه الماسمون في الحرب من الاعداء وهي على اربعة اقسام : اسرى وسبي وارضين واموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر . واختلف في حكمهم منها قبول الفدية عنهم او قتلهم أو أن يمن الخليفة عليهم بالاطلاق . اما السبي فهم النساء والاطفال الذين يقعون في الاسر فلا يجوز قتلهم . اما الارض فقد تقدم ذكرها في بحث الحراج والعشر . اما الاموال فاربعة اخماسها للمقاتلين وخمس للرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وذلك حسبما جاء في كتابه العزيز : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وقد فاضل النبي ﷺ بين الفارس والراجل انما اختلف فيما بعد في قدر تفضيله . قال ابو حنيفة : يعطان للفارس سهان والراجل سهم . ورأى الشافعي ان يكون ثلاثة اسهم للفارس .

٦ - **الفيء** : هو كل مال سهم وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال .. ويدخل فيه الحراج والعشر والجزية وغيرها من واردات بيت المال . ويصرف خمسه حسب الآية الكريمة : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » « سورة الحشر » اما اربعة اخماس الفيء الباقية كانت تقسم في صدر الاسلام على الجند والاعمال الحربية لشراء الاسلحة وغيرها حتى دون عمر الدواوين وعين ارزاق الجند فاصبح الفيء يوضع في بيت المال .

فمن أراضي الفيء مثلاً في الشام والعراق ومصر الضياع الخاصة التي هجرها ملاكها الهاربون ، او الاراضي التي كانت ملكاً للحكومات السابقة . أو الضياع التي صودرت بسبب اثاره الفتن ضد المسلمين ، أو الاراضي العامة التي لا صاحب لها كالغابات والمروج .. واضيف إلى مثل هذه الاحوال ، في فارس ، الاراضي التي كانت وقفاً على معابد النار . ومع الزمن ، صرف الدخل من الفيء على الاعمال والاشغال العامة ، كحفر القنوات ، وإقامة السدود على الانهار ، وتشديد الخزانات وتعبيد وترميم الطرق ...

ولادراك الفرق بين أراضي الفيء وأراضي الخراج ، يكفي أن نعتبر ان أراضي الفيء ملك للدولة ، وأن أراضي الخراج من القطاع الخاص ، ملك لأصحابها من الشعب . وتأخذ الدولة من أملاكها مجموع حصص المالك وضريبة الانتاج ، بينما تأخذ الدولة من أملاك الشعب فقط ضريبة الانتاج .

٧ - **الواردات الاخرى :** ويدخل ضمن واردات بيت المال سوى ما ذكرنا :

أ - **المكوس (العشور أو ضرائب الجمرك) :** وهي ضريبة عن كل تجارة واردة في البحر أو البر منها يكن نوعها . ولانعلم مقدار ما كان يجمع منها إذ أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه الضريبة لا تؤخذ إلا إذا انتقل التاجر من بلاده إلى بلاد أخرى . أي إذا انتقل الشامي إلى العراق أو مصر وهكذا ...

ب - **اعشار السفن :** هي ضريبة على السفن التي تمر ببعض الشغور فيؤخذ منها العشر عيناً . وكانت تبلغ أموالاً كثيرة في بعض الاحيان . وقد بلغ ضمان اعشار السفن في عدن في القرن الرابع هـ (٢٠٠,٠٠٠) دينار وفي القرن السادس هـ (١١٤,٠٠٠) دينار . وكان الاندلسيون يأخذون ضريبة

من السفن في ذهابها وإيابها عبر بوغاز جبل طارق عند مدينة طريف . ومنها اشتقت كلمة Tariff التي تدل عند الافرنج على الرسوم التي تؤخذ على البضائع أو تدل على الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان .

ح - العشور : وهي عشر بضائع التجار غير المسلمين حين ينقلون بضائعهم من بلاد خارجة عن سلطات المسلمين إلى بلادهم أشبه بالمكوس أو الضرائب الجمركية في الوقت الحاضر ، وكانت أحياناً تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف ، كما أن مما يجدر ذكره أن العشر يؤخذ على التاجر وتجارته مرة في العام ، لا في كل مرة يدخل فيها البلاد ويخرج منها كما تدفع المكوس في الوقت الحاضر ، إلا إذا اتفق على ذلك واشترط على التجار . وكان بما نبه المسلمين إلى فرضها ، وقد كان اهل مكة في الجاهلية يجبون العشور على المتاجر التي تمر بمدينتهم ، ان والي الكوفة أبا موسى الأشعري ، كتب إلى الخليفة عمر يخبره ان تجار المسلمين الذين يتاجرون خارج المناطق الاسلامية يدفعون ضريبة مقدارها ١٠٪ على سلع متاجرهم فأجابهم عمر ، بالمعاملة بالمثل ، والقيام بجباية ضريبة بمائلة على الاجانب الذين يتاجرون في البلاد الاسلامية . ويروي أبو يوسف في كتابه الخراج ، ان المسلمين لم يأخذوا ضريبة العشر على البضائع التي تقل قيمتها عن مائتي درهم ، وهذا يذكرنا بانظمة الجمارك الحالية ، وما يتعلق بها بحملة المسافرين معهم حين يفتشون عند اجتيازهم الحدود ، ولم يجبوا منهم أي ضريبة على ما يحملون من متاع ، وان كانت العشور على سلع التجارة التي تنقلها قوافل التجار ... كما كان المسلمون أيضاً يتناولون العشر من السفن التجارية التي تمر بموانئهم الكبرى على سبيل المرور والراحة والتموين فيها كمرافئ اليمن ومضيق جبل طارق ، وهو أشبه بما تدفعه السفن حالياً من ضرائب ، عند مرورها من توعة السويس أو امتيارها من مرفأ كبير .

وأول ما بدأ فرض العشور أي الجمارك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويروي قصة ذلك القاضي أبو يوسف : بان جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب : دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرونا (أي تأخذ العشور) . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فاشاوروا عليه به ، فكان أول من عشر أهل الحرب ، وبعث زياد بن حدير على عشور أهل العراق والشام .

وحدث في زمن عمر بن الخطاب كما يروي أبو يوسف : أن رجلاً من نصارى تغلب مرّ على زياد بن حدير بفارس قومت بعشرين ألفاً ، فأخذ منه زياد ألفاً ، ثم مرّ راجعاً في سنته فقال زياد : اعطني ألفاً أخرى . فقال التغلبي : كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً ؟ قال زياد : نعم . فسار التغلبي إلى الخليفة عمر ، فوافاه بمكة وهو في بيته فاستأذن عليه . فقال : من انت : قال : رجل من نصارى العرب ، وقص عليه قصته . فقال عمر : كفيت . ولم يزد على ذلك . فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على ان يعطيه ألفاً أخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه وفيه : من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً . فقال التغلبي : قد والله كانت نفسي طيبة ان اعطيك ألفاً . وإني أشهد الله اني على دين الرجل الذي بعث اليك الكتاب . واصبح كتاب عمر هذا قاعدة تحصيل العشور ، وقد اختلفت قيمتها باختلاف مذهب صاحب البضاعة ، نستدل على ذلك من قول انس ابن سيرين حيث قال : « أرادوا أن يستعملوني على عشور الابلّة (مرفأ على شط العرب) فأبيت ، فلقيني أنس بن مالك فقال : ما يمنعك ؟ فقلت : العشور اخبث ما عمل عليه الناس . فقال لي : لا تفعل . عمر صنع فجعل على أهل الاسلام ربع العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ،

وعلى المشركين ممن ليس لهم ذممة العشر . وهكذا نلاحظ ان عمر لم يأخذ من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليها من الزكاة ... كما يروى أن نسبة العشر تعدلت مع الزمن ، وبالنسبة لأهل الحرب أي للبلاد غير الاسلامية المجاورة لها ، قاعدة المعاملة بالمثل ، فيدفع التجار من هذه البلاد نفس النسبة التي يدفعها التجار المسلمون حين يدخلون ديارهم للتجارة .

د - اخماس المعادن : والمعادن على نوعين الظاهرة والباطنة . فالظاهرة التي تبدو على وجه الارض كالكحل والملح والقار والنفط لا يؤخذ عنها شيء . اما الباطنة فكانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس .

هـ - غلة المستغلات : وهو ما يجني لبית المال من أسواق ومنازل وطواحين ابتناها الناس في ارض السلطان فيؤدون عنها أجرة . وبلغت في سامراء (١٠) ملايين درهم في السنة .

و - غلة دار الضرب : هو ما يخصص لبית المال من دار الضرب بنسبة واحد من مئة على ما يضرب من نقود للشعب . وقد بلغت في الاندلس في عهد الامويين (٢٠٠٠٠٠) دينار في السنة .

ز - الاموال التي ليس لها مستحق : كاللقطة ومال من يموت وليس له وارث

ح - فيما يخرج من البحر : كالخليفة والعنبر . ويرى ابو حنيفة أنها تكون بمنزلة السمك أي لا يؤخذ منها شيء . أما القاضي أبو يوسف فيرى أن يؤخذ منها الخمس كما أفق بذلك عمر بن الخطاب .

الواردات غير المشروعة : أورد ابو يوسف في كتاب الخراج عدداً من من الضرائب التي طلب إلى الشعب الامتناع عن تأديتها بما يدل على ان

بعض جباة الضرائب والملتزمين كانوا يفرضونها على الناس . فقد ذكر ابو يوسف بانه لا يطلب من دافعي الخراج إطعام جامعي الضرائب او دفع اجور الكيل ، ولا اضافات في كمية الضريبة في السنين الخسبة ذات المحصول الممتاز ، ولا أجور الحمل ، او اثمان القراطيس التي تسجل فيها الواردات وتعليقات الحكومة ، ولا اجور المراسلات ، ولا أجور الاشخاص الذين يتنقلون بين مركز الولاية والقرى النائية .

وحض ابو يوسف الناس على عدم السكوت امام ظلم جامعي الضرائب وسوء معاملتهم ، وذكر أمثلة جباة اوقفوا الفلاحين أياً ما في الشمس على أبوابهم بانتظار دورهم في الدفع ، أو ضربوا الفلاحين بقسوة ... واقترح بعد هذا كله قيام نظام للمراقبة ، وتعيين «عيون» للولاة والخليفة يقدمون التقارير عن كل مخالفة من هذا النوع ليمنع عن الفلاحين ، الجهلاء ، والذين يخافون سطو رجال الحكم ، ان يتقدموا مباشرة بالشكوى عن كل سوء يحل بهم .

طرق الجباية : (جباية الخراج والعشر والجزية) . كانت على ثلاثة أنواع:

١ - **الطريقة المباشرة :** وذلك ان الخليفة كان يعين إلى جانب الوالي صاحب الخراج لجمع خراج وعشر الارض والجزية . ولا يكون للوالي عليه أي سلطة . الا أن الولاة كانوا أحياناً يضمّنون الخراج كما فعل يحيى ابن برمك وغيره .

٢ - **طريقة التضمين أو التلزم :** وذلك ان الدولة تعلن عن رغبتها في تضمين الخراج لمناطق مختلفة فيجتمع الناس من الاغنياء والمتنفذين ويلتزم كل منهم منطقة من مناطق الخراج بما لم يعين يقع عليه بالمزايدة . أما إذا كانت الأرض من أملاك الدولة فان الملتزم يضمن بلدة أو قرية فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي .

٣ - طريقة المقاسمة : وهو نظام وضعه عمر بن الخطاب وذلك أنه كان يحصى أموال الولاة قبل توليتهم ثم يازمهم عند اعتزالهم بدفع نصف الاموال التي جمعوها أثناء ولايتهم والتي لا تسمح بها رواتبهم . وقد فعل ذلك مع معاوية وعمر بن العاص . كما لجأ الأمويون إلى طريقة الاستخراج أو التكتشيف وذلك بإجراء تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الادارية، وكانوا يعذبون ليقروا بالأموال التي جمعوها وادعوها عند أهلهم وأصدقائهم . وكان مثل هذا التحقيق يتجاوز أحياناً الحدود المشروعة ويصبح وسيلة الانتقام والأخذ بالثأر وجمع المال .

وقد بلغت واردات الدولة العباسية في عصر المأمون حوالي « ٤٠٠ » مليون درهم . إلا أنها أخذت تتناقص مع الزمن حتى أصبحت نصف هذا المبلغ تقريباً .

نفقات الدولة : لقد نص القرآن الكريم على أوجه صرف بعض موارد بيت المال كالغنيمة والفيء والزكاة بما ذكرناه في حينه . أما بقية واردات الدولة فكانت تنفق في سبيل تأمين مصالح الحكومة من نفقات للخليفة ورواتب للقضاة والولاة والعمال وغيرهم من الموظفين ، واعطيات الجند وتأمين المعدات الحربية وكري الانهار واصلاح مجاريها وحفر الترع واقامة الجسور وإطعام المسجونين والاسرى ودفن من يموت منهم واقامة المستشفيات وغير ذلك . ويعود تنظيم العطاء ، وهو احد اوجه نفقات الدولة الرئيسية الى عمر بن الخطاب الذي استهدف به مصلحة المجتمع الاسلامي العامة الدائمة ، دون مصلحة مجرد المقاتلين الذين حصلوا على الغنائم او ساهموا بالجهاد ، فأمر بتوزيع واردات المقاطعات التي تم ضمها للامبراطورية الاسلامية الغنية في عهده على كافة المقاتلة سواء من ساهم بالقتال او من كان مستعداً للمشاركة في المعارك المقبلة . وفي المصادر العربية

تفاصيل وافية عن الاسس التي اتبعها عمر في توزيع العطاء في المدينة المنورة ، وفي بقية المدن والامصار . ففي عاصمة المسلمين جعل عطاء الناس بحسب اسبقيتهم للاسلام ، فمن اسلم قبل بدر كان عطاؤه اكبر من اسلم بعد بدر ، وهذا عطاؤه اكثر من عطاء من اسلم بعد الحديبية . . . (وفي الطبري وايي يوسف شرح وافٍ لذلك) اما في العراق والشام ومصر فجعل لمقاتلة المعارك الكبرى النصيب الاوفى ، ثم يتدنى النصيب كلما قلت المساهمة في القتال ، ولم يهمل سكان البلاد الاصليين من نصيبهم في العطاء اي من حقهم في اموال الدولة . . . ويروى ان احد المسلمين انتقد يوماً ما عمر ، حين وزع جميع ما ورد على بيت المال فقال له : يا امير المؤمنين ! لو تركت في بيوت الاموال عدة فقال عمر : كلمة القاه الشيطان على فيك . وقاني الله شرها . وهي فتنة لمن بعدي . وبالفعل فان من جاء بعد عمر من خلفاء امويين وعباسيين لم يتصرفوا بموارد بيت المال ، بل احتفظوا دائماً بمبالغ ضخمة للنواب وما تحبئه الايام . والغريب ان بعض الخلفاء ، كانوا يزيدون عطاء الناس يوم توليهم الحكم ، او عند استنفارهم لامر جليل ، ولمرة واحدة ، فكان ذلك بمثابة مكافآت تشجيعية او تقديرية او كسباً لعطف العامة وولائها ، وقد فعل ذلك عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وقلدهم من اتى بعدهم من خلفاء . وكان على اهل العطاء مقابل ذلك ان يجهزوا انفسهم بالسلاح ويذهبوا للقتال .

وقد بلغت نفقات الدولة العباسية في السنة زمن المأمون (٥٠) مليون درهم . وبذلك يتبقى (٣٥٠) مليون درهم وفراً في بيت المال . والدولة التي يتبقى لديها كل سنة مثل هذا المبلغ العظيم تعد في غاية الثروة .

ولكن ذلك الوضع تبدل كثيراً فيما بعد اذ زادت النفقات كثيراً

في أذوار الانحطاط بسبب إسراف الخلفاء وزيادة الرواتب وتخفيف الضرائب المختلفة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى تقهقرت الواردات بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها فلم يبق في بيت المال الا مبالغ بسيطة ثم صار الامر في أيام المطيع بالله سنة (٣٦١ هـ) الى ان يبيع ثيابه وأنقاض داره ليدفع (٤٠٠٠٠٠) درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد.

النقد : كنا تكلمنا في بحث الخلافة أنه كان من شارات الخلافة ضرب النقود وأول من سك النقود العربية وجعل استعمالها اجبارياً هو عبد الملك بن مروان . اما قبل ذلك فكانوا يتعاملون بالنقود الفارسية والبيزنطية والعربية .

وكانت النقود من الذهب والفضة والنحاس . فالدينار كانت من الذهب (الدينار لفظ لاتيني الاصل مشتق من Deni اي عشرة) . وكانت يساوي وزن درهم وثلاثة اسباع ، أما قيمته فتتراوح بين (١٣) و (١٥) درهم فضة أو أكثر ، وكانت الدراهم من الفضة ووزن الدرهم من الفضة (٥٠) حبة . ويساوي الدرهم ستة درانق ويصنع الدوتق من النحاس ومرجع قيمة هذه النقود كلها الى الوزن كما لاحظت .

وكان يكتب على هذه النقود اسم الله والنبي ﷺ على احد الوجهين وعلى الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة .

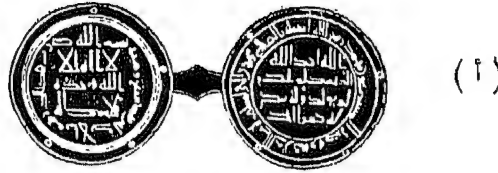
وتذكر المصادر وجود نقود عربية قبل عهد عبد الملك . يقول المؤرخ الالماني مولر أن خالد بن الوليد ضرب في طبرية دنانير على رسم وشكل الدنانير الرومية تماماً وعلى أحد وجهيها اسم خالد باليونانية وذلك سنة (٦١٥) كما يقول أيضاً أن معاوية ضرب نقوداً ذهبية على مثال الدينار الفارسي وعليها اسمه . وتوجد نماذج لكلا النوعين .

ويذكر المقرئ أن أول من ضرب النقود في الاسلام عمر بن الخطاب سنة (١٨ هـ) على مثال النقود الفارسية ، وجعل عمر وزن الدرهم ١٤ قيراطاً او سبعة اعشار المثقال ، وهو الحد الوسطي لوزن الدراهم التي كانت سائدة الاستعمال في انحاء البلاد اذ وجد ان بعضها يزن ٢٠ قيراطاً ، وبعضها ١٢ ، وبعضها ١٠ قيراطاً واكثرها مزور ، فاخذ رقماً وسطاً لجعله اساس عملته الجديدة . وكان ذلك سنة ١٨ هـ كما وجد عمر النسبة بين الدرهم والدينار لجعلها $\frac{1}{10}$ واصدر عثمان بعده دراهم منقوشاً عليها « الله اكبر »

كما أن الولاة كانوا يضربون النقود وخاصة في بلاد فارس . ويوجد نماذج منها يرجع تاريخها الى سنتي (٢٨) و (٣٨) .

دار الضرب : ولقد أوجدت دور لضرب النقود في العواصم الاسلامية وفي مراكز الولايات ، وكانت دور الضرب تتناول واحداً في المئة عن كمية الأموال التي تضربها للشعب كأجر للعمل ، وثمان للوقود ، ولوعلمنا أن غلة دار الضرب بلغت في عهد أحد الخلفاء في القرن الرابع الهجري ٢٠٠ الف دينار في العام لادر كذا كمية السبائك التي يقدمها الناس لسكها نقوداً ، وكمية النقود المتداولة بين أيدي الناس وغناها ..

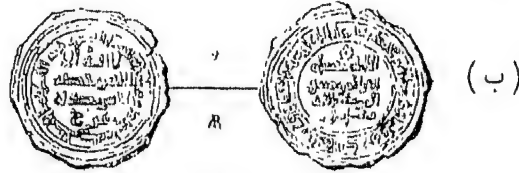
وكثيراً ما كان التزييف يتطرق الى النقود المتداولة رغم وجود قوانين من عهد عبد الملك تعاقب المزييفين بأشد العقوبات ، فيضطر أولو الامر عند ظهور أموال مزيفة إلى جمعها وضرب نقود جديدة ، من ذلك ما يذكر ابن الاثير في عهد لمرأة الامراء ببغداد ، أن ناصر الدولة الحمداني « نظر في العيار فرآه ناقصاً فأمر باصلاح الدنانير ف ضرب دنانير مماها الابريزية



(١)

شكل - ٢٢ -

٢ - درهم ضرب في الاندلس في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ وعليه : (في المركز) « الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (في الطوق) : « محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .



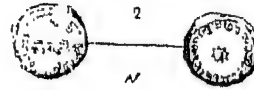
(ب)

شكل - ٢٣ -

ب - درهم آخر ضرب في الاندلس سنة ١٧٠ هـ كتب عليه : (في المركز) : « الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله » . (في الطوق) : « محمد رسول الله ارسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وعلى الوجه الآخر (في المركز) : « لا اله الا الله وحده لا شريك له » (في الطوق) ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة ١٧٠ هـ وعلى الوجه الآخر (في المركز) : « بسم الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له » (في الطوق) : « ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة سبعين ومية »

شكل - ٢٤ -

نقود عربية ضربت في شمالي افريقيا والاندلس كتبت بلغتين عربية ولاتينية ، يعتقد المستشرق آجيو المشرف على ديوان الاوسمة في باريز انها ضربت من قبل القواد المسلمين في أول عهدهم بهذه البلاد . والكتابة اللاتينية تشمل نصوصا دينية اسلامية .



خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم فيبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة . يؤخذ طابع من حديد تنقش عليه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم توزن المعادن ويوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بطريقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة عليها . ويقول ابن خلدون ان كلمة السكة كانت تطلق على طابع الحديد ثم نقل هذا المعنى الى النقوش التي على النقود ثم أصبح يطلق على وظيفة وعمل ضرب النقود والنظر على استيفاء حاجاته وشروطه .



شكل - ٢٥ -

وجه دينار اموي ضرب سنة ٨٠ هـ منقوش بكتابة كوفية نصها في الوسط : « الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد . . . وفي الطوق « ضرب هذا الدينر سنة ثمانين » والدينار محفوظ في المتحف العراقي ببغداد .



الفصل الخامس عشر

المجتمع العربي الاسلامي

تشكل المجتمع الاسلامي : لم يكن قد مضى على العرب المسلمين أكثر من سنين معدودة بعد الهجرة حين خرجوا من الجزيرة وحرروا مجتمعات الشام ومصر وليبيا من الحكم البيزنطي ، والعراق من الحكم الساساني ، ونشروا نفوذهم على ايران الفارسية . ولم يمض بعد ذلك كبير وقت حتى امتد نفوذ الدولة الاسلامية على مملكة قمتد في آسيا من تركستان واطراف الهند إلى ايران ثم العراق والشام وأواسط آسيا الصغرى ثم الجزيرة العربية ، كما تشمل من افريقيا : مصر وشمال السودان وبرقة وطرابلس والمغرب العربي كله ، ومن اوربا : شبه جزيرة ايبيريا وصقلية وقسم من جنوبي إيطاليا . وقد كانت عناصر السكان في هذه البلاد مختلفة متباينة لا في الاصل فحسب ولكن في الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الفكرية والاتجاهات الاقتصادية عدا تبين التاريخ واللغات والميول : **فالجزيرة العربية** كانت مهد العرب ومركز فرعيهم من قحطانيين (في الجنوب غالباً) وعدنانين (في الشمال) مع عناصر محدودة جداً من الفرس والحبش في الجنوب . وفي **الشام** : كان السكان خليطاً من بقايا العرب القدماء كالآراميين في الداخل^(١) والفينيقيين

(١) تسمى الآراميون بعد النصرانية باسم السريان نسبة الى سوريا .

في الساحل كما تتوضع بينهم في نقاط معينة من البلاد (كقيسارية وانطاكية مثلاً) عناصر هلينية ورومانية غربية ، وتمرزج بهم فيما بين جنوب فلسطين إلى الجزيرة العليا حيث منابع نهر دجلة عناصر عربية بدوية وحضرية أهمها الغساسنة الذين **ورثوا الانباط والتدمريين** ، وكانت تنتشر في بعض المدن بمجموعات يهودية صغيرة مغلقة .

وفي العراق كانت كتلة السكان الاساسية مكونة ، خلال العصور ، من العرب القدماء وهم ورثة الآشوريين في الشمال والكلدانيين في الجنوب مع عناصر فارسية أهم مركز لها المدائن (عاصمة الساسانيين) ، وعناصر سريانية بين الحيرة وحراف ، وعناصر عربية أخرى بدوية وحضرية تملأ ما بين الأبله والجزيرة العليا وأهمها بنو لحم في الجنوب وبنو تغلب في الشمال . أما **فارس** فيختلف التركيب الجنسي فيها اختلافاً اساسياً ولكن العناصر المسيطرة هي العناصر التي ندعوها لغوياً باسم الآريين وأهمها الفرس . واما في **التركستان** فالعناصر التركية من الجنس المغولي الاصفر هي السائدة .

فاذا انتقلنا الى **مصر** وجدنا ذلك المزيج المصري القديم الذي يدعونه بالقبط (والمؤلف من عناصر عربية قديمة وحامية معاً) مع مجموعات محدودة من الرومان - اليونان في الاسكندرية خاصة وتظهر العناصر الزنجية في **السودان** .

وفي المغرب تظهر العناصر التي يدعونها لغوياً بالحامية : وهي البربر . وبينها بعض المجموعات الاجنبية من بقايا الفاندال (الجرمن) والرومان وبقايا القارطاجيين الذين يعودون في أصولهم الجنسية الى العرب القدماء . كما نرى في اسبانيا خليطاً من العناصر التي يتكون منها السكان الاصليون من الاسبان ، محكومين من قبل مجموعة القوط الغربيين (الوندال) .

ويتوزع بعد هذا كله مجموعات معينة ، مغلقة وصغيرة ، من اليهود في الشام واليمن ومصر والمغرب واسبانيا .

وقد خرج العرب من جزيرتهم فانسأخوا في هذه الرقعة الواسعة من البلاد على شكل موجة أولية جرت أيام الفتح الأول في عهد عمر وعثمان وقد توضع معظمها في الشام والعراق ومصر . ثم استمر خروج العرب من الجزيرة واستمر توضعهم في أنحاء العالم الذي فتحوه حتى نهاية العهد الأموي . ولئن قلت هذه الهجرة بعد ذلك فإنها لم تنقطع لاسيما نحو المغرب (كتغريبة بني هلال) .

وهكذا نجد عدداً كبيراً من القبائل العربية يستقر في أبعد أنحاء المملكة العربية أي في خراسان وفي الأندلس والمغرب كما يستقر في فارس وفي العراق والشام ومصر .

وتنتقل هذه القبائل العربية من حياة البداوة إلى الحياة الحضرية المستقرة . وبالرغم من أن المجتمع العربي الإسلامي فوجيء منذ أوائل القرون الثالث للهجرة بهجرة بدوية أخرى من أتراك تركستان تركت أثراً واضحاً في آسيا الصغرى فقط ، إلا أنها لم تؤثر غير تأثير محدود جداً في إيران والهلل الحبيب ومصر ، ولم تستطع الوصول إلى الجزيرة العربية ولا إلى شمالي إفريقيا والأندلس . وهكذا بقيت الصبغة التي حملها العرب المسلمون إلى هذا العالم الواسع هي الغالبة في معظم المناطق .

فالعرب الذين توطنوا في الهلل الحبيب ومصر والمغرب لم يجدوا أي صعوبة في التوضع وفي الاندماج بعناصر السكان الموجودة في هذه المناطق ومعظمها تتفق معهم في الأصل أو في أصول اللغة وتضافرت عوامل عدة لجعل هذه العناصر تستعرب نهائياً :

اولها : انتشار اللغة العربية بجانب الدين الاسلامي انتشاراً تدريجياً مستمراً خلال القرنين الاولين للهجرة خاصة .

ثانيها : اختلاط العرب جنسياً بالزواج والمصاهرة والتسري ؛ واجتماعياً بالمساكنة والمعاملة مع العناصر الاخرى فتغلبوا عليها .

ثالثها : الحكم العربي واستئثار العناصر العربية بقوة الحكم وشرف حمل الديانة الاسلامية للناس . مما اخضع لها العناصر الاخرى وجعلها تقر لها بالفضل وتحاول ادعاء النسب العربي بأي شكل .

على ان العناصر العربية التي توضع في خراسان وفارس وتركستان لم تستطع ان تتغلب على المجموعتين الآرية والمغولية فذابت فيها منذ القرن الرابع الهجري كما أنها اخرجت من الاندلس بعد انهيار الحكم العربي هناك في القرن الثامن الهجري (الخامس عشر م) واستوطنت بمختلف الوسائل ، فلم يبق سوى الآثار الرائعة والتأثيرات العميقة التي لحصها الشاعر الاسباني المعاصر (فيلاسباسا) في قوله : لو حاك أحدنا جلده لظهر تحته الجلد العربي .

وعلى اي حال فقد خرج من مجموع تلك العناصر المشتبكة التي ذكرناها : مجتمع اسلامي - عربي تماماً في بعض المواضع ومستعرب ثقافياً أي دينياً ولغوياً في بعض المواضع الاخرى .

٢ - طبقات المجتمع الاسلامي وتطورها :

قبل البدء في دراسة المجتمع الاسلامي وتطوره يحسن ان ننتبه إلى ملاحظات ثلاث :

اولهما : ان طبقات المجتمع الاسلامي لم تكن طبقات مغلقة أي

ماوصلت مرة الى درجة اقامة الحدود التي لا تخرق بين الناس . ولكنها تكونت تبعاً لبعض الاعتبارات المتحولة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية.

الثانية : ان هذه الطبقات كانت تنشأ في عصر وقوت في آخر ، ولم تحافظ واحدة منها لاعلى بقاءها ولا على مرتبتها الاجتماعية خلال التطور .

الثالثة : انا سنوجه اهتمامنا لدراسة المجتمع الاسلامي الحضري وخاصة كما ظهر في العراق والشام ومصر والاندلس ؛ على انه يجب الان ننسى ان مجموعات بدوية كثيرة بقيت تعيش حياتها ، على طريقتها الاجتماعية الخاصة في قلب الجزيرة العربية وايران وتركستان وفي صحاري مصر وليبيا وبلاد المغرب .

- المجتمع الاسلامي في عهد الرسول ومطلع العهد الراشدي :

اعلن الاسلام منذ أيامه الاولى تحطيم النظام الاجتماعي بين العرب ، وقرر للعرب نظاماً آخر يقوم على اسس اخرى ، وقد رمز الدين الجديد لهذا الانقلاب بكلمتي : الجاهلية والاسلام ، وما يحتفي وراء الكلمتين من معان ومثل .

حطم الاسلام اولاً رابطة المجتمع القبلي القائمة على الدم والنسب ، واحل محلها رابطة الايمان والاشترك في الدين الواحد . وهي رابطة واسعة مفتوحة الاطراف لكل من يؤمن بالاسلام . وتواترت الآيات والاحاديث التي تؤكد اخوة المؤمنين وتساويهم وتفاضلهم بالتقوى : « انما المؤمنون اخوة » .

« يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » « المؤمنون سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والدين » .

وقد نظم الاسلام المجتمع الاسلامي فدعا إلى مكارم الأخلاق ،

رائدة لجميع المسلمين ، وجعل الخوف من الله في السر والعلانية أصلاً للمعاملة ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية ، كما جعل المسلمين سواسية ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، لافرق بين عربي مسلم وأعجمي مسلم ، كما جاء في الآيات والاحاديث المذكورة ، ورفع شأن المرأة فنظم أمر زواجها وطلاقها وميراثها وحقوقها ، وإن أبقى الاسلام على نظم الرق ، فقد حسن معاملة الرقيق وفتح الطريق لتحريره بأبواب عدة شجع فيها المؤمنين على الاستغناء عنه . . ووضع أصول المعاملات ، وبين علاقات الأفراد بعضهم مع بعض ومسح اولى الأمر ، وأوجب الزكاة وحدد أوجه صرفها في أمور تساعد فيها الفقير والمحتاج والمسكين وابن السبيل ، وأطلق يد ذوي اليسار بالصدقات يتقربون بها إلى الله ، وأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان المجتمع الاسلامي في عهد الرسول عليه السلام ، من العرب ، الذين عاصروا الثورة الاجتماعية الاسلامية ، فلما خرج العرب في عصر الراشدين من حدود الجزيرة الى الهلال الخصيب ووادي النيل ، ثم انساحوا إلى ما بعد ذلك كثرت العناصر التي صارت تؤلف المجتمع الاسلامي ، ولكن العربية بقيت غالبية ، في الدم واللغة على الأقل ، إذ كان في الشام والعراق ومصر عرب قبل الاسلام ، يتكلمون العربية ويرتبطون بابناء الجزيرة بصلة الرحم ويتصلون بهم عن طريق التجارة المستمرة ، والوفود القادمة من الجزيرة إلى الاطراف وعن طريق الشعراء . ولم يكن أبناء هذه البلاد من غير العرب غرباء عن العرب وعن لغتهم ، فقد كانوا على اتصال دائم بهم ، حين يقدمون مع قوافل التجارة ، وكان لعرب الحجاز مراكز خاصة بهم ، فغزة كانت مقراً لبعض تجار قریش ، وبصرى الشام تحتفظ لهم في سوقها بامكنة خاصة ؛ والحيرة عربية بدمها ولحمها ،

وصحراء مصر الشرقية ومدنها الرئيسية خاصة بالعرب . وما قصة عمرو بن العاص ، حين كان شابا في مصر ، قبل الاسلام ، الا دليل على ارتياد العرب هذه الديار وصلتهم الوثيقة باهلها ..

واللغة العربية نفسها ، لم تكن غريبة على الجمهرة الغالبة في هذه المناطق الجديدة ولم يكن تعلمها صعباً على الناس الذين انضمت بلادهم الى الدولة العربية الناشئة ، لان اللغة العربية احدى اللغات السامية ، وأكثر اللغات المحلية كانت وريثة اللغات السامية القديمة التي كان يتكلم بها ابناء الدول العربية القديمة ، عدا مراكز في المدن غلبت عليها اليونانية في الشام ومصر ، والفارسية في العراق ، وكان ابناء هذه المراكز أسرع العناصر اقبالا على تعلم العربية للاحتفاظ بمركزهم الاجتماعي والمالي والادبي والسياسي الذي كان لهم ، وكان الذين دخلوا في الاسلام من جميع الطوائف والأجناس مالوا إلى تعلم العربية لعامل آخر ، هو حفظ القرآن واداء الصلاة ، فسرعان ، لعوامل متعددة ، ان سيطرت العربية في انحاء الامبراطورية الجديدة ، ونتج عن التزاوج الحصب بين العرب القادمين من الجزيرة ، وسكان البلاد الجديدة ، جيل جديد ، ينتمي من حيث الدم إلى الجنس العربي ، وهكذا تعربت الدولة ، كما غلب عليها ، الاسلام ، وإن بقيت اقلية من أهل الكتاب حافظت على عقائدها أو مذهبها الدينية السابقة . وحتى العادات والتقاليد وأنظمة الحكم ، التي أقبل عليها عرب الجزيرة يقتبسونها ويمارسونها فانها تقاربت لاجتماع عدد من مختلف الأجناس في بيت واحد ، فقد عمل التزاوج بغير العربيات والتسري بالرقيق عمله في التقريب الاجتماعي والفكري ، كما عمل انتقال القبائل العربية الى مختلف المناطق على مثل ذلك من تقارب وتفاعل ..

لم تكن حركة التحرير والفتوح العربية قد انتهت حين بدأ دخول

جماعات مختلفة من الاعاجم في الاسلام فتغير بذلك وصف المجتمع العربي المسلم ، وظهر فيه التمييز بين المسلم العربي والمسلم الاعجمي الذي اضحى يدعى بالمولى . بمعنى الذين أسلموا على يد العرب واتبعوهم وأصبحوا حلفاء لهم . وسرعان ما عادت بهذا الشكل إلى الوجود ، منذ مطلع العصر الاموي ، فكرة العصبية والنسب ، وعاد معها النزاع القبلي الجاهلي ما بين بن (قحطانيين) وقيس (عدنانين) وما بين امويين (بني أمية) وهاشميين (آل علي) ...

على ان هذه الرجعة الى الجاهلية لم تلغ الاساس الديني في المجتمع ولكنها تواءمت معه ، وهكذا اضحينا نرى في المجتمع الاموي خاصة ظهور عدد من الطبقات ذات فروع مختلفة ، تنقسم على مستويات مختلفة أيضاً : فهناك اولاً العرب وفيهم الحكم والقيادة والاولية الاجتماعية : ومنهم طبقة آل البيت وطبقة الصحابة وطبقة الفاتحين (من حضر القادسية او اليرموك) وطبقة الحكام الامويين وطبقة التابعين وتابعي التابعين .. الخ كما تميزت فيهم مجموعتان متناحرتان : القيسيون واليانيون .

وهناك ثانياً **الموالي** : وهم الاعاجم المسلمون وجلهم من الفرس وقد نبغ منهم العديد من علماء الدين ، وأسندت اليهم مناصب القضاء وغيرها ، بينما انصرف كثير منهم إلى الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة .

ثالثاً **طبقة العبيد** : التي كثرت كثرة كبيرة جداً نتيجة الفتوح . وكلهم غير مسلمين ، في الاصل ومن كان منهم مسلماً فاسلامه كان بعد الرق . أما غير المسلمين فكانوا طبقة واحدة : تدعى **اهل الذمة** . وتشمل المسيحيين واليهود كما توسع مفهومها فشمّل اصحاب الديانات غير السماوية أحياناً . وقد تمتع النصارى العرب خاصة بالمكانة نفسها التي كانت لباقي العرب يدلنا على ذلك مكانة الاخطل الشاعر مثلاً .

المجتمع في العصر العباسي :

تعدلت طبقات المجتمع في مطالع العصر العباسي لصالح الفرس خاصة بسبب اعتماد الخلافة العباسية عليهم في البدء ، وتوازت طبقتا العرب والفرس في السلم الاجتماعي ؛ على ان العصر العباسي سرعان ما أتى بطبقة حاكمة ثالثة هي المماليك الاتراك الذين تسربوا من التركستان الى الجيش ثم الى البلاط حتى سيطروا على مصائر الخلافة . واضمحلت في غمرة النزاع العام والاختلاط المستمر العصبية القومية ، بينما كان التطور الاقتصادي يصهر الفروق الاجتماعية لاسيما في العراق ليخلق مجتمعا مدينا جديداً يقوم التمايز الاجتماعي فيه على اساس المال من جهة وسلطة الحكم من جهة اخرى . وهكذا ظهرت بصورة خاصة في الشرق طبقتان اساسيتان :

الخاصة : وهم عدا الخليفة افراد البيت المالك وكبار القواد ورجال الدولة وكبار التجار والقضاة ، والاقطاعيون والموسرون واتباع هذه الطبقة من جند وخدم وعبيد وخصيان وشعراء .

العامة : وهم بقية أفراد المجتمع وطبقاته من التجار الصغار والصناع والمزارعين والباعة والفنانين والاحداث (المليشيا البلدية) .

وقد وجدت نتيجة فساد التنظيم الاجتماعي طبقة خارج الطبقات الاجتماعية من الفقراء منها **الشطار والعيارون** ونجد صدى هؤلاء واضحاً في التاريخ العباسي وفي قصص الف ليلة وليلة . ويضاف بالطبع الى هذه الطبقات طبقة **الذميين** وقد كانت ذات حرية وتقدم في شؤون العلم والاقتصاد وقد اتسع مفهومها في هذا العصر فشملت بجانب النصارى واليهود والمجوس : الصابئة .

ولئن تطور المجتمع الاسلامي في العصور العباسية المتأخرة وفي العصر

المملوكي تطوراً واسعاً وعميقاً فقد بقي محافظاً على طبقاته الأساسية وان
برز في الطبقة الأولى المماليك أصحاب القوة العسكرية .

المجتمع الاسلامي في الاندلس : وقد اتبع تطوره نهجاً مختلفاً

بعض الاختلاف عن المجتمع في الشرق ، فقد برزت فيه اول الامر طبقة
الحكام ، ثم ظهرت بجانبها طبقة المولدين من الاسبان المسلمين وطبقة
المستعربين وهم من لم يسلم من الاسبان ، وقد كانت لهم حكومتهم وادارتهم
وممثلهم لدى دار الخليفة .



من طبقات المجتمع العربي الاسلامي ١ - الموالي

الموالي : لكلمة « مولى » في اللغة معان عديدة : فهي تعني الرب والمالك ، وتعني ابن العم والعصبة كلها ، وتطلق على الناصر والخليف والساحب والجار والشريك وعلى السيد وعلى من يعتق من العبيد . على ان الشرع الاسلامي اختص الكلمة بمعنيين فقط هما مولى العتاقة ومولى الموالاة ، على ما كان معروفاً في العهد الجاهلي ثم أضحت الكلمة ، بعد الفتوح الاسلامية ، ذات معنى اصطلاحى خاص يعني : كل من اسلم من غير العرب . وقد سمي العرب هؤلاء باسماء أخرى منها : حمراء ، اعاجم ، علوج .

١) الموالي في عهد الراشدين والامويين : لقد سوى الاسلام بين الناس فلم يفرق الرسول ﷺ في سياسته بين العرب والموالي ، واتبع أبو بكر نهجه نفسه ولم يرض حتى بتفضيل ذوي السابقة في الاسلام في العطاء قائلًا : « إنما ذلك شيء ثوابه على الله . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » وجاء عمر بن الخطاب فاقر تمايز الناس بعضهم على بعض بسابقتهم في الاسلام وبلانهم فيه ، ولقد أذن مرة للموالي كصهيب وبلال « من موالي الرسول » قبل أن يأذن لبعض سادات قريش « كأيي سفيان » فلما غضب هذا وقال : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على باب . أسكته أصحابه .

على أن عهد التسوية هذا انتهى فجأة بمصرع « عمر » على يد أحد الموالي . فبدأ استيقاظ العصية العربية في النفوس ، وجاء عهد عثمان فزاد في قوتها بما ثار بين الامويين والهاشميين أو بين قريش والعرب أو بين العرب والعجم

من نزاع وخصومة ، فلما ولي الخلافة « علي » لم يستطع أن يهتبه من هذه العصبية بل كان عمله على مكافحتها سبباً من أسباب انصراف بعض العرب عنه . ولما جاء العهد الأموي توطدت في نفوس العرب فكرة أفضليتهم على الناس جميعاً لأسباب عدة : لأنهم أولاً مادة الاسلام : فيهم ظهر الدين ومنهم كان رسول الله وهم السابقون إلى الاسلام والمتفضلون على غيرهم بنشره وتقلهم من الكفر إلى الايمان . ولغتهم هي لغة القرآن .

ولان العرب ثانياً فتحوا بلاد الموالي بالسيف وهزموا دولتي الفرس والروم عنوة ومنوا عليهم بعدم الأسر والرق . وهدوهم الى الايمان والاسلام وأخيراً لان حكم الدولة كان في العرب فالحليفة والولاة والقواد وحملات الدين كانوا منهم . ويمكن أن نضيف إلى هذا أيضاً أن الموالي أنفسهم أقروا للعرب بالفضل وتركوا لهم المكان الأول في المجتمع . وزادت العصبية القبلية التي ثارت خلال العهد الأموي بين القيسيين واليمانيين في ايضاح الفرق بين العرب والموالي ؛ كما أن سياسة الأمويين العربية أغضبت الفئة المؤمنة من عرب وموالي ، لأنهم رأوا في هذه السياسة بعداً عن الهدف الديني للفتح العربي ، وتمييزاً بين رعية يساوي بينها الإسلام .

ب (رد فعل الموالي : وقد ارتضى الموالي أول الأمر مكانهم هذا من العرب بفعل العاطفة الدينية من جهة ، ولأن معظمهم لم يكن أحسن حالاً تحت الحكم الساساني والبيزنطي من جهة أخرى ، بالإضافة إلى أن أشرف الفرس (الدهاقين) في ايران نالوا امتيازات اقتصادية أنستهم ما خسروه سياسياً . على أن أسباباً عدة كانت تعمل على إثارة نقمة الموالي على الحكم الأموي حتى اضحووا عدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية المعارضة ولكل فتنة ضد الحكم الأموي .

لم يكن الاحتقار الاجتماعي الذي أظهره بعض الأمويين نحوهم

هو السبب الوحيد في تلك النقمة ، فان أكثر الامويين أساءوا إلى الموالي أيضاً في سياستهم المالية التي تقوم على الابتزاز بصورة عامة ، فقد فرضوا الضرائب الإضافية واتخذوا عيالهم من الولايات وسيلة للثراء واخذوا الجزية ممن لا تجب عليهم ، وتلاعبوا بالعطاء نقصاً وحرماناً . وقد حاول عمر بن عبد العزيز الإصلاح ففرغت خزانة الدولة من جهة ومات سريعاً فنقضت اصلاحاته من جهة أخرى ، وشعر الناس ، فيما بين الإصلاح ونقضه بأن لهم حقوقاً مهضومة . ثم ان انتشار الاسلام وفهم الناس لمبادئه في اخوة الايمان والتفاضل بالتقوى يصطدم عملياً بالسياسة الاموية العربية . ولئن انتحل بعض الموالي النسب العربي تقرباً للعرب فان الكتلة الغالبة منهم كانت تفضل على ذلك تطبيق السياسة الاسلامية الحقة .

ولاشك أن الروح القومية قد لعبت دورها أيضاً لدى الموالي لاسيما لدى الفرس في إيران ، وقد استيقظت هذه الروح بأشكال دينية أحييت بعض الافكار والعقائد الفارسية القديمة والبستيا أحياناً الثوب الاسلامي . وهكذا فان المؤمن من الموالي وضعيف الايمان وغير المؤمن كانوا سواء في كره الحكم الأموي .

وأخيراً فان الأحزاب السياسية المناوئة للأمويين من خوارج وشيعة عملت بصورة مباشرة على إيضاح الظلم الاجتماعي والمالي والسياسي الذي يحيق بالموالي وقد استجاب هؤلاء خاصة للدعوة الشيعية العلنية والسرية (العباسية) على السواء أملاً في الخلاص من ذلك الظلم .

لهذه الاسباب جميعاً اتجه الموالي لمقاومة الحكم القائم فقاوموه كحكم أموي وكحكم عربي وكحكم إسلامي أيضاً وسلكوا في ذلك مسالك شتى :

١) دفع إيمان الكثير منهم بالإسلام ، وذوبانه في الدعوة إلى دراسته والتعمق في تعاليمه ، فبرز في الناحية العلمية - الدينية ومرعان ما بلغ بعض

الموالي في ذلك شأوا بعيداً إذ أضحى معظم الفقهاء والعلماء في كل الامصار منهم كربيعة الرأي شيخ الامام مالك وفقه المدينة ، ومجاهد عالم مكة وزميله عطاء بن رباح ثم سعيد بن جبير عالم الكوفة . والحسن البصري عالم البصرة ، ويزيد بن حبيب مفتي مصر ومكحول بن عبد الله في الشام . ثم حماد الراوية وسيبويه والسائب بن فروخ الشاعر . وقد أفاد الموالى من ذلك فائدتين . إحداهما السمو الاجتماعي عن طريق العلم والثانية أن بعضاً منهم قد دس على الاسلام مبادئ غريبة عنه من الديانات القديمة .

٢) ثم اتجه بعض الموالى إلى مناوأة العصبية العربية بعصبية اخرى عرفت باسم الشعوية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالى عن أنفسهم فبعضهم أخذ يناقش تساوي العرب مع جميع الأمم ويعرف هؤلاء بأهل « التسوية » وأكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم على السواء كانوا يرون التسوية تنسجم مع مبادئ الاسلام ، وربما جاء اسم الشعوية من حجةهم بالآية الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . كما كانت الاحاديث النبوية ترفدهم بمادة غزيرة في الدفاع عن رأيهم هذا .

وبعض الموالى ، ممن لم يدخل الايمان في قلوبهم ، أو ممن غلبت عليهم النزعة القومية اخذوا يفضلون جميع الامم على العرب ويفخرون بأصلهم الاعجمي بينما يرمون العرب بمختلف المثالب . وقد ظهرت هذه النزعة في السنوات الثلاثين الاخيرة من العهد الاموي حتى ان شاعراً من الموالى تجرأ على انشاد هشام بن عبد الملك شعراً في ذلك (جازاه عليه بان غطه في الماء ونفاه إلى الحجاز) .

وقد حاربت الشعوية العرب بأشكال مختلفة ، فهاجمت مزايهم من شعر وبلاغة ، وعابتهم في حزبهم واستندت إلى عالمية الاسلام فسلبتهم الفضويه ، ثم

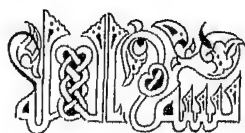
اكثر الشعوب من التأليف في مثالب العرب ومناقب العجم وصنفوا في ذلك تصانيف شتى منها الكثير من المختلق الموضوع ولئن رد العرب والمتعصبون لهم على ذلك بمثله فان هذه المعركة التي امتدت قرابة قرون (القرن الثاني الهجري) والتي ظهرت سافرة في العصر العباسي الأول تركت في الادب العربي وفي التاريخ الاسلامي وفي الدين ومختلف العلوم العربية بقايا كثيرة من التشويه والافساد .

٣٢) واتجه الموالي بالاضافة إلى هذين الاتجاهين الفكريين إلى السيف والثورة ايضاً . فقد كان جل أصحاب المختار الثقفي منهم . كما كانوا مادة جيش ابن الاشعث في ثورته على الحجاج وبني امية . وثاروا مع الحارث ابن سريج في خراسان ثم اجتمعوا حول الدعوة العباسية السرية مع من اجتمع حولها .

وبرز منهم أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني اللذان ساهما مساهمة اساسية مع جموع كثيرة من الموالي الفرس في نقض الحكم الاموي واقامة الحكم العباسي .

ويعد بعض المؤرخين قيام الدولة العباسية ، نصراً للفرس على العرب ، والواقع لا يؤيد ذلك . فقد ظلت الخلافة عربية . وامتدت مكافحة المتنفيذين من الفرس عهداً طويلاً في العصر العباسي الأول وصرع كبارهم على ايدي العباسيين كابي سامة وابي مسلم والبرامكة ولكن جماهير الموالي من الفرس نقمت على العباسيين لاسباب في ايران وقامت بحركات ثورية عديدة منذ زمن المنصور . على ان الموالي كسبوا بصورة عامة ، الخلاص من السياسة العربية الاموية ، والجهري بمقاومة العرب والفضخ عليهم ، كما اعترف لهم

بالحقوق السياسية فصاروا يولون الوظائف الكبرى ، من ولاية وقيادة
ووزارة ؛ مما جعل مكانتهم ، بالنسبة للعصر الاموي تعتبر نصراً كبيراً .
ولهذا استمر الصراع بينهم وبين العرب قائماً أيام العباسيين وتجاذب البلاط
العباسي حزبان : فارسي خراساني وعربي ، ما لبثا أن برزا للعداء السافر العلني
في الفتنة الاخوية بين الأمين والمأمون . ومع هذا فقد انصرف المأمون
عن الاتجاه للفرس منذ استقر في العاصمة بغداد . فلما ولى الخلافة أخوه
المعتصم وبدأ يعتمد هو والحلفاء من بعده على عصية جديدة من الترك كان
ذلك ايذاناً بظهور النزعة العالمية في الامبراطورية الاسلامية التي لم تعد
مملكة عباسية ، ولكنها أضحت دولاً عدة يربطها الولاء الاسمي للخليفة العباسي
واضحى المؤرخون يسمونها باسم : مملكة الاسلام .



من طبقات المجتمع العربي الاسلامي اهل الذمة

في الاسلام عدة اسماء تطلق على الجماعات غير المسلمة : فالكافرون اسم عام يطلق على كل منكر للرسالة الاسلامية ، والمشركون هم من لا يؤمنون بوحداية الله ، واهل الكتاب هم اصحاب الكتب المقدسة من النصارى واليهود ، وقد اُلحق بهم في زمن عمر الجوس (الزرادشتيون) وفي زمن المأمون الصابئة (عبدة النجوم) . أما الاسم الذي عم استعماله للدلالة على غير المسلمين وبصورة خاصة على النصارى واليهود ، فهو اهل الذمة أي الذين يعيشون في ذمة المسلمين وحمايتهم .

(١) توزع اهل الذمة في العالم الاسلامي : ظهر الدين الاسلامي في الجزيرة العربية ، ومعظم من فيها على الشرك وبعضهم يهود ، وقليل منهم على النصرانية ، فلما توفي الرسول كان الشرك قد انتهم رسماً بين العرب . ولكن اليهود رغم اضحلال اموم والنصارى معهم كانوا لا يزالون موجودين . وبالرغم من أن عمر بن الخطاب حاول بعد الفتح الاسلامي ان يجلبهم عن الجزيرة كلها فلا يدع فيها الا العربي المسلم الا أن جماعة كبيرة من اليهود بقيت بصورة خاصة في اليمن .

وأما البلاد التي فتحت ، فكانت المسيحية هي الدين السائد في العراق والشام ومصر منها وفي بعض الشمال الافريقي واسبانيا بينا ايراث تدين بالديانات الفارسية من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وكانت مجموعات اليهود موزعة توزيعاً مختلفاً في انحاء عديدة من البلاد . وقد استطاع الاسلام ان

يكسب اليه تدريجياً معظم عناصر السكان خلال القرون الثلاثة الأولى للدولة الإسلامية ، غير أن مجموعات كثيرة أخرى بقيت على دينها الأصلي : لاسيما اقباط مصر ، والمارونيون في لبنان ، والتغالبة في الجزيرة ، والسريان في العراق وكلهم بقي على النصرانية وقسم من سكان الجبال في شمال غربي إيران الذين احتفظوا بعقائدهم المجوسية الأولى ولم يدخلوا الاسلام الا متأخرين (حوالي القرن الخامس) .

أما اليهود فقد وجدت جاليات منهم في الأندلس ومراكش وفي تونس ووجد في القاهرة (في القرن الرابع) سبعة آلاف وفي الاسكندرية ثلاثة آلاف وفي دمشق أكثر من ذلك وفي حلب خمسة آلاف ، وفي الموصل عشرة آلاف وفي بغداد الف وفي القدس أربعة فقط . كما وجد في اليمن وفارس وتركستان ويقدر السائح اليهودي (بنيامين تودلا) عددهم في القرن السادس بحوالي / ٣٠٠ / ألف عدا من في المغرب .

ب) موقف الرسول والشرع الاسلامي من النميمين : كان على الرسول ﷺ منذ بدأ الدعوة للاسلام ان يحدد موقفه من الاديان الأخرى القائمة فاما الوثنيات والأديان المشركة فقد حاربها جهاراً وكسب الرسول ﷺ في السنوات الأخيرة من حياته كل أصحابها في أنحاء الجزيرة العربية . وأما أهل الكتاب من نصارى ويهود فقد كانت علاقته معهم مختلفة رغم قيامها على أساس وطيد ثابت من المحبة والتسامح ، فالنصارى ظلوا ذوي المقام الأول عند المسلمين .

أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى ملك الحبشة المسيحي لاجئين إليه فأحسن وفادتهم ورفض تسليمهم إلى القرشين حين طلبوهم . وكبار النصارى الذين دعاهم الرسول للاسلام ردوا عليه رداً حسناً ، وأهداه المقوقس صاحب مصر

جارية وبغلة . وانا لنجد صدى هذه العلائق الطيبة في القرآن الكريم
إذا جاء فيه :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بان
منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » كما أيد القرآن المبادئ الكبرى
في المسيحية .

وأما اليهود فقد كان لهم وضع آخر ، ذلك أنهم كرهوا هجرة الرسول
إلى يثرب التي ينزلون فيها ، فبدأوا يجادلون المسلمين الجدل العنيف ؛ ولما بدأ
ظهور الدولة الإسلامية أخذوا يكيدون لها ويتآمرون مع أعدائها : فكان
موقفهم عدائياً من المسلمين عقب هزيمة أحد وقد خانوهم في اللحظات
الحرجة من غزوة الخندق وثاروا على الرسول في حصونهم بمنطقة خيبر ،
ثم حاولوا إضافة الى ذلك قتله وتسميمه ولهذا أخرجهم من يثرب مرة بعد مرة
وحاربهم حتى أخضعهم . وانعكس ذلك العداء واضحاً في آيات القرآن
الكريم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »

ومع هذا فقد أمر المسلمون بحسن ومجادلة الكتابيين من يهود ونصارى
على السواء : فقد جاء في القرآن الكريم :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم
وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له
مسلمون » . وقد رويت عن النبي ﷺ أحاديث بحسن معاملة الكتابيين
منها « احفظوني في ذمتي » ومنها « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق
طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة ومن
قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة » .

وما جاء في القرآن الكريم سوى آية وحيدة بتكليف أهل الذمة « أن يعطوا الجزية عن يد » لأسباب أوضحها الفقهاء فيما بعد .

وتبعاً لهذه الروح كانت معاملة الراشدين لأهل الذمة معاملة في منتهى الود . فقد أمر أبو بكر جيوشه الذاهبة لفتح الشام بحسن معاملة الرهبان واحترام البيع (الاديرة والكنائس) كما قاد عمر بن الخطاب يهودياً شيخاً بنفسه فأعطاه من بيت المال لئلا يطلب صدقة الناس ، واشترى من الذميين أرضهم حين رأى اجلاءهم عن الجزيرة وأرصى أهل الشام والعراق بهم خيراً .

غير أن الذي يهمننا في عهد الراشدين ليست هذه المعاملات الفردية ولكن موقف الدولة الاسلامية جميعاً من تلك الكتل الكبيرة من الذميين الذين دخلوا في حوزتها بعد الفتح العربي الكبير . فقد اضطر عمر بن الخطاب أن يحدد علاقته معها تحديداً واضحاً وهذا ما أوجد « سياسة العهود » في الاسلام .

وقد وردت نصوص عديدة لعهود مختلفة منحها الرسول ﷺ أو الخليفة الثاني أو غيرهما لأهل أيلة أو أهل إيلياء (القدس) أو دمشق أو لأقباط مصر . . الخ وهي تحدد حقوق الذميين وواجباتهم في الدولة الاسلامية . وقد تعهدوا الفقهاء بالكثير من الشرح والذكر والتفصيل . وسواء صحت هذه العهود في خطوطها الكبرى أو في تفاصيلها أو لم تصح ، فإنها خلاصة تاريخ طويل من العلاقات بين الدول الاسلامية وبين مجموعة كبيرة من رعاياها غير المسلمين وهي تعين لنا مكان أهل الذمة الشرعي في الاسلام .

ويتلخص ما جاء في تلك العهود بأن للذميين حق الامان في الدولة الاسلامية (وله شروطه وقيوده) على نفوسهم وأموالهم وحق الحماية الدينية

في الاعتقاد وممارسة الشعائر . وحق السكن ومزاولة الاعمال المختلفة إلا أنهم مقيدون في تغيير الدين فلا تغيير الا للدخول في الاسلام ، ولا يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم ، وهناك خلاف كبير بين الفقهاء حول قتل المسلم بالذمي وحول الديات .

أما واجبات الذمي فهي دفع الجزية وعدم الاجتماع على قتال المسلمين وعدم قتل المسلم عن دينه وعدم قطع الطريق عليه أو قتله أو معونة المشركين عليه في قتال أو تجسس أو إيواء اعداء الدولة وعدم التعرض لكتاب الله أو نبيه أو للاسلام بما لا ينبغي

ح) **أهل الذمة والدولة الاسلامية** : برغم الصفة الدينية التي حملتها الدولة الاسلامية فانها في موقفها من الذميين لم تكن دولة دينية بمعنى الكلمة: ونذر أن نظرت اليهم الا كمواطنين ورعاياها :

فأما عن موقف الدولة من الكنيسة فانها لم تعترف بها على ما يظهر الا في أواخر القرن الاول للهجرة ، ولكن منذ ذلك الوقت عادت للبطاركة مكانتهم الرسمية ولرؤساء اليهود كذلك . فصار الذميون ينتخبون رؤساءهم بانفسهم وكان الخلفاء أحيانا يصدرون المراسيم باقرار انتخابهم كأنهم موظفون حكوميون كما كانوا يعتبرونهم الممثلين الرسميين لطوائفهم . وجاء وقت كان فيه الناس يقفون في دار الخلافة ببغداد لحاحام اليهود الاكبر الملقب « بسيدنا » كما كان يلقب الحاخام في القاهرة الفاطمية بسيد السادات « سارها تساريم » وتركزت الدولة لهؤلاء الرؤساء الدينيين حق القضاء بين رعاياهم كما كانت هي بدورها تفصل في خصوماتهم .

وقد استخدمت الدولة في وظائفها أهل الذمة على نطاق واسع أحيانا : ولئن كان عمر بن الخطاب قد كره استخدام اليهود فان الخلفاء من بعده قد

استعملوا الذمين في مختلف وظائف الدولة حتى الوزارة . وقد اشتهر من موظفي الذمة في العهد الاموي سرجون الرومي ، كاتب معاوية ، واثناسيوس الرهاوي رئيس الدواوين في مصر أيام عبد الملك والذي كان ينعت بالكاتب الافخم ، وأما في العهد العباسي فنجد يهودياً اسمه موسى يكون أحد اثنين يوليه المنصور الخراج ، ونجد عدداً كبيراً من الكتّاب النصاري في بلاط الخليفة ، كما نجد منهم بعض الوزراء كعبدون بن صاعد ، ونصر بن هارون (القرن الرابع) وفعل مثل ذلك الفاطميون فمن وزراءهم عيسى بن نسطورس النصراني مثلاً ومن كتابهم منشأ اليهودي . وظل العرف بذلك جارياً في العهد الايوبي ثم المملوكي . على ان هذا لم يمنع رفض بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، والمتوكل استخدام أهل الذمة كما أنه من المؤكد تماماً أنه لم يتول أحد منهم وظيفة الجباية والكتابة في المغرب والاندلس .

وأما في الضرائب فقد كانت الجزية أهم ما يجبي من الذمين ، وقد اختلفت مقاديرها اختلافاً كبيراً حسب العصور والاماكن ، واختلفت القواعد في فرضها والاعفاء منها ، كما اختلف نوعها ، فكانت تدفع نقداً أو غللاً . وقد كان الذميون يحتملون مع المسلمين أعباء ضرائب أخرى متعددة : على الارض والحوانيت وغير ذلك . على ان المضايقات المالية كانت تستعمل كنوع من العقاب لبعض الذمين . وقد أبقي بعض الامويين الجزية على الذمة كتدبير مالي للحفاظ على موارد الخزينة .

د) أهل الذمة في المجتمع الاسلامي : برغم الموقف الشرعي السمع الواضح فان علاقات الذمين بالمجتمع الاسلامي لم تقتص على نسق واحد خلال العهد الاسلامي الطويل وفي بقاع الاسلام المختلفة لانها كانت

تتأثر أحياناً بالاضطهاد الداخلي أو بأهواء الحكام أو بالأحداث الخارجية . وكثير من القيود أو الاضطهادات إنما كانت تظهر بفترة وجيزة ثم تلغى كما حدث في عهد الرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله ولم يكن ذلك إلا في عصور الانحطاط بعد الحروب الصليبية ، على أن حسن المعاملة كانت هي الصفة الدائمة . وقد تمتع بها بصورة خاصة منذ الأيام الأولى للحكم الإسلامي ، النصراني من العرب كبنو تغلب فكان الاضطهاد الشاعري يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليب ذهبي ولحيته تقطر خيراً فلا يمنع من ذلك !

وبالرغم مما تذكره العهود المنقولة من عدم السماح للذميّين ببناء الكنائس الجديدة في الإسلام ، فالذي يظهر من استقراء الحوادث التاريخية أن الكنائس ظلت تبنى وظل للذمة بصورة خاصة حق الاحتفاظ بما كانت منها قائماً زمن الفتح وحق ترميمها . وقد يبينها بعض المسلمين كالذي كان من خالد القسري سنة ١٠٥ هـ في إقامة كنيسة لأمه في الكوفة . وليس ثمة من إشارة أو قرار لمنع استحداث الكنائس في العهد الإسلامي حتى أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأول من تشدد في ذلك المتوكل (أواسط القرن الثالث هـ) ولم ينتقل الأمر إلى العامة وتبدأ بعض الاعتداءات إلا بعد ذلك وفي فترات الهياج الشعبي فقط .

وقد ذكروا أن عهود الفتح تمنع الذميّين من إظهار الشعائر الدينية عامة في أمصار المسلمين ، إلا أنه حتى بعض أئمة الفقهاء لم يتشددوا في ذلك لاسيما في البلاد التي يكثر فيها الذمة . وكانت النواقيس تقرر والمواكب الدينية تسير بالرايات والصلبان والمجامر دون اعتراض إلى أن يبدو للخليفة أو الأمير أو الحاكم المحلي أن يمنع ذلك . بل أن تكرر أعمال المنع

من وقت لآخر دليل على أن العادة جرت بالتسامح في ذلك . ولدينا أوصاف كثيرة لاحتفالات الاعياد النصرانية خاصة في مصر وفي العراق وفارس . وكانت هذه الاعياد أحياناً فرصة لهو لجميع الناس .

على أن الذميين تميزوا في معظم العهود بنوع معين من اللباس وبوضع منطقة أو نحوها ، وقد كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم في العهد الاسلامي الاول ، ولعل أول من بدأ الأمر به عمر بن عبد العزيز ثم سمع الناس عن ملابس الذميين زمن الرشيد ثم المتوكل بغية عدم التشبه بالمسلمين في اللباس والركوب . ثم سمع الناس بذلك في أوامر الحاكم بأمر الله الفاطمي وفي عهد السلاجقة وآل زنكي .

وقد تخصص الذميون ببعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فإذا استثنينا جهمتهم التي كانت تعمل في جميع الأعمال العادية من زراعة وصناعة وتجارة فإن معظم الصيرفة والجهابذة في الشام والعراق كانوا من اليهود . كما احتكر اليهود تجارة الرقيق والحصيان بين أوروبا والحبشة وتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي . أما الطب فكان مهنة نصرانية . والكثرة العظمى من أطباء الخلفاء كانوا من النصارى وكذلك معظم التراجم في العصر العباسي الأول كما كان منهم الأدباء والشعراء والعلماء .

من طبقات المجتمع العربي الاسلامي ٣ - الرقيق

الرق في اللغة الضعف ، وفي اصطلاح الفقهاء « عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر » والرقيق كلمة عامة تطلق على من فقد حرته من الناس وأصبح ملك غيره . ولكنهم كانوا يدعون المسترق الأبيض بملوكاً والأسود عبداً، والنساء البيض جوارى، والسود إماء، وهناك كذلك طائفة الحصيان .

(١) الرق في الاسلام : لم يبلغ الاسلام نظام الرق الذي عرفته جميع الأمم قبل الاسلام وبعده وظل قائماً في كل مكان حتى ما قبل قرن من الزمن . إلا أنه لم يهمل الارقاء ، فاعتبر حرية الانسان هي الاصل ، والرق أمراً عارضاً، ولهذا حرم استرقاق المسلم المولود من أبوين حرين، واشترط في استرقاق غير المسلم أن يؤسر في حرب شرعية بعد الانذار والاشهار. وعمل على مساعدة الارقاء في التحرر بأوجه كثيرة: ففك الرقاب يأتي كفارة عن اليمين الحانث أو عن الافطار في رمضان أو وفاء بنذر أو تقرباً إلى الله أو تكفيراً عن ذنب أو التماساً للمثوبة .

كما خصص الاسلام ثمن $\frac{1}{8}$ أموال الزكاة لفك الرقاب .

وقد سهل الاسلام سبيل التحرر فكان للعبد أن يشتري نفسه من سيده على مبلغ من المال يؤديه في أجل محدود (وهذه هي المكاتبه) وقد أجمع الفقهاء على أنها مستحبة ويراها بعضهم واجبة متى دعا العبد سيده إليها . ويمكن تحرير العبد (بالتدبير) وهي أن يوصي السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته .

وأوصى الاسلام أخيراً بحسن معاملة الرقيق وقد جاء في القرآن الكريم :
« وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى ... وما ملكت أيمانكم ، إن الله
لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . وجاء في الحديث الشريف : « اتقوا الله
فيما ملكت أيمانكم » « إخوانكم خولكم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت
أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه بما يأكل وليلبسه بما يلبس
ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فاعينوهم » . وكانت آخر
وصاياه ﷺ « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقد روي عن علي بن أبي طالب
قوله : « اني لأستحي أن أستعبد إنساناً يقول ربي الله » . وقد كان من
اختصاص القضاة الحكم بتحرير العبد متى ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية
بالإضافة الى أن السيد لا يملك بيع جاريته ولا هبتها متى صارت « أم ولد »
منه يعترف به . ومتى توفي أضحت حرة . وتبين قيمة هذه الاحكام
اذا قورنت بما كانت عليه أحوال الرقيق لدى جميع الامم في مختلف
العصور لاسيما لدى اليونان والرومان ولدى الغرب في القرون الوسطى .

ويقول الدكتور امين الحولي :

— مثالية القرآن تحرم الرق وتعدّه سوءة من سوءات المجتمع .

— المدينة الحديثة تحرم الرق قولاً وتمارسه فعلاً .

— الاسلام سبق هيئة الامم في تنظيم حقوق الانسان

— لقد كان الرق واقعاً قديماً متأسلاً ، رأى العرب من حولهم مارأوا ،

وعرف العرب منه في جزيرتهم ما عرفوا . . وسلك القرآن نحوه مسلكه

الثابت الواضح من التدبير الواقعي : يعترف بالواقع المشهود الى حد ما .

ثم يمضي يلفظ قسوته ، ويصلح بالتدريج اخطاءه . . ثم ينبه الى المثل

الراقي ويغري الانسانية منه بكل ما تمكنها به ظروفها ويعينها عليه
تقدمها ورقيا . . .

وفي اطار من نفعات مثالية القرآن ، تتدرج الواقعية في مقاومة الرق ،
والضجر به ، والعمل للقضاء عليه ، فبعد البحث الديني على فك الرقاب ،
ووعد الثواب الاخروي الكبير عليه ، في معنى يحسم المماثلة البشرية بين
السادة والمسودين اذ تقول التوصية الدينية ان من يفك رقبة بالعتق يخلص
من العذاب .. ويوجب الدين تحرير الرقاب في اعمال كثيرة يعرض لها
الناس في معاملاتهم الحيوية ، وعباداتهم الدينية ، فهو يوجب تحرير الرقبة
على انه جزاء متعين ، عند الافطار عمداً في رمضان مادام عند المفطر
رقاب محكومة .. وهو كذلك جزاء متعين في احوال من عقوبة القتل ،
وفي ضرب من الاختلاف بين الزوجين بما يسمى الظهار . . كما ان تحرير
الرقبة جزاء تخيري عند الحنث باليمين .. الخ ثم يمتد التدبير العملي لتحرير
الرقاب الى نظام عام يلزم الدولة برصد اعتماد في ميزانيتها من مورد ثابت
هو الزكاة ، يصرف منها ١٢،٥ ٪ لتحرير الرقاب كما هو نص القرآن ..

وهكذا تدرجت الواقعية المعترفة بالرق الى بث الكراهية لهذا الرق
بقوة وعنف .. ثم الى الترويج في التحرير .. ثم الى الزام الافراد به .. ثم
الى الزام الدولة ، في نظام مالي ثابت .. فبدأت بذلك كله الى مثالية تنكر
الرق وتحرمه وتبتر جذوره .

ب (احوال الرقيق في العصور الاسلامية :

كان الاسر والشراء ووفاء الدين هي مصادر الرق في العهد الجاهلي ، ثم
أصبح الاسر خلال الفتوح الاسلامية هو المصدر الرئيسي وان ظل الشراء
مصدراً آخر ، وأضيف اليه أن بعض خراج الولايات كان يرسل عبيداً !

ولم يكن الرقيق كثير العدد عند العرب الجاهليين ولا في صدر الاسلام ، ولكنه كثر كثرة هائلة أثناء الفتوح الكبرى والفتوح التي تلتها ، فأي أسير وقع في يد المسلمين من الكفار المحاربين صار غنيمة ، واعتبر مالا يوزع على المحاربين بالتخمين . وقد غالى بعض القواد فكان يستعبد كل من تقع يده عليه من الاعداء محارباً أو غير محارب حتى النساء . وهكذا : عاد موسى بن نصير من الاندلس بثلاثمائة الف رأس من السبي بعث خمسمائة الى الوليد بن عبد الملك ولم يسمع بسبي كهذا السبي ، وبيع الاسير بدرهم في واقعة بالاندلس سنة ٩١ هـ بينما يبيع البعير بخمسة دراهم . وكان ينادى على الاسرى عشرة عشرة بعد معركة عمورية زمن المعتصم وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم . وبلغت غنائم صاحب غزنة (في القرن الخامس هـ) مائة الف نفس من الهند ! وكثر الرقيق بهذا الشكل فدخل كل بيت من بلاطات الخلفاء الى بيوت كبراء الدولة وتجارها والى أوساط الناس والجند . وبينما كان لدى الرشيد الف جارية عدا الخدم ومن اليهم جعل المعتصم من ماله الى الاتراك جيشاً يستند اليه . وكذلك فعل الايوبيون . وكان من الامور العادية أن يوجد لدى عامة الجند عبد أو أكثر ولا يعد الرجل غنياً ما لم يقتن بعض العبيد في داره وخدمته .

وكان للنخاسة أسواق خاصة في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى أحياناً دار الرقيق كما في بغداد . وعليها مشرف حكومي هو « قيم الرقيق » واشتهر من اسواق الرقيق الابيض سموقند . وكان للنخاسين عملاؤهم وشهرتهم وقوافلهم ، كما كانت النخاسة صنعة قائمة بذاتها . وأهم من كان يعمل بها في البحر الابيض المتوسط : اليهود ويدعون الرهانية . اما اثاث الرقيق فكانت تختلف باختلاف جنسه وعمره ونوعه من ذكر او انثى وقابلياته للعمل وكثرته او قلته .

وقد تنوعت اجناس الرقيق في الاسلام بتنوع البلاد التي كان يؤتى به منها . فهناك الزوج السودان والحبش ومعظمهم من شرقي افريقيا ، واوسطها وهناك الترك من مناطق تركستان ، والصقالبة من روسيا وقد بلغ من شهرتهم في الاندلس ان اصبحت كلمة صقلبي تعني العبد ومن هنا دخلت اللغات الاجنبية كلمة Slave و Esclavage . هذا عدا الفرس من الارقاء والبزبر والروم والهند والشراكسة والارمن وعدا المولدين .

وقد اخذ المسلمون عن البيزنطيين عادة استخدام الحصيان من الرقيق مع ان الشرع الاسلامي في جانب تحريمهم . والحصاء ليست عادة عربية بل هي شرقية . وكانت شائعة في العراق كذلك زمن الآشوريين والبابليين . وقد نهى الرسول عليه السلام عن الحصاء فقال : « خصاء أمتي الصوم . والصوم وجاء . وللخصاء اغراض (البيهقي في المحاسن والمساوي) ابرزها استخدام الحصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الحصيان في دورهم ، وكان معاوية بن ابي سفيان اول من اتخذ الحصيان لخدمته (السيوطي : تاريخ الخلفاء) ويذكر الجاحظ ان الحصي كان منتشرأ بين العبيد والاحرار وبين العرب والعجم واغلب الحصيان كانوا من الصقالبة وعمليات الجب كانت تجري لهم في فرنسا غالبا يقوم بها اليهود ليربحوا اثمانهم الغالية .

واشتهر كل نوع من الرقيق بعمل ، فالزواج كانوا يعملون في اقسى الاعمال وفي الزراعة حتى لقد تجمعت منهم جموع كبرى في السواد ثارت فيما بين سنتي ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ ثورة الزنج المعروفة وخربت البصرة . واستعمل الترك والصقالبة للخدمة من البيوت لحسن قوامهم وهيئتهم ومن هنا تسرب الترك من بلاطات الخلفاء ، الى الجيش والقيادة واستولوا على

الدولة ، وعرف الهنود بالصناعات ، على ان اهم عمل قام به الرقيق وكان له اثره العميق في التاريخ الاسلامي ، هو دخول الارقاء في العمل العسكري واذا كان اول من استعملهم في ذلك هو المعتصم فأول من افسح لهم المجال للجمع بين القيادة والادارة هو الخليفة الواثق فتسلطوا على الكرسي الخلافي واقتتلوا معه ومن اجله ، ولم يقتصر ذلك على الخلافة العباسية بل حدث مثل ذلك في الخلافة الفاطمية وحدث ما في الاندلس . واستطاع المماليك عن طريق شجرة الدر المملوكة ، وزوجة آخر سلاطين الأيوبيين ، أن يستأثروا دون بني أيوب بحكم الدولة الاسلامية فيما بين مصر والشام والعراق والحجاز وبقي الأمر في أيديهم ، يتداولونه بنوع غريب من الوراثة ما يزيد عن ثلاثة قرون . حتى انتهى السلطان سليم العثماني حكمهم في سنة ١٥١٧ .

ج (الجوارى) : (الاماء ، السراري ، السبايا ، القيان) : هن الاناث من الرقيق وإنما نفرد لهن بعض البحث لما كان لهن من شأن في التاريخ الاسلامي وأثر في الحضارة الاسلامية .

وقد كثرت الجوارى في العالم الاسلامي منذ أيام الفتوح الأولى لأن الفاتحين اعتبروا السبايا من النساء غنيمَةً أيضاً فتقاسموهن ثم شاع شراء الجوارى وتهادين وكثر فيهن امهات الاولاد حتى دخلن كل بيت وقال عربي مرة :

إن أولاد السراري كثرت يارب فينا
رب أدخلني بلداً لا أرى فيها هجيناً

غير أن المهجناء كثروا في العصر العباسي حتى إننا لا نجد بين خلفاء بني العباس جميعاً من ولد من أبوين عربيين سوى ثلاثة : السفاح والمهدي والأمين ، وأمهات باقي الخلفاء من الجوارى : فأم المنصور سلامة البربرية ، وأم الرشيد الخيزران من خرشنه وأم المأمون فارسية تدعى مراجل ، وأم المعتصم تركية اسمها

ماردة ، وأم المستعين مقالة وأم المستضيء أرمنية . وبهذا نستطيع أن نقيس مقدار تغلغل . رري في البيت الاسلامي . على أنهم كن يتمتعن بحريتهن المطلقة في عقيدتهن وتقاليدهن الاجتماعية . وكثير منهن كن يحتفظن برموزهن الدينية على صدورهن ويعيدن في أعيادهن .

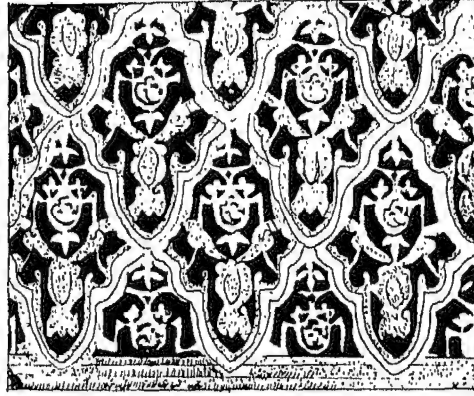
وقد اختلفت أجناس الجوارى وتفرّد كل جنس بزايا وألفت في ذلك الكتب فالهنديات عرفن بالوداعة ، ومولدات المدينة بالليل للسرور والغناء ، والوبريات بكثرة النسل ، والسودانيات بالرقص ، والشركسيات والروميات بالجمال ... الخ .

واستغل النخاسون ميل الناس لاقتناء الجوارى فاختدوا يعنون بهن العناية التي تزيد في قيمتهن أضعافاً مضاعفة : كانوا يعلمونهن فنون الأدب والحديث ورواية الشعر أو تلاوة القرآن وقوله . فان كانت الجارية على شيء من حسن الصوت تعلمت الغناء والضرب على بعض الآلات الموسيقية . فكان هذا باباً من أبواب الكسب الواسعة إذ ذاك ، ومن اشتهر بتعليم الجوارى ابراهيم الموصلى المغني الذي ألف شركة لهذا العمل ، فربما ابتاع الجارية بمائة دينار فاذا علمها باعها بألف ، وقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار فلما علمها ابراهيم المهدي الغناء باعها بثلاثة آلاف دينار . واشترى الرشيد جارية بتسعة وثلاثين ألف دينار . واشهر هؤلاء القيان عريب المغنية وسلامة ودنانير في الشرق وولادة في الاندلس .

وقد كان للجوارى أثرهن الكبير في الحياة الاسلامية : فقد كن ذوات أثر أحياناً في سياسة الدولة فالخيزران أم المهادي غضبت عليه حين أراد الحد من نفوذها وعملت على التخلص منه ؛ وشغب التركية أم المقتدر كانت المتصرفة بالدولة تصدر المراسيم وتجلس للمظالم حتى عرفت بالسيادة . وأم

المستعين الصقلية كانت تتصرف مع اثنين من الخدم الاتراك بكل ما يريد
ليبت المال !

وقد برز أثر الجوارى في مزج الدماء والخلط بين الاجناس المختلفة
وبين التقاليد والعادات الاجتماعية المختلفة أيضاً . هذا إلى أنهن نشرن الشعور
البديعي في المجتمع الاسلامي وتذوق الجمال والظرف وأنواع البدع (المودة)
كالعصائب والزناير وتجميع الشعر . كما عملن على تقدم فن الغناء ونشره
وكان لهن أثرهن في الايجاء للادباء وفن الانتاج الادبي .



من طبقات المجتمع العربي الاسلامي ٤- المرأة في الاسلام

٢ (المرأة العربية في الجاهلية : من الخطأ إعطاء حكم مطلق عن المرأة العربية في الجاهلية لأن مكانها الاجتماعية كانت تختلف باختلاف الزمن ونوع الحياة ، والنسب والمواهب . النخ على انا نستطيع القول ان المرأة كانت تعطى بصورة عامة المسكان الثاني في المجتمع البدوي لان القيم الاجتماعية عند الاعراب مبنية على أسس لا يمكن للمرأة بحكم عوامل كثيرة فيزيولوجية واجتماعية أن تحوزها . فكان عمل النساء دوماً الاحتطاب وجمع المال وحوك الثياب والحباء . فاذا كانت الحرب خرجن يشجعن الرجال وينقرن على الدف ويضمندن الجراح . ومتى امتازت امرأة بشيء مما يميز الرجال ارتفعت مكانتها كالرجل وهكذا وجدت بين نساء العرب شاعرات وتاجرات وكاهنات ذوات شرف وسيادة وشهرة كزرقاء اليمامة ... وقد ارتقى مقام المرأة في المجتمع العربي الحضري حتى الى الوصول الى الحكم في الناس كبلقيس ملكة سبأ .

وقد اشتركت عوامل دينية من جهة واقتصادية من جهة أخرى للخط من قيمة المرأة في بعض المجتمعات الجاهلية حتى كان الناس يكرهون ولادة البنات قال تعالى : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . ألا ساء ما يحكمون » . ووصل الامر بهذا الكره الى ظهور « الواد » عند العرب : وهو ظاهرة لم تكن عامة في القبائل ولكن في

بعضها فقط ولدى فقراء القبيلة وحدهم وفي سني القحط والاملاق فحسب .
ويمكن ان نفهم هذا الانحطاط في قيمة المرأة اذا تذكرنا أن بين عقائد
الجاهلية ما كان يجعل الانثى من خلق الشيطان — كما يلاحظ ذلك من
آيات القرآن الكريم — ولعل سبب اللجوء احياناً فادرة الى الواد هو تعرض
المجتمع الجاهلي تعرضاً شديداً للقحط والفقر وضرورة تحديد النسل مع فقر
البيئة . وما كان الواد خوفاً من العار كما يقولون ، ولكن « ... خشية
املاق » كما جاء في القرآن الكريم .

وكانت المرأة الجاهلية في بعض القبائل تحرم الارث والمهر وقد قالوا :
« لا يرثن الا من يحمل السيف » بل قد يرثها الوارث كما يرث المتاع .
ولم يكونوا الى هذا كله يسوون بين الرجل والمرأة في الدية والدماء .

ب (الاسلام والمرأة : أول ما أعطاه الاسلام للمرأة هو المساواة مع الرجل :
قال تعالى « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقال « هو الذي خلقكم من
نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقد تكررت معاني هذه
الآيات في عدة سور .

وحمل الاسلام على من يحزن لولادة الانثى كما حرم الواد نهائياً
« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وايحكم ان قتلهم كان
خطئاً كبيراً » .

واعطى الاسلام المرأة حصة من الميراث فقضى لها نصيباً فيه هو نصف نصيب
الرجل . « وللذكر مثل حظ الانثيين » وجعل المهر حقاً خالصاً لها
« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » أمر بحسن معاملة المرأة « وعاشروهن بالمعروف » .
ولعل أهم ما منحه الاسلام للمرأة وسبق به أي تشريع عالمي الى
اليوم أنه أعطاها الشخصية الحقوقية الكاملة : أي حق التصرف بما تملك

سواء كانت زوجاً أو أماً أو بنتاً : وسوى الشرع بينها وبين الرجل في الولاية على المال والعقود حتى لقد أجاز لها بعض الفقهاء ولاية القضاء أيضاً . وجعل الشرع لها حق قبول الزواج ورفضه كما أعطاهم حق الطلاق إذا اشترطته . وأوصى بها وبحسن معاملتها كما « وبالوالدين احساناً » وكزوج لأنها سكن الرجل ، وكابنة اذ جعل البّر بها من البر بالله . وأما اباحة الطلاق للمسلم بالرغم من الضروريات الاجتماعية التي تبرزه فمن المعروف شرعاً أنه « أبغض الحلال الى الله الطلاق . » كما وقّعه الاسلام بشروط وقيود كثيرة تجعل منه الحل الاخير حين لا يكون من الفراق بد . وأما قضية تعدد الزوجات الى أربعة فواضح من منطوق الآية الكريمة التي سمحت بذلك أن المقصود بها المساواة الاجتماعية للايامى ، كما أن هذا التعدد مقيد من جهة أخرى بضرورة « العدل » بين الزوجات ، هذا « العدل » الذي نص القرآن الكريم نفسه على عدم إمكانه . فكأنه جعل ذلك بمنوعاً إلا في حالات وظروف معينة .

ج (المرأة في صدر الاسلام : بين الأوضاع الجاهلية التي جاهد الرسول ﷺ جهاداً كبيراً لقلبها : وضع المرأة . وما أوضح الشرع لها من مكانة وحقوق ، بين الرسول ذلك بالمثل الطيب والسنة الملمزة ، فقد عرف عنه بين الصحابة أنه كان لين الجانب مع زوجاته ، سهل المقادة . حتى كن يراجعنه في كثير من أمره وصرن في ذلك قدوة لباقي النساء فاذا انكر زوج حق زوجته في مراجعة — كما فعل مرة عمر بن الخطاب — احتجبت عليه بعمل الرسول فانكسر وسكت !

وأثر عن الرسول وصايا كثيرة بالمرأة أما كانت أم زوجاً أم بنتاً كما أوصى بها جنساً : جاءه رجل يسأله عن أحق الناس بحسن معاملته فقال أمك وكرر ذلك ثلاث مرات . وكان يقول الجنة تحت أقدام الامهات . خيركم

خيركم لأهله . وقال أيضاً : « ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء » كما قال : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ولقد كان لهذا كله أثره العميق في حسن موقف المرأة في صدر الاسلام بما شجعهن على المطالبة بأجر كأجر الرجل في الجهاد لقاء قيامهن بالبيت . ولقد اجتمعت النساء وانتدبن عنهن إحداهن أسماء بنت يزيد الانصارية فأنت الرسول تسأله عن ذلك فأقر لهن بذلك الاجر ! وأثر ذلك ثمرته في التسوية بين الرجل والمرأة حتى قالت عائشة ام المؤمنين « إنما النساء شقائق الرجال » فلم ينكر عليها ذلك أحد .

وكانت أمهات المؤمنين زعيمات النساء في المكانة بعد وفاة النبي ، وكانت رعاية الخلفاء الراشدين لهن تعزز من مكانة المرأة في الاسلام كما كانت معرفتهن بالرسول وبالدين تزيد في تلك المكانة . ولقد روت عائشة حديث رسول الله في حياته حتى قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وكانت مرجع الناس بعد وفاته ، رجع اليها أبو بكر وعمر وعثمان في دقائق المسائل . كما هرع الناس الى أمهات المؤمنين أيام الفتنة على عثمان يسألونهن التدخل في السياسة ، وحمل الخليفة على تغيير خطته .

وإذا نحن عددنا شهيرات النساء في صدر الاسلام فلاشك أنا نعد في مقدمتهن أمهات المؤمنين : خديجة الكبرى بنت خويلد الاسدي التي يدين لها الاسلام بالشيء الكثير ، وعائشة الصديقة بنت أبي بكر التي كانت الى علمها وفضلها تتزعم حزباً كبيراً من الصحابة أيام عثمان وعلي . وهناك حفصة بنت عمر الفاروق وزينب بنت خزيمة التي كانت تكنى في الجاهلية بأم المساكين . أما باقي النساء فقد برز منهن أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين وأم عبد الله بن الزبير ، وليلى الاخيلية ، فارسة المعارك ،

والحنساء الشاعرة التي تنشد النبي شعرها والتي قالت حين بلغها مصرع أولادها الاربعة في الجهاد : « الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم » .

(د) المرأة في العصر الاموي : احتفظت المرأة العربية أيام الامويين بمكانتها الاجتماعية الفضلى الا في الاماكن التي كثر فيها الجوارى وهات السبي ، واختلطت تقاليد العرب فيها بتقاليد الاعاجم كالعراق مثلاً فقد ظهر بعض الموان في امرها . ولهذا فاننا نظل نعثر في العصر الاموي على نماذج المرأة التي وجدناها في صدر الاسلام وما تتميز به من استقلال في الرأي واختلاط بالناس وعلم وأدب وبجالس حافلة . فيسون زوجة معاوية فضلت على قصر الحضراء في الشام خيمتها في البادية وسكينة بنت الحسين ، كانت دارها (صالوناً) للادباء والشعر . . السخ على أن الغزل الذي انقطع زمن الراشدين وعاقب عليه عمر الفاروق انتشر انتشاراً واسعاً حتى لم يكن كبار العلماء في مدينة الرسول ليجدوا حرجاً في سماعه وروايته . وظهر في الناس ذلك الحب البريء الذي اشتهر في بني عذرة ونسب اليهم .

ومن مشاهير النساء في العصر الاموي (عقيلتا قريش) سكينة بنت الحسين حفيدة النبي وعائشة بنت طلحة ، الصحابي المعروف ، وكلتاها كانتا على جمال رائع وأدب غزير ورواية للشعر ودار كل منهما ندوة تجالسان فيها الاجلة من قريش والمبرزين من الشعراء . وهناك أم البنين ، زوجة عبد الملك بن مروان وقد أنبت الحجاج على قسوته ، وأم الخير رابعة العدوية البصرية من أوائل المتصوفات والمتصوفين في الاسلام . هذا عدا عزة وبثينة ويلي ، من شبب بهن شعراء الغزل المشهورون في العهد الاموي .

(هـ) المرأة في العصر العباسي (الحجاب) : أدى تفشي الترف والفساد

في العصور العباسية وكثرة اختلاط الامم وعاداتها وكثرة الجواري والسراري ، الى تدني مكانة المرأة تدنياً مستمراً . ففي مطلع أيام العباسيين لم يكن هناك من فرق بين المرأة الأموية والعباسية فقد استمرت النساء ، من الطبقات العليا أو العامة على ما كان لهن من حرية وقيمة ونفوذ فيناظرون الرجال في الادب والشعر ويرافقهم الى الحرب ويباريهم في الموسيقى والغناء والنظم . على أن نظرة الناس الى المرأة كانت تتغير تغيراً مستمراً حتى إذا كانت أيام البويهيين والسلاجقة أضحت نظرة مهينة رافقت أفكار الناس حتى نهاية عصور الانحطاط ومطلع العصر الحديث ، وتعكس لنا قصص ألف ليلة وليلة تلك النظرة السيئة إذ تجعل من المرأة مثال المكر والدسائس ومستودع الفساد والافكار السافلة . وقد جاء في رسالة بعث بها صديق (من القرن الرابع الهجري) لصديقه يعزيه بابنته : « انت الى التهنئة أقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكروهات . ونحن في زمن إذا قدم أحدنا فيه على الحرمة فقد استكمل النعمة وإذا زف كريمته الى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر » ! وتمثلت هذه النظرة لدى أبي العلاء المعري مثلاً من المفكرين وفي الامثال والحكم والقصص التي أخذ يتناقلها الناس في التحذير من المرأة وسوء سريرتها في تلك العصور . وكان من لوازم هذه النظرة المنحطة أن عزلت المرأة شيئاً فشيئاً عن المجتمع ونشأ بذلك الحجاب .

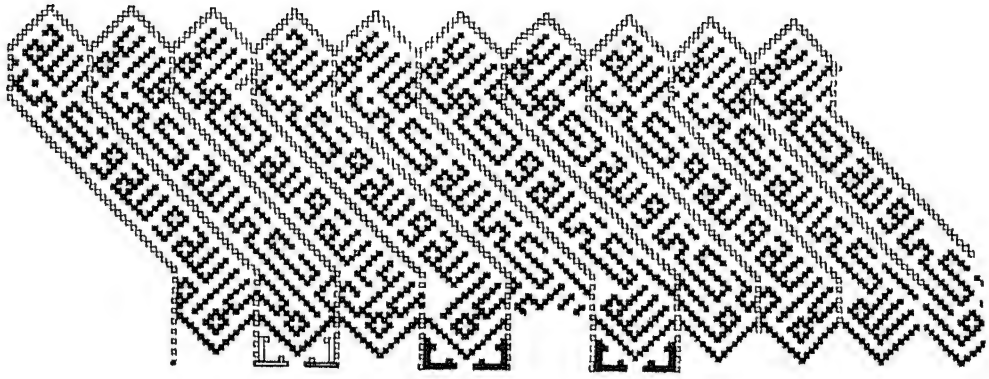
والحجاب بمعنى ستر الوجه عادة قديمة في الناس ، عرفها الرومان واليونان وعرفها الغرب في العصور الوسطى . كما عرفها العرب في الجاهلية فكان لديهم النصف ، الذي يستر نصف الوجه ، والخمار الذي يغطي الوجه ، الا أنه كان من علامات الشرف والنبل ولم يكن عاماً في النساء ، وقد نزل الوحي بحجاب امهات المؤمنين لأنهن لسن « كأحد من النساء » أما المؤمنات فقد أمرن بأن يضربن بخمرهن ولا يبدين زينتهن ، إلا للرجال الذين حددهم

الشرع، وهكذا رسم الدين آداب الظهور في المجتمع . واستمر الامر على ذلك في صدر الاسلام وفي العهد الاموي، وتحجبت الحرائر من النساء في العهد العباسي تمييزاً لهن عن الجوارى ولأنهن أرفع من ان تقتحمهن الاعين، وتطور هذا الحجاب الى الشكل الذي سارت عليه كثير من المجتمعات الاسلامية إلى عصر متأخر . ولا يزال في بعضها .

أما الحجاب بمعنى عزل النساء عن المجتمع ومنعهن من مخالطة الرجل فانه لم يكن موجوداً في الجاهلية ولا عرفه العرب خلال عهد الراشدين . وأول ظاهرة من هذا النوع ظهرت على يد امير مكة (خالد القسري) في خلافة سليمان بن عبد الملك فقد فرق بين الرجال والنساء في الطواف حول الكعبة . وقد اقتبس العرب هذه العادة عن الفرس وتفشيت بين المسلمين في أواخر العهد الاموي ، فلما كانت العصور العباسية وشاعت المفاصد الخلقية وكثرت الأفكار السيئة عن المرأة جعل الناس من الحجاب ضماناً للفتنة وغالوا فيه مع تقدم عصور الانحطاط فمنعت المرأة من العمل حتى كان من الفخر أنها لا تخرج من بيتها إلا إلى القبر وحرمت من العلم للدرجة التي آمنت بها أن حبسها من تعاليم الدين وحتى أضحي الحجاب سجوناً حبس نصف المجتمع الاسلامي بطوعه وراء الجدران وحصر عملهن بأمور البيت وتربية الاولاد والعناية بالزوج .

ومن شهيرات النساء في العهد العباسي : الحيزران زوج المهدي وكانت أول امرأة تدخلت في سياسة الدولة . وزبيدة زوج الرشيد وكانت الى علمها وأدبها تزعم الحزب العربي في البلاط وتبتكر مع عليّة بنت المهدي البدع (المودة) للنساء . وهناك كذلك (بوران) زوجة المأمون . والسيدة (شغب) أم المقتدر التي جلست للمظالم ، (واطر الندى) بنت خمارويه التي أفقر جهازها الرائع الدولة الطولونية . هذا إلى (شهدة) الكاتبة التي برزت في القرن السادس وكانت تحاضر في بغداد بالتاريخ والشعر ومعاصرتها أم المؤيد زينب وهي من أشهر الفقهاء ، وثقية بنت أبي الفرج الشاعرة المحدثّة في عصر صلاح الدين الأيوبي .

لباس المرأة : تطور لباس المرأة وتنوع وتعددت أشكاله ، واختلفت أثمانه باختلاف العصور الإسلامية ، والبلدان ؛ ووضع النساء الاجتماعي والغنى المادي . وهو أمر طبيعي ، فلا يمكن أن يصلح لباس معين ، لجميع المناطق المناخية ولا لجميع الفصول ، كما لا يمكن توحيد الزي . ونوع القماش والوصف الذي نعطيه هو وصف عام ، يشذ في كثير من الحالات التي لا يمكن أن تخص . وكانت نساء الجاهلية بشكل عام تلبس قميصاً أو سترة مفتوحة من الصدر . وفي الإسلام ، أوصى الرسول عليه السلام باستعمال العباءة الطويلة عند خروج النساء من بيوتهن ، وصرن يلبسن فوق القميص سترة ضيقة في الشتاء لتساعدهن على مقاومة البرد ، وقد تطورت العباءة الخارجية في العصر العباسي وصارت بأشكال مختلفة ، ووصلت إلينا على الشكل الذي نراه عند العراقيات أو عند الشاميات ، أو عند المصريات أو عند المغربيات . والنساء منذ خلقن يملن إلى الزينة ، وقد أعطاهن الاسلام كل الحرية في اتخاذ الزينة وكن يتباهين بأفخر اللباس وأجمل الزينة وأطيب العطر ، فلقد روي أن أخت الرشيد ابتكرت « موضة » هي اتخاذ غطاء للرأس مرصعاً بالجواهر ومحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، وان زبيدة زوجته ، اتخذت المناطق (الزنانير) والنعال المرصعة بالجواهر ، واشتوت ثوباً من الحرير الرفيع الموشى بخيوط الذهب ، يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، وإن جهاز قطر الندى ابنة خمارويه حوى « ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته » وأفقر هذا الجهاز والحفلات التي أقيمت لها ، خزانة مصر العامة ، وقد وصف لنا أحد الكتاب حفلة من حفلات الوداع قبل سفرها إلى بغداد ، وذكر أنها ارتدت ثوباً من الحرير الأبيض ووضعت على رأسها اكليل من الذهب وطريحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفي أصابعها الخواتم وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزينت وجهها بالأصباغ المختلفة فبدت في أحسن زينة . .



الفصل السادس عشر

النظام الاقتصادي

١ - الزراعة

ان عمل الخلفاء في ري الفرات يشبه اعمال الري
في مصر والولايات المتحدة الامريكية واستراليا في هذا
العصر .

وليم ويلكوكس (مهندس معاصر)

ان المسلمين استعملوا جميع انواع الزراعة ، وحملوا كثيراً من النباتات الى صقلية
اسبانيا ، واربوها في اوربا ، فاحسنوا تربيتها حتى تفلتها متوطنة ... ومثل ذلك
الارز ، والزعفران ، والعنب والمشمش والبرتقال والنخل والهلين والبطيخ الاصفر
والعطر والورد الازرق والاصفر والياسمين والقطن والقصب .

سينيويوس

يهتم المسلمون عند فتح أي بلد بشيئين في وقت معا هما :

بناء المسجد وتنظيم الحقل ..

قول ماثور عند الكتاب

طبيعة الجزيرة والزراعة في العصر الجاهلي : تدل البحوث والدراسات التي قام بها السياح والعلماء في بلاد العرب على أن تغييراً كبيراً طرأ على جوها ، وان هذا الجفاف الذي يكتنفها في أزماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الاسلام ، وان ذلك الجفاف كان له تأثير كبير في طبيعة شبه الجزيرة وفي حالة سكانها ، وقسا عليها فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وجعل أكثر بقاعها صحاري وأثر تأثيراً خطيراً في تاريخ الامة العربية وفي حدوث الهجرات .

ويذكر بعض العلماء ان هذه البقاع الصحراوية كانت في شطر من العصر الجليدي خضراء عامرة آهلة بالسكان . ويقول آخرون ومنهم تويتشل Twitchell ان مستوى سطح الماء قد هبط في شبه جزيرة العرب زهاء (٢٧) قدماً في خلال ألفي عام . ويرى برترام طوماس الرحالة الشهير ان آثار السكنى على اطراف الاودية والترسبات التي تمثل قيعان الانهار تدفع إلى الاعتقاد أن هذه الاودية كانت في الحقيقة أنهاراً في يوم من الايام ينبض فيها عرق الحياة وانها كانت تغذي عدداً كبيراً من الاحياء . ويؤيد هذا الاستنتاج ماورد في كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة في بلاد العرب كالذي ذكره هيرودوت ودعاه (كورس) قال عنه انه من الأنهر العظيمة وانه يصب في البحر الأحمر . كما ذكر بطليموس عن وجود نهر عظيم اسمه (لار) كان ينبع من نجران ويتجه شمالاً حتى يصب في الخليج العربي .

وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الاسلام كسد مأرب العظيم والسدود التي قال عنها الشاعر الهمداني :
وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً

على أن العرب وخاصة في اليمن كان لهم علم بتنظيم أمور الارواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار . ويقول الرحالة (دوتي) ان كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية تدل على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما رددته التوراة عن جنة عدن وماورد في النصوص القديمة عن وجود الاخشاب الضخمة في شبه جزيرة العرب وأنواع العطريات وأصناف الأثمار الكثيرة . ومن أن اليابانيين استثمروا جبالهم وأوديتهم وكانوا أول من زرع في العالم سفوح الجبال على شكل مدرجات . وما عثرت عليه شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً من صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض لاستسقاء الماء منها في القطيف والاحساء وأواسط نجد وغيرها ، نستنتج من هذا كله أن الجزيرة العربية كانت آهلة بالسكان وان العوامل الطبيعية كانت ملائمة لحياة الانسان وان الزراعة كانت راقية مزدهرة غنية والحاصلات متنوعة متوفرة قبل ان تنتشر فيها الصحارى الحالية .

الزراعة في العصر الاسلامي : أما في العصر الاسلامي فقد بقيت الزراعة مزدهرة في اليمن وبعض المناطق الأخرى ، اما في الحجاز فلم تكن منتشرة لقلّة المياه وفقّر التربة . إلا أنها ازدهرت حينما توفر الماء كما هو الحال في الطائف التي شهت بغوطة دمشق لكثرة اشجارها المثمرة .

وكانت غالبية السكان تعتمد في حياتها على تربية المواشي والتجارة . وفي عهد النبي (ﷺ) رغم أن المسلمين كانوا منهمكين في تعلم مبادئ الدين وفي توطيد الاسلام في نواحي الجزيرة وفي الدفاع عن حياتهم

والعرب الفاتحون وان لم يتعاطوا الزراعة والصناعة ولكن هذا لا يعني انهم املأوها . لأن الحياة الاقتصادية ما لبثت ان عادت إلى أفضل مما كانت عليه سابقاً بفضل رعايتهم واهتمامهم وانتشار الامن وتنظيم الري وحماية التجارة . نضرب مثالا على ذلك ما قام به معاوية في الشام وعمر بن العاص في مصر من اصلاح الترع والأقنية وتأمين تصدير الفائض من المحصولات .

ولما أفضت الخلافة إلى الامويين واستقروا في الشام وطاب لهم المقام فيها وفي سائر الامصار وفضاوها عن الحجاز أغفل العرب وصية عمر فاقتنوا الاراضي والضياع . ويروى ان بعضهم ذكر في احد المجالس جود وكرم طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة وكان في المجلس سعيد بن العاص . فاجاب هذا : « ان من له مثل النشاستيج (وهي ضيعة في الكوفة لطلحة عظيمة كثيرة الدخل) لحقيق ان يكون جواداً ولو كان لي مثله لاعاشكم الله به عيشاً رغداً » واهتم الامويون باصلاح وتوميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة وخاصة في الشام ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر مجرى نهر يزيد في دمشق لارواء الاراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى .

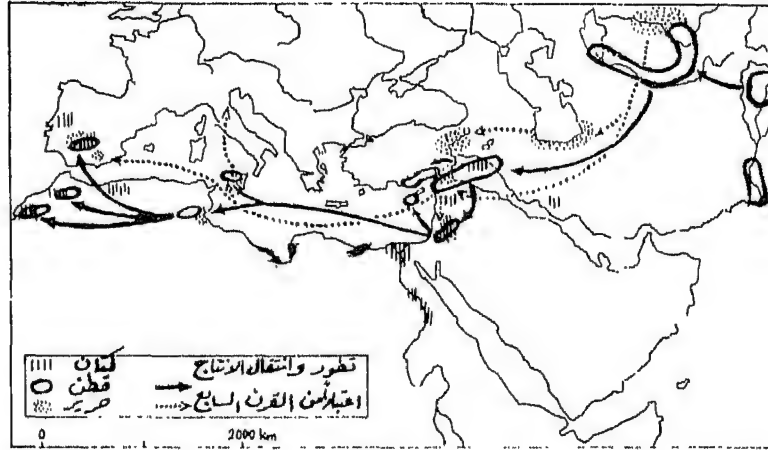
كما انهم اهتموا بتجفيف المستنقعات ، وقد فعلوا ذلك في البطائح وهي مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وقد روى قدامة بن جعفر (توفي سنة ٣٣٧ هـ) الكاتب البغدادي في كتابه المسمى (كتاب الخراج) : « ان مساحة المستنقعات قد اتسعت في زمن الحجاج فكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بحجر ذلك وانه قدر على اصلاحها بمبلغ (٣٠٠٠٠٠٠٠) درهم فاستكثرها الوليد فقال له اخوه مسلمة : « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فحصلت لمسلمة بذلك ارضون وضياع ، وحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة والمزارعين وعمر

تلك الأرضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مال كثير
ثم جرى الناس على ذلك إلى أواخر بني أمية .

إلا أن العمال في أواخر عهد الأمويين أخذوا يسيئون إلى أصحاب
الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشاغل
الناس عن الزرع فأهملت الأرض وزادها إهمالاً نشوب الفتن والحروب
في العراق وفارس وسائر أنحاء المملكة الإسلامية ونقم الناس على الحكومة
وابطلوا الزراعة نكاية فيها ولقطة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً
من الإهمال .

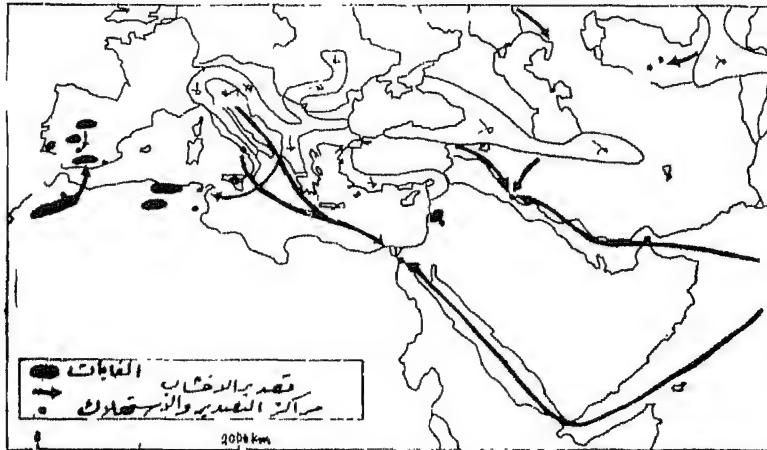
وفي العهد العباسي لما هدأت حمأة الحروب والفتن وانتشر لواء العدل
بين الناس واحسنت معاملة أهل الذمة والموالي وأمنوا على حقوقهم وأموالهم
وأرواحهم عاد الناس إلى الاشتغال بالزراعة . وبذل العباسيون أقصى عنايتهم
في كل ما يتعلق بشؤون الزراعة وراقبوا أمورها مراقبة دقيقة واشرفوا
على تشييد الجداول وتروميمها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف عليها
الحاصلات الزراعية . وقد كتب أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد
كتاباً عنوانه إلى الخليفة يبين فيه أن من واجب الحكومة تشييد الجداول
الجديدة على نفقتها الخاصة لتحسين الزراعة وتنظيف الجداول الحالية وتروميمها
والاشتراك في التعاون مع الشعب في تحمل نفقات صيانتها وتوزيع المياه .
كما يوصي بتشكيل شرطة نهرية ذات كفاءة بمتازة .

وبلغ اهتمامهم بالري أن أوجدوا له ديواناً خاصاً عرف بديوان الماء
بلغ عدد المشتغلين فيه عدة آلاف . وقد امتازت منطقة العراق بخصبها
وكثرة جداولها واتقان الري فيها وقد نالت حظاً وافراً من العناية لوجود



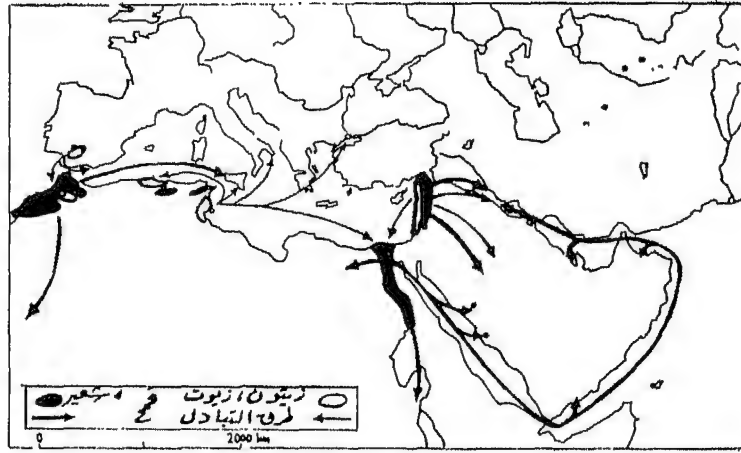
شكل - ٢٧ -

مناطق زراعة النباتات النسيجية (القطن والكتان) ومناطق
تربية دود القز وانتاج الحرير في الدولة العربية الاسلامية

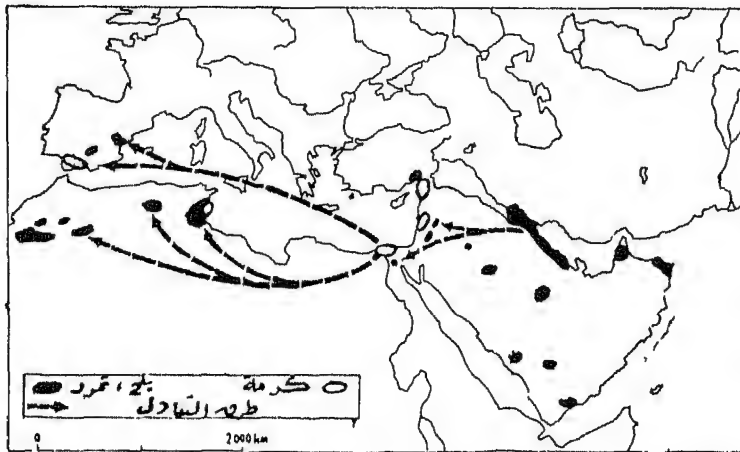


شكل - ٢٨ -

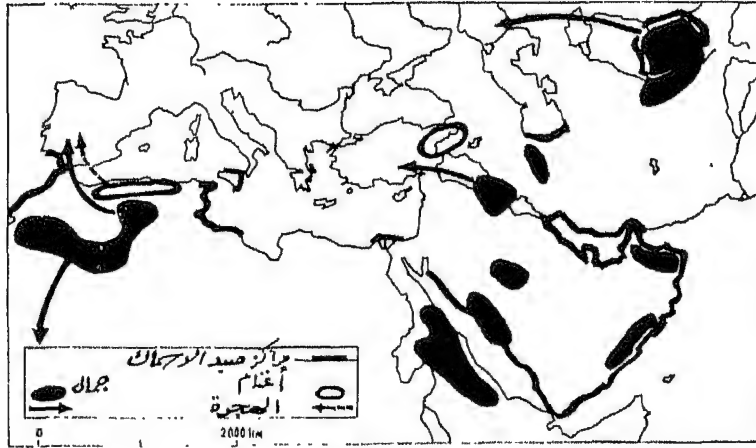
مناطق الغابات وانتاج الاخشاب في الدولة العربية الاسلامية



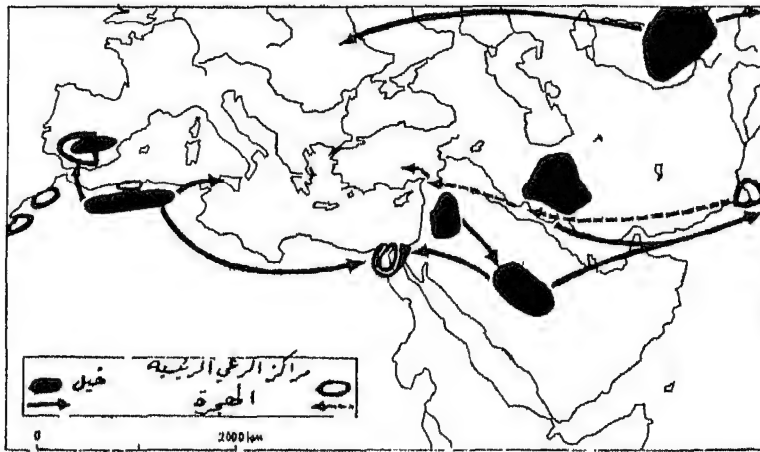
شكل - ٢٩ -
المناطق الرئيسية لزراعة الحبوب والزيتون في
الدولة العربية - الإسلامية



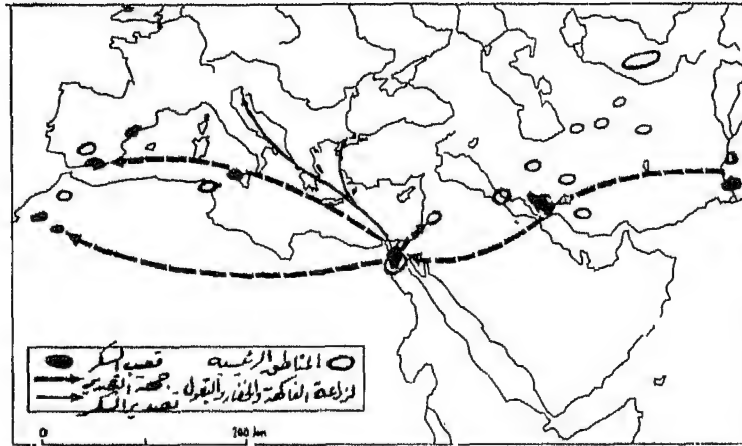
شكل - ٣٠ -
مناطق زراعة الكروم والتفاح في الدولة العربية الإسلامية



شكل - ٣١ -
مراكز الرعي وتنقل الرعاة مع مراكز صيد السمك
في الدولة العربية الإسلامية

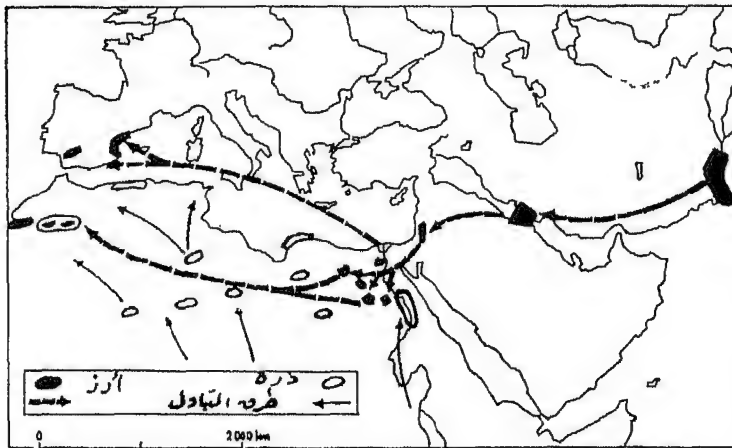


شكل - ٣٢ -
مراكز تربية الخيول والبقر الرئيسية في الدولة العربية في العهد العباسي



شكل - ٣٣ -

مناطق زراعة الخضار والفواكه والبقول مع مناطق زراعة قصب السكر واستخراجه في الدولة العربية الإسلامية



شكل - ٣٤ -

المناطق الرئيسية لزراعة الدرة والأرز في الدولة العربية الإسلامية

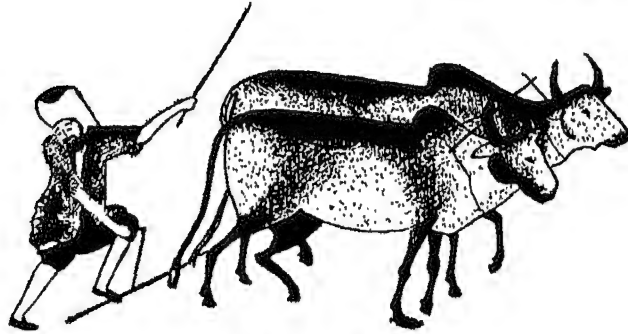
العاصمة فيها . كما أن الخلفاء عمدوا إلى تجفيف المستنقعات في البطائح حيث رُسِحت بنظام ترشيح دقيق . واستثمرت في الزراعة وكثرت حاصلاتها . وقد قال الاصطخري : « أصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز » . وقل غيره : « كان العراق وجنوب فارس يبدوان في ذلك العهد روضة غناء » . وبما يؤكد ذلك ان جباية السواد ، وهو جزء من العراق ، بلغت زمن المعتمد (١١٤٥٠٠٠٠٠) درهم حسب رواية قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، أي ما يعادل ثلث خراج الدولة بكاملها . ونستطيع ان نقدر قيمة هذا المبلغ إذا علمنا ان خراج مصر والاسكندرية حسب رواية قدامة ابن جعفر بلغ (٢٥٠٠ ٠٠٠) دينار أي (٣٧ ٥٠٠ ٠٠٠) درهم .

ومن أشهر المناطق الزراعية عدا سهول المغرب ومصر والشام والرافدين ، منطقة خراسان وبلاد ما وراء النهر . وهي كثيرة الحصب جداً قال عنها ابن حوقل : « لم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى لانك إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللطيفة أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرأة » كما قال أيضاً : « والمشار اليه من منتزهات الأرض سفد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » .

استثمار الارض : ومن أساليبهم في استثمار الارض الابحار . او أن تبذر الأرض من قبل صاحبها ثم تعهد إلى فلاح بالمزراعة . أو تبذر ويشرف عليها صاحبها وتحصد من قبل الفلاح وهذا ما يدعي بالخابرة . والفلاح يحتفظ لنفسه في الحالين بجزء معين من المحصول . وهناك أيضاً المغارسة وهي أن

يعطي صاحب الارض أرضه إلى فلاح يغرسها بالاشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . أما المساقاة فهي أن يعطي المالك بستاناً للنخيل ليروى ويسمد ويصان ويحمى من الطيور أو اللصوص مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتحفيقها . ويطبق نفس النظام على الكروم . وفي رأي أغلب الفقهاء أنه لا يمكن أن يطبق النظام على البساتين المكونة من أشجار أخرى . والمالك يقدم الآلات ودواب الحمل وغير ذلك . .

أما عن أدواتهم الزراعية فلا يوجد عنها شيء يذكر في المصادر التاريخية . ويوجد كتاب نادر غير مطبوع بعد وهو « كتاب الفلاحة النبطية » لابن وحشية لعل فيه ما يزيد معلوماتنا عن الزراعة وأصولها وأدواتها . وربما تكون أدواتهم شبيهة بالأدوات البسيطة المعروفة الآن في البلاد العربية . نستنتج ذلك من بعض النقوش التي وجدت في اليمن ويبدو في أحدها صورة رجل من أهل اليمن يحرق الأرض بالثيران وفوق الصورة كتابة بالمسند . ويلاحظ فيها أن المهرات لا يختلف كثيراً عن المهرات البسيط المستعمل في وقتنا الحاضر .



شكل - ٣٥ -
صورة اسلامية مرسومة في القرن العاشر الميلادي
تمثل فلاحاً يحرق الأرض

الحاصلات الزراعية : اشتهرت بلاد الامبراطورية العربية بكثرة حاصلاتها وتنوع منتجاتها وجودة أصنافها ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليمها واختلاف جوها .

ومن أشهر حاصلات الحبوب فيها : القمح والشعير والأرز والحبوب العلفية ومن **الاشجار المثمرة والفواكه :** النخيل والبن والكرمة والتين والزيتون والحوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والمان والكرز والبطيخ ومن **المزروعات الصناعية :** القطن وقصب السكر والكتان والنباتات التي يستخرج منها مواد الصباغ كالنيلة والقرمز والزعفران والعصفر . كما يزرع أيضاً في فارس والشام الورد لاستخراج ماء الورد .

وبلاد الامبراطورية العربية الاسلامية على العموم فقيرة باحراجها واخشابها إلا أن بعض المناطق اشتهرت باحراجها كالشام وصعيد مصر والمغرب وخراسان .
تربية المواشي : كان يعنى بتربية المواشي عناية كبرى لانها مصدر رئيسي من مصادر ثروة سكان الامبراطورية . ويعتمدون عليها في غذائهم وتنقلهم وصناعاتهم النسيجية . وكانت أهمها : الإبل وهي أكثر المواشي نفعا لسكان الجزيرة والمغرب وفارس إذ لا يقوم مقامها حيوان في الركوب وحمل الاثقال في مناطق قليلة العشب نادرة الماء واسعة الارعاء . وأنواعها كثيرة يشتهر منها نوع سريع الجري لا يقل عن الخيل خفة وسرعة . أما **الخيول العربية** فهي ذات شهرة عالمية وصفها أحد الرحالة المستشرقين (بلغراف) بقوله : « هي عصبية رشيقة مثال الاناقة في شكلها وهي برؤوسها الصغيرة وأحداقها الوهاجة وجوانبها المثلثة القصيرة وذيلها المنموجة وقوائمها الدقيقة المتينة عنوان الجمال ... » . وأكثر ما تربى في سهول العراق والشام ونجد . وفي نجد أعزّ الخيول العربية وارثتها . **الحمير** وهي من الدواب

الشائعة للركوب بين الحضر وأهل المدن . **البغال** وهي كثيرة في اسبانية والمغرب والمناطق الجبلية . **الفنم** (ضأن وماعز) تربي بكثرة في جميع المناطق وتعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر ثروة البلاد . **البقر** ويربى في المناطق الغزيرة المياه الكثيرة الأعشاب كما في الشام والعراق . **الجاموس** جيء به من الهند ويربى في الأماكن التي تكثر فيها المياه والمستنقعات كما في مصر والشام والعراق .

الزراعة في الاندلس : اشتهرت بلاد الأندلس بخصب تربتها وجود اقليمها وقابليتها العظيمة للزراعة . إلا أن اضطراب الأمن قبل الفتح العربي وانتشار الفوضى وضعف الحكومة واستبداد رجال الاقطاع وتطاحنهم وتأخر حالة الفلاحين الاقنان اي عبيد الارض ، أدى كل ذلك الى تقهقر البلاد وانحطاطها اداريا واقتصاديا . مما سهل مهمة العرب الذين حملوا اليها الحضارة الفكرية والمادية .

التحسينات التي أدخلها العرب على الزراعة في الاندلس : ادخل العرب والبربر الى الأندلس كل خبرتهم الزراعية ومهارتهم الفنية التي جلبوها معهم من الشام وشمال افريقيا . ولم يكتفوا بذلك بل درسوا امكانية الارض وملاءمة التربة والطقس لزراع النباتات المختلفة . كما ادخلوا نظام زراعة المدرجات في الجبال . وحسنوا وسائل الري اذ وجدوا المياه تزخر وتفيض في بعض الاوقات وتقل حتى تجف في أوقات اخرى . فحفروا الترعة والمصارف العديدة لاستغلال الماء وتوزيعه بالطرق الفنية . ولا يزال حتى الآن نجد في أسبانيا آثار الاقنية والقناطر والجسور الاسلامية . كما نجد مفردات ومصطلحات عربية كثيرة في لغة الاسبان تتعلق بالري مثل : الناعورة والساقية والسد والبركة والجلب والوادي . عدا اسماء النباتات الكثيرة التي ادخلها العرب الى الاندلس ولا يزال بعضها

يعرف باسمائه العربية مثل الارز والقطن وقصب السكر والزعفران والارضى شوكي وكثير من الاشجار المثمرة كالشمش والرومان . وعنها اخذت بقية بلاد اوروبا هذه المزروعات .

الحاصلات الزراعية : كانت اهم حاصلات الاندلس :

الحبوب : القمح والشعير والارز .

الاشجار المثمرة : الكرم والنخيل والزيتون والرومان والبرتقال والليمون والاس والوز والتوت .

المزروعات الصناعية : قصب السكر والكتان والقطن والقنب والزعفران وكانت احراجها كثيرة تشبه احراج بلاد الشام الساحلية وخاصة في منطقة غرناطة .

تربية المواشي : كانت تربي في الاندلس جميع أنواع المواشي المعروفة في المشرق عدا الابل . ولكثرة المراعي في وديان الانهار الكثيرة مثل نهر وادي الكبير ونهر شينيل (شنجيل والدورو) (الحدارة) ربيت الابقار والحيول والاغنام . أما في المناطق الجبلية فقد اعتنوا بتربية الماعز والبغال .



شكل - ٣٦ -



٢ - الممارن والصناعة

تمهيد - ثروة شبه جزيرة العرب قبل الاسلام : اشتهرت شبه جزيرة العرب عند القدماء بكثرة معادنها . وقد جاء خبر ذلك في التوراة في قصص داوود وسليمان وبلقيس وفي مواضع متعددة من الحكايات الواردة في اسفار التوراة . وأهم معدن يرد ذكره هو الذهب وتشير الروايات الى أماكنه في الحجاز واليمن وغيرهما . وورد في التوراة أن الاسماعيليين كانوا يستعملون اقراص الذهب . كما ورد ذكر الفضة ومعادن أخرى .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية ان منطقة قنفذة كانت تشتهر بوجود التبر فيها . كما ان الهمداني خصص ابجائاً كاملة لمعادن الجزيرة وخاصة اليمن . فقد ذكر وجود الذهب والفضة والعقيق والحديد فيها . ويكثر وجود الصخور الملحية في الحجاز وعسير وجيزان وفي اليمن التي كانت تصدر كميات كثيرة منه الى الهند . وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية كأنها بلور . والى جودة هذه الصخور الملحية في كثير من أنحاء الجزيرة يجب ان يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التاريخ والادب .

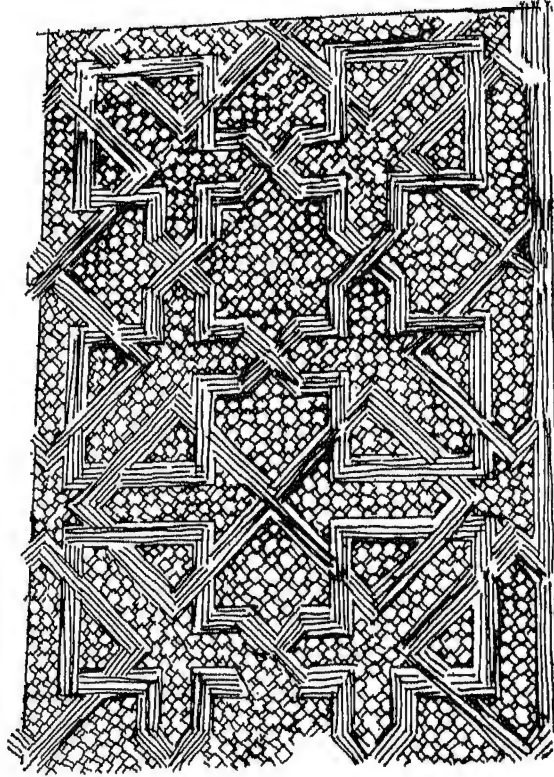
ويوجد في اليمن صخور متباورة استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل

في النوافذ لتقوم مقام الزجاج . كما أن المناطق المطلة على خليج البصرة كانت تشتهر بمغاص اللؤلؤ .

المعادن وأشهر أماكنها في العصر العباسي : هذا قبل الاسلام وفي شبه الجزيرة اما بعد الاسلام وخاصة في العصر العباسي فان سكان الدولة أخذوا يستثمرون المعادن من شبه الجزيرة ومن بقية انحاء الامبراطورية في الاندلس والمغرب والشام والعراق وفارس .

وسنعدد الآن أشهر المناطق التي اشتهرت بثروتها المعدنية مع ذكر أنواعها متجهين من الغرب الى الشرق :

- ١- المغرب العربي : الذهب والفضة ومغاص المرجان .
- ٢- مصر والسودان : الذهب والفضة والزبرجد والشب والنفطون
- ٣- الشام : الحديد (حلب ولبنان) الحمر . الرخام (فلسطين) الكبريت (الغور) .
- ٤- الكويت والبحرين وعمان : اللؤلؤ .
- ٥- الحجاز : الذهب
- ٦- اليمن : العقيق والعنبر
- ٧- كرمان : الذهب والفضة والحديد والنفط والنشادر
- ٨- فارس : الفضة والحديد والرخام والكبريت والنفط والقيز والزئبق والكحل والملح .
- ٩- بلاد ما وراء النهر : الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجري .
- ١٠ - خراسان : الذهب والفضة والليروز والرخام وطين الحتم والنشادر والزئبق .



شكل - ٣٧ -

نموذج من صناعة الابواب الخشبية بحشوات من الخشب
ترتب بأشكال هندسية بدیعة . وهذه القطعة من أحد
أبواب مدرسة العطارین من فاس - المغرب



اناء من الخزف من صناعة دمشق
محفوظة في متحف برلين - دالم ومصنوع
في القرن الرابع عشر الميلادي وهو اناء
خاص بالصيديات . وقد برغ هذا
الاطار الفني للمرة الاولى في الاندلس
ثم انتشر في بقية البلاد الاسلامية
ومن بعد ذلك انتقلت صناعته الى الغرب

شكل - ٣٨ -



شكل - ٣٩ -

تزيينات ذات بريق معدني ، على كأس من الخزف مصنوعة في
الاندلس في عهد بني نصر (القرن الرابع عشر الميلادي) وكانت
الاندلس والجزر البحرية التابعة لها ، مركز فن البريق
المعدني في العصور الوسطى ، انتقل منها الى بلدان اوربا
الغربية وخاصة المانيا وايطاليا . وهذه
الكأس محفوظة بمدينة بايون

هذه أشهر المعادن المعروفة ذكرتها المصادر العربية باعتبار انه كان يجبي خمسها لبيت المال . وكانت الحكومة تقطع هذه المعادن اقطاعاً او تضمئها تضمئاً بمال معين وقد يكون ذلك المبلغ كثيراً . اذ يذكر المقدسي ان ضمان معادن الفيروز في نيسابور (خراسان) بلغ في اواسط القرن الرابع للهجرة (٧٦٠٠٠٠) درهم تقريباً .

وكانت جباية الدولة تتألف معظم الاحيان من الاموال ومن المنتجات التي تشتهر بها كل منطقة . يذكر ابن خلدون مثلاً انه كان يؤخذ من السودان في عصر المأمون عدا الاموال (٢٠٠) حلة من الثياب و (٢٤٠) رطلاً من طين الحتم . ومن خراسان الفضة والثياب والرقيق .

اهم الصناعات ومراكزها : لم يهتم سكان شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بالصناعة فقد اعتمدوا في حياتهم بالدرجة الاولى على التجارة وتربية المواشي ومن بعدهما على الزراعة ومن ثم على الصناعة . ولا تزال صناعتها حتى الآن ضعيفة بسيطة . واسباب ذلك : فقر بيئتهم من المواد الضرورية للصناعات ، وبساطة معيشتهم ، ونظام حياتهم القبلي . وكانوا ينتجون ما يحتاجون اليه من مواد نسيجية (ثياب وخيام) واسلحة وغيرها من الصناعات المعدنية البسيطة . وقد اشتهروا ببعض الصناعات كما هو الحال في اليمن التي عرفت بسيوفها في الجاهلية والاسلام .

أما في صدر الاسلام فقد شغل العرب بالفتوحات . ولما هدأت حمأة الحروب تملكوا الضياع واعتنوا بشؤون الزراعة واهملوا الصناعة لأن العربي كان يأنف أول عهده من العمل الصناعي ويميل الى الاشتغال بوظائف الدولة أو التجارة أو تملك الضياع والأراضي وترك المهن لأبناء البلاد الأصليين . من الامثال المتداولة « ان الحق في أصحاب المهن والصناعات » .



شكل - ٤٠ -

صورة تزيين نسخة من مخطوطة كتاب « مقامات الحريري » محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ويشاهد فيها بائع وشاري في الأعلى ورجال ونساء في الأسفل ، وتظهر ملابس الرجال والنساء بوضوح

ولكن العرب لما أبعدوا عن الجيش والأعمال الإدارية في العهد العباسي اضطروا إلى تعلم مختلف الصناعات والارتقاء منها . وقد نشطت الصناعة وازدهرت وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة، وحياة الترف والبدخ ، وكثرة الأموال ، ونشاط التجارة ، واكتمال رقي الدولة العربية بعد أن بلغت دور القوة والنضوج . وبذلك يقول ابن خلدون : « وبقدر ما تريد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع ان رسوخ الصنائع في الامصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدھا ... والصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يكون للكماليات . »

وارتقت الصناعة بتوالي الأجيال - ، وامتازت كل منطقة اسلامية بصناعات خاصة بها . واهم الصناعات التي اشتهرت بها البلاد الاسلامية :

١ - الصناعات النسيجية : على اختلاف أنواعها الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية . وامتازت كل منطقة بنوع خاص . ففارس والعراق والشام اشتهرت بالانسجة الحريرية المشجرة . وكان العرب ينشؤون المصانع الجديدة اينما ذهبوا حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطى . وقد نسب بعض المنسوجات الى المدن التي تصنع فيها وعرفت بها كذلك لدى الشرقيين والغربيين فالفستان Fustian للفسطاط والداماسك لدمشق والموصلين للموصل والكوفيات للكوفة . وامتازت بلاد فارس بنوع يدعى السجل (التفتة) Taftah . واشتهرت بغداد بنوع من النسيج الحريري يدعى بالعتابي نسبة الى حي العتابية الذي كانت تقطنه سلالة عتاب حفيد أحد الصحابة . وانتقل الى اسبانيا وعرفه الفرنسيون والايطاليون باسم Tapis .

واشتهرت مصر بالانسجة الكتانية كما اشتهرت به بلاد فارس . وامتازت خراسان والعراق بالاقمشة القطنية . اما النسيج الصوفي فكان يصنع في كل مكان ويعتمد عليه بصورة خاصة في بلاد فارس لصنع السجاد التي اشتهرت بانواع عديدة منه شهرة عالمية . يضاف الى كل ذلك صناعة البسط (أرمنيا وبخاري) والستور والاعطية . وجاء في الاغانى : « انهم كانوا يزركشون البسط والطنافس ويرسمون في اواسطها اشكالا ورسوما بما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب او القصب ابياتا من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة ... وكان لأم المستعين بساط عليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت

وجواهر انفق في صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠) درهم .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر ذكر الارانب . والابرسم وهو حرير خالص . والديباج وهو نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها . والبز وهو نسيج قطني ثين . وكانوا يصنعون من هذه المنسوجات الثمينة : الاقية والدرايع والطياسة والجيب والعائم والابراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات وغيرها .

٢- **الصناعات المعدنية :** برع سكان الامبراطورية العربية بالصياغة وتكفيت المعادن (التطعيم) كتكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة لحقن رسوم عليها موضوعات زخرفية مختلفة . وعرفت هذه الصناعة الدمشقية (Damascening) . كما عرفت دمشق بصناعة الاسلحة من الحديد والصلب . كما اشتهرت به اليمن ايضاً . وامتازت الموصل بصنع الادوات النحاسية التي تختص بالمائدة .

٣- **الصناعات الغذائية :** اشتهر صناعة السكر نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس ومصر وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثل . وكانت منطقة الاهواز تدفع في عهد المأمون مع الجباية (٣٠٠٠٠) وطل سكر . وامتازت الشام بزيتها كما كان يصنع بها ماء الورد الذي اشتهر به ايضاً بلاد فارس التي كانت تقدم مع جبايتها (٣٠٠٠٠) قارورة من ماء الورد . كما كانت انواع الشراب من الفواكه والخمور تصنع في كل مكان . واشتهرت بصنع العطور مثل الشام وفارس لكثرة انواع الزهور فيها .

٤- **الصناعات المختلفة :** وهناك صناعات كثيرة كانت موضع

اعجاب الاوربيين قرونا عديدة مثل صناعة الورق الذي اشتهرت به الشام . وازدهرت صناعته في عهد المعتصم اذ أسس المصانع وجلب لها العمال من مصر . واشتهرت البصرة في عهده بصناعة الزجاج والصابون وقد عرفت بها بلاد الشام التي كانت تصدر في مطلع القرن الثاني الهجري الزجاج الملون المطلي بالمينا الى كافة انحاء العالم . وكان يضرب بزجاج الشام المثل بالرقه والصفاء فيقال ارق من زجاج الشام . ومن الصناعات الراقية في فارس ومصر صناعة الفخار والخزف . وقد اقتبس الصناع المسلمون صناعة الخزف من الصين ثم تميزوا بأنواع خاصة بهم وهو الخزف ذو اللون الازرق الممتاز . وعرفت الشام والعراق ومصر والمغرب خاصة بصناعة الجلود وصناعة الاحذية والوسائد والسروج وجلود الكتب المزخرفة وغيرها . كما كان لصناعة المجوهرات اهمية كبرى لما تتطلبه حياة الترف والبذخ من كثرة استعماله واقتنائه . ومن الصناعات ايضاً صناعة القوارب والمراكب التي كانت تستعمل للنقل ولصيد الاسماك . وقد اشتهرت البلاد البحرية والنهرية بصيد الاسماك . وكان يجبي من ارمينيا عدا الاموال (١٠٠٠٠) رطل من السونج وهو نوع من الاسماك البحرية .

معادن الاندلس وصناعاتها

المعادن : كانت الاندلس من أغنى بلادالدولة العربية في المعادن من حيث وفرتها وكثرة انواعها وسهولة استخراجها . وقد استثمرت منذ أقدم العصور الا انها اهملت في فترة الفوضى والاضطرابات في عهد القوط . وبعد ان استتب الامر للعرب واستقروا نشطوا في استثمار معادنها المختلفة .

ولا تزال تعتبر اسبانيا في عصرنا الحاضر من البلاد الاوروبية الغنية بمناجمها تستهلك ما تحتاجه وتصدر الباقي وخاصة الحديد .

وأهم المعادن التي كانت معروفة زمن العرب هي :
الحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس والكبريت والياقوت والبلور والامثد أو الكحل .

اشهر صناعات الاندلس : يقول المستشرق الاستاذ J . R . Trend « لما كانت أوروبا تزح تحت نير الجهل والفساد كان المسلمون الاسبان قد أقاموا حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة » .

كانت صناعة الأندلس لا تقل عن صناعة المناطق الشرقية للإمبراطورية العربية ، في اتقانها وتنوعها وجودتها . فقد أقيم في غرناطة وطليلة **معامل الصب والحديد الكبيرة** . وكان صنع الفولاذ الاندلسي مشهوراً في كافة أنحاء العالم . وسيوف غرناطة كانت تفضل على غيرها لحسن صنعها واتقانها . وكان يصنع في مرسية وشيياً مذهباً في غاية الاتقان وفيها أيضاً **معمل للبسطة** لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان **للحرير** الاسباني شهرة عظيمة ولم يكن له مثيل في تعقيده ودقة صنعه . ويقال إن العرب هم الذين ادخلوا الى اسبانيا صناعة الحرير والقطن والمصنوعات الصوفية .

وتتجلى صناعة العرب في اسمى مراتبها في **الفخار** الاسباني العربي ذي البريق المعدني الذي يعتبر بعد الخزف الصيني مباشرة في الجمال والقيمة . وهذا البريق المعدني متألق كالذهب يتراوح لونه بين الياقوتي وبين عرق اللؤلؤ والاصفر المخضر ، مع نقوش وزخرفة باللغة العربية وكان يكثر استعمال كلمة (العافية) على الأواني وبقيت تعرف بالاسبانية Alafia .

ولا يجب أن ننسى صناعة النجارة وخاصة الدقيقة الفنية وقد لاحظ بعض المستشرقين أنه لا يزال كثير من المصالحات الفنية للتجارة في اسبانيا عربية .

وكان في مالقة معامل للزجاج ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة هو عباس بن فرناس حكيم الأندلس . كذلك كانوا مشهورين على الأخص بصباغة الجلود والصباغة وتزيين الجلود بالنقوش البارزة . وقد قضى على هذه الصناعة في اسبانيا منذ خروج العرب ، ونقلت منها إلى فاس ثم إلى انكلترا حيث اطلق عليها الموروكو كما ادخلوا في اسبانيا صناعة البارود والسكر والورق .

ويقول ابن خلدون عن صناعة الاندلس : « ... فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد امصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والحزف وجميع المواعين واقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار ... » .





٣ - التجارة وطرق المواصلات

تجارة العرب قبل الاسلام : كنا ذكرنا أن سكان الجزيرة العربية كانوا يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على التجارة بالدرجة الأولى لأن العوامل الطبيعية والاجتماعية كانت غير ملائمة للزراعة والصناعة . لذلك ركز السكان جهودهم في استثمار موقع بلادهم التجاري الممتاز . فالجزيرة تحتل مركز القلب من العالم القديم ولا يمكن أن يتم اتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها .

والمصادر القديمة كالمصرية والعربية واليونانية والرومانية والتوراة وغيرها تبين أهمية العرب في التجارة في تلك العصور وتعدد المواد الضرورية التي كانوا ينقلونها على قوافلهم وفي سفنهم . وهي تشير إلى أن تجارة اليمن بقيت مزدهرة طيلة قرون عديدة . وكان أكثر اشتغال ملوك اليمن بالتجارة لتوسط بلادهم بين الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد بعد دخولها إلى جزيرة العرب في طرق خاصة . ولم يكن عالم التجارة يستغني عنهم فزعت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم إلى أطراف الجزيرة شمالاً وشرقاً . وبذلك لم يكن قمتهم حربياً كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين بل كان تجارياً كتمدن الفينيقيين فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كما كان اخوانهم الفينيقيون في

أجيال أخرى . بقيت الحال كذلك إلى أن سيطرت الامبراطورية الرومانية الشرقية على تدمر وبلاد الانباط وذهب تجار الروم وتدمر من الخليج العربي والبحر الأحمر فحملوا بضاعة الهند إلى الحبشة ثم إلى مصر وغيرهما .

وكان لعرب الحجاز ، وخاصة بعد سيطرة قريش على مكة ، نصيب وافر من تلك التجارة التي حمل اليانيون لواءها . ونظموا رحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام عدا الرحلات إلى الحيرة وعقدوا اتفاقات تجارية مع الحبشة واليمن والفرس والمناذرة والغساسنة والرومان .

تطور التجارة بعد الاسلام : لم تنقطع تجارة قريش ولم تتوقف قوافلها إلا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حيث قوي أمره فيها وأخذ يضعف من شأن أعدائه بتهديد تجارتهم ومورد رزقهم وثرائهم وقوتهم . ثم ضعفت حركة التجارة وتوقف نشاطها في دور التوسع والفتوحات ولكنها لم تتعطل تماماً ولم ينقطع سير القوافل من وقت إلى آخر في فترات متباعدة . استمرت الحال كذلك حتى استتب الأمر للعرب المسلمين في كافة أنحاء الجزيرة ودانت لهم الشام والعراق وفارس ومصر . وبخضوع هذه البلاد جميعها لسلطة واحدة وهي غنية ذات موارد كثيرة متنوعة ، عادت التجارة شيئاً فشيئاً إلى سابق عهدها ثم نمت واتسعت باتساع الفتوحات وازدياد رقعة الامبراطورية حتى بلغت أوجها في العصر العباسي .

وكانت أهم أسباب ازدهار التجارة في العالم الاسلامي هي :

- ١ - اتساع مساحة البلاد الخاضعة لسلطة العرب وكانت تقدر مساحتها بثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع أي نحو مساحة أوروبا كلها .
- ٢ - وحدة التقدير مما سهل التعامل التجاري بين مختلف أنحاء الامبراطورية .

٣ - رقي الصناعة وتقدمها وكثرة انتاجها بما دفع التجار إلى تصريف الفائض .

٤ - ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرخاء والبذخ والترف .

٥ - كثرة الأموال واتساع الثروات .

٦ - نشوء الدويلات المستقلة وسعي كل منها إلى التشبه بالدولة الأم من حيث البلاط والحاشية والابهة والبذخ والعطاء .

إلى هذه الاسباب الظاهرة وغيرها من العوامل الخفية الثانوية يرجع السبب في ازدهار التجارة العربية واتساع محيطها . وقد اتقن التجار العرب التجارة علماً وعملاً حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . فقد وضع أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة كتاباً عنوانه « الاشارة إلى محاسن التجارة » فيه شرح لبعض الفوائد الاقتصادية لم يسبقه أحد إليها . كما يحوي أبحاثاً في معنى النقود والسلع والعروض وتحقيق أثمان الأشياء ، وهي أبحاث قيمة لا تقل عما بلغ إليه علماء الاقتصاد في هذا العصر .

وقد دفعت كثرة الأرباح التجار العرب إلى أن يطوفوا في الدنيا بشجاعة ويغامروا بقوة فكانوا رواد العالم الأول في البر القديم فقد عرفوا سواحل افريقيا الشرقية ومناطقها الوسطى النائية والهند والملايو والصين وجزر سرنديب وسومطرا وجاوا وبورنيو . وجابت قوافلهم قارة أوروبا ووصلوا إلى البلطيق وروسيا وألمانيا وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان . فلم تردم عقبة ولم يمنعهم خطر .

وكانت لرحلاتهم وأسفارهم التجارية الفضل الكبير على تقدم علم الجغرافية

وذلك لاتساع مداها وبعد آفاقها . اذ أن غاية الرحلات الأولى كانت تجارية بحتة كما كانت من بعد رحلات فاسكو دوغاما وكريستوف كولومبوس . واثرت قصص التجار عن عجائب وغرائب المناطق التي شاهدها في نفوس بعض العلماء فنشطوا للقيام برحلات غايتها علمية ولكنها لم تتم الا بواسطة سفن تجارية .

التبادل التجاري والمنتجات المتبادلة : التجارة نوعان داخلية وخارجية . فالداخلية هي التي تكون فيها المبادلات بين مختلف أجزاء الدولة الواحدة . أما الخارجية فهي التي تجري فيها المبادلات بين دولة وأخرى . الا ان اتساع البلاد الخاضعة للنفوذ العربي وامتدادها على ثلاث قارات من الاطلسي حتى مشارف الهند والصين ومن المتوسط وقزوين حتى الهندي ، يجعل امكانيات التجارة الداخلية فيها جد واسعة ويمكن أن تشبه في الوقت الحاضر بتجارة الاتحاد السوفيتي أو تجارة الولايات المتحدة الاميركية .

أما التجارة الخارجية فكانت بين بلاد الدولة الاسلامية من جهة وبين أوروبا والهند والصين وجزر جاوا وما يجاورها وسواحل افريقيا الشرقية وأواسطها والحبشة من جهة ثانية . ونلاحظ من ذلك أن ميدان التجارة الداخلية والخارجية كان واسعاً جداً يكاد يصعب تصديقه بالنسبة لذلك العصر لضعف النقل البري والبحري وبساطة وسائله .

وسنعدد الآن أهم السلع والمنتجات التي كانت يتاجر بها مع ذكر مراكزها :

من الهند : الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والافاوية كالبهار والفلفل ونحوهما والقطن .

من الصين : المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة والحزف .

الشكل - ٤١

طبق من الخزف من صناعة
الفسطاط من صنع الخزاف
المصري علي البيطار محفوظ
في متحف برلين - دالم . وهو
نموذج من الفن الفاطمي في
أوائل القرن الحادي عشر
الميلادي وتلاحظ فيه صورة
أرنب في الوسط يحيط به
أربع جامات متقابلة ، فيها



زخارف نباتية تتألف من درتين متقابلتين ، ويخرج منهما
نصف مروحة نخيلية . وللزخارف بريق معدني في لون الذهب



الشكل - ٤٢

كأس محفوظة في متحف برلين - دالم . يغطيها طلاء معدني
وهي مزينة بزخارف على صورة انصاف مراوح نخيلية ،
وزخارف خطية تشبه الكتابة الكوفية . وهنا الزخارف ، قد
رسمت فوق الطلاء بالوان ذات بريق معدني لا تكتسب هذه
الخاصية الا بعد عملية تحريقها للمرة الثانية حيث يتحول
او كسيد المعدن الى معدن خالص . وهذا يعطينا فكرة عن ابتداء
الاسلوب الاسلامي الذي تطور في العراق اثناء القرن التاسع
الميلادي .

من روسيا : السمر الاسود وجلود الخنز والثعالب السود والرقيق .
من بلاد ما وراء النهر : الورق والنوشادر والاوزار والسمر والسنباج
والثعالب والمسك .

من بلاد فارس : الادهان . الزيوت العطرية . نسيج الكتان والقطن
والصوف والحرير . سبائك الفضة . الخفاف . السمر . الامشاط . البسط .
من الحبشة : العقيق والعاج والجلود المدبوغة .

من سواحل افريقيا الشرقية : العطور . الأطياب . خشب الابنوس .
ريش النعام . الذهب والعاج والرقيق .

من ارمينيا : أحسن أصناف البسط والوسائد والمقاعد .
هذا عدا ما تنتجه بلاد الرافدين والشام ومصر والمغرب العربي والاندلس .
وكانت تجارة الرقيق جد رائجة في البلاد الاسلامية . وله في كل
مدينة كبيرة سوق خاصة تعرض فيها مختلف أنواعه . فالرقيق الأسود
كان يجلب من السودان ، والابيض كان يحمل من بلاد ما وراء النهر وأصله
من الصقالبة أو من الخزر الاتراك ، كما يجلب أيضاً من الأندلس . ومنهم
صنف كان يرد من خراسان غال جداً ربما يبع الغلام منه بخمسة آلاف دينار .
وأفضل الأنواع وأكثرها رواجاً هم الصقالبة يحملهم النخاسون الافرنج
من شمالي اوروبا بأعداد كبيرة . وسبب ذلك ان قبائل السلاف (روس
صرب بوهيم دلمات وغيرهم) نزحوا من المناطق الشرقية في اوروبا نحو
أواسطها فاضطروا وهم نازحون أن يجاربوا الشعوب التي في طريقهم
كالسكسون والمهون وغيرهم فتكاثر الاسرى على الجانبين . وكانت العادة
أن يباع الاسرى ببيع الرقيق فأخذ التجار الافرنج يبتاعون الاسرى من
السلاف والجرمان ويحملونهم إلى الأندلس حيث يشتريهم التجار العرب

ويعيرونهم في مختلف أنحاء البلاد العربية . وبما أن معظم أولئك الارقاء هم من السلاف وكانت تلفظ عندهم سكلاف صار العرب يطلقون هذه الكلمة على الرقيق الأبيض اجمالاً . ولكنهم عربوها إلى صقلب ومنها صقلي وصقالة . وقد انتقل المعنى إلى اللغات الأجنبية فصار يعرف الرقيق عندهم باسم Slave او Esclave

الموازين والمكاييل : تعددت الوحدات القياسية للوزن والمكيال في الدولة الاسلامية ، واختلفت اعيانها ، رغم وحدتها بالاسم ، بين مختلف مناطق الدولة ، والعهود المتعاقبة .. واشهر الموازين التي استعملت في العصور الاسلامية هي :

الاوزان :

- ١ - الحبة : تساوي وزن حبتين من الشعير
- ٢ - القيراط : يساوي اربع حبات . (اي ثلثي حبات شعير) والكلمة من اصل يوناني .
- ٣ - الدائق : يزن قيراطين ونصف . والكلمة من اصل فارسي
- ٤ - المئقال : يعادل ٨٦ حبة (١٧٢ حبة شعير) . وهو وزن الدينار الذهبي . والدينار يزن $\frac{7}{3}$ درهماً . وكل درهم يزن ستة دوائق (وكل مثقالين يعادلان وزن الليرة (الجنيه) الانكليزية الذهب المستعملة اليوم)
- ٥ - الاوقية : كلمة يونانية الاصل . واختلفت زنتها باختلاف الاقطار
- ٦ - الرطل : ويعادل عدة اوقيات تختلف باختلاف الاقطار
- ٧ - المن ، يساوي رطلين

٨ - النواة : تزن ٢٠ اوقية ، (تستخدم في وزن عروض الذهب والفضة والمعادن الثمينة)

٩ - القنطار : اصل الكلمة يونانية وتدل على المائة . ويزن ١٠٠ رطل

١٠ - البهار : فارسية معربة . تزن ٣٠٠ رطل أي ثلاثة قناطير (في المخصص لابن سيده ذكر للبهار بأنه ٤٠٠ أو ٦٠٠ رطل) .

ب - المكايل :

١ - المدة : يونانية الاصل ، واختلفت كميته .

٢ - الصاع : أربعة امداد

٣ - القفيز : ١٢ صاعاً

٤ - الوسط : خمسة اقفة (جمع قفيز) ويعادل ٦٠ صاعاً وهو في الاصل ما يعادل حمل حمار .

٥ - الكر* : ستة اوساق

٦ - الجريب ٤٠ قفيزاً

ح - المقاييس

١ - الاصبع : تعادل البوصة الانكليزية وتساوي ٦ حبات شعير مرصوة الواحدة وراء الأخرى بعرضها .

٢ - الشبر : يعادل الفرجة بين طرفي الابهام والخنصر ممتدين ليد رجل متوسط

٣ - الذراع : ٢٤ اصبعاً

٤ - الباع : قامة رجل متوسط

٥ - الميل : ٤٠٠ ذراع

٦ - الفرسخ نفس طول الفرسخ الفارسي (حوالي ٣ أميال)

٧ - الجريب : وحدة لقياس المساحات

أشهر المراكز التجارية : أدى ازدهار التجارة الى نمو بعض المدن نمواً كبيراً وخاصة تلك التي كانت ذات موقع هام وعلى مفترق طرق رئيسية تضطر القوافل ان تمر بها وتستريح فيها . وقد اشتهرت قبل الاسلام بعض المراكز في شبه الجزيرة وهي أسواق حولية لم تكن للتجارة فحسب بل كان يقضى فيها كثير من الشئون الاجتماعية والسياسية كما كان يعرض فيها نتائج القرائح من شعر وخطب . أشهرها :

دومة الجندل وعمان وعدن وحضرموت، وعكاظ وخيبر وبصرى ودرعا وغيرها ، هذا اذا استثنينا كبريات المدن كصنعاء والطائف ومكة والمدينة والبتراء وتدمر التي كانت ذات أهمية تجارية كبرى .

اما بعد الاسلام وخاصة بعد انتهاء الفتوحات فقد ازدهرت مدن اعتبرت مراكز عظيمة للتجار العرب الذين حملوا لواء التجارة العالمية في القرون الوسطى . منها دمشق عاصمة الامويين ومركز التقاء القوافل بين آسيا الصغرى وما بين النهرين ومصر وبلاد العرب . وكانت سوقاً تجارية هامة وخاصة زمن الامويين تتجمع فيها مختلف انواع السلع والبضائع وتوزع على مدن الساحل لتصدر عبر البحار او تنقل الى سائر انحاء البلاد العربية . وكانت حلب مركزاً هاماً بين خليج البصرة والبحر المتوسط ، وبين سوريا والعراق وآسيا الصغرى . وبقيت محافظة على مركزها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى لما جزأ الاجنبي البلاد العربية وفصلها عن بعضها بجواجز اقتصادية وسياسية منيعة لا يزال اثرها باقيا حتى الآن اما بغداد فكانت اشهر مدينة عالمية وقلب الامبراطورية الاسلامية والسوق

التجارية فيها ونقطة مواصلات رئيسية للقوافل بين الاقسام الشرقية والغربية للعالم الاسلامي . اما **البصرة** فكانت اكبر ميناء عربي تتفرع منها طرق بحرية ونهرية وبرية الى مختلف انحاء العالم وخاصة الى الهند والصين وسواحل افريقيا الشرقية .

وفي مصر والاندلس والمغرب العربي وفارس مدن كثيرة كانت اسواقاً كبرى للتجارة مثل : القاهرة والاسكندرية وطرابلس والقيروان وسليجاسة وطليطلة وقرطبة وغرناطة وسيواف وبجاري وسمرقند .

اساليب التعامل التجاري : كانت العادة في تلك العصور ان يتجمع اصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في حي أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقاً ولا تزال بقايا هذه العادة موجودة حتى الآن في كثير من المدن الشرقية والغربية .

وكانت تقام للتجار الاغراب خانات او فنادق . وهي ابنية واسعة لها صحن واسع اقيمت حوله اصطبلات ومخازن يعاوها طابق ثان يحوي غرفاً تتفتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق ممر دائري . وقد انشأ التجار في كل مركز تجاري هام نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى برئيس التجار كما كان يسمى اعضاء النقابة بالامناء .

اهتم الدين بالشروط التي تتحكم بالمبيعات معتبراً عقد البيع هو النموذج . ويجب أن يتوفر شرطان حتى يتم عقد البيع بصورة قانونية . اولها موافقة الطرفين والجرم بذلك (اما تدوينه كتابة فهو اختياري) . وتنتهي عملية البيع حين يتصافح المشتري والبائع باليد اليمنى متبادلين الایجاب والقبول (هل تشتري هذا مني ؟ اجل اشتريه) . اما الشرط الثاني

للعقد فهو ان يكون موضوعه شيئاً نافعاً . فالقانون يحرم بيع شي لا يستطيع الشخص تسليمه كطير طائر او اشياء غير نافعة أو غير طاهرة كالخنزير او النبذ . ويتم البيع بتسليم البضاعة ودفع السعر وللمشتري حق الخيار.

وقد عرف نظام الرهون والودائع . وهما ضروريان في مجتمع يتغيب فيه التجار طويلاً عن وطنهم . فالرهن يكفل للدائن دينه على تاجر سافر ليعرف عن اخباره شيئاً . اما نظام الودائع فهو تأمين للبضائع التي التي لا يستطيع التاجر أن يحملها معه أو لا يكون أميناً عليها في مخزنه الخاص . والشخص الذي يحافظ عليها يقوم بعمل من اعمال التقوى سيثاب عليه في الحياة الاخرى . ويفضل ان يوجد شهود في كلتا الحالتين .

سادت بين قريش قبل الاسلام عادة التسليف بفائدة وقد اعتادوا في حالة عدم دفع الدين وفائدته منح المدين مهلة ومضاعفة المبلغ وهو شرط قاس من شأنه ان يقضي على المدين من صغار التجار وعلى ذوي الاموال المحدودة . فلما جاء الاسلام حرم الربا ومنع الدائن ان يجني اي ربح من دينه . ويكون عمله عمل خير سيثاب عليه في الحياة المقبلة .

وكان استعمال الكمبيالة والسند (اي الحوالات او السفاتج) منتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه . ونستنتج من كثرة استعمال السفاتج (جمع سفتجة . وهي ان تعطي مالاً لرجل فيعطيك خطأ يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر) على اتساع اعمال التجار .

اغتناء التجار : كانت التجارة مورد رزق واسع منذ القرن الثاني للهجرة وخاصة لاصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من اهل البلاط . وتجاوزت ثروة بعض التجار الملايين من الدنانير . ف ضرب مثلاً

على ذلك اثناء الحسن بن عبد الله الجصاص . وسببه أن قبرمانة مغفلة في قصر أحمد بن طولون اعطته عقد جواهر فيه مائة حبة كل حبة تساوي مائة الف دينار وطلبت منه أن يخرطها حتى تصغر لتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فاستبدلها بأخرى صغيرة واحتفظ بالعقد الذي كان سبب اغتناء آل الجصاص . وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع الجواهرات صودر في عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة لأنه أخفى عنده عبد الله بن المعتز الذي كان يطلبه الخليفة . وقد صودر منه (١٦) مليون دينار وبقي له رغم ذلك شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع .

واستفاد تجار البصرة من موقع مدينتهم التجاري العظيم التي يقول فيها الجاحظ : « هي باب بغداد ومدخل دجلتها المتدفق بضروب والمتاع الأنواع السلع المجاورة من أطراف الدنيا . اذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حذب وصوب ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى ... » وتضخم ثروة تجارها . ويذكر ابن الاثير أن شخصاً اسمه الشريف عمر كان دخله (٢٥٠٠ ٠٠٠) درهم في السنة . كما بلغت ثروة أحد أصحاب السفن (٢٠) مليون دينار . وكان آخر يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار فاذا اعتبرناها ربع عشر ماله كان دخله اربعة آلاف دينار في اليوم . وقد ذكر ابن حوقل خبر تاجر من البصرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين بلغ مايتحصل من ضرائبها (١٠٠٠٠٠) دينار في العام .

العلاقات مع الصين والهند :

جاء في كتب الرحالة والجغرافيين أمثال البلخي والاصطخري والمسعودي

وابن حوقل والمقدسي وابن بطوطة قصص وحوادث كثيرة عن مغامرات التجار وتكبدهم المشاق والاعطال . وقد ظن الناس طويلاً أن أخبارهم هي وليدة الخيال الى ان جاءتنا مصادر صينية تشير الى كثير من الحوادث التي ذكرها الرحالة العرب . وبما جاء فيها خبر وفد أرسله المنصور الى امبراطور الصين سنة (٧٥٦ م) كما جاء ذكر سفن تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغير ذلك . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يقدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم .

كما أن العلاقات التجارية كانت متينة مع الهند . وكانت المهاداة بين العباسيين وملوك الهند متواصلة . وكانت الوفود تؤم بغداد وتقوي أواصر الصداقة بين الطرفين .

تجارة الاندلس وطرق ومواصلاتها

كانت تحارة الاندلس أكثر ماتكون وثقاً مع أوروبا والمغرب العربي بسبب موقعها وكونها صلة الوصل بين أوروبا وأفريقيا العربية . كما أن الصلاة كانت قوية مع بلاد الامبراطورية الرومانية الشرقية لمتانة العلاقات بين قياصرة القسطنطينية والخلفاء الامويين في الاندلس للعداء المشترك بينهما ضد العباسيين .

وبما ساعد أيضاً على تقوية المبادلات التجارية ضعف الصناعة في أوروبا ورقياً في الاندلس . وخاصة في النسيج والوشى والحزف وتكفيت المعادن والجلود . وكانت دول أوروبا تستوردها بكثرة من الاندلس . وقد سيطرت هذه اقتصادياً على كل شبه جزيرة اسبانيا . وظلت الممالك المسيحية الاسبانية

لم يكن بالعملية البسيطة التي نتصورها بل كان من الواجبات أن تتم بحضور كاتب عقود . وكانت الأسباب التي يطلب من أجلها الرقيق تبين وتسجل في العقد .

وأعظم المراكز التجارية في الأندلس كانت قرطبة التي كانت في القرن العاشر الميلادي أكثر المدن الأوروبية حضارة ومثارا إعجاب العالم . وكان الرحالة القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والرهبة بأخبار المدينة التي كان فيها سبعون داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . ثم يأتي بعدها اشبيلية كمركز هام وخاصة بعد أن أفل نجم قرطبة في عهد ملوك الطوائف . ومن المرافق الهامة المرية ودانية وطريفة .

طرق المواصلات في الأندلس : كانت قرطبة عقدة مواصلات برية هامة تتجه منها شبكة طرق واسعة بلغ عددها أربعة عشر طريقاً نحو مختلف أنحاء الأندلس : إلى سواحل المتوسط والاطلسي وجبال البرانس ومنها إلى فرنسا .

أما المواصلات البحرية فكانت تؤمن من مرافئ عديدة أهمها : ملقة وطريفة مع شمالي مراكش . ودانية والمرية مع السواحل الشرقية والشمالية وكانت المرية مركزاً رئيسياً لبناء السفن في الأندلس .

وكانت المواصلات النهرية ضعيفة لقلة الأنهار الصالحة للملاحة بسبب انحدارها وقلة مياهها صيفاً . هذا عدانهر الوادي الكبير الذي كانت الملاحة فيه دائمة . وكانت اشبيلية أكبر ثغر عليه تؤمن المواصلات بين المناطق الداخلية والمحيط الاطلسي .

طرق المواصلات البرية والمائية

اشهر طرق الجزيرة قبل الاسلام :

١ - البرية : لا بد لتلك التجارة الراقية المزدهرة التي تكلمنا عنها من شبكة كاملة للمواصلات البرية والمائية . إذ لا تجارة بدون مواصلات فهذه شرط ضروري أساسي لتلك . وكانت أشهر الطرق البرية المعروفة قبل الاسلام في شبه الجزيرة والهلل الحبيب هي : الطريق بين عدن وساحل الشام وكانت قوافل قريش تؤمن غالباً نقل البضائع ذهاباً وإياباً برحلتها في الصيف والشتاء . ويتفرع من هذا الطريق طريق آخر إلى مصر عبر سيناء . ثم ضعف شأن هذا الخط لما تحولت التجارة إلى الخليج العربي حيث كانت القوافل تمر بتدمير إلى ساحل الشام ثم حولها الفرس بعد ذلك إلى شمالي الجزيرة متجنبين البادية وبماشية الرافدين إلى سورية الشمالية ومنها إلى الساحل .

وتم طريق بري آخر هو الذي يتجه من حضرموت أو عمان شمالاً إلى الدهناء فيقطعها ثم ينحطف غرباً إلى نجد ومنها إلى الحجاز فيسير شمالاً ماراً بمكة والمدينة ومدائن صالح إلى بطرا . ومنها يسير إلى الشام أو إلى مصر .

٢ - المائية : أما الطرق المائية فكانت عبر الخليج العربي والبحر ومنها إلى سواحل أفريقيا الشرقية والهند وبالعكس . وقد ازدهرت المواصلات المائية بسبب الاخطار التي تتعرض لها القوافل عبر بواقي جزيرة العرب . وقد شعر المصريون القدماء بأهمية الطرق المائية ورخص تكاليفها

منذ عهد وعيسيس الثالث فصارت السفن ترسو في القصير على البحر الأحمر وتنقل البضائع منها براً إلى قفط على النيل . ثم لما تولى سيتي الأول العرش احتقر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر أي بين قفط والقصير . إلا أن القناة اهتمت بعده وبطلت الملاحة المصرية وصارت سفن سليمان وحيرام ملك صور ترسو في ايلة (العقبة) ومنها تسير القوافل إلى الشام ومصر .

طرق المواصلات بعد الاسلام :

١ - البرية : إلى جانب تلك الطرق البرية التي ذكرناها آنفاً والتي كانت مطروقة أيضاً بعد الاسلام ، احدثت طرق أخرى أوجبها اتساع رقعة الدولة العربية وازدياد المبادلات التجارية زيادة كبرى . وكانت أهم الطرق تلك التي تتجه من دمشق زمن الامويين ومن بغداد أيام العباسيين ، وهما عقدتا مواصلات هامة في تلك العصور .

كانت بغداد مرتبطة بالشام عن طريقين أحدهما يتجه نحو الفرات فحلب إلى انطاكية أو إلى الجنوب ماراً بدمشق وفلسطين فمصر . والثاني يصل بغداد بدمشق رأساً ثم يسير جنوباً إلى مصر . ومنها يتجه إلى طرابلس فالقيروان بماشيا الساحل ثم إلى بقية أنحاء المغرب العربي . وكان يتفرع من هذا الطريق طرق أخرى عديدة تسير نحو الداخل وبعضها يستمر حتى أفريقيا الاستوائية .

هذا نحو الغرب ، أما نحو الشرق فكان يمتد طريق يصل بغداد بالهند والصين عبر خراسان ماراً بكرمنشاه والري ونيسابور وطوس ومرو . ومن مرو يتفرع الطريق إلى فرعين رئيسيين أحدهما إلى بخارى وسمرقند فالصين وثانيهما إلى بلخ وكابل فالهند .

واقامت على طول الطرق في العالم الاسلامي خانات للمسافرين ودوابهم

وبضائعهم . يرتاح فيها التجار ، ويتبادلون البضائع ، ويعقدون الصفقات ، فقد كان في كل خان رئيسي ، عند ملتقى الطرق ، مكان يسكن فيه « السكاتب بالعدل » لتحرير عقود البيع والايجار والقيام بتسجيل ما يحتاجه التجار لضمان حقوقهم وواجباتهم ، كما فيه سمسرة يقومون بالوساطات بين البسائع والشاري ، ومنادون يعلنون عن البضائع بأصوات مرتفعة لجلب نظر زوار الخان ، كما هو الحال في الاسواق التجارية تماماً ، يضاف إلى ذلك وجود مختصين بتسعين وتقييم البضائع المعروضة ، والتأكد من سلامتها منعاً للغش . وفي الخانات الواقعة على الثغور وأطراف البلاد ، او الموانئ البحرية وجد متروجون ليسهلوا عملية التبادل التجاري بين العرب والوافدين من التجار الاجانب برأ او بحراً او عن طريق الانهار الكبرى .

هذا إلى جانب وجود محلات لتأمين حاجات المسافرين ، وتأمين عربات النقل ونحلول ودواب النقل (كالبرادعي والبيطار) ومطاعم وغرف المنامة لجميع هؤلاء .

٢ - المائية : وهي تنقسم الى قسمين بحرية ونهرية وكل منها متمم للآخر . وكانت البحار التي تمخر فيها مراكب العرب هي الاطلسي والمتوسط والاحمر وخليج البصرة والهندي وبحر العرب . أما الانهار فكان النيل ودجلة والفرات وهي قليلة كما يلاحظ بالنسبة الى اتساع الامبراطورية العربية وطول المواصلات البرية والبحرية .

فالمواصلات البحرية في الاطلسي كانت أهمها بين سواحل مراکش والبرتغال والاندلس وجزر الخالدات (قناريا) . أما البحر المتوسط فكانت أغلب المواصلات فيه هي بين شرقه وغربه وبالعكس . وكانت تقطعه السفن بمدة (٣٦) يوماً بين المرية وسواحل الشام . وقيل إن الرشيد فكر

في قناة تصل بين المتوسط والاحمر (قناة السويس) إلا أنه عدل عن ذلك خوفاً أن يستفيد منها أعداؤه البيزنطيون فيهددوا الاراضي المقدسة . أما في البحار الجنوبية والشرقية فكانت السفن تقطع البحر الاحمر من العقبة أو من سواحل مصر الى اليمن ثم تجتاز مضيق باب المندب الى المحيط الهندي . كما تتجه المراكب موازية لها في الخليج العربي منطلقاً من البصرة وسيراف وعمان وهرمز الى المحيط الهندي . ومن ثم تتابع السفن مسيرها من هذين الطريقين اما الى سواحل افريقيا الشرقية أو الى الهند فشبه جزيرة ملقا (الملايو) مارة من سرنديب ومنها الى الصين .

أما الملاحة النهرية فقد كان للنيل أهمية كبرى إذ انه يصل المتوسط بالاحمر وقد مر معنا كيف أن سبتي الاول احتفر قناة بين قفط والقصور إلا أنها أهملت من بعده . ولكن المواصلات بقيت مستمرة في العهد الاسلامي وكانت القوافل تؤمن نقل البضائع بين النيل والبحر . أما دجلة والفرات فالمواصلات فيها كانت قوية والمراكب لا ينقطع سيرها فيها وخاصة بين بغداد والبحر . وقد حفر العباسيون قناة وصلت دجلة بالفرات عند بغداد . وكما كان النيل يؤمن المواصلات المائية بين البحرين الاحمر والمتوسط كذلك كان الفرات يؤمن المواصلات بين خليج البصرة والمتوسط . وذلك أن السفن الآتية الى البصرة تنقل بضائعها عبر الفرات شمالاً حتى الرقة أو قرب بلدة مسكنة الحالية ومنها تنقل البضائع براً الى ساحل البحر المتوسط . وفي كتب الرحالة والجغرافيين العرب يوجد أمتع القصص وأغرب الالبحاث وأدقها عن الرحلات البحرية مع وصف مسهب للمناطق التي زاروها والاعطار التي تعرضوا لها وأنواع السلع التي كانت تنقل من منطقة الى أخرى .



الفصل السابع عشر

الفنون

١ - ميزات الفن العربي الاسلامي

الفن الاسلامي : هل للاسلام فن ؟ وليس الاسلام ديناً ؟ والفن فناً ؟ فما علاقة هذا بذاك ؟ ...

ان الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن . فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق بمنح لعالم الكمال ... وكلاهما ثورة على آلية الحياة . والفن الاسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الاسلام . فليس هو الوعظ والارشاد ، وانما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود ... هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان . هو الفن الذي يهيء اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحلق » ، فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحلق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود ^(١) اذن ماذا نعني بالفن الاسلامي ؟ هل هو فن عربي ؟ أم فن اسلامي ؟ ألم يكن في الوطن العربي في عصوره القديمة فنون مميزة ؟ ليست فنون ما بين النهرين وادي النيل وبلاد الشام

(١) من مقدمة كتاب منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب .

واليمن من ارقى انواع الفنون القديمة وأكثرها ديمومة وحيوية ؟ وعدّها الاسلام وادخل عليها تطورات جديدة ؟ اليس من المنطق ان تكون فنوناً عربية اسلامية ، فيها اصالة الفن العربي وذوق وروح الاسلام ؟ ولكن ، هل اكتفى الاسلام في الانتشار فوق ربوع الوطن العربي الكبير ؟ ام رفرف بجناحيه بعيداً ، في شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، فدخل في حوزته فرس وهنود وصينيون وترك وصفد ، ومغاربة وزنوج ، وقوط وفاندال وغيرهم ؟ او لم ينضو تحت لواء « حكومة الاسلام » مسلمون وغير مسلمين ، عاشوا في ظل دولة واحدة ؟ ألم يكن هؤلاء جميعاً في امصارهم المتباعدة تقاليد فنية وتأثرت بالعرب والمسلمين واستمرت هذه التقاليد خلال العهود الاسلامية المختلفة ؟

الواقع ، ان الفن الاسلامي يعني جميع الجهود التي بذلها العالم الاسلامي خلال عشرة قرون على الاقل في التعبير عن الجمال وصنع الاشياء الفنية . والفن الاسلامي أوسع الفنون العالمية انتشاراً على الاطلاق إذ تمتد آثاره من خليج البنغال في الهند حتى ايبيريا . كما أنه أطول فنون العالم عمراً باستثناء الفن الصيني فقد ولد في القرن السابع الميلادي (الاول الهجري) وبلغ عبقريته الفنية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٧ - ٨ هجري) ثم هزم منذ القرن الثامن عشر (١٢ هـ) وهو الى جانب هذا وذاك ، آخر فنون العالم ظهوراً قبل ظهور الفنون الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الاوربية ؛ وأخيراً فالفن الاسلامي ذو شخصية قائمة بذاتها ، ذات تاريخ خاص ومميزات معينة واضحة . وقد اعطاه الاسلام طابعه الخاص ، اعطاه - كما يقول جورج مارسه - :

« وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على اصولها . وقد كفى هذا الفن أن يبر عليه مائة عام من الزمان لكي يترسخ في أعمال لم يعد بالامكان نسبتها

للفنون القديمة التي أغنته . وعبر القرون كان يتعهد أكثر فأكثر عن
المؤثرات التي أحاطت بمقدمه إلى العالم . ففي القرن التاسع الميلادي كان
يمكن بسهولة اعتبار تاج عمود في مسجد دمشق أو القاهرة بلطف سله
وأوراق الاكانتوس التي تغلفه مستوحى من الطراز الكلاسيكي الكورنثي .
وفي القرن الحادي عشر الميلادي يصبح تحديد هوية الأصل نوعاً ما أكثر
صعوبة .»

كما يمتاز هذا الفن الاسلامي بتنوعه العظيم ، تنوع أصاب نواحيه
وأشكاله وجماعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله . تنوع بلغ من الشدة حدّاً
يصعب فيه كثيراً أن نجد فيه تحفتين متماثلتين . ومع ذلك فانه يمتاز
بوحده . فلو أنك عرضت على أي شخص — كما يقول ديماندر — تقتصر
معرفته بالفنون على المبادئ العامة والبسيطة ، صوراً متنوعة ، لتحف
مصنوعة في العصور الاسلامية ، منها مثلاً صورة لقطعة من العاج الاندلسي
واخرى لقطعة من النسيج المصري وثالثة من الزجاج الدمشقي ، فلا شك
أنه يشعر بوحدة أساليبها ، ولا يتردد في الحكم بانتمائها جميعاً الى الفن
الاسلامي .

تطور الفن العربي — الاسلامي : بدأ الفن الاسلامي ، مع بدء
الدعوة ، فقد لفت القرآن الكريم الانظار إلى ناحيتي الجمال والزينة في
المخلوقات إلى جانب ما لها من النفع فقال تعالى : « والانعام خلقها لكم
فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ... » والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة
ويخلق ما لا تعلمون ... » (سورة النحل) وأشار القرآن الكريم إلى
الوسيلة التي توصل الانسان المؤمن إلى تهذيب الخلق حتى يصل إلى حب
الحير ، وتهذيب الذوق حتى يصل إلى حب الجمال ، فاقسم ببعض المظاهر

الطبيعية لندرك ما فيها من أسرار الجمال الفني ، من تكوين محكم وتنسيق بديع وألوان رائعة ، وتناسب ، وتقابل ، وتكرار ، وظلال وأضواء — كما يقول د. محمد عبد العزيز رزوق — دون أن يحرم القرآن على أتباعه متع الحياة المشروعة : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . واكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، (سورة الاعراف) .

وبنى النبي عليه السلام مسجد المدينة ، واتخذ المسلمون المساجد في كل بلد انتشر فيه الاسلام . ولئن نشأ فن عمارة المساجد تلبية لحاجة دينية فارتبط المسجد بالدين ، كما ارتبطت المعابد في دنيا العالم بالعقائد الدينية ، فان الفن الاسلامي مالبت أن ارتبط كثيراً أو قليلاً بالحاكم أو حاشيته المباشرة وبالطبقة الغنية . فالعمار شيد المساجد والقصور ، من أجل الخليفة أو الأمير ، وكذلك فعل عند بناء المدارس والأضرحة ، ونقش النقاشون الرخام وصور الرسامون المخطوطات المستمدة من النباتات أو الأشكال الهندسية ، وحاك العمال البسط والسجاد ، وصنع الفنانون مختلف الأثاث وأدوات الاستعمال الفنية ، فكانت المنشآت المعمارية وصناعة الرياش والحلي وأدوات الزينة تزدهر تبعاً لحالة السلم الذي تتمتع به البلاد وتبعاً لغزارة الموارد التي تغذي بيت المال يتداولها التجار والحكام وذوي الثروة والجاه . وقد امتد مجال الفن الاسلامي حيث انتشر الاسلام ، على شريط عريض يمتد من شرق الارض الى مغربها ، من خليج البنغال وتقوم الصين الى اقصى المغرب وعبر الى اوربا الى الاندلس وجنوب غرب فرنسا ، وتوغل في القارة الافريقية وما وراء النهر وبخارى وتركستان ، فجمع العالم المتمدن في العصور

الوسطى ، ومزج بين تقاليد شعوب العالم القديم والوسطى - عدا اوربا - .
ولكي نفهم تطور الفن الاسلامي لابد أن نربطه بالخطوط العريضة لتاريخ
العرب المسلمين .

ففي زمن بني أمية بدأ ظهور الفن الذي يمكن ان نسميه الفن العربي
- الاسلامي . ولم يكن في مطلع أمره بسيطاً ، كما قد يخيل إلينا . لأن
العرب بدأوا باقتباس الفنون التي سبقتهم لانعدام التقاليد الفنية لديهم ،
كما هو الحال لدى جميع الأمم . فاقترض الأمويون الفنون البيزنطية التي
وجدوها في سورية والشرق الأدنى وأوجدوا منها طرازاً فنياً خاصاً ، هو
مرحلة انتقال بين الفنون البيزنطية والطراز العباسي . وقد نقل ولاتهم
وقوادهم أساليب ذلك الطراز إلى سائر الأقاليم الاسلامية على يد الصناع
الذين كانوا يستقدمونهم من الشام ومصر ، وقد حدث أن بقي ملك بني أمية
في المغرب بعد زواله في المشرق ، فبقي الطراز الأموي قائماً وتطور
ليظهر منه طراز أموي غربي يشمل أجمل آثار الأندلس .

ولما آل الحكم للعباسيين (منذ سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) وانتقل مركز
الخلافة الى العراق تأثرت جميع نواحي الحياة والدولة بالتقاليد الساسانية
ومن ذلك الفن أيضاً الذي اتخذ اتجاهاً جديداً واضح التأثير بالأساليب
الفنية الفارسية ، فلم يعد فناً عربياً اسلامياً بل غلبت عليه صفة الفن الاسلامي
وبلغ هذا الفن أوج عظيمته في سامراء (القرن الثالث هـ) . ونجح
العباسيون كالأُمويين في فرض اساليبه على الامبراطورية الاسلامية كلها
وأصابوا في ذلك توفيقاً لا يعدله إلا توفيق الاسكندر وخلفائه في نشر
الأساليب الهيلينية في الشرق الأدنى والوسط .

وما انحطت السلطة المركزية العباسية (أول القرن الثالث هـ) حتى

انحط معها الفن الاسلامي الموحد. ومع نشوء السلطات المحلية المستقلة في الأقاليم الاسلامية ، بدأ نشوء أساليب محلية مستقلة في الفن : وهكذا حاول الطولونيون بعث طراز إسلامي خاص بهم في مصر ، فنقلوا من العراق كثيراً من التحف الفنية التي مهدت لانتاج محلي مقتبس مما وجد في بغداد مع تعديل مازال ينمو ويظهر حتى جاء الفاطميون ، فبعث خلفاؤهم وامراؤهم واغنياء الشعب في مصر روح فن جديد فيه ترف عظيم ، ووصل الفنانون المصريون الى طراز فني مستقل ، غني بالرواق والجمال ، وفق رجاله في صدق التعبير عن الحالة النفسية ، وفي دقة تصوير الحركة بدرجة لم يبلغها الفنانون في مصر قبلهم ، فكان عصر ثورة ملموسة في الفن ، تتمثل فيما خلفه هذا العصر من تحف خزفية مزينة بزخارف مرسومة بالبريق المعدني او محفورة تحت الطلاء الزجاجي ، او تحف زجاجية ومعدنية جميلة الصنع دقيقة الزخرفة ، وما خلفه هذا العصر ايضاً من اخشاب مزخرفة محفورة زينت القصور والمساجد ، واقمشة من الكتان والحري والصوف موشاة بكتابات تاريخية هامة وزخارف عربية نباتية وهندسية .

فلما كان عصر الايوبيين والمماليك الذي ظهر في مصر والشام ، وازدادت ثروة البلاد ، ومال امراء المماليك الى حياة الترف ، وملء القصور بالاثاث النفيس واسباب الراحة والتنعيم والتسابق ببناء القصور والمساجد والمدارس والاضرحة ، واقتناء كل ما هو جميل ونادر فتحسنت صناعة التحف النحاسية المكففة بالذهب والفضة ، والمشاكرات من الزجاج المموه بالمينا ، وانواع الخزف والفخار المطلي بالمينا ايضاً والاشباب المطعمة بالعاج والابنوس ، والمشربيات وغيرها من الصناعات الفنية التي تشهد بطابع فني محلي يمثل هذا العصر ، ويدل على ذوق رفيع ، ومهارة يد ظاهرة .

أما في العراق والشرق الايراني فقد قام على انقاض الطراز العباسي طراز جديد هو الطراز السلجوقي الذي اتسع له السيطرة في عهد السلجقة بالقرن الخامس على القسم الشرقي من العالم الاسلامي . ثم قامت في ايران ، من بعده ، وبعد تمزق الامبراطورية السلجوقية الى دويلات ، اساليب قومية ايرانية اولها الطراز المغولي الذي ازدهر منذ وطد المغول حكمهم هناك في القرن السابع الهجري حتى سقط خلفاء تيمور وقامت الدولة الصفوية (في مطلع القرن التاسع) فازدهر الطراز الصفوي وسيطر حتى بداية القرن الثاني عشر الهجري . ثم فقد تألقه مع سيطرة الفنون الاوروبية . ويمكن اخيراً ان نضيف ان الفن الاسلامي غزا الهند منذ القرون العاشر الهجري ؛ ولكنه كان متأثراً بالطراز الايراني . كما ان العثمانيين اوجدوا منذ القرنين التاسع والعاشر طرازاً تركياً تأثر بالاسلوب البيزنطي أولاً وبالاساليب العربية كما تأثر في القرون الاخيرة بالطرز الفنية الاوروبية .

عصور الفن الاسلامي :

قلنا ان لازدهار الفن العربي الاسلامي علاقة واضحة بالاستقرار السياسي ويميل الحكم الشخصية ، وإن بإمكاننا أن ننسب الطرز الفنية إلى الدول الحاكمة ، ولهذا رأينا أن نعتمد لحد كبير على التقسيمات السياسية في التاريخ الاسلامي ، في تحديد عصور الحياة الفنية على أن نتذكر أنه إذا كان من الممكن معرفة التاريخ الذي بدأ فيه حكم الأسرة الحاكمة أو زوالها فاننا لا نستطيع أن نعرف بالدقة أو بالتحديد نفسه تاريخ قيام أي طراز فني أو زواله . لأن الطرز تتطور تدريجياً ويأخذ بعضها من بعض وتستمر بعد زوال أصحابها . وعلى هذا الاساس يمكن تقسيم الحياة الفنية في الاسلام إلى العصور التالية :

٦١ - **عصر العالم الاسلامي الموحد** : ويمتد من اواسط القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، أي فترة الفتح وانتشار الاسلام في العالم القديم . ومن العاصمتين دمشق ثم بغداد وأخيراً سامراء تألق الفن العربي الاسلامي الوليد ، ولم يكن هذا الفن جديداً جدة واضحة لأنه لم يكن قد تكشف بعد عن شخصيته المستقلة ، حتى لقد يعده بعض الكتاب ازدهاراً متأخراً لعبقريّة شعوب الشرق العربي القديمة وأطراف الجزيرة وشعوب البلاد التي ضمت إلى الدولة العربية .

في هذا العصر ، استطاع الاسلام وهو خاو من أي تقليد فني ، أن يتوسع في بقعة من اقدم البقاع المتحضرة ويستفيد في وقت واحد من عالم البحر المتوسط والعالم الآسيوي ، فمنحه عالم البحر الأبيض المتوسط الفن الهلينستي ، والعالم الآسيوي الفن الايراني ، فتأثر بهذين الطرازين اللذين تعاقبا أو تزاخما أو اشتراكا في طابعهما على آثار العصر الأموي والعصر العباسي الأول . ولكن التأثير الايراني لا يظهر إلا حين ينتقل مركز الحكم إلى العراق ويحل خلفاء بني العباس في بغداد وسامراء محل ملوك الساسانيين في المدائن ، إذا ذاك يظهر استعمال الآجر في تركيب الجدران والكوى ، ويظهر استعمال الجص وغيره في نقشها وزخرفتها ويظهر « الايوان » هذا في نفس الوقت الذي تحتفظ فيه سامراء مثلاً بزخارف هيلينية !

ومعظم الذين قاموا بهذه الأعمال الفنية الأولى في الاسلام كانوا بالطبع من سكان البلاد الأصليين : من السوريين والعراقيين والقبط والبربر ، وهم من العرب وغير العرب وقد وضعوا الأسس الأولى للفن العربي - الإسلامي وحددوا أهم ميزاته الباقية .

٦٢ - **عصر الخلافت الثلاث** : ويمتد بين القرن العاشر حتى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي : وفي هذه الفترة التي امتدت كالسابقة ، قرنين ونصف

القرن تفككت الامبراطورية العربية بوضوح وظهر فيها ثلاثة مراكز كبرى : الخلافة العباسية في بغداد والشرق . والخلافة الفاطمية في الوسط ، وتحكم من القاهرة ما بين ليبيا إلى الشام . والخلافة الأموية في الغرب (الأندلس) . وقد خرج الفن الاسلامي برعاية هذه الخلافات الثلاث من عصر التقليد والتلمس وبدأ يتميز بشخصية متشابهة الملامح في مراكزه المختلفة ؛ بغداد والقاهرة وقرطبة ، في الوقت الذي كانت فيه التأثيرات المحلية تظهر أيضاً وتفرض نفسها وتتميز بين الأساليب في الشرق والغرب . وهكذا استطاعت وحدة العقيدة ، والحاجات الدينية والأسس الفكرية والمصالح الاقتصادية الواسعة وحرية الانتقال والتبادل التي وجدت العالم الاسلامي أن تؤثر بدورها على الحياة الفنية وتحفظ لها الطابع الاسلامي الخاص ، سواء كان الاثر العربي هو الغالب ، أم الاثر الأعجمي الاسلامي . ولكنها سمحت مع ذلك للمراكز المختلفة من الشرق والوسط والغرب أن تحتفظ بإبداعها الخاص . ومقارنة سريعة بين المسجد الأكبر السلجوقي في أصفهان ، ومسجد الحاكم الفاطمي في القاهرة ومسجد قرطبة في الأندلس ، ترينا بوضوح الطوابع المحلية الخاصة . وهكذا ظهر الفن السلجوقي في الشرق ، والفن الفاطمي في مصر والشام ، والفن الأندلسي - المغربي في أقصى المغرب .

وفي هذه الفترة ظهرت بعض العناصر الزخرفية في الفن الاسلامي كالمقرنصات ، والنقش البارز بالعناصر النباتية المحورة وغيرها . ومن المدهش أنها انتشرت بسرعة وظهرت في أوقات متقاربة في مراكز جد متباعدة من العالم الاسلامي ، بل إذا لنرى فوق هذا أن فنون المسلمين في هذه الفترة قد تجاوزت المملكة الاسلامية إلى الغرب على أيدي الصليبيين ونجد آثارها في ما بقي من فنون العصور الوسطى الغربية ، كما أن الاماكن

التي جلا عنها الاسلام إذ ذاك ظلت في عهد حكامها الجدد تشع بالفن الاسلامي ، كصقلية مثلاً في عهد النورمانديين .

٣- عصر ما بعد الخلافات : ويمتد ثلاثة قرون أيضاً (منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر-م) انهارت منذ مطلعها الخلافات الثلاث وحل محلها حكومات الأتابكة والمماليك المغتصبين الذي تعرض العالم الاسلامي في عهدهم إلى أخطار خارجية هائلة : ففي الشرق غزوات المغول (جنكيز خان) ثم التتر (تيمور) عدا الخطر الصليبي الفرنجي ، وفي الغرب كان الحكم العربي يخسر الاندلس قطعة قطعة . ومع هذا فإن تقسيم العالم الاسلامي إلى دول صغرى وتعدد مراكز الحكم فيه شجع الفنون على نطاق ضيق . والاضطراب الخارجية زادت في الحساس الديني وخلقت فيه التصوف وانعكس ذلك بشكل مساجد ومدارس وأربطة وأوقاف كثيرة ملأت البلاد الاسلامية ، ولكن مجال الابداع في ذلك كله كان محدوداً . بمعنى أن العصر الذهبي قد انتهى وانطوى العالم الاسلامي على نفسه يتغذى من ذاته فلم يتصل بفنون الغرب التي كانت بدأت عصر النهضة إذ ذاك ، ودفع ذلك المخطأ وجوداً متصلًا في كل تقاليد الفنية .

في هذه الفترة ازدادت المدارس الفنية الاسلامية تميزاً رغم تشابهها ، وبدأ كل قطر يخلق أشكاله الفنية الخاصة ، ومعظمها من الأبنية ، واضعاً في مخططها وألوانها وهندستها وزخرفتها شخصيته المحلية المستقلة ، فبنى الفرس الجوامع ذات الباحات الواسعة والأواوين المزينة بالمقرنصات ، والمآذن المتعددة . والقباب البصلية الشكل المزينة بالظاهر . وأما في الشام ومصر فكانت أحجام الأبنية أقل ضخامة ، والألوان أقل وضوحاً والقباب أكثر

استدارة والمآذن ذات شرفات . وأما في الاندلس والمغرب فكانت مخططات الأبنية بسيطة والأبراج مربعة والسقوف محدبة والزخرفة واضحة تغشى كل شيء .

على أنا مع هذا نجد كثيراً من الملامح المتشابهة في فنون البلاد المختلفة بسبب هجرة الفنانين وتنقل الناس ونقل فكرة المؤسسات المختلفة من قطر إلى قطر : كالمدارس مثلاً التي انتشر بناؤها من بغداد وسمرقند إلى غرناطة وفاس على نمط واحد من الهندسة .

٤ - الفن المغربي - الاندلسي : ولعل من المفيد ان نفرد لهاتين المنطقتين الاسلاميتين فقرة تشرح اساليهما الفنية المتشابهة والتي يتم بعضها بعضاً ... واذا كان الفن الاسلامي بمجموعه يتميز بانه فن يجمع بين الفن العربي الاصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الاسلام اوضحه الحكم العربي ، فإن هذه الميزة ايضاً تظهر في المغرب والاندلس بتمازج الفنين الشرقي والبربري .

والبربر قبل الإسلام اتبعوا اساليب معمارية تتلاءم مع طبيعة بلادهم الجبلية ، فاتخذوا « التغرمت » اي الدار المحصنة وتتألف من بناء مربع تقوم في أركانه الأربعة أبراج ولسورها مدخل واحد . كما اتخذوا « الايغوم » أي المخازن المحصنة وهي عبارة عن أجنحة منفصلة تنفتح على ساحة داخلية ، وتقع في أعالي الجبال ، في نقط استراتيجية ، تتخذ مستودعاً للخزن وقلعة يلجأ إليها سكان المناطق المجاورة عند الخطر . واتخذوا ايضاً « الاجدير » وهي دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي إلى ساحة مركزية فيها عدة طبقات من الغرف ، وصاروا بعد الاسلام يضيفون إليها مسجداً ، وتتخذ لحفظ المؤن كما تحوي صهاريج خاصة لحفظ المياه ..

والأبواب البربرية تصنع عادة من أخشاب مسمرة في إطار فوق عوارض عمودية ، تنقش عليها رسوم بدائية وتتوسطها مطرقة من حديد على أنماط شتى .

وأول من أدخل الفن الاسلامي إلى أفريقيا هم الأغالبة ، ووضعوا اسس الفن الجديد في القيروان حين جددوا مسجد عقبة بن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة ثم بدأ الاقتباس في مدينة فاس ... ولما جاء المرابطون والموحدون ، ومن بعدهم بنو مرين وبنو زيان (في تلمسان) والحفصيون (في تونس) زادوا في اغناء الفن المغربي الاندلسي ، وتمييزه بالنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشهاسيات الملونة والنحاس المموه والممر المقتص وترصيع المنارات بالزليج^(١) .

هـ - العصر العثماني الايراني : ويبدأ منذ القرن السادس عشر ونستطيع أن نسجل انتهاءه مع نهاية القرن الثامن عشر وقد عاد إلى العالم الاسلامي الشرقي والأوسط خلال هذه القرون نوع من الوحدة بظهور الامبراطورية العثمانية على البحر الأبيض المتوسط وشاهات الصفويين في إيران . وقد نشر العثمانيون في البلاد التي حكموها نوعاً خاصاً من الأبنية الدينية ذات قباب كبيرة مفلطحة ومآذن رشيقة نرى أجمل آثارها في عاصمتهم (اسلام بول) ونرى منها في البلقان والشام أيضاً .

(١) الزليج نوع من الترصيع الخزفي ، اصله من الاندلس ، يشبه القسيفساء ويعرف بالمفضض . والترصيع هو التكفيت وتعرف في بعض البلدان باسم التلبيس والترسيب والتنزيل واطلق عليها في مشرق العالم الاسلامي في العصر العباسي : التطبيق . وقد دخل الترصيع بلاد المغرب عن طريق سورية ، ولا يزال يسمى هذا الفن في اسبانيا واوروبا باسم الفن الدمشقي ولا يزال يقلد في صنع الاواني والحلي .

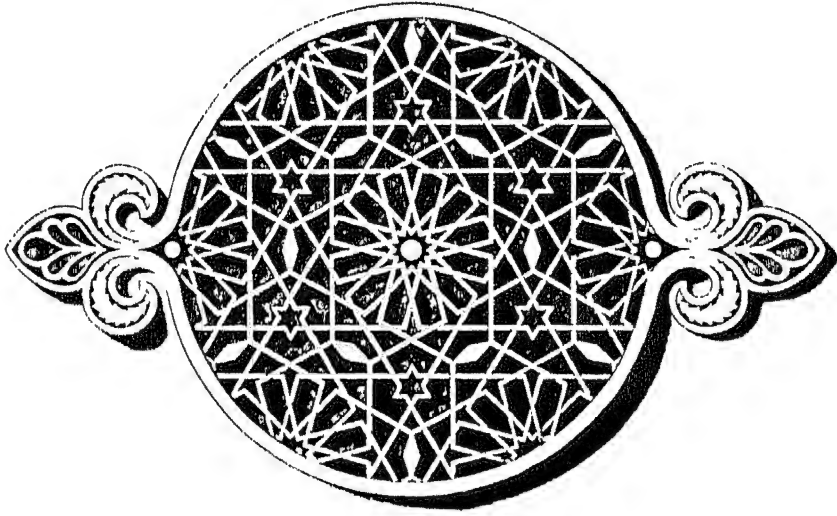
أما إيران فقد حافظت على كثير من تقاليدها الفنية : وتربنا أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير في مخططها العام وابنتها الدينية نموذجاً فريداً من مدن الاسلام . وقد استطاع الطراز الايراني أن يغزو الهند ويخرج فيها التحفة الفنية المشهورة : تاج محل في آكرا . ويضاف إلى هذا أن إيران عرفت رسم الكائنات الحية وسجلت فيها وفي الزخرفة تقدماً هو الوحيد من نوعه في الاسلام .

مميزات الفن العربي الاسلامي :

تختلف مميزات الفن العربي الاسلامي باختلاف نوع الفن والعصر والمكان . ومع ذلك فيمكن أن نرى فيها صفات مشتركة عامة :

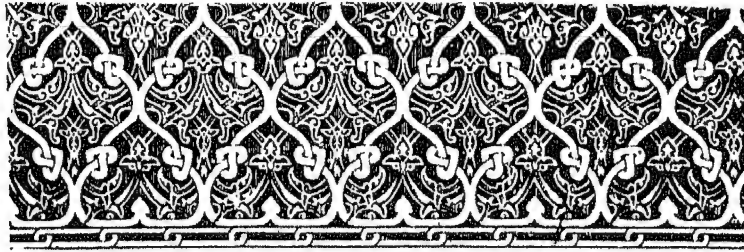
١ - إنه ذو شخصية واحدة رغم تعدد مراكزه وتباعد أقطاره وظهور التأثيرات المحلية فيه . وقد حاول الباحثون تحليل هذه الوحدة في الفن العربي الاسلامي بأنها ترجع أولاً لتأثير العامل الجغرافي المتشابهة في مختلف الاقطار الاسلامية منذ إيران إلى مراكش ، فهناك دوماً مناطق جبلية من حولها سهول وصحارى ، ومناخها جميعاً معتدل وأكثر ميلاً للجفاف ، كما أن نوع الحياة الحضرية والزراعية واحد . وترجع الوحدة ثانياً لتأثير العامل التاريخي فمجموع العناصر التي كانت تشكل القاعدة البشرية في الشام ومصر والعراق هي من بقايا العرب القدماء وكانت على صلة بشعوب آسيا وأفريقيا التي انطوت تحت لواء الدولة الجديدة التي جاءها الاسلام ، فوجدت الناس فيها في لغة واحدة ودين واحد وحكم متشابه الأسس . ومن هذا وذلك مشتت الأساليب الفنية متشابهة في كل مكان .

٢ - إنه فن ديني بمعنى أنه تأثر بروح الاسلام وانصبت أنواعه المختلفة على المواضيع الدينية في الدرجة الأولى : من بناء للمساجد والمدارس



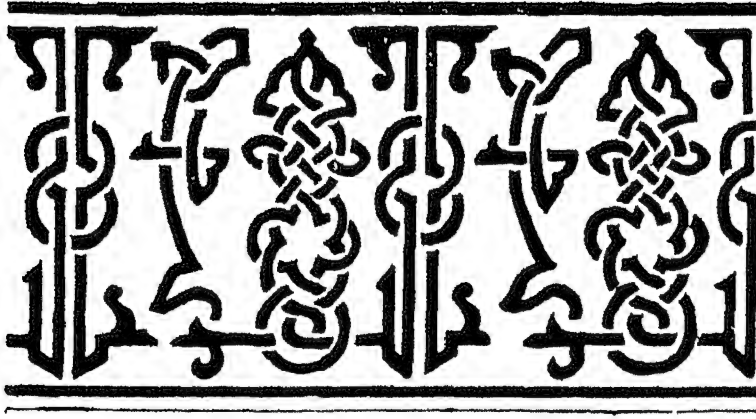
شكل - ٤٣ -

زخرفة موجودة في واجهة مسجد شمس الدين صنقر في القاهرة
صنعت عام ٧١٥ هـ . وتعد نموذجا من الزخرفة الاسلامية
في مصر في اوائل القرن الثاني الهجري



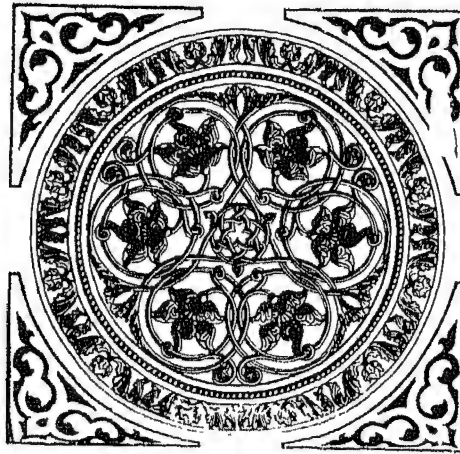
شكل - ٤٤ -

زخرفة موجودة الان في المسجد الذي بناه خاير بك أحد امراء
المماليك في عهد السلطان الغوري اول حاكم من المماليك عينه
العثمانيون بعد فتح مصر، والمسجد في القاهرة، بني عام ٩٠٨ هـ
وفي الزخرفة اسلوب التوشيح العربي . ويعني التوشيح تكرار
عنصرين زخرفيين او اكثر متشابهين تشابكا هندسيا ، متماثلا
او منتظما ، تتباين فيهما الحركة تباينا توقيعيا (انظر دائرة
المعارف الاسلامية . مقال آرابسك)



شكل - ٤٥ -

جزء من كتابة كوفية مزخرفة معقودة على هيئة قنديل ، من الطراز
الايوبي . موجودة على ضريح في القاهرة اقيم في القرن السابع
الهجري وينص هذا الجزء على كلمة : خالدين



شكل - ٤٦ -

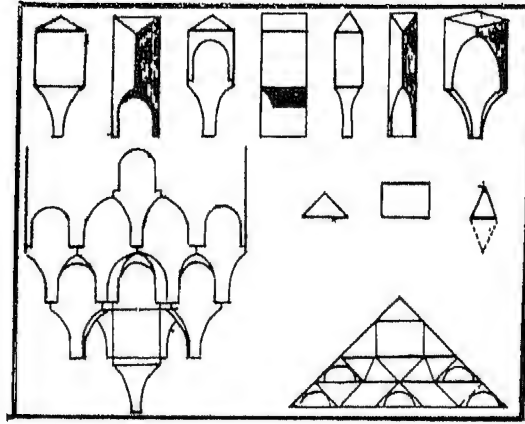
نموذج لزخارف اسلامية نباتية موجودة في مسجد الامير سيف الدين
صفرتمش المملوكي في القاهرة صنعت عام ٧٥٧ هـ

والتكيا ومن زخرفة بالآيات القرآنية ، وكثيراً ما كان الباعث على الأعمال الفنية باعناً دينياً . ويكفي أن نستعرض الآثار الإسلامية من الكؤوس والمصابيح والأباريق في المتاحف إلى الأبنية الضخمة لنرى الدور الكبير الذي قام به الدين في الانتاج الفني .

٣ - إنه فن كثير الزخرفة : وملء القطعة الفنية بالزخارف عنصر رئيسي في الفن الإسلامي . نجد ذلك على الجدران والمناير والسقوف كما نجده في المنسوجات والبسط والزجاجيات ، وفي التوابيت والشواهد وجلود الكتب . وقد اعتمد العرب على عنصرين اثنين في الزخرفة : الأشكال الهندسية التي برعوا فيها براعة مدهشة اقتبسها عنهم الغربيون من مضلعات مختلفة وأشكال نجمية متداخلة ودوائر مزجت خطوطها بالكتابة . . الخ . والأشكال النباتية التي تفتنوا في تصويرها ولكن على طريقة التكرار كما في القاشاني والسجاد . ولم ترسم الأزهار مع ذلك بشكلها الطبيعي إلا في فارس وسورية . أما في غيرها ، ولا سيما في العصر الفاطمي فقد كان النبات والحيوان معه يحوّر إلى شكل زخرفي خالص . واستخدم العرب الخط العربي ، بأنواعه المختلفة في التزيين ، وتفننوا في اختيار الآيات والحكم والاشعار للزخرفة بها ، ومن العبارات التي اشتهرت بها الزخرفة الاندلسية : « ولا غالب إلا الله » .

وبلغ الشغف بالتزيين في البلاد العربية والإسلامية أن غشيت أعالي المداخل والابواب والاولوين في الابنية بأشكال هندسية صغيرة متدلية عرفت بالمقرنصات .

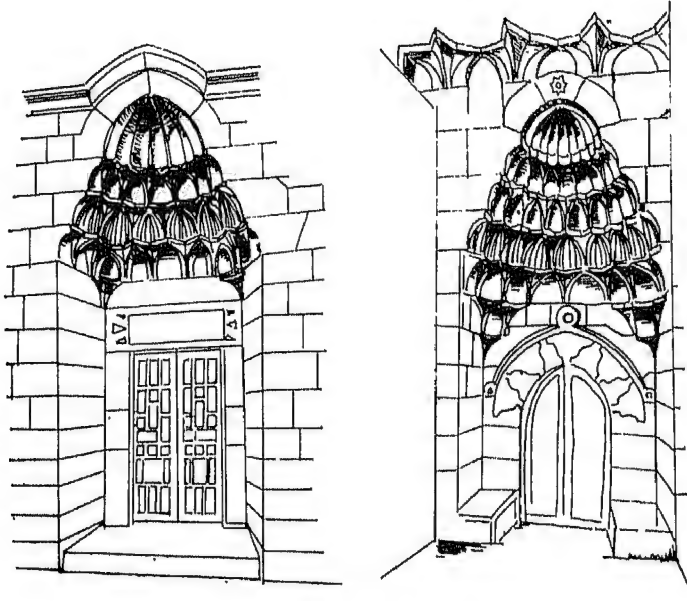
٤ - إن الفن الإسلامي أهمل رسم الأشكال الانسانية والحيوانية وخاصة في أماكن العبادة . وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يعرفوها



شكل - ٤٧ -

يرى الفنيون المعماريون ان المقرنصات الاسلامية تتألف من سبعة عناصر تشاهد في أعلى الشكل ومن اضافات تشاهد في الوسط ومن تنسيقها مع بعضها يحصل المعماري الفنان على المقرنصات البديعة الصنع التي تأثرت بها العمائر الاسلامية

إطلاقاً فقد أثبتت رسوم « قصر الحير » وقمائله (وهي في متحف دمشق) وأشعار بعض الشعراء أن رسم الانسان والحيوان كان معروفاً ، ولكن أتقياء المسلمين كرهوا ما حارب به الرسول وكرهه أيام حارب الأصنام والشرك ، فبقي هذا العنصر الفني ضعيفاً مهملاً . واحتال بعض الفنانين على الأشكال الحيوانية فحوّرها حتى صارت أسبه بالزخرفة كما في صحن وجد في سامراء وعليه رسم نسر يظهر وكأنه ورقة مسننة مغطاة بالزخارف حتى ما يكاد يبين . وأهم مظاهر الفن العربي الاسلامي يتمثل في المدن والعمران والفنون الجميلة .



شكل - ٤٨ -

نماذج من المقرنصات الاسلامية

الشكل الاول على يمين الناظر ، يمثل المقرنصات من الطراز الايوبي
ولا تزال موجودة عند مدخل المدرسة الاتابكية في الصالحية
بدمشق . والشكل الثاني على يسار الناظر هي مقرنصات
مدخل مدرسة الصاحبة بدمشق

* * *



٢ - المدن الاسلامية



بناء المدن في الاسلام :

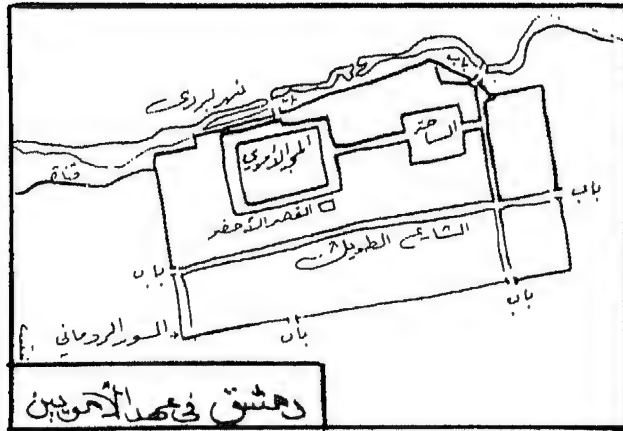
بدىء ببناء المدن في الاسلام في زمن مبكر جداً اذ ما كاد العرب يفتحون العراق ومصر حتى تونس في زمن عمر بن الخطاب حتى كانوا وضعوا اسس أربع مدن . وهذا ما لم ينتبه اليه المؤرخ (ابن خلدون) حين كتب ان العرب ما دخلوا بلاداً الا أسرع إليها الخراب ! واستغل بعض الشعوبيين ذلك التشجيع ، وقد استمر بناء المدن قائماً حتى العهود الاسلامية المتأخرة .

وقد اختلفت الغاية والطريقة في بناء المدن الاسلامية الكبرى بعض الاختلاف عنها في المدن الاخرى . فبعض المدن القديمة كان ينشأ محطة للقوافل التجارية ثم ينمو بالتدريج وبعضها قرى تجارية أو مرفأً بحري ذو موقع هام ، كروما ومدن سوريا الساحلية ، وبعضها نما في واحة كدمشق ، أو على نهر أو منبع غزير كمدن مصر . أما المدن الاسلامية فكان الدافع الأول لبنائها هو الغاية الحربية في الدرجة الأولى لإقامة الجند ولإنزال الجاليات العربية الفاتحة ، كمدن الهلنيين في الشرق الأدنى بعد فتح الاسكندر . ولما استقر الحكم الاسلامي أصبح ينظر في بناء المدن إلى صلاحها لتكون حاضرة أو مركز تجارة .

وقد احتفظ العرب ، حتى فيما بعد تزولهم في المدن وعيشهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي وظلوا ينتسبون إلى القبيلة لا المدينة . ولهذا كانت

المدن تقسم منذ تأسيسها إلى احياء خاصة تدعى الخطط أو « القطائع » ينزل في كل خطة أو « قطيعة » قبيلة من القبائل . ولكل حي منازل ومسجده وسوقه حتى ومقبرته الخاصة . وكان لهذه السياسة اسوأ الأثر عليهم من الناحية السياسية اذ ابقت على الخلافات القبلية وزادت احياناً في احتدامها .

وكان يتوسط المدينة في الغالب قصر الحاكم والمسجد والجامع ودور القواد والحكومة وتحاط المدينة بأسوار منيعة للدفاع كما كان للاحياء غالباً أبواب ضخمة يمكن اغلاقها عند الخطر .



شكل - ٤٩ -

اتسعت مدينة دمشق بعد أن أصبحت عاصمة الدولة الاموية وكثرت القصور واصبح المسجد الاموي آية في الفن والسعة واتخذ الناس الدور خارج سورها وشق فيها نهر يزيد

وقد انشأ المسلمون عدداً كبيراً من المدن بقي معظمها قائماً إلى اليوم كالبحيرة وبغداد وسامراء ومرو والقاهرة والقيروان وفاس . كما وسعوا وزادوا من مساحة وابنية عدد آخر من المدن أهمها : اصفهان والموصل وحلب ودمشق والقدس والاسكندرية وقرطبة وغرناطة .

مدن العراق :

كانت « المدائن » عاصمة الساسانيين وأهم مدن العراق قبل الاسلام كما كانت الحيرة أهم مراكز العرب في العراق . فلما كان العهد العربي حظي العراق باهم الامصار التي انشاها المسلمون سواء في صدر الاسلام أو في العهد العباسي اذ قام فيه في الأيام الأولى للفتح ، البصرة والكوفة ثم انشئت واسط ثم كانت بغداد فسامراء .

١- البصرة : هي أول مدينة بنيت في الاسلام وكانت من قبل قرية صغيرة فأمر عمر بن الخطاب قواده إثر معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على اطراف العراق بما يلي البادية العربية لينزلها الجند العربي وعياله . فاخترت عتبة بن غزوان في ربيع سنة ١٦ هـ . مدينة البصرة وبنى المسجد ودار الامارة بجانبه ثم أمر ببناء خطط المدينة لكل قبيلة خطة خاصة ، أي حي فيه مسجده واسواقه ومقبرته . ثم أخذ الناس يشيدون الأبنية من اللبن والآجر حتى اتسعت المدينة وجرت إليها الترع والمياه من شط العرب . ولم يمض نصف قرن على تأسيسها حتى غدا اهلها من العرب مائتي الف ومن الأعاجم حوالي مائة الف وحتى اضحت مصرأ من أهم الأمصار الاسلامية : فمن الناحية التجارية اضحت حاضرة العالم الاسلامي وورثت الابله كمرفأ بحري يصل الصين والهند عن طريق الخليج العربي بالعراقين والشام والجزيرة وما وراها . ومن الناحية السياسية كانت أحد مصري الاسلام في الشرق ، وكان سكانها من العرب يحسب حسابهم في كل أمر بجانب أهل الكوفة . ومن الناحية العلمية ظهرت فيها حياة أدبية راقية كان ميدانها سوق المربد المشهورة ، وقد درس علماء البصرة الدين واللغة واشتهر فيهم كثير من النحاة كانت لهم مدرسة خاصة في النحو تنافس مدرسة الكوفة .

وقد بدأ انحطاط البصرة منذ أواسط القرن الثالث الهجري وأهم
النكبات التي أصابتها إذ ذاك تخريبها على يد الزنج في ثورتهم المعروفة .

(٢) الكوفة : بديء بتأسيسها في الشهر الأول من سنة ١٧ هـ (كانون الثاني
سنة ٦٣٨ م) وذلك أن الجيش الفاتح لم يطب له المقام في المدائن عاصمة
بلاد الفرس وظهر على جنده السقم لاعتيادهم جو الصحراء فأمر عمر بن الخطاب
قائده سعد بن أبي وقاص أن يرسل رائدين يرتادان نزلاً للجند فوقع اختيارهما
على مكان غربي الفرات انتقل المحاربون وعيالهم إليه وعسكروا فيه ثم بنوا
بيوتاً من القصب مالبثت أن التهمت النيران فأمر الخليفة باتخاذ دور دائمة
من اللبن وبأن يؤسس في المدينة مسجد جامع ودار للأمانة فبني المسجد
وسط المدينة حيث تتفرع الطرق والخارات وكان أول شيء خط بالكوفة
كما يذكر الطبري ، وبنى سعد منزله قريباً من المسجد وفيه اتخذ بيت المال .
وتحول إلى قصر الامارة . وقد دلت الحفريات الجديدة في الكوفة ان
قصر الامارة كما يقول بشير يوسف فرنسيس : شيد بالآجر المحكم التشكيل
والجص ، وكان مربع الشكل تقريباً وكانت تدعم ثلاثة من أركانه
أبراج مستديرة .

ومالبثت الكوفة ان همرت بالمباني التي قام على انشائها بنائون من
الفرس ووفد إليها كثير من الناس حتى اتخذها علي بن أبي طالب مقراً
لملكه بعد ان غادر المدينة ، لكثرة اشياعه فيها وتوسطها في الأراضي
الاسلامية وحفظها لطابعي الحياة البدوية والحضرية معاً . ولكن نجاح
معاوية بتأسيس الدولة الاموية حرّمها هذا المكان السياسي الممتاز وأخذت
دمشق مكانها .

ومع هذا فقد حافظت الكوفة على مكانة سياسية مرموقة . خلال

العهد الأموي اذ غدت قصبة العراق ، وكان يعهد إلى واليها بتعيين ولاية أذربيجان وهمدان وأصبهان والموصل . ويضاف إلى هذا في شأنها السياسي أنها غالباً ما كانت مقر المعارضة والنقمة على الحكم الأموي وفيها قيادة الحركة الشيعية ومنها أديرت الحركة العباسية السرية حتى كانت أولى عواصم العباسيين . وقد شهدت في العهد العباسي عدداً من التيارات السياسية الدينية أهمها الحركة الاسماعيلية والقرمطية . واذا امتازت البصرة بالتجارة فقد امتازت الكوفة بالسياسة .

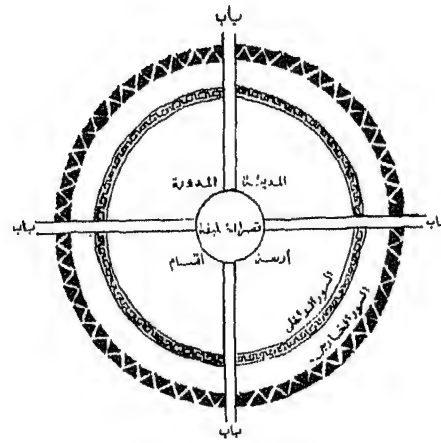
أما في الناحية العلمية فالكوفة ثاني المصيرين في العراق ، ولم يكن علماءها في الفقه والدين والشعر واللغة والنحو ليقاوا شهرة عن علماء البصرة . ولم يبدأ انحطاط المدينة الا منذ القرن الرابع وقد ورثها اليوم النجف .

٣) واسط : بعد أن وطد الحجاج أمر الحكم والامن في العراق رأى أن يتخذ له مركزاً لإدارته ومقرّاً لجنده قريباً من البصرة والكوفة معاً ، مهد الحركات الثورية المناوئة يجعل فيه الجنود الشاميين الذين يوسلهم عبد الملك لشد أزره وليكونوا عدته يوم النواذب ولا يختلطوا بالعراق والجند العراقي لئلا تسري فيهم روح الثورة . فاتخذ مدينة واسط في مكان قريب من بلدة الحن اليوم ، واسط بين البصرة والكوفة معاً . ومنع الموالي من دخولها ولكن سكانها تنوعوا فيما بعد ، وجاء أحد ولاية البصرة بجماعة من اتراك ماوراء النهر فأنزلهم بها ولم تعد مدينة عسكرية خاصة . وقد كان قد تم بناء واسط عام ٨٣ هـ (٧٠٣ - ٧٠٤ م) كما يؤكد البلاذري والطبري والسمعاني وياقوت والقزويني وكانت واسط على جانبي دجلة ، وكانت قبل البناء الاسلامي مدينة ساسانية اسمها كسكر . وقد دفن فيها الحجاج (٩٥ هـ) كما يقول ابن خلكان .

وظلت واسط عاصمة العراق طوال العهد الاموي ، ثم بدأ عزها بالافول مع انتقال الحكم إلى العباسيين . وما جاء القرن الثاني للهجرة حتى هجرها الناس هجراناً تاماً لتحول مجرى دجلة إلى مجراه الحالي ، فهارت خراباً وتعرف خرائب واسط اليوم باسم المنارة . وقد كشفت اليوم مديرية الآثار العامة العراقية عن المدينة منذ ١٩٣٦ ، وظهرت جامع الحجاج وقصره ذا القبة الخضراء واستخرجت الكثير من زخارفه وقوام اكثرها غصن كرمه متموج يتشابك ورقها مع غصونها ، وكذلك ازهار وعناقيد وغيرها او زخارف نباتية اخرى ونجوم وازهار ...

٤ (بغداد : كان لابد مع انتقال الحكم للعباسيين من البحث عن عاصمة جديدة ، غير دمشق الاموية ، وقد بويع السفاح في الكوفة ولكنه استبدل بها الحيرة ، عاصمة له ثم انتقل إلى الانبار وبنى بها « الهاشمية » ولكنها لم ترق للمنصور من بعده ، ففتش عن مكان جديد يبنى به عاصمة جديدة للملك الجديد فوقع على : قرية بغداد . على الضفة الغربية من دجلة . وقد كان اختياره للمكان موفقاً جداً وتوضحت له فيما بعد ميزات هامة هي التي أبقت على بغداد إلى اليوم فهي تقع في منطقة زراعية تتوسط العراق وتقر منها الطرق التجارية العالمية كما أنها سهلة التموين والري حصينة الموقع بين الأنهار ، جيدة المناخ .

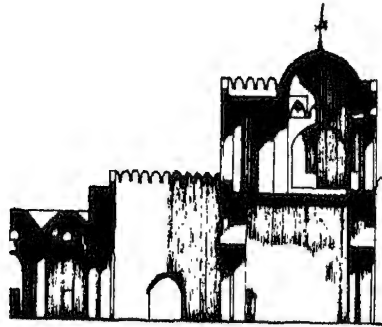
وقد سمي المنصور مدينته دار السلام وسماها بعضهم بالروحاء والزوراء والمدورة ، لاستدارة مخططها ، ولكن الاسم الذي بقي لها هو الاسم القديم للموقع وقد اختلف المؤرخون في تفسيره على أساس فارسي معناه بستان الله او عطية الله ، والمدينة التي بناها الله وهو على الارجح آرامي معناه سوق الغنم (ب - مختصر بيت ثم كدادو - غنم) .



بغداد العباسية

شكل - ٥٠ -

مخطط مدينة بغداد الذي نفذ في عهد الخليفة العباسي المنصور وهو
نواة العاصمة العباسية التي اتسعت فيما بعد .



شكل - ٥١ -

مقطع لإحدى بوابات بغداد التي بناها المنصور عام ٧٦٢ م وكانت
تعلو كل بوابة من بواباتها الأربع قاعة ويعلو القبة القائمة فوق القاعدة ،
دامج يتحرك بحركة الريح .

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الاسلامية : دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ثم تقوم الاسوار : سوران يسكن بينها الرعية لها أربعة أبواب مزدوجة . ولعل الذين خططوا المدينة تأثروا بالهندسة الفارسية .

وأمر المنصور قبل مباشرة البناء بجلب المهندسين والبنائين والعمال من جميع أطراف مملكته حتى ناف عددهم على المائة الف عامل ، وأمر بصب اللبن والآجر ، ثم قام المهندسون برسم شكل المدينة على الأرض وتخطيطه بالرماد ، ثم أمر بأن يوضع على المخطط قطن مغموس بالنفط ويشعل . وبذلك ظهر له في الليل شكل مدينته الجديدة ، فأعجبه ، وأمر بمباشرة البناء في سنة ١٤٥ هـ . وكانت المدينة مستديرة يبلغ قطرها نحواً من ثلاثة آلاف متر فبما إذا اعتبرنا السور الخارجي حداً لها ، لأنه كان لها سوران ، ومقسمة إلى أربعة أقسام متساوية ، ولها أربعة أبواب هي : باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وقيل ان المنصور أمر بنقل أبواب واسط اليها ، وفي وسط المدينة بني قصر المنصور الذي سمي قصر الذهب ، وقبالبه مسجد المنصور ، وكلف المنصور أبا حنيفة النعمان بمراقبة البناء ، والعمال ، كما اهتم بنفسه بكل ناحية من نواحي البناء ، وكان يحاسب المتعهدين حساباً عسيراً ، حتى لقبوه بالدوانيقي نسبة إلى أصغر قطعة نقدية كانت متداولة ، تلويحاً إلى أنه كان يحاسبهم عليها ... وبعد اتمام البناء ، وازدحام المدينة بالسكان اقتطع عماله وقواده قطائع وأرباضاً خارج الاسواق فعمروها وبنوا فيها القصور، ثم أمر ببناء الرصافة لابنه المهدي وجعل فيها ثكنات الجيش ، ثم بنى الكرخ جنوبي المدينة في سنة ١٥٧ هـ ، واتخذ جميع الخلفاء العباسيين بغداد عاصمة

لهم إلى أن قضى عليهم التتوس سنة ٦٥٦ هـ وأصبحت بغداد أعظم مدن العصور الوسطى في الكرة الأرضية ، اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرها من أعظم الخلفاء كالرشيد والمأمون ، ومن أشهر العلماء والأدباء والفنانين ، والتجار والصناع فكانت مركزاً جامعاً لكل ما في الأملاك الإسلامية من ثقافة وحضارة وفن وغنى .

٥ - سامراء : قصة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن : قصة ارض قفر تصبح في سنوات معدودة عاصمة الدنيا الإسلامية وأكبر مدينة في العالم ثم تنطفئ فجأة بعد نصف قرن فيعود الهدوء والحراب الى المكان.

بعد قرن واحد من بناء بغداد خطرت للمعتصم فكرة بناء عاصمة جديدة لا عن حاجة لعاصمة ولكن لأن عصبية جديدة كانت تظهر في الدولة هي : الأتراك الذين أدخلهم المعتصم الجيش . فبغداد قد ضاقت بهم كثرة وكانت فيهم خشونة وأذى ضاق بها البغداديون ودبت المنافسة بين الترك والفرس والعرب من الجند بما أنذر بالخطر ، ففتش المعتصم عن مكان جديد له ولأصحابه وتنقل في عدد من الأماكن قبل أن يستقر بسامراء على بعد ١٣٠ كم من شمالي بغداد ، على دجلة .

والاسم قديم دون شك . وقد زعم الناس فيما بعد أيام عزها ، أنه محرف عن : سر من رأى لجمال المدينة ، وأيام خرابها عن « ساء من رأى » لسوء منقلبها . وكان المكان المختار جيداً ، جودة مكان بغداد . فهو خصب حصين ، تجاري ويتوسط المملكة كما يتوسط العراق .

شرع المعتصم بتخطيط حاضرتـه سنة ٢٢١ هـ . ٨٣٦ م فطلب الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والتجارين وسائر الصناعات ، من كل مكان . وبدأ فوضع أساس قصره العظيم ، ووزع القلعات على جنده وعين

أماكن الاسواق والبساتين ولكنه لم يؤكد على بناء الأسوار لاطمئنان الدولة وثبوت أركانها ، وإنما عني بفصل الجيش ودواوين الدولة عن السكان كما عني بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ، وجعل قائد كل فرقة يبني قصره في قطعة فرقة . ووجه الخليفة همه بعد ذلك الى عمران البلد الاقتصادي : فنشر الزراعة في غربها وجلب لها الاشجار وحفر الترع وحرص على جمع أرباب الصناعات فيها ووسع صفوف الاسواق الخ ...

ويلاحظ في مخطط المدينة ، ومن آثارها الباقية ، أن المعتصم عني بتقسيمها تقسيماً اجتماعياً عسكرياً يتناسب مع كونها معسكراً أولاً ومركزاً حضرياً ثانياً . فجاء مخططها مبتدأً على ضفة دجلة الشرقية زهاء (٢٠) كم ، وجعلت الشوارع متوازية تتقاطع بزوايا قائمة ويتوسطها على طول المدينة الشارع الأعظم الذي يزيد عرضه على ٢٠٠ ذراع ، وهذا ما يذكر بالتخطيط اليوناني للمدن . وقد سمى لنا ياقوت في معجمه (١٧) قصراً بناها المعتصم والمتوكل في سامراء من أهمها : دار العامة وبيت الخلافة وقصر الجوسق على دجلة وقصر لؤلؤة وهو السجن السياسي . هذا الى ما أقيم في سامراء من حلبات السباق الثلاث وحديقة للحيوان .



شكل - ٥٢ -

نقش على الرخام في مدينة المهديّة
في تونس (محفوظ في متحف باردو)

ولاشك أن فترة العمران الكبرى في حياة سامراء هي فترة المتوكل الذي انفق في بناء القصور بالمدينة مايزيد عن (١٤٠) مليون درهم وبما بناه البركة المشهورة والمسجد الجامع ، ومساحة صحنه الداخلي ٤٤ ألف م^٢ بينما لاتزيد مساحة كنيسة الفاتيكان عن ١٥ ألف م^٢ مثلاً وأهم ظاهرة فيه هي المئذنة الملوية التي بنيت على طراز (الزقورات) القديمة ولا تزال قائمة بجانب آثار الجامع الى اليوم

ولقد ضاق المتوكل ذرعاً بالأتراك في السنوات الأخيرة من عهده فحاول الهرب منهم الى دمشق ثم عاد فبنى في شمال سامراء مدينة لصيقة بها عرفت بالمتوكلية فامتدت سامراء ١٥ كم أخرى على ضفة دجلة وامتد شارعها كذلك وبنيت فيها قصور رائعة منها الجعفري ، كما ابتكر نموذج جديد في بناء القصور يدعى الحيرى قلده الناس فيما بعد . وانفق المتوكل في المدينة الجديدة (٢٠٠) مليون درهم وانتقل اليها ونقل معه دواوين الدولة سنة ٢٤٧هـ ولكنه قتل بعد ذلك بتسعة اشهر فقط وعاد الناس فأهلوا المتوكلية الى سامراء ولكن هذه المدينة أهملت بدورها سنة ٢٨٩هـ في نهاية خلافة المعتضد العباسي الذي انتقل الى بغداد ... فاندثرت شيئاً فشيئاً .

وقد عنت دائرة الآثار العراقية بالكشف عن آثار المدينة وترميم المئذنتين الباقيتين لجامع الجمعة وجامع ابي دلف ورغم انها معاً على شكل ملوية ، فانه حين يقال « الملوية » يقصد بها مئذنة جامع الجمعة . وتقع خارج ضلع الجامع الشمالية على ٢٥ متراً منها ، وفي محور الباب الوسطي ، وهي مئذنة مخروطية الشكل بوجه عام تستند الى قاعدة مربعة ، يصعد الى قمته من سطح مائل عريض يدور حول بدنها من الخارج دوران الحازون ، ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٢ متراً وقطر قبة الملوية ٦ أمتار ، ويبلغ

علو المئذنة عن سطح الارض ٥٢ متراً

وببدأ الدرج الحزوني الذي يوصل الى القمة ، من وسط الضلع الجنوبية ، اي التي قبالة الباب الشمالي للجامع ، ويدور حول بدن المئذنة باتجاه دوران الساعة ، خمس مرات ، الى ان يصل الى باب في القمة ينفتح هو ايضاً في وسط الجهة الجنوبية .

وينتهي اعلى المئذنة بغرفة صغيرة مدورة الشكل يبلغ علوها نحو ٦ امتار في فرجة جدارها ثماني مشكيات صغيرة مذبذبة العقد ومقورة السطح ، وتقوم احدى هذه المشكيات مقام باب يفضى الى داخل الغرفة ، ويوصل الى ذروتها مدرج حازوني يدور داخلها حول محورها .

مدن الشام :

لم يحظ الشام ، من بناء المدن الاسلامية بمثل ما حظي به العراق او مصر ايضاً ، لكثرة مدنه من جهة ، وقصر عهد الخلافة الاموية من جهة اخرى ، وعدم استقرار أسرة حاكمة كبرى أو عهد من العهود بالشام بعد الامويين .

وقد أسس العرب الفاتحون مدناً - معسكرات في الشام كما في العراق : فأقاموا الجابية قرب دمشق و (دابق) شمالي حلب ولكن هذه المدن الجديدة لم تستطع أن تنافس المدن القديمة العريقة قريها . فان معاوية استقر في دمشق كما ان الخطر الدائم على الحدود البيزنطية لم يجريء الناس على سكنى دابق ... وهكذا انتضى القرن السابع الميلادي (قرن الفتح) دون أن ينشئ الامويون مدينة جديدة في سوريا . وأنشئت في القرن الثامن وفي زمن الخليفة سليمان (٧١٥ - ٧١٧ م ٩٦ - ٩٩٩) مدينة :

الرملة : على الطريق الممتد بين القدس والبحر ، وقد نقل سايمان اليها سكان مدينة (اللد) المجاورة فعمرت المدينة الجديدة بهم واتسعت وبالرغم من شأن (اللد) من قبل ، ومن مكانة القدس الدينية ، فقد ظلت الرملة عدة قرون مدينة فلسطين الاولى ومركز الولاية ؛ على ان بناء الرملة لم يكن لغرض سياسي او عسكري ولهذا لم تتسع كثيراً وظلت مكانتها محلية .

الرصافة : برزت هذه زمن هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣ م ١٠٥ - ١٢٥ هـ) وعهده العمراني . فقد ظهر أنه كان مولعاً بالمواقع الصحراوية والعناية بها . وموقع هذه المدينة في البادية على ٤٢ كم إلى جنوب الرقة والفرات . وقد جدد سورها ومبانيها وكان يتردد اليها . ولم تندثر المدينة الا زمن الملك الظاهر بيبرس الذي نقل سكانها الى حماة وسلمية . أما آثارها اليوم فمن أجمل آثار البادية السورية .

الرقة والرافقة : ترجع الرقة في بنائها الى عهد الاسكندر المقدوني غير أنها لم تبرز في العهد الاسلامي الا زمن المنصور الذي بنى بجوارها مدينة عسكرية مستديرة ، على مثال بغداد ، هي الرافقة .

وكان غرض المنصور من بناء المدينة ان تكون معسكراً امامياً تتجمع فيه الجيوش لحرب البيزنطيين ولهذا الغرض نفسه استخدمها الرشيد ايضاً ، وكثرة حروبه هي التي جعلت مقامه فيها كثيراً وجعلته يبنى فيها عدداً من القصور . قال بسببها المؤرخون أن الرافقة كانت مصيفه . وتردد الحلفاء والقواد والجند على الرافقة جعلها تتسع حتى تتصل بالرقة في جوارها وتأخذ اسمها ، لاسيما بعد تخريب المغول لها في القرن الثالث عشر .

وبقايا قصور الرشيد في الرافقة وبقايا سورها الآجري ، وأحد ابوابه

ما تزال موجودة قرب الرقة الحالية . غير ان المئذنة الآجرية القائمة هي من عهد نور الدين بن زنكي . .

على ان اهم ما بناه المسلمون في الشام انما كان في مدنها القديمة نفسها : كدمشق وحلب والقدس .

مدن مصر :

الفسطاط : في مصر ايضاً بدأ بناء المدن مبكراً على شكل معسكر للفاتحين الجدد : فان فاتح مصر عمرو بن العاص لم يشأ أن يتخذ الاسكندرية ، وهي مرفأً بحري ، من جهة وبلد مملوء بغير العرب من جهة أخرى ، عاصمة له . ففعل كغيره من الفاتحين إذ استشار الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : « اني لأحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحتي حتى أقدم عليكم قدمت » لأن عمر جمع بفيضان النيل وبإمكان انقطاع الاتصال بينه وبين جنده فتخير عمرو مكاناً هو اليوم القسم الجنوبي من القاهرة على ضفة النيل الشرقية ليقم فيه معسكر جنده ودعى المعسكر الجديد بالفسطاط (ولعلها من فساتون Fossaton باللاتينية واليونانية ومعناها ما هو محاط بخندق) وكان ذلك ٢١ هـ

والمكان من أقدم النقاط المدنية في وادي النيل وكانت فيه بمفيس ، كما أن عمراً أدرك فيه حصناً للرومان يدعى حصن بابليون . وهذا ما يفسر سرعة اتساع الفسطاط وتحولها بسرعة إلى مركز مدني هام امتد على ساحل النيل الشرقي خمسة كيلومترات تقريباً بعرض كيلومتر واحد . وقد أقام عمرو بن العاص في المدينة شارعاً يتوسطه ميدان بنى به مسجداً ما يزال يحمل اسمه إلى اليوم . (جامع عمرو) .

وبقيت الفسطاط قاعدة القطر المصري للولاة العرب نحو قرن من الزمان ثم بنى بجوارها ، في مطلع العهد العباسي وعلى يد صالح بن علي (عم السفاح) مدينة لاجند سنة ١٣٢ هـ دعيت بالعسكر . ولما آل حكم مصر لأحمد بن طولون بنى بجانبها بلدته المعروفة بالقطائع وبنى جامعها المشهور ذا المثناة الملوية وقصره المدعو بالميدان . وبعد ذلك بحوالي نصف قرن بنيت مدينة :

القاهرة : ما كاد يتم على يد جوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، باسم الخلافة الفاطمية وصاحبها المعز لدين الله الفاطمي ، والمقيم في تونس ، حتى فكر الفاتح بنقل مركز هذه الخلافة إلى مصر ، وبناء مدينة جديدة تكون مقراً لأسياده ، ومركزاً قريباً من الشرق لنشر الدعوة الفاطمية وتخير لذلك مكاناً في جنوب القطائع ، وسميت « القاهرة » وقيل في سبب اختيار هذا الاسم عدة اقوال لعل اقربها انها « قاهرة » للحدثات ، باقية على كثر الزمان .

وقد بدى ببناء القاهرة في يوم مشهود (شعبان سنة ٣٥٨) فوضعت أسس أسوارها لتكون معسكراً حصيناً ، كما وضع جوهر أساس قصر فخيم لمولاه المعز الفاطمي . وأخذت كل قبيلة من قبائل البربر المحاربة معه تخط لنفسها خططاً خاصة تبنيها باسمها ، واطلق على المدينة اسم المنصورية نسبة للمنصور والد الخليفة فلما قدم المعز سماها باسمه القاهرة المعزية .

وكانت المدينة على شكل مربع ، بعيدة عن ساحل النيل . ولكن سرعان ما كثرت الأبنية في ظاهرها خارج الأسوار فامتلات المنطقة بين جبل المقطم والنيل بالسكان بينما كانت القصور الفاطمية كالقصر الكبير الشرقي مثلاً ودواوين الدولة ، كلها داخل الأسوار . وأهم ما بناه جوهر في المدينة هو المسجد : « الجامع الأزهر » الذي بني للصلاة أولاً ولكنه سرعان

ما تحول في زمن المعز إلى جامعة علمية انشر الدعوة الفاطمية .
وقد استطاعت القاهرة أن تكون ثانية حواضر الاسلام بما أسبغ عليها
الفاطيون من عز وبذخ في عهودهم الزاهرة ثم قبض لها ان تصبح حاضرة
الايوبيين ثم المماليك من بعد ، بما جعلها تغنى عصرها بعد عصر بالابنية
المختلفة . ولم يبدأ همودها الا بدخول السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م .
وقد استمر ذلك الى عهد محمد علي وأولاده في العصر الحديث ، فاستعادت
عظمتها كمدينة حضارية وسياحية وسياسية في دنيا العالم عموماً والعرب خصوصاً
وكمركز ثقافي اسلامي وعلمي حديث . خاصة انها توسعت جداً حتى
ضمت حواضر مصر السابقة ؛ وكثيراً من آثار مصر الفرعونية ، فجمعت
في رقعتها تاريخ آلاف السنين من حضارة مستمرة راقية

مدن المغرب :

القيروان : في سنة خمسين هـ . غزا عقبة بن نافع في عهد معاوية ،
بلاد المغرب وانتصر على البربر وعينه معاوية والياً على افريقيا ففكر باتخاذ
مدينة محصنة تكون مركزاً لعملياته الحربية وداراً للتموين والسلاح لمتابعة
الفتح وملجأ اميناً للجند العربي من تألب البربر عليها ، واختار لذلك مكاناً
قريباً من تونس الحالية ، بملوء بالغابات ، وأمر ببناء مدينة القيروان .

وقد اختط عقبة المدينة على نهج المدن - المعسكرات ، فاخط في
وسطها المسجد الجامع ثم دار الامارة ثم بيوت الجند وبنى حولها سوراً
متيناً . واستمر العمل في بنائها طيلة اربع سنوات (٥٠ - ٥٤ هـ / ٦٧٠
٦٧٤ م) وكان اهتمام عقبة ببناء الجامع اكثر من بقية احياء المدينة حتى
قل : « لم يبن عقبة مدينة لها جامع ، بل بنى جامعاً له مدينة » .
وقصد عقبة ان يكون الجامع قيرواناً أي معسكراً وحصناً ، واختار
مكان قيروانه بعيداً عن شاطئ البحر ليكون المسلمون في مأمن من

اسطول الروم وغارات الفرنج التي كانت لا تزال تنقض على تونس من صقلية وإيطاليا واليونان ، فتحتل وتخرب مدن الساحل مثل سوسة وجربا . وقد قال له أصحابه حين فتش على مكان المدينة الجديدة : « نحن اصحاب إبل ، ولا حاجة لنا بمجاورة البحر » وكانت الصحراء التي اقيمت فيها المدينة تشبه صحراء الحجاز وعسير ، فوجد عقبة ان الجندي العربي المسلم فيها لن يشعر بالغربة او التغرب عن بلاده ويعيش في بيئة جغرافية ملائمة . وسرعان ما اصبحت القيروان قاعدة مملكة افريقيا .

وبذلك ، كما يقول أحد الكتاب ، اصبحت الغابة الكثيفة التي كانت مرتعاً للوحوش والزواحف أرضاً مستوية تقوم فوقها تلك المدينة الزاهرة التي لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم . وقد اتخذها الفاطميون في أول تأسيس دولتهم عاصمة لهم ، ثم انتقلوا منها إلى المهديّة بالقاهرة بعد ان أسسها لهم قائدهم جوهر الصقلي . ومن بعدهم اتخذها ملوك الصنهاجيين مقراً لهم ، كما كانت منزلاً لأهل قريش من بني فهد وبني تميم وبني هاشم . وفيها مدافن عدد من الصحابة

المهديّة : وقد اتخذ الفاطميون من القيروان عاصمة لهم في مطلع عهدهم حتى وضع عبيد الله بن المهدي سنة ٣٠٣ هـ أساس مدينة جديدة في جنوبها على الساحل هي « المهديّة » خوفاً على نفسه . ولم تلبث هذه المدينة ان اصبحت مرفأ هاماً بين الشام ومصر من جهة ، وصقلية والمغرب والاندلس من جهة اخرى . وبني المهدي فيها داراً للصناعة تتسع لأكثر من مائتي مركب . وامر في الوقت نفسه ببناء مدينة أخرى بجوار « المهديّة » سماها زويلة ذات سور وابواب وحراس ايضاً ، وجعلها للأسواق ، وربط بين البلدين بـميدان فسيح .

وقد ظلت المهديّة حاضرة الفاطميين حتى انتقلوا إلى مصر والقاهرة سنة

٥٣٦٢ هـ . وظلت آهلة بالسكان حتى افتتحها روجر النورمندي صاحب صقلية
سنة ٥٤٣ هـ .

فاس : هي إحدى المدن الإسلامية القليلة التي لم تبني كمعسكر ، فقد
وصل ، ادريس بن عبد الله هارباً إلى المغرب الأقصى بعد موقعة فخ
(أيام الهادي سنة ١٦٥ هـ) واستقر في بعض القبائل البربرية ثم قام ابنه
الشاب ادريس (الثاني) بعد أن بايعه الناس فبنى مدينة فاس لأنصاره
وشيعته سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) فتم بناؤها في سنة . وقد قدم عليه فيها جماعات
كثيرة من العرب : من ضواحي قرطبة ، ومن القيروان ، وألف هؤلاء
النواة الأولى للبحين الأساسيين في المدينة .

وأهم ما بني في فاس أول بناؤها : السور الحجري ، والمسجد الجامع ومنارته التي
تشبه منائر القيروان بالقبّة التي تعلو رأسها . وقد استمر العمران في المدينة
في عهد يحيى بن محمد الإدريسي خاصة إذ بنيت فيها « الحمامات والفنادق
للتجار واقعت خارجها الأرباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية »
وقد امتلأت فاس بالآثار الإسلامية الرائعة فيما بعد انقراض أصحابها لاسيما
في عهد الدولة المرينية (القرن ١٣ - ١٦) التي حولت فاس إلى مدينة جديدة
مزدهرة بالأعمال العمرانية التي تمثل تراث فاس الثمين : وتقدر بمئاة وخمسين
بناء بين جوامع ومدارس وتكايا عدا ٦٠٠ سبيل ومائة حمام ومائتي مدرسة
ومائتي فندق . ومن أشهر الأبنية جامع الأندلس وجامع القرويين أكبر
جوامع المغرب وزاوية مولانا ادريس . وشبه الكتاب فاس بمدينة دمشق
في روائها الفني وطبيعتها الخلابة . كما شبهوا مدينة مراکش ببغداد بأبنيتها
وقصورها وحدائقها ، ولم يبدأ انحطاط فاس إلا زمن الشرفاء السعديين منذ
القرن ١٦ .

مدن الاندلس :

قرطبة : ليست قرطبة في الاصل من بناء العرب وإنما كانت عاصمة الأندلس زمن القوط ، ويقال أن قرطبة أقدم مدينة في شبه جزيرة ايبيريا . انشأها مهاجرون وتجار من فينيقيا وسواحل الشام في نفس الوقت الذي انشؤوا فيه قادس وقرطاجنة ومالقة وغيرها من جنوب شبه الجزيرة فهي مدينة تدين للعرب القدماء بنشأتها ، وقد اتخذها فاتح اسبانيا ، موسى بن نصير قاعدة له ، ودعا فيها للخليفة الوليد بن عبد الملك . وكان اتخاذ المسلمين لقرطبة مقراً لهم مما يؤذي سكان البلاد الأصليين فثاروا مراراً وحاولوا استرجاعها دون جدوى . ولما فر عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس اتخذ قرطبة مقراً للدولة الأموية الأندلسية . واقم فيها الكثير من الأبنية والقصور وخاصة المساجد وتبلغ ثلاثة آلاف . ويعد المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل فيها من الناذج البديعة لما وصل اليه الفن العربي . وبالرغم من أنه حول إلى كنيسة منذ حوالي خمسمائة سنة إلا أن الطابع الاسلامي واضح فيه إلى اليوم . وقد كان له واحد وعشرون باباً وفيه ١٢٦٣ سارية ومنبر ركب من ست وثلاثين ألف قطعة من العاج مرصع أكثرها بالمسامير الذهبية والحجارة الكريمة ، وتسمى الكنيسة الجديدة التي أقيمت داخل جامع قرطبة باسم الجامع الكاتدرائية (لا ميشكيتا كاتيدرال) وهي أغرب تسمية في الدنيا . والجامع يقع على ضفة الوادي الكبير وأمامه القصر الاسقفي وكان قصر الخلفاء ، وبينها يجري شارع كان يسمى المحجة العظمى .

ويمتاز هذا البناء الاسلامي بأقواسه المزدوجة التي تعطيه شخصية يتميز بها عن جوامع العالم ، وقد لجأ إلى هذه الطريقة المهندس المعماري الذي بناه ليزيد في ارتفاع السقف حتى يصبح متناسباً مع مساحته ولم يقلد في

مكان آخر معروف ... وكان هذا الجامع أيام الحكم العربي مدرسة كبرى
ومحكمة ، فقد كانت حلقات الدروس تقام عند كثير من اعمدته ، كما
كان قاضي قرطبة يعقد فيه مجلس الحكم كل يوم ... ويعقد جلسة خاصة
صباح كل خميس على باب المسجد لا داخله للحكم في مايعرض عليه من
قضايا النصارى واليهود في قرطبة .

وقد وصف الشاعر أبو محمد بن عطية قرطبة وما تفخر به على سائر
المدن بقوله :

باربع فاقت الامصار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاقان ثنتان ، والزهاء ثلاثة والعلم ، أكبرشيء ، وهورابعها
كما وصفها شاعر آخر بقوله :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

وقد ذكر المؤرخون ان سكان قرطبة زمن عبد الرحمن الناصر بلغوا
نيفاً وخمسةائة ألف وأن دورها زادت عن الثلاثة عشر ألف دار وحماماتها
العامة بلغت ثلاثمائة حمام ومساجدها ثلاثة آلاف وكان لها ثمانية وعشرون
ضاحية . وقد أطلق عليها الاوروبيون في القرن العاشر الميلادي اسم
«جوهرة العالم» .

الزهاء : وإلى الشمال الغربي من قرطبة بنى الخليفة عبد الرحمن
الناصر سنة ٣٢٥ هـ مدينة الزهاء ، على اسم جارية له ، لحاجته بعد أن
وطد حكمه إلى مدينة عاصمة . وقد تأثق الناصر في البناء فجلب للمدينة
الرخام بمختلف ألوانه من كل مكان ، وعمل في البناء عشرة آلاف عامل

يومياً واستمر العمل في عهد ابنه المستنصر من بعده حتى سنة ٥٣٦٥هـ ، أي حوالي أربعين سنة !

وكانت الزهراء ضاحية ملكية تشبه قصر فرساي وقصر الاسكوريال اللذين بنيا بعدها بعد قرون . وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء على سفح الجبل ولكل منها سورها : أعلاها فيها القصور وفي الثانية الجنات والبساتين وفي الثالثة الديار والجوامع . وبني الناصر لنفسه قصره العظيم « دار الروضة » . فغشى الجدران بالذهب والرخام السميك الصافي واتخذ قرميد السقوف من الذهب والفضة ، وفي وسط القصر صهريج عظيم يملؤه من الزئبق تنعكس أشعة الشمس منه على القصر فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار . هذا إلى ما في القصر من تماثيل ذهبية لبعض الوحوش : أسد بجانب غزال بجانب تمساح ... الخ . ينصب الماء من أفواهها في الأحواض !

يصف ستانلي لين بول المؤرخ الانكليزي مسجد قرطبة بأنه كان فيه « واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللامع وثلاث وستون ومائتان وألف سارية وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب من سواريه الذهب والابريز واللازورد . أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب وهو مؤلف من ست وثلاثين ألف قطعة منفصلة . مرصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمر بمسامير من الذهب » .

ويذكر المقرئ في كتابه نفح الطيب عند كلامه عن الزهراء : إن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وإن قراميده من الذهب والفضة . وفي وسط القصر صهريج عظيم يملؤه بالزئبق وفي كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت في حنايا من العاج

والابنوس المرصع بالذهب والجواهر القائمة على ساريات من الرخام الملون والباور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ... ثم يصف حوضاً صغيراً أخضرأ منقوشاً بتمثيل الانسان فيقول بأن الخليفة جعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي بما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ، ودجاجة وديك . . وكل هذا من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها .

الزاهرة : وقد أقامها الخاجب بضواحي قرطبة على نهرها الأعظم وشيد فيها قصرأ فخماً وانتقل إليها سنة ٥٣٧٠ هـ ونزل معه فيها خاصته والعامه . كما أقيمت بها الدواوين والأعمال وأهراء المؤن والارصاد . ثم أقطع المنصور ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا فيها من الدور ماجعلها تتصل بقرطبة نفسها ، ولكن هذه الضاحية الملكية ذابت بدورها في قرطبة بعد موت صاحبها .

غرناطة والحمراء : ويطلق اسم غرناطة على دولة غرناطة الواقعة في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا والتي كان يحكمها بنو الأحمر ، كما يطلق على مدينة غرناطة قاعدتها في عهد تلك الدولة ، والمدينة تقع في الشمال الغربي من إحدى حلقات جبال سيّرا نافادا ويرويهانهر دارو ويحيط بها غوطة غناء ويتدرج قسم من بنائها على سفح التلال المجاورة ، ولقد أطلق عليها عرب الأندلس ، اسم دمشق لشبهها في الوضع وكثرة ما فيها من الماء والمزارع والبساتين ، وكان أكثر قصور المدينة كما يقول سيد أمير علي مزيناً بالحدائق المسوجة بالعرائش وزاخرة بأشجار الفاكة كالبرتقال والليمون ، والحمائل

الناصرة ذات الشذى العطري ، وفوق ذلك ينساب في المنازل غدران صافية ويتوسط الشوارع النوافير الجميلة التي ينبثق منها الماء ، فتبعث في النفس غبطة وفرحاً عظيمين . أما المنازل فكانت بالغة حد الروعة والابداع الهندسي وكان يحيط بها سور فيه الف وثلاثون برجاً للمقاتلة ، واثنان عشر باباً ، وفي داخله مائة وثلاثون طاحونة لطحن الغلال بقوة التيارات المائية ، وكان يوجد مقابل غرناطة على إحدى تلالها قلعة بني الأحمر وقصورهم الحصينة التي شكلت مجموعها مدينة « الحمراء » بدأ بنائها مؤسس الأندلس : محمد بن يوسف بن الأحمر الذي لقب نفسه « الغالب بالله » ثم عمل أخلافه على توسيعها وتجميلها . وأشهر آثارها قصر الحمراء وهي الآثار الباقية حتى اليوم من اطلال غرناطة ، وأشهر ما فيها قاعة الأسود التي تتوسطها بركة من الرخام الأزرق ، صحنها مسدس الشكل ، ويحمله اثنان عشر سبع من الرخام الأزرق .

ويصف سيد أمير علي المؤرخ الهندي الحمراء بقوله : « ومن الصعوبة بمكان أن نوفي الآن هذا العمل الذي سمي بعمل الجن حقه من الوصف والابداع . إذ أن القلاع والحصون والقصور بفنها المعماري الدقيق وأروقها وأعمدتها الفخمة وقبها وسقوفها ذات الزخرفة والنقوش البديعة التي لم تفقد شيئاً من رونقها الأصلي إلى الآن . وإبائها الهوائية المشيدة ليمر منها النسيم المعطر بشذى الورد . والبرك التي أحكم المهندسون تشييدها فأصبح انبثاق الماء فيها تابعاً لإرادة الإنسان إن أراد رفعه وإن أراد أنزله من علو شاهق في أشكال هندسية بديعة . كذلك كانت الأبنية المنقوشة بالأصباغ والمزودة بالفيسفساء على أجمل صنع وأتم إتقان . فتعكس عليها الأضواء والألوان منها الذهبي والقرمزي والأزرق والأرجواني ومختلف التماثيل ، وهو السباع المشتمل على ١٢٨ عموداً فخماً ، وأرصفتها البيضاء والزرقاء وتناسق الألوان القرمزية الذهبية . وتماثيل السباع التي يجري الماء من أفواهها والبركة المرمرية ... كل ذلك يحتاج إلى قلم فنان ليوفيه حقه من التصوير والابداع . »

العمارة الإسلامية

الرياسة والعمارة في الإسلام

كانت لخروج عرب الجزيرة إلى الأطراف العربية في صدر الإسلام وللعنف الذي رافقته الانتصارات على البيزنطيين والفرس وإطلاعهم على الفنون المعمارية التي كانت في البلاد التي قدموا إليها أن أخذوا في تقليدها فشيء كثير من الصحابة دوراً جديدة في مكة والمدينة من الحجارة والرخام ، وكانت دار عثمان بن عفان والزبير بن العوام من أعظمها وأجملها . كما كان لتعاليم الإسلام ، أثر عظيم في الفن الجديد ، الذي اقتبسه العرب ، وقلدوه تقليداً ماهراً ، وأدخلوا عليه كثيراً من التطور الذي يلائم تعاليمهم الجديدة، حتى غدا فناً إسلامياً خالصاً يأخذ بنصيب من هذا ومن ذلك ولكنه يشكل نموذجاً قائماً بذاته ، فكانت لا بد للمسلمين من مساجد لصلاتهم الجامعة ، ولعقد اجتماعاتهم السياسية ، ولا يمكن أن يبنوها على طراز كنائس المسيحيين ، أو بيوت العبادة عند الموسويين أو الوثنيين إذ حرمت عليهم الأصنام ، والتماثيل والصور التي ترمز إلى الكائنات الحية ذات الروح ، فكانت لا بد لهذه المظاهر الفنية من أن تمحى فلا يظهر أثرها في المساجد الجديدة ، ولا في قصور الأمراء والخلفاء . ولا نلث أن نرى كثيراً من المسلمين ، في العصر الأموي ثم في العصر العباسي والدويلات المنفصلة والأندلس ينحون في طرازهم المعماري والفني منحى جديداً ،

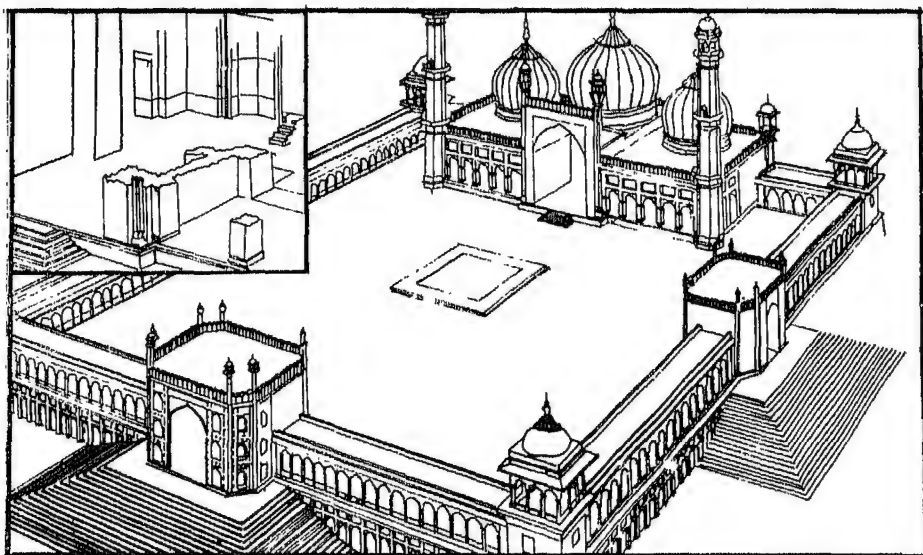
فهم يحرمون الصور والتماثيل في المسجد ويزينونها بالأعمدة والفسيساء والقاشاني والزخارف الهندسية والنباتية والثريات والمقرنصات والتيجان والتناديل الذهبية أو الفضية ، ولكنهم يبيعون لانفسهم في قصورهم ومدنهم استعمال الصور ذات الروح ، والتماثيل العربية ، واستعمال الأواني الذهبية ذات الصور المختلفة ، ويلبسون الأقمشة الحريرية المذهبة والمنقوشة بالصور ، ويعرّعون الفنون بشتى أنواعها من موسيقى وتصوير ونحت وعمران ، فهم بذلك يفصلون بين فن ديني قوامه المساجد وما يتصل بعبادة الله تعالى ، وفن مدني خالص يتصل بحياة المرء في الدنيا وتمتعه بجمالها وفنونها .

كان المسجد أهم مباني المسلمين ولم يكن في أول الأمر أكثر من بناء مربع يقوم سقفه على عمد من جذوع النخل أو مما يؤخذ من الأبنية القديمة . ثم تطورت عمارة المسجد على يد البنائين من غير العرب وزادت فيه أجزاء يظن بعض الباحثين أنها اقتبست عن بعض أجزاء العمارة المسيحية ولم تلبث المساجد أن أصبحت لها نظام لا تكاد تخرج عنه ، فكان معظمها يتكون من ساحة كبيرة مكشوفة في الغالب يتوسطها بركة ماء ويحيط بها أربعة أروقة تسندها الأعمدة ، وأحد هذه الأروقة وهو الرواق المتجه نحو الكعبة واسع جداً ويدعى الحرم ، وفيه المحراب والمنبر .

وبقي المسجد في الشأن المدرسة وقد استقلت ببناء خاص منذ القرن الخامس الهجري وكان المسجد من قبل مركز التدريس . وتصميم المدارس كان يشمل في الغالب صحناً مكشوفاً تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد وأحد هذه الإيوانات هو المدخل وفيه السلم الذي يؤدي للطابق العلوي .

ثم يأتي الضريح أو المشهد ويسمى أحياناً تربة أو قبة ويختلف تصميم الضريح باختلاف الأقطار الإسلامية لكنها في معظمها لم تكن أكثر من

غرفة يعلاها قبة . وهناك « الرباط » وهو نوع من الأبنية العسكرية كان يسكنه المجاهدون انتشر في صدر الاسلام وهي في معظمها أبنية مستطيلة تعلوها أبراج للمراقبة وتحيط غرفها بالصحن الداخلي ولا نوافذ لها . وقد زالت الصفة الحربية عنها مع الايام وأصبحت بيوتاً للتقشف والصوفية . وهناك الخوانك (جمع خانكاه أو خانقاه) أو التكايا وهي بيوت للمتصوفة . وعني المسلمون ببناء الأسبلة في أركان المساجد وبتشييد البيمارستانات (المستشفيات) وبناء الخانات . والاسواق في المدن . وكان للحمامات شأن خطير في الاقطار الاسلامية ولها نظام في بنائها يراعى انتقال المتحمم من الحر إلى الهواء الطلق فكان في كل حمام ثلاثة أقسام كل منها أشخن مما سبقه . أما القصور الاسلامية فكان يعنى بها العناية الكبيرة ولكننا لانعرف



شكل - ٥٣ -

نموذج لفن بناء المساجد في الهند الاسلامية يلاحظ الجدار الخارجي الذي يشبه أسوار القصور وسعة الفناء ، وفي وسطه البحرة للوضوء ، ثم الحرم وقبابه متأثرة بالطراز الهندي وكذلك مناراته

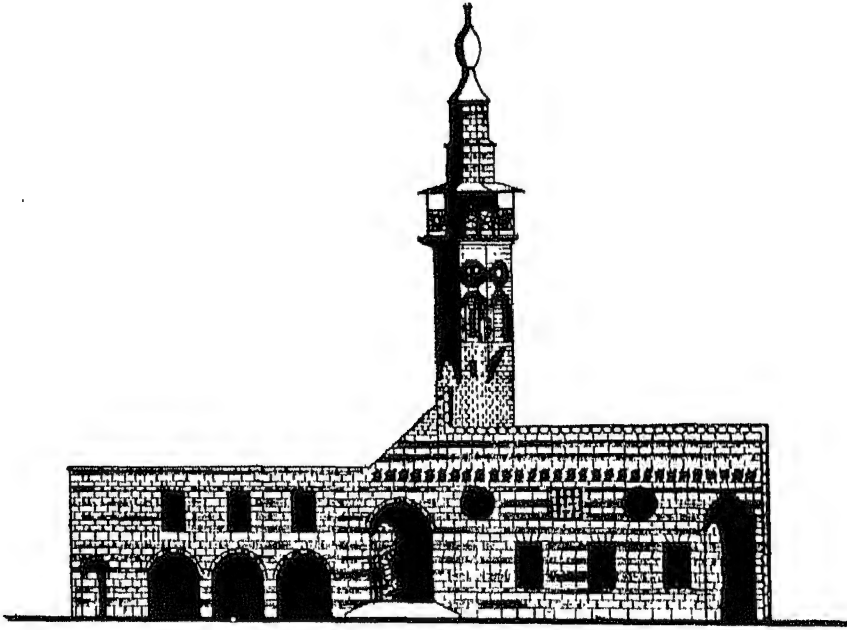
عن نظامها وتصميمها ما يستحق الذكر الا في العصور المتأخرة (منذ نهاية القرن الثامن الهجري) لان معظمها لا سيما قصور العباسيين في العراق قد اندثر . ومعظم ما بقي فالما هو في الاندلس .

وقد وجد في هذه القصور ملاعب وساحات ، ومخازن واسعة تلتحق بها ، عرفت باسم خزائن ، - مفردها خزانة - او خانات ، - مفردها خانة - وقد تعددت ، فمنها خزانة الكتب ، وقد بلغت في قصور الفاطميين اربعين حجرة ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وخزائن الفرش والامتعة ، وخزانة الشراب - اي الدواء - وخزانة التوابل ، وخزانة النبوذ ، وخزائن الازهار . اصف الى هذه المباني ما كان يعرف بالحواصل (جمع حاصل) وهي اصطبلات الخيل ومناخات الجمال والفيلة واهراء لحزن الغلال ، وشون للاتبان ، ومخازن للبضائع ، والطواحين والمطابخ .. هذا بجانب الخدائق الملحقة بالقصر .

وقد ذكر انه بلغ عدد المرافق التي كانت لسكن قصر المأمون ما بين حجر وغيرها ثلاثمائة وستين مرفقاً .

وأخيراً فان البناء الحربي كان ذا شأن واضح في تاريخ الاسلام وما من مدينة هامة إلا وقد بني لها السور أو جدد مرة بعد مرة ، وما من مكان هام الا وبنيت فيه قلعة حصينة تتسع وتصغر حسب قيمته .

ويمكن أن نلاحظ في العمارة الإسلامية أنها كانت في الغالب دينية وأنها اقتبست الاساليب التي وجدت ريشها وجدت أسلوبها الاسلامي الخاص وقد تبعت في معظم الاحوال استبحار الرفاه في الدولة والميل الشخصي من الحكام . وأخيراً فقد تميز كل قطر من الاقطار الاسلامية بعدد من الميزات المعمارية تسمح لنا بأن نقسم مدارس العمارة الاسلامية الى ست مدارس :



شكل - ٥٤ -
واجهة جامع المعلق في دمشق . نموذج من فن البناء
الملوكي في سورية .

(١) **المدرسة السورية - المصرية :** كان لاشتراك الشام ومصر في تاريخ واحد تقريباً منذ ما قبل الميلاد بحوالي ألف وخمسمائة سنة ، أثره في توحيد تراثها الفني ، وقد وقع البناء الاسلامي في القطرين ، منذ العهد الاموي ، تحت تأثيرات محلية متشابهة تتصل بالفن الهلينستي الشرقي والبيزنطي واستمر تاريخهما متصلًا في العهد الطولوني ثم الاخشيدي ثم الفاطمي ثم الايوبي والملوكي والعثماني وهذا ما يوضح ، مع اتصال القطرين الجغرافي ، تشابه الاساليب الفنية فيها :

ومساجد هذه المدرسة حتى القرن العاشر مستطيلة الشكل وسقوفها عامة مسطحة . ولا تظهر السقوف ذات القباب إلا في العهد الفاطمي

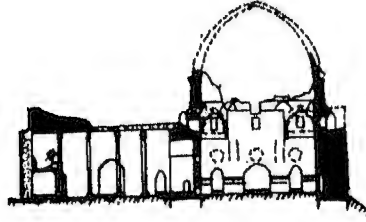
« القرن العاشر » ، كما تظهر المقرنصات أما الأقواس فهي نصف دائرية أو مدببة أو بشكل قطع ناقص « حدوة الفرس » ، ومآذنها أحياناً مربعة ولكنها في غالبيتها مضلعة . وقد ظهر في العصور الأخيرة منها زخرفة البناء بتنويع ألوان حجارته وعمل الأشكال التزيينية منها .

وأزهى عصور هذه المدرسة العصر الأموي في الشام والفاطمي والابوي في مصر والملوكي في القطرين معاً . ومن أهم أبنيتها مسجد عمرو بمصر والجامع الأموي بدمشق وقبة الصخرة في القدس والجامع الأزهر في مصر والمدرسة الظاهرية والعاذلية الكبرى في دمشق وقلعة حلب .

٢) **المدرسة العراقية - الفارسية :** والأسس الأولى لأساليب هذه المدرسة فارسية . وقد سيطرت في العهد العباسي ولكنها لم تنفذ بتأثيرها إلا في غرب العراق . وبلغت أوجها في مدينة سامراء في القرن الثالث . ولا نستطيع أن نوضح الكثير من أسلوب هذه المدرسة إلا في العصور المتأخرة ، وفي زمن الصفويين خاصة القرن « ١٦ - ١٧ » وهو من أزهى عصور الفن الإسلامي الإيراني . إذ استعمل القوس الفارسي « المدبب القليل الارتفاع » كما جعلت الأبواب الكبرى للمساجد ضمن إطار مستطيل مزخرف تقوم على جانبيه مئذنتان رشيقتان ، والمآذن اسطوانية عامة ، وأما القبة فمتطاولة بصليبة الشكل مزخرفة الظاهر والباطن . واشتهرت هذه المدرسة باستعمال الفاساني بزخارفه النباتية وندر استعمال الزخارف الهندسية .

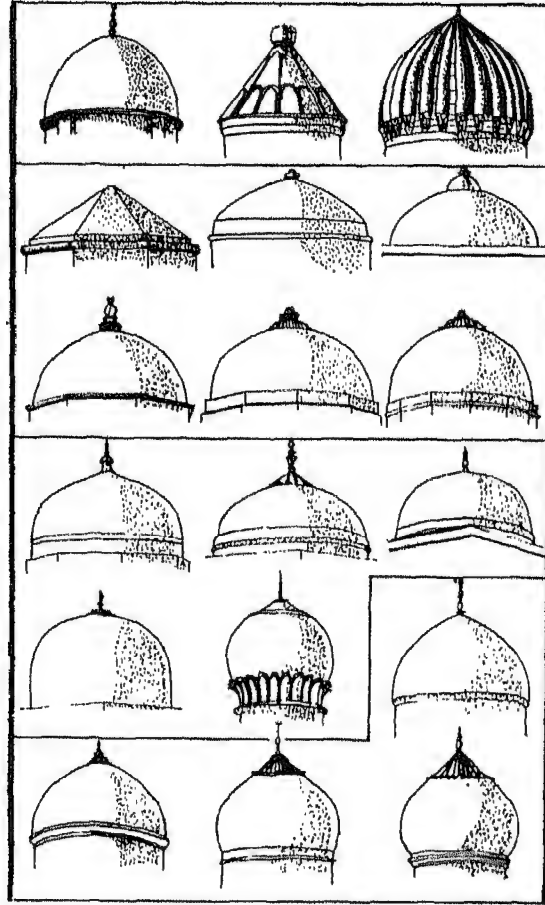
وأهم آثار هذه المدرسة كانت في بغداد وسامراء ولكن معظمها اليوم أطلال وبقي في إيران أبنية اصفهان الرائعة وأخصها بالذكر « ميدان شاه » قلب المدينة الفني ومسجدي شاه : الجامع الذي بناه الشاه عباس ويعتبره بعضهم من أجمل مباني العالم . وتعود شهرته إلى الغنى الفائق في

الزخارف الداخلية ، رغم ان الوحدة المعمارية فيه غير متكاملة ، كما يعود الى هذه المدرسة بناء مشهد الكاظمين في بغداد الذي أتمه الشاه اسماعيل الصفوي في القرن السادس عشر الميلادي . وقد انتشر في عهد الصفويين بناء الاضرحة على نوعين : في غرب ايران حيث كان الضريح عبارة عن ردهة يليها بناء تعلوه قبة ، وفي شرق ايران اتخذ الضريح شكل جوسق مئمن الاضلاع ، ومن اجل الامثلة على ذلك الجامع الضريحي للشيخ صفي الدين باردبيل الذي انشئ في القرن السادس عشر واكمل في اواسط القرن التالي .



شكل - ٥٥ -
مقطع بناء مسجد الجمعة في أردبيل

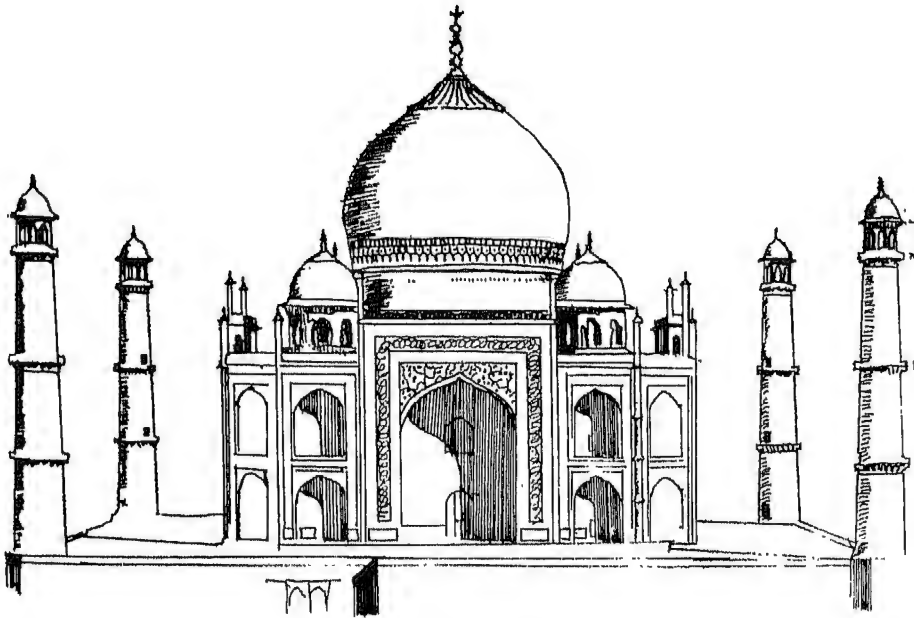
٣ - **المدرسة الهندية** : وقد ظهرت في شمال الهند منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر ابنة اسلامية هندية الطابع ثم جاء سلاطين المغول المسلمين « القرون ١٦ - ١٨ » فاقتبسوا في أبنيتهم القوس والقبة المصلية عن المدرسة الفارسية . وزادوا على ذلك استعمال الرخام المحرق والدعائم الضخمة . ومن اشهر مراكز الفن الهندي الاسلامي مدينة دلهي وفيها قصر أباطرة المغول والجامع الاكبر . وهناك خاصة مدينة « أغرة » التي اشتهرت بأثرها الفني الخارق « تاج محل » وهو ضريح تذكاري لزوجته الشاه جهان المتوفية سنة ١٦٣١ م ظل يبني خلال ٢٢ سنة عمل أثناءها فيه ٢٠ الف عامل .



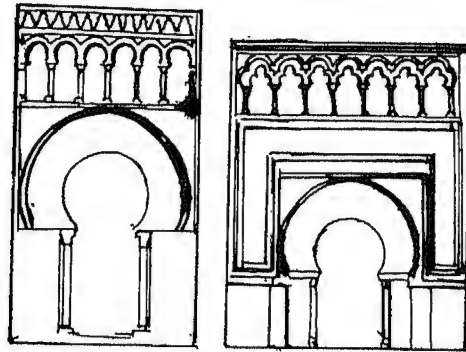
شكل - ٥٦ -

نماذج القباب في العالم الاسلامي مشرقية ومغربية

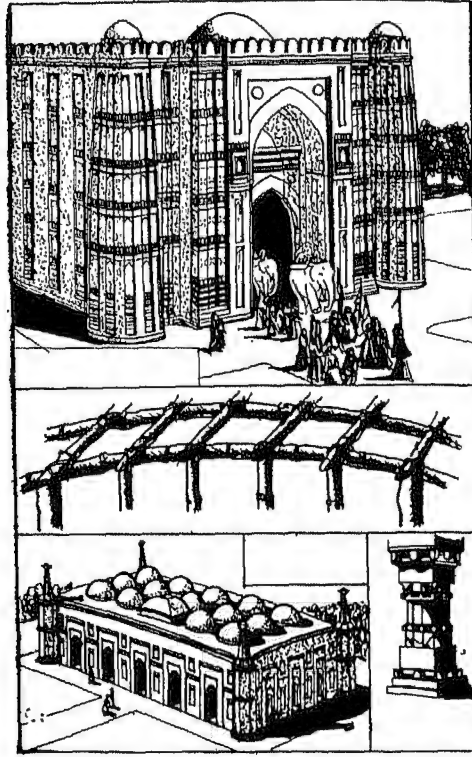
٤ - مدرسة المغرب والاندلس : ظل الطراز الاموي سائداً في الاندلس حتى القرن الخامس الهجري « ١١ م » وقد برز خاصة في جامع قرطبة غير أن الطراز المغربي - الاندلسي بدأ بالظهور بعد ذلك في عهد المرابطين والموحدين وازدهر وبلغ أوجه في القرن التاسع « الخامس عشر م » في



شكل - ٥٧ -
من روائع الفن الاسلامي في الهند بناء تاج محل في أغرا (١٦٣٥ م)



شكل - ٥٨ -
استخدمت نفس الاساليب المعمارية في الاندلس وفي شمال افريقيا الشكل
الى يمين القارئ لمحراب الجامع الكبير في قرطبة
والشكل الاخر لباب مكتبة الجامع الكبير في القيروان

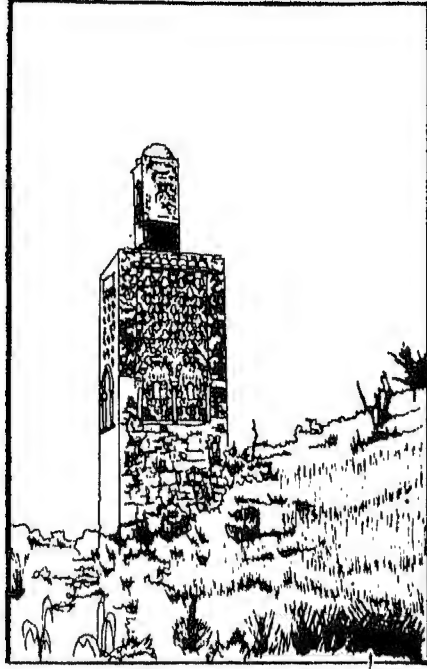


شكل - ٥٩ -

نماذج من فن البناء الاسلامي في الهند . في الاعلى دقهييل
أو سوق مغطاة ضخمة ، وبوابة ، وطريق عبرها
وفي الوسط طريقة رفع السقف وفي الاسفل
مسجد في مدينة غور بني عام ١٤٩٣ - ١٥١٩ م

قصر الحمراء خاصة واتصال القطرين في الحكم سمح بتشابه الاساليب الفنية
بينها . أما في مراکش فقد استمر الاسلوب الاندلسي المغربي حتى عهد
السعديين « القرن ١٦ - ١٧ » ثم بدأ ينحط بعد ذلك .

وأبرز خصائص هذه المدرسة وجود الشرفة المسننة من الخشب فوق
الابواب الكبرى ، واستعمال القوس المتطاولة ، المليئة بالقرنصات ، وأما
المآذن فهي عموماً مربعة الشكل مكسوة بالقاشاني والاعمدة وقد كثر في



شكل - ٦٠ -

بقايا منارة مسجد في الرباط - المغرب - من عهد سلاطين بني
مرين تمتاز بتزييناتها من الفخار المطلي ، أو القاشاني
المغربي الجميل ، الفائر والبارز

هذه المدرسة استعمال الجص المحفور والفسقيات واستعمال اللون الذهبي
في التزيين .

وأهم أبنية هذه المدرسة : جامع قرطبة ومثنته المربعة البالغة في
الارتفاع ٧٣ ذراعاً . ومدرسة العطارين وجامع القرويين في فاس وجامع
الكتيبة في مراكش عدا قصور الزهراء والحراء في الاندلس .

٥ - مدرسة الاندلس بعد زوال الحكم العربي « الفن المدجن » : لم
ينته الفن الاسلامي في اسبانيا عام ١٤٩٢ م بسقوط غرناطة بل استمر
تأثيره في اسبانيا والجزر القريبة زهاء قرن كامل تحت اسم الفن المدجن

على يد المدجنين وهم الماسمون الاندلسيون الذين بقوا تحت الحكم الاسباني ويظهر اثرهم واثـر العناصر الاسلامية في زخرفة الكنائس الروسية والقوطية ثم اختلطت في ابنية عصر النهضة مع العناصر الواردة من ايطاليا .

واول فن مدجن ظهر في قشتاله ، في الكنائس التي أنشئت بعد عام ١٠٨٥ م « عام سقوط طليطلة » مثل كنيسة سان رومان باقواسها الحدوية وزخرفتها العربية الملونة ، وكنيسة سانت ماري لابلاش في طليطلة « ١٢٠٠ م » والكنيسة الملكية او كنيسة سان فرناندو التي بناها الفونسو الحكيم « ١٢٥٢ - ١٢٨٦ م » في المسجد الاموي الكبير في قرطبة ، وجعل المعماريون مقرنصاتها وزخارفها النباتية شبيهة بفن غرناطة الاسلامي . وكذلك « القصر » في « اسبيليه » « ١٣٥٤ » الذي ذكر عنه المعلقون الفنيون ان بصالاته الفاخرة الزينة ومجاءقه الغناء .. يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الاسلامي من قبل الملوك المسيحيين .

٦ - **المدرسة العثمانية :** تأثر العثمانيون أولاً بالطراز العراقي الفارسي ثم بالطراز البيزنطي فأخذوا عن الأول الزخرفة واستعمل القاشاني وعن الثاني طريقة البناء . وهكذا ظهر مثلاً الجامع العثماني المكون من قاعة مربعة لاصحن خارجياً لها ، تعلوها قبة منخفضة وعلى طرفي القاعة غرف نصف دائرية تعلوها قباب نصفية . أما المآذن فهي لكثرة اضلاعها مستديرة ولكنها رشيقة جداً تستدق في اعلاها ولها شرفتان أو ثلاث شرفات . وتزين هذه المدرسة البناء بالقاشاني الأزرق وبالوان الحجارة احياناً .

وأهم مراكز هذه المدرسة استانبول أما أبرز ابنتها فجامع السلطان بايزيد وجامع السليمانية . ولها في دمشق التكية السليمانية وجامع السناية عدا قصري العظم في دمشق وحماة .

المساجد

المساجد وظواهرها المعمارية :

إذا كانت المساجد أهم ما بناه المسلمون من الابنية فان الفن الاسلامي إنما نشأ فيها في الواقع . والمسجد اهم مكان تتمثل فيه العمارة الاسلامية والفن الاسلامي معاً . ولقد ظهر على المساجد الاولى البساطة في البناء والاثاث ، ثم أخذ المسلمون يعتنون بها فيوسعون مساحتها ، ويبنونها بالحجارة والاعمدة ويزينونها لتلائم ما وصلوا اليه من غنى وقوة وسعة ، فكان مسجد قباء الذي بناه الرسول عليه الصلاة والسلام عام الهجرة في المدينة لا يتجاوز باحة مربعة صغيرة تحيط به جدران مبنية من الآجر والحجارة ، يرتكز سقفه المصنوع من الجريد والاعصان على جذوع النخل ، وهو اول نموذج للمساجد الاسلامية ، ثم بني المسجد الثاني في الكوفة بعد سبعة عشر عاماً ، ورفع سقفه على اعمدة من الرخام اخذت من انقاض بعض القصور القديمة ، ثم بنيت المساجد في الجزيرة وفي الممالك المفتوحة . وكانت مساجد الحجاز النموذج الذي تحاكيه مساجد البلدان الاخرى ، وساعد على ذلك مجيء الحجاج في كل عام إلى مكة والمدينة ، وقد أدخل على بناء المسجد في عهد الرسول المنبر ليقف عليه أثناء الخطابة ، ومنع عمر أن يتخذ المنبر في مساجد العالم الاسلامي غير مسجد المدينة ، ولكن المسلمين بعد عمر اتخذوا المنابر للخطابة ، واتخذ معاوية مقصورة في المسجد ليحتجب عن المصلين ، لأنه خشي أن يحل به ما حل بعمر وعلي من اغتيال واقتدى به الخلفاء ، وأدخل على المساجد زيادات أخرى مع الزمن فاتخذت المآذن لأول مرة في دمشق حين أذن المسلمون فيها للصلاة من أبراج المعبد الوثني القديم الذي قام على أنقاضه المسجد الاموي — كما يقول زكي محمد حسن — وأقيمت مآذن في مسجد عمرو في الفسطاط بأمر من معاوية — كما جاء في خطط المقرئزي — واتخذ الحراب الجوف للامام

في الصلاة والدلالة على جهة القبلة ، وأول محراب كان في مسجد المدينة ، ثم في الفسطاط ثم في دمشق ، وتعمم بعد ذلك ثم أدخلت **الايوانات** وهي الاروقة التي تحيط بصحن المسجد ولها أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم ، وألحق بكثير من المساجد غرف خاصة للمؤذن والامام ، أو لايواء طلبة العلم الاغراب ، أو لحفظ مكتبة المسجد ، وفي العالم الاسلامي اليوم آلاف مؤلفة من المساجد ، بعضها قديم وبعضها حديث العهد ، وهي جميعها تحتوي تقريباً ما ذكرنا من حرم وقباء ، ومنبر ومحراب وأماكن للوضوء ومآذن للأذان ، ولكنها تختلف بطراز بنائها ، وتزييناتها ومحاربا ، وشكل مآذنها ، ويغلب على كل اقليم نظام معماري خاص متأثر بالفنون المعمارية السائدة فيه ... ومن أهم المساجد التي بنيت في العصور الاسلامية وكانت ذات ظواهر معمارية أثرت في فن العبارة للمساجد هي :

١ - الحرم الشريف في القدس : يضم الحرم الشريف في القدس ثلاثة مساجد : مسجد الصخرة ، ومسجد عمر ، والمسجد الأقصى .

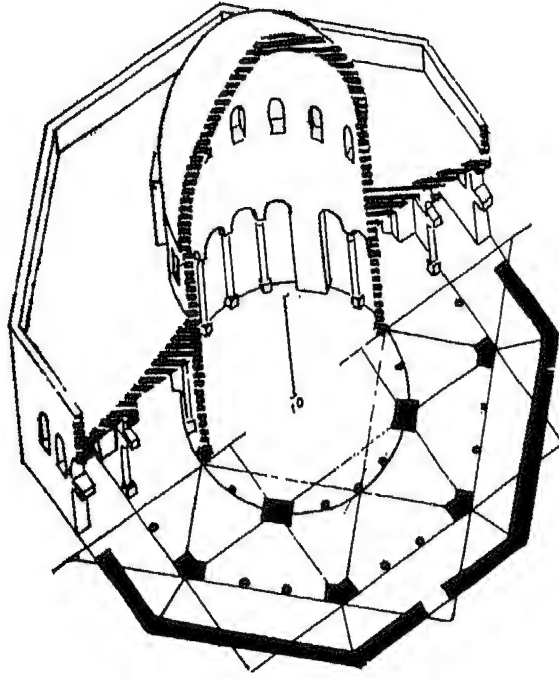
اما مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب لما ذهب إلى القدس ليتسلمها من البطريرك صفرونيوس .

وأما المسجد الأقصى فهو المسجد الرئيسي في الحرم وقد بني غرب مسجد عمر ومحاذاً له وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الاموي في دمشق والجامع العمري الكبير في بيروت .

وأما مسجد الصخرة فهو بناء صغير نسبياً مشمن ، تعلوه قبة كبيرة وكانت أول المساجد التي طلعت على العالم الاسلامي بنموذج جديد من

البناء يختلف عن بساطة المساجد الأولى وزهدها. وقد تم بناء قبة الصخرة في القدس في عهد عبد الملك بن مروان ، فلقد رأى عبد الملك ، أن ينشئ حول الصخرة المقدسة التي وقف عليها إبراهيم عليه السلام ليضحي ابنه « وفديناه بذبح عظيم » ، وهي التي وضع الرسول عليه السلام قدمه عليها في ليلة الاسراء لما عرج إلى السماء ، بناء يتفق ومركز الصخرة الديني عند المسلمين ، وعظمة الدولة العربية القوية والغنية ، بحيث لا يقل رونقها وبنائها وزخرفها عن أعظم الكنائس أو المعابد عند الطوائف الاخرى ، فأحيطت الصخرة ببناء مستدير وحوله راوق دائري ، وجعلت فوق الرواق قبة محمولة على ستة عشر قوساً ترتكز على أربع دعائم واثنتي عشر سارية ، واقم وراء الرواق عمدان ودعائم أخرى نظمت على شكل مشمن منتظم ، وخلفها شيدت ثمانية جدران بارتفاع تسعة أمتار فكان مجموع البناء من الخارج يؤلف مشمناً بديعاً تختلف كل الاختلاف عن بقية المساجد ، وبقي هذا الشكل فريداً في نوعه في البلاد الاسلامية . وقد زينت القبة من الداخل بالفسيفساء ، وقد استبدلها سليمان القانوني سنة ١٥٤٨ م بلوحات من القاشاني المدهون بالميناء ، وكان استعمال القبة في المسجد - وهي التي كانت مستعملة في الكنائس المسيحية ، وفي أبنية الرومان والبيزنطيين - وفي استعمال الأعمدة ذات التيجان ، والأقواس نصف الدائرية . كل هذا كان فتحاً جديداً في بناء المساجد ، بدأه عبد الملك في القدس ، وتبعه الوليد في دمشق ونما وكمل في المساجد الأخرى المتعددة التي أنشئت في أملاك الدولة العباسية أو في شمالي أفريقيا أو في الأندلس .

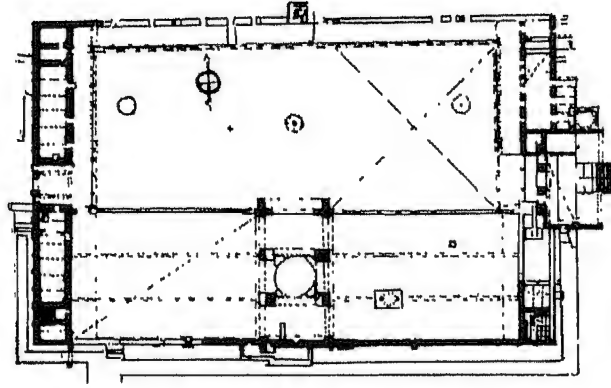
وعلى نفس الهضبة التي بنيت عليها قبة الصخرة يقوم المسجد الأقصى وهو بناء أموي تعرض لكثير من عادات الزمن وهو مؤلف من جناح



شكل - ٦١ -
مقطع ومسقط قبة الصخرة في القدس

مركزي عريض تحده أقواس ترتكز على أعمدة وعلى جانبيه جناحان أضيق
أضيفت إليه عدة أجنحة على طرفيه .

٢ - المسجد الأموي بدمشق : ويقوم المسجد الأموي بدمشق في
منطقة مقدسة من معبد وثني قديم للاله جوبيتر الدمشقي ، وفي عهد
الامبراطور تيودور سنة ٣٧٩ م حول الى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة
القديس يوحنا ، وكان في كل ركن من أركان المعبد الوثني برج مربع ،
وقد اختط أبو عبيدة بن الجراح على المعبد جامعاً ، كما استعمل المسلمون
الأبراج للأذان ، ثم جاء الوليد بن عبد الملك وكان كلفا بالعمارة ، فاشترى



شكل - ٦٢ -
مسقط الجامع الاموي في دمشق

الكنيسة من النصارى وعوضهم بدلها ، وأمر بإقامة مسجد فخم مكانها ، وتم تشييده بين سنتي ٨٨ و ٩٦ هـ « ٧٠٧ - ٧١٤ م » واستقدم لبنائه العمال من جميع الاطراف ، وقيل ان امبراطور الروم وجه إلى دمشق مائتي صانع من أمهر الصنائع البيزنطيين لينضموا إلى عمال المسجد بناء على طلب الوليد ... والمسجد يتألف من صحن كبير مستطيل الشكل وايران أو بيت للصلاة وطوله ١٣٦ متراً بعرض ٣٧ متراً وفي هذا الايران ثلاثة صفوف من الطارات موازية للقبلة ومحمولة على أعمدة رخامية ذات تيجان كورنثية ، وفوقها أقواس أصغر منها ، وفي الوسط ترى اليوم قبة حجرية أضيفت اليها في عصر متأخر عندما شيدت بشكل بيضوي وقد كان المسجد مفروشاً بالمرمر ، وكانت جدرانه مغطاة بلوحات من الرخام إلى ارتفاع قامة الانسان ، وفوق اللوحات زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة ، ولم يبق منها إلا جزء في الرواق الغربي ، وقد احترق المسجد عدة مرات ، وأدخل على زخرفته وبنائه بعض التعديل فيما بعد ... وقد أزيلت الكسوة من بعض الجدران فظهرت ألواح الفسيفساء التي

ترى أروقة الصحن وتقتل مجموعة من الأشجار العالية يتخللها قصور وبيوت
يعتقد أنها مثل غوطة دمشق ويردى الذي يرويها .

ويؤكد علماء الآثار أن الأموي بني جميعه دفعة واحدة بعد أن دكت
جميع الأبنية السابقة ، ولم يكن بناؤه ترميماً أو إقاماً لبناء سابق . ويقول
في ذلك الدكتور سليم عادل : « ونحن لا نقبل نظريات ولزنجر وواتزنجر
وديسو ولا مانس ومن لف لفهم في أن الوليد لم يبن من المسجد غير
القبة والمئذنة الشمالية وأنه لم يجر في بناء الكنيسة إلا بعض الإصلاحات
الجزئية وذلك لأسباب كثيرة . أهمها : أنه لا يوجد ولا كنيسة يشبه
مخططها مخطط الجامع الأموي ، وإن شكل البناء بصورة عامة يخالف
تقاليد سورية النهرانية في فن العمارة . ونعتقد مع تيوش وستوزيكورسكي
وسوفاجيه آخر مؤرخي المساجد أنه يقدم لنا نموذجاً متجانساً يصعب القول
فيه أنه بني على دفعات في عصور مختلفة ، ثم ان زخارفه الإسلامية تنسجم
مع بنائه انسجاماً تاماً يمنع عن التفكير أنها صنعت مستقلة عنه » .

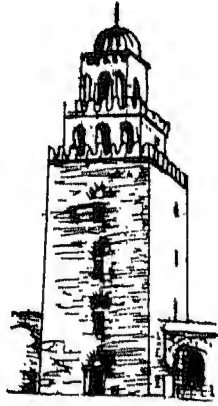
ويقول الدكتور زكي محمد حسن : « ... وكان المسيحيون قيد شيدوا
في هذه المنطقة (أي المعبد الوثني) كنيسة قبل الفتح الإسلامي وقد
هدم الوليد هذه الكنيسة وشيد الجامع . فلا صفة لما يزعمه بعض مؤرخي
الفنون من أن بيت الصلاة في المسجد الحالي هو كنيسة القديس يوحنا
التي قسمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد فتح دمشق (أي يقصد أن
البناء جميعه من عمل الوليد لا أنه قلب الكنيسة إلى جامع بتغيير مظهرها)

ويقول أيضاً : « ومن المحتمل أن يكون تصميم الجامع الأموي
متأثراً بنظام الكنائس السورية وأن تكون واجهة رواق القبة تشبه واجهة
القصور البيزنطية ، وأن يكون الباعث على إدخال البلاطة المعترضة

(الرواق النصفى في داخل المسجد) في هذا الرواق الرغبة في إظهار أهمية المحراب الذي تنتهي به هذه البلاطة . وفي هذا الجامع بضع نوافذ من الرخام ، فيها أقدم نماذج من الزخارف الهندسية في الاسلام . والحق أن هذا الجامع درة في تاج العمارة الاسلامية . « ويعتبر سرفاجيه أن هذا المسجد كان « أول نجاح معماري في الاسلام » ويؤكد جورج مارسيه أن « البناء المسيحي هدم » قبل إشادة المسجد إذ أن الصفة العامة للبناء كما يقول مارسيه « بأقواسه وسقوفه وسطوحه ذات المنحدرين (جمالونين) لا تسمح باعتباره كنيسة محولة إلى مسجد » .

ويؤكد الأمير جعفر الحسيني ، ان الوليد ، استصفى كنيسة القديس يوحنا كلها ، فهدمها وشيد مكانها جامع الخالد . الذي أصبح من أكبر مساجد العالم الاسلامي ، بني على غير مثال معروف ؛ استوحى ووضع تصميمه من الأبنية السورية قبل الإسلام ، وطرازها المألوف إذ ذاك ، فصاغ منها نوع بناء جديد له طابعه الخاص ، وشخصيته المستقلة ، وقد وفق المهندس والصانع الى حد بعيد في الجمع بين أسلوب البناء القديم وزخارفه وما تستلزمه شروط الحياة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، حتى كاد يلتبس على الباحث أصول هذا المزج ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة ، وهكذا وضعت معه اسس الهندسة العربية التي استراح اليها العرب المسلمون واتخذوها مثلاً احتذوه . . وللأسف اصاب هذا الجامع غير مرة بزلازل صدعت أركانه ومناراته ، وخرق ست مرات في عصور مختلفة أولها حريق سنة ١٠٦٩ م والأخير سنة ١٨٩٣ م ذهبت بمحاسنه ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكان يعاد بناؤه في كل مرة إلى ما كان عليه قبل الكارثة مع تحرير بسيط .

وسرعان ما شيدت كثير من المساجد التي تشبه في تخطيطها المسجد



شكل - ٦٤ -
منارة جامع القيروان
(القرن الثامن الميلادي)



شكل - ٦٣ -
مئذنة من مآذن المسجد الاموي
بدمشق (القرن السابع الميلادي)

الأموي بدمشق ، كالمسجد الذي بدأ بنائه في عهد الوليد وانتهى في عهد أخيه سليمان وهو المسجد الأموي في حلب. وقد شيد في وسط المدينة ما بين باب انطاكية والقلعة ، وقد تطور مع الزمن بناء هذا الجامع واصابه تحوير وتعديل أضاعا علينا شكله الأصلي ، ولكن هنالك دلائل وقرائن تحملنا على الاعتقاد بانه بني على غرار الجامع الأموي بدمشق ، ولكن دونه كلفة ونفقة . وأقل منه اسرافاً بالتمتيق والزخارف . وكذلك يشبه في تخطيطه جامع الزيتونة في تونس ومسجد سيدي عقبة في القيروان ، وجامع قرطبة في الأندلس .

٣ - **جامع القيروان :** ويدعى بجامع سيدي عقبة ، بناه عقبة بن نافع عندما خط مدينة القيروان سنة ٥٥٠ هـ ٦٧٠ م ، ثم هدم وأعيد بناؤه سنة ٥٧٦ هـ وزيد في مساحته بأمر هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، والقسم الأكبر من بنائه الحالي يرجع إلى عصر هشام ، ويمتاز هذا المسجد بأعمدته وتيجانه التي نقلها العرب من انقاض أبنية قديمة واستعملوها في رفع سقوفه ، وأبعاده الآن تقرب من أبعاد مسجد دمشق إذ يبلغ طوله ١٣٥ متراً وعرضه ٨٠ متراً ، وفي المصلى منه سبعة عشر بهواً توازي محوره الاسامي ، وعلى طرفي البهو الأوسط قبتان رشيقتان . وتتألف مئذنته من ثلاثة أبراج

مربعة متعاقبة ، ويرجع بناء الطابق الأول والثاني منها لعهد هشام ، أما الطابق العلوي فمن المرجح أنه أضيف بعد القرن الخامس الهجري ، وتعد هذه المئذنة من أجمل المآذن الإسلامية وتعلوها قبة صغيرة .

٤ - **جامع الزيتونة** : هو رابع جوامع القارة الأفريقية في الزمان ، فجامع الفسطاط انشئ سنة ١٣ هـ وجامع الناقة بطرابلس (جامع عمرو بن العاص) سنة ٢٣ هـ . وجامع عقبة بن نافع بالقيروان سنة ٥١ هـ وجامع الزيتونة سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

وجامع الزيتونة رباط وجامع ، بل رباط فيه جامع . والرباط هو ثكنة (حصن) للمتطوعين لحراسة الثغور . فكان المغرب « دار حرب » يحتاج إلى الدفاع عن المكاسب الإسلامية العربية ... فأسس المغاربة ألف رباط على الساحل من طنجة إلى الاسكندرية لحماية الثغور وحراستها ووقايتها من « الكومندوس » والقرصنة . وجامع الزيتونة رباط لحماية الثغور ، فهو يتركب من أربع قلاع . في كل ركن قلعة مبنية بصناديق الحجر الكبرى ، وفيها صومعة ، مستديرة للاستكشاف والاستطلاع ومراقبة حركة العدو في البحر .

وهو جامعة علمية إسلامية ، تدرس فيه ، علاوة على العلوم اللسانية والدينية ، العلوم الرياضية والطبيعية والطبية ، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته برنامج التعليم وعائلة العلوم التي كانت تدرس وأساليب تدريسها وأسماء الكتب التي تدرس فيها . وحول الجامع كانت أسواق تتعلق بمهمة التعليم وهي سوق الكتبيين « الوراقين » وسوق السفارين « المجلدين » ، ومجموعة مدارس لمبيت الطلبة . وفي الجامع مكتبة أسسها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وأضاف إليها من جاء بعده من الخلفاء الموحيدين أو من الأمراء

المرايين او الحسينيين فتجمع فيها نحو ٢٥ ألف مخطوط منها المنفرد ومنها النادر ومنها النفيس .

يتكون الجامع اليوم من بيت الصلاة والصحن والمثدنة التي تسمى بتونس صومعة وميضأة .

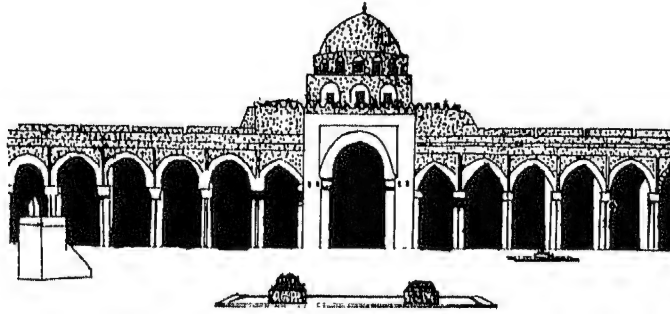
يكاد جامع يكون متحفاً شاملاً للانماط والمدارس المعمارية الاسلامية فيه الفن المغربي من أفريقي وأندلسي ومراكشي ، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتركي .

أما عن الفن المغربي فناؤه الأول تجمع من الفنون البيزنطية الايرانية والعربية ، تولد منها الفن الإفريقي البحت ، فالقلعة بيزنطية والصومعة المستديرة ايرانية والتأليف العام عربي يحاكي جامع الكوفة . ثم جاء الاغلبة وبنوا المحراب الثاني والقبّة ومقصورة الامير وبيت الصلاة ومجانب الصحن بمعمار أغلبي مغربي فيه الكوفي الأغلبي البارز البسيط والقبّة المحكّمة والزليج (القاشاني) الذي جلبه من بغداد اسماعيل الطلاء القيرواني ، ورؤوس الأعمدة المزخرفة بعرائش الكروم المفرعة والكتابة بالطومار على طول أعالي جدار الصحن .

ونجد الفن الفاطمي في المحبّة الجنوبية وقبتها التي تحاكي قبة المدخل من جامع عبد الله المهدي بالمهدية . وكذلك تيجان الأعمدة الفاطمية التي زخرفت بصور مجسمة في كل ركن من أركان تاج العمود الأربعة . ونجد الفن الصنهاجي في زخرفة الأعمدة والتيجان التي نقشت أبدع نقش وزخرفت بالكوفي المزهر أبدع زخرفة . ونجد الفن الموحد في الكوفي المربع وأبواب المدخل الشمالي لبيت الصلاة وصحن الجنائز والمصكبة العبدلية القديمة وخزانات الماء ، ثم نجد الفن الأندلسي في زخرف المحراب والأقسام السفلى

من القبة بالخط الكوفي الأندلسي الرائع . . . أما الفن التركي فنجدّه في أبواب دار الإمام وأقواس صحن الجناز والحطوط المشهورة بالرصاص الأسود .

وبالجملة ، الزيتونة مركب إسلامي جامع^(١) .



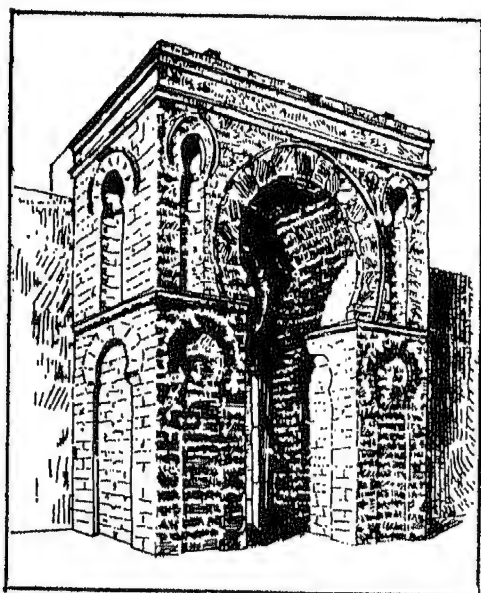
شكل - ٦٥ -
المسجد الجامع في القيروان

٥ - مسجد قرطبة : وقد بناه عبد الرحمن الداخل قبل وفاته بعامين في سنة ٧٨٦ هـ وأراد أن يضاهي مساجد الشرق سعة وعمراً وأعظمة ، وبني على مثال المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك في المدينة المنورة ، ويمتاز بكثير أعمدته الرومانية وأقواسه على شكل نعل القرس ، وكثير منها مزدوج ، يعلو بعضها فوق بعض . وواجهة القبلة من الداخل مزينة بالفسيفساء الدقيقة ، يخاطها قطع صغيرة صدفية وذهبية ، وصورت بشكل أن الناظر إليها من ناحية اليمين يرى مناظر غير المناظر التي يراها من ناحية اليسار وذلك بانعكاس الضوء فيها . وفي دائرة القبلة والمحراب آيات قرآنية بالكتابة الكوفية ، وعن عین القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين إحداهما لتعبد الإمام والثانية لوضع لوازم المنبر ، أما

(١) عثمان الكعاك . العربي ١١٨

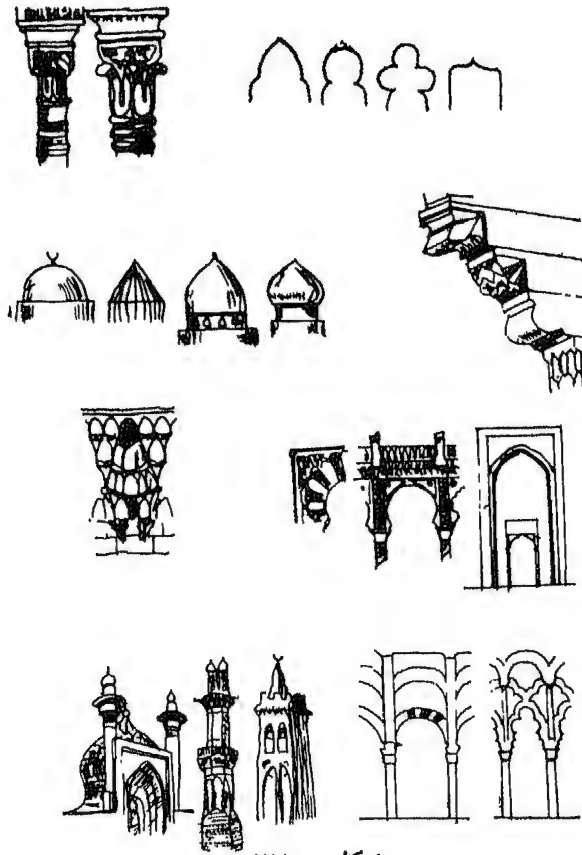
المهراب فواسح من داخله وتعلوه قطعة واحدة من الرخام تكون سقفه ، كل ذلك باق إلى اليوم ، إذ تحول الجامع في سنة ١٢٣٦ م إلى كاتدرائية مسيحية باسم « لاموثكينتا » تحريفاً للفظة المسجد .

٦ - مسجد سامراء : وقد بني من الآجر ، واستخدمت فيه دعائم من الآجر لحمل القناطر عوضاً عن الأعمدة الرخامية ، كما يمتاز بالمشددة الباقية حتى اليوم ، وهي مشددة مرتقعة ، مبنية من الآجر ، ويصعد إليها بدرج حلزوني .



شكل - ٦٦ -
مدخل الجامع الكبير في المهدية

٧ - جامع ابن طولون : وبناه احمد بن طولون على مثال مسجد سامراء سنة (٢٦٣ - ٢٦٥) فبنى فيه مشددة مربعة ، وكسا الآجر بطبقة من الجص وزينه بكثير من الكتابات إما بالجص والآجر او حفرها في الخشب



شكل - ٦٧ -

مجموعة أقواس وقباب ومآذن ومقرنصات ، تمثل الطرز الإسلامية من فن الرياضة والعمران الديني

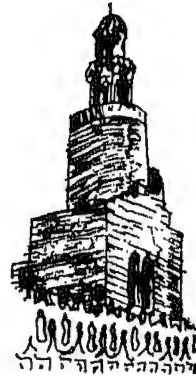
وعني بأن يكون بنيانه قوياً - وقد بقي حتى اليوم - ليتخذ إلى جانب الصلاة ، معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي ، وليكون مدرسة دينية ، وداراً للحكومة ، إذ كان يصدر منه أوامر الدولة ، كما كانت تعقد فيه المحاكم ، ووضع في الجامع خزانة ملأى بالأدوية والاشربة التي يحتاج إليها المصلون والمرضى ، وعين له طبيباً يقوم بالاشراف على الحالة الصحية ويداوي خاصة ما قد يطرأ على المصلين يوم الجمعة ، فكان بمثابة

شكل - ٦٨ -

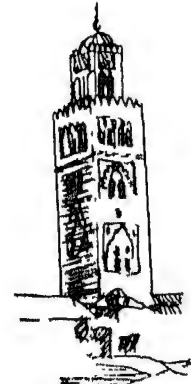
الملوية في سامراء نموذج فريد
من المآذن الاسلامية قلد في
مئذنة جامع ابن طولون في
القاهرة . . والاسلوب المعماري
مقتبس من بناء الزقورات أو
برج بابل (القرن التاسع)



شكل - ٧١ -
مئذنة احدى مساجد القاهرة
(القرن الخامس عشر)

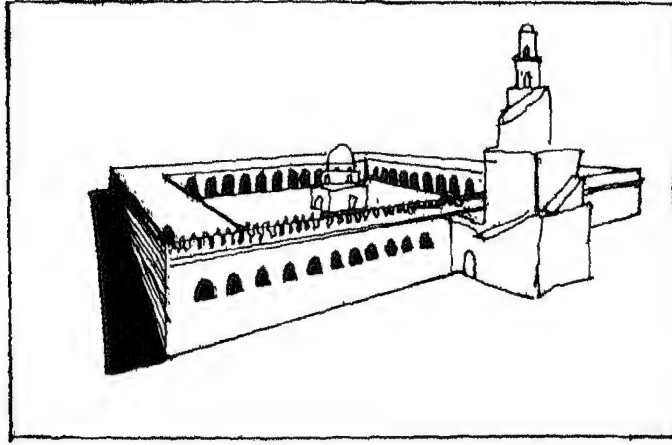


شكل - ٧٠ -
نموذج من مآذن القاهرة
في (القرن التاسع)



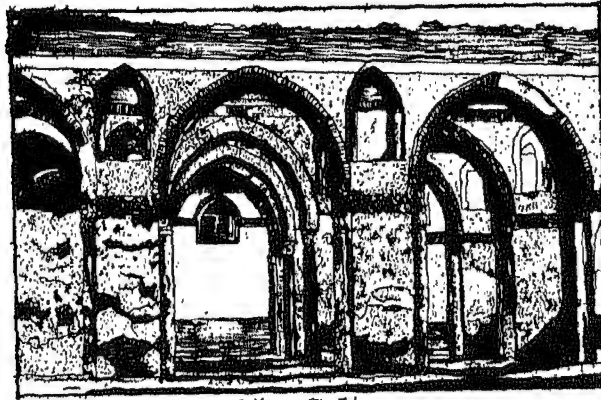
شكل - ٦٩ -
نموذج من مآذن المغرب
الاقصى في مدينة مراكش
(القرن الثاني عشر)

طبيب الاسعاف ، وصيدلية الاسعاف ، وهكذا نرى ان مسجد ابن طولون
بني ليكون جامعاً للصلاة ، وقلعة محصنة ، ومحكمة ، ومستشفى ، فلا
عجب ان بذل ابن طولون كثيراً من العناية به .



شكل - ٧٢ -

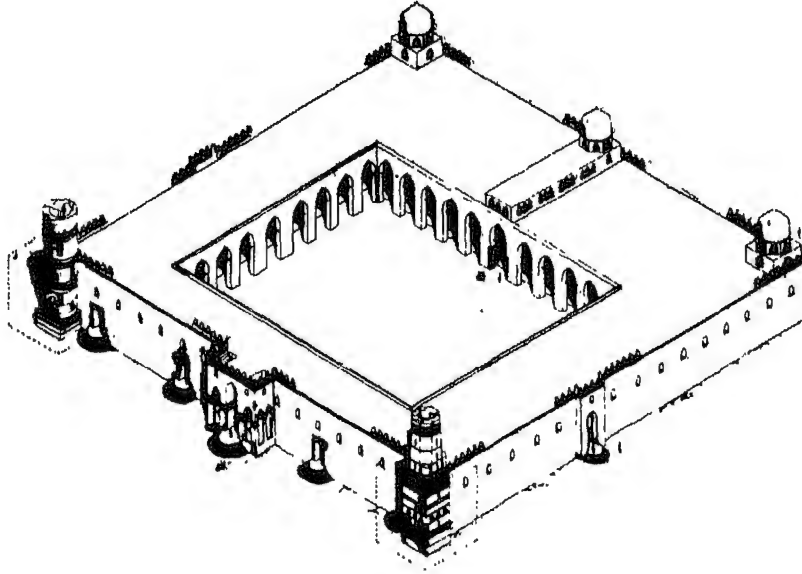
جامع ابن طولون كما كان في عهد بنائه الاول ، وتشاهد المأذنة
المصرية الشبيهة بمئذنة سامراء وهي اقتباس من نظام
بناء الأبراج (الزقورات) البابلية في العصور القديمة



49. Mosque of Ibn Tulun

شكل - ٧٣ -

من بقايا مسجد ابن طولون في القاهرة



شكل - ٧٤ -

جامع الحاكم في القاهرة وهو نموذج لتطور فن بناء المساجد
في العهد الفاطمي

ومنارة هذا المسجد تمتاز بسلم من الخارج بأربع جوانب ، يصعد منها
إلى سطح ، فسلم حازوني نصف دائري يوصل إلى سطح آخر يتركز عليه
الجزء العلوي وهو على هيئة مبخرة وهي المنارة الوحيدة في مصر ذات
السلم الخارجي وهي تشبه منارة سامراء .

٨ - مساجد الفاطميين :

الجامع الازهر : نموذج من فن بناء المساجد في عصر الفاطميين ،
بناه القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وتمت عمارته
سنة (٩٧٢ - ٩٧٣ م) . وقد ادخلت عليه عدة زيادات حتى تضاعفت
مساحته واصبح اليوم بشكله الحالي . معرضاً لفن العمارة الاسلامية الدينية
في مصر منذ العصر الفاطمي حتى حكم اسرة محمد علي . إذ لم تقض اربع

سنوات على انشائه حتى امر الخليفة الفاطمي العزيز بالله باصلاح ما كان من عمارته يتطلب الاصلاح والتجديد ، ثم جدد الحاكم بامر الله مثذنته سنة (٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م) وكذلك ادخل المستنصر عليه بعض الاصلاحات . وفي عهد المماليك ، جدد عمارته الظاهر بيبرس ، فعمر الواهي من اركانه وبيضه واصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه ، واستجد به مقصورة ، واعاد اليه خطبة الجمعة ، وصلاة الجمعة ، بعد ان كان صلاح الدين الايوبي قد امر بأن تبطل فيه والاكتفاء بصلاة الجمعة في الجامع الحاكمي ..

ثم اضيف إلى الازهر مدرستان في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي . ثم مدرسة ثالثة في القرن التالي ... وفي العهد العثماني اضاف الامير عبد الرحمن كتنخدا (سنة ١١٦٧ هـ - ١٧٥٣ م) اقساماً هامة إلى بنيانه وتخطيطه وكذلك فعل ولاية مصر من اسرة محمد علي .

ومع كل هذه التعديلات ، فان الازهر لا يزال يحتفظ بأجزاء هامة من عناصره المعمارية الاصلية ، وقد بنيت جدرانها من الآجر ، وكذلك عقودها وقبابه ودعامته . وجميع أعمدته وتيجانها جلبت من آثار قديمة سابقة ، وليس لبناته الاوائل فضل في صياغتها ، وإنما اقتصر فضلهم على تنسيق هذه الاعمدة القصيرة فوق الاسس واعدادها لحمل العقود ، ورفعها إلى اقصى علو استطاعت ان تتحمله .

ومن الزخارف المتبقية من البناء الاصيلي اللوحات التي تحف بالنوافذ اذ كانت النوافذ محشوة بستائر جصية مخرومة قوام بعضها حلقات هندسية متشابكة ، وقوام بعضها الآخر أوراق نباتية متجانسة شبيهة بأنصاف المراوح النخيلية .

وكان يدور حول اللوحات والنوافذ اطار متصل يربط بينها جميعاً نقشت عليها كتابة كوفية من آيات الكتاب المين .

وإذا كان الأزهر نموذجاً لفن بناء الجوامع في العصر الفاطمي بمصر ، فان مساجد الفاطميين عامة احتفظت بنظم المساجد الجامعة الأولى وكان لها ، مثلها ، بيوت مسقوفة للصلاة ، تمتد موازية لجدار القبلة ، وتنقسم إلى بلاطات ، ومنها ابهاء مكشوفة ، وتحيط بها مجنبات من رواق أو أكثر ، ومساحاتها أصغر من مساحات المساجد السابقة ، فمساحة الأزهر نصف مساحة مسجد عمرو ، وكذلك مساحات الجوامع الفاطمية الأولى كمسجد الجيوشي والأقمر والسيدة رقية في القاهرة . كما أضيفت لهذه المساجد قاعات فيها أضرحة .

٩ - مساجد العصر المملوكي في الشام ومصر : لم يعتبر المهندسون والفنانون العصر المملوكي في الشام ومصر ، عصرأ ذهبياً لتاريخ العمارة الإسلامية ، عن عبث ، وإنما لكثرة وتنوع العماثر التي ظهرت في هذه الفترة ، من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات وأسبله وخانات ، لم يحتفظ فيها بالأساليب المعمارية المتوارثة ، بل أضيف عليها كثير من التحسين والتوسيع والاتقان والاناقة وخاصة في الواجهات والمنارات والقباب وفي الزخارف الجصية والرخامية . فمن ذلك مثلاً العناية بواجهات المساجد ، وتحويل صناعة المحراب من الجص أو الحشب في العهد الفاطمي إلى الرخام الذي أصبح الحامة الأساسية في البناء والزخرفة ، وأخذ الرخام الملون يلعب دوره في تغشية الجدران كما اخذت أشغال النجارة الدقيقة ، وعمل الحراطة والتطعيم بالصدف والعاج والابنوس تغشى المنابر والأبواب والشبابيك ،

وظهرت السقوف بموهة بالذهب بدرجة رفيعة من الاتقاق والتناسق والجمال. ومن مساجد هذه الفترة :

مسجد الظاهر بيبرس في القاهرة : شيد بين عامي ٦٦٥ هـ - ٦٦٧ سنة ١٢٦٦ و ١٢٦٩ م . وشكله مربع تقريباً ، وقوام تصميمه صحن يحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة الذي يتكون من ستة أروقة ، وواجهته بنيت بالحجر . أما الداخل فبناؤه جميعه من الآجر . وفيه ٢٧ نافذة بعقد مدببة كانت مزخرفة بزخارف جصية .

مسجد المنصور قلاوون : شيد عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م وقوام تصميمه صحن تحيط به أربعة ايوانات كمسجد بيبرس أكبرها ايوان القبلة أيضاً وأمام المحراب قبة كبيرة محمولة على عمد من الغرانيت الاحمر .

مسجد السلطان حسن : ويعد أجمل العمارات المملوكية في مصر والشام ويقوم في سفح قلعة الجبل بمدينة القاهرة ، تم تشييده خلال سبعة أعوام ٧٥٧ - ٧٦٤ هـ / ١٣٥٦ - ١٣٦٣ م . واجمل ما في هذا المسجد قبو ايوانه الشرقي الذي يعد من معجزات البناء في الفن الاسلامي ، اذ تبلغ فتحته ١٩,٢٠ متراً يحيط به من الداخل افريز جصى مكتوب فيه بالخط الكوفي آيات من سورة الفتح ، وهو طراز من الكتابة لانظير له ، وجدران هذا الايوان مستورة بالرخام وعقد الايوان بني بالآجر ماعدا بدايته فانها بالحجر . وفي هذا الايوان دكة من الرخام الدقيق الصنع . وارتفاع قبة الكلي نحو ٥٠ متراً وهي مؤزدة بالرخام الفاخر ، وبها طراز خشبي منقوش ومذهب ، وكانت القبة من الخشب ومغلقة بالرصاص وغطاؤها الخالي جديد الصنع .

ويمتاز هذا الجامع بنسبه الضخمة وايواناته العالية ومدخله الضخم الغني بالزخارف ومئذنتيه العاليتين وجدرانه الضخمة لما فيها من تجاوير عمودية تزيد من ارتفاع البناء ، والكورنيش الفاخر الذي يعلو الجدران فيتوجها ويزيد من وحدة البناء كله .

وشيدت في زوايا الجامع مدارس يوصل إليها باب في كل زاوية من زوايا الصحن ، الحقت بها مساكن للطلبة ، وقد أراد السلطان حسن أن تدرس فيها المذاهب الاربعة .

١٠ - **مساجد العصر السلجوقي** : ظهر أثر السلاجقة في العراق وايران وآسيا الصغرى والشام ، وهم رغم انتمائهم إلى قبائل تركية واعتمادهم على ابناء المناطق التي سيطروا عليها سياسياً ، رعوا الفنون المعمارية ، وظهرت في عهدهم مساجد وعمائر ذات طراز خاص متميز بالضخامة والمظهر القوي ، وقد تأثروا في بنائها بما ظهر من أساليب معمارية في الهند على يد محمود الغزنوي والدولة الغزنوية . . . وأكثر الابنية السلجوقية مجموعات تضم : المسجد ، المدرسة ، الضريح ، ولقد طغى اسم المدرسة أحياناً على اسم المسجد كالمدرسة المستنصرية في بغداد مثلاً المنسوبة إلى الخليفة المستنصر ، والتي خصصت لتدريس المذاهب الأربعة . فكان لكل مذهب ايوان خاص فيه المسجد وموضع التدريس . وفي داخل المدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء . وهكذا اختلط بناء المدرسة مع بناء المسجد . وجمعت ايران بشكل خاص بين تصميم المدرسة ذات الصحن المستطيل وبين استخدام القباب في المساجد ، وصار الصحن في المساجد الجديدة يختلف كثيراً عن فناء المدرسة . ومن أشهر مساجد ايران في هذه الحقبة ، مسجد الجمعة في مدينة اصفهان

الذي بني في عهد السلطان السلجوقي الكبير أبو الفتح مكشاه . اما عمار
الجزيرة القراتية والعراق فتميزت بايوانات واعمدة واكتاف ، منها الجامع
النوري في الموصل الذي أمر بتشيسده نور الدين محمود زنكي ، انا بك
الموصل ، وكان قوام هذا الجامع صحناً تحيط به ايوانات ولا يزال أحدها
قائماً مع المنارة المعروفة باسم الحدباء ويزيد ارتفاعها على ٥٠ متراً . وهي
غنية جداً بالزخارف الهندسية المؤلفة من اختلاف وضع الآجر وأكثر
مساجد السلاجقة في بلاد الشام امتازت بتزيين جدار القبلة منها بزخارف
من الحجر جميلة ودقيقة الصنع ...

وقد اتسع في هذا العصر نطاق استعمال الفسيفساء الخزفية والفسفاني
في تزيين الجدران ، وعملت محاريب خزفية مسطحة ذات رسوم تمثل
محراباً يحف به عمودان بارزان . واستعملت الكتابة الكوفية المزهرة ،
وتطور الخط النسخي تطوراً كبيراً وبخاصة في القرن الثاني عشر الميلادي .

١١ - مساجد العصر المماليكي في ايران : بعد أن قضى هولاكو زعيم
التر على بغداد ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم ، اعتنق اتباعه
الاسلام واسسوا الاسرة الايليخية في ايران حكمت قرابة قرن من
الزمان ، وقد تأثروا بالثقافة الصينية والايرانية القديمة فتطورت ابنيتهم نحو
الرشاقة ، وهم وان احتفظوا بطابع الفن المعماري السلجوقي المتمثل في مسجد
الجمعة في اصفهان ، إلا أنهم أشبعوها بالأساليب الفنية الصينية ، من ذلك مسجد
فرايين وجامع جوهر شاد بمدينة مشهد والمسجد الجامع بمدينة يزد .

وجامع فرايين بني عام ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م وهو مرحلة جديدة للوصول إلى
التصميم الايراني البعث في تصميم المساجد ، ويقوم مخطيطه المستطيل على

صحن حوله أربعة ايوانات متعامدة ، ويغطي الايوان الرئيسي قبة ، ويحف بالايوانات اروقة محمولة على اكتاف ومغطاة بطريقة الاقباء .

وفي عصر تيمورلنك وما بعده شاع بناء المساجد التي تعلوها قبة ضخمة ويؤدي إليها مدخل عال يلفت النظر بعظمته وفخامته ، مثل مسجد كليان في بخارى بما فيه من ايوان ضخم في الجبهة ومثذنة اسطوانية تبعث الرهبة في النفوس .

وابدع مساجد هذه الفترة الجامع الازرق في تبريز الذي شيد في منتصف القرن التاسع الهجري (ق ١٥) ، وكان في وسطه قاعة كبرى عليها قبة وحولها قاعات اصغر حجماً وعلى كل منها قبة اقل ارتفاعاً . وفي أحد الجوانب ضريح ذو قبة عالية .

وفسيفساء هذا المسجد الخزفية غاية في الابداع والجمال . وتمتاز بلونها الازرق الناصع والازرق الادكن ، والاسمر والاخضر الادكن .

وزخارف العصر المغولي الايراني وصلت إلى حد الابداع بقوالب الآجر وفسيفساء القرميد ، كما في الجامع الازرق المذكور ، واصبحت الزخرفة بالآجر غير المطلي بالدهان المتقنة من خصائص هذا العصر . كذلك استعمال الجص في صنع النقوش في محاريب المساجد (واستعمل الجص في نقوش آدمية وحيوانية بارزة في زخرفة القصور) والاكتار من المقرنصات بما يذكرنا بمقرنصات الطراز الاندلسي والمغربي كما في قصر الحمراء . وانشأ التيموريون عدداً من المدارس ، مع المساجد ، ومنفصلة عنها ، منها مدرسة سمرقند التي شيدها تيمورلنك ٨٠٣ هـ / ١٣٩٩ م .

١٢ - **مساجد العصر الصفوي** : اتخذ الصفويون الذين تأسست دولتهم عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م مدينة تبريز الإيرانية عاصمة لهم ، ثم نقلت العاصمة بعد ذلك إلى مدينة اصفهان . وقد حاول الصفويون بعث الحضارة الإيرانية القديمة ، ومحاكاة الأساليب الفنية الإيرانية في منشآتهم العمرانية ومنها المساجد وما يلحق بها . من أضرحة أو مدارس . وأشهر المساجد الصفوية ، جامع وضريح الشيخ صفي الدين في مدينة اربيل ، وهذا الشيخ هو الولي الذي ينتسب إليه الصفويون لذلك عمدوا إلى جعله من الضخامة والجمال والغنى ما ينافس به بقية المساجد والأضرحة في المناطق الأخرى ، حتى أنهم اضطروا بعد وقت من اقامة بناء خاص ملحق يعرف بقصر البورسلين أو الصيني « شيني خانة » لحفظ مجموعة الخزف الخاصة بالضريح .

ويعتبر مسجد الشاه في اصفهان التحفة المعمارية الثانية للصفويين .
وجميع المساجد والأضرحة الصفوية محلاة بالفسيفساء الخزفية ذات الألوان الجميلة ورسوم الزهور والفروع النباتية البديعة ومنقوشة بالزخارف الجصية الملونة مما اكسبها طابعها الخاص ، تجلي فيه ذوق الإيرانيين الفني ، ومهارتهم في منح ألوانهم الهادئة سحراً وجاذبية ...
وانتشر الطراز الصفوي ، خارج إيران ، فيما انشأ الصفويون أو ما انشأ من مساجد شيعية في المناطق التي وصل إليها نفوذهم ، وخاصة في العراق كمساجد وأضرحة النجف وكربلاء وسامراء ومثلها البارز في بناء « مشهد الكاظمين » في بغداد .

١٣ - **مساجد العصر الهندي المغولي** : بعد أن نشر الغزنويون الطراز المعماري السلجوقي فيما فتحوه من الهند ، مرّ على المناطق الإسلامية عهد من الجلود ، إلى أن أقام الامبراطور باير حفيد تيمورلنك في دلهي امبراطورية

اسلامية مغولية ٩٣٣ - ١٢٧٥ هـ / ١٥٢٦ - ١٨٥٧ م وشيدت في هذا العهد كثير من المساجد ، جمعت بين الأساليب الهندية القديمة وطبيعة العبادة في المساجد الاسلامية ، واقتبست بعض الطرز الايرانية المعمارية ، فجاءت نسجاً جديداً نسجه بحق طراز البناء الهندي الاسلامي .

ومن أشهر مساجد الهند في هذا العصر الجامع الكبير في بيجابور الذي شيد في منتصف القرن العاشر الهجري / ١٦ م ، ومسجد الجمعة في دلهي الذي شيده شاه جهان ...

ومساجد الهند تمتاز بمداخل كبيرة تبدو كأنها أبنية قائمة بذاتها ومنارات عالية وقباب بصلية .

وتلحق الأضرحة بالمساجد ، ولعل ضريح « تاج محل » أشهر ضريح ، لا في الاسلام ، بل في جميع العصور ، وهو الذي أقامه الامبراطور شاه جهان لزوجته ممتاز محل بين عامي ١٠٣٩ - ١٠٥٨ هـ / ١٦٣٠ - ١٦٤٨ م في مدينة أجرا العاصمة آنذاك على ضفة نهر جونا . وهو عبارة عن مبنى مغطى بقبة بصلية عالية حولها أربع قباب أصغر منها ويحيط بالمبنى أربع منارات رشيقة كالحراس الامناء ، وتتقدمه حديقة كبيرة ، والمبنى مغشى بالمرمر الناصع البياض وسط الحدائق والمباني المجاورة المشيدة من الحجر الرملي الأحمر ، ونسب هذا البناء تتكامل مع فتحاته ، وبما تحدثه من ظلال وأضواء تكاملاً عجباً ، تجعله درة في جبين الحضارة الاسلامية في الهند .

١٤ - مساجد العثمانيين: قبل انتقال العثمانيين إلى استانبول واتخاذها

عاصمة ، اعتمدوا الطراز السلجوقي ، لا في المساجد فحسب بل في جميع عمارتهم ، وبعد فتح القسطنطينية ، تأثروا بالبناء البيزنطي المتمثل في آياصوفيا التي حولوها إلى مسجد .

وأول مسجد تأثرت هندسته بها ، مسجد المحمدية أو مسجد محمد الفاتح
(٨٦٧ - ٨٧٣ هـ / ١٤٦٣ - ١٤٦٩ م) الذي نقل عن آياصوفيا نظام القبة
وانصاف القبة .

ويعد العصر الذهبي لبناء المساجد العثمانية ، ما بني من تصميم واشراف
المهندس التركي المسلم سنان الذي صمم خريطة ١٣٥ حماماً تركيا وأشرف
على بنائها وأكثر من هذا العدد لحوائط المساجد . وأبدع منشآته جامع السليمانية
في استانبول الذي دفن بجواره ويتكون من صحن سماوي تحيط به بوائك
تغطيها قباب صغيرة . وتغطي الحرم قبة كبيرة تحيط بها أربعة انصاف
قباب . وتقوم في جوانب المسجد مآذن طويلة ذات قمم مخروطية .

وقد نسج المهندسون العثمانيون على منوال سنان بعد وفاته لذلك عدّ
إمام المدرسة العثمانية المعمارية في المساجد سواء في آسيا الصغرى أم في مصر
والشام في العهد العثماني .

وأشهر المساجد العثمانية :

مسجد السليمية في أدونة : بناه سنان ، وأظهر أقصى عبقريته في إقامة
القبة الضخمة على ثمانية اكتاف كبيرة ، وفي الاكثار من النوافذ والفتحات
تخفف من ضغط البناء .

جامع السلطان أحمد في استانبول (١٠١٨ - ١٠٢٥ هـ / ١٦٠٩ - ١٦١٦ م) :
بناه محمد آغا ثاني مهندس العصر العثماني بعد سنان ويقع جنوبي آياصوفيا .
وجعلت قبه أعظم من قبة آيا صوفيا .

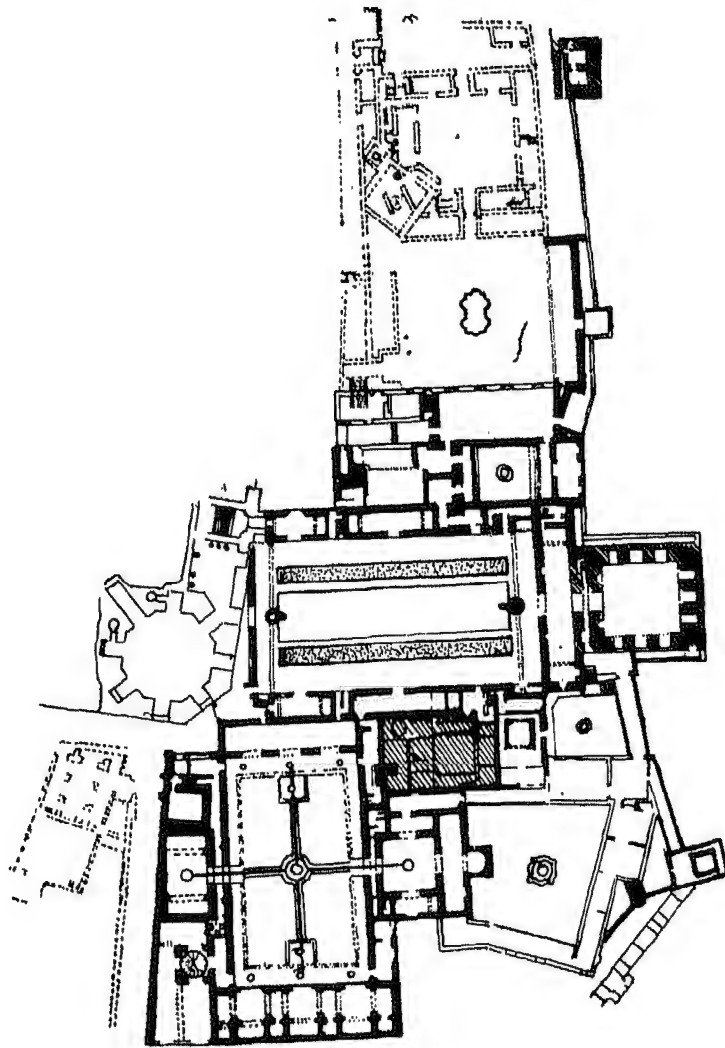
جامع سنان باشا المعروف بالسنانية في دمشق : ويتميز بمئذنته المكسوة

بالزخرف الزنجاري ، وبجرمه الجميل الغني بالواح الرخام المجزع والألواح القاشانية .

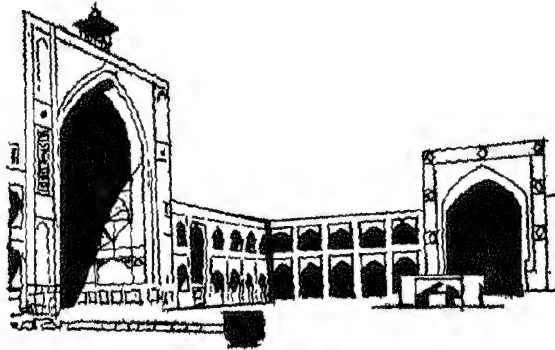
جامع درويش باشا (الدرويشية) : وهو أغنى مساجد العثمانيين في سورية بالواحة القاشانية التي تعتبر أجمل وأروع وأرشق ما صنعه الفنانون الشاميون .
جامع العادلية وجامع الحسروية في حلب : وفيها كثير من ألواح القاشاني الجميلة .

مساجد : سليمان باشا بالقلعة ، مسجد الملكة صفية ، مسجد محمد أبو الذهب ، ومسجد محمد علي بالقلعة وكلها في القاهرة .
ويمكن أن نلحق بالحديث عن المساجد العثمانية ، مجموعة العمارات التي ظهرت ، وتشبه من حيث تنوعها ، وتنوع الافادة عنها : **الزوايا** المقامة في شمال أفريقيا ، وتضم مسجداً ، وحجرات للدراويش وغرف للطلاب ، ومطاعم للحجاج والطلاب والمحتاجين ، وقاعات للدراسة ، تلتحق بها مساحات من الحدائق والبساتين ، وتسقى بعدد من البحرات والنافورات ... الخ .
وخير مثال على ذلك التكية السليمانية في دمشق ، وفيها جامع قبة ومثدنتاه من الطراز العثماني الاستانبولي ، وبابه ومحرابه واروقته من الاسلوب العربي ... وتلتحق بها غرف مسقوفة بقباب صغيرة تتناسب وحجمها ...

المآذن : ذكرنا ان المآذن اتخذت لأول مرة في دمشق عقب دخول المسلمين اليها ، حين اذن المسلمون للصلاة على ابراج المعبد الوثني القديم ، ثم صنعوا مثلها في بناء مساجدهم . واطلق على المئذنة اسم « منارة » تشبيهاً لها ببناء المنائر على سواحل البحر ، وسميت بالمغرب الصومعة وتنطق « الصمعة » جمعها « صمع » وكانت المآذن الاموية مربعة ، كمآذن المسجد الاموي بدمشق ، واستمر هذا الطراز المعماري خلال العصر الاموي في شرق او

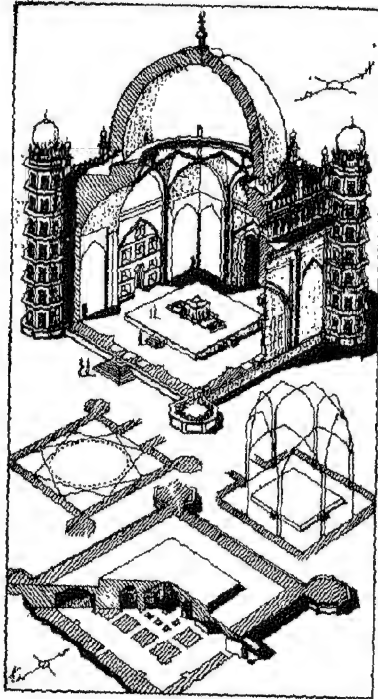


شكل - ٧٥ -
مخطط جامع غرناطة والابنية الملحقة به



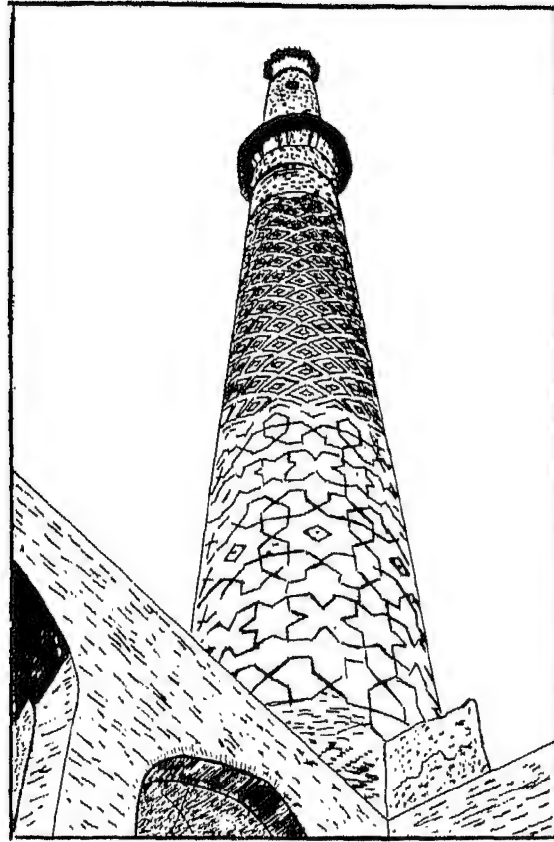
شكل - ٧٦ -

فناء المسجد الجامع في اصفهان بني عام ١٠٨٨ م ويلاحظ انه يرتفع فيه الايوان من كل جهة من جهات الفناء



شكل - ٧٧ -

مدفن السلطان محمد عادل شاه في بيجامور (١٦٢٦ - ١٦٦٠ م)



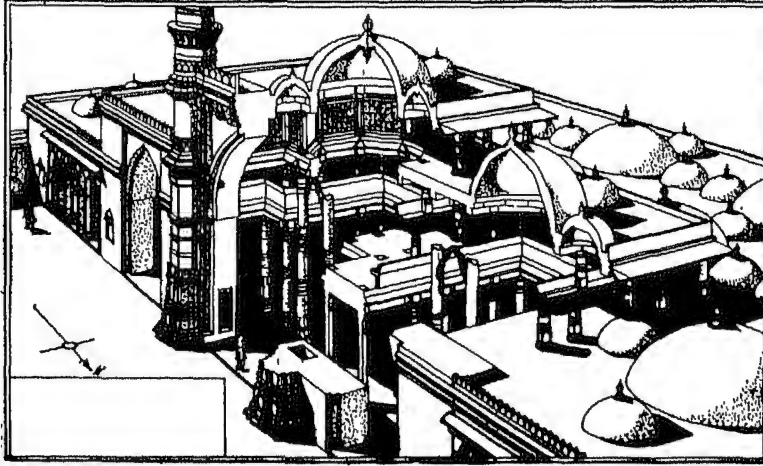
شكل - ٧٨ -

منارة جامع الامام علي في اصفهان (القرن ١١ و ١٢) ارتفاعها

١٥٦-١٦٠ قدما كل زخارفها من الاجر . المئذنة من

من العصر الصفوي ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م

غرب « كمئذنة جامع القيروان » ثم تطور هذا النظام المعماري ، فظهرت
المآذن المدورة ، / كمئذنة الاربطة على سواحل شمال افريقيا لحراسة الشغور.
واقدم نموذج لها في منارة الرباط الذي بناه هرثة بن أعين والي الرشيد
على منطقة تونس « ١٧٩ هـ » في مدينة « منستير » الحالية ، ومنارة رباط سوسة
الذي بناه زيادة الله بن الاغلب « ٢٠٦ هـ » ومنارة رباط جامع الزيتونة



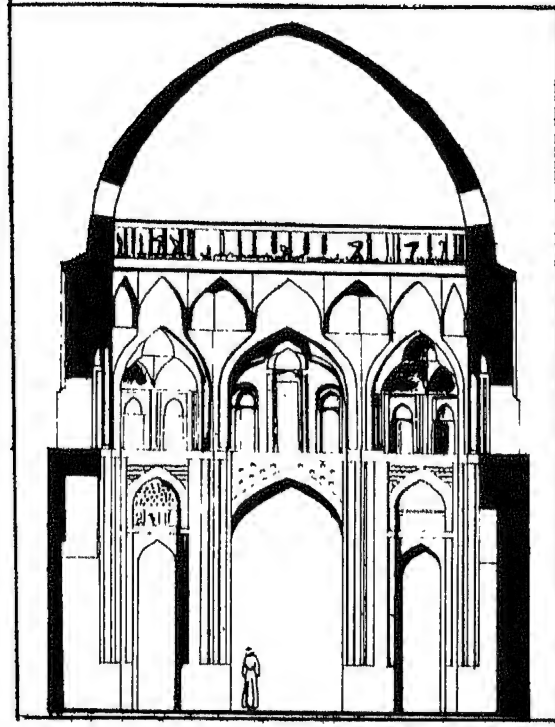
شكل - ٧٩ -

مقطع للجامع المسجد في مقاطعة كوجورات الهندية تم بناؤه عام ١٥٢٣ م



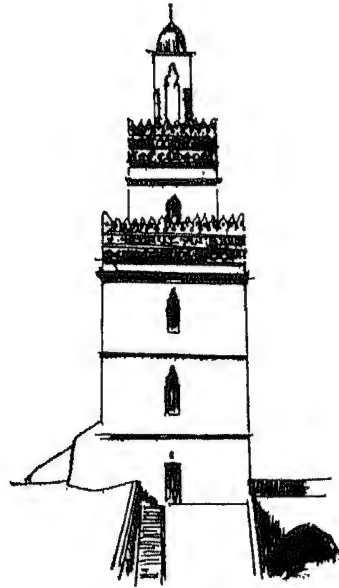
شكل - ٨٠ -

باب الفتوح في القاهرة وقد أدخلت عليه عدة تحصينات
خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي ، ويظهر فيه
اثر الاقتباس من فنون الحروب الصليبية المعمارية



شكل - ٨١ -
قطاع من قاعة القبة الصغرى في المسجد الجامع بأصفهان
ويلاحظ فيها تطور البناء الاسلامي وتأثره بالطراز المغربي
كلما اتجهنا الى الشرق

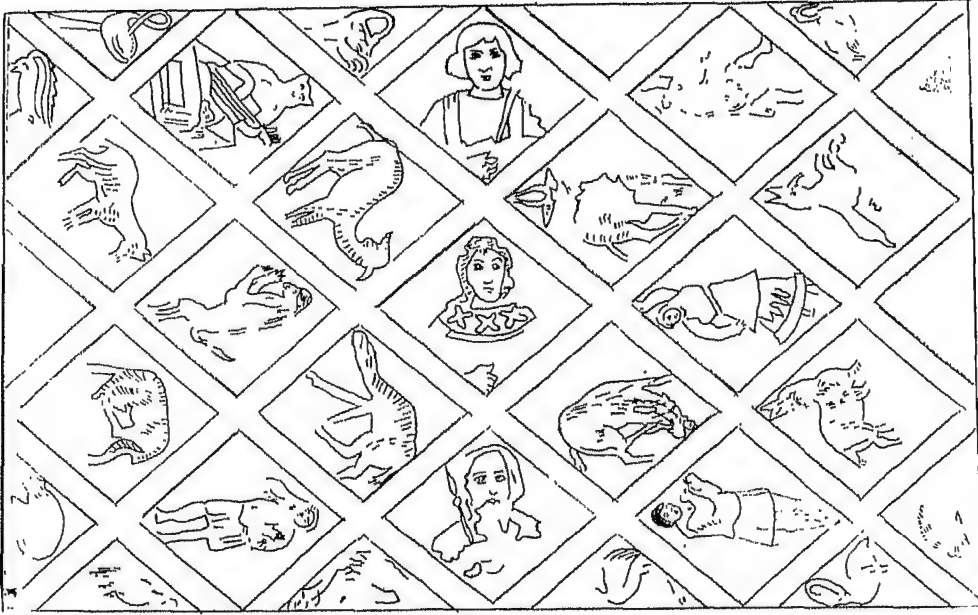
« ٥٢٥٠ » . وتطور هذا الفن المعماري الاندلسي فشيدت المآذن المسدسة ،
والمثمنة ، وزينت بزخارف الآجر الغائر والبارز ، وكسي قسم منها
بالزليج « القاشاني » الذي يلمع تحت اشعة الشمس ، وسيطرت هذه النماذج
على جميع ابنية المآثر في عهد المرابطين والموحدين .. ولكن المآذن المربعة
لم تلغ تماماً في المغرب ، فمئذنة الكتبية بمراكش ، ومئذنة « صومعة »
حسن بالرباط والمنصورة بتلمسان بقيت مربعة ، ثم انتشرت في شمال افريقيا



شكل - ٨٢ -
منارة (مئذنة) الجامع الكبير في صفاقس

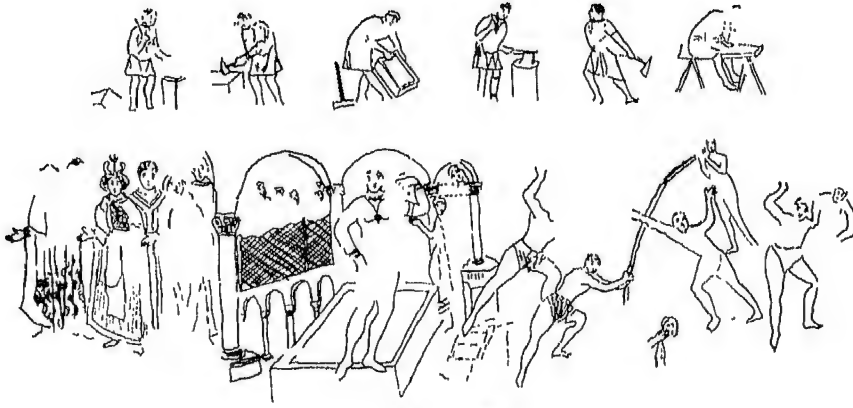
طريقة بناء المآذن الاندلسية مع وفود المهاجرين من الاندلس الى المغرب على اثر الضعف وخروج العرب من هذه المنطقة سنة ١٠١٧ هـ - ١٦١٣ م.

القصور : أخذ العرب بعد الفتح يميلون إلى حياة الترف والنعم ، وتقليد غيرهم باتخاذ القصور المنيفة ، واقتناء الجواري والاثاث الفاخر ، ولقد ظهر في الحجاز في عصر الراشدين قصور شيدت من طبقتين أو ثلاث ، وفي العهد الأموي استعمل الخلفاء والأمراء بعض القصور الرومانية الموجودة في دمشق وغيرها ، كما بنوا قصوراً كثيرة ، اندثرت جميعها ، وذلك لأن بناءها كان غالباً من الطين أو التراب المشوي ، لم يستطع أن يقاوم عوامل الطبيعة ، وبيثة دمشق الرطبة ، وكل ما نعرفه عن هذه القصور من الكتب التي تذكرها ، فقد ذكروا أن معاوية اتخذ قصر الخضراء ومن اسمه نستدل على لون زخرفته ونقوشه ، ولما كان الامويون حداثي



شكل - ٨٣ -

رسوم تخطيطية لنقوش في قصر عمرة ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري وبداية القرن الثامن الميلادي موجودة على جدار القاعة الجانبية الاولى ، قوامها اشربة تتقاطع فتؤلف سبعة عشر معينا وأربعة عشر مثلثا . والمثلثات فيها رسوم حيوانات أو رسوم طيور ذات رقبة طويلة . أما المعينات فان أعظمها شأنا ثلاثة : الواحد منها فوق الآخر وفيها سماوة (رسم نصفي) غلام وشاب ورجل ولعلها ترمز الى مراحل العمر المختلفة : الفتوة والرجولة والكهولة . وفي سائر المعينات رسوم حمار وحش وغزال وقرود يعزف على آلة موسيقية وقرود آخر وقف على قدميه الخلفيتين ، وأخذ يصفق بقدميه الاماميتين ، وشاب بجلباب قصير وآخر ينفخ في مزمار ، وراقصة ذات جلباب طويل وذراعين عاريتين ،



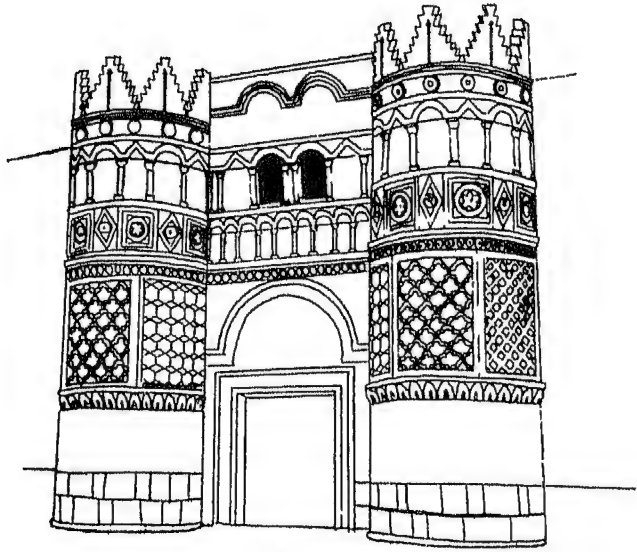
شكل - ٨٤ -

رسوم تخطيطية لنقوش في قصر عمرة ترجع الى نهاية القرن
الاول الهجري وبداية القرن الثامن الميلادي

١ - الرسم العلوي يمثل نقوشا لعمال البناء هي من اليمين الى اليسار :
نجار يعمل بالمسحج (الفارة) - عامل في يده مطرقة - عامل في يده معول -
عامل في يده صندوق رمل او بلاط (مونة) - صانع يحمل قلعا (قدوم) ،
عامل يحمل مخلا .

٢ - الرسم السفلي يمثل نقشا في الحائط الغربي من القاعة الرئيسية .
الى اليسار الصورة التي تعرف باسم اعداء الاسلام وقوامها ستة اشخاص
ذوي ملابس فاخرة مرسومين في صفين : ثلاثة في الصف الاول ، وثلاثة في
الصف الثاني ، وفوق اربعة منهم كتابة بالعربية والافريقية لا تزال باقية ،
فالاول من اليسار في الصف الامامي فوقه كلمة قيصر بالعربية واليونانية
لا تزال باقية ، فهو امبراطور بيزنطة ، والثاني في الصف الخلفي فوقه كلمة
يظن انها لودزيق آخر ملوك القوط في اسبانيا ، والثالث في الصف الامامي
فوقه كلمة كسرى فهو ملك الفرس ، والرابع في الصف الخلفي فوقه كلمة
النجاشي فهو ملك الحبشة . والملاحظ ان تصميم هذه الصورة ساساني .

والى يمين هذا المشهد رسم نساء عاريات في حمام ثم رسم رجال شبه
عارين يقومون ببعض العاب رياضية .



شكل - ٨٥ -

واجهة قصر الحير الغربي المعاد انشاؤه في متحف دمشق

عهد بالصحراء ، فقد كانوا يحنون اليها فاستخدموا كثيراً من القصور القديمة التي كان الرومان قد بنوها لتكون قلاعاً يتخذونها لصد غارات البدو قبل الاسلام ، وما لبث الامويون أن أمروا بإنشاء قصور وحمامات في البادية سواء في بادية الشام ، أو في اقليم شرق الاردن . وكانوا يخرجون اليها لتمضية بعض أيام راحة وهدوء في كل عام ، بعيدين عن العاصمة ومشاغليها وضوضائها ، وأسوارها التي تجعلهم كأنهم في حصار ، وتمنع عنهم أفق الطبيعة اللانهائي الذي اعتادوا عليه ، ومن أشهر هذه القصور القصر الذي عثر عليه قريباً من تدمر ونقل إلى متحف دمشق ويدعى قصر الحير وقد تم ترميم جانب كبير منه ، ويلاحظ عليه أنواع متنوعة من الزخرفة ، إذ لا نجد من بين الاربعين من نوافذه التي رمت منه إلا نافذتين متشابهتين في زخارفها ، كما نجد أعمدته بأشكال متعددة ، فبعضها مستقيم اسطواني ، وبعضها ذو أضلاع معوجة ، وبعضها يشبه جذوع النخل ، وأخرى

تنتهي بتيجان على شكل سعف النخل . وهناك في شرق الاردن بقايا
قصر عمرة وهو عبارة عن حمام وقصر صغير للصيد يقع على بعد خمسين
ميلا شرقي عمان ، اكتشف آثاره سنة ١٨٩٨ م ويرجع عهده إلى الوليد
ابن عبد الملك ويتألف من قاعة استقبال مستطيلة لها ثلاثة أروقة مسقوفة
بسقف اسطواني الشكل ، وعلى جانبي منحنى صغير يتصل بالرواق الأوسط
تقوم غرفتان صغيرتان وبجانبها حمام مؤلف من ثلاث غرف صغيرة . وقد
دب التل في نقوش الجدران والسقف ، وتدل بقاياها على أنها كانت
تمثل رسوم صيد واستحمام ورسوم راقصات ورسوما رمزية لآلهة الشعر
والفلسفة والنصر والتاريخ عند اليونان وأخرى تمثل مراحل الحياة من شباب
وكهولة ، وقبة السماء وأبراج النجوم ، وهناك رسم يجلب الانتباه بيبين
الخليفة الوليد بن عبد الملك على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة ويحف
به شخصان ، وعلى عقد المظلة كتابة بالخط الكوفي ، ورسم آخر يمثل
آخر الملوك الذين حاربهم المسلمون وانتصروا عليهم ، كقيصر ولوذيق
آخر ملوك القوط ، وكسرى الفرس والنجاشي وغيرهم . ويظهر على هذه الصورة
آثار الفن الساساني الفارسي بينما يظهر على طراز الصور الأخرى آثار الفن
الهيليني ، مما دعا المؤرخين إلى الاعتقاد بأن الفنيين الذين رسموا الصور هم
من السوريين والآراميين ، وأنهم يعرفون العربية واليونانية ...

وكذلك يعد القصر الذي كشفت آثاره في قرية المفجر شمالي أريحا
والذي يعود تشييده إلى هشام بن عبد الملك نموذجاً لبناء القصور الأموية
وفيه لوحة تعتبر أبداع زخارف الفسيفساء الأموية . يحتوي قصر المفجر على
ثلاثة أبنية ضخمة منها قصر للسكن ومسجد للصلاة وحمام للاستحمام .

ومدخل القصر يقوم على برج مستطيل هائل ، على جانبه مقاعد مزودة

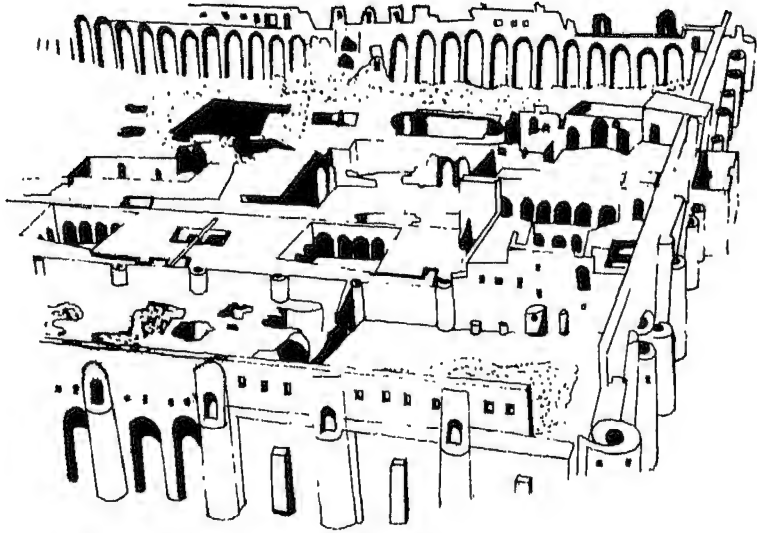
بالمسكآت الحجرية وداخله مزخرف بالحاريب الصغيرة المنقوشة بالأشكال النباتية ،
يعلو المدخل عقد مصلب الشكل ويكون من عدة أقواس صغيرة داخل
قوس كبير كالعقود العربية في الأندلس . . . أما داخل القصر ، فيتبع
بتصميمه ورسمه سائر قصور الأمويين ، فهو عبارة عن صحن مربع مكشوف
تقوم على جوانبه أربعة أبنية على طابقين مستقلة الواحدة منها عن الأخرى ،
ويقصلها عن الصحن الداخلي رواق مظلل بالعقود والأقواس المرتكزة على
الأعمدة . . . وغرف الطابق الأعلى كانت مرصوفة بالفسيفساء .

والمسجد مزود بمحراب في طرفه القبلي ، وعلى جانبه غرف مستطيلة
للوضوء ولخدم المسجد والمشرفين على نظافته .

والحمام عبارة عن غرفة مستطيلة ، مرصوفة بالفسيفساء المتعددة الألوان .
والشيء الذي ينفرد به قصر المفجر عن قصور الأمويين التقليدية
وجود مسجد كبير خارج القصر ، وحمام كبير أيضاً .
وهذا الحمام الخارجي يشبه الحمامات الرومية من حيث غرف للاستحمام بالماء
الدافئ ، وأخرى للاستحمام بالهواء الحار ، وأخرى لمسح الجسم وفركه
بالزيت . . كلها مجهزة بما يلزمها من أتون لتدفئة الماء والهواء ، وأقنية للماء
الدافئ ، وأخرى للهواء الحار ، ومقاعد ومغاطس للاستحمام وهلم جرا .

ومن زخارف القصر ما وجد في غرفة صغيرة في زاوية من زوايا
الديوان الكبير للقصر . رصف قسم من الغرفة بالفسيفساء برسم شجرة رمان
تقف على جانب منها ظيبتان ترعيان العشب الأخضر ، وعلى الجانب الآخر
ظبية ثلاثة يفترسها أسد كاسر ، وجدران هذه الغرفة ونوافذها مزدانة بالجبس
المنقوش بأشكال نباتية وهندسية أخرى تمثل طيوراً وحيوانات حقيقية أو
خرافية وراقصات نصف عاريات^(١) .

(١) من مقال ديمتري براكمي الذي شارك بأعمال التنقيب عن القصر



شكل - ٨٦ -

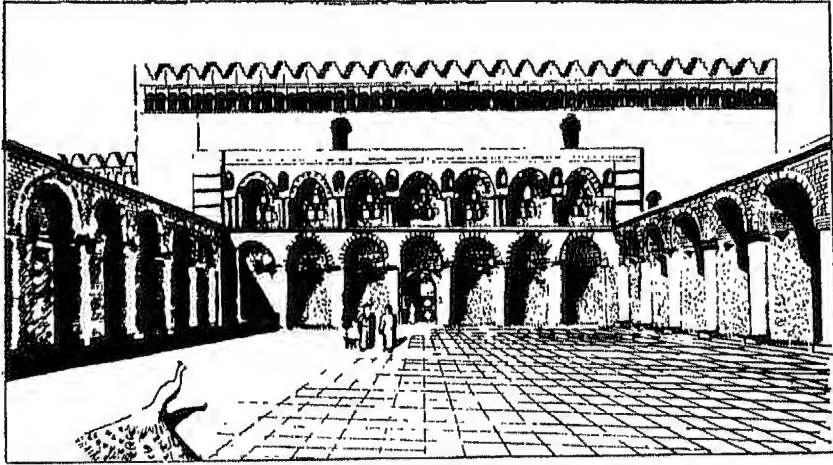
بقايا قصر الاخضر كما هي عليه اليوم

وقد تسابق خلفاء بني العباس في إشادة القصور من المومر في بغداد حتى دعت بمدينة القصور، وكانت قصورهم تتألق بالجواهر البراقة، وتزدان بشتى أنواع الرياش الفاخر المجلوب من أطراف الدنيا. ومن أشهرها قصر الأخضر الذي تقع بقاياه على بعد ١٢٠ كم إلى الجنوب الغربي من بغداد ويشكل بمخططة حلقة الاتصال بين طراز قصر المشتى من منشآت الأمويين وبين سامراء. وشكل البناء رباعي يشبه قصر المشتى ويضم مجموعة من البيوت وأبنية جانبية وأفناء واسعة، وفيه جامع أثبتت التحريات أنه من أصل البناء؛ وهذا القصر في الواقع كان حصناً أمامياً في منطقة مقفرة بعيدة عن العمران، مشيد بالحجر والجص والآجر ويحيط به سور محصن على غرار القلاع الحربية.

ومنها أيضاً قصور سامراء التي هدمت وبدد آثارها المنقبون خلال عدة قرون يبحثون عن الآجر لاعادة استعماله، وأهمها الجوسقى الحاقاني بنه عام ٨٣٦ م المعتم بن هارون الرشيد ويشرف على نهر دجلة وله جناح

مرتفع ، سمي بقصر الخلفاء أو طيسفون العرب تشبهاً له بإيوان كسرى في طيسفون .

كما شيد الفاطميون في مصر قصوراً أنيقة وفخمة ، ومن أشهرها **القصر الغربي** الذي بناه الخليفة العزيز وفيه قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك ، وكانت مزينة بالسور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب . ومن قصور الفاطميين : **قصر العرافة** ، **وقصر البحر** الذي وصفه ابن خلكان بأن لا يوجد له شبيه في الشرق ولا في الغرب **وقصر اللؤلؤ**



شكل - ٨٧ -
شكل مرمر لباحة قصر الاخضر

وغيرها . وقد بزت قصور الأندلس القصور الشرقية بعظمتها وحسن هندستها ، فكان قصر الزهراء عبارة عن عشر قصور تشبه كما ذكرنا فرساي بجوار باريس ، أو قصر يلدز في عهد السلطان عبد الحميد . وقصر الحمراء الذي يشتهر بقاعاته العظيمة كقاعة الاسود وقاعة السفراء وقاعة بني سراج ، وقاعة العدل .

ويمثل « قصر البديع » في مدينة مراکش ، نموذجاً للفن المراكشي ، وقد

استغرق بناؤه ١٥ عاماً ، وقد تحول اليوم الى انقاض ، وكان مؤلفاً من صحن مستطيل الشكل واسع جداً يشغل مركزه بركة ماء ، يشبه الى حد بعيد قاعة الاسود في الاندلس .

ولعل الفن المدجن ، اي فن المسلمين الاسبان الذين بقوا في اسبانيا بعد خروج العرب منها يمثل هذا في « القصر » في اشبيلة الذي بناه بطرس القاسي على نفس موقع القصر القديم الذي كان المسلمون قد اسادوه وقد اقيم « ١٣٥٠ - ١٣٦٩ » وجدد بناؤه في القرون ١٦ و ١٧ و ١٩ ويمتاز بمقرنصاته الجميلة ونقوشه الجصية البديعة واعمدته الرخامية ، مما يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الاسلامي من قبل ملوك اسبانيا المسيحيين . واذا انتقلنا الى المشرق وجدنا تطوراً في بناء القصور ، فظهرت في العهد الساجوقي اساليب فنية تسربت اليها من تركستان ، وخاصة موضوعات الكائنات الحية والتماثيل الآدمية من الجص او الحجر تمثل جنوداً او حراساً او امراء تزين القصور . ومن ذلك قصر « قره سراي » الذي اقامه الاتابك لؤلؤ في الموصل ولا تزال بعض اجزاء القاعة الكبرى فيه قائمة وفيها تزيينات من صفوف من التماثيل النصفية في جنبات الجدران .. وقصر السلطان في قونية يحتوي على تماثيل سباع مثقنة ، وسور قونية غني بالرسوم الحيوانية البارزة . .

أما قصور الصفويين في ايران فكانت صغيرة الحجم نسبياً قوام معظمها قاعة كبيرة عظيمة الارتفاع تحف بها قاعات صغيرة للسكن في طابقين اشهرها قصر شهل ستون وقصر هشت بهشت وقصر آينه خانه ، وزينت جدران جميعها باللوحات المصورة . . وبالمرايا والمنسوجات النفيسة ، واستعملت فيها اللوحات الزيتية الكبيرة التي تكثر في مواضعها رسوم الزهور

والفاكهة والفسيفساء والمناظر الطبيعية الجميلة ، وفيها يظهر الفن الايراني الدقيق والجميل . . . وتطنب الكتب في وصف ما حوت هذه القصور من اثاث فاخر ، وادوات تزيينية دقيقة الصنع غالية الثمن .

ومن القصور العثمانية الباقية في الشام : قصر العظم بدمشق وقصر العظم بحماة ويعتبران نموذجاً للقصور العثمانية عامة ويتألف كل منهما من جناحين رئيسيين : جناح الاسرة صاحبة القصر « الحرملك » ، وجناح الضيوف والاستقبالات « السملك » ، يلحق بهما جناح ثالث اصغر مخصص للخدم والمطبخ، ويمكن أن نلحق بالقصور الخانات التي اقامها العرب والمسلمون على طول الطرق ، تقف عندها القوافل ، وكثيراً ما كانت تزود بدواب الصدقة حيث تعطى لكل من نفقت راحلته أثناء السفر راحلة غيرها من أموال الزكاة ، كما كانت مكاناً لتبادل التجارة .

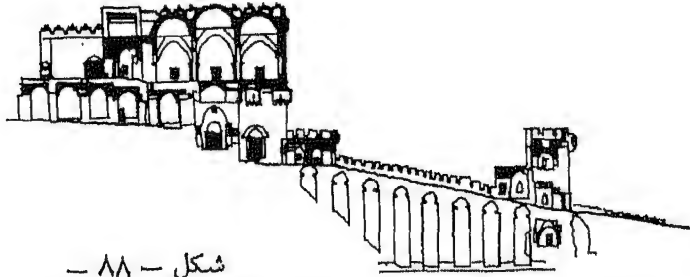
❖ ❖ ❖ ٣ - الأبنية الحربية ❖ ❖ ❖

بالرغم من أن العرب إنما فتحوا إمبراطوريتهم الكبرى فتحاً ، فإنهم لم يكتفوا من الأبنية الحربية فيها إلا حين تهددت أخطار العالم الاسلامي ، أي منذ القرنين التاسع والعاشر أيام الحروب المتعاقبة مع البيزنطيين . ثم كانت الحملات الصليبية وما اقتضتها من حروب . ثم موجة المغول «جنكيز» والتتر «تيمور» ، فصارت تقام في سوريا خاصة وفي مصر أبنية حربية كثيرة حتى نهاية القرن الخامس عشر التي اقتبس الصليبيون الكثير من أساليبها : كبناء المشربيات وهي البروز المغطى في جدران القلعة لرمي المهاجمين بالمؤذيات . وكجعل مدخل القلعة إلى الداخل على شكل ممر ذي زوايا قائمة أو ملتوية لمقاومة العدو .

ولا شك أن أكثر الأمراء عناية ببناء القلاع هم سلاطين المماليك « القرن ١٣ - ١٦ » . أما أهم وأجمل قلاع سوريا فاثنتان :

١ - قلعة حلب : وتقوم على هضبة صخرية وجدت فيها آثار بيزنطية ومعظم أبنيتها الحالية تعود الى زمن الملك الظاهر غازي الذي جدد حصونها وبنى منحدراتها من أسفل الحندق إلى الاسوار ليتعذر التسلق إليها . وقد رمت أسوارها مراراً خلال القرون « ١٤ - ١٥ - ١٦ » . أما مدخلها القائم إلى اليوم فيعد من أجمل التحصينات العسكرية الباقية من القرون

الوسطى ، ويتألف من برج ضخم فيه الباب الخارجي الذي ينفذ منه إلى درج معلق فوق الحندق على عدد من الركائز والاقواس حتى يصل الى باب القلعة الرئيسي ، وهو ذو واجهة جميلة البناء والتزيين وتقوم من فوقه قاعة العرش . وفي داخل القلعة مسجدان يرجع الكبير منها الى سنة ١٢١٣م



شكل - ٨٨ -

مقطع مدخل قلعة حلب وبناء القلعة كما كان ، كما رسمها سوفاجيه وقد ميز اليها بالخطوط (هاشور) الاضافات المملوكية بالاشارة عن البناء الايوبي الاصيل ، كما يلاحظ أهمية التحصينات التي ادخلت على القلعة في أيام الحروب الصليبية لتقويتها وزيادة مناعتها .

٢ - قلعة الحصن : (حصن الاكراد krak des Chevaliers) وتشرف على بحر حمص - طرابلس ، قرب تل كلخ . وأصل بنائها غامض ، وقد احتلها الصليبيون سنة ١١١٠ ثم صارت بيد « الاسبتارية » وهم فرقة دينية عسكرية من الصليبيين وبقيت لهم حتى سنة ١٢٧١م إذ استسلموا للظاهر بيبرس . وتعد قلعة الحصن من أكمل الأبنية الحربية الباقية في سوريا : بأسوارها وأبراجها ومخازنها العميقة وخنادقها .

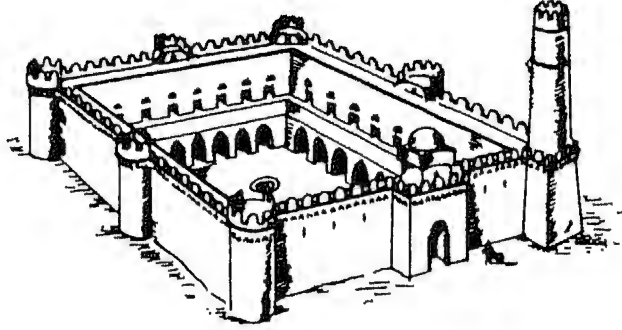
وفي انحاء العالم الاسلامي بنيت كثير من القلاع ، كقلعة الموت في ايران ، وقلعة الجبل التي بناها صلاح الدين في القاهرة . وعرفت بلاد المغرب والاندلس الكثير من العمارات العسكرية فاقد الم القلاع المعروفة في الاندلس قلعة مريدا التي بناها عبد الرحمن الثاني عام ٨٣٥ م ، وقد اقتبس مهندسوها عناصر القلعة البيزنطية فكان لها : جسر يتقدمها على نهر غواديانا

وسور مربع مبني من الحجر المنحوت ، وابراج مستطيلة ، وابراج مربعة في زوايا السور وباب وحيد غير بارز ..

الا ان نشاط البناء العسكري بدا واضحاً في القرن الحادي عشر الميلادي ، في عهد المرابطين ، وتعد مدينة مراكش التي انشئت في هذه الفترة ، مدينة محصنة ، واقدام قلعة بناها المرابطون **قلعة سور الحجر** « ١٠٦٢ م » اكتشفت حديثاً ، وكانت على الارض التي اقيم عليها فيما بعد مسجد الكتبية : **يلها قلعة بني حماد واشير وبجاية وتاسغيمرت الواقعة** في جنوب شرقي مدينة مراكش ، و**ثم قلعة الغديرة الواقعة قريباً** من اشيلية .

وشهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر في المغرب استمرار النشاط المعماري للقلاع والحصون . فبنيت حصون فاس « ١٢٧٦ م » كما بنيت مدينة المعسكر التي انشاها المغاربة خلال حصار العاصمة تلمسان ١٣٣٢ م ، وحصن شيله ، وحصن جبل طارق وقصبتها مع البرج المستطيل في القلعة الحرة . .. اما في مدينتي تونس وموناستير فبقيت لنا من عمارات هذين القرنين بعض الاسوار الدفاعية .

٣ - الرباط : كما نلاحظ في « الرباطات » وهي نوع من العمارات العسكرية والدينية معاً ، لذلك شبهها بعض الغربيين بالأديرة المحصنة ، وأكثر ما نشأت في شمالي افريقيا لصد محاولات الغزو البحري الاوربي ، واعداد حملات المجاهدين ، ويجتمع في الرباط اتباع طريقة دينية ، يعبدون الله ، ويستعدون للجهاد ، وأكثر الرباطات كان في تونس ، ومنها رباط مدينة سوسة الذي تم انشاؤه عام ٨٢١ م من قبل الاغالبة . ومخططه بسيط جداً ، يحيطه سور مربع الشكل مدعم من زواياه ، حسب المحاور ، بابرّاج ، يرتفع أحدها أكثر من غيره ، لمراقبة العدو ، وباب الرباط

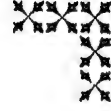


شكل - ٨٩ -

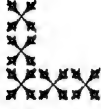
رباط سوسة يعود بناء هذا الرباط الى عهد الاغالبة
وتم تشييده عام ٢٠٦ هـ

الوحيد في وسط أحد الأضلاع . وفي داخل الفناء يوجد مصلى وحجرات
للسكن والعمل . ويعتقد أن مخطط هذا الرباط مقتبس من القصور السورية
التي أنشئت في العصر الأموي .

ويشتغل المرباطون بحراسة الثغور ، فيكلفون منهم حرساً دائماً في
المنارة ترأب قدوم اسطول العدو ، وحرساً مستعداً للعمل على اسطحة
الرباط . اما بقية سكان الرباط فيلتفتون الى الاعمال اليومية ، فيؤمنون
الطعام والشراب والسلاح للمقاتلة ، وكل الاعمال فيه مجانية : الطيب ،
المعلم ، النساخ ، الكفاؤون « صانعة الورق » المشرفون على الحمام الزاجل
لتأمين البريد الجوي ، موقدو النار للتخاطب ليلاً بين الرباطات باشارات
واصطلاحات فيما بينهم .. الخ كلهم يعملون ويعيشون في الرباط ويقدمون
خدماتهم مجاناً وتنفق الدولة عليهم كمجموع ، ويتبرع المحسنون لهم
بالاراضي والاقطاعات ويحبسون لهم الاحباس والاقواف .

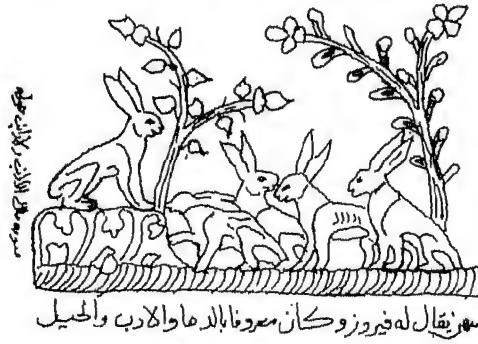


الفنون الجميلة



النقش والتصوير وصنع التماثيل : حارب الاسلام عبادة الأوثان ، وحطم الرسول عليه السلام أصنام الكعبة يوم فتح مكة ، وتشدد الدين بنحو أماكن العبادة من صورة كل ذي روح ، وروي عن الرسول أحاديث كثيرة ، تحرم التصوير ، أو تجعله مكروهاً ، مما جعل المصور مغضوباً عليه من رجال الدين ، وعرضة لسخطهم وسخط المجتمع الذي يقوم على أساس الدين ، ولذلك لم يبلغ المصور في صدر الاسلام المرتبة الرفيعة التي بلغها غيره من المفكرين والأدباء ، فلم يعن المؤرخون بتدوين أخبارهم عنايتهم بغيرهم من الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين ، واذن فليس غريباً ألا يصلنا سوى اسم كتاب واحد عن المصورين ، على كثرة ما وصلنا من كتب الطبقات . وهو « ضوء النبواس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس » ذكره المقرئ في خطه ... ويظهر أن المصورين أنفسهم تأثروا بموقف المجتمع منهم ، فلم يبذلوا كثيراً من الجهد في تمييز أساليبهم أو في طبع إنتاجهم بطابع ذاتي ، ولم يضعوا أسماءهم على الصور التي رسموها ، ولذلك أصبحت دراسة التصوير العربي الاسلامي قاصرة على الرسوم لا على المصورين ... وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأمور أن التصوير لم يستعمل لخدمة الدين فلم يدخل المساجد ، ولم يسهم في تجميل المصاحف ، ولم يستعمل في توضيح كتب الفقه أو الحديث أو المؤلفات الدينية ، وما وصلنا من صور تمثل الموضوعات الدينية كصور الأنبياء ،

وطلبن
لهن وطلن انما تلحق الخارج عند مخرج البسلا
وقبله وعند ما يقرب منه ونحس سعتون من مجموعها يقال اربس



شكل - ٩٠ -

صفحة من صفحات احدى مخطوطات كتاب كيلة ودمنة من عهد الممالك
رسمت واستنسخت عام ١٢٢٢م في شمالي العراق . وهكذا يلاحظ ان
المخطوطات العربية كانت تزdan بالصور والرسوم ، لا في
الابحاث العلمية والطبية فحسب ، بل في
الادب والقصص وغيرها ايضا .

وبعض الأحداث الدينية كالمعراج ، انما كانت من رسم فنانين مسلمين
غير عرب ... وهذه النظرة العامة إلى التصوير جعلته فناً مدينياً في طابعه
ينظر اليه كفن من فنون الدنيا لا كعمل من أعمال الآخرة ، اللهم
سوى تلك الزخارف الهندسية والنباتية ومناظر الطبيعة العامة والتفنن
بزخرفة الخط العربي وتويعه وتحويله الى موضوعات زخرفية جميلة ، تسر
العين ببرآها ، ويصعب أحياناً على الانسان العادي قراءتها لكثرة ماأصاب
أحرفها من تحوير اقتضته التعبيرات الفنية .

على أن هذا الموقف الديني المناوئ للتصوير والنحت لم يقض عليه قضاء
تاماً . وقد كشفت الآثار عن تماثيل وصور إسلامية ترجع إلى العصر

الأموي ، أي الى أواخر القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني؛ وأقدم الأمثلة على ذلك التصاوير الطينية التي نجدها في قصير عمرة (شرقي الاردن) وهو ملهى وحمام أموي على جدرانه صور مائة مرسومة على الجص لست شخصيات ملكية يلبسون ثياباً حسنة ، يصطف ثلاثة منهم في الأمام وقد مدوا أيدهم . ويقف الثلاثة الباقون خلفهم ، منها صورة الخليفة نفسه وأخرى لعدوه لذريق (آخر ملوك في اسبانيا) وتمثل البقية صور قيصر وكسرى والنجاشي وإمبراطور الصين ، كما ذكرنا في بحث القصور . وهناك صورة رمزية تمثل الظفر والفلسفة والتاريخ والشعر كما توجد صورة نساء عاريات في حمام ، وبمجموعة رجال تقوم بتدريبات رياضية . وفي صورة لمشهد صيد نرى أسداً واثباً على حمار وحشي . وفي مشهد آخر صور تمثل الراقصات والموسيقيين وأهل الطرب . ونجد مثل ذلك في قصر الحير الغربي الذي نقلت بقاياه إلى دمشق ، فعلى واجهته الخارجية عدد من التماثيل من يدينها تماثيل للخليفة حفظ لنا معظمه ، وفي داخل القصر تماثيل للخليفة يركب الحصان عدا عدد من الصور تملأ الجدران وتمثل تارة فارساً في الصيد ، وتارة جوقة موسيقية ، ولعل أجملها صورة نصفية لامرأة تحمل سلة وقد التف حول عنقها ثعبان وفوقها مخلوقان خرافيان ، ويحد هذه الصورة شريط تزخرفه أفرع نباتية تؤلف دوائر ويتفرع منها عناقيد وأوراق نباتية ، وفي وسط هذه الصورة ميدالية يحف بها شريط من حبات اللؤلؤ . ويزين عنق المرأة عقد من اللؤلؤ .

ولم تحو المساجد الأموية ، ولا غيرها ، أي رسم للبشر أو الحيوان . ولكن الأمويين رسموا على جدران الجامع الأموي بدمشق وقبة الصخرة بالقدس والمسجد النبوي بالمدينة ، زخارف بالفسيفساء وهي فصوص صغيرة أو مكعبات دقيقة من الزجاج ومن الحجر ومن صفائح من الصدف تلتصق

بنظام على طبقة من الجص . ويراعى حين لصقها أن تكون مسطحة وفي وضع أفقي .

وقد صممت رسوم الفسيفساء بحيث تؤلف وحدة مع البناء وتنسجم مع التصميم المعماري ... وأكثرها زخارف نباتية تقرب هيئتها في بعض الأجزاء من الطبيعة بحيث تصبح أقرب إلى صورة طبيعية منها إلى وحدة زخرفية ، ومن هنا اعتبرت هذه الرسوم من باب التصوير .



شكل - ٩١ -

فسيفساء من قصر هشام بن عبد الملك
في خربة المفجر قرب اريحا بالاردن . بني حوالي سنة ٧٣٠ م

وتتألف رسوم فسيفساء الجامع الأموي من موضوعات مختلفة : بعضها يمثل زخارف نباتية وبعضها يمثل أشجاراً ومياهاً وقصوراً وعمائر ذات طوابق عدة ، ومن طراز معمارية مختلفة وحداثى مزدهرة مشمرة وجبالاً

وتللاً ، وقد صورت مياه النهر باللون الأزرق النقي يتخلله قليل من اللون
الفيروزي واللازوردي والسماوي ... وتتناثر على سطح النهر حبات الزبد
التي تتألق على حافة أمواجه بلونها الفضي . أما الأشجار فيميز منها أشجار
غرطة دمشق كالسرو والخور والمشمش والجوز والتين والتفاح وقد لونت
بالأخضر بدرجات مختلفة ، ترصعه بقع مدورة وبضايوة ذات لون وردي
أو أصفر تمثل الفاكهة والأزهار . وتمثل صور فسيفساء قبة الصخرة فخيلاً
وأشجاراً تتدلى منها فاكهة على شكل عناقيد العنب أو عراجين التمر ،
يشوبها زخارف ، اذ يلاحظ على سوق الشجر أو جذوع النخل زخارف
مؤلفة من فصوص من الجواهر ، أو من حبات اللؤلؤ ، وتشبه بشكل عام
مناظر المسجد الأموي ، مما يدل على أن المدرسة الفنية واحدة
في المسجدين .

ولم تحل عداوة الفقهاء المتزايدة للفن التصويري دون ارتقائه بعد ذلك
على أساليب إسلامية صرفة أو مقتبسة ، وقد أثر عن العهد العباسي أخبار
كثيرة تدل على انتشار الصور وقبول التماثيل لدى الناس ، فقد أقام المنصور
فوق قبة قصره ببغداد تماثيل فارس بيده رمح ، وأنشأ الأمين حراقات
على دجلة في أشكال الأسود والنسور والحيتان ، وجعل المقتدر في قصره
تماثيل فرسان وطيور .

ومن آثار سامراء مناظر لراقصات ومغنيات يعزفن على الآلات
الموسيقية ، ونساء شبه عاريات ، وأخريات يصطدن الوحوش ، أو كنيسة
فيها رهبان ، ويظهر فيها جميعاً أثر الأسلوب الفني الساساني أو البيزنطي .
وقد وصف لنا الشعراء العباسيون بعض القصور وما كان عليها من
رسوم حيوانية أو آدمية . من ذلك :

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها ولا يخشى سواه صُوراً (قطع البقر)

وفوارساً شبت انطى حرب وما دعيت نزال ، ولم يشن مغار
وموسدين على أسرة ملكهم سكرآ ولا خمر ولا خمار

ويصف الشاعر عمر بن مسعود الحلبي حماماً بدمشق فيه صور وبما قاله :

وخط فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطق
ومثل الأشجار في لونها ولينها لو أنها تورق
أخيارها من فوق اغصانها بودها تنطق أو تزغق
وهيئة الملك وسلطانها وجيشه من حوله يزغق
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق



شكل - ٩٢ -

صحن من الخزف ، مزخرف بزخارف متعددة الالوان ، يمثل فارساً على فرسه ، وقد كثر هذا النوع من الزخارف في مختلف بلاد العالم الاسلامي . وهذا الصحن مصنوع في الري بایران في القرن الثالث عشر الميلادي .



شكل - ٩٣ -

نموذج بديع ونادر ، من الرسوم البارزة في العصر الاموي .
وهو سقف قصر خربة المفجر الاموي الباقية آثاره حتى الان في
الاردن ، يلاحظ فيه نقش بارز لرؤوس ست نساء بشكل زهرة .
وقد وجد هذا الاثر الفني بحالة جيدة في غرفة الاستقبال
الصغيرة بجوار الحمام وكانت خلفية النقوش البارزة ملونة
بشكل تبرز النقش وتكسبه جمالا ، ويرى الفنانون اثر الاسلوب
الساساني في النقش وفي التزيينات من ورق العنب والاقنشا (نبات
شوكي) والزهور المختلفة .

كما وصف الشعراء والكتاب الكؤوس المصورة والستائر والاولاني
الحزفية والتقود والاسلحة والمصابيح والحيام المملوءة بالصور .

ولإذا انتقلنا إلى العهد الفاطمي والايوبي وجدنا في دور الآثار عدداً
كبيراً من آثار هذين العهدين من صور إنسانية وحيوانية ، كما نقع على
أخبار بعض المصورين ومنهم (الكتامي) صاحب صورة (يوسف في الحب)
الذي صورته وهو عريان ومثله (القصير) الذي كان يباري الآخرين بالصور
النافرة والغائرة . أما في الاندلس فأخبار التماثيل في القصور متوفرة ولعل
أهمها أسود قصر الحمراء وتماثيل الزهراء .

وأهم ما وقع عليه الباحثون من آثار التصوير في العصور المتأخرة ،
عدد كبير من المخطوطات العربية المزينة بالصور وأقدمها لا يرجع إلى
ما قبل القرن الثالث عشر . مثل (كلية ودمنة) و (مقامات الحريري)
و (الاغانى) . وفي المكتبة الاهلية بباريس نسخة من المقامات ترجع
إلى منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م) فيها زهاء مائة صورة .
وقد ظهر هذا الوله بتصوير الكتب في العراق خاصة وفي الشام ومصر
أيضاً ، ثم تجلي هذا الفن وازدهر في فارس . ولعل ابرز اسماء الرسامين
الذين زينوا الكتب هو محمود الواسطي .

هذا ويحمل الفنانون خصائص التصوير في العصور الاسلامية بعد بلوغ
المسلمين درجة القمة الحضارية الفكرية والادارية في العصر العباسي ،
بالمدارس التصويرية الآتية :

آ- مدرسة بغداد او مدرسة التصوير السلجوقية : القرن (١٣ / ١١٧)
وتتمثل فيما خلفه لنا رسامو هذه الفترة من صور داخل المخطوطات واكثرها
ترجمات للقصص مثل كلية ودمنة ، أو ترجمات لمؤلفات يونانية في علوم
الطب والنبات والحيوان والطبيعة ، أو كتب أدبية كمقامات الحريري ،
او مؤلفات اسلامية كعجائب المخلوقات للقزويني .

واقدم المخطوطات التي ترجع إلى هذه المدرسة كتاب في البيطرة كتب في بغداد سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩ م محفوظ اليوم بدار الكتب المصرية بالقاهرة وهو ترجمة لكتاب خواص العقاقير لديوسكوريدس . وتوجد مخطوطة اخرى لنفس الكتاب محفوظة في متحف طوب كويو سراي في استانبول كتب سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م . وفي النسختين صور اطباء يحضرون دواء او جراحين يقومون بعمليات جراحية .

واقدم نسخة لمقامات الحريري ، التي تذكر مغامرات الحارث بن همام وابي زيد السروجي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس وقد كتبت سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ويظهر فيها التأثير السوري . وفي نفس هذه المكتبة نسخة اخرى كتبت ورسمت صورها سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م بريشة محمود الواسطي اشهر فناني هذه الفترة ، وفي صور هذه النسخة نشاهد مسلمي القرن الثامن عشر الميلادي في العراق وبقية الافطار الاسلامية في مختلف نشاطات



شكل - ٩٤ -

صفحة من صفحات نسخة من مقامات الحريري تمثل رجلين جلسا للشراب ، وهي من رسم فنان سوري ١٢٣٧ م ويلاحظ فيها اثر المدرسة العراقية . وقد ظهرت في سورية ومصر عدة نسخ مصورة للمقامات في عهد المماليك

الحياة : في المسجد ، في الحقل ، في الصحراء ، في الحانة ، في المكتبة
في الأفراح والاعياد والاحزان ...

وتتأثر هذه المدرسة بأنها عربية أكثر منها إيرانية ، وتسلو على
الأشخاص مسحة راقية ، وتغطي وجوههم حتى سود فوقها أنوف قني .
مع مهارة في التعبير عن حالة الجماعات والأفراد . ودقة في رسم دقائق
زركشة الملابس وأنواع الأزهار والرياحين التي كان يكثر منها الناس في
حدائقهم ومنازلهم .

وأشهر رسامي هذه الفترة الواسطي الذي ذكرناه ، والذي تعتبر
رسومه في مقامات الحريري صورة صادقة للحياة الاجتماعية في عصره
وعبد الله بن الفضل ، وأشهر ما عثرنا عليه من رسومه ، نسخة من كتاب



شكل - ٩٥ -

من أكثر رسوم الرسام رشيد الدين تعبيرا ، هذه اللوحة التي تمثل
سفيرا مسلما مع مرافقيه في بلاط ملك الجبشة ويلاحظ في هذه اللوحة ،
التي تزين إحدى صفحات كتاب « التاريخ العام » المنسوخ في تبريز عام
١٣٠٦ م ، أثر الفن الصيني ، وبرز ميزات مدرسة ما بين النهرين الفنية معا .

خواص العقاقير رسمه سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م محفوظة في المكتبة الوطنية
في باريس كانت تحوي ثلاثين صورة ، ولكن أكثرها اليوم موزع في عدد
من متاحف العالم كاللوفر في باريس والمتروبوليتان في نيويورك .

ب - المدرسة الايرانية المغولية (القرن ١٨/ ١٣-١٤ م) : ويظهر في هذه المدرسة اثر الواقعية في المناظر الطبيعية الصينية . وا قدم مخطوطة من هذا العصر نسخة ايرانية من كتاب منافع الحيوان لابن بختيشوع محفوظة في مكتبة مورجان بنيويورك . واشهر الرسوم ما وجد في كتاب « جوامع التاريخ » للوزير المؤرخ رشيد الدين . وبين ايدينا اربع مخطوطات منه : إحداها كتبت ورسمت سنة ١٧٠٧هـ / ١٣٠٧ م ومحفوظة في مكتبة جامعة انبرة وثانيها مؤرخة سنة ١٧١٤هـ / ١٣١٤ م ومحفوظة في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن . والنسختان الاخريتان محفوظتان في مكتبة طرب كوبرو سراي في استانبول . وتماز جميع الصور باستطالة رسم اجسام الرجال الذين تبدو على سحنهم مسحة انسان .

وبلاحظ على صور هذه المدرسة اضافة إلى الاثر الصيني في الرسم والتكوين وتضمينها صور الحيوانات الخرافية الصينية ، مزيج في غطاء الرأس ، فالحمايين انواع كثيرة من الخوذات ، وللنساء قلنسوات مختلفة بعضها مزين بريش طويل ، وللرجال ضروب شتى من القلنسوات والعمائم ؛ تساعد هذه الرسوم على معرفة انواع الملابس والمواد في القرن الذي رسمت فيه .

ج - مدرسة التصوير التيمورية في إيران (هراة) القرن ١٥/ ١٥ م كان تيمورلنك قد اتخذ سمرقند عاصمة له وجمع فيها اشهر الفنانين واصحاب الصناعات الدقيقة ، ولكن عمله لم يقض على تبريز وبغداد كمر كزين فنيين في العالم الاسلامي ... ولم يصلنا شيء يذكر من انتاج سمرقند في الرسم ، وإنما الذي وصلنا من انتاج مدينة « هراة » بخراسان التي جمع فيها ابن تيمور وخليفته ويدعى شاه رخ الفنانين وخاصة النساخ والرسمين للتزويد مكتبته بالمستنسخات ، وكان ممن رسم له الكتب المصورة « خليل »

الذي اعتبر واحداً من عجائب عصره . وقد أسس ابن شاه رخ ويدعى ميرزا مكتبة ومعهداً لفنون الكتابة ، عمل فيه اربعون فناناً بين مصور ومذهب وخطاط ومجلد ، ومن المصورين : امير شاهي وغيث الدين . وأكثر انتاجهم كان في تصوير الشاهنامة وكتب الشعر العاطفي والتصوفي لمشاهير الشعراء الايرانيين أمثال نظامي وسعدي .

وصور هذه المدرسة مليئة بمناظر الزهور والحدائق ، وجمال فصل الربيع ، والأشجار الطبيعية ، وأشكال الطبيعة من جبال وتلال . . . كلها بألوان ساطعة لا يكسر من حدتها تدرج ما .

يضاف إلى هذا بعض الصور العلمية لمخطوطة كتاب مجموعات النجوم لعبد الرحمن الصوفي المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس رسمت عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م . وفيها كثير من الصور الأكاديمية والطيور والحيوانات التي توضح أسماء النجوم والمجموعات الفلكية .

د - مدرسة بهزاد : وتنتسب إلى كمال الدين بهزاد الذي لقب بمعجزة العصر والذي نشأ في هراة ، ولكنه أدخل على الرسم والتصوير كثيراً من التطوير . ويعتبر بهزاد من أوائل المصورين المسلمين الذين وضعوا تواقيعهم على آثارهم الفنية ، وقد تبين لنا أن كثيراً مما وصلتنا من صوره ، لم يكن النسخة الأصلية ، وإنما صور منقولة عنها ، احتفظ النساخون بالتوقيع الأصلي .

وامتاز بهزاد بمقدرته على مزج الألوان والتعبير عن الحالات النفسية المختلفة ، ويقول أحد الكتاب في وصف رسم هذا الفنان : « انك لتحس أمام آثاره الفنية أن بين يديك صوراً ارستقراطية بهيوتها وبحسن الذوق وإبداع التركيب فيها ، وبدقة الزخرفة وانسجامها ، بما يشهد ان بهزاد كان

المصور الكامل الذي انتهى على يديه تطور التصوير الايراني في عهد المدرستين :
الايرانية المغولية ، ثم التيمورية فبلغ التقدم منتهاه .

هـ - مدرسة بخارى : ازدهرت في بخارى (القرن ١٠ هـ / ١٦ م) مدرسة
فنية متأثرة بالمدرسة التيمورية وبهزاد وتلاميذه . وكثرت فيها المناظر الغرامية .
ويتميز غطاء الرأس في هذه المدرسة بأنه يكون من قلنسوة مرتفعة ومضلعة ،
وتحيط العمامة بجزئها الأسفل . ومن الصور الشهيرة لهذه المدرسة منظر سلطان
سوري يناقش درويشاً في حديقته ، استخدمت فيها ألوان زاهية تشبه ألوان
المينا ، وفيها لون أحمر قرمزي ساطع يعد من مميزات مدرسة بخارى .

و - المدرسة الصفوية : رعت الدولة الصفوية الفنون ، كما رعت العلوم
والآداب ، وتبارى الرسامون في تصوير نسخ شاهنامه الفردوسي التي عني بها
جميع فناني المدارس التي ذكرناها ، ولكن ظهر الميل في هذه الفترة إلى
تصوير الدراويش والأمراء في ثيابهم الأنيقة واصبح ذلك من الموضوعات
المفضلة ، وظهر نوع جديد من العمام الكبيرة ذات الريش والأزهار .

ز - المدرسة التركية : أكثر رسامي هذا العهد ، غير أتراك ، فكانوا
أخلاقاً من أمم شتى ، فصورة السلطان محمد الفاتح المعروضة في المتحف
الوطني بلندن ، من رسم المصور الايطالي جنتلي بلييني عام ١٤٨٠ م ورسامو
مخطوطة تاريخ سلاطين آل عثمان ومخطوطة سليمان نامة إيرانيون ، وأن ظهر
التأثير التركي بشكل الملابس التركية المختلفة في العصور الأولى ، وامتازت
رسوم هذه المدرسة باللون الأخضر الزاهي المائل إلى الاصفرار .

ح - المدرسة المغولية الهندية : يعد تصوير المتصوفين والنسك والهنود
وهم يحادثون الأمراء والأشراف من أكثر الموضوعات التي طرقها رجال
الفن في الهند في العصر المغولي ، كما بلغ تصوير الأشخاص القمة في هذه المنطقة .

الكتابة والخط

يجمع الباحثون أن الكتابة نشأت وتطورت في أرض الوطن العربي القديم ، وأن مراحل إيجاد الأبجدية تم على الأرض العربية القديمة ، سواء أبجدية سيناء ، أو أبجدية جبيل أو أبجدية رأس شمرا ، وهي أمتها وتعتبر أم الأبجديات العالمية . وإذا ما تجاوزنا الكتابات القديمة كالهيروغليفية وتطورها والمسارية ، فإننا عثرنا على عدد من الكتابات العربية القديمة ، وإذا كان الخط الآرامي يعد جدّ الخطوط العربية ، إذ تفرع عنه الخط النبطي الذي يعد أقرب ما يكون للخط العربي عند أول عهد اتصال حروفه العربية بعضها ببعض ، فإن عدداً من الخطوط الأخرى استعملت في جزيرة العرب مثله وهي :

الخط المسند الصفوي نسبة إلى جبل الصفا (في جبل الدروز السوري حالياً) .

الخط الشمودي نسبة إلى ثمود (مدائن صالح) .

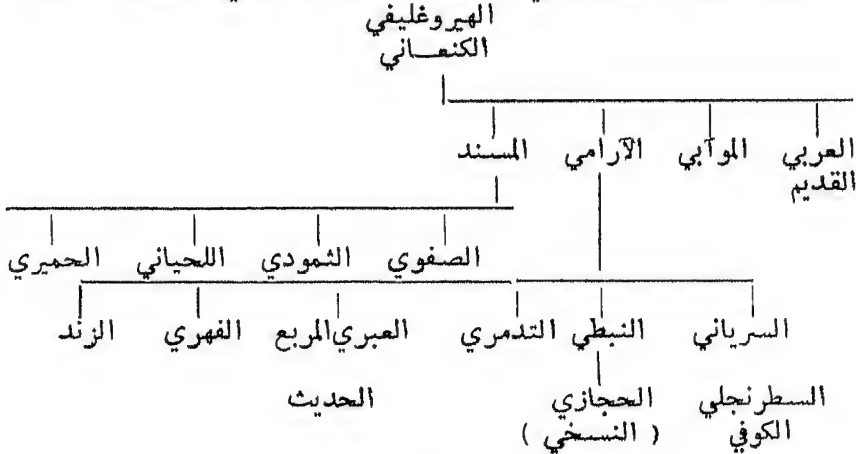
الخط اللحياني نسبة إلى بني لحيان .

الخط الحميري والخط السبئي نسبة إلى حمير وسبأ .

الخط الحيري نسبة إلى الحيرة والانباء ، وهو الخط الذي انتقل إلى

عرب الحجاز في الجاهلية ، وكان بغير نقط^(١) .

(١) يحدد تطور الخط العربي د. محمد الطاهر أحمد مكي بالشجرة التالية :



يذكر القلقشندي « إن أول من وضع الخط والحروف الهجائية العربية ستة نفر من طسم من العرب البائدة كانوا نزولاً عند عدنان بن أد فكانت أسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعنص ، قرشت ، فوضعوا الخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الالفاظ حروفاً ليست في أسمائهم الحقوها بها وسحوها الروادف وهي تخذ ، ضظغ . والواقع أن هذه الروادف ليس لها نظائر في أبجدية اللغات التي تطورت عنها الكتابة العربية وأخذت عنها

وتروي كتب الادب أن ترتيب الابجدية العربية الهجائي حدث في عهد عبد الملك بن مروان ، على يد نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وهو ترتيب مبني على تقارب أشكال الحروف ، بينما اعتمد مؤلفو المعاجم الأوائل على ترتيب بالنسبة لخارج الحروف من الخلق أو الفم وكانت على هذا النحو : حروف المد (الألف والواو والياء) ثم الهمزة فالعين فالغين فالحاء ثم ت ، ك ، ج ، ش . ي ، ض ، ل ، ن ، ط ، د ، س ، ز ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، ب ، م .

وقد تطور الخط العربي بعد الاسلام فصار إلى ما صار اليه من إتقان وزخرفة فبعد أن كان الخط الحيري الانباري قسمين : الخط المقور ويسمى النسخي والخط المبسوط ويسمى باليابس وقد كتب كتاب الوحي للنبي عليه السلام بالخط المقور النسخي ، وبه كتب زيد بن ثابت صحف القرآن الكريم ، وكان تجويد هذا الخط يقسم إلى مكّي ومدني ، ثم بدأ الخط في الكوفة فظهر الخط الكوفي ، وما زال المسلمون يجودون الخط ويعنون به ، ويرقون به حتى أصبح له سبعة أنواع رئيسية هي : الثلث ، النسخ ،

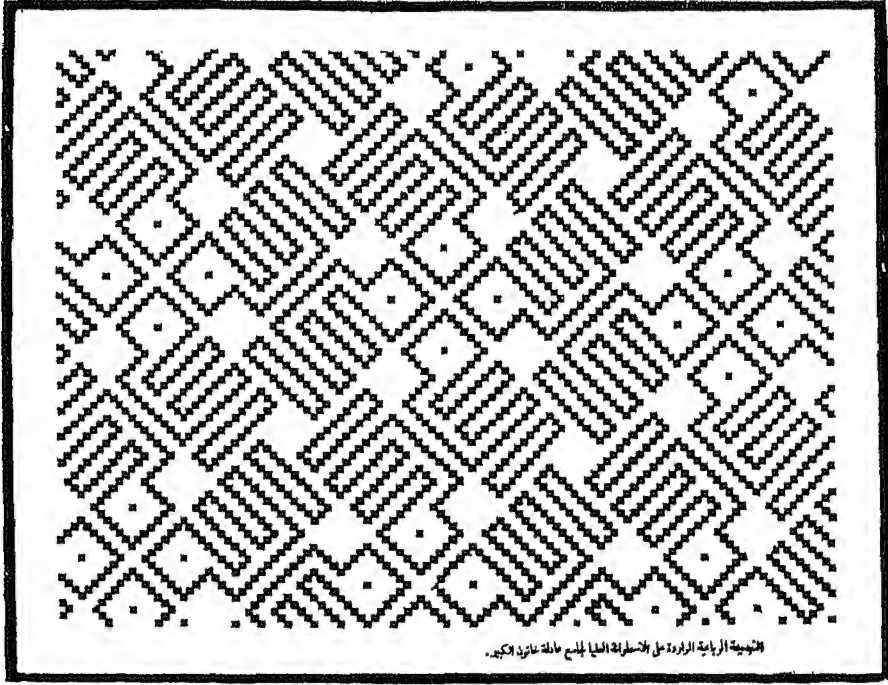
الرقعة ، الديواني أو الهياوي ، الفارسي ، الأجازة أو التوقيع ، والكوفي ، ويتفرع كل خط منها إلى فروع متعددة ونحن لا يعنينا هنا الخط ككتابة لها معاني بقدر ما يعنينا تجويد رسم الحروف بأشكالها المختلفة .

ونحن لا نقصد بالخط الكتابة بقدر ما نقصد تجويد رسم الحروف بأشكال مختلفة وهو فن إسلامي خالص ، وجد به المسلمون منفذاً للتعبير عن رغبتهم في إبداع الجمال وتذوقه حين كان التعبير عن ذلك بالتصوير وتمثيل الكائنات الحية أمراً مكروهاً من المتدينين .

وبدأ تجويد الخط في الكوفة ثم في الشام ولكن فن الخط إنما ازدهر في القرن الثاني الهجري فلم يأت القرن الثالث حتى أصبح أشرف فن يرغب فيه ، إذ كان من أغراضه أن يخلد كلام الله في الصحف . وقد جاء في القرآن الكريم تأييد لتلك المسكنة قوله تعالى : « ن . والقلم وما يسطرون » وفي أول آية أنزلت « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . ولهذا السبب احتل الخطاطون مكانة أعلى بكثير مما كان للمصورين ، حتى كان الأمراء والكبار في الدولة يسعون لنيل الحظوة الدينية بكتابة القرآن .

وقد ظهرت مع تفنن الكتاب ، وضرورات الحاجة وتغير الزمن أنواع مختلفة من الخط بقي لنا منها : الثلث والكوفي بأنواعه والنسخي (كأحرف الطباعة) والرقعي (كخط الكتابة) والديواني بأنواعه (وقد كانت تكتب به المراسيم السلطانية) والفارسي أو التعليق . ولكل نوع من هذه الأنواع قواعده وأسلوبه ونسبه وآدابه وقد بلغت الغاية في الدقة والإحكام .

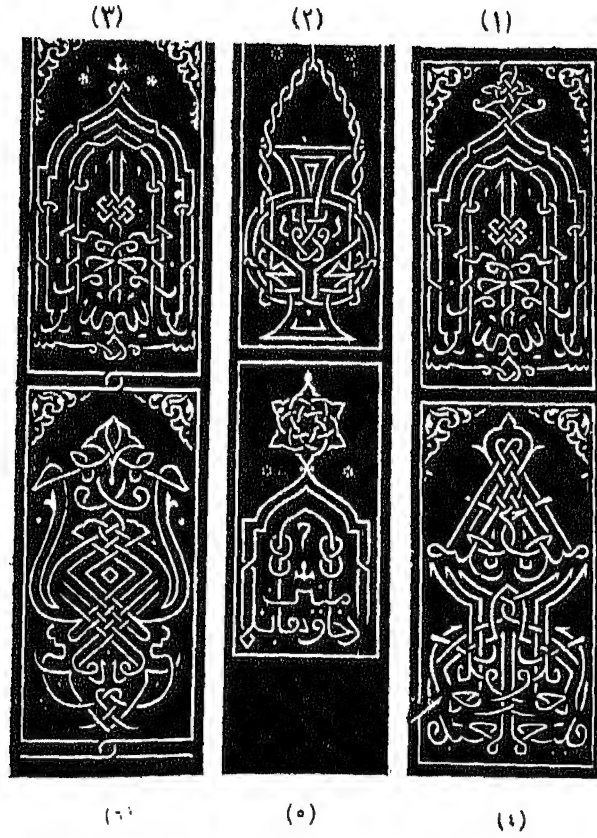
وتحفظ لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء عدد من الخطاطين ممن أغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف أصحاب هندسة البناء والمصورين وصناع الأواني المعدنية الذين أسدل التاريخ حجاباه على ذكركم .



التصميم الرباعي المأذون على السلطانة العلية لجامع عاتلة عاتر الكبير.

شكل - ٩٦ -

من دراسة زخارف المآذن (المنارات) في العراق وإيران وتركستان المبنية من الآجر ، يتبين انها كانت تخضع لقواعد فنية ممتازة ، وكانت تعتمد الكتابات بشكل تجميع ثلاثي حيث تتكرر الكلمة ثلاثا ، أو تجميع رباعي وهو الأكثر شيوعا حيث تتكرر الكلمة أربع مرات بأربع اتجاهات ، ومنارة جامع عاتلة خاتون الكبير في بغداد ، نموذج للتجميع الرباعي ، حيث يشاهد بالشكل لفظ الجلالة يتكرر بالآجر الملون البارز ويعطي شكل المنارة الزخرفة الخاصة بها



شكل - ٩٧ -

كتابات مزدوجة متعكسة على هيئة زخارف عربية اسلامية من القرن العاشر الهجري. نصوصها هي : ١- بسملة ، ٢- يا مفتاح الابواب ، ٣- بسملة ، ٤- لمثل هذا فليعمل العاملون ، ٥- ادخلوها بسلام آمنين ، ٦- كل شيء هالك الا وجهه

ومن الخطاطين القدامى قطبة المحرر ، من أواخر العهد الأموي وتلاه رجلاً من أهل الشام تنسب إليها هندسة الحروف العربية : أحدهما الضحاك الذي عاش حتى عهد السفاح ، والثاني إسحق بن حماد وقد أدرك خلافة المهدي . وتفنن الاثنان فيما ابتكر قطبة من أقلام . ويقال إن جهدهما قد انتهى بالأقلام العربية إلى أن صارت اثني عشر قلماً ممنوعاً .

ومن واضعي أسس فن الخط : « الأحول المحرر » من صنائع البرامكة الذي ابتكر عدداً من الخطوط ؛ و « الرحجاني » الذي زها في عصر المأمون وتوفي سنة ٨٣٤م بعد أن ابتكر أسلوب الخط المعروف باسمه . والشائع أن جودة الخط قد انتهت على رأس المائة الثالثة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقله ، الوزير العباسي المشهور الذي ضبط هندسة الخطوط ونسبها ، وابتكر أخوه عبد الله « الخط النسخي » . وقد أمر الخليفة بقطع يد ابن مقله عقاباً له ذات يوم فلم يمنعه عن تجويد الخط بيسراه بل كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب به أيضاً .

ومن الخطاطين في العراق أبو الحسن علي بن البواب (المتوفى سنة ١٠٢٢ أو سنة ١٠٣٢ م) نسبة لأبيه الذي كان يلزم باب الخليفة في بغداد وهو واضع أسلوب الخط المعروف بالحقق . وآخر برع من أصحاب القلم لدى العباسيين ياقوت المستعصمي خطاط آخر خلفاء بني العباس واليه ينسب الخط الياقوتي . وقد وصلنا عدة آثار منه .

وقد ظهرت عناية الشام بالخط منذ أواخر القرن الخامس الهجري فظهرت فيها أشكال جديدة من الخطوط أهمها خط النسخ ، وهو ابتكار سوري ، وخط (الطومار) ومشتقاته . وهجرت خطوط الكوفة في كتابة المصاحف وحلت محلها الخطوط اللينة كالخط النسخي الأتابكي الذي ساد في العصر الأيوبي والمملوكي .



شكل - ٩٨ -

نموذج من الخط الكوفي النيسابوري ، وهو من الخطوط النادرة . وتنص هذه الصفحة قوله تعالى : « واللّٰه يعلم ما تسرون وما تعلنون » والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » .

أما في مصر ، فقد برز منذ العصر الطولوني الخطاط (طبطب) الذي جاء على رأس المدرسة المجودة للخط حتى نافست مصر دولة العباسيين في ذلك ، وفتحت مدارس لتعليم الخط ظلت عامرة حتى العهد المملوكي ، ومن أشهر رجالها ابن أبي رقية وشمس الدين الزفتاوي .

وأما تطور الخط في المغرب والأندلس فقد اتبع طريقاً خاصاً يظهر في الكتابات الأثرية وفي أسلوب الخط الباقي هناك كما تطور هذا الفن في إيران إلى أن وصل إلى خط (التعليق) الفارسي المعروف بأنواعه .

الزخرفة والنقش التزييني

لا يكاد يخلو أثر من الآثار الاسلامية من زخرفة أو نقش تزييني . فقد كانت من لوازم العمل الفني الاسلامي . لأن الفنانين المسلمين كانوا يكرهون الفراغ ويرغبون في تغطية السطوح والمساحات بالزخارف . وقد اقتبس المسلمون عناصر زخرفتهم من الكتابة العربية أو من الخطوط الهندسية أو من عناصر نباتية وحيوانية .

فأما الكتابة فلم يكن المسلمون أول من زخرف بها على المباني والتحف الفنية ، ولكن ليس ثمة من فن استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الاسلامي بسبب اهتمام الناس به من جهة وقابليته للتطور الزخرفي من جهة أخرى . ولعل البدء في زخرفة الخط بدأت في مصر في نهاية القرن الثاني الهجري ولكنها ازدادت شيوعاً منذ القرن الرابع وبلغت ذروة الروعة في القرنين الخامس والسادس . واعتمدت الزخرفة خاصة على الخط الكوفي بسبب خطوطه المستقيمة ؛ فكان لزخرفته أشكال منها : « المورق » و « المشجر » وهناك « المصفر » الذي يربط الفنان ما بين كلماته لتأليف إطار أو شكل هندسي معقد . « والكوفي المربع » وهو هندسي الشكل قائم الزوايا .

اسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله الذي هدانا لهذا
 الذي كنا لنهتدي لولا
 أن هدانا الله
 وقال الله
 الحمد لله
 رب العالمين

شكل - ٩٩ -

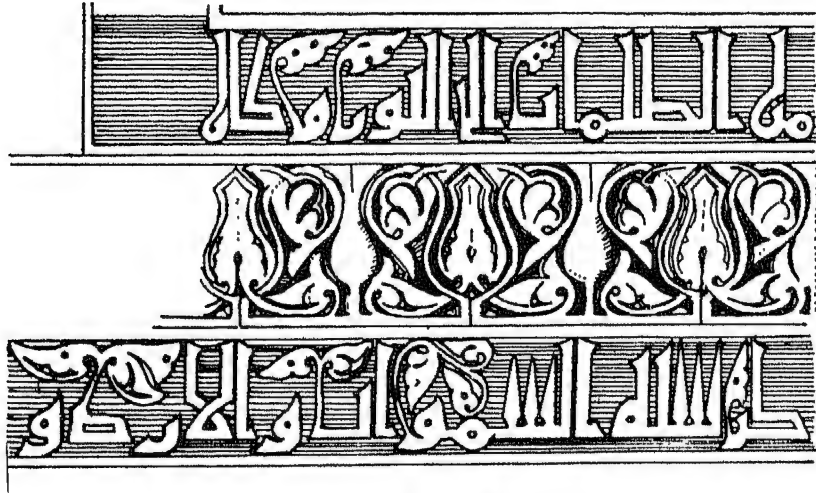
أقدم اثر اسلامي يمثل نقشاً على قبر عبد الرحمن
 ابن خير الهجري (٦٥٢ م) موجود في متحف الفن
 العربي في القاهرة

اسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا
 الذي كنا لنهتدي لولا
 أن هدانا الله
 وقال الله
 الحمد لله
 رب العالمين

شكل - ١٠٠ -

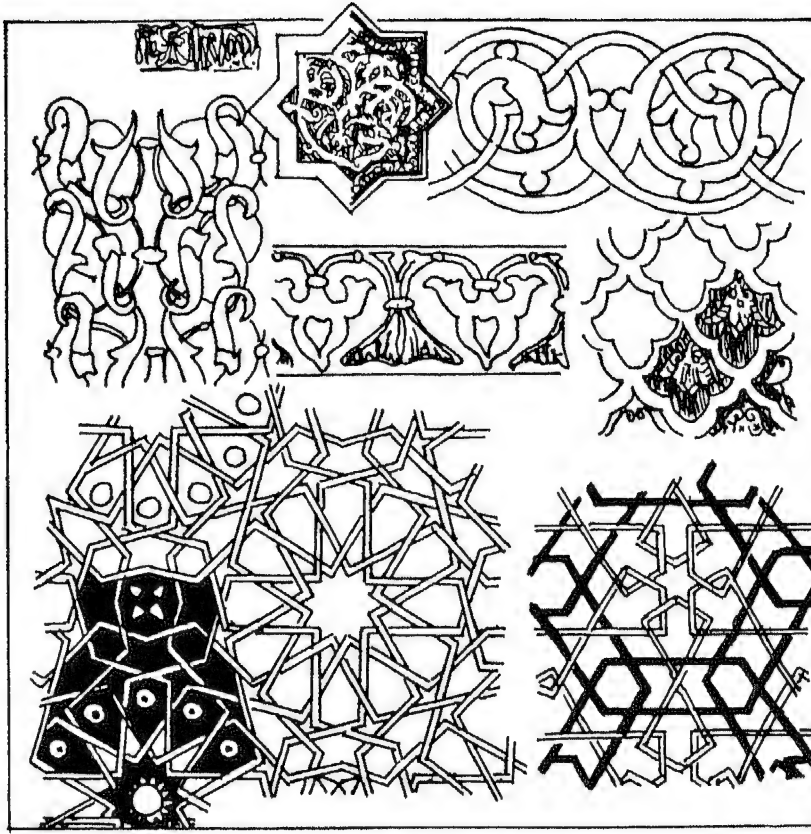
أقدم ابجدية عربية مقتبسة من نقش
 قبر عبد الرحمن المرسوم أعلاه



شكل - ١٠١ -
زخارف عربية وكتابة دينية على جدران الأزهر

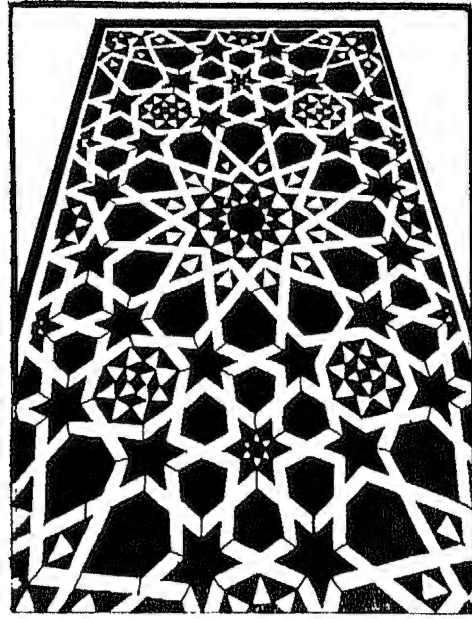
وأما الزخارف الهندسية : فقد أوضحت في الفن الاسلامي ، دون باقي الفنون العالمية ، عنصراً رئيسياً فيه . وبهنا منها بصورة خاصة تلك التراكيب الهندسية ذات الاشكال النجمية المتعددة الأضلاع التي ذاعت في المباني وفي التحف الحشوية والنحاسية وزخارف السقوف . وقد دلت الدراسات المختلفة لهذه الزخارف الهندسية المعقدة التي خلفتها العصور الاسلامية أن براعة المسلمين فيها لم يكن أساسها الشعور الفني والموهبة الطبيعية فحسب ولكنها تدل على علم وافر بالهندسة العملية . وقد ظهر الاهتمام بالزخرفة الهندسية في فنون الشام ومصر خاصة ولا تزال لها سيطرتها في المباني الحديثة التي تبنى في الشام .

أما العنصر النباتي في الزخرفة الاسلامية فقد تأثر كثيراً بانصراف المسلمين عن استيعاب الطبيعة وتقليدها فاستخدم لجذع والورقة لصنع زخارف



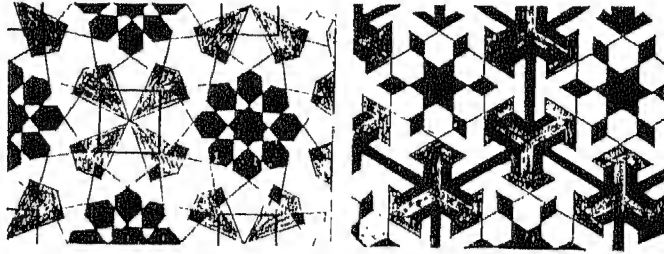
شكل - ١٠٢ -

نماذج من الزخارف العربية التي تعرف بالآرابسك أو الأرقشة
 يمتاز بها فيها من تكرار وتقابل وتناظر . وتبدو عليها مسحة هندسية تمت
 العنصر الحي فيها . وتدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية
 وأكثر الزخارف النباتية الشائعة هي المعروفة باسم : الرقش العربي «الآرابسك»
 وهي تتكون من فروع نباتية وجذوع منحنية ومتشابكة ومتتابعة وفيها
 رسوم محورة عن الطبيعة ترمز إلى الوريقات والزهور . وقد بدأ ظهورها
 في القرن الثالث الهجري ونراها في الزخارف الجصية التي كانت تغطي
 الجدران في سامراء وفي آثار العهد الطولوني بصر . وقد تطورت هذه



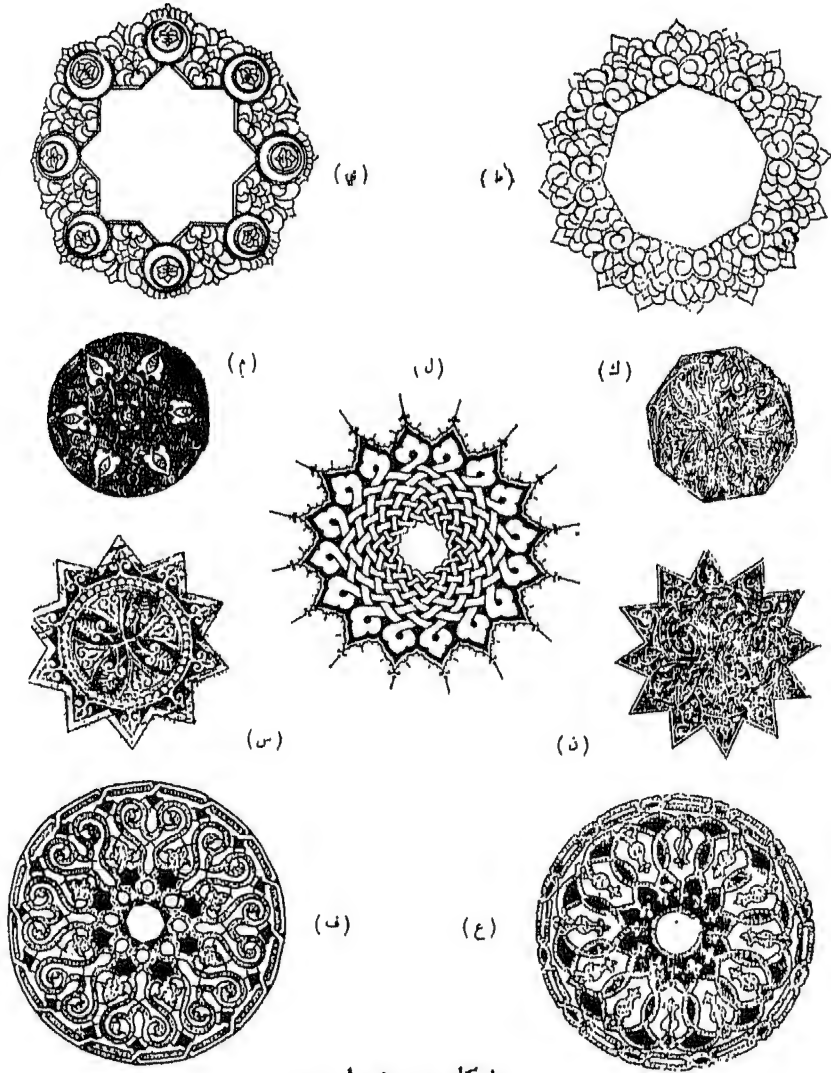
شكل - ١٠٣ -

نقش وتزيينات من الرخام الملون . هذه القطعة في المهديّة - تونس - .



شكل - ١٠٤ -

هذه التزيينات الرخامية موجودة في قصر الحمراء بقرطبة من صنع عرب الاندلس ، وهي نموذج من فن الارقشة العربية الذي كثر انتشاره في العالم الاسلامي في المساجد والقصور والاضرحة والحمامات .
لكن هاتين القطعتين استرعتا نظر احد العلماء الفنانين الالمان في الوقت الحاضر ، اذ قارنهما بما حصل عليه من مراقبة ودراسة «بلورات» الزجاج الصخري (الكريستال) وبلورات الالماس ، فوجد تشابها كبيرا بينهما .
فتساءل : هل كانت بلورات الالماس هي التي أوحى للفنان العربي بهذه الاشكال الجميلة المتناسقة ؟



شكل - ١٠٥ -

مجموعة زخارف عربية - اسلامية ، على هيئة اوسمة ونجوم ودوائر ذات مراكز متعددة ، ومتناظرات ، ومتماثلات من اشكال مختلفة تملأ مساحاتها توريقات نباتية واشكال هندسية ، كثيرة الانتشار من مخلفات المسلمين الفنية في الابنية والمخطوطات والمصاحف

الزخارف في العصر الفاطمي حتى نسبت اليه وبلغت بعد ذلك غاية تقدمها
منذ القرن السابع الهجري « ١٣ » م

على أن الزخرفة النباتية اتجهت في إيران بالعكس إلى صدق تقليد
الطبيعة منذ القرن السابع وذلك بتأثير الفن الصيني كما يظهر على القاشاني
خاصة . .

وانتقلت صناعة الارقشة الى المغرب والاندلس ، وكانت في النقش
والتخريم في الجص المبسوط الطري ، تصنع منه اشكال هندسية ، ونباتية
وحيوانية بارزة وغائرة ، ملونة وغير ملونة ، وادخل عليه في هذه المنطقة
من العالم الاسلامي صور عش فحل او صور قلبين متآلفين ويسمى قلوب
العشاق ، وزخرف خطي كوفي او نسخي يكون في الغالب برودة المديح
للوصيري او لفظة « العافية » في شمال افريقيا بمعنى السلامة والهناء والأمن
او « ولا غالب الا الله » في الاندلس . وآثار الاندلس الباقية وخاصة في قصر
الحمراء بقرنطة وقصر بني عباد باشيلية ، هي اروع أمثلة للجمال ورفي هذا
الفن العربي الاصيل .

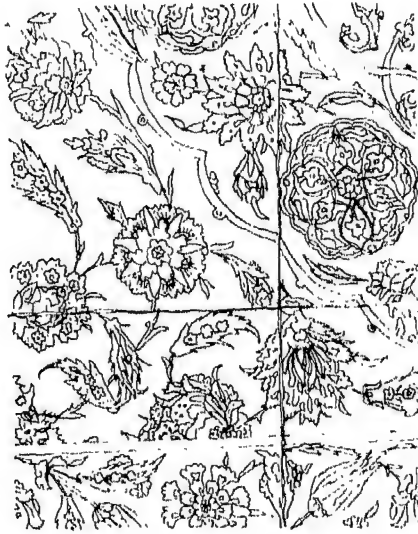
وأما الرسم الحيواني أخيراً فالشرق الأدنى يعرف الزخرفة به منذ
العصور القديمة . ولم يشذ المسلمون عن ذلك فاستخدموا رسوم الأسد
والفهد والفيل والغزال والأرنب والطيور الصغيرة وغير ذلك من حيوانات
الصيد خاصة . وقد اقتبسوا بعضها عن الصين . لكننا يمكن ان نرجع
معظم رسوم الحيوان في الزخارف الاسلامية إلى الفن الساساني بما كانت
فيه من اتباع التهايل والتوازن والتقابل وفي رسم الحيوانات متقابلة أو
متدايرة او بينها شجرة الحياة، وفي رسمها متتابعة على شكل شريط زخرفي



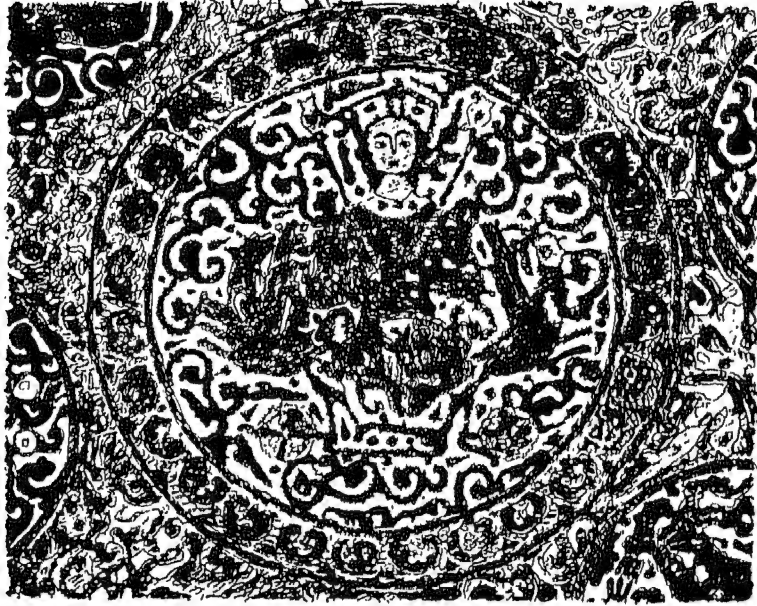
شكل - ١٠٧ -
قدر من صنع مدينة الرصافة
في سورية من القرن الثالث عشر الميلادي



شكل - ١٠٦ -
إناء من العصر الصفوي
(القرن ١٦ - ١٧)

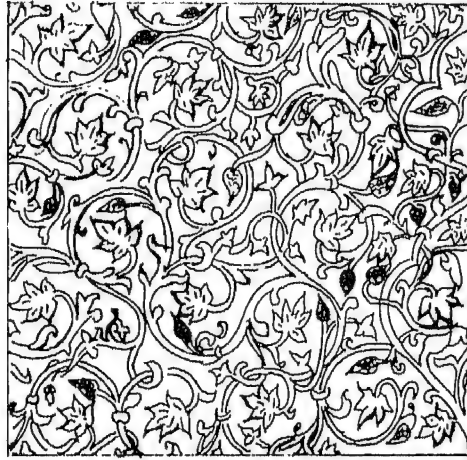


شكل - ١٠٨ -
قطعة من قاشاني في مسجد رستم باشا في استانبول ١٥٥٠ م
من هندسة سنان باشا



شكل - ١٠٩ -

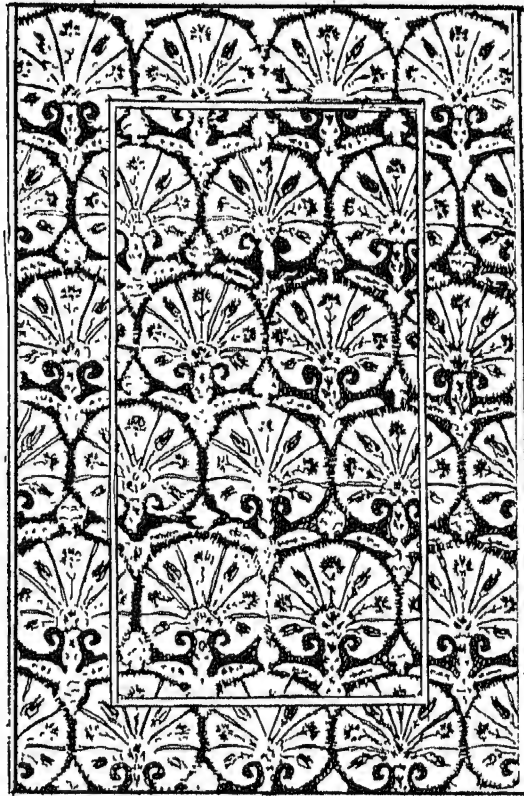
نقوش بارزة وغائرة في طبق برونزي عليه ميناء وعليه اسم أمير الموصل
سليمان بن داود ١١١٤ - ١١٤٤ م ، والطبق من صناعة الموصل ويلاحظ
عليه اثر الفن البيزنطي



شكل - ١١٠ -

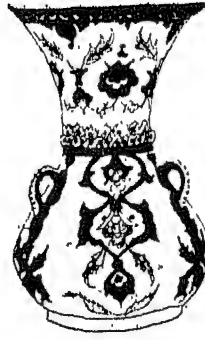
نموذج من التزيينات الاسلامية في محراب الجامع الكبير في القيروان

ولم تكن رسوم الحيوانات بالطبع مقصودة لذاتها ولهذا لم يهتم الفنانون المسلمون لمطابقتها للواقع . وقد صنعوا على مثال الطير أواني متعددة حوروا فيها . كما حوروا في النبات ، الشكل الطبيعي إلى شكل زخرفي رمزي .

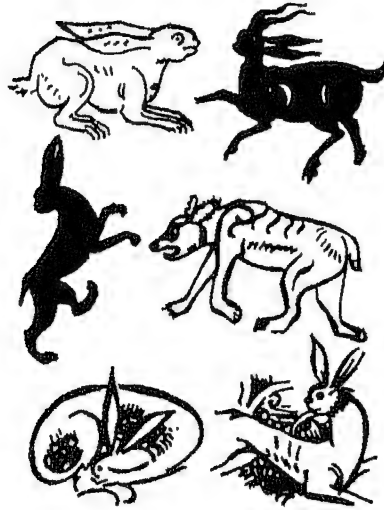


شكل - ١١١ -

قطعة من قماش حريري « البروكار » المصنوعة في مدينة بورصة في آسيا الصغرى في القرن السادس عشر الميلادي يلاحظ بها نعومة الحياكة وطابعها المميز . وكان أكثر انتاج هذه الصناعة ، والرفيع منها خاصة ، يستعمل في ملابس سلاطين آل عثمان وكبار الامراء والحاشية



شكل - ١١٢ -
مشكاة تركية من صنع آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن
السادس عشر



شكل - ١١٣ -
مجموعة من رسوم الحيوانات التي كثر استعمالها كزخارف على الخزف
الاسلامي ، وهي مقتبسة مما في أيدينا من خزف اسلامي

الفنون الصناعية :

الخزف : مجموعة الخزف هي أكبر ما وصلنا من تحف الفن الاسلامي فهي كثيرة العدد جداً ، متنوعة المواضيع . نجدها في كل بلد إسلامي . كما تتشابه أساليبها الفنية بكل مكان . ويبدو من تطور الفنون الخزفية أن منبع الابتكار فيها كان في فارس والعراق وهي استمرار وتطوير لصناعة الآجر المزجج الذي استخدمه بكثرة العرب القدماء في بلاد ما بين النهرين ومنها كانت تنتقل الأساليب بسرعة غربية إلى غرب « بملكة الاسلام » . وقد استعمل المسلمون الخزف في صناعة البلاطات الزخرفية الجميلة



شكل - ١١٤ -

يقول الخبراء ان في خزف شمالي افريقيا المسلمة ، البهجة والتلوين الجميل ، ويختلف طراز الخزف المغربي عن الطراز الفني الذي كان سائدا في مصر وسورية والعراق وفارس . ويتجه في اكثره لابرار الفولكلور المحلي أكثر من العناية بالفن الجمالي . . وهذا الطبق المصنوع في مدينة الرباط ، أحد الامثلة الواقعية عن هذا الرأي من صناعة الخزف المغربي وتزيينه .



شكل - ١١٥ -

رسوم اسلامية على طبق من الفخار من صنع مدينة نيسابور من القرن العاشر الميلادي ، والطبق محفوظ في متحف المتروبوليتان في نيويورك ، ويمثل الرسم فارسا خارجا الى الصيد ومعه البازي ، وكلب الصيد وبعض الحيوانات التي قد يصطادها ، وقد اشهر سيفه علامة على الفروسية والاستعداد للنزال اذا داهمه خطب ما .

لكسوة الجدران في البيوت والمساجد والمدارس وغيرها من المباني . كما استعملوه في عمل الأواني من أكواب وصحون وسلطانيات وأباريق ودوارق وقدور وأزبار وشماعد ومسارج ومباخر وزهريات وقمائل صغيرة ولعب ، وأنواع أخرى من التحف الفنية .

وقد بدأ صنع الخزف الاسلامي أول الأمر كتتمة لصناعة الخزف الساساني والبيزنطي ، ثم استقل بأسلوب اسلامي خالص وتنوعت أساليب الزخرفة بالرسم تحت الطلاء الزجاجي الشفاف بالألوان ، أو بالبريق المعدني ، أو بالتهذيب فوق طلاء زجاجي شفاف أو غير شفاف ،

وبالنحت والحزّ والتخريم ، وبالصّب فوق القالب ، والمينا ، كما تعددت أنواع العناصر الزخرفية ، من زخارف عربية ، وهندسية ونباتية ، سواء الطبيعي منها كالأشجار والثمار والزهور أو المقتبس والمعدل بشكل في زخرفي تزييني ، ورسوم مبان ومراكب تطفئ مياه البحر ، وصور حيوانات وطيور وأسماك ، وأشخاص في مناظر الحياة اليومية من رقص وموسيقى ومجالس شراب ، أو مناظر صيد ، أو مبارزة ، أو حفلات سمر .. وكان رسم المخلوقات ذات الروح من انسان وحيوان كثير الانتشار منذ بدء صناعة الحزف الاسلامي ، لأنه للمتعة والزينة والاستعمال وليس للعبادة ...

واختص الفن الاسلامي ، سواء في الحزف ، أو في غيره ، دون سائر الفنون العالمية بالكتابة العربية الزخرفية ، وهنا في الحزف استخدم الحزافون المسلمون الكتابة بالخط الكوفي بمختلف أشكاله أو النسخي كوسيلة للربط بين العناصر الزخرفية الأخرى ، أو لملء شريط زخرفي بكلمات ذات صيغة دعائية لصاحب التحفة ، أو حكمة عربية ، أو آية من القرآن الكريم أو حديث من أحاديث الرسول عليه السلام .

وجميع مخلفات العصور الاسلامية من الحزف تدل على أنها تنتمي إلى وحدة فنية تجمع بينها ، رغم ما فيها من تنوع في الأساليب الزخرفية التي ازدهرت في شتى بلاد العالم الاسلامي ، فلكل بلد اسلوب زخرفي خاص به ، يميزه عن غيره ، ولكن ضمن وحدة الزخرفة الاسلامية كإطار عام يختلف عن الأساليب الأخرى الصينية أو الهندية أو الأوروبية مثلاً .

وبما يثير إعجاب ودهشة الناقدين الفنيين لصناعة الخزف الاسلامي ، الاتقان الزائد في استغلال تأثير النور والظل ، ونجاح الحزافين المسلمين

في ذلك نجاحاً بزرّ جميع زملائهم من خارج العالم الاسلامي .

— وكما يقول د. محمد مصطفى مدير متحف الفن الاسلامي بالقاهرة — نجد في الحزف الاسلامي الألوان دافئة ، مريحة للنظر ، ونجد الزخارف البارزة المنهوتة أو المصبوبة في القالب ، يختلف عليها النور والظل ، ويكسبها رونقاً ، ويعطيها نوعاً من الحياة . ويتخلل النور الزخارف المحرمة في جدران الأواني ، والمكسوة بطلاء زجاجي شفاف ، يبعث الحياة فيما يوجد داخل الاناء ، كما تلمع الزخارف المدهونة بالبريق المعدني وتبهير الأبصار ، بينما تظهر الصور المرسومة باللون الأسود تحت طلاء زجاجي شفاف فيروزي اللون وكأنها أشباح في ليلة مقمرة ..

وكان الخزافون المسلمون هم أول من اخترع البريق المعدني في زخرفة الحزف . ويعتقد أن ابتكاره تم في العراق ، ولكنه نضج واصبح لونه ذهبياً منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وانتشر استعماله في مصر والعراق وايران ثم في الشام والأندلس . وكانت الزخارف ترسم فوق الطلاء الزجاجي بأكاسيد بعض المعادن ، أو تحجز على أرضية مدهونة بهذه الاكاسيد ، تثبت في أفران خاصة ، فيظهر لها لمعان معدني واضح ، يختلف بين اللون الذهبي والأحمر النحاسي والبني والزيتوني .

وكان الفنانون من الخزافين ينتقلون في البلدان الاسلامية ويصنعون بنفس أساليبهم ، عدداً من التحف ، في البلدان التي يحلوا فيها ، لذلك نجد اوان خزفية متشابهة في أشكالها وفي أساليبها الزخرفية ، مصنوعة في مصر او العراق أو ايران في نفس العصر ، مع اختلاف متقارب بتاريخ الصناعة . ومن المراكز التي اشتهرت بصنع الحزف « قاشات » واليها تنسب صناعة تزييعات (بلاط) القاشاني ذي البريق المألون ويسمى بالمغرب الزليج

ومنه اقتبس نموذج اسمه AZULEJOS واشتهرت في سوريا (الرقة) في
العهد السلجوقي كما عرفت مصر بالصناعة الخزفية الراقية زمن الفاطميين
والايوبيين والمماليك . وأما في المغرب والاندلس فذاعت شهرة مالقة



شكل - ١١٦ -
اناء زجاجي ممتوه بالميناء من صناعة سورية في عصر المماليك
(النصف الاول من القرن ١٤ م)

وغرناطة ومنطقة بلنسية^(١) . وأما في العهد العثماني فاشتهرت (بروسه) في آسيا الصغرى ودمشق بالبلاط القاشاني .

وفي كتاب الفه عام ١٣٠١ م أبو القاسم القاشاني أحد افراد اسرة عريقة في صناعة الخزف ، وصف لصناعة الخزف الاسلامي ، فيقول :

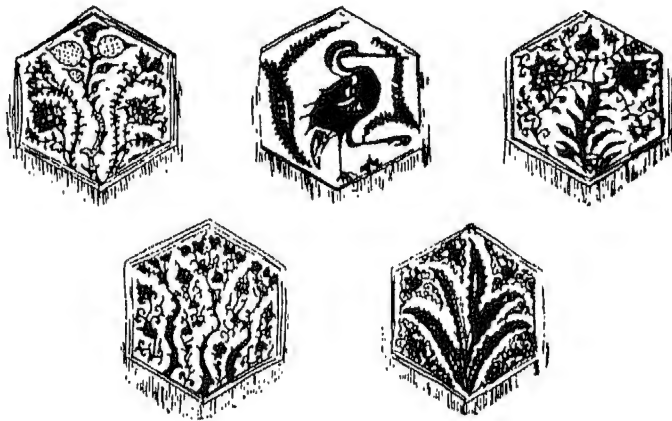
يتكون الخزف الابيض الرقيق الصلب ، من عجينة من الطفل الأبيض ، يضاف إليها مسحوق حبيبات الكوارتز والبوتاس ثم تحرق الآنية بعد تغطيتها بطلاء قلوي مصنوع بحبيبات الكوارتز والبوتاس أيضاً . ويكون الرسم تحت الطلاء القلوي . وهذا يدل على أن صناعة الخزف الاسلامي تأثر بصناعة « الصيني » ولكن ادخل عليها الذوق العربي والتأثيرات الاسلامية فقدت زخارفها كتابات كوفية أو تفريعات نباتية أو رسوم حيوانات وطيور تمزج بين أوراق النبات وفروعها . فكان اللون الغالب في الخزف الاسلامي ، والمصنوع في فارس خاصة ، الأزرق الزهري أو الأزرق الفيروزي أو البني أو الأخضر أو الأصفر أو الأرجواني .

وهناك نوع من الخزف ظهر منذ القرون الثاني عشر الميلادي سمي بخزف « لقي » عبارة عن ألوان حددت رسومها بالخزوز حتى لا يسيح طلاؤها . .

(١) ويرى أن صناعة الزليج قد انتقلت الى شمالي افريقيا والمغرب على يد اسماعيل الطلاء من القيروان الذي ذهب الى بغداد في اوائل القرن الثالث الهجري ليتعلم النحو ، ولكنه عمل في دكان غضار (صانع الغضار والخزف المطلي) وتعلم صناعة القاشاني واشترى ١٢٠ بلاطة نموذجية الخزف ورجع الى القيروان فكسا حلق المحراب الجامع الكبير بها عام ٢٥٠ هـ ، وصنع بنفسه الكمية اللازمة لاتمام واجهة المحراب فكان ذلك نقطة الانطلاق لصناعة الزليج في مغرب العالم الاسلامي وجنوبي اوروبا .

الزجاجيات : يعرف الشرق العربي صناعة الزجاج منذ أيام العرب القدماء وقد استمرت أساليب هذه الصناعة سائدة ، كما كانت في القرن الأول للهجرة ، واشتهرت دمشق وحلب وانطاكية وصور وعكا والحليل بأنواع الزجاج الشامي الذي كان يضرب المثل برقته ونقائه وزخارفه . وارتقت المصنوعات الزجاجية في العصر الفاطمي رقياً كبيراً ترك بين أيدينا تحفاً فنية لا تعد ، منها كؤوس وقمام وصحون وأباريق ، ولعل أشهر المنتجات الفاطمية وأعظمها قيمة من الناحية الفنية الزجاج المذهب والمزين بزخارف تبدو كالبريق المعدني . هذا عدا الباور الذي أقبل عليه كبار القوم لصلابته بالنسبة للزجاج العسادي ولطف منظره ، ومعظم الآثار الباورية الاسلامية موجود الآن في الكنائس الغربية .

وبلغت صناعة التحف الزجاجية أوج عزها أخيراً في الشام ومصر فيما بين القرنين السادس والتاسع الهجريين (١٢ - ١٥ م) برعاية سلاطين العهد



شكل - ١١٧ -
نماذج من الفاشاني الملونة بالابيض والازرق من صناعة دمشق
(أوائل القرن ١٥ م)

الأيوبي والمملوكي . وكان فخر هذه الصناعة تزيين التحف بالزخارف الذهبية المموهة بالمينا . وبرزت في هذا مدينة (الرقة) . وأبدع ما وصلت إليه صنع المشكيات ومنها أمثلة كثيرة موزعة بين المتاحف والمساجد الكبرى . أما إيران فقد سارت صناعة الزجاج فيه التطور الذي جرى في الشام ومصر حتى كان عهد تيمورلنك الذي جمع في سمرقند نخبة من أمهر رجال هذه الصناعة السوريين برز بهم اسم المدينة ثم تلتها شيراز في القرن (١٧ - ١٨ م) .

ومن المؤسف أن التحف الزجاجية الاندلسية نادرة جداً رغم ازدهار صناعتها في المرية وغرناطة بسبب ما أصابها من الاتلاف في عصور محاكم التفتيش .

المنسوجات : كان انتاج الأقمشة الجميلة من أهم ميزات الفنون الإسلامية . اشتهرت بذلك الشام ومصر وإيران . وبالرغم من أن بعض المنسوجات ما يزال يحتفظ باسم (دمشق) (كالدامسكو) والموصل (الموصلين) فان دور الطراز الهامة والمنسوجات الأثرية الباقية تنسب خاصة لـ مصر وإيران :

فالنسيج القديم في مصر تابع في القرون الإسلامية الأولى تطوره من أساليبه القبطية القديمة في الزخرفة بالرسوم الآدمية والحيوانية والطيور . وقد عظم اهتمام الخلفاء الفاطميين بصناعة النسيج ، وكانت وظيفة صاحب الطراز لا يتولاها إلا أحد كبار المقربين . واشتهرت مدينة تنيس بأنواع من النسيج المقصب الملون وبمِنوع من القماش يعرف (بالبوهمون) . وقد عرف الصانع طبع الرسوم على القماش بالقوالب الخشبية ، وقد اضمحل نسيج الكتان بمصر في عهد الأيوبيين والمماليك وزادت العناية بنسيج الحرير وتطوره وزخرفته



شكل - ١١٨ -

جزء من لوحة فنية للرسم الايطالي اليفريتو نوتسي تصور تتويج مريم
البتول (النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي) ويظهر فيها اثر فن
الارقشة العربية (الارابيسكا)

أما إيران فشهرتها بالنسيج جعلتها تدفع بعض جزيتها من المنسوجات
الفخمة ، وكان من أهم مراكز النسيج نيسابور وأصفهان والري ومرو حتى
قاسان ، على أن زخارفها وأساليبها بقيت أول الأمر ساسانية حتى كان
العهد السلجوقي الذي جاء إيران بنهضة عامة في النسيج تأثرت بالأساليب
الصينية من جهة ، وبالتقدم الزخرفي الذي ظهر في الجزيرة إذ ذاك بشمال
العراق (كالوصل) . واستمرت شهرة إيران بالنسيج الرائع قائمة في العصر
المغولي والتيموري وأخيراً في العهد الصفوي الذي بلغ القمة .

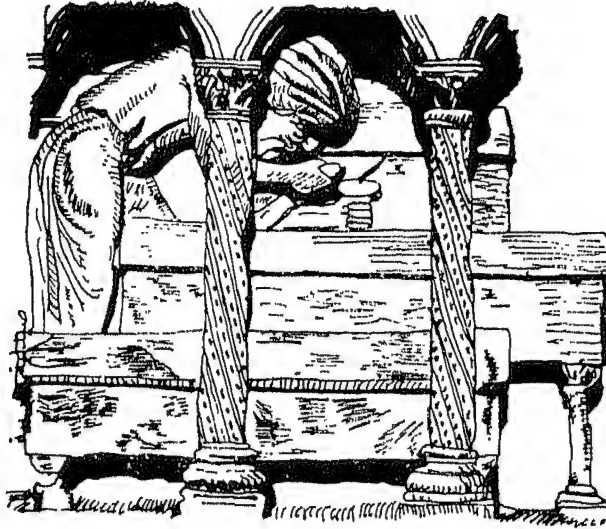
السجاد : بالرغم مما ثبت في بعض الآثار والأخبار من وجود صناعة السجاد في الأقاليم الإسلامية كمصر وأرمينيا منذ القرن الثاني الهجري فإن إيران تذهب لوحدها بكل اهتمام الباحثين في هذه الصناعة الفنية الرائعة . وترجع أقدم السجاجيد الإيرانية المعروفة إلى العصر السلجوقي لكن صناعتها لم تبلغ الأوج إلا فيما بين القرنين (١٠ - ١٢) الهجريين (١٦ - ١٨ م) وكانت أهم مراكز السجاد ولا تزال أصفهان وقاشان وتبريز وشيراز وهمدان . وبالرغم من صعوبة دراسة كل مدينة منها على حدة ، فيمكن أن نلاحظ بشكل عام أن السجاجيد ذات الصرة الزخرفية في الوسط هي من صنع شمالي إيران (تبريز . قاشان) . أما ذات الرسوم الحيوانية والعناصر الآدمية فلم تشتهر هناك حتى القرن العاشر الهجري . أما الزهور والأشجار وأغصان النبات ، والزخارف من نوع الآرابسك فقد أصبحت تسيطر على جميع أنواع السجاد في بقية البلاد الفارسية . وكان يدخل في بعضها أحياناً كتابات مختلفة . وقد انحطت هذه الصناعة في إيران بعد القرن الثاني عشر .

وبقي السجاد في المغرب والأندلس محلياً حتى القرن الثاني الهجري حين وصلته جيوش خراسانية حاملة منها السجاد العجمي فانتشر استعماله فيها . والسجاد المغربي قبل ذلك كان صنعة البر ، قصير الشعر ، ليس به إلا الزخرف الهندسي ذو الخط المستقيم . كما كان معروفاً السجاد البيزنطي عالي الوبر كثير الزخرف . . وتولد من السجاد المحلي لشمال أفريقيا والسجاد العجمي الجديد ، سجاد القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان ، حيث دخله عنصر الحرير واسلاك الذهب والفضة (الزركشة) والتزيين بالجواهر ولا يزال بقاءها هذه الصنعة في تونس . ومن أشهر السجاد القيرواني ،

سجادة حملها معه أحد أمراء الفاطميين حين انتقل من المهديّة إلى القاهرة ،
وعليها خريطة تونس مصورة .

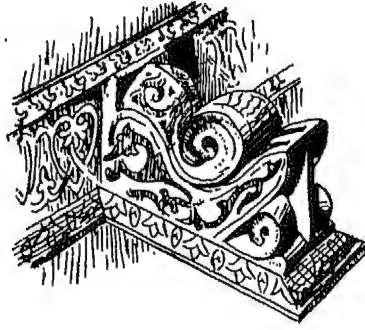
الحفر : حفر المسلمون الأشكال الفنية في الحشَب والعظم والعاج ،
كما حفروها في المعدن والحجر والجص .

فأما في الحشَب فقد وصلنا من العصرين الأموي والعباسي عدة أمثلة
منها حشوات في المسجد الأقصى بالقدس . وباب أموي ، في الغالب ، مملوء
بالزخارف الهندسية والنباتية ، ومنبر جامع عقبة في القيروان ، المتميز
بالاقتان . ويبدو أن الحفر الحشبي تقدم في مصر في العهد الطولوني ولكنه
بلغ أوجه في العصر الفاطمي إذ دقت الزخرفة وظهر التفريغ الدقيق .



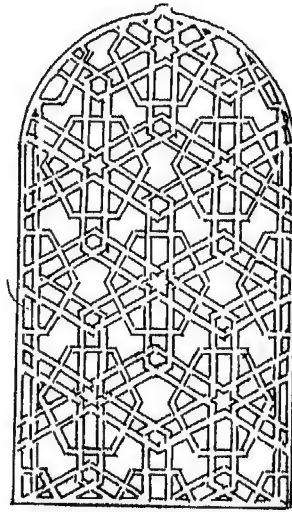
شكل - ١١٩ -

صورة عربية أندلسية تمثل نجارا عربيا يقوم بحفر ونقش الخشب
(القرن ١٢ م)



شكل - ١٢٠ -

نموذج من الحفر على الخشب في الجامع الكبير في قرطبة



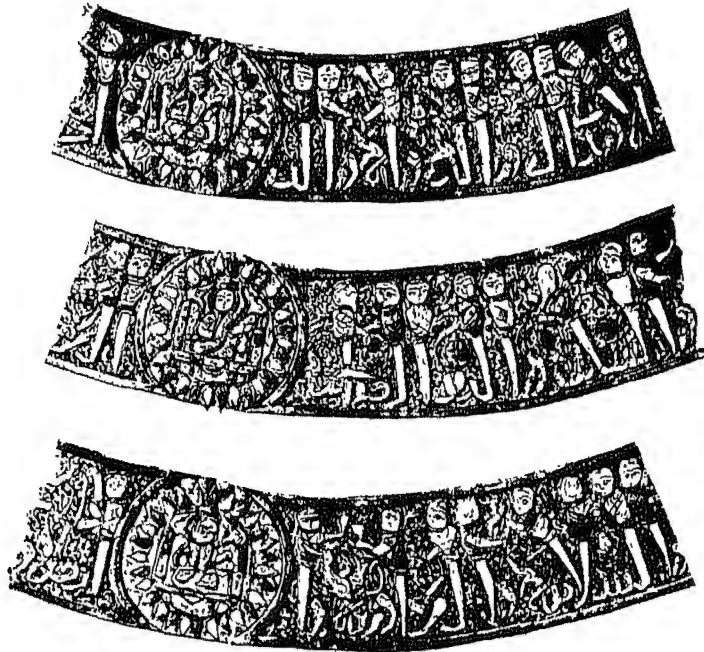
شكل - ١٢١ -

تزيينات هندسية لنافذة احد مساجد القاهرة - ١٣٤٠م - وهي مثال
للزخرفة العربية الاسلامية الهندسية التي كثر في النوافذ والابواب ،
من الخشب ، وفي الجدران من الرخام

الاسلام م - ٣٠

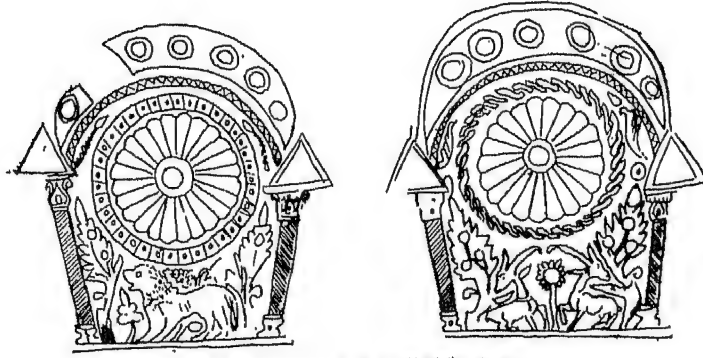
- ٤٦٥ -

ومن أمثلة ذلك تابوت قبر سكيئة (في دمشق) . وظلت هذه الصناعة محتفظة بأساليبها وانتشارها في العهد الأيوبي والمملوكي وقد تركت لنا عدداً كبيراً من المحاريب والنوافذ والحواجز والمنابر والتوابيت . (كتابوت صلاح الدين بدمشق) وقد تأثر الحفر في العهد السلجوقي في إيران وآسيا الصغرى بأساليب الشام ومصر وترك لنا تحفاً محدودة كما تأثرها حفارو الأندلس . غير أن العصر المغولي والتمموري أدخل على الزخارف الحشبية عناصر جديدة أكثر حياة وشبهاً بالطبيعة من الزخرفة الفاطمية .



شكل - ١٢٢ -

نقوش بارزة لآناء نحاسي ضخيم مرصع بالفضة ، من صنع مدينة هراة في القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نموذج لفن التكفيت والنقش والزخرفة على المعدن في العصور الإسلامية ويمتاز هذا النقش بالطراز الزخرفي الذي يحول رؤوس الاحرف الهجائية الى رؤوس بشرية وحيوانية . وهي طريقة استعملها المخرقون الغربيون في كتبهم وفي الاحرف الهجائية الاجنبية .



رسم جزيئين من الزخارف المحفورة على الأبريق المسلوب إلى مروان الثاني في دار الآثار العربية بالقاهرة

شكل - ١٢٣ -

بعض الزخارف المحفورة على إبريق معدني يعتقد أنه كان للخليفة الأموي مروان الثاني . والإبريق محفوظ في دار الآثار العربية بالقاهرة .



شكل - ١٢٤ -

إبريق مصنوع من البرونز ، في العصر الأموي القرن الثامن الميلادي من عمل فنانين فرس

وأما حفر العظم والعاج : فمعظمها كان على شكل علب أو حشوات لبعض الاعمال الفنية الأخرى . وقد بقي هذا الفن في أسر الذين كانوا يعملون به قبل الاسلام . وأمثلة التحف العاجية التي وصلتنا من صدر الاسلام لا تدل على أيد مبتدئه بالحفر . وقد وصلتنا تحف عاجية كثيرة من العصر الفاطمي ، لكن لم يصلنا من العصر الأيوبي والمملوكي إلا القليل ، ومعظم أعمال العاج في هذين العصرين كان في التطعيم . ولكن الأندلس هي التي تركت لنا أكبر عدد من التحف العاجية الموزعة بين المتاحف .

وأما في المعدن : فقد كانت التحف الاسلامية الأولى منه استمراراً لتقاليد الفن الساساني وأساليبه لحد كبير . وقد استعمل الفنانون المسلمون في أعمالهم البرونز خاصة وصنعوا منه الأباريق والمباخر وآنية الماء على أشكال الحيوان خاصة . أما الأواني الفضية من صدر الاسلام فمعظمها صحنون عليها مناظر صيد ورسوم مألوفة في الفن الساساني وأباريق من نفس النوع .

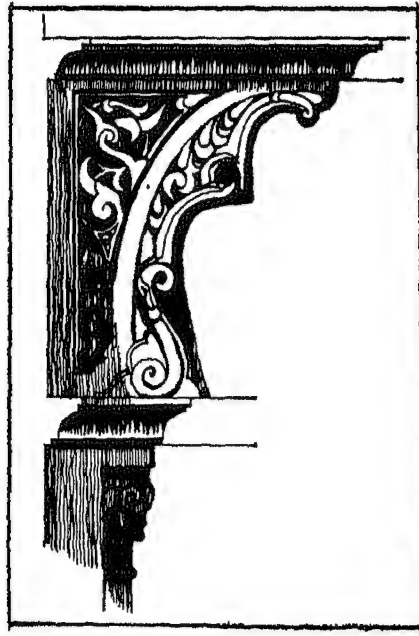
وقد ازدهرت صناعة التحف المعدنية في العهد الفاطمي وامتلأت بها قصور الخلفاء ومعظمها تماثيل للحيوانات : كالطير والأسد والظبي والأرنب ، عدا الشعائد والصواني والثريات . وكان بعضها يطعم بالميناء مع الزخارف ، وعدا قطع الحلبي التي تفنن الفاطميون في صياغتها ما بين أساور وخواتم وأقراط وأطواق .

وكان العهد السلجوقي في إيران مجال نهضة في صياغة الفنون المعدنية من البرونز والفضة والذهب . وبعضها كان يملأ بالزخارف البارزة ، كما نرى في المرايا السلجوقية وفي الصواني والشعائد الباقية والأباريق . على أن أهم الأساليب الفنية التي ازدهرت على يد الصانع السلجوقيين بإيران والجزيرة هو نقش البرونز والنحاس الأصفر بزخارف عميقة تملأ بالفضة والذهب والنحاس



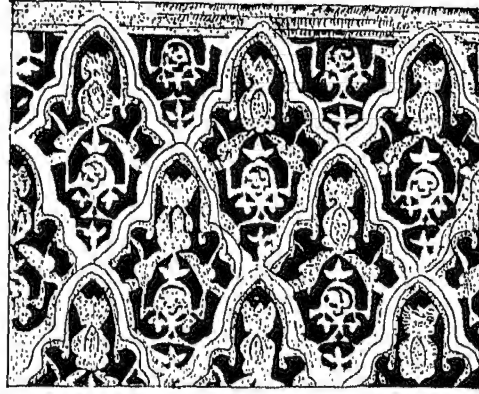
شكل - ١٢٥ -

تزيينات في منارة (مئذنة) الكتبية في مراکش



الشكل - ١٢٦ -

تزيينات من باب قصبة ودايا في الرباط



الشكل - ١٢٧ -

من زخارف قاعة الاسود في قصر الحمراء ويعد هذا القصر العربي الاسلامي اجمل قصور العالم من حيث سعته وجماله وتنوع ودقة ورشاقة وغنى زخارفه الجصية .



الشكل - ١٢٨ -

طبق منقوش بنقوش نادرة وغائرة ومكفت بالذهب مصنوع في فالنسيا في الاندلس يعد نموذجا في فن التكفيت والحفر الاسلامي الراقى (القرن الخامس عشر الميلادي) في المغرب ، او الفن الاسباني - المغربي

الأحمر وهو ما يعرف بالتكفيت . وقد عرفت بهذه الصناعة الدقيقة مدينة « الموصل » خاصة خلال القرن السابع الهجري (١٣ م) وقد هاجر بعض صناع الموصل في هذا العصر إلى دمشق وحلب والقاهرة واشتغلوا للأمرء الأيوبيين فازدهرت صناعتهم في هذه المدن ولم يزلها العصر المملوكي إلا ازدهاراً بسبب إقبال سلاطين المماليك على هذا الفن واستخدامه في الأبواب والنوافذ ومختلف الأدوات والأواني والأسرة وأدوات الكتابة .

وقد تطور حفر المعادن في إيران على نفس الأساليب في العهد المغولي والتموري . فلما كان العهد الصفوي مال الناس إلى الزخارف الهندسية والنباتية الدقيقة فملؤوا بها أدوات الحرب والأواني وما إليها .

ولانكاد نجد في أعمال الاندلس المعدنية من اختلاف عن أعمال الشام ومصر منذ العهد الفاطمي حتى المملوكي .

وأما الحفر في الحجر والجص : فقد ملأ به المسلمون معظم آثارهم المعمارية ، ولعل أبعد ما وصلنا من عصر صدر الإسلام الزخارف الحجرية في قصر (المشتى) وزخارف قصر (الخير) الغربي . وفي قبة الصخرة والمسجد الأموي بعض نماذج من الحفر الأموي على الرخام تعتمد على الزخرفة الهندسية والنباتية .

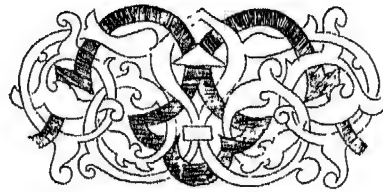
وقد استمرت أساليب الحفر والزخرفة هذه في العصر العباسي مدة حتى تم تكوّن أسلوب العباسي الخالص في القرن الخامس الهجري الذي اعتمد على الفروع النباتية المنطلقة في انشاءات وتعاريج متكررة كما نرى في تيجان الأعمدة في الرصافة والرقّة ، على الفرات ، وفي الزخارف الجصية الهامة في سامراء .

ويتمثل النحت الحجري والجصي في العهد الفاطمي ببعض التماثيل والصفائح والمحاريب التي تستخدم العناصر النباتية المحورة . أما في العهد

السلجوقي فقد كثرت استعمال الرسوم الآدمية والحيوانية في الزخرفة ولا سيما في آسيا الصغرى . لكن الأيوبيين والمماليك اتبعوا الأساليب الفاطمية وتوسعوا في الزخرفة النباتية وانتشرت المقرنصات في اسلوب البناء سواء في المساجد أو القصور أو المدارس .

والزخارف الفنية النافرة في جدران وسقوف قصر الأندلس كافية للدلالة على مبلغ التقدم الفني في هذا المجال في غرب المملكة الاسلامية .

الفسيفساء : (كلمة يونانية الأصل) وقد برع بهذا الفن صناع الشام البزنطيون الذين صنعوا للوليد بن عبد الملك فسيفساء الجامع الأموي وقبة الصخرة وهما أروع النماذج في العصر الإسلامي . وموضوعات الزخرفة فيها : كتابات ومناظر طبيعية وزخارف نباتية . ولم تزدهر هذه الصناعة بعد العهد الأموي ، والنماذج القليلة التي وصلتنا من العصر العباسي ومن عصور الدويلات المنفصلة كالتي نراها في قبة الملك الظاهر ببيرس بدمشق تدل على الانحطاط والتراجع .



الغناء والموسيقى

للنغم الحلو قوة ساحرة تأخذ بالألباب ، سواء كان ذلك في بداوة أو حضارة . وسواء أكان المغني من الإناث والذكور . ولكل جيل ألحانه ، ولكل صقع أنفاسه وطرائق إيقاعه على آلات اللهو والطرب ، من ضرب على الأوتار ، أو نقر بالدفوف ، أو نفخ في المزامير ، بين خفوت وارتفاع وامتداد وانقطاع ، وهمس وجهر ، وحدة ولين ، وآهات وأنين .

وقد وضعت لجرى الأصابع على ثقوب الآلات وأوتارها قواعد يعرفها أهل الفن ، سموها لحناً . . . وسموها صوتاً وسموها نغماً ، وسموها على الورق في عهدنا الحاضر وسميناها باسمها الأفرنجي « نوتة موسيقية » .

والغناء يكون في الشعر ، لأن الشعر له أوزان منغمة ، وقد يكون في الموشحات والزجل ، ففيها إيقاع موسيقي ووزن وقافية . . .

تطور الغناء منذ الجاهلية حتى العصر الأموي : اختلفت ضروب الغناء

عند عرب الجاهلية ، فنه الحدا للابل في مسيرها ، والهزج وقت الغارة ، والانشاد في الصلاة والأفراح والمآتم ، ولا تزال آثار الترانيم الدينية الساذجة محفوظة في التلبية من مراسيم الحج . أما طريقة إنشادهم الشعر فلا يزال أثرها في تجويد القرآن . وكان للحدا مقام رفيع عند العرب فقد استعذبته نفوسهم وهم يعدونه أقدم أنواع الغناء . وقد نشأ الغناء ، كما جاء في أسطورة ذكرها المسعودي كما يلي : قيل سقط مضر بن نزار بن معد عن جبل في بعض أسفاره فانكسرت يده فجعل يقول « يا يداه ! يا يداه ! » وكانت من أحسن الناس صوتاً

فاستوسقت الإبل وطاب لها المسير ، فاتخذته العرب حداء .

ولا ريب في أن عرب الجنوب كانت لهم أنواع خاصة من الغناء وآلات الموسيقى التي لم يصلنا عنها إلا القليل ، ومهما يكن من أمر هذا الفن في الجنوب فإنه لا يعد قسماً من تراث العرب الشماليين ومن تراثهم من أهل الحضارة الإسلامية ، وقد استعمل أهل الحجاز الدف قبل الإسلام وهو آلة موسيقية مربعة الشكل كما استعملوا كذلك القصة أو القصبة أو الزمر أو المزمار ، وكذلك كان المزهر معروفاً لديهم ، وما كاد يبدأ عهد النبي عليه السلام ، حتى كانت المؤثرات الموسيقية الأجنبية قد بدأت تظهر في بعض الأوساط العربية ، فقد اقتنى أمراء غسان أجواقاً من القيان اليونانيات ، وكان اللخميون من أهل الحيرة يعرفون العود الذي استعاره منهم أهل الحجاز . وفي بعض الأخبار أن النضر بن الحارث بن كلدة الطبيب الشاعر هو الذي أدخل العود إلى مكة من الحيرة ، وكان ينظم الشعر محاولاً أن يستميل نفوس القوم ويصرفهم عن الاستماع إلى القرآن . وهناك أخبار أخرى تجعل ابن سريج (المتوفى حوالي ٧٢٦ م) أول من أدخل العود الفارسي إلى الحجاز . وقد ذكروا أنه رأى العود لأول مرة في أيدي الفعلة الفرس الذين أقدمهم إلى الجزيرة سنة (٦٨٤ م) عبد الله بن الزبير لبناء الكعبة . وقد استعير الناي بعد ذلك وهو اسم فارسي لآلة صوتية تصنع من الخشب أيضاً حسبما أظهرت دراسات الباحثة فارمر . والظاهر أن أكثر من عني بالغناء في الجاهلية كانوا نساء ، وقد حفظ لنا صاحب الأغاني أسماء نفرٍ منهن . ومن المراني التي قالتها الخنساء الشاعرة المشهورة في رثاء أخيها صخر وضع دون شك ليغنى به في المآتم . ولا بدع ، فإن أكثر شعراء الجاهلية كانوا ينشدون أشعارهم انشاداً أشبه بالغناء .

ولم تكن حملة القرآن على الشعر باعتبار أنهم شعراء ، بل بصفتهم بمثلي
الشرك والوثنية . ولعل الرسول لم يرض كثيراً عن الموسيقى لارتباطها
بالطقوس الوثنية . وفي بعض الحديث ما يفيد أن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان
يستفز من استطاع إلى عبادته . والواقع أن السواد من متشرعي الاسلام
والفقهاء كانوا يعرضون عن الموسيقى حتى ذمها بعضهم في جميع الأحوال
ومنهم من عدّها مكروهة في الدين وإن لم تكن حراماً . إلا أن نظرة
جمهرة الناس إلى الأمر يعبر عنها القول المأثور : « الخمر كالجسد والسماع
كالروح والسرور ولدهما » .

وبعد أن زالت الروعة الأولى التي أوحاها ظهور الإسلام اتجه التطور
الاجتماعي في الحجاز إلى ناحية تذوق الجمال وبالأخص في عهد عثمان أول
خليفة عاش في مجبوحة من المال والرفاه . ثم أتقن القوم فن الطباق بين
الصوت والآلة الموسيقية وأخذوا فيما يسميه العرب موطداً في الحجاز ، ظهر
لأول مرة طبقة من الرجال ممن احترفوا الموسيقى وكانوا يحنون أيديهم
ويتقصفون تقصف النساء فعرفوا بالخنثين . منهم طويس (أي الطاووس
الصغير ٦٣٢ - ٧١٥ واسمه الأصلي : عيسى بن عبد الله الذائب) أول من
غنى بالمدينة فبدأ الغناء في الإسلام ويظن ، أن طويساً أدخل الإيقاع إلى
الغناء العربي . وأنه أول من غنى بالعربية مصحوباً بالآلة الموسيقية المعروفة
بالدف . وكان جيل المغنين الأول في الاسلام نقرأ من الحلفاء الأجانب
وعلى رأسهم طويس . ولطويس عدد من التلامذة أشهرهم ابن سريج أحد
المغنين الأربعة العظام في الاسلام ، وقد عزا الرواة إليه إدخال العود الفارسي
إلى الحجاز والتوقيع بالقضيب لإرشاداً للضارين بين آلات الموسيقى في
الحفلات الموسيقية العامة التي كان يديرها . ثم ابن سريج وهو تركي الأب
وكان مولى لسكينة بنت الحسين ، وقد درس ابن سريج أيضاً على سعيد

ابن مسجع (المتوفى حوالي ٧١٤ م) المكي الأسود وهو مولى أيضاً .
وكان سعيد أول موسيقي ظهر في مكة ولعله أعظم من ظهر في
العهد الأموي ، فقد قيل إنه رحل إلى الشام وفارس وأخذ ألحان الروم
والفرس فنقلها إلى غناء العرب ، والظاهر أنه نظم الموسيقى العربية في
ناحيتها النظرية والعملية في العهد الأول من تاريخ المسلمين ، ومن الذين
أخذوا عنه الغريز وهو من مولدي البربر علمه ابن سريج أيضاً وأصبح
بعد معلمه الثاني من المغنين الأربعة المشهورين في الاسلام في ذلك العهد .
أما المغنيان الآخريان فهما ابن محرز (المتوفى حوالي ٧١٥ م) وهو فارسي
الأصل وكان يقال له « صناع العرب » ومعبد (المتوفى ٧٤٣ م) وكان
خلاصياً من المدينة ، ونال حظوة في بلاط الوليد الأول ويزيد الثاني والوليد
الثاني وكان قبل انتقاله إلى العاصمة دمشق يحول مغنياً في أنحاء الجزيرة . ومن
المغنين الأوائل سائب بن خاتر واسمه أبو جعفر سائب بن يسار (توفي ٦٣ هـ)
من أهل المدينة ، ولم يكن يضرب بالعود ، وإنما كان يقرع بالقضيب ويغني
مرتجلاً . ولما قدم نشيط الفارسي على المدينة وغنى بالفارسية صنع سائب خاتر
مثل ذلك الغناء الفارسي بالعربية في أبيات مطلعها : « لمن الديار رسومها
قفر » فكان ذلك أول صوت غني في الاسلام من الغناء المتقن الصنعة
الممزوج بالألحان الفارسية . ثم أن نشيطاً تعلم الغناء العربي من سائب خاتر
وعلم فيما بعد عدداً من المغنين بالعربية منهم عزة الميلاء ، وجميلة ، ومعبد ،
وابن سريج .

وأحمد بن أسامة الهمزاني (توفي ٨٢ هـ / ٧٠١ م) أول من توسع في
النصب (ضرب من الغناء أرق من الحدا) أي أول من نقل الغناء من
الحدا (التغميم البسيط وراء الابل) إلى شيء من العمل الفني وكان
يغني بالطنبور .

وكان من القيان عزة الميلاد ، وكانت تضرب بالزهر والمعزقة (تشبه العود أو الطنبور) وهما من آلات الجاهلية . وجميلة (المتوفاة نحو ٣٧ هـ) وهي مولاة مدنية تزعمت الفن في الجيل الأول وكانت دارها موئلاً لأرباب الموسيقى والغناء بمكة وتلمذ عليها كثيرون منهم . ومن أبرز الذين كانوا يحضرون حفلاتها شاعر الحب المشهور عمر بن أبي ربيعة . ومن تلميذاتها حبابة وسلامة محظيتا يزيد الثاني . ولعل أروع حادثة ذكرها الرواة عن حياتها المترعة بالبدايع تلك الزيارة التي قامت بها إلى مكة فخرج منها حذاق المغنين والمغنيات وجماعة من الشعراء والأشراف وغيرهم من الرجال والنساء المعجبين بها يشيعونها أو يحجون معها ، وقد ركبوا على الإبل في الهودج والقباب وتخايروا في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظريف ، فما أن أشرفت الإبل على مكة حتى خرج الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم حتى قضت حجبها فعادت وعاد معها جمع أكثر من جمعها فتلقاها أهل المدينة ودخلت بموكب أحسن مما خرجت به وتوافد عليها الناس مسلمين لا يستكف من ذلك كبير ولا صغير ...

وجمعت جميلة عدداً من الميزات ، احلتها هذه المكانة في نفوس مواطنيها فقد كانت تجمع من حسن الخلقة ورقة الخلق والطبع ما يزيد انوثتها قوة ، ولحنها تأثيراً ، وكانت الى ذلك مريحة شديدة المرح ، يسود مجالسها النكتة ويغلب عليها التواضع ، مع ما كانت عليه من ثقافة فنية وادبية ، ومقدرة على النقد الفني ، وحكم على الأذواق ، ولطالما اجتمع عندها كبار المغنين والمغنيات فاسمعتهم واسمعوها ، وحكموا لها وحكمت لهم . وقد اجتمع عندها ذات مرة شلة من المغنين فقالت لهم جميلة : كلسم بحسن

وكلكم تجيد في معناه ومذهبه . قال احدهم : ليس هذا بمقنع دون التفضيل
فقلت : اما انت يا ابا يحيى فتضحك الشكلى بحسن صوتك ومشاكلته للنفوس
واما انت يا ابا عباد ، فنسيج وحدك بجودة تأليفك ، وحسن نظمك مع
عذوبة غنائك .. واما انت يا ابا عثمان فلك اولى هذا الامر فضيلة . واما
انت يا ابا جعفر فمع الخلفاء تصلح . واما انت يا ابا الخطاب فلو قدمت
احداً على نفسي لقدمتك . وقد قال فيها معبد : اصل الغناء جميلة ، وفرعه
نحن .. ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين ..

ويظهر ان جميلة عمدت احياناً إلى الغناء الجوقي فذكرت كتب الادب
انها أمرت جواربها فضربن على خمسين وترّاً فتزلزلت الدار ، ثم غنت هي
على عودها فجرت من العيون الدموع . وكانت تجمع جواربها ليغزفن
لحناً واحداً ويغنين صوتاً واحداً .

وكانت للموسيقى حفلات ومجالس زاهرة في منازل سيدات الطبقة
الارستقراطية يؤمها جماهير من غواة الفن ومريديه ، وكان العود الفارسي
المصنوع من الحشب قد أخذ يحتل مكان العود المصنوع سابقاً في الجزيرة
من الجلد ، وكان من الآلات الموسيقية الوترية المستجبة عندهم المعروفة
آلة تشبه القانون ومنها أيضاً القصبة والمزمار والبوق . أما الآلات
التي تقوم على مبدأ النقر فهي الدف وهو مربع الشكل وكانت النساء
أسبق إلى الالتفات اليه واستعماله ، والطبل والصنج ، وأما أنغام تقطيع
الأصوات « النوتات » الموسيقية فقد كانوا يتناقلونها شفهاً من جيل إلى
جيل ولهذا ضاعت كلها . فكتاب الأغاني مثلاً طافح بالأبيات التي كان
المغنون يغنونها أيام الامويين ، إلا أنه لا يثبت لنا « نوتا » واحداً نستدل
منه على نغم صوت الغناء الذي كان رائجاً ، وكان عميد المغنين في العراق
في ذلك العهد حنين الجبوري النصراني وقد روي أنه شخص إلى الحجاز
زائراً فاستقبلته سكيئة بنت الحسين وأذنت للناس إذناً عاماً فغصت بهم

دارها ، ولم يريوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ ، وصعدوا فوق السطح
يسمعون صوته ، وازدحموا عليه فسقط الرواق على من تحته ومات حنين
تحت الردم . وتوفرت في مواسم الحج الفرس لمن في الحجاز من
أهل الموسيقى والغناء لظهار مواهبهم أمام وفود الحجاج . ولقد كان من
المألوف في بعض الأحيان أن يتوجه المغنون كي يلاقوا موكب الحجاج
ويطربوه أثناء السير . وفي الأغاني وصف مشهد هذه المواكب التي شهدها
موسم الحج كان بطله زعيم شعراء الحجاز في ذلك العصر عمر بن أبي
ربيعه . فقد خرج في أحسن هيئة ، عليه حلة موشاة ومعه مغنيه ابن سريج
وجعل يتعرض لمن يرى من الحسان حتى أمسوا فرفع ابن سريج صوته
يغني في شعر عمر فسمعه الركبان وجعلوا يصيحون به بإصاحب الصوت
أما تتقي الله قد حبست الناس عن مناسكهم .

وهكذا أصبحت مكة وبنوع أخص المدينة موئلاً للموسيقى في العصر
الأموي ومربعاً لهوائها ، وأم بلاط دمشق نفر من تخرجوا في فنون
الموسيقى من هاتين المدينتين . ولم يكن ليجدي نفعاً تشدد المتزمتين
والحافظين من العلماء الذين كانوا يكرهون السماع ويقرنون الموسيقى
بالشرب والقمار ويستشهدون بالأحاديث النبوية التي تذهب إلى أن هذه
الملاهي هي نشر الوسائل التي يستدرج الشيطان بها أبناء آدم . إنما كانت
مكانة الموسيقى في القلوب أعظم من أن تقاوم بشيء من هذه الذرائع ،
لا سيما وأن أرباب الموسيقى أنفسهم كانوا يستندون بدورهم إلى أحاديث
نبوية تدعمهم ، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فزعموا أن الشعر والموسيقى
والغناء ليس من الضروري أن تحط من قدر الانسان بل إن لها قسطاً
من التأثير في التهذيب النفسي إذ تبعث على مكالم الأخلاق من اصطناع
المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب . وكان
يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي واستجلب المغنين إلى الشام وكان

شاعراً فجعل يقيم الحفلات الكبرى في بلاطه، ومن ثم أصبح الغناء والشرب صنوين متآلفين في تاريخ الدول العربية . وشمل عبد الملك برعايته ابن مسحج من مغني الحجاز ، واستقدم ابنه الوليد ، وهو من رعاة الفن، ابن سريج ومعبداً إلى العاصمة واحتفى بهما ، ثم أعاد يزيد الثاني الشعر والموسيقى إلى سابق مركزهما بعد أن كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الورع المحافظ قد حال دونها . وقد عول يزيد على مواهب حباية وسلامة، واصطفى هشام حنيناً الحيري وأنعم عليه . كذلك كان الوليد الثاني صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، فاستقدم المغنين من البلدان المختلفة وأظهر العزف على العود واستقبل في بلاطه عدداً من أرباب الموسيقى والغناء منهم معبد المشهور ، ووافقت ولايته زمن ازدهار الموسيقى في عاصمتي الحجاز فلم يجيء آخر العصر الأموي حتى كان حب الغناء قد سرى في نفوس الناس خاصتها وعامتها ، فاتخذ العباسيون ذلك الأمر سلاحاً على الفت من ساعد خصومهم الأمويين وقاموا ينشرون دعوتهم ويتوعدون « أعداء الله » .

الغناء في العصر العباسي : ازداد إقبال الناس على اختلاف طبقاتهم على الغناء في العصر العباسي . وقد أخذ المهدي الخليفة العباسي نفسه بدعاية هذا الفن فبدأ حيث انتهى الخلفاء الأمويون المتأخرون ، وأحضر إليه سياتاً المكي (٧٣٩ - ٨٥٠ م) صاحب الصوت الشجي الذي قالوا في صوته « أدفا للمقرور من حمام محمى » ، ثم أحضر أيضاً إبراهيم الموصلية تلميذ سيات (٧٤٢ - ٨٠٤ م) الذي غدا بعد استاذة إمام الأصول الموسيقية الكلاسيكية عند العرب . وكان إبراهيم هذا من أسرة فارسية شريفة وقد خطفته خارج الموصل في حدثاته عصابة من الأسقياء فتعلم بعض أغانيهم ، وهو أول من

وقع الايقاع بالقضيب ، وبلغت براعته بالموسيقى أنه كان يستطيع إذا أخرجت اليه ثلاثون جارية فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين في الأوتار وتراً غير مستوٍ أن يشير إلى إحداهن قائلاً يا فلانة شدي مثلك فتشده وتستوي الأوتار . ثم جاء الرشيد بعد المهدي فاستلحق ابراهيم به واتخذته نديماً ومنحه (١٥٠) ألف درهم دفعة واحدة ، وصار يصله بعشرة آلاف درهم كل شهر ، وقد أعطاه يوماً مئة ألف درهم من صوت واحد غناه فأعجبه . وكان لابراهيم منافس دونه مرتبة هو ابن جامع القرشي ، وهو ابن سيات بالتبني ، وذكر أن ابراهيم أسد المغنين تصرفاً في الغناء وابن جامع أحلام نعمة . وقد سأل الرشيد أحد المقربين اليه من المغنين : « مايقول في ابن جامع ؟ » فأجاب : « وما أقول في العسل الذي حينما ذقته فهو طيب » .

وكان بلاط الرشيد بأبته وأناقته قد أخذ يرقى الموسيقى والغناء كما رعى العلم والفن فأصبح موئل الغناء ومقصد أرباب الموسيقى . وقد زها في ظله نفر من أقطاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق يرافقهم طائفة من عبيد وإماء . وقد تركت هذه العصابة من أهل الفن آثاراً أدبية من قصص الغناء في الكتب كما نرى في « الاغاني » و « العقد الفريد » و « الفهرست » و « نهاية الأرب » و « ألف ليلة وليلة » وقد روي أنه اشترك في مهرجان موسيقي . كبير الفنان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد أما ابنه الامين فقد أحيا مرة ليلة لهو ، رقص فيها أهل البلاط ذكوراً وإناثاً حتى مطلع الفجر ، وبينما كان جند المأمون محيطاً ببغداد كان الامين جالساً على ضفة دجلة وحوله خواص جواريه يطربنه . ومن المغنين الذين رعاهم الرشيد مخارق (المتوفى ٨٥٤ م) وهو تلميذ ابراهيم الموصلي وكانت قد اشترته إحدى المغنيات وقد حدث أن سمعته ينادي على اللحم الذي

يبيعه أبوه فأعجبت بصوته ثم باعته من آل الزبير وانتهى أمره أن أصبح من عبيد الرشيد فأعتقه ووصله بمئة ألف دينار وأدناه من مجلسه . وقد روي عن مخارق أنه توسط دجلة في إحدى الليالي واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من ملاح ولا غلام ولا خادم إلا بكى وظهرت الشموع والسرج من جانبي دجلة في صحن القصور الدور يتساعى بين يدي أهلها يستمعون غناؤه وخرج مرة إلى باب الكناسة ببغداد ، والناس يرتحلون للخروج إلى مكة للحج ، فنظر إلى كثرتهم وازدحامهم فقال لبعض صحبه : قد جاء في الخبر أن ابن سريج كان يتغنى في أيام الحج ، والناس يبنى ، فيستوقفهم بغناؤه ، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس جميعاً ، لتعلموا أنه لم يكن ليفضلني إلا بصنعتي دون صوته ، ثم أنه اندفع يؤذن ، فاستوقف الناس واستلهم وتقاطروا نحوه ... وسمعه أبو العتاهية الشاعر يوماً فقال له : لقد رقت حتى كدت أن احسوك . فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة .

وكان الخليفة الواثق يقول : ما غناني مخارق قط الا قدرت انه من قلبي خلق ولا غناني اسحاق إلا ظننت انه قد زيد في ملكي ملك آخر . وكان من ندماء المأمون والمتوكل إسحاق بن إبراهيم الموصلي (٧٦٧ - ٨٥٠م) عميد أهل الموسيقى في عصره . وقد تمثلت فيه بعد أبيه روح الموسيقى العربية الكلاسيكية . أما مكانته كموسيقي ملم بالصناعة بوجه عام فليس ما يدانيها بحيث قيل فيه إنه « أعظم من أنجبهم الاسلام في هذا الفن » وقد ادعى إسحاق كما ادعى أبوه من قبل وكما ادعى زرياب بعد ، أن الجن كانت تلهمه الألحان إن هؤلاء وسواهم من أرباب الموسيقى الذين نشؤوا في ظلال الخلفاء الوارفة ولا تزال أسماؤهم مقرونة بأسماء الخلفاء كانوا أكثر من موسيقيين . فقد

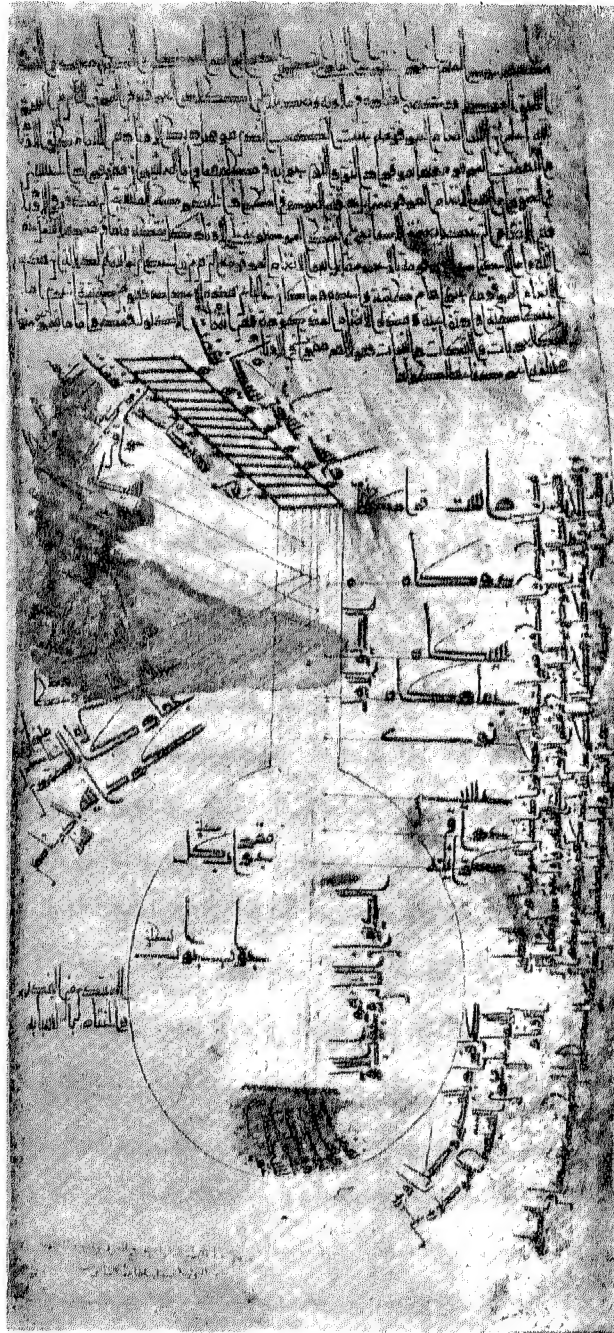
منحوا من الذكاء والفطنة ومصرعة الحاطر وقوة الحافظة قدراً كبيراً .
وكانوا فوق ذلك يحفظون كثيراً من الأشعار المختارة والنوادر المستملحة
وغير ذلك من ضروب الفنون ، فهم إذن مغنون وشعراء وعلماء تثقفوا بالثقافة
العلمية في عصرهم . ويأتي بعد هؤلاء مرتبة الضاربون ، وأهمهم أصحاب
الأعواد ، أما الضاربون على الرباب فقد كانوا أدنى مرتبة . ويولي الضاربين
طبقة القيان اللآتي كن يشتركن في الحفلات من وراء الستار وقد كن من
الزينة الضرورية في بيوت الحريم . وأصبحت تربيتهن وتثقيفهن من الصناعات
الهامة ، وقد ربي إسحاق جارية حتى برعت فبذل فيها رسول صاحب مصر
عشرة آلاف دينار فلم يبعها ، وسأومه رسول امبراطور الروم فيها على
ثلاثين الفأثم أوصله رسول صاحب خراسان إلى أربعين ألف دينار ، واحتال
إسحاق على أمره معهم بأن أعتقها وتزوجها . لقد فاق بنو العباس في بغداد
بني أمية في دمشق بمن خرج منهم من المغنين والمنشدين والضاربين على
العود فمن آل العباس نبغ ابراهيم بن المهدي (أخو الرشيد) الذي نازع
المأمون الولاية سنة ٨١٧ م وقد اكتسب شهرة عظيمة في الموسيقى والغناء
أما الواثق فكان يضرب على العود وقد صنع مئة صوت ، فكان بذلك
أول موسيقي بين الخلفاء ، ومن بعده قام المنتصر والمعتز فأظهرا مقدرة في
الشعر والموسيقى ، إلا أن الخليفة الذي برع في الموسيقى هو المعتد وقد
لقى الجغرافي الشهير ابن خردادبة في حضرته خطبة في الموسيقى والرقص
تعد من الأصول الهامة التي بين أيدينا عن حالة هذين الفنين في
ذلك العصر .

الموسيقى النظرية في المشرق : وكان هناك من جملة الكتب
اليونانية الكثيرة التي نقلت إلى العربية في العصر العباسي بضعة كتب

تبحث في الموسيقى النظرية . منها اثنان لأرسطو نقلها إلى العربية الطيب
النسطوري الشهير حنين بن إسحاق الواحد تحت عنوان « كتاب المسائل »
والثاني « كتاب النفس » وقد ترجم حنين كتاباً جالينوس بعنوان « كتاب
الصوت » وبما ينسب أصله إلى اقليدس كتابان في العربية هما « كتاب
النغم » ولم يكن من تأليف اقليدس أصلاً و « كتاب القانون » ، أما
ارستوكسنس من رجال القرن الرابع قبل الميلاد فقد عرف خاصة
بـ « كتاب الايقاع » كما أن نيكوماكس بن أرسطو عرف « بكتاب
الموسيقى الكبير » . وقد عدّ « إخوان الصفا » ، وكان بعضهم فيما يظهر
من أصحاب النظريات في الموسيقى ، هذا الفن فرعاً من الرياضيات ،
وبجلاؤا فيثاغورس باعتباره مؤسساً للموسيقى النظرية . وقد استمد العرب
من هذه الكتب وغيرها من كتب الاغريق آراءهم العلمية في الموسيقى
وأصبحت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادئ نظرية الصوت الفيزيائية والفسولوجية ؛
ومن هنا كانت الناحية العلمية الرياضية للموسيقى العربية مستمدة من أصول
يونانية ، أما الناحية العملية فمأذجها كما أظهرت أبحاث فارمر عربية بجثة ،
وفي هذا العهد استعيرت لفظة موسيقي (وبعدها موسيقى) عن اليونانية
وأطلقت على مناحي العلم النظرية وخصصت لفظة « الغناء » القديمة
للفن العملي وقد كانت إلى ذلك الزمن تفيد الغناء والموسيقى معاً ، أما
لفظا « قيثارة » و « أرغن » وكثير من الألفاظ الفنية اليونانية الأصل
فإنها لا تزال تستعمل في العربية حتى الآن ، ومن الواضح أن الأرغن جيء
به من بلاط البيزنطيين . ولقد عاش في القرن الثاني عشر اثنان من صناع
الأرغن هما أبو المجد بن أبي الحكم الدمشقي (المتوفى ١١٨٠ م) وأبو زكريا
يحيى الياصمي الذي اتصل بصلاح الدين وكان في خدمته . وكان زعيم

الشكل - ١٢٩ -

قطعة فريدة من
الرق محفوظة
في مكتبة
تشستر بيتي
فيها صورة
العود المثنى
ويذكر النص
بأنه آخر
اختراع الامام
الفارابي .
كما يذكر
صفاته وبعض
التعليمات
الموسيقية .



الكتاب الموسيقيين الذين تبعوا المدرسة الاغريقية الفيلسوف الكندي الذي زها في الشطر الثاني من القرن التاسع م وتظهر في كتبه أول معالم الأثر اليوناني . ونجد في واحد من الكتب التسعة المنسوبة اليه أول استعمال صريح لعلامات الموسيقى عند العرب . ولم يكن الكندي وحيداً في علم الموسيقى النظرية بل إن عدداً من رجال الفلسفة الاسلامية والطب كانوا كذلك أيضاً . وقد وضع الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥ م) كتاباً في هذا الفن أشار اليه ابن أبي أصيبعة ، وليس غريباً أن يكون قد وضع غير كتاب واحد . وأما الفارابي (المتوفى ٩٥٠ م) فقد كان يجيد الضرب على العود وهو أعظم من كتب في أصول الموسيقى بين كتاب العصور الوسطى فإنه علاوة عن استغاله باخراج طائفة من الشروح على مختلف كتب اقليدس المفقودة اليوم قد وضع ثلاثة أبحاث مبتكرة منها « كتاب الموسيقى الكبير » وكان أهم مرجع في الشرق ، أما في الغرب فأعظم كتبه أثراً وأكثرها شهرة هو كتاب « إحصاء العلوم » وهو أقدم كتاب في هذا الموضوع وقد نقل إلى اللاتينية . وقد نقلت أيضاً إلى اللاتينية تأليف ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م) الذي لخص كتاباً سابقة لعهد وعقد في « الشفاء » بحثاً في الموسيقى ، وتأليف ابن رشد (المتوفى ١١٩٨ م) وأصبحت هذه التأليف كتاباً مدرسية في أوروبا الغربية . أما الغزالي فقد كان لدفاعه عن السماع الأثر الأكبر فيما بلغته الموسيقى من شأن في الطرق الصوفية . .

وبما يؤسف له أن معظم هذه الرسائل الفنية قد فقدت أصولها العربية : فالموسيقى العربية وعلاماتها وما كانت تقوم عليه من أصول النغم والايقاع ظلت تنقل بالسماع من جيل إلى جيل إلى أن تلاشى أمرها . إن الأغاني العربية اليوم فقيرة بالأنغام غنية بالايقاع ، وليس بين أرباب الموسيقى العربية الحديثة من يستطيع أن يشرح جلياً الكتب الباقية في موضوع الموسيقى

القديمة أو يفقه تماماً علاماتها القديمة وتعابيرها الفنية الموضوعة بها . ويمكن أن نرجع كثيراً من هذه المصطلحات إلى أصول فارسية أو هندية ...

موسيقى الاندلس :

كان زرياب واضع حجر الأساس في فن الموسيقى الأندلسية وهو تلميذ مدرسة الموصلي البغدادية . وقد نزل زرياب قرطبة عام ٨٢٢ م واستطاع بفضل اتساع معرفته بالموسيقى والأصوات التي لا يعرفها أحد غيره وتضلعه في العلوم الطبيعية وشخصيته الجذابة ولطف معاشرته وظرفه وتأدبه وحضور ذهنه أن يكون مثال الرجل الاجتماعي الممتاز . وكان في قرطبة تحت رعاية عبد الرحمن الثاني عندما اخترع زرياب مضرب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مضرب الخشب ، فأبدع في ذلك للطف ضرب الريشة ونقائه وخفته على الاصبع . وزاد في أوتار عوده وترّاً خامساً ، وأنشأ مدرسة غدت معبداً كبيراً للموسيقى الأندلسية ، ثم تبعها مدارس أخرى في إشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة ويتلو زرياب مرتبة أبو القاسم عباس بن فرناس (المتوفى ٨٨٨ م) وإليه يعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقية إلى إسبانيا وتعميمها ، ويقال إنه أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة . وإنه صنع آلة في منزله على هيئة السماء يحيل للنظر فيها أنه يرى النجوم والغيوم والبروق .

وكان ابن فرناس أول رجل في تاريخ العرب حاول الطيران بطريقة علمية . وكانت عدته عبارة عن رداء من ريش كسا نفسه به وجعل له فيه جناحين ، وقد قيل انه طار في الجو مسافة ولكنه لم يحسن الاحتياط في وقوعه فتأذى في مؤخرته لأنه لم يعمل له ذنباً . على أن الموسيقى النظرية والتطبيقية التي أدخلها زرياب وابن فرناس كانت فارسية عربية ،

وبتوالي الأعوام أخذت أصول الموسيقى اليونانية والفيثاغورية تحل محلها ، حين كانت الكتب اليونانية التي تدور حول هذا الموضوع تنقل إلى العربية . وبما يدل على سلطان الموسيقى والألحان على قلوب أهل الأندلس ما أورده ابن عبد ربّه في العقد الفريد عن فضلها قال : « هي الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس ورييع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وأنس الوحيد وزاد الراكب . . . وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب وقد يكي الرجل بها على خطيئته ويرفق القلب من قسوته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره » .

وعلى العموم فإن المسلمين الغربيين كانوا أكثر ميلاً إلى فن السماع والضرب من زملائهم الشرقيين . ولم يأت آخر القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقى الأندلسية قد كشفت شهرة بغداد في هذا الموضوع ، وفي هذه الحقبة أصبحت اشبيلية تحت حكم بني عباد الذين حكموا قرطبة أيضاً مدة وجيزة مركزاً للموسيقى والغناء وغيرهما من ضروب اللّهو التي تقرن عادة بعصور العرب الزاهية في ربوع الأندلس . فالمعتمد العبادي لم يكن شاعراً ملها فحسب بل كان يحسن الانشاد أيضاً والضرب على العود ، واشتهرت عاصمة بني عباد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها ، وهناك رسالة في الموسيقى ترجع إلى عصر المرابطين للفيلسوف ابن ماجه (المتوفى ١١٣٨ م) الذي زها في اشبيلية وفاس وهي مفقودة الآن ، ولكنها كانت عند أهل الغرب توازي من حيث قيمتها وأهميتها الرسالة التي ألفها الفارابي في الشرق ، وظهر في عهد الموحدين فيلسوف آخر هو

ابن سبعين « المتوفى ١٢٦٩م » بحث في تناسب الأنغام الموسيقية في كتاب الأدوار المنسوب « منه نسخة وحيدة محفوظة في القاهرة ، وحدث مرة في مناظرة جرت في حضرة المنصور ثالث ملوك الموحدين بين ابن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر في المفاضلة بين قرطبة واشبيلية أن رد ابن رشد على ابن زهر بهذا الكلام مدافعاً عن قرطبة :

ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية ...

أثرها في أوروبا : وكان كلما ازداد ارتياح عامة الشعب من الاسبان والمولدين إلى النماذج الغنائية العربية ازدادت الأغاني العربية انتشاراً وشعبية في أنحاء اسبانيا ، وقد لمع من العرب موسيقيون في قصور الملوك بقشتالة والأرغون ، وعرف كثيرون من أهل الرقص والغناء العرب في اسبانيا بعد سقوط غرناطة بيد الأفرنج بزمان طويل ، وكانوا لا يزالون يعملون بواسطة فنههم على تسليّة أبناء اسبانيا والبرتغال ، وتشير أبحاث ريبيرا الأخيرة إلى أن الموسيقى الشعبية في اسبانيا بل موسيقى الجنوب الغربي من أوروبا بأسرها في القرن الثالث عشر وما بعده كانت كالروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في الأقاليم مشتقة من منبع أندلسي انبثق في نشأته من مصادر عربية وفارسية وبيزنطية ويونانية ، كما انتقلت الفلسفة وعلم الرياضيات والطب من بلاد الإغريق ورومة إلى بيزنطة وفارس وبغداد ثم إلى اسبانيا ومنها إلى أنحاء أوروبا انتقلت أيضاً عدة فروع من الموسيقى النظرية والعملية العربية إلى أوروبا . والواقع أن كثيراً من الآلات الظاهرة في الرسوم الاسبانية الدقيقة وصور بعض الأشخاص الضاربين عليها هي دون جدال إسلامية الأصل ، ومن الرسوم الاسبانية الدقيقة ما يظهر فيها موسيقيون عرب يلعبون

الشطرنج . وقد ورد في اللغة الاسبانية نفسها أول وصف لهذه اللعبة بلغة أوروبية وذلك في مؤلف لألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون من عام ١٢٥٢ إلى ١٢٨٢ م . وكان الفونسو من أعظم دعاة العلوم الاسلامية في اسبانيا النصرانية واليه يرجع الفضل في وضع تلك المجموعة الشعرية الرائعة التي ترجع موسيقاها في رأي ريبير إلى أصل اندلسي اسلامي ، وقد أثر الشعر العربي على ظهور طبقة « التروبادور » الذين أخذوا يحاكون منشدي العرب ، لا من حيث العاطفة والطبيعة فحسب ، بل من حيث الصور والأشكال نفسها التي أخرجوا فيها أناشيدهم ، وقد كانت بعض العناوين التي أطلقها شعراء البروفنسال هؤلاء على مقطوعاتهم الغنائية ترجمة لعناوين عربية . والراجح أن أدلارد أوف بات الذي درس الموسيقى في باريس هو الذي ترجم رسالة الخوارزمي في الرياضيات وكان فيها قسم عن الموسيقى . ومن هنا فإن هذه الرسالة هي من أقدم الرسائل التي أدخلت الموسيقى العربية إلى عالم اللاتينية . وكان في حوزة العرب منذ أيام ادلارد في الشطر الأول من القرن الثاني عشر رسائل اغريقية قديمة تعنى بالموسيقى مترجمة إلى العربية؛ وعرفوا كذلك مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن ماجه التي وضعوها هم أنفسهم في هذا الفن . ولم يأت آخر القرن حتى أصبحت أكثر هذه المؤلفات الجديدة معروفة في أوروبا بفضل ترجماتها اللاتينية التي وضعت في طليطة . وبما يجدر ذكره هنا أنه في هذا العهد نفسه ظهر نظام جديد للموسيقى المسيحية الأوربية يقوم على أن للنوتات والارقام الموسيقية قيمةً وقتية محدودة أو نسبة معينة فيما بينها .

وأول من شرح حقيقة هذه الموسيقى القياسية أو الغناء المقدس ، رجل غامض الهوية اسمه فرانكو الكولوني « نحو ١١٩٠ م » ، وليست أرقامه

الموسيقى المعروفة بالأرقام الفرنكونية لتختلف في أصلها عن أرقامنا الحديثة . ولكن هذه الموسيقى القياسية نفسها كانت تشكل قسماً قائماً بذاته من الموسيقى العربية وكانت تعرف باسم الايقاع ، وذلك قبل عصر فرانكو المذكور بما لا يقل عن أربعة قرون ، وقد أفاض الكندي (لمع نحو ٨٧٠ م) في ايضاحها ، وقد ظهرت بعد فرانكو رسالة منسوبة إلى جون أوف غارلند عولجت فيها أصول الـ « أوكيتس » أي « أسلوب التوقيع » ، ولعل لفظة « أوكيتس » نفسها هي تحريف لفظة ايقاعات العربية . والراجح أن الموسيقى القياسية هي أعظم ما نفع به العرب هذا الفن ، ولم تكن المأثرة الوحيدة في هذا المضمار ، زد على هذا أن الآتين اللتين كان لهم السهم الأوفر في تقدم فن الموسيقى في الغرب هما « العود والرباب » وكلاهما دخيلان نقلها العرب إلى غربي أوروبا .

حياة الترف في المدن : إذا كانت الصحراء باقليمها الجاف تدعو سكانها لأن يعيشوا عيشة جافة خشنة ، ولأن يكافحوا في سبيل الحياة ، فإن حياة السهول الحصبة والمياه الجارية ، والاقليم المعتدل اللطيف ، تساعد سكانها على أن ينعموا في ظلها الوفرة ، وخيراتها المتدفقة ، وكان العرب الأوائل الذين خرجوا من الجزيرة العربية وفتحوا بلاد الهلال الخصيب وأطرافه الشرقية والغربية ، لا يزال تغاب عليهم البداوة ، والحياة الصحراوية ، ولا يزال الدين الجديد مسيطراً على كل حركة من حركاتهم ، فنظروا إلى متاع الدنيا وزخرفها نظرة ازدراء ، ولم ينغمسوا في نعيم ، اللهم إلا في بعض مظاهر ، كاحتفاظ ببعض النفائس التي غنموها في الحرب ، أو باتخاذ كثير من الرقيق والاماء ، واتخاذ بعض الدور الحجرية العالية ، وتحسين أنواع الطعام . وكان معاوية قد قلد الاكسرة بظاهر السلطان وأبهة الملك ، حتى يظهر — كما قاله لعمر بن

الخطاب - قوة المسلمين وعظمة أمرائهم . وكان العصر الأموي عصر نزاع بين حياة البداوة الجافة ، وبين الحياة المتحضرة المنعمة ، فكانت هناك خلفاء يشجعون الغناء والموسيقى ، ويقضون ساعات من اللهو والمجون كيزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك ، وخلفاء أتقوا يقضون أيامهم في الجد وإدارة الملك كمعاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وكان من ورائهم الشعب ، تارة تظهر عليه مظاهر التمتع بحياة الترف ، وأخرى تظهر عليه مظاهر الورع والتقوى والزهد بالدنيا . ولما نقلت العاصمة الإسلامية إلى بغداد ، وطغى الفرس ثم الأتراك والبهيمون والسلاجقة على السلطان والحكم ، وانفصلت الدول الصغيرة واستقلت ، وقامت دولة الأمويين بالأندلس ، وانتشرت التجارة وتحسنت طرق المواصلات ، وتدفقت الأموال بكميات هائلة ، واغتنمت طبقة كثيرة العدد ... تتمتع السكان بحياة من الترف لم يعرف في العصر الإسلامي الأول ، وانتشرت عادات وتقاليد جديدة تريد الإنسان انغماساً في اللهو والمجون ، وتمسكاً بالحياة .. ولكن النزعة الدينية الشديدة لم تنعدم ، فبقي الصراع بين إرخاء العنان للجسد للتمتع بالذات الدنيوية ، وبين تقديس الروح وكبح جماح النفس وكثرت مظاهر الفريق الأول في المدن وفي بلاط الخلفاء والأمراء والأغنياء ، ومظاهر الثاني بالريف والصحراء ودور العلم والمساجد في المدن ، ولا نبالغ إذا قلنا إن المدن العربية كبغداد ودمشق والقاهرة وقوطبة كانت في العصور الوسطى أشبه بعواصم العالم المتمدنت في العصر الحاضر ، بسعتها وعظمتها ، واحتوائها على المتناقضات ، فالى جانب القصور العظيمة ومظاهر الأبهة ترى الأكواخ الفقيرة والحقيرة ، وإلى جانب طبقة غنية تصرف الملايين في حفلاتها وموائدها وزينتها ، طبقة فقيرة تكدح ليل نهار لتجد

لقمة طعام تسد به رمقها ، ولإلى جانب مجالس العلم والأدب والدين والترجمة والنقل والتأليف والمناظرات تجيء مجالس الانس والشراب والمنادمة ... ولم تكن بغداد وخاصة في العصر العباسي ، بأقل من باريز أو نيويورك في العصر الحالي ، يجد فيها المرء ما ينبغي منها تعددت مشاريعه وتنوعت أهواؤه ، من جامعات وأكاديميات ومكتبات وعلماء وأفاضل ، ومن دور للهو والمجون ، وحانات للخمر والدعارة ، ولعل أهم مظاهر الترف في المدن كان في الطعام والشراب ، والملبس والمسكن والحفلات والمآدب والأعياد وأنواع التسلية ...

في الطعام والشراب : بعد أن كان عمر يحاسب ولاته إذا بلغه أنهم يكثر من أنواع الطعام على موائدهم ، صار الخلفاء والأمراء والأغنياء يتسابقون إلى إقامة الولائم العظيمة وتقديم أنواع الأطعمة اللذيذة ، وفي كتب الأدب ذكر كثير من أنواع الطعام التي صار يتناولها العرب ، ووصفه وطريقة صنعه كالسكباج (ويشبه اللحم المطبوخ بالخل) والفلوذج واللوزينج والحشاف والجلاب والقطايف ، والهريسة وكلها أنواع من الحلوى.. كما أن الشراب كثر وظهرت أنواع من المشروبات ، ولم يتورع حتى بعض الخلفاء عن تناولها ، وفي خمرات أبي نواس كثير من وصفها . ويصف فيليب حتي تطور الذوق العربي في الطعام والشراب ويقول : « وكانت الطعام يقدم في أطباق نحاس واسعة مدورة على موائد واطئة أمام الدواوين أو على الأرض مقابل الوسائد ، وفي منازل الأغنياء كانت الأطباق تصنع من الفضة ، والاخونة من الخشب المنقش بالابنوس واللؤلؤ أو الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق ، هذا هو الشعب العربي نفسه الذي كان سابقاً في شطف العيش وخشونته يفاخر بأكل العلنز (وير الابل مطبوخاً بالدم) ، والذي حسب أبناؤه الأرز لأول وهلة سما ،



الشكل - ١٣٠ -

احدى نقوش قطعة نسيج صنع في غرناطة وتمثل شاعرين اندلسيين
يتساجلان في جلسة شراب

وظنوا المرقق من الخبز رقاعاً للكتابة : هذا الشعب تهيأت له الآن أسباب
الحضارة فهدبت شهوته للطعام المريء ، وجعلته يستطيع لذائذ المدنية
فصار يأكل من طعام الفرس السكباج والغالودج ، وأصبح دجاجة يعلف
بالجوز واللوز المقشر ويسقى الحليب . وصارت منازل في الصيف تبرّد
بالتلج ، ومرطباته قوامها الماء يذاب فيه السكر ويعطر بماء البنفسج والموز
والورد أو بعصير التوت » وقد قال أحد الشعراء :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر المادي حشو الموز
تسبح في آذي دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي

في اللبس والمسكن : أخذ الناس يكتثرون من ارتداء الالبسة المصنوعة
من الديباج الخاص ، أو المخلوطة بالقطن والكتان ، وأكثر الخلفاء من
الخلع وهي منح موظفيهم أنواعاً من الملابس في مناسبات مختلفة . وكان
عند الخلفاء ديوان باسم **ديوان الطراز** ، وسمي في العهد الفاطمي باسم

دار الكسوة ، وكان للجند في العصر العباسي ملابس معينة حسب أجناسهم ورتبهم ، وتفننت النساء في اتخاذ أنواع اللباس المصنوع في شتى أنحاء الأرض ، وكانت أغذية الرأس عند الطبقة الغنية منهن ترصع بالجواهر ، وتحلى بسلاسل ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، كما كن يزين رؤوسهن بجلي مسطحة من الذهب ، ويلفن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن كما استعملن أنواعاً من التجميل الصناعي .

أما المسكن ، فقد ذكرنا في كلامنا عن القصور وصفاً لبعض قصور الخلفاء ، وكان اقتناء الدور الواسعة ، وفرشها بأفخر الرياش والاثاث شائعاً عند كل ذي سعة من المال ، وروت الأخبار أن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك ، كمثلي اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، ويقال أنها أنفقت عليها نحو ألف ألف دينار ؛ ومثلي اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر ، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والابنوس والصندل عليها الكلايب من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسمور وأنواع الحرير ، ومثلي اتخاذها شمع العنبر واصطناعها الحف مرصعاً بالجواهر ... ،

في الحفلات والمآدب والاعياد : احتفل المسلمون الأوائل احتفالات دينية بالعيدين : الفطر والأضحى ، وقد اقتبس الامويون ثم العباسيون ومن عاصروهم وأتى بعدهم عادة اقامة الاحتفالات الرسمية في كثير من المناسبات فاحتفلوا بعيد النيروز في أول الربيع ، والمهرجان ، في آخر العام وهما عيدان فارسيان قديمان . كما احتفل ولاة مصر وقادتها بعيد وفاء

النيل ، واحتفل الشيعة والفاطيون بيوم عاشوراء ومولد علي والحسن والحسين وفاطمة ، كما كثر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، ونصف رجب وأول ونصف شعبان وغيرها . وكانت المدن الكبرى تزدان بالأنوار ليلاً وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم أنهار المدن النهرية الكبرى كبغداد والقاهرة بالزوارق المزينة بأبهى الزينات التي تسطع من جوانبها القناديل ، ويخرج الناس إلى الطرقات ويتبادلون الهدايا ، ويقومون بالمآدب ويتزاورون ؛ كما أن الخلفاء والأمراء أكثروا من استعراضات الجند في كثير من المناسبات كالأعياد ، والسفر للقتال ، والعودة من النصر وكانت مواكب الخلفاء يوم ارتقايتهم العرش وفي غدواتهم وروحاتهم تختلف جمالاً وروعة باختلاف المناسبة وقوة الخليفة أو الأمير أو صاحب الدولة المستقلة وغناه ...

وقد أكثر الخلفاء والأمراء والأغنياء من المآدب وتباهوا بعدد طبابخهم وكميات السمن والدقيق والخلوى وأنواع الخضر واللحوم التي يستهلكها كل منهم في الأسبوع ، وفي المناسبات المختلفة ك شهر رمضان وأيام الأعياد .

وبرزت مظاهر الترف في حفلات الزواج وغيرها من الحفلات الخاصة ، وحفلات استقبال رسل الخليفة عند الامراء أو رسل الملوك الأجانب عند الخلفاء ، فكان الجند يصطف على الطريق لمسافات بعيدة ، بأبهى ملابسه وأتم استعداداته ، ويستقبل الرسول بالموسيقى ويُركب على أحسن الخيول أو في أجمل العربات وأكثرها زينة ، وينزل في قصور مؤثثة تأثيثاً يدل على غنى المضيف وقوته ، ويقدم للسفراء أو الرسل أنواع الهدايا .

ويتجلى اسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم في حفلات الزواج بما فعله المهدي عند زواج ابنه هارون الرشيد بالسيدة زبيدة فقد

أقام ليلة زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الاسلام . ووهب الناس في ذلك اليوم أواني الذهب المملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينها بكثير من الحلي والجواهر ، حتى أنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلي والجواهر .. وقد أكدت السيدة زبيدة ... ان نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون ...

ووصف المقرئ جيهاز قطر الندي ابنة خمارويه الطولوني عند زواجها من الخليفة المعتضد العباسي « فن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك ، وفي كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من الذهب لدق الطيب ، والى تكة ثمن الواحدة عشر دنانير » .

أنواع التسلية : وهناك أنواع من التسلية للعامة والخاصة ، كالنرد والشطرنج ، والرمي بالنشاب ، والصيد ، ولعبة الجوكان وتكون بعضا معقوفة وتشبه لعبة البولو ، التي يسمونها القراح أو الطبطاب ، والسباحة ، والمصارعة وتربية الحيوانات المختلفة وإقامة حدائق الحيوانات ، وخاصة في مصر في عهد الطولونيين ومن أتى بعدهم .

وكان الشطرنج ارفع الألعاب الذهنية التي يمارسها كبار رجال الدولة وقد ذكر أحد المؤرخين الألمان ان الهندوس الذين حرم عليهم القتل وسفك الدماء اخترعوا الشطرنج للقتل البريء ، القتل الذهني .

وذكر القلقشندي في صبح الاعشى أن الشطرنج من وضع حكماء الهند ووجه صلصة بن داهر الهندي للملك الهند « بلهب » مساواة لارديشيرين بابك في وضعه النرد . وعرضه على حكماء زمانه فقضوا بتفضيله .

وقد ادخل العرب بعد اقتباسهم لعبة الشطرنج بعض التعديلات على رقعته ، ونقلوه إلى اسبانيا ومنها انتشرت معرفته في جنوب فرنسا فأوروبا والعالم . وفي مخطوطة في مكتبة الاسكوريال بمدريد تنسب إلى الفونس الحكيم الاسباني من القرن الثالث عشر الميلادي صورة لشطرنج يلعب به عرب اندلسيون بجوارهم عازفون ويعزفون على آلات موسيقية وتدل ملابسهم على أنهم عرب ، وذكر في مكان آخر بأن الشطرنج وصل بلاد أوروبا للمرة الأولى عام ١٠٠٨ م .

ولعبة الشطرنج كانت لعبة الطبقة الارستقراطية في العصر العباسي ، مارسها الرشيد والمأمون ، واقيمت لها المباريات الشيقة وبرز فيها عدد من أعلام الناس من أمثال : العادلي والراضي والماوردي والصولي وأبي القاسم التوزي الذي سمي بالشطرنجي . ووصف هذه اللعبة عدد من الشعراء كابن الرومي وابن المعتز .



الفصل الثامن عشر

الحياة الفكرية

الثقافات السابقة للإسلام في الشرق الأدنى

خرج العرب من الجزيرة مع الفتوح الكبرى يحملون عنصرين من عناصر الثقافة الإسلامية المقبلة : اللغة العربية (كعنصر جاهلي) والدين الإسلامي (من عهدهم الجديد) وقد وصلوا في الفتوح الواسعة الى الاندلس ومراكش غرباً وإلى التركستان وحوض السند شرقاً * ووقفوا عند هضبة الاناضول شمالاً * ولم تكن هذه المناطق الشاسعة محرومة من الحضارة ، بل بالعكس كانت بعض بقاعها تمثل في حضارتها خلاصة ما ابدع الانسان في العصور القديمة كلها من حضارة راقية ، وأبرز هذه الحضارات ثلاث :

- ١ - الثقافة اليونانية ومنطقتها تمتد ضمن مثلث الاسكندرية - القسطنطينية - نصيبين أي تضم البلاد القائمة على الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط *.
- ٢ - الثقافة الفارسية ومنطقتها هضبة ايران *.
- ٣ - الثقافة الهندية وقد مسها العالم الإسلامي مساً محدوداً في حوض السند*.

الثقافة اليونانية

١ - الثقافة اليونانية : اخصب الفكر الانساني في أرض اليونان في وقت مبكر من تاريخ البشرية ، ونمت في بلاد اليونان فلسفة عقلية راقية ، ونظمت العلوم ، وحاول العقل البشري ان يتعرف الى كنه الاشياء التي تقع عليها عينه ، بل حاول التعرف الى ما وراء الظواهر المرئية ، فاخترق الحجب ، وبحث فيما وراء الطبيعة ، وظهر من بني الانسان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد بضعة عقول لا تزال موضع دهشة العالم بتفكيرها العميق ، وبحثها الدقيق ، ولا يزال فلاسفة يومنا هذا يترسمون خطاهم ، ويبنون على الاسس العقلية التي وضعوها .

وعرفت الثقافة اليونانية عند الكتاب باسم الحضارة الهيلينية نسبة الى هيلين. الجد الاكبر الخرافي للشعب اليوناني ، وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتداد نفوذ الاغريق التجاري الاستعماري ، ولما فتح الاسكندر المقدوني الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق فنشأت ثقافة مزيجية عرفت بالهيلنستية، وأخصبت عدة مراكز في الشرق ، حملت مشعل هذه الثقافة المزيجة التي كانت لحمتها فلسفة اغريق بلاد اليونان ، وسداها الروح الشرقية ووحى الشرق والهام الشرق ، حملت هذا المشعل مراكز شرقية جديدة في الاسكندرية وانطاكية وغيرهما في وقت خبا هذا المشعل نفسه في بلاد اليونان ، حتى ان امراً رسمياً اغلق مدارس الفلسفة في اثينا مرة واحدة (٥٢٩ م) . ولما جاء الاسلام وجد في البلاد التي انصوت تحت لوائه الثقافة اليونانية والشرقية مزدهرة .

الاسكندرية : بنى الاسكندر اثناء فتوحاته ثلاث عشر مدينة جديدة سميت الاسكندرية لتخلد اسمه ، كانت اكبرها وأعظمها تلك المدينة التي خطها في كانون الثاني ٣٣١ ق م على الساحل المصري للمتوسط والتي ميزت باسم « الاسكندرية العظمى » . وما لبثت هذه المدينة أن اصبحت حاضرة دولة البطالمة حكام مصر الاغريق ، الذين عملوا جاهدين ان يرقوا بها الى زعامة العالم القديم ، وأصبحت

في عهدهم مدينة عالمية تظهر صفاتها العالمية في اختلاف اجناس سكانها وكثرة علمائها
وآلاف قصاتها من الطلبة والتجار والمهاجرين *

وفي الاسكندرية نشأت مذاهب فلسفية كثيرة : الفيثاغورية المتأخرة ،
الافلاطونية المهودة ، الافلاطونية الحديثة * وفي الاسكندرية نما علم الطب ورتب ،
وفيها نبت علم الكيمياء وتكونت النواة الاولى له ، وفيها تقدمت الرياضيات
والفلك ، ولمح في سماء الفكر الانساني اسماء علماء الاسكندرية : ايراتوستين
الذي اشتغل بالتاريخ والفلسفة والفلك والجغرافيا خاصة ، واقليدس العالم
الرياضي ، وتيو كريت الشاعر ، وبطليموس القلوذي صاحب كتاب المجسطي أشهر
كتب الفلك في العصور القديمة ، وافلوطين مؤسس المدرسة الافلاطونية الحديثة *

انطاكية : إذا استثنينا الاسكندرية ، فالمرکز الرئيسي للحضارة الهيلنستية
كانت سوريا ، وقد سار السلوقيون ، حكاهما الاغريق ، على غرار الاسكندر
الأكبر في انشاء المدن ورعاية العلم والادب والفن والفلسفة ، فسوقس الاول
وحده أنشأ ما لا يقل عن ٧٥ مدينة جديدة على الطراز اليوناني ، الا ان انطاكية
ذهبت بفخار المدن السورية الاغريقية * وبقيت حاضرة الدولة السلوقية السياسية
والعلمية دشنها سلوقس الاول في ٢٢ ميس ٣٠٠ ق م * في موقعها الممتاز على
نهر العاصي ، وقدم للالهة ضحية بشرية ، فتاة جميلة ، لتحفظ المدينة من الزلازل *

اشتهرت انطاكية منذ أواسط القرن الرابع الى أواسط القرن الخامس الميلادي
انها أولى المدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها بحركتهم الفكرية التي
كانت ذات أثر كبير في شيوع الفلسفة اليونانية خاصة ، هذه الحركة التي بحثت
طبيعة السيد المسيح ، وخلقت مذاهب لاهوتية خاصة *

الافلاطونية الحديثة : نشأ في الاسكندرية مذهب فلسفي درج كتاب العرب على

تسميته بالافلاطونية الحديثة ظناً منهم على انه مذهب مشتق من فلسفة أفلاطون^(١) وقد حاول واضعوه ان يوفقوا بين الفلسفة اليونانية وبين التعاليم الدينية ، اليهودية والمسيحية ، ويعرف هذا المذهب عند كتاب الغرب باسم ما بعد الافلاطونية Neo - Platonism . ويرى كثير من مفكري اليوم انه « ليس فلسفة ولا هو افلاطوني ، وانما هو مزيج ملفق شوهت فيه فلسفة افلاطون وأرسطو » لان واضعيه ، أخذوا في سبيل تحقيق غايتهم الدينية يجمعون ويضمون الآراء التي توافقهم بعضها الى بعض ، ويمكن ان نقسمه الى مذهبين يجمعهما اسم المذهب الاسكندراني وهما :

آ - الافلاطونية المهودة : وزعيمها فيلون اليهودي (٢٥ ق م - ٥٠ م) الذي تنبه الى أن الفلسفة اليونانية قد زعزعت أسس الروايات الدينية ، وان البشر اقتنعوا بالفلسفة وصحة براهينها اكثر مما اقتنعوا بروايات التوراة واخبار الملوك فحاول القيام بأمرين متصلين بعضهما مع بعض : اقامة أدلة فلسفية على صحة الدين اليهودي عموماً وتأويل الروايات الدينية على شكل لا يخالف الفلسفة . فاستعان فيلون للبرهنة على صحة التوراة ، بالآراء الفلسفية الاغريقية من رواقية وافلاطونية وبالحكم المروية عن سليمان ، واخذ يشرح التوراة شرحاً رمزياً ، فهو مثلاً يذكر أن « حواء » كناية عن « الحس » وان الحية التي وسوس الشيطان بواسطتها لحواء حتى أكلت من الشجرة المحرمة كناية عن « اللذة » ولم يستطع فيلون الاسكندراني ولا غيره من فلاسفة الافلاطونية اليهود ان يستمروا في فلسفتهم

(١) افلاطون ٤٢٧ - ٣٤٧ ق م . فيلسوف يوناني . كان شاعراً ثم تعرف على سقراط ، فكره الشعر . ومال الى الفلسفة . وترك لنا كتباً عديدة أشهرها ، كتاب السياسة المعروف باسم « جمهورية افلاطون » . وفلسفة افلاطون مثالية : فقد حاول ان يتخيل نظاماً للوجود ، وان يرد اعمال البشر وسلوكهم الى مقاييس من الخير والجمال ؛ فتصور في جمهوريته العالم كما يجب ان يكون ليعيش في مثل اعلا من الخير والجمال . ولذلك قيل ان جمهوريته لا يستطيع ان يطبقها الا مخلوقات هم نصف آلهة .

من التناقض والضعف ، وان يخفوا تشويهم للفلسفة الاغريقية بمحاولتهم التوفيق بينها وبين تعاليمهم الدينية .

ب - الافلاطونية الحديثة : ومؤسسها الاول امونيوس (١٧٥ - ٢٤٢ م) الملقب « سكاس » أي الحمل ، اذ كان في أول أمره حملاً ثم صار معلماً فلسفة في الاسكندرية ، وقد ولد من أبوين نصرانيين ، ثم صبأ الى الدين اليوناني القديم ، وحاول التوفيق بين تعاليم افلاطون وارسطو ونسب مذهبه الى تلميذه « افلوطين » (٢٠٣ - ٢٦٩) وهو من مدينة اسبوط وتعلم الفلسفة في الاسكندرية ، وتنقل في آسيا حتى بلاد فارس وأسس في روما مدرسة فلسفية ، وترك كتباً عديدة أطلق عليها اسم التاسوعات Enneads وتفرع مذهبه الى فروع كثيرة أهمها فرع الاسكندرية وفرع الشام وفرع أثينا .

واذا مالت الافلاطونية الحديثة أو الافلوطينية أول أمرها الى البحث والتفكير العقلي المحض ، وناصرت الوثنية اليونانية ضد النصرانية ، فان انتصار النصرانية فيما بعد ، باغلاق جوستيان مدارس الفلسفة في أثينا واضطهاده الفلاسفة ، دفع الفلاسفة المنتصرين الى اخراج كتب في الافلاطونية الحديثة مصبوغة بالصبغة النصرانية ، وأصبح كتاب « ديونيسيوس » الذي ألفه افلاطوني مجهول اتخذ اسم ديونيسيوس وادعى انه من تلاميذ بولس الحواري ، أصبح هذا الكتاب عمدة لرجال الدين المسيحي في البحث الفلسفي لانه شرح أسرار الربوبية ودرجات عالم الملكوت والكنيسة السماوية على المذهب الافلوطيني (١) .

(١) اكثر ما اهتم به افلوطين بحث الاله الذي صدر عنه العلم ، وهو « الواحد ، المطلق ، العلة الاولى » وانه مصدر الاشياء كلها ولكنه يخالفها كلها لانه ليس عقلاً ولا نفساً ولا متحركاً ولا ساكناً ، وليس في زمان ولا مكان ولكنه « كائن مطلق » بسيط لا يدركه الوصف لانه فوق الادراك و « الواحد » كاملة في نفسه لا يحتاج الى شيء بينما كل شيء يحتاج اليه .

ومن أشهر تلاميذ افلوطين فرفوريس من اهل مدينة صور الذي هاجم التوراة مهاجمة عنيفة وأقام الدليل على ان بعض اجزائها كتب في وقت متأخر وتعلم عليه ايامبليخنوس من اهل قرية عنجر في البقاع ، وهو الذي أسس الفرع السوري للافلاطونية الحديثة .

دور السريان في نشر الثقافة اليونانية : السريان هم من سكان ما بين النهرين ، ساهموا في نشر الثقافة اليونانية وخاصة المذهب الاسكندراني في الفلسفة ، فأنشؤوا نحو خمسين مدرسة في العراق وما حوله ، تعلم اللاهوت (الفقه المسيحي) باللغة السريانية ، ولم يبتكر السريان جديداً ، ولم يضيفوا على الافلاطونية الحديثة شيئاً ولكن دورهم كان بالترجمة وحفظ هذه الفلسفة بعد أن ضاع كثير من أصولها الاغريقية ، وكانت الترجمات هذه هي الاساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون أول اتصالهم بالثقافة اليونانية .

وامتازت اللغة السريانية - وهي احدى اللغات الآرامية - انها بقيت مدة طويلة ، لغة كتاب النصارى في انطاكية وسوريا وفي العراق ودولة فارس ، وكان القسس والرهبان يتعلمون اليونانية والسريانية جنباً الى جنب ويكتبون بهما معاً . وأهم المراكز الثقافية التي انشأها السريان هي :

أ - الرها Edessa تقع اليوم على الحدود السورية داخلية في أملاك تركيا وبقيت خلال مدة طويلة من الزمن مركزاً للثقافة السريانية ، وأسس فيها النساطرة من النصارى مدرسة فلسفية ، واهتم أهل الرها باللاهوت والطب والمنطق ، فترجموا كثيراً من كتب ارسطو وافلاطون وفيثاغورث . واتهم الامبراطور زينون الايساوري أهل الرها بالتطرف في آرائهم فأغلق مدرستهم ٤٨٩ م ، فانتهمز الفرس الساسانيون هذه الفرصة ودعوا علماءها الى املاكهم ، فهاجروا الى مدينة جديدة هي :

ب - نصيبين : حيث أسس النساطرة مدرستهم التي رفعت الفلسفة السفسطائية فوق كل علم ، واعتبروا القسيس طبيب الروح ، والطبيب مرقع الجسد ، واهتموا بالافلاطونية الحديثة .

ج - حران : وتقع قريباً من الرها ، في الجزيرة الفراتية ، وتمتاز بأن أهلها بقوا على عبادة الكواكب والاولثان ، وسموا انفسهم في عهد المأمون باسم الصابئة

على خلاف أهل نصيبين والرها النصارى * واشتهر أهل حران بالرياضيات
والفلك والطب *

وبقيت حران مدة طويلة ملاذاً لكل فار يوناني من المسيحية ، ومن
الاضطهاد الديني الجدلي ، فأصبح دين أهلها مزيجاً من الديانة اليونانية القديمة ،
والبابلية ممزوجة بتعاليم الافلاطونية الحديثة *

د - جنديسابور : بناها سابور ملك الفرس في جنوب غربي فارس (الاهواز)
واسكن فيها اسراء من اليونان الذين حملوا معهم بذور الثقافة اليونانية ،
ولما اضطهد جوستنيان الفلاسفة الاسكندرانيين في مملكته ، استقبل
كسرى أنو شروران اللاجئين اليه منهم واسكنهم جنديسابور وبنى لهم مارستاناً
(مدرسة طبية) * لذلك اشتهرت هذه المدينة بالطب التي كاد يحتكره ابناؤها ،
وجمعت جنديسابور الى جانب الثقافة اليونانية باللغة السريانية ، الثقافة
الهندية باللغة الفهلوية والثقافة الفارسية ، فكانت ملتقى لثالث فكري هام *

* * *

٢ - الثقافة الفارسية

الثقافة الفارسية : كانت مزيجاً مختلف النسب من ثقافة ما بين النهرين القديمة والثقافة اليونانية المتمثلة في مدرسة جنديسابور وثقافة الهند * وإذا توجت الفلسفة الفكر اليوناني ، فإن الناحية الدينية هي التي أخذت على الفرس تفكيرهم ، وهي التي حفظت آدابهم وعلومهم ، كما شغلت النواحي الادارية والتنظيمات السياسية جزءاً كبيراً من حياتهم العقلية *

ولغة الفرس وآدابها تقسم الى قسمين : اللغة القديمة واللغة الفهلوية *

أ - اللغة القديمة : وتتمثل في آثار الدولة الفارسية القديمة « الكيانية » التي أسسها كزر كسيس (كورش) ونبغ فيها ابنه قمبيز ثم دارا الاكبر ، وقد بقي من هذه اللغة ما يزيد عن أربعين نقشا تاريخيا اكثرها مرقوم بلغتين آخرتين الى جانب اللغة الفارسية القديمة ، وهما الآشورية والعلامية ، وهذا ما ساعد على قراءتها وترجمتها واشهرها نصوص نقوش دارا في صخرة بهيستون *

كما تمثل اللغة أيضاً بكتاب (ابستاق) وهو الكتاب المقدس عند الفرس^(١) *

ب - اللغة الفهلوية : وهي لا تختلف عن الفارسية الحديثة الا في الخط ، وهي

(١) ينسب هذا الكتاب الديني الى أشهر أنبياء الفرس وهو زرادشت ، وهو مؤلف من قسمين : افستا Avesta وشرحه زندافستا . ويجمع بين دفتيه احدى وعشرين سورة تقع كل منها في مائتي ورقة كانت مقسمة الى ثلاثة اجزاء متساوية تبحث في العقائد والعبادات (كاسانيك) وفي المعاملات (داتيك) وفي الفلسفة والعلوم (هتاك مانزيك) وقد ضاع اكثرها ، وحفظ بعضها مترجماً الى اللغة الفهلوية وهو ما كان يقرأه الفرس في صلواتهم قبل الاسلام *

سهلة القراءة ، وقد أثرت تأثيراً شديداً في الآداب الفارسية الحديثة • وقد وصلتنا من هذه اللغة عدة نقود لملوك الساسانيين ، وللخلفاء الامويين قبل عبد الملك ، كما وصلتنا انصاب تاريخية لا يزال بعضها قائماً ، واشهرها نقش البارسيين في جهات بومباي في الهند يرجع للقرن الخامس الميلادي ، أما الكتب المكتوبة بهذه اللغة فهي كثيرة ، حتى أن بعضها كتب في عصر اسلامي متأخر لأن علماء الزرادشتيين لم ينقطعوا عن الكتابة بهذه اللغة حتى اليوم • لهذا فان الآداب الفهلوية أغزر مادة ، وأوسع موضوعاً وأجدر بالعناية من اللغة القديمة •

وأهم الآداب الفارسية المكتوبة بهذه اللغة هي :

أ - زندا : وهو شرح أفسستا الكتاب الديني الزرادشتي • وتضم حوالي سبعين كتاباً ، وليست فهلوية خالصة في اسلوبها لأنها تسير الابتاق في لغته •

ب - كتب دينية مختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، منها كتاب تاريخ دين زرادشت وعقائده وفرائضه (دمنكرت) وقد كتب في القرن الثالث الهجري • وكتاب بيان ينفي الشك ، وهو يدافع عن مثنوية الدين الزرادشتي ضد عقائد اليهود والنصارى والمسلمين • والمانوية وهو أقرب الكتب جميعها الى البحث الفلسفي وكتب في القرن الثالث الهجري أيضاً ، ثم كتاب الشاهنامة الفهلوية (شاهنامة كشتاسب) وهو أقدم قصة حماسية فهلوية الفت في القرن الخامس الميلادي ويبحث في حروب احد ملوك الفرس المسمى كشتاب ضد ارجاسب ملك توران • وكتاب تاريخ اردشير المعروف في الكتب العربية باسم الكارنامج وكتب في القرن السادس الميلادي ويبحث في القصص التاريخية للعهد الساساني وهو من اعظم مصادر شاهنامة الفردوسي •

الاديان الفارسية : عبد الفرس منذ القديم المظاهر الطبيعية ، واشتهر عندهم آلهان اثنان هم : أهورمزدا واهريمان ، ورمزوا لاحدهما بالنور وللثاني بالظلمة

وهما في نزاع دائم ، لان كل ما في الطبيعة حسب رأيهم انما هو نزاع بين قوتين :
قوة الشر وقوة الخير ، فرمزوا للخير بالنور وللشر بالظلام ودعوا الى تأييد آله
الخير ضد آله الشر ، واشعلوا النار الدائمة في معابدهم لانها رمز الضوء أو
رمز آلهة الخير ، ومن هنا نشأت عبادة النار عندهم ^(١) . ووجد عند الفرس
عدة أنبياء أهمهم ثلاثة :

١- زرادشت Zoroaster : وهو أهم انبيائهم ، ظهر نحو منتصف القرن
السابع ق.م. ومات عام ٥٨٣ ق.م. وعمره ٧٧ عاماً على أصدق الروايات ، وأيد
هذا الفيلسوف المذهب الديني السابق بأن هناك نزاعاً دائماً بين قوتي الخير والشر ،
وبين النور والظلمة ، والخصب والجذب ، وأضاف الى ذلك انه :

١ - وحد بين آلهة الخير بشخص : اهورامزدا . وحصر آلهة الشر بشخص
« اهريمان » .

٢ - قال ان لهذا العالم قانوناً يسير عليه وان له ظواهر طبيعية ثابتة .

٣ - جاء بكتاب ديني مقدس هو ما ذكرناه سابقاً « افرستا » وشرحه « زند » .

٤ - دعا اتباعه الى العمل المجدي النافع وحجب اليهم الارض والعمل عليها
وزراعتها والعيش مع الماشية ، ومنعهم من الصوم الذي يضعفهم عن العمل ،
وهو يريد اتباعه اقوياء عاملين .

٥ - اعتبر المواد الاربعة التي كان يظن انها المواد الاصلية للعالم وهي : الماء
- الهواء - النار - التراب . اعتبرها عناصر طاهرة يجب أن لا تنجس ، ولهذا
دعا الى تقديس النار واتخاذها رمزاً ، ودعا الى حرق الموتى ليطهروا ، ومنع

(١) لعل وجود نيران مشتعلة بصورة طبيعية في بلاد فارس والعراق منذ اقدم العصور
وهي التي سموها النار الابدية ، لعلها احدى اسباب عبادة النار ايضاً . وهذه النار
لا تزال حتى الآن مشتعلة لانها ناتجة عن احتراق بعض غازات منبعثة من أحواض
البترول .

- دفنهم في التراب حتى لا يندسوه ، وحرّم تنجيس الماء الجاري •
- ٦ - قال بوجود حياتين للانسان : حياة الدنيا ، وحياة الآخرة بعد الموت •
وان يوم القيامة قريب حين يتغلب مزدا آله الخير على اهريمان آله الشر ويلقيه
في الجحيم ليلقى عذابه هو واتباعه من الناس ^(١) •
- ب- ماني : ولد عام ٢١٦ م • ولم يتبعه الا أقلية فارسية وان بقي مذهبه
حتى القرن السابع الهجري وحاول أتباعه التأثير في الاسلام كثيراً وأهم مبادئه :
- ١ - أيد مذهب زرادشت بأن العالم نشأ من أصلين هما النور والظلمة •
- ٢ - زاد على مذهب زرادشت قوله أن الخير والشر في هذا العالم قد امتزجا
امتزاجاً تاماً •
- ٣ - خالف زرادشت باعتباره ان هذا الامتزاج شر يجب الخلاص منه •
- ٤ - دعاه ذلك الى مخالفة زرادشت فيما يطلب من اتباعه من عبادات ، فقد

للقرءاءة :

- (١) نشيد كاثا من كلام زرادشت في الاستباق
« أسألك بالحق يا اهورا ؟ ان تعلمني :
من ذلك الذي صار ابا الحق منذ يوم الخلقة الاولى ؟
من الذي سير الشمس والنجوم ؟
من الذي يملأ القمر حيناً ويفرغه حيناً ؟
يا مزدا أريد أن أعلم هذا وأشياء أخرى كثيرة •
• • •

- أسألك يا اهورا بالحق ان تعلمني :
من الذي يحفظ هذه الارض السفلى ؟
ويمسك الفلك الاعلى أن يسقط ؟
من خالق الماء والعشب ؟
من يا مزدا خالق الخلق الطاهر ؟
اسألك بالحق يا اهورا ؟ ان تعلمني :
من خالق الضياء النافع والظلام ؟
من خالق الصبح والظهر ؟
والليل الذي يدعو الناس الى الصلاة ؟

حرم النكاح ليستعجل الفناء، ودعا الى الزهد ليقتل النفس، وشرع الصيام سبعة أيام في كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة تأخذ على الانسان جل يومه ، ونهى عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام ، وبعبارة واحدة دعا الى فناء البشرية ليتغلب الخير على الشر ، ودعا الى الرهبة والزهد بعكس زرادشت الذي دعا اتباعه الى العمل والزراعة والنشاط (١) .

ج - مزدك : ثالث انبياء الفرس ظهر حوالي ٤٨٧ م وأيد تعاليم من سبقه من مشنوية النور والظلمة لكنه خالفهما في :

- ١ - دعا الى تعاليم اشتراكية ، فالناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء . ويجب أن يتساوى الناس في متع الحياة الدنيا : المال والنساء . فأباح الاموال وأحل النساء ، وظن أن الخلاف بذلك يزول ، ويقضي على الشر في الارض .
- ٢ - منع اتباعه من المخالفة والمباغضة والقتال ، فكانت دعوته سلمية انسانية .

(١) زرادشت وماني

تغلبت الزرادشتية منذ أيام كورش فما بعدها على آلهة نينوى وبابل الاقدمين وتعاليمه محفوظة لدينا في الزندافستا وان تعارض رب خير وهو هرمز (اهورمزدا) آله النور والصدق والصراحة والشمس ، مع رب شرير هو اهريمان ، رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل هو محور ديانتته . ويحدثنا التاريخ انها كانت محوطة بنظام طقوسي وكهنوتي ولم تكن لها تماثيل مقامة ولكن كان لها كهنة ومعابد وهياكل تتقد عليها نار مقدسة وتقام عليها الطقوس القربانية . ومن بين خصائصها المميزة الاخرى حظرها دفن الموتى أو احراقهم . والفريسيين Parsees الهنود ، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين لا يزالون يلقون موتاهم داخل ابراج معينة مفتوحة ، هي ابراج الخشوع التي تنتابها العقبان .

كانت هذه الديانة الرسمية للدولة ابان حكم بني ساسان من اردشير فمن بعده (٢٢٧ م) وكان رئيسها ثاني رجل في الدولة بعد الملك . . . وكان مفروضا أن الملك قدسي أو شبه قدسي وله علاقة مودة خاصة مع هرمز .

ولد ماني مؤسس المانوية من عائلة طيبة بأكباتانا العاصمة الميديّة القديمة (٢١٦ م) وقد تعلم في المدائن وكان أبوه يعيش عيش الناسك الديني ، فتربى في جو من الجدل الديني وانتهى به الامر الى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل الذي هو القوة المحركة لكل المبادئ الدينيين فدفعه ذلك الى اعلان مبادئه . وفي سنة ٢٤٢ م شرع بنشر تعاليمه عند تولي سابور الاول ثاني ملوك بني ساسان .

واحتوت تعاليمه على « الثيوقراسيا » (تطابق الآلهة المختلفين وامتزاجهم) فاعلن أنه لا يأتي بأي شيء جديد . فكبار مؤسسي الديانات من قبله كانوا على صواب :

٣ - الثقافة الهندية

١ - العلوم الهندية : الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب ، مختلفة الاجناس والمذاهب الدينية والفكرية والاجتماعية ، وجهود الهند في التعليم قديمة جداً ، وأكثر تناج الهند الفكري كتب باللغة السنسكريتية وهي معروفة الاصول مما ساعد على معرفة جميع نواحي الثقافة الهندية من علوم وفلسفة وأدب .

الثقافة الهندية : ساهم الهنود في جميع العلوم القديمة ، ونقلوا ما في العلوم اليونانية وشرحوها وزادوا عليها وأشهر علومهم :

١ - الفلك والرياضيات : ونشأ عن علم التنجيم ، وأقدم الرسائل الفلكية هي كتاب السد ذاتا (حوالي ٤٢٥ ق م) واعترف كاتبه باعتماده على الفلك اليوناني ؟ ثم أبحاث « آريابهاثا » أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذي علل الكسوف والخسوف في حركة الارض حول الشمس ، أي قال بدوران الارض حول الشمس قبل النهضة الاوروبية بعدة قرون . وشرح كروية الارض في دورتها الحيوية حول محورها . كما عرف هذا الرياضي النظام العشري . وابتكر عالم آخر اشارة

فان موسى وزرادشت وبوذا وعيسى المسيح كانوا جميعا انبياء صادقين ، بيد انه وكل اليه ان ينفي تعاليمهم الناقصة ويتوجهها . وتنقل ماني في ايران مبشرا في افكاره ، ودخل تركستان وهبط الهند وعبر الممرات الى الصين وقد انتشرت فكرات ماني شرقا وغربا في سرعة عظيمة ، وكانت دوحة مشمرة قوية ثمارها الزندقات (الهرطقات) التي دامت في العالم المسيحي بأسره طوال مايقارب الالف سنة .

وعاد ماني الى ايران في زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم اليه انصار كثيرون فتسبب من هذا احتكاكه بالدين الرسمي وبالكهانة . وفي سنة ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب ، وأمر بجسمه لسبب مجهول فسلخ ، ومن ثم اخلوا يصبون على اتباعه اعنف الاضطهاد .

عن ولز : معالم تاريخ الانسانية

الجذر ، وحسب الجذر التريبيعي للعدد (٢) وحل بعضهم المعادلات من الدرجة الثانية وكان نجاحهم في الجبر أعظم من الهندسة .

ب - الفيزياء والكيمياء : ووجدت في الهند مذاهب فيزيائية مختلفة ، وقال بعضهم ان الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر احد ، وان الشمس مصدر الحرارة في العالم ، وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الاشياء وتطرق العين أي قال بنظرية نيوتن قبل عشرات المئات من السنين .
اما الكيمياء فتقدمت مع تقدم الطب الهندي والصناعة الهندية ، وكان الرومان ينظرون الى الهند كأمة في الصناعات الكيميائية مثل الصباغة والدباغة والصابون والزجاج ونوع من الاسمنت .

ج - الطب : أشهر ما اشتهر به الهنود ، وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد يعرفون الاوعية الدموية ، والانسجة الدهنية والصفائر العصبية ، والجهاز اللمفاوي وأنواع العضلات وحركاتها ، ويعرفون تجبير العظام ، ويفهمون عملية الهضم جيداً ، ويعرفون تطور الجنين ويشرعون في ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج .

واشهر الكتب الطبية «أثرافا - فيدا» وفيه قائمة بكثير من الامراض وأعراضها ولكن تطبيقها محاط بكثير من السحر والتعاويد ، وفي كتاب آخر وصف لمائة واحد وعشرين اداة جراحية منها المشارط والملاقط والمنظير ، ووصف لكثير من العمليات الجراحية الكبرى .

٢ - الفلسفة الهندية : ان تفوق الهند في الفلسفة أوضح منه في الطب والعلوم . لأن الرغبة في الفلسفة اشتدت عند الهنود حتى أصبحت جانباً هاماً لا غنى عنه في الحياة ، حتى امتزجت الفلسفة بالدين ^(١) واهتمت لها احتفالات ومناقشات

(١) يقول الكونت كايبرلنج : ان هذه الامة الفلسفية قبل كل شيء ، لديها من الالفاظ السنسكريتية التي تعبر بها عن الفكر الفلسفي والديني ، أكثر مما في اليونانية واللاتينية والجرمانية مجتمعة .

علنية كانت جزءاً من الاحتفالات الدينية ، وكانت الفلسفة الهندية تعتمد على الجدل المنطقي الشفوي أكثر من الكتابة ، حيث تقام مناظرات فلسفية دائمة ، ويلقى الفلاسفة كل تبجيل وتكريم ، وتقدم لهم الجوائز بنصيب أكبر مما كان يناله الرابعون في الاولمبياد الاغريقي .

ويوب الهنود مذهبهم الفلسفية كلها في صنفين : المذاهب الاستيكية والمذاهب الناستيكية .

أ - المذاهب الاستيكية : ومعناها المذاهب التي تثبت (آسي معناها موجود) وهي المذاهب المؤمنة باصول الدين ، والمسلمة بصواب الكتب المقدسة صواباً لا يأتية الباطل ، وقبلت نظام الطبقات القائم منذ القديم في الهند . وأشهرها ستة مذاهب تسمى فيدات أو دارشانات أي البراهين ، ولزام على كل مفكر هندي ممن يؤمنون بسلطة البراهمة ان يعتنق احدي هذه المذاهب .

ب - المذاهب الناستيكية : ومعناها المذاهب التي تنفي (ناستي معناها معدوم) وهي المذاهب التي شكت وانكرت وجود الله ، وتجاهلت أحكام الفيدات ، وأكثر اتباعها من أنصار بوذا .

٣ - الادب الهندي : يتكلم الهنود لغات عدة ، ويكتبون بأحرف مختلفة ، وكان يربط رجال العلم والفلسفة والادب والدين لغة واحدة هي السنسكريتية ، التي كانت لغة ميتة لا يتكلم بها الشعب ، ولكنها اداة التفاهم بين جميع شعوب الهند المثقفة .

ونظراً لان أدباء الهند كانوا يعلمون أن نتاجهم الادبي سينتشر بين الناس الهندية القصيرة التي كانوا يقولونها شعراً مقفى تسهل تلاوته ويسهل حفظه في مضغوط بشكل حكمة سهلة الحفظ ، موسيقية اللفظ ، ومن هنا كثرت الحكم الهندية القصيرة التي كانوا يقولونها شعراً مقفى تسهل تلاوته ويسهل حفظه في الذاكرة ، ونجد أدب الهند كله تقريباً أدباً نظرياً يشمل العلم والفلسفة والدين ، فالبحوث الطبية والقانون وقواعد النحو والتاريخ صيغت جميعها في قوالب من

الشعر * * اما النثر فقد استحدث في الهند بعد اتصالها بالاوربيين ، واعتبره الادباء ضرباً من الفساد جاء من اتصال الهنود بالغريين *

والادب الهندي خصب بالحكايات الخرافية ، وخصب برواية المذاهب الفلسفية ، والآراء الاجتماعية على لسان الحيوان - كما في كليلة ودمنة - وخصب بالملاحم الكبيرة ، والاغاني والانشيد الدينية^(١) *

(١) القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى

المهابهارتا : قصائد المهابهارتا العظيمة من أضخم آثار العالم الادبية . وهي تشتمل على ٢١٥ ألف بيت شعر مع ان الياذة لا تحتوي على اكثر من ١٥ ألف بيت ولا تحتوي الاوذية على اكثر من ١٢ ألف بيت . وتعد المهابهارتا من عمل القرون لا من عمل رجل واحد ، وتقدر المدة التي انقضت بين وضع نصها الاصلي وآخر تصحيح فيها بألف سنة ، ولا يمكن تحديد عمرها بالضبط .

وللمهابهارتا عظيم اهمية لدى الهندوس فقد قيل : ان كتب الويدا الاربعة وضعت في كفة ميزان وان المهابهارتا وضعت في الكفة الاخرى أمام الآلهة مجتمعة فرجحت كفة المهابهارتا ، ومما نص عليه ان قراءة ماتيسر منها يمحو الذنوب . والحق أن تقديس الهندوس لها كتقديس النصارى للكتاب المقدس . ويعتقد الهندوس أن المهابهارتا وضعت في السماء وان الآلهة انعمت بها على الناس .

عن غوستاف لوبون - حضارات الهند

٤ — اليهودية والمسيحية

اليهودية : دين جاء به النبي موسى خاص ببني اسرائيل • ولليهود كتابان دينيان هما :

١ - التوراة : وتتألف من خمسة أسفار ، وليست شريعة فحسب ، بل هي فوق ذلك تاريخ وشعر وفلسفة وقصص وأساطير دينية ، وقد وضعت في أوقات مختلفة ، من قبل كتاب كثيرين ، لذلك جاء أسلوبها يختلف باختلاف العصر الذي وضعت فيه ، وأروع ما فيها من قطع أدبية مزامير داود ، وأجمل قصصها قصة شاول وداود وسليمان •

ب - التلمود : وهو مجموع السنن والشروح والنصائح التي نقلت عن موسى وقد دونت في زمن متأخر عنه •

المسيحية : دين جاء به يسوع الناصري ، وكتاب المسيحيين الديني هو العهد الجديد أو الانجيل • وتوجد اربعة كتب مقدسة :

هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا • وقد جابه دعاة المسيحية الاول ومبشروها فلسفة يونانية وثنية ، فاضطروا الى التسليح بسلاح المنطق اليوناني للدفاع عن عقيدتهم ، وما لبث الجدل الديني أن ثار بين رهبان المسيحية حول طبيعة السيد المسيح ، فانقسم اتباع المسيحية الى فرق مختلفة ، وكان أشهر ما اختلفوا فيه أكان عيسى رباً ؟ أم خلقه الرب ؟ هل هو والرب سواء ، أو هو منفصل عن الرب ؟

الفكر العربي الاسلامي

« وقل رب زدني علما »

صدق الله العظيم

خصائص الفكر العربي : لكل أمة من الامم خصائص فكرية وعقلية خاصة ، تشتهر بها وتتميز عن غيرها ، وليس معنى هذا ان كل فرد من أفراد هذه الامة يتصف منفرداً بهذه الخصائص وهذه العقلية ، إذ تختلف خصائص الفكر في الافراد كما تختلف وجوههم وسحنهم ، وكما تختلف طبائعهم وأمزجتهم ، وإنما لكل أمة كمجموع ، مظاهر خاصة يمكن أن تميز بها عن أمة أخرى ، وعقلية الياباني أو الصيني تختلف طبعاً عن عقلية العربي أو الامريكاني أو الروسي ، ويؤثر في هذه العقلية العامة للامة عوامل متعددة أهمها : البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وعامل الارث والدين والاختلاط بغيرهم من الامم ، والامل العام لبناء المستقبل ، ويضيف بعض العلماء الى هذا عامل الدم والجنس .. ويعتبر بعضهم العاملين الاولين أهم أسس بناء العقلية عند الشعوب ، إذ يعتبرون الطبيعة أي ما يحيط بالامة من مظاهر طبيعية ، كالجبال والوديان ، والسهول والصحاري ، والانهار والبحار ، وما يتبع ذلك من مناخ رطب أو جاف ، قاري أو بحري ، قاس أو معتدل ، كل هذا عاملاً في تكوين الفكر العام عند الامة ، ويعتبرون البيئة الاجتماعية متمماً للبيئة الطبيعية ، فما يحيط بهذه الامة من نظم اجتماعية ، كنظام الحكم ، والاسرة والقوانين السائدة وغيرها يؤثر في تفكير أفرادها وتكوين عقليتهم . وليست العوامل الاخرى الا متفرعة من هذين العاملين أو ملحقة بهما ، فعامل الارث هو ما يرث المرء من معتقدات وتقاليد ، ومن ماض تاريخي مشترك ، وعامل الدين واضح في تكوين عقلية الامة ، اذ تختلف المثل العليا ، والتفكير في الكون وفي

علاقات الافراد باختلاف الاديان ، وليس تفكير عبدة النار والاوثنان والصابئة والكونفوشيين والبوذيين كتفكير أصحاب الكتب السماوية الاخرى ، وكلا العاملين الارث والدين يعتبران من تفرعات أثر البيئة الاجتماعية بل من مقوماتها ، أما عامل الاختلاط بالامم المجاورة فيكون تأثيره من ناحية تلقيح الفكر الاساسي وتطوره ، وعامل الامل بتكوين مستقبل يؤثر في شعور الافراد جميعاً شعوراً مشتركاً لحاجة طبيعية أو اجتماعية ، ويعتبر بعض علماء الاجناس ، ولم تثبت فرضياتهم أبداً ، أن للدم علاقة أساسية في تكوين عقلية الامم والشعوب ، وأن هناك أجناساً تحمل دماً يؤهلها أن تسود في العالم وأن تتحكم فيه ، وأن تحتكر كل علم وثقافة وفن ، وأخرى لا يجري في عروقها الا دم العبودية والذل ، خلقت لتكون خاضعة للاولى تقلدها في مظاهرها ولا تصل اليها في جوهرها ، وأجناساً متوسطة بين هؤلاء وأولئك ، ولا نريد أن نناقش سخف هذه النظرية ، وبعدها عن الحقيقة العلمية ، إذ أن أكثر الامم ان لم يكن جميعها قد مرت قبل وصولها الى عصرها الذهبي ، بأدوار متشابهة ، من طور بدائة الى طور الحضارة ثم شاخت وتأخرت حضارياً وربما سياسياً وفكرياً . وقد تأثرت عقلية العرب في جاهليتهم بهذه المؤثرات جميعها فالصحراء وطبيعتها القاسية ، وحياة الترحال وانتجاع مواطن العشب والكأ ، وتقاليذ القبائل وعاداتها ، والديانة الوثنية الشائعة الى جانب آثار من ديانات سماوية ، وصعوبة اتصالهم بغيرهم من الامم الا اتصالاً ضئيلاً واهياً ، وجبهم المحافظة على شرف الاصل والدم ، وتقارهم بأنسابهم وأعمالهم . . جعل للفكر العربي الجاهلي خصائص متميزة ، ولغة العرب حوت كلمات وأسماء للأشياء المادية التي وقعت تحت حسهم ونظرهم كالابل والخيول ومظاهر الطبيعة ، وصفات للاسماء المعنوية التي كانت تلابسهم كالكرم والشجاعة والنجدة ، ووصف مناظر الصحراء ، ويمكن تلخيص خصائص الفكر العربي بما يلي :

يتجلى في الفكر العربي الجاهلي ضعف التعليل ، أي عدم ربط السبب بالسبب ، والعلة بالمعلول ربطاً منطقياً يكاد يكون قانوناً ، فهم يربطون كثيراً من

الاشياء بمسبباتها ، والاسباب بنتائجها فيعرفون ان الغيم ينزل المطر ، وان الشمس تبعث الدفء ، وان هذا الدواء يشفي هذا المرض ، وكل معرفتهم انما هي ، معرفة بدائية ، لا معرفة العقل الدقيق الذي يتفلسف ، فلم يعرفوا في جاهليتهم منشأ الغيم وتحول الماء الى بخار ثم تكاثفه بالبرودة ولا مصدر الاشعة الشمسية وطبيعتها ، ولا اسباب المرض وعوارضه وخواص الدواء ، فكثيرا ما يخلطون بين الدواء الناجع وبين الشعوذة والسحر ، ويظنون مثلا من أصيب بمس من الجنون ، انه حلت فيه ارواح شريرة أو خالط لحمه ودمه الجن ، ويلاحظ هذا الضعف في التعليل في كثير من قصصهم الخرافية التي يستبعدها العقل الناضج ، ولا يقبل بصحتها ، كقصة سد مأرب التي يتوارثونها وكيف أن جرذاً أتت الى حجارته الضخمة واقتلعتها بأنيابها وسببت خرابه ، وما نراه في بعض كتب التاريخ ، من أن فلاناً عاش ثلاثمائة سنة وخمسمائة أو يزيد عن ذلك أو ينقص قليلا ، ويتجلى في التفكير العربي أنه ينظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة فاذا رأى العربي منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاش صدره ، بيت من الشعر أو قصيدة أو مثل أو حكمة ، ولكن لا ينظر اليه نظرة عامة شاملة ، ويصف دقائقه وعوارضه ، وانما يستهويه منه شيء خاص أو ناحية خاصة منه ، ولم يصل الفكر العربي ، في نظره الى العالم نظرة عامة شاملة ، كما فعل الاغريقي من قبل ، عندما نظر الى العالم نظرة واحدة ، واعتبره وحدة ، وفتش عن القوانين الثابتة التي يخضع لها نطاق الطبيعة ، وهذه النظرة غير الشاملة التي نظرها العربي الى ما حوله طبعت أدبه بشيء من الجمال ، لأن فكره ينحصر في ناحية واحدة محدودة من موضوع هام واسع ، فينفذ الى باطنه ، ويأتي بالمعاني الرقيقة التي تتصل به ، كما وطبعت أدبه بشيء من النقص نعني بذلك عدم التسلسل المنطقي للأفكار ، وعدم الارتباط العام بين أفكاره ، ووحدة الموضوع ، وأغلب القصائد العربية ، وهي تمثل تفكير الطبقة المستتيرة من الشعب ، ليس فيها وحدة ، فينتقل بك الشاعر من وصف ديار الحبيبة الى جمالها ، الى مدح نفسه والافتخار بأصله ونسبه الى غير ذلك من ضروب الشعر ، بل لو حذف بعض أبيات من القصيدة أو قدمت وأخرت فيها ، ما شعر

السامع أو القارئ بذلك ، ولا يستنكره ذوقه * وبقيت هذه الناحية من نظرة العربي الجاهلي الى الاشياء نظرة خاصة ، دون أن يستطيع أن يوحد موضوعه ويتطرق الى جميع نواحيه ، حتى في العصور الاسلامية الاولى ، وكثير من كتب المسلمين ، كالعقد الفريد وكتب الجاحظ وغيرها تشعرك وأنت تقرأ بها ، أن كاتبها كان كالنحلة تنتقل من زهرة الى زهرة ، فلا تقرأ وصفاً للكرم أو للبخل حتى تنتقل الى مديح أو هجاء ، الى نكتة وقصة ، الى حادثة تاريخية ، أو وصف لبلد من البلدان أو منظر من المناظر ، فتشعر وأنت تقرأ بلذة التنوع ، ولكن لا تستطيع أن تعرف كل ناحية من جميع وجوها * وهذه الخاصة هي التي جعلت الادب العربي فقيراً في نوع من القصص الطويلة الحسنة الترتيب ، أو الشعر القصصي الراقي كسلاحم الاغريق وقصصهم ، كالاياذة والاوزيس * والفكر العربي كما يقول أحد أمين ، يطوف حول الشيء الذي ينظر اليه ، فيقع منه على درر مختلفة الانواع لا ينظمها عقد *

اثر الاسلام في الفكر العربي : كان تأثير الاسلام في اتباعه ، العرب وغير العرب قويا واضحا * فقد رفع من المستوى الفكري للعرب رفعا يكاد يكون معجزة فهو :

١ - نصب لهم مثلاً أعلى جديداً في الحياة * وبعد أن كان للجاهلية قيمتها وأخلاقها واتجاهاتها ، جاء الاسلام فرسم للحياة مثلاً آخر لا يتفق مع المثل الاعلى الجاهلي ، وكثيراً ما يناقضه * ولعلنا نستطيع المقارنة بين المثليين في قسرة قوله تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » *

وقد نستطيع أيضا أن نرى تعارض الحياة الجاهلية والاسلامية ، وصراع الفكر المسلم الذي يرى مثله الاعلى في التقوى والخلق الكريم مع العقلية الجاهلية التي تعتبر الانفة والعصبية ولذة النفس أروع الفضائل في النص الذي يروى عن جعفر بن أبي طالب حين هاجر الى الحبشة *

٢ - وحد الاسلام ونظم الفكر الديني عند العرب ، فنشر بين الناس عقيدة الوحدانية ونفى كل عقيدة أخرى ، وبالرغم من تثبيتته لعدد من التقاليد الدينية الموروثة فقد حددها وأضاف إليها عقائد جديدة وعبادات منظمة موحدة محت الوثنية وعقلية السحر بين العرب ونقلتهم الى التفكير بالله الواحد وبآلاء الله وحدوده *

٣ - نشر الاسلام بين العرب الكثير عن أحوال الامم الاخرى وتاريخها باطناب أحيانا ، وبايجاز أحيانا أخرى * وبعث النفوس على الاستزادة منها * فكان في ذلك نوع من الثقافة أفاد العرب ووسع مداركهم ودعاهم الى تتبع أخبار الامم وأخذ العبرة منهم *

٤ - شرع الاسلام وشرح أحكاماً في الزواج والطلاق والشؤون المدنية والجنائية كانت قانونا ، ونظم أمور المسلمين في معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية واتخذ الفقهاء والمشرعون مرجعهم يستنبطون منه الاحكام ويهتدون به فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيته فكان ذلك أساسا لحركة تشريعية واسعة *

٥ - ارتبط « العلم » في الاسلام بالدين (ويعني القرآن بكلمة « العلم » المعرفة بأوسع معانيها أي انه يشمل المعارف الدينية والدنيوية معا) فقد أقبل العرب والمسلمون على القرآن وفهمه وتقصي أسرار اعجازه وحكمه وتشريعه ، كما أقبلوا الاقبال نفسه على الحديث فكان من ذلك علوم عدة ، ثم ان الافكار الاسلامية صبغت جميع العلوم الاخرى الادبية والاجتماعية والفلسفية أيضا وجعلتها تسير ضمن دائرة الدين وتحوم حوله ، هذا بالاضافة الى أن التعليم بدأ

في المسجد واستمر كذلك حتى القرن الخامس الهجري • وكان المسجد هو المدرسة بجانب كونه مكان العبادة •

٦ - سلك الاسلام في دعوته الى الايمان بالله وصفاته من علم وقدره ووحدانية مسلكا يثير العقل وهو الدعوة الى النظر الى ما في العالم من ظواهر • فكان لذلك أثره الكبير في الحياة العقلية : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » « فلينظر الانسان مم خلق » « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب » ولعل هذا التفكير هو ما عناه القرآن بكلمة (الحكمة) وقد قال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » وجاء في الحديث « الحكمة ضالة المؤمن » •

٧ - حث الاسلام على طلب العلم وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى :

« وقل ربي زدني علماً »

« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

« ن • والقلم وما يسطرون »

« اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »
وأحاديث مثلها :

« العلماء ورثة الانبياء »

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

« اطلبوا العلم ولو في الصين »

« وفوق كل ذي علم عليم »

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً الى الجنة »

« ساعة عالم متكىء على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد ستين عاماً »

« لا بـارك الله في يوم لا ازداد فيه علماً »

« قليل العلم خير من كثير العبادة »

« تناصحوا في العلم فان خيانة في العلم أشد من خيانة في المال »

ومن أقوال بعض المسلمين :

« أغد عالماً أو متعلماً أو محباً للعلم • ولا تكن الخامس أي جاهلاً تهلك »

« العلم خير من المال ! العلم يحرسك وانت تحرس المال • العلم حاكم والمال محكوم عليه • مات خزان الاموال وبقي خزان العلم • أعيانهم مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة »

الامام علي بن أبي طالب

يا بني : تعلموا العلم فان كنتم وسطا سدتم ، وان كنتم سوقة عشتهم •

عبد الملك بن مروان

ولا شك أنه قد كان لهذه الاوامر الدينية أثرها في اقبال المسلمين على العلم •

٨ - ان نشر الدين استتبع الحاجة الى القارئ والكاتبين • فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لا يعرف • وظهرت هذه الحاجة واضحة حين جعل الرسول (ص) فداء أسرى بدر تعليم الكتابة لعشر من صبيان المدينة ، بل حث الرسول بعض أصحابه على تعلم لغة غير اللغة العربية لما دعت الحاجة الى ذلك بعد انتشار الاسلام • كالذي روي عن حنه زيد بن ثابت على تعلم العبرية والسريانية •

ثم أنه لما كان الفتح اضطر العرب ، وهم الحكام والقادة ، الى تعلم القراءة والكتابة • ثم العلوم الاجنبية المختلفة لما أحوجتهم الحضارة الى ذلك • والعرب الذين كانوا أميين في الجملة في مطلع عهد الرسول أضحووا بعد نصف قرن أمة متعلمة •

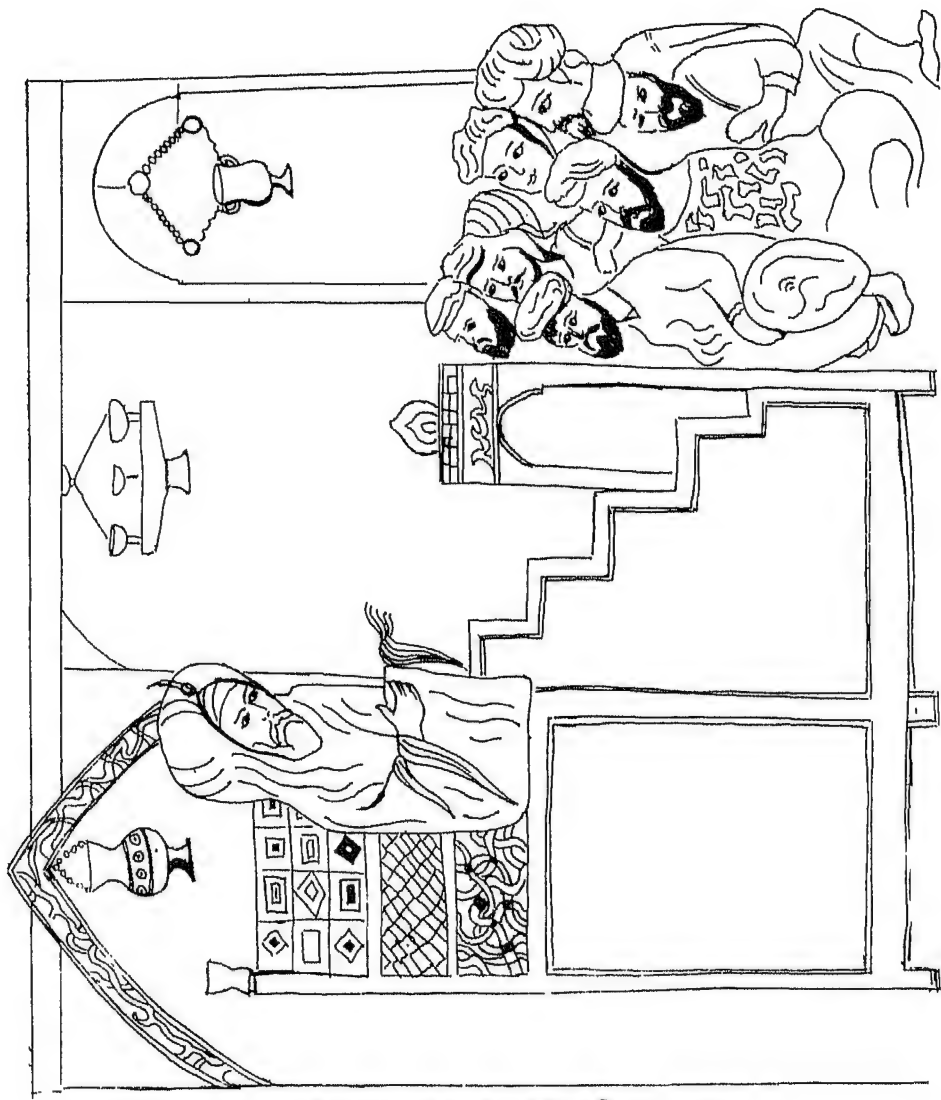
٩ - أثر الاسلام في اللغة العربية فأدخل عليها مصطلحات جديدة دينية (كالوضوء والصلاة والزكاة ... الخ) وادارية (كالعامل والخراج والبريد ...) وحرية (كالدبابة والصنوبر والخميس ... الخ) بالاضافة الى ما دخلها فيما بعد من مصطلحات علمية وفلسفية بفعل الترجمة ورقفي الخضارة ...

ثم ان الاسلام نشر اللغة (القرشية) فيما بين الصين والاطلسي فاضحت لغة السياسة والتجارة في القرون الوسطى ، واستعربت بذلك مناطق شاسعة هي شمالي افريقيا كله وسوريا والعراق . كما نشر الكتابة العربية في هذه البقاع وفي ايران والاناضول أيضا حتى لقد تركت هذه الكتابة تأثيرها في الهند .

١٠ - وأخيراً فقد ترك القرآن الكريم أثره الواضح في الاسلوب العربي وفي البيان فقد كان معجزة الرسول (ص) التي تحدى بها العرب والناس . وقد خفت الشعر وتراجع كل بيان أمام بلاغة القرآن بالاضافة الى جوامع الكلم من الحديث الشريف .

ونستطيع اذن أن نلخص أثر الاسلام في العرب بأنه كان نهاية عصورهم القديمة بكل ما فيها ، ومطلع عصورهم الرائعة التي جعلت منهم ومن المسلمين عامة أمة الحضارة والعلم والعظمة السياسية والغنى الاقتصادي طوال العصور الوسطى .

تمازج الثقافات وأثره في تطور الفكر العربي : ما لبث العرب بعد الاسلام أن أخضعوا مصر والشام والعراق وفارس ، وشمال افريقيا والاندلس ، واختلطوا بسكان هذه البلاد وأثروا وتأثروا بهم في جميع مرافق الحياة الاجتماعية والعقلية ، إذ استتبع الفتح كما ذكرنا ، الحصول على آلاف من الاسرى بيع الرقيق وكانوا من الكثرة بدرجة أنه لم يكذب يخلو منهم دار عربي ، كما شاع التسري وكثر ، فاختلط الدم العربي بالدماء الفارسية والمصرية والسورية والبربرية والقوطية ، والتركية والشركسية وغيرها ، فنتج من ذلك جيل من المولدين ، يحمل الدم العربي من ناحية الاب ، والدم الاعجمي من ناحية الام ، كما أصبح العالم الاسلامي يحوي عدا هذين العنصرين : العرب والمولدين ، عناصر من أمم وشعوب شتى ، فهناك



شكل — ١٣١ —
خطيب المسجد الجامع
يخطب بالمصلين يوم
الجمعة والرسم في
نسخة محفوظة من كتاب
مقامات الحريري ملونة
في الاصل تلونا جيلا .
وقد تم رسمها مع
استنساخ الكتاب عام
١٢٢٢/١٢٢٣ م

السوري الذي أسلم والسوري الذي لم يسلم ، والعراقي ، والفارسي والمصري والبربري *** منهم من أسلم ومنهم من بقي على دينه ، وهناك حضارات مختلفة ، تأثرت بحضارات غيرها كثيرا أو قليلا ، فلمصريين حضارة ، وللقوط حضارة ، وفي سوريا آثار حضارة رومانية أو اغريقية وفي شرقي فارس آثار حضارة هندية وسريانية ، وفي الشمال تأثيرات بيزنطية . وهناك عادات وتقاليده ، وعرف وقوانين ، ونظم للحكم والادارة وفنون للرياسة وال عمران والموسيقى وآداب قومية وهي في كل قطر تختلف عن القطر الآخر من ناحية وتتفق معه من ناحية أخرى ، وكان للعرب الفاتحين أيضا من كل هذا ، وكان لابد من الاختلاط والتمازج ، ولا بد من عملية مزج وانتخاب وتصفية ، ولا بد من أن تتغلب التيارات القوية على الضعيفة وتتسلها . وكانت حضارة العرب وفنونهم في أساليب حكمهم أقل من فنون الامم التي أخضعوها ، فكان لا بد لهم ، وقد حولوا الاسلام من دين الى دولة ، من ان يقتبسوا هذه الاساليب التي وقعت تحت أعينهم ، وكان العرب يحملون راية الاسلام ويجاهدون في سبيل نشره ، وكانت الغلبة العسكرية لهم ، فكان لا بد لأكثر سكان البلاد المفتوحة من أن تخضع لهم وتدين بدينهم الجديد ، وكانت اللغة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة ، فكان لا بد للشعوب من تعلمها لارضاء ساداتها ، فانتشرت اللغة بين هذه الاقوام ، ولكن اللغة والدين لم يخل من شوائب ، فأعجمي يتعلم العربية لا بد ان يلحن ، ومسيحي أو صابئي أو وثني يسلم لا بد وأن تبقى في مخيلته آثار لدياته السابقة ، ولا بد أن يفهم بعض تعاليم الدين بالعقلية التي كانت له قبل اسلامه ، وأن يفهم بعضها بالقدر الذي تسمح له به عقليته الجديدة وأثر الدين الجديد في نفسه ، وأخذ بعض اليهود يفسرون آيات القرآن وقصصه بما وجدوه في كتبهم الدينية من تفاسير ، وآخرون قد أسلموا ، ولما يخالط الاسلام دمهم ولحمهم ، بل تظاهروا به وأبطنوا الكفر ، اختلقوا الاحاديث ، وأوجدوا الفرق الدينية ، وأدخلوا فكرة حق الوراثة وحق الملوك المقدس ، وظهر في الدور العباسي كثير من حركات كالزندقة والالحاد والقول بتناسخ الارواح ..

لقد كان من تمازج هذه الثقافات المتعددة والعبادات والتقاليد والاعتقادات

أن تطور الفكر العربي ونما ، وعندما نقول الفكر العربي الآن وفي هذا الدور الاسلامي ، فاننا - كما ذكرنا سابقا - لا نقصد فكر الرجل العربي الذي خرج من الصحراء فحسب بل نقصد جميع سكان الامبراطورية العربية من عرب أقحاح ومن عرب مولدين ، ومن فرس وسوريين وأقباط وبربر وغيرهم ، دخلوا الاسلام أو بقوا على دينهم ، وانما تكلموا العربية وكانت لغتهم السائدة ، وكان تتاج قرائحهم بها ، وكان هذا الفكر العربي الذي نقصده الآن قد أصبح أنضج وأكمل ، وقد خضع لنظام من التطور والتقدم والتغيير والتبديل عن الفكر العربي الذي كان في الجاهلية ، ففي اللغة العربية فشا اللحن ، وكثر التصحيف ، وادخلت كلمات أعجمية كثيرة ، وبنفس الوقت ضبطت قواعد اللغة ، ووضع لها أسس وقوانين ، ودرست أحوالها المتعددة كما درست لهجات القبائل وجمعت آدابها وأشعارها ، وفي الدين تأثر تفسيره بكثير من التعاليم الاخرى كما أوجدت الفرق الدينية المتعددة . وفي العلوم تقدمت كثيراً وانتقلت من طور المعرفة العامة كما يعرفها الفلاسفة الى طور المعرفة العلمية ، وترجمت كتب اليونان والهند والسيان والأقباط ، وزاد عليها العرب وتعهدها بالنقد والشرح والتفسير وأوجدوا أبواباً في العلوم جديدة ، وعرفوا التجربة وقاموا بكثير من التجارب العلمية . وفي الفنون أصبح لهم فن خاص يتميزون به ، عرفت زخرفته بالارابسك أو الارقشة كما تميز الفن المعماري الديني والمدني بطابعه الخاص . وفي أنظمة الحكم ، استبدلوا النظام القبلي القديم بأنظمة للدولة جديدة ، وأدخلوا الدواوين والوزارة والبريد ونظام الجاسوسية وضربوا النقود ، وعربوا أكثر أنظمة الحكم ، واستطاع الفكر العربي الآن ، بفضل ما صار اليه من نضوج علمي ، أن يتبوأ مركز الصدارة في العالم في الوقت الذي كانت فيه بقية أنحاء الارض وخاصة أوروبا في عصورها المظلمة ، وكان له الفضل في حفظ تراث الحضارات السابقة وتسليمها زائدة غير ناقصة ، سليمة غير سقيمة للاوروبيين في نهضتهم ليحافظوا عليها هم في دورهم بعد أن مال فكرهم الى الجمود ، وتأثر بالفوضى السياسية .

طرق تسرب الثقافات الاجنبية الى الثقافة العربية : هذه الثقافات الاجنبية التي كانت موجودة قبل الاسلام في الشام ومصر والعراق وفارس وبقية الاقطار التي دخلها الاسلام وضمت الى الدولة العربية تسربت الى الثقافة العربية والاسلامية عن طرق عديدة بعضها واضح قوي ، وبعضها خفي ضعيف وأهم هذه الطرق :

١ - الاحتكاك المباشر : فمنذ دعا محمد بن عبد الله الى دين الاسلام جادله الجاهليون في أصنامهم ودين آبائهم وأجدادهم ، وجادله النصارى في طبيعة السيد المسيح وقضية صلبه ، وجادله اليهود بما في توراتهم من أخبار الامم السالفة ، ومن قصة الخليقة • وحين انساح العرب خارج الجزيرة جابها حملة الثقافات الاجنبية فجادلوهم جدالاً منطقياً عقلياً ، واضطر العرب أن يتسلحوا بسلاح الفلسفة ليجابوها خصومهم بنفس السلاح الذي يهاجمونهم به ، وكان لهذا الاحتكاك المباشر نفسه طرق متعددة : التعامل التجاري - التسري - الموالي - المناقشات التي كانت تعقد في قصور الخلفاء والامراء وفي المساجد - البعثات العلمية •

٢ - دخول سكان البلاد التي فتحت في الاسلام : فقد آمن هؤلاء بالدين الجديد وفهموه فهماً يختلف عما فهمه عرب الجزيرة لانهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا دفعة واحدة من ثقافتهم ولا من دياناتهم السابقة •

٣ - الاختلاط في المسكن : والعرب لم يبنوا الا عدداً محدوداً من المدن العسكرية في البلاد التي فتحوها • بينما اختلطوا في أكثر البلدان بالسكان ، وشاهدوا حياتهم الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي ونظم معيشتهم عن كثب • وجزيرة العرب امتلأت بالاسرى والوافدين في موسم الحج وغير موسم الحج من مختلف العناصر •

٤ - مدارس الثقافات الاجنبية : وأصبحت مراكز الثقافة الهيلنستية : الاسكندرانية وانطاكية • ومراكز الثقافة السريانية : حران ، ونصيبين ، والرها • ومراكز الثقافة الفارسية : جنديسابور ، وغيرها ••• من الرقعة العربية ، واقتبست اللغة العربية في أبحاثها العلمية ومجادلاتها •

٥ - عملية النقل والترجمة : ولعلها أهم طريق لتسرب الثقافات الأجنبية الى الثقافة العربية ويمكن أن نقسمها الى مراحل :

أ - النقل في العصر الاموي : ان اول من اهتم من المسلمين العرب بنقل العلوم الالاعجمية الى اللغة العربية هو خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى عام ٨٥ هـ) فقد أخفق في نيل الخلافة فصعد ميوله نحو طلب العلم والانفاق على العلماء ونقل الكتب الى العربية ، حتى سمي « حكيم آل مروان » وقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل في مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وكان من بينهم راهب رومي اسمه « مريانوس » طلب اليه أن يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم ، وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة .
وانكب خالد بن يزيد على تعلم علم النجوم الى جانب تعلمه الكيمياء ، فاستحضر المنجمين وانفق أموالا طائلة في استحضر آلات للرصد من الاسكندرية ، ولعله أمر بترجمة بعض كتب هذا العلم ، مما لم يصلنا خبره ، وكل ما وصلنا عن اهتمامه بهذا العلم أن الذين شاهدوا مكتبة القاهرة في أواسط القرن الرابع الهجري شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس ومكتوب عليها « عملت هذه الكرة للامير خالد بن يزيد بن معاوية » .

وفي عهد مروان بن الحكم نقل الطبيب السرياني « ماسرجويه » الى العربية كتابا طبيا باللغة السريانية هو كنتاش أهرون بن أعين وحفظت هذه الترجمة العربية في دمشق حتى أيام عمر بن عبد العزيز حيث حجب اليه بعضهم اخراجها للمسلمين للانتفاع بها ، فاستخار الله في ذلك أربعين يوما ثم أخرجها الى الناس وبثها في أيديهم . وذكر ابن النديم في الفهرست ان سالما كاتب هشام بن عبد الملك نقل الى العربية رسائل أرسطو الى الاسكندر .

لم تصلنا معلومات أكثر عن النقل في العصر الاموي ، اللهم سوى تعريب

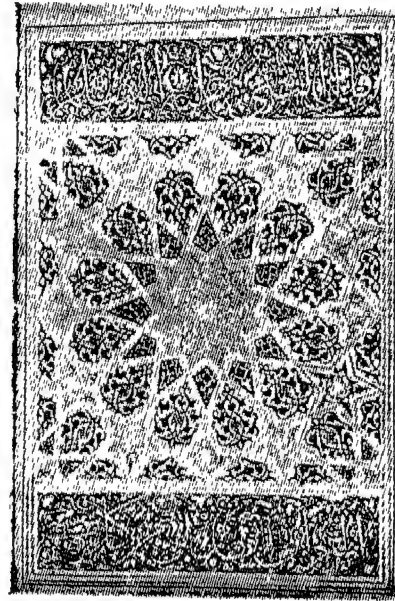
الدواوين في عهد عبد الملك ومن جاء بعده ، وتعريب السكة الاسلامية والطراز ، وسوى اقتباسات الخلفاء من معاوية حتى مروان الثاني النظم الادارية ، ويظهر ان حركة النقل في العصر الاموي ، لم تسجل لانها لم تحظ بتشجيع الخلفاء ولا باهتمامهم ، وكان يقوم بها بعض الافراد من الخاصة أو بعض الاطباء من الاعاجم الذين وجدوا أنفسهم في محيط عربي صرف ، لا تصلح فيه الا البضاعة العربية أو المعربة ، فترجموا بعض الكتب التي كانت نواة لحركة الترجمة الواسعة في العصر العباسي ، ويجدر بنا أن نلاحظ أن اللغة العربية لم تكن غريبة عن أكثر سكان الشام والعراق ومصر ، للصلة التي كانت قائمة قبل الاسلام بين عرب الجاهلية في الجزيرة وعرب الاطراف كما لم تكن العربية بعيدة عن الآرامية التي يتكلم بها السوريون .

ب - النقل في العصر العباسي الاول :

واذا كان العصر الاموي عصراً بدوياً عربياً ، سادت فيه الطباع العربية ، وتغلبت فيه الحركات العسكرية في اخماد الفتن الداخلية والقيام بالحروب الخارجية ، فان العصر العباسي من بعد السفاح الذي اهتم باقامة الدولة ، وجد حاجة الى اغتراف العلوم غير العربية ووجد متسعاً من الوقت ، واستعداداً طبيعياً في عقلية شعوب العالم العربي ، وجواً ملائماً من النشاط الفكري ، فترجمت فيه أعظم كتب اليونان والهند والفرس ، وعلق على هذه الكتب وشرحت ونوقشت وزيد عليها وطبق ما فيها من نظريات ، ثم ألف في أكثرها ، تأليفاً علمياً * ولم يقف العرب في هذا الدور موقف الناقل الامين لعلوم الامم المختلفة في العصور القديمة فحسب وحفظها من الضياع في وقت ساد أوربا عصر من الجهل والتعصب ، بل زادوا على ذلك موقف الدارس والشارح والمتتبع والمؤلف كما سنرى في بحث العلوم العربية الاسلامية * ويحسن أن نقسم حركة النقل في هذا العصر الاول الى ثلاثة أدوار :

١ - الدور الاول : من خلافة المنصور الى آخر عهد الرشيد (١٣٦ - ١٩٣ هـ) : اعتقد كثير من الاقدمين ، ولا يزال يعتقد كثير من المحدثين أن للكواكب

وابراجها ومنازلها علاقة وثيقة بما يحدث على الارض من حوادث ، وما يرافق الانسان من أعمال موفقة أو غير موفقة ، وخط القدماء بين علم النجوم أو الفلك وبين التنجيم ، وكان المنصور أول خليفة مسلم قرب المنجمين وعمل بإحكام النجوم فكان لا يعمل عملا الا استشار المنجمين فيه ، ولعل ميله الى التنجيم كان أول باعث له على تشجيع حركة النقل والترجمة ، التي أصبحت غوايته وغواية من خلفه من الخلفاء وخاصة الرشيد والمأمون . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس فقرب المنصور اليه نوبخت المنجم الفارسي ، ودعاه الى الاسلام فأجاب ، وصار يصحبه معه حيثما توجه ، ولما ضعف نوبخت قرب اليه ابنه أبا سهل ، وما زال آل نوبخت ، الذين توارثوا التنجيم وعلم النجوم في خدمة العباسيين يقومون على خدمتهم ويترجمون لهم الكتب المختلفة .+ ونظرا لكلف المنصور بالنجوم ، فقد وفد الى بغداد عدد كبير من المنجمين من جميع الامم القديمة ، فقربهم اليه كإبراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الأسطرلابي المنجم ، وبعض الهنود ، وأمر المنصور إبراهيم الفزاري ان يترجم له كتاب السند هند الكبير الذي بقي أصلا في حركات الكواكب حتى أيام المأمون . ولما أصيب المنصور بمرض في معدته ، أخذ



شكل - ١٣٢ -

تزيين صفحة من مخطوطة اسلامية
محفوظة في دار الكتب المصرية
بالقاهرة تم رسمها واستنساخها
عام ١٣١٣ م

يهتم بالطب ويترجم كتبه فاستدعى جورجios بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء
جنديسابور وكان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية فنقل عددا من
الكتب الطبية الى العربية •

ولم يتفرغ المهدي والهادي الى الترجمة ، وان استمرت حركة النقل تسير
سيراً طبيعياً بما يقوم به الاطباء من تعريب ، فلما صار الناس في عصر الرشيد ، كثر
الجدل الديني واتسع أفق السكان بالرحلات التجارية والاتصالات مع الامم المختلفة،
وغدت بغداد مركز العالم المتمدن ومجمع النابغين من مختلف الشعوب واللغات في
كل علم وفن ، فتقدمت الترجمة واهتم العرب بالكتب الفلسفية والعلمية والادبية ،
وكان الرشيد والبرامكة يذلون من وقتهم واهتمامهم ومالهم الكثير في سبيل دفع
حركة النقل الى الامام ، فقد عثر الرشيد في حروبه في أقره وعمورية وغيرهما من
بلاد الروم على كتب كثيرة حملها معه الى بغداد ، وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه
بترجمتها وأمر البرامكة بنقل كثير من الكتب من الفارسية واليونانية والهندية ، فنقل
كتاب المجسطي لبطليموس عن اليونانية ونقلت كتب طبية عن الهندية •

وفي هذا الدور الاول ، تم نقل كثير من الكتب الاخرى الى العربية • فنقل
كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر ، وسميت هذه الترجمة
بالحارونية نسبة الى هارون الرشيد تمييزاً لها عن الترجمة المأمونية التي تمت في
عهد المأمون • ونقلت بعض كتب أرسطو في المنطق ، وبعض مؤلفات افلاطون ،
وأهم كتب جالينوس في الطب ، ودخلت الفلسفة اليونانية الى أبحاث العرب ،
نستدل على ذلك أن المعتزلة الاوائل كالنظام تأثروا في أبحاثهم بمنطق أرسطو
فتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض مما عرف عن فلاسفة الاغريق •

٢ - النور الثاني : عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) : لو لم يكن المأمون

خليفة ، لكان أحد العلماء البارزين في العصر العباسي ، نشأ نشأة علمية ، وعاش في وسط علمي ، ومال الى مذهب الاعتزال ، لانه مذهب يعتمد على العقل في محاكماته للأشياء ، فأفاد المأمون من مركزه السياسي لتدعيم الحركة العلمية ، فأمر بنقل جميع ما يقع عليه من كتب فلسفية ومنطقية لتأييد مذهب الاعتزال ، ولم يتعصب للفلسفة فقط بل عطف على جميع العلوم ، وأنفق في سبيلها بسخاء ، حتى انه كثيراً ما أعطى وزن ما يترجم له ذهباً ، وكان يضع علامة على كل كتاب يترجم له ويشجع الناس على قراءة الكتب المترجمة ويرغبهم في تعلمها ، ويضع الجوائز الكبيرة للفائزين في المناظرات التي كانت تجري تحت اشرافه المباشر أو تحت رعايته . واقتدى بالمأمون أهل الوجاهة والثروة فتقاطر المترجمون من النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة وغيرهم على بغداد ، وكثر الوراقون وباعة الكتب ، وراجت صناعة العلم والادب واغتنى محترفوها .

« وكان المأمون يجلب علماء اليهود والنصارى ويحتفي بهم في مجلسه ، لا لعلمهم فحسب ، بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها ، وقد أخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين كتباً خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربية بدقة وعناية عظيمة » كما يؤكد ذلك الكاتب الانكليزي (ميور) .

وشملت الكتب المترجمة جميع المواضيع ، ففي الفلسفة ترجمت كتب افلاطون وارسطو ، وفي الطب كتب سقراط وجالينوس ، وفي الرياضيات والنجوم كتب اقليدس وارخميدس ومنالائوس . وأقيمت في عصر المأمون مراصد جوية مختلفة في

الشماسية في بغداد ، وفي دمشق على جبل قاسيون ، وفي تدمر في بادية الشام ،
وقيس محيط الارض بعد التأكد من كروية الارض ومعرفة دوائر نصف النهار
كما سئرى ذلك في بحث علم الفلك •

واشهر المترجمين في عصر المأمون أحمد بن محمد الفرغاني أحد منجمي المأمون ،
وبختيشوع جورجيس طبيبه ، وجبرائيل الكحال المأموني ، والحسن بن سهل بن
نوبخت • وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن وهم من أبصر الناس
بالهندسة وعلم الحيل ، وغيرهم كثير مما لا يحصرهم عد •

٣ - الدور الثالث : حركة النقل بعد المأمون : وأصبحت حركة النقل ديدنا
لكثير من الناس ، فلما مات المأمون استمرت الحركة العلمية ، واستمر النقل
والتصحيح والتحقيق في التراجم السابقة ، وشاعت اللغات الاعجمية بين الناس حتى
أصبحت الهندية واليونانية والفارسية لغات شائعة عند الطبقات المتأدبة التي لم تصل
الى رتبة العلماء • ومن أهم ما ترجم في هذا الدور كتاب الفلاحة النبطية نقله الى
العربية أحمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ وظل
معتمد أهل الزراعة الى أمد غير بعيد ، وترجمت أسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي
المتوفى عام ٣٣٠ هـ • وكتب عديدة عن آداب الهند وعلومهم المختلفة ، نقل بعضها
أبو ريجان البيروني المتوفى عام ٤٤٠ هـ •

طريقة الترجمة : اتبع المترجمون طريقتين : الاولى واتبعها ابن البطريق
وابن ناعمة الحمصي وتقوم على ترجمة كل كلمة وحدها بما يقابلها في اللغة العربية
وهي طريقة غير مرضية ولا سليمة النتائج ، لأنه لا يوجد في العربية كل الكلمات

الاجنبية ، ولأن تركيب الجمل يختلف من لغة الى لغة * والطريقة الثانية هي التي اتبعها أكثر التراجمة كحنين بن اسحاق والجوهري وثابت بن قرة وقسطا بن



شكل - ١٣٣ -

صورة مرسومة عام ١٢٢٩ م
في شمالي العراق ، تزين صفحة
من كتاب طبّي لديسقوريدس ،
تمثله يشرح لتلميذا من تلاميذه
صفات وفوائد أحد الأعشاب .

لوقا والكندي ، وتقوم على قراءة الجملة أو الفصل واستيعاب المعنى الصحيح ثم وضعه في قالب عربي واضح ، وهي طريقة أحسن ، وكان أنصار هذه المدرسة معروفين بصدق النظر وسعة الاطلاع ، والنزاهة واستقامة الاخلاق فضلا عن فهمهم الموضوع الذي يترجمونه باللغتين ؛ اللغة التي يأخذون عنها واللغة العربية .

* * *

١ - المدارس

قد سبق العالم الاسلامي الغرب بقرن او ما يقارب ، اذ تمت به في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة على انقاض ما كان في بادئ الامر مدارس دينية تعتمد على المساجد سلسلة من الجامعات العظيمة . فاضاء نور هذه الجامعات خارج العالم الاسلامي الى مسافات بعيدة ، واجتذب اليها الطلاب من الشرق والغرب . مؤرخ اجنبي

المدارس والمؤسسات العلمية : لكلمة مدرسة معنيان مختلفان ، الاول ويقصد به المذهب الفكري ، وقد يكون لشخص معين مدرسة خاصة ، فيما اذا نحا منحى خاصاً في بحثه أو في كتابته ، فيقال المدرسة الافلاطونية ، ويقصد بها الطريقة التي أثبتها افلاطون في فلسفته ، ومن سار على غراره واتبع طريقته ، ومدرسة أبي حنيفة في القياس . وقد يكون لجماعة من الناس مدرسة أي مذهب فكري خاص ، وقد يكون لمدينة مدرسة متميزة ، فيقال مثلاً مدرسة البصرة ، أو مدرسة الكوفة في النحو ، وقد يكون لقطر مدرسة خاصة ، فيقال مدرسة الحجاز في الفتوى والتشريع ، ومدرسة الشام في أنظمة الحكم والمذاهب السياسية . وقد يكون لأمة بالذات ، فيقال المدرسة اليونانية في التفكير الفلسفي ، والمدرسة الرومانية



مدرسة لعلوم الدين والآداب
والعلوم الكونية فيها التعليم
مختلط بين الجنسين .
والرسم في مخطوطة عربية
اسلامية من القرن العاشر
الميلادي محفوظ اليوم في
متحف نيويورك

في التشريع * والثاني ويقصد به المؤسسات العلمية ، والامكنة التي يتلقى بها
المرء العلوم المختلفة ، وهذه قد تطورت في الاسلام وتطور معناها بتطور الامة
العربية *

المذاهب الفكرية : أما المدارس بالمعنى الاول أي المذاهب الفكرية فلقد
ظهرت في الامبراطورية العربية كثير من المدارس الفكرية في مختلف أقطارها
وعصورها ، بالرغم من وجود ميزات عامة اتصفت بها الحضارة العربية بـ
الاسلامية ، وكان لذلك أسباب كثيرة أدت الى هذا الضرب من وجود المدارس
الفكرية المتميزة ، فالحجاز وخاصة مكة والمدينة وقد عاش فيهما الرسول (ص)
معظم حياته ونزل فيهما القرآن والتشريع ، وقال فيهما الرسول (ص) حديثه ،
كوّن مدرسة خاصة في التشريع والتفسير وجمع الحديث وتاريخ السيرة النبوية *
وكل من أراد أن يتعرف الى ما قاله الرسول (ص) أو قام به أو رواه ، رحل الى
الحجاز وأخذ عن الصحابة * وكانت المدينة أيضا عاصمة الدولة الاسلامية وفي عصر
النبي (ص) والراشدين ، وكان توزيع الاسرى لا يكون الا فيها ، وكان كثير من
هؤلاء من الطبقات العليا في مجتمعاتهم ، وكان لهم آداب وعلوم ، وعرفوا تدوين
العلم وجمعه وتبويبه ، وقد أسلم كثير منهم ، فكان لهم تأثير على تطور العلوم
الدينية ، وكان لطبيعة البلاد في الحجاز ، وبعد سكانه عن الترف والرفاهية أن صبح
تشريعه بصيغة اختلفت عنه في العراق أو الشام ، ومن أشهر أصحاب المدارس في

مكة معاذ بن جبل الذي خلفه الرسول (ص) في مكة بعد فتحها ليفقه أهلها في دينهم ، وعبد الله بن عباس في أخريات أيامه ، ومن أتباع مدرستها الامام الشافعي حيث أخذ عن التابعين فيها الى أن بلغ سن العشرين حيث تحول الى المدينة ، واشتهر في المدينة من الصحابة عمر وعلي ثم يزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، كما اشتهر الامام مالك بن انس * اما العراق ، فكان موطناً لحضارات زاهية فارسية وسريانية ، وفيه كثير من الاسرى الاغريق ذوي الحضارة الهيلينية ، وكان موطناً لكثير من النزعات القبلية والنزاع السياسي ، فأدى ذلك الى وجود مدارس مختلفة من سياسية تبحث في أحقية الناس بالخلافة ، ومن المخطيء والمصيب من الخلفاء والامراء ، ودينية ظهرت في الفرق المختلفة ، وعلمية ظهرت في مدرستي البصرة والكوفة في النحو ، وتعصب القبائل العربية بعضها ضد بعض * واما الشام ومصر فكان لها صفات فكرية خاصة ، تأثرت بوجود الخلافة في الشام في العصر الاموي ، وبالثقافات القديمة التي كانت موجودة في مصر ، وبمركز مصر أيام استقلالها ، وسندرس مختلف هذه المدارس او المذاهب الفكرية بشكل عام *

المؤسسات العلمية : لقد حض الرسول (ص) على طلب العلم ، حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وحث المسلمين على الحصول عليه ولو كلفهم ذلك مشاق طويلة ، وبحشوا عنه في أقصى المعمورة فقال : اطلبوا العلم ولو بالصين ، ويقصد بذلك اطلبوا العلم ولو في بلاد بعيدة بعد الصين عنكم * وقد افتدى بعض المشركين أنفسهم من الاسر في عهده بتعليم عشرة من صبيان المسلمين ، وكان التعليم بادىء ذي بدء انما يكون في المسجد ، والمسجد هو أول الابنية الاسلامية العامة ، فيه تقام الصلوات ، وفيه يبايع الخلفاء ، وفيه يفصل بين الناس ، وفيه يدعى القوم للجهاد ، وفيه توزع الغنائم ، وفيه يخطب الخلفاء خطب العرش على حد التعبير الحديث ، ويبينون سياستهم ، وفيه أيضا كانت تعقد حلقات الدراسة والتدريس ، ولقد كبرت المساجد في العصرين الاموي والعباسي ، وكان العلماء والفقهاء والادباء يجلسون في المساجد الكبرى ، وحولهم طلبتهم وسامعهم

والمعجبون بهم فيحدثون ، ويوعظون ، ويلقون محاضرات علمية ، فلم تكن حلقاتهم اذن فقط للوعظ الديني ، بل كانت أشبه بالمدارس أو بمحاضرات الكليات ، يلقي الاستاذ أو المحاضر في المسجد ، ما يرغب أن يلقيه من علم كلام وتصوف ولغة وفلسفة ، ويأخذ عنه السامعون ، ويناقشونه في آرائه ، ويستشهد لهم بأقوال من سبقه ، ولقد يرحل كثيرون من مدينة الى أخرى لينظروا عالما اشتهر بحلقاته في هذه المدينة ، كما أن الطالب قد يتردد على حلقة هذا الاستاذ مدة معينة ، حتى اذا أجازته أي أعطاه وثيقة تشعر أنه تردد على دروسه مدة كافية وأنه أصبح باستطاعته أن يحدث وينقل عنه ، ويذهب ويكون حلقة أخرى ، أو يتنلمذ على شخص آخر ، ليدرس علماً آخر . ومن أشهر الحلقات ، حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة ، وتلميذه واصل بن عطاء ، رأس المعتزلة ؛ كما أن الجامع الازهر الذي بناه الفاطميون ، ليكون مركزاً للدعوة الشيعية ، ولنشر التعاليم الشيعية في القطر المصري وفي الاقطار المجاورة ، كان أشبه بجامعة علمية ، ولا يزال حتى اليوم يقوم بمهمة التدريس الديني واللغوي هو وجامع الزيتونة في تونس ، ولقد بني على أطرافه وفي جوانبه أروقة خاصة للطلاب الاجانب — المسلمون طبعاً — يقيمون فيها ، وأجريت لهم جرايات من غذاء وملبس ومسكن .

وقد بدأت الدراسة بالازهر حين جلس قاضي القضاة الفاطمي أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني وقرأ على الناس مختصر أبيه في فقه آل البيت ثم توالى حلقات بني النعمان بعد ذلك بالازهر (عام ٣٦٥ هـ) . وحذا حذوهم بعد ذلك الوزير ابن كلس ، فجلس بالازهر وقرأ على الناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي . ثم استأذن هذا الوزير خليفته العزيز بالله ان يعين بالازهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس ، يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالس العلم كل يوم جمعة ، فوافق العزيز على اقتراح وزيره وعين بالازهر سبعة وثلاثين فقيهاً (عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) فكانوا اول فوج من الاساتذة الازهريين ، واصبح عندئذ جامعة اسلامية كبرى تعنى بعلوم الاسلام من تفسير وحديث وكلام وفقه وعقائد وأصول اللغة

العربية * وازدادت قيمته العلمية ، بعد سقوط بغداد (٦٥٨ هـ / ١٢٥٦ م) وسقوط قرطبة في نفس الفترة الزمنية ، فحمل وحده مشعل العلوم الاسلامية وتابع في تأدية رسالته *

هذه المؤسسات العلمية كانت قائمة بالاضافة الى المساجد * وكان الوزراء والخلفاء في العاصمة ، والامراء والولاة في مراكزهم يعقدون مجالس للمناظرة ، يحضرونها بأنفسهم ، أو تعقد تحت رعايتهم ، وفيها يتناظر العلماء حول القضايا المختلف عليها ، ويحاول كل فريق أن يدعم مزاعمه أو يؤيد مدرسته - بمعنى المذهب - بحجج يفهم بها خصمه ، ومن أشهر هذه المجالس ، تلك التي كان يعقدها الخليفة ويرأسها بنفسه ، وخاصة في قضية خلق القرآن التي قال بها المأمون وأجبر الناس على القول بها ، كما كان وزراء الفاطميين يعقدون مثلها في القاهرة ارضاء لخلفائهم ، ولتزع العقيدة السنية من الشعب ، واحلال العقيدة الشيعية محلها بالحجة والاقناع *

والمدارس بالمعنى الحاضر تقسم الى قسمين :

١- كتاتيب ، وهذه أنشئت في العصور الاولى للاسلام ، وكان يتردد عليها الصغار ويتعلمون فيها مبادئ القراءة والكتابة والقرآن والعلوم الدينية ، وورد كثير من أسماء المعلمين كالحجاج قبل أن يشتهر أمره * * وظهر في العصر الاموي « المؤدب » الخاص في البيوت ، فكانت الاسر الغنية تكلف أحد الاساتذة بتأديب اولادها في غرفة البيت لقاء أجر ، وكان على الاستاذ أن يعلم الاطفال القراءة والكتابة والقرآن والشعر والادب ، ومن نصائح الآباء الى المؤدبين نستدل على المنهج الذي يجب أن يتبعه المؤدبون *

فقد قال عتبة بن ابي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده : « * * * وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه ، فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه * * وجنبهم محادثة النساء ، وروهم سيرة الحكماء * * » وقال الحجاج بن يوسف لمعلم ولده : « علم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فانهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم » *

٢- مدارس الكبار وهذه لم تنشأ الا بعد القرن الرابع الهجري كما يذكر المقريزي ، ويشبهها الكتاب المعاصرون بالكلية والجامعات ، لان طلبتها كانوا يترددون عليها بعد أن يختتموا القرآن ويعرفوا كثيرا من الاسس والمبادئ العلمية ، ويفدون الى هذه المدارس لتعلم العلوم الثانوية ، وللتخصص في نوع من العلوم ، ويذكر المقريزي أن أول مدرسة بنيت على هذا الشكل كانت في نيسابور وهي المدرسة البيهقية ، وبنى الغزنويون كثيرا من المدارس في مملكتهم * وأشهر مدارس بغداد ، المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك ، والمدرسة المستنصرية التي شيدها المستنصر بالله في النصف الاول من القرن السابع الهجري (٦٢٣-١٢٣٦م) وكانت جامعة بمعنى الكلمة ، اذ حوت أربع كليات أو مدارس مستقلة ، اختصت كل واحدة منها بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الاربعة * ومن أشهر مدارس القاهرة بعد الازهر دار الحكمة وأطلق عليها أيضا دار العلم ، وقد شيدها الحاكم بأمر الله ، وجلب اليها الاساتذة من أنحاء العالم الاسلامي في الشرق والاندلس ، وهي بالرغم من أنها أنشئت لنشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، فانه وجد في مكتبتها العظيمة كثير من الكتب التي تبحث في العلوم عامة * وفي الشام شيد نور الدين زنكي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، كثيرا من المدارس في دمشق وحلب وحمص وحماة وبلبك ، كما بنت أخت صلاح الدين في دمشق مدرسة ست الشام ، وبنى أخوها صلاح الدين في القدس المدرسة الناصرية وعدة مدارس في القاهرة والاسكندرية * وفي شمال افريقيا ، انشئت مدرسة في جامع الزيتونة منذ بنائه عام ١٤١ هـ ما لبثت أن أصبحت مدرسة دينية ولغة العربية تخرج الطلاب والعلماء لجميع بلاد المغرب * وفي عام ٢٤٥ هـ بني جامع القرويين في فاس بالمغرب ، الذي تحول بدوره الى جامعة اسلامية ، وتعتبر جامعة القرويين أقدم جامعة استمرت باداء مهمتها ، لأنها سبقت في اداء رسالتها العلمية أي جامعة أوربية^(١) ومن مدارس

(١) أقدم جامعة أوربية أنشئت في سالرنو في ايطاليا ١٠٥٠ م ثم تلتها جامعة بادوا ١٢٢٢ م واكسفردي عام ١٢٤٩ وكمبردج ١٢٨٤ ، وسلامانكا باسبانيا ١٢٤٣ ، ثم مونبيلييه في فرنسا .

المغرب الشهيرة مدرسة العطارين ومدرسة البيضاء ومدرسة الصهريج ومدرسة مصباح ، ومدرسة الصابرين التي أسسها يوسف بن تاشفين +

ويعتبر العالم السوفيتي من اكاديمية موسكو « بندلي » أن أقدم جامعة في العالم ليست في أوربا كما كان يظن ، بل في افريقيا ، وفي مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب + بينما يرى « دلفان » في كتابه « فاس وجامعتها » ان جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة في الدنيا ... واشتهرت مدارس الاندلس بكثير من أساتذتها الاختصاصيين الذين كانت لهم شهرة عالمية ، ولم تكن خاصة بالمسلمين بل كان يؤمها الطلاب من جميع الاجناس والاديان ، ومنهم البابا سيلفستر الثاني الذي أقام في اشبيلية ثلاث سنوات يغترف من علوم مدارسها ، حتى أنه لما أخذ الاوربيون ينشئون جامعاتهم ، التفتوا الى الاندلس ينتدبون أساتذتها للتدريس فيها والقيام بأعباء الناحية التعليمية ، من ذلك كلية الطب التي أنشئت في مرسيليا بجنوب فرنسا في القرن الثالث عشر ميلادي ، فقد دعي اليها أساتذة من عرب الاندلس ، وقد ذكر أن قرطبة في عهد الحكم الثاني كانت تضم سبعة وعشرين مدرسة مجانية ، وجامعة كانت أعظم جامعة عالمية ، وان مملكة غرناطة كانت تضم مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى ، وكانت تدرس في هذه المدارس العلوم من دينية ودنيوية ، فالى جانب القرآن والتشريع والفقه والحديث ، تلقى دروس في التاريخ والجغرافيا والفلك والطب والفلسفة والموسيقى وغيرها ، وكان في أكثر المدن ، الى جانب المساجد والكليات والجامعات مكتبات كبرى أو خزائن للكتب تضم بين جدرانها آلاف مؤلفة من الكتب ، يباح للجميع ارتيادها ، وقراءة محتوياتها وكانت من أكبر المساعدين على نشر العلم بين مختلف الطبقات في العصور الاسلامية المختلفة +

٢ - المكتبات

المكتبات : كانت الكتابة عند العرب الجاهليين قليلة ، ولقد سجل كُتبة الوحي القرآن الكريم على سعف النخل والجريد ورقيق الحجارة ورق الغزال ، الا أن الدين الجديد حض على طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فأقبل الناس على تعلم القرآن شفاها ثم مالوا الى القراءة والكتابة ، ولما فتحوا الامبراطورية العربية الواسعة وجدوها حافلة بالكتب ؛ كثيرة المكتبات العامة ، فأخذوا بقراءتها وترجمتها ، وما لبثت صناعة الورق التي نقلوها عن الصين ، ان انتشرت وامت العالم الاسلامي ، وادخلت تحسينات كثيرة على صناعة الورق ، حتى أصبح الورق العربي أحسن أنواع الورق في العالم ، وعنه أخذ الاوربيون هذه الصناعة خلال الحروب الصليبية ، وكان طبيعيا أن تتحسن صناعة الورق مع انتشار العلم وتنشأ حرفة خاصة هي حرفة الوراقين . . وهم أصحاب المكتبات الادبية التي تباع وتؤجر الكتب ، وكانت حوانيت الوراقين مجتمع الادباء والكتاب والظرفاء والشعراء ، وكثيرا ما كان المتأدبون يستأجرون دكاكين الوراقين ليلا يقرؤوا جميع ما فيها . .

وقد شجع الخلفاء والامراء والاعنياء صناعة الكتب والوراقة ، وأنشؤوا المكتبات العامة ليقرأ فيها رواد العلم دون أن يقف غلاء الكتب وتكاليف الاستساخ حاجزاً بينهم وبين العلم . وتباهى الخلفاء والامراء بعظمة مكتباتهم وتنوع ما فيها من كتب ، وندرة الكتب التي يشترونها ، وكانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها تشتهر بمكتباتها العامة التي فاقت ما كان أنشأه البابليون والفرس واليونان والمصريون من مكتبات عامة في عواصم ملكهم . ومثال بسيط نسوقه

عن تطور المكتبات السريع ، ويدل على محبة العرب المسلمين للكتب واقبالهم على التعلم ، وهو أنه لم يكن في مكة حين ظهرت الرسالة غير سبعة عشر رجلا يكتبون ويقرؤون ، وأصبحت مكة نفسها في منتصف القرن الاول الهجري تحوي خزانة كتب قريبة من الحرم ، تجمع بين كتب الدين من قرآن وحديث وفقه ، وكتب الشعر والاخبار . ويروى أنه كان لاحد رجالات مكة وهو عبد الرحمن بن أبي ليلى ، في نفس الفترة الزمنية « بيت فيه كتب يجتمع اليه القراء قلما تفرقوا الا عن طعام » .

وإذ نشأت خزائن الكتب اول أمرها في المساجد . فان العصر العباسي هو أول من أفرد أمكنة خاصة للكتب وللترجمة والاستنساخ والدراسة ولحلقات البحث العلمي وأصبح انشاء المكتبات عادة سارية في بقية العهود العربية الاسلامية .

كانت أقيمت مكتبات خاصة تبحث في فروع معينة من العلوم ، الى جانب تلك المكتبات العامة الواسعة ، فاذا كان صاحبها مهتما بعلم الفلك جمع المؤلفات التي تبحث في هذا العلم ومشى على ذلك المعنيون بالطب والهندسة ، أو الكيمياء أو التاريخ أو الشعر .

وأحيانا يكون صاحبها راغبا في أكثر من فرع واحد مثل علي بن يحيى المنجم فانه أسس مكتبة في بيت كبير له بضواحي بغداد أطلق عليها اسم « خزانة الحكمة » حوت على أنفس المخطوطات في شتى العلوم . وشاعت شهرتها حتى كان الناس يقصدونها من كل فج عميق . وقد زارها العالم الفلكي أبو معشر واعجب بها اعجابا شديدا .

قال ابو علي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة : كانت لعلي بن يحيى بن المنجم ضيعة نفيسة وقصر جليل ، فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم . والكتب مبدولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى .

وأشهر المكتبات العامة :

مكتبات بغداد : أشهر مكتبة في بغداد هي « بيت الحكمة » أو « خزانة الحكمة » ويعتقد أن الرشيد هو الذي أنشأها ، لكن اشتهر أمرها في عهد ابنه المأمون لما بذله من عناية فائقة في تزويدها بجميع الكتب التي ألقت أو ترجمت في عصره وعصر من سبقه . وبيت الحكمة كانت مكتبة واسعة ، رتبت فيها الكتب ونضدت على رفوف خاصة بحسب لغتها وفرع العلم الذي تبحث فيه وزودت بمقاعد للقراءة والمطالعة وجعل لها قيم لحفظها وترتيبها وتسليم كتبها الى القراء وما شاكل ذلك ، وكانت أيضا الى جانب ذلك تضم فرقا خاصة للترجمة والنسخ ، فكان المأمون قد راسل قيصر الروم وجلب من بلاده ما عنده من كتب قديمة وأمر المترجمون أن يترجموها عن الاغريقية وكانوا يجلسون في قاعات خاصة لهم ، وكذلك المترجمون عن السريانية أو الفارسية أو السنسكريتية ، وكان النساخ ينسخون هذه الكتب أما لقاء جراية معلومة من الخليفة فهم أشبه بموظفين لنسخ الكتب وكتابة عدة نسخ من كل مؤلف ، أو ينسخون على حساب العلماء والاعنياء لقاء أجر معلوم ، اذ كثيراً ما يضطر الراغبون في الحصول على كتاب من الكتب أن ينسخوه من « بيت الحكمة » لانفرادها به .

وقد جعل الرشيد « يوحنا بن ماسويه » مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب ، بينما جعل المأمون « سهل بن هارون » وهو برتبة الوزير ، مشرفاً على المكتبة ، لما كان لها من أهمية في نظره ونظر الدولة التي يرأسها ، وزادت محتويات هذه المكتبة ، بما قدم اليها هدية من الحكام العرب أو الاجانب تقرباً من دار الخلافة الاسلامية ، بالإضافة الى ما كانوا يبيعونه بأسعار مرتفعة جداً ، فقد أهدي صاحب جزيرة قبرص مجموعة قيمة من الكتب الى بيت الحكمة وكذلك فعل قيصر القسطنطينية ، بعد أن طلبها منه المأمون . ولعل أشهر المترجمين أو المعربين ، انما ظهوروا في فترة حكم الرشيد والمأمون أمثال : أبو سهل الفضل ويوحنا بن ماسويه ، وابن البطريق ، وحنين بن اسحاق ، وعمر بن القرحان ، وثابت بن قرة .

ومن مكتبات بغداد الشهيرة المكتبة التي ألحقت بالمدرسة المستنصرية وهي ذات قاعات واسعة للمطالعة مجهزة بما يساعد القراء على القراءة ، من مقاعد ، وصهاريج لتبريد مياه الشرب وساعة حائط لمعرفة الوقت والتنبيه الى أوقات الصلوات . والمكتبة التي وقفها وزير بهاء الدولة عام ٣٨١ هـ وجمع فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وقد احترقت عند دخول السلاجقة بغداد ٤٤٧ هـ .

مكتبات القاهرة : اهتم الفاطميون بإنشاء المكاتب وجمع الكتب التي تؤيد المذهب الشيعي الفاطمي ومنافسة بغداد في ذلك ، فأنشأ يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي « خزانة الكتب » لتضاهي بيت الحكمة البغدادية ، وكان الخلفاء الفاطميون يغذونها دائماً بما يحصلون عليه من الكتب حتى ناف عدد مجلداتها على المليون والنصف مجلد ، منها عدة نسخ لكتاب واحد ، ومنها نسخة لكل كتاب ، وقد أنشأ الحاكم بأمر الله « دار العلم » أو دار الحكمة عام ٣٩٥ هـ وعين لها أساتذة لتدريس أصول المذهب لذلك كانت مكتبة ومدرسة في وقت معاً .

ويروي أحد المؤرخين : « انه قد حملت الى هذه المكتبة الكتب من خزائن القصور ، وحمل اليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعاً لاحد الملوك أو الخلفاء قط » وأجرى الحاكم بأمر الله الارزاق على من في دار الحكمة من العلماء والفقهاء والاطباء وأباح دخولها لجميع طبقات الشعب ، ومذاهب أهل السنة والشيعة ، للقراءة فيها أو للكتابة والنسخ والتعليم والترجمة . وصارت تعقد فيها الاجتماعات العلمية ، ليحبي فيها الجو العلمي الذي شهدته بغداد في عصري الرشيد والمأمون ، وصار الحاكم يحضر بنفسه أحياناً مجالس المناظرة العلمية ، ويخلع في نهاية كل جلسة يحضرها الخلع السنية على العلماء المساهمين في المناظرة والمناقشة والجدل العلمي والديني والادبي . وأكد الحاكم بأمر الله ، بأن ما أوقفه على دار الحكمة من أوقاف (ضياع وحوانيت وأبنية) ستمولها أبد الدهر . .

ومن وصف المقرئ لهذه المكتبة القاهرية نستطيع أن نأخذ فكرة عن البناء

وعن المحتويات ، حيث يقول ان دار الحكمة لم تفتح أبوابها للناس الا بعد أن فرشت وزينت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وعين لها القوام والخدم * * وكان البناء عظيماً جداً ، اذ كانت عدة الخزائن يرسم الكتب في سائر العلوم أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر ألف كتاب وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع * * وهذا الوصف يدل على ان المقصود بالخزانة ليس ما نعرفه من الخزائن الخشبية أو المعدنية ، بل بما قصد المقرئ قاعة كبرى جعلت الرفوف في جدرانها وخصصت كل قاعة لفرع من العلوم *

مكتبات بلاد الشام : لم ينشئ الامويون مكتبات عامة ، وأهمل العباسيون أمر بلاد الشام لذلك لم تسم في مكتباتها الى درجة بغداد والقاهرة ؛ واشتهر أمر المكتبة التي أنشأها الفاطميون في طرابلس الشام * وعرفت أيضاً بدار العلم وقد نهبها الصليبيون * ومكتبات الخزائن النورية التي أنشأها نور الدين زنكي ، ومكتبة انطاكية التي كان يتردد عليها أبو العلاء المعري ، عدا مكتبات حلب ودمشق الصغيرة والكثيرة العدد التي كانت تلحق بالجوامع والمدارس التي أتى الحريق ويد النهب والسلب على أكثرها *

مكتبات المغرب : أطلق على المكتبة في المغرب اسم « خزانة » وأشهرها خزانة القرويين ، وكان فيها حتى آخر القرن الماضي ثلاثون ألف مجلد ، وكانت بها أكثر مخطوطات « الاسكوريال » في مدريد * سرقت منها ، حين كلف السلطان زيدان السعدي قنصل فرنسا عام ١٦١٧ م بنقل اربعة آلاف مخطوط عربي الى أغادير ، فحول القنصل شراع مركبه الى فرنسا ، فأسره القراصنة الاسبان وغنموا المخطوطات ووضعوها في الاسكوريال *

ويروى أن أبا يوسف المريني كان قبل ذلك قد اشترط في صلح له مع ملك اشبيلية منحه جميع المخطوطات العربية التي انتزعت من المسلمين أيام انحسار حكمهم عن الاندلس ، فحمل منها الى جامعة القرويين ثلاثة عشر حملاً *

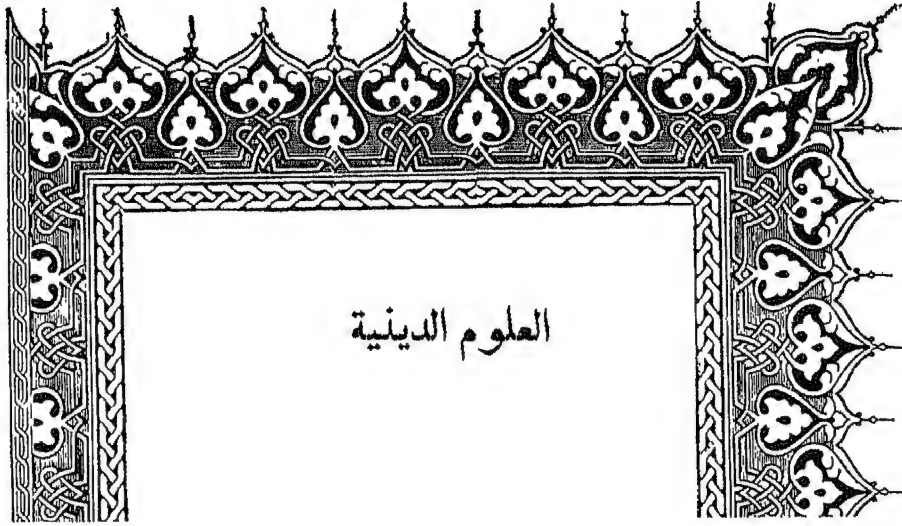
مكتبات الاندلس : قلد الاندلسيون المشاركة وفاقوهم في بعض مظاهر الحضارة ، وأسس الحكم بن الناصر (توفي ٣٦٦ هـ) مكتبة في قصره في قرطبة ، وجلب لها الكتب من العالمين الاسلامي والاوربي وأقام لها الموظفين للعناية بشؤونها ، وزاد عدد كتبها عن الاربعمئة الف كتاب . ويقول الكاتب الاوربي كونديه Conde ان الاسبان عندما استولوا على قرطبة أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب فيها ما يزيد عن مليون وخمسين الف مجلد .



شكل - ١٣٥ -

رسم مكتبة من المكتبات التي يتردد عليها العلماء وجدت في مخطوطة عربية قديمة

- ٥٤٧ -



العلوم الإسلامية : نزل القرآن الكريم على الرسول (ص) وفيه التشريع الإسلامي ، وقام الرسول بكثير من الاعمال وحدث كثيراً من الاحاديث لحل جميع القضايا الدينية والاجتماعية التي اعترضت له ، وكان الناس يرجعون اليه في حل مشاكلهم ، ولكن كثيراً منهم كان بعيداً عن مكان اقامته ، كما أنه بعد وفاته عليه السلام انقطع الوحي ، وأصبح لزاماً على الناس أن يفهموا أو يدرسوا أقواله ، وقيسوا الاشياء بنظائرها ، وجاءت طبقة جديدة اختلفت في تفسير آي الذكر الحكيم ، وكان لا بد لكل هذا من أن تنشأ علوم دينية مختلفة ، بعضها يتعرض لتفسير القرآن وآخر يبحث في الحديث ، وثالث يبحث في الفقه ..

علوم القرآن :

١ - علم القراءات : نزل القرآن بلهجة قريش واستعمل كلمات غير عربية كانت معروفة من قبل أكثر العرب ، وسمح الرسول لاتباعه بقراءة القرآن حسب

(*) زخرفة حاشية صفحة أحد المصاحف ، وهي نموذج اساليب المدرسة البغدادية في زخرفة المخطوطات .

لهجاتهم الخاصة • وقد جمعت هذه اللهجات فيما بعد بسبع لهجات ووصل بها بعضهم الى عشر • ولا يزال القراء يقرؤون القرآن على هذه اللهجات • ولكن العامة في جميع العالم الاسلامي تقرأه على لهجة قریش •

ووضع القراء قواعد وأسس لقراءة القرآن ولهجاته جمعت في « علم التجويد » •

٢ - التفسير : ان أي كتاب عام شامل يحتاج الى مفسرين يفسرون ما غمض من أصوله وقواعده ، لان الناس متفاوتون في فهم اللغة التي يتكلمون بها واستيعاب مفرداتها وتراكيبها ، فكيف بالقرآن ، وهو كتاب جامع لاصول دين جديد ، استعرض أخبار الامم السالفة وشرع لاتباعه قانوناً أراد له البقاء وأمر اتباعه القيام بفرائض وعبادات متنوعة ، فلا بد للناس من تفسير لآياته وتعليماته كمناسك الحج مثلاً ، وعدد ركعات صلاة كل وقت ، وبيان الآيات التي نزلت بمناسبه حوادث معينة وقعت في عهد الرسول • والقرآن وان نزل بلغة العرب الفصحى ، فقد آمن به أقوام غير عربية ، تحتاج الى فهمه ودراسة معانيه ، حتى العرب الاقحاح لم يكونوا على مستوى ثقافي واحد ، ليفهموا آياته على قدر سواء ، ونحن ندرك من واقعنا ، ان الخطبة تلقى على المستمعين ، فيأخذ كل منهم على قدر ثقافته ووعيه ، وان الكتاب يقرأ ، فلا يكون الجميع متساوين في فهمه واستيعابه • بل على قدر ثقافة السامع أو القارئ يكون الفهم ويكون الاستيعاب ، وعلى هذا نشأ علم التفسير الذي اعتمد على :

١ - تفسيرات الرسول : فقد كان الرسول عليه السلام يفسر ما جمل من أي الذكر الحكيم ، فقد فرض القرآن الصلاة ، وبيّن الرسول كيفية هذه الصلاة وعددها وأوقاتها وشروطها ونواقضها ، وفرض القرآن الزكاة فشرحها الرسول وبين نسبتها الى المال ، وبين شروطها في مختلف أحوال المال النقدي والعيني وهكذا نقل عن الرسول كثير من التفاسير •

ب - النقل عن الصحابة الاوائل : كان صحابة الرسول يرافقونه في حله وترحاله ويحفظون عنه أقواله ويراقبون أعماله ، فعرفوا أسباب نزول الآيات والظروف التي لا يستها ، والناسخ والمنسوخ منها ، وأخذوا بعد وفاة الرسول يشرحون ذلك للناس ويفسرون لهم ما غمض عليهم من المعاني .

ج - الاجتهاد : وهو أن يدرس العلماء الآيات معتمدين على معاني كلماتها



شكل - ١٣٦ -

سورة الفاتحة من مخطوطة مصحف كتب بالخطين الكوفي والنسخي بيد زين العابدين الشريف الصفوي (بدىء بكتابة هذا المصحف في عام ١٣١٢ وتمت الكتابة عام ١٣٢٣ في عهد مظفر شاه قاجار في إيران) .

اللغوية ، ومناحي القول عند العرب بدراسة أشعارهم ولغتهم دراسة مستفيضة ، ومطابقة هذا التفسير على روح الاسلام العامة ، وقد عرف ذلك أيضا باسم «الرأي» وأول من فعل ذلك ابن عباس وابن مسعود .

د - مافي الكتب السماوية الاخرى : آمن كثير من اتباع الديانتين السماوية اليهودية والنصرانية ، ووجد هؤلاء أن القرآن نحى في ذكر قصصه عن الامم الغابرة منحى العظة دون ان يتعرض للتفصيل ، وقد مال الناس بعد ذلك لاستقصاء الحوادث ومعرفة وقائعها ، ففسرها لهم هؤلاء اليهود والنصارى الذين أسلموا بما في كتبهم الدينية ، وهكذا فسرت الآيات التي ذكر فيها أصحاب الكهف وقصة آدم والجنة والشجرة التي نهى آدم عن الاكل منها . وأشهر المفسرين الذين اعتمدوا على التوراة هو وهب بن منبه وكان يهوديا فأسلم ، كما اعتمد الطبري في تفسير سورة مريم على الانجيل .

لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ كَبُرُوا
إِذْ يَبْكُكُمْ وَأَفْجَرُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ قَلَمًا كَتَبَ
عَلَيْهِمُ الْفِتَالَ إِذْ أَفْرَجُوا مِنْهُمْ
يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ

شكل - ١٣٧ -

صفحة من مخطوطة مصحف نادر مكتوب بالخط الاندلسي
وفيها الآيات ٧٥ - ٧٧ من سورة النساء

المفسرون وكتبهم :

الذين فسروا آيات القرآن أكثر من أن يحصروا ، ولكن الذين اشتهروا بالتفسير وتركوا لنا تفاسير مدونة طبعت اليوم يمكن معرفة آرائهم وطريقة بحثهم ومناقشة تفاسيرهم قليلون ، فبعد الصحابة الاوائل مثل علي وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي موسى الاشعري الذين لم يصلنا من تفاسيرهم شيء جاءت طبقة من المفسرين في عصر التأليف والتدوين منهم :

- الطبري : وكتابه جامع البيان في تفسير القرآن
- البغوي : وكتابه معالم التنزيل
- الزمخشري : وكتابه الكشاف
- الرازي : وكتابه مفتاح الغيب
- البياضاي : وكتابه أنوار التنزيل وأسرار التأويل
- جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي: وكتابهما تفسير الجلالين

وفي عصر النهضة الحديثة نهض بعض العلماء لدراسة القرآن وتفسيره تفسيراً يتلاءم عصر النهضة الحديثة نهض بعض العلماء لدراسة القرآن وتفسيره تفسيراً يتلاءم والعقلية الحديثة والعلوم العصرية ، ويتمشى مع الواقع في النهضة الجديدة .
اذ ان معجزة القرآن التي جعلته فوق مستوى أي قانون وضعي آخر ، تلك المرونة العجيبة ، والمعاني الكثيرة التي يفهمها الانسان بحسب ذكائه وثقافته وبيئته ، فكان تفسير القرآن - كما يقول المرحوم أحمد أمين - في كل عصر من العصور يتأثر بالحركة العلمية فيه ، وهو صورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية ، حتى لتستطيع اذا جمعت التفاسير التي ألفت في عصر من العصور أن تتبين فيها مقدرة الحركة العلمية ، وأي الآراء كان سائداً وشائعاً وأياًها غير ذلك .

وأشهر التفاسير الحديثة تفسير الشيخ رشيد رضا نقلاً عن استاذة الشيخ محمد عبده ، وتفسير فريد وجدي ، والتفاسير الجزئية لآيات معينة أو سور معينة التي نشرها سيد قطب أو علماء الاسلام في الازهر وغيره .

ولنذكر شيئاً عن أقدم كتاب تفسير بين أيدينا وعن كاتبه : « الطبري »

كانت ولادة الامام ابو جعفر محمد بن جرير الطبري سنة (٢٢٤هـ / ٨٣٨) في بلدة آمل عاصمة طبرستان ، وقد عاش خمسا وثمانين سنة حيث توفي سنة (٣١٠هـ / ٩٢٣) في بغداد ودفن بها . أعني أنه عاش في أزهى عصور الاسلام تقدماً واثناً على كل المستويات الفكرية .

وكانت الصفة البارزة للذين تعرضوا لتفسير القرآن ، تهيئهم من القول فيه بأرائهم ، واعتمادهم على ما وصل اليهم من روايات يتناقلونها ، منها الصحيح ، ومنها الضعيف أو الموضوع أو المستمد من الاسرائيليات . وقد أثر هذا الجو على الطبري فكانت عنايته البالغة بالرواية ، وان لم يمنعه هذا من أن يدلي برأيه موافقاً أو مخالفاً . فكان تفسيره يمثل دائرة معارف ضخمة في كل العلوم التي كانت سائدة في هذا العصر ، وتتصل بتفسير القرآن .

وقد انطوى تفسير الطبري واندثر ، ونامت نسخه في بعض المكتبات . فمرت عليه قرون دون أن يعرفه أحد اللهم الا بعض نماذج وورقات مبعثرة كانت تشير اليه وتثير تلهف العلماء عليه حتى نجد المستشرق نولدكه يكتب سنة ١٨٦٠م بعد أن اطلع على نماذج من هذا التفسير : « ولو حصلنا على هذا الكتاب لاستطعنا أن نستغني عن كل كتب التفسير المتأخرة عليه » . وقد أراد الله لهذا الكتاب العظيم ان يبعث من جديد ، وفي عهد النهضة المطبعية اذ وجدت منه نسخة كاملة كما يقول جولد تسيهر في مكتبة أمير حائل وأمكن الاعتماد عليها في طبعه بالقاهرة فسي أوائل هذا القرن .

وقد جاء الطبري في تفسيره بأشتات من الروايات • وهو يعلم ان منها الموضوع والمكذوب • فترك لضعاف العقول عقلية خرافية تراودهم مدى الدهر ••• وكنا نحسب الا تنقل الى ما بعد عصره ، والا تحويها الكتب ••• ولكن وجودها مع ذلك يعطينا جانبا من صورة الجو الفكري الذي راجت فيه رواج جعل الطبري وأمثاله يعنون بتدوينها^(١) •

يروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : التفسير على أربعة أوجه : « وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، تفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه الا الله » •

ولم يتعرض المفسرون كثيرا للوجهين الاول والثاني لانهما معروفان لدى القارئ والسامع من العرب ولا الوجه الرابع كوقت قيام الساعة مثلا مما استأثر الله بعلمه • وانما كان الوجه الثالث هو مدار التبيان والسؤال والجواب •

٢ - الحديث وأصوله : كان لدى المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب مدون هو القرآن ، وأحاديث غير مدونة هي مجموع ما قاله الرسول ، ولقد خشي الصحابة الاوائل ان يجمع الحديث في كتاب واحد ، فيشغل الناس عن القرآن ، ولقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال في معرض نصائحه لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا من المدينة الى العراق : « جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله » •

ينقسم علم الحديث الى قسمين : علم الحديث رواية • وعلمه دراية • أما علم الحديث رواية ، فهو علم يشتمل على نقل ما اضيف الى النبي عليه السلام أو الى أحد أصحابه أو من دونهم ، قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة • أو هو

(١) الشيخ عبد المنعم النمر ، رئيس تحرير « الوعي الاسلامي » ، الكويت • مقالان في مجلة العربي عدد ١٢٩ و ٣١٣ •

بتعبير آخر : علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الاحاديث بالرسول عليه السلام من حيث أحوال روايتها ضيضا وعدالة ، ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعا واشتهر بأصول الحديث *

وأما علم الدراية ، فهو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث وعن المراد منها مبني على قواعد العربية وضوابط الشريعة ومطابقا لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم *

والحديث ينقسم الى متواتر وغير المتواتر والمتواتر هو الحديث الذي يكون له أسانيد كثيرة ، (من عشرة الى أكثر) وغير المتواتر ماورد بثلاثة أسانيد فصاعدا ويسمى مشهورا ، وما ورد باثنين ويسمى عزيزا وما ورد بواحد ويسمى غريبا ، وهذه الثلاثة تسمى آحادا *** وهي تنقسم الى : مقبول وهو ما يجب العمل به عند الجمهور ، والى مردود ، وهو الذي لم يرجح صدق المخبر به * كما تنقسم الآحاد الى صحيح ، وحسن ، وضعيف ***

وضع الحديث : كان لعدم تدوين الحديث في عهد مبكر ، أن استباح قوم لانفسهم وضع الحديث ونسبته الى الرسول عليه السلام حتى أن بعض الناس لم يتورع عن افتراء الحديث على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته ، يدلنا على ذلك قوله : « من كذب علي عامدا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ولعل ذلك الحديث قيل ليمنع الناس من الكذب على لسانه ، وانما وضعت كثير من الاحاديث في العصور التي تلتها لاسباب عديدة منها :

١- الخصومة السياسية : عندما انقسم المسلمون منذ الفتنة الاولى التي انتهت بمقتل عثمان واستمرت الى نزاع بين علي ومعاوية ، ثم ظهرت على شكل نزاع بين الامويين والعلويين والخوارج والزبيرية وغيرهم ، عمد كل فريق من هؤلاء الى الحديث يضع ما يؤيد رأيه ويدعم حجته من تفضيل لقبائل على قبائل ، وأعمال على أعمال *

ب - الخصومة الدينية : وقد نشأت عندما بحث الفرق أمورا دنيوية لها مساس بالدين أو أمورا دينية بحثة كمسألة الخلافة وأمر مرتكب الكبيرة وصفات الله تعالى ، وقد عمد بعضهم عندما عجز عن تأييد دعواه بالمنطق السليم الى الافتراء على لسان رسول الله .

ج - الخصومات العنصرية : اتبع الامويون سياسة عربية وأبعدوا الموالي عن أعمال الدولة فنقم هؤلاء عليهم ، وأيدوا الثورات التي قامت ضد الامويين ، ثم ناصروا العلويين والعباسيين وأقاموا الدولة العباسية على أكتافهم ، وقاوموا النفوذ العربي في المجال السياسي والديني والادبي ونشأت حركة الشعوية خلال هذا الصراع العنيف ، ووضع كل فريق من العرب والعجم الاحاديث بتفضيل العرب على العجم او بالعكس .

د - التقرب من ذوي النفوذ والجاه ومتابعة هوى الخلفاء والامراء : كان بعض من يتسم بسمة العلم ، يتقرب من ذوي المكانة في الدولة بتأييد أعماله وأفعاله ولو كانت مخالفة للشرع الحنيف ، وذلك باختلاق الاحاديث الكاذبة تبعالهوى هؤلاء المتنفذين طمعا في مال أو حظوة .

هـ - رغبة بعض العلماء الحث على الفضائل والترهيب من عمل الحرام رأى بعض العلماء أن قسما من الناس لايرعون عن منكر ، ولا يقبلون على مستحب الا اذا كان لذلك أصول دينية ، فلما شاهدوا بعض المسلمين قد انصرفوا عن تعاليم الدين ، أوجدوا أحاديث جمة بفضل قراءة القرآن وبعض سورته في أوقات معينة ، وبفضائل الصحابة والاولياء والعلماء ، وفي الدعوة الى التصوف وغيرها حتى يقبل الناس على قراءة القرآن وعمل الخير واحترام أهل العلم ، والابتعاد عن الاسترسال وراء الشهوات لان الكثيرين أصبحوا لا يقبلون العلم والدين الا ما اتصل منه بالكتاب والسنة .

ولهذا دخل في الحديث كثير من الموضوع المختلق بشكل روع أهل العلم في عصر التدوين فأنبروا الى جمع الحديث وتدوينه بعد تنقيته وتمييز صحيحه عن موضوعه ، واتبعوا في ذلك طرقا تعد أحسن طرق علمية يمكن ان تتبع للتأكد من صحة الحديث وهي :

أ - **الاسناد** : أي اسناد الحديث الى رواته فيقال مثلا : حدثني فلان عن فلان *** عن رسول الله أنه قال ***

ب - **الجرح والتعديل** : أي دراسة رواة الحديث أنفسهم وترتيبهم حسب صدقهم وأمانتهم في النقل ، وحيادهم المذهبي والسياسي ، فمتى عرف أحدهم ولو بكذبة واحدة في حياته أو انتمى لفرقة سياسية أو دينية جرح ولم يقبل منه الحديث ، ومن لم يعرف عنه ذلك ، واشتهر بالتقى والورع والصدق ، « عدل » وقبل منه الحديث . وعلى هذا الاساس نقد الاسناد ودرست أحوال السند بعناية فائقة وبطرق علمية ، وصنف المحدثون بطبقات حسب أهميتهم ومقدار الثقة بروايتهم *

أشهر المحدثين الاوائل : أبو هريرة - عائشة أم المؤمنين - عبد الله بن عمر - عبد الله بن عباس - أنس بن مالك *

تدوين الحديث :

عندما جمع القرآن في عهد أبي بكر فكر جماعة في جمع الحديث لكن عمر مانع في ذلك خشية أن ينصرف الناس الى الحديث ويتركوا القرآن . وقد بقي الحديث محفوظا في الصدور يتناقلونه شفاهيا أو مكتوبا بشكل مفرق عند بعضهم ، جاء فسي كتاب كشف الظنون : واما مبدأ جمع الحديث وتأليفه وانتشاره ، فإنه لما كان من أصول الفروض ، وجب الاعتناء به والاهتمام بضبطه وحفظه . ولذلك يسر الله سبحانه وتعالى العلماء الثقة الذين حفظوا قوانينه واحتاطوا فيه ، فتناقلوه كابرا عن

كابر ، وأوصله كما سمعه أول الى آخر ، حتى لقد كان أحدهم يرحل المراحل ، ويقطع الفيا في والمفاوز ويجوب البلاد شرقا وغربا في طلب حديث واحد يسمعه من راويه ، فمنهم من يكون الباعث له على الرحلة طلب ذلك الحديث لذاته ، ومنهم من يقرن بتلك الرغبة سماعه من ذلك الراوي بعينه *** فانبعثت العزائم الى تحصيله • وكان اعتمادهم أولا على الحفظ والضبط في القلوب ، غير ملتفتين الى ما يكتبونه ، محافظة على هذا العلم كحفظهم كتاب الله سبحانه وتعالى • فلما انتشر الاسلام ، واتسعت البلاد ، وتفرقت الصحابة في الاقطار ومات بعضهم ، وقل الضبط ، احتاج العلماء الى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة •

وجاء في صحيح البخاري في كتاب العلم : ان عمر بن عبد العزيز كتب الى ابي بكر بن حزم أمير المدينة وقاضيا (توفي سنة ١٢٠ هـ) : انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا يقبل الا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا ***

وفي مصدر آخر (مفاتيح السنة) ان عمر بن عبد العزيز كتب الى عماله في انحاء المدن الاسلامية بجمع الحديث ***

الا ان ما جمع في عهد هذا الخليفة الاموي لم يصلنا وان كان أحد المراجع التي اعتمد عليها من دونوا الحديث من بعده •

وعندما بدأ التدوين في أواخر العصر الاموي جمع كثير من العلماء ما سمعوا من حديث ، ولما قويت الحركة العلمية من تأليف ونقل وجمع ، انكب جماعة من العلماء على تصنيف الحديث وتدوينه وانقسموا الى فريقين : فريق جمع كل الاخبار المروية عن الرسول عليه السلام من أحاديث العقائد وأحاديث الاحكام ، والاخبار الاخرى التي تعرضت لشؤون الحياة والمعاملات كالتربية النفسية والادب الديني

وخلق المجتمع الفاضل ، وبث الروح الاسلامية وغيرها * وسميت كتبهم بالجوامع مثل كتاب صحيح البخاري (٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (٢٦١ هـ) * وفريق رتب أحاديث الفقه ترتيبا بحسب ابواب الفقه ، فاتبع روايات أحاديث الاحكام وقضاء النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله التي ستنبىء عن أحكام فقهية وما أقره من أقوال وأعمال تتعلق بالاحكام ، ويروون معها أقوال الصحابة الفقهية * وأول هذه الكتب : الموطأ للإمام مالك (٩٤ - ١٧٩ هـ) وقد ذكر فيه أقوال الصحابة وما يستنبط منها من فقه * وذكر في المقدمة أن هذا الاستنباط متصل بصلة وثيقة بالسنن والآثار *

ونهج على غرار مالك جامعوا الاحاديث التي عرفت كتبهم بالسنن وهم أربعة:

١ - أبو داود (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) : الامام سليمان بن الاشعب الازدي السجستاني * صنف كتاب السنن ، جمع فيه المهم من أحاديث الاحكام * وقد رحل في سبيل طلبه وجمعه وتصنيفه الى مدن العراق والحجاز والشام ومصر *

٢ - الترمذي : (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)

هو محمد بن عيسى بن سورة الترمذي نسبة الى ترمذ التي ولد فيها ، ومات ضريرا في مسقط رأسه *

قال علماء الحديث : « لما مات البخاري لم يخلفه في خراسان مثل أبي عيسى الترمذي في علم الرواية والورع والتقوى ، فاعتبروه خليفة البخاري في خراسان وعزاء الناس فيه بعد موته * وقد قام الترمذي بعملين جليلين في التأليف في علم الحديث :

أولهما : كتابة الحديث وجمعه وترتيبه وتدوينه في كتابه «الجامع» وسمي سننا ، وقد قال عنه الحافظ بن كثير : كتاب الجامع أحد الكتب الستة التي يرجع اليها العلماء في كل الاوقات *

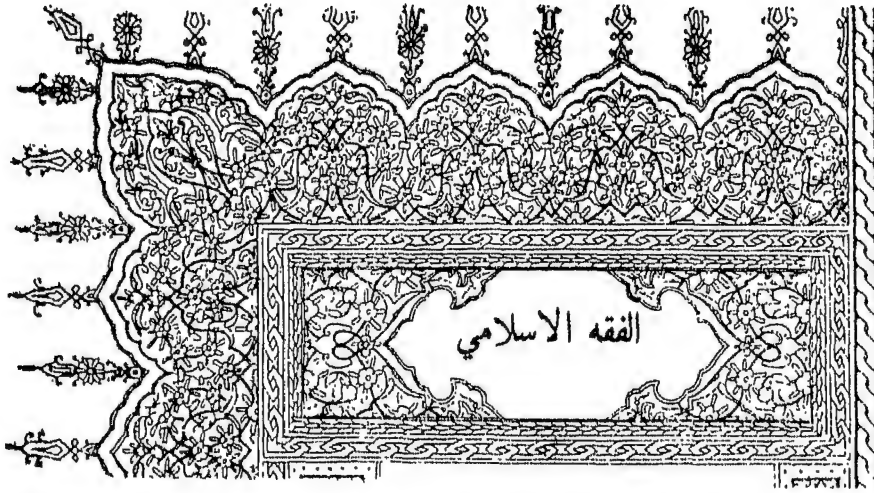
ثانيهما : دراسته لرجال الحديث ومراتبهم من حيث قوة الثقة فيهم ، فكتب :
كتاب التواريخ وكتاب العلل وكتاب الاسماء والكنى *

ويعقد بعض علماء الحديث موازنة بين « جامع » البخاري و « جامع »
الترمذي ، فيجمعون على أن جامع البخاري أقوى ثقة وأصح جمعا لدقته في الرواية
وشروطه الشديدة فيمن يأخذ عنهم ، وإن جامع الترمذي أكثر وضوحا وبيانا ، لأنه
لا يكرر الحديث إذا تعددت طرق روايته ، بل يختار واحدة ، وهي التي يراها
أوثق من غيرها * وقد يشير الى غيرها من تكرار لنص الحديث * من هذه الموازنة
قول أحد العلماء : « كتاب الترمذي عندي أنور من كتاب البخاري ، لأنه لا يصل
الى الفائدة من البخاري الا من هو من اهل المعرفة التامة بهذا الفن * وكتاب الترمذي
قد شرح أحاديثه وبينها ، ليصل اليها الناس من الفقهاء والمحدثين وغيرهم *

٣ - ابن ماجه (٢٠٩ - ٢٧٣ هـ) : الامام المحدث ابو عبد الله محمد بن
يزيد بن ماجه الربيعي القزويني * ارتحل في سبيل العلم الى مدن العراق والحجاز
والشام وفارس ومصر * وله من علم الحديث كتاب السنن *

وقال عنه الحافظ بن كثير : « السنن لابن ماجه دالة على عمله وعلمه وتبحره
واطلاعه واتباعه للسنة في الاصول والفروع ويشتمل على اثنين وثلاثين كتابا ،
وألف وخمسمائة باب ، وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياذ سوى اليسيرة » وقال
الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ : سنن أبي عبد الله بن ماجه كتاب حسن لولا
ما كرره من أحاديث واهية ليست بالكثيرة *

٤ - النسائي (توفي سنة ٣٠٣ هـ) : الامام ابو عبد الرحمن أحمد بن شعيب
النسائي ، وكان فقيها ، وحافظا ، وعابدا ، ومجاهدا ، وله كتاب السنن الكبرى ،
والسنن الصغرى المسمى بالمجتبى وقد اختصره من الاول *



الفقه : الفقه لغة العلم بالشيء والفهم له • والفقه اصطلاحاً • العلم بالدين والفهم له • فالفقه الاسلامي اذن : التبحر في الدين الاسلامي واستنباط أحكامه الشرعية من مصادرها الرئيسية فهو علم التشريع الديني • ومصادره هي :

أ - القرآن الكريم : دستور المسلمين ومصدر تشريعهم الرئيسي • أكثر آياته المدنية هي آيات تشريعية ، بحثت في الامور الدنيوية ونظمت علاقات الفرد بالمجتمع وبالحكومة ، وتعرضت لامور البيع والشراء والزكاة وأنواعها ، والعائلة وأسسها وما شاكل ذلك • والقرآن كلام الله لا تغيير فيه ولا تبديل • والتشريع الاسلامي على هذا تشريع الهي بعكس التشريعات الوضعية الاخرى •

ب - الحديث والسنة : وضع القرآن الخطوط الرئيسية في التشريع الاسلامي ولم يتعرض للتفصيل فيها وترك كثيراً من الامور للظروف الموائية ، وكان الرسول عليه السلام في حياته يفسر ما جاء مجملًا في القرآن ويحل المشاكل التي تعرض له ولم تنزل فيها الآيات كما سبق وذكرنا • فكان عمله وقوله المصدر الثاني للتشريع في الاسلام •

(*) الزخرفة العلوية هي زخرفة حاشية الصفحة الاولى من مصحف مكتوب بخط الخطاط الحافظ عثمان • وتمثل نموذجاً من أسلوب زخرفة المصاحف في العهد العثماني •

ج - القياس : ماكاد الرسول ينتقل الى الرفيق الاعلى حتى واجه المسلمون مشاكل لم ينزل فيها نص ولم تحدث في حياة الرسول حتى ترد فيها سنة ، كمن يخلف الرسول بعد وفاته ، وكأمر المرتدين الذين أقروا بالدين الاسلامي ولكنهم امتنعوا عن دفع الزكاة ، وقصة جمع القرآن ، والمشاكل المعقدة التي جابهتهم في الشام ومصر والعراق من ارث وفتنة وسرقة... فماذا يفعل الخلفاء ؟ أيقفون جامدين أمام هذه المشاكل جميعها فتصاب دولتهم بالجمود والرجعية • أم يجدون لها حلا ملائما ؟ لقد قاسوا الامور بأشباهها ، وعرفت طريقتهم « بالقياس » كما عرفت فيما بعد باسم « الرأي » لان أهل الرأي صاروا يبدون آراءهم فيما لم يرد فيه نص بما يوافق روح الاسلام العامة ، وكان أكثر أهل الرأي في العراق الذين جابهوا حضارة قديمة معقدة ، ومشاكل جديدة لم تألفها حياة الصحراء ، ففرعوا الفروع ، وتساءلوا « أرايت لو أن الامر كذا ؟ فما حكم الشرع فيه ؟ » وقد سماهم خصومهم بالأرايين •

د - الاجماع : في كثير من القضايا التي يحتمل فيها وجهان أو أكثر ، كان الخلفاء يأخذون رأي علماء عصرهم ، فما اتفقوا عليه أقروه وحكموا بموجبه ، واعتبروه تشريعا عاما لمثل هذه الاحوال ، وصارت قاعدة عامة فيما بعد ، أن يعتبر اتفاق علماء عصر من العصور في تحليل أو تحريم أمر من الامور تشريعا ، وبذلك لم يقف التشريع عند حدوده التي كانت في عهد الرسول ، بل خضع الى ناموس التقدم والتطور وملائمة الحضارات المختلفة ومجابهة كل المشكلات التي تعترض الانسان في حياته ، مهما اختلفت اشكال الحكم ، ومهما تعقدت الحياة الاجتماعية •

المذاهب الفقهية : اذا كانت مصادر التشريع الاسلامي أربعة : قرآن - سنة - قياس - اجماع • فان جميع الناس لا يستطيعون استنباط الاحكام الشرعية من هذه المصادر الاربعة ، بل لا بد لهم أن يسألوا العلماء المتفقيين بأمور الدين ، وصاروا يتبعونهم في أمور دينهم ودنياهم ، وكان أهل الحجاز لا يفتون فيما لم يرد فيه نص ،

ويعتبرون الاعمال التي اجمع أهل المدينة على القيام بها مصدرا من التشريع لان الرسول قضى بينهم الشطر الاكبر من حياته ، ولم يكونوا يفتنون الا فيما وقع من الامور بعكس أهل العراق الذين بحثوا الامور بحثا علميا مجردا ، سواء وقعت الحوادث فعلا أم لم تقع ، حتى ولو كان وقوعها يكاد يكون من المستحيل ، وعلى هذا تعددت المذاهب الفقهية وتنوعت * وظهر عدد من علماء الفقه اختلفوا في الحكم على الامور وصار الناس يتبعون رأي أحدهم مثل : الحسن البصري - الاوزاعي - النووي - داود الظاهري ، - الطبري * الا أن هذه المذاهب جميعها تبلورت على أربعة مذاهب ، نسبت الى أربعة علماء ، هم الامام أبو حنيفة - الامام مالك - الامام الشافعي - الامام أحمد بن حنبل * واندثرت بعدهم المذاهب الاخرى وأصبح السنيون في العالم الاسلامي اليوم يتبعون هذه المذاهب الاربعة * وللشيعة أئمة مجتهدون آخرون *

١ - الامام أبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠ هـ) فارسي الاصل ولد في الكوفة واشتغل بتجارة الثياب وتعلمذ بنفس الوقت على فقهاء الكوفة مثل سفيان الثوري وابراهيم النخعي ، ومحمد بن عبد الرحمن ، والامام جعفر الصادق ، وتردد على حلقات المتكلمين فاستمع الى نقاشهم وجدالهم الفلسفي الفقهي ، وقد أعجبه أصحاب الفكر الحر الذين يعتمدون على العقل في تصريف الامور والتمييز بينها ، واشترك في كثير من الجدل دلّ حديثه فيه على صحة منطقته ، وقوة حجته ، وسلاسة أسلوبه الجدلي المبني على الحجة والمنطق الصحيحين ، وما لبث أن أصبح زعيما لمذهب فقهي يعتمد على الرأي وينظر الى الامور الدينية بمنظار المصلحة العامة لان الدين جاء لتنظيم المجتمع تنظيما ساميا ، وقد فرع الفروع وافتنى فيما لم يقع ، وما يستبعد وقوعه ، وكانت طريقته في ابحاثه الفقهية كما قال عن نفسه : اني آخذ بكتاب الله اذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار

الصحيح عنه التي فشت في أيدي الثقات ، فإذا لم أجِد في كتاب الله ولا سنة رسول الله أخذت يقول أصحابه من شئت ، وادع قول من شئت ثم أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ، فإذا انتهى الامر الى ابراهيم الشعبي والحسن البصري وابن سيرين وسعيد المسيب و... فلي أن اجتهد كما اجتهدوا » *

وعلى هذا فاعتماد ابي حنيفة في فقهه أولا على القرآن الكريم ، فما لم يجده فيه ، فتش على الحديث ، وكان يتشدد على الحديث تشددا كثيرا خوفا من قبول حديث موضوع ، حتى أنه لم يكتف بتجريح الاسناد بل نظر الى المتن وفحصه * واذا وجد في المتن شيئا من ركافة الاسلوب ، او مخالفته التاريخية للحادثة التي ذكر فيها ، أو ذكره أسماء اشخاص لم يعيشوا في زمن الرسول فانه يرد الحديث ولا يقبله ولا يعمل بمضمونه بل يعمل بالرأي ، ولهذا لم يعتمد فقه أبي حنيفة على الحديث ، ولم يصح عنده الا عدد قليل من الاحاديث *

ولم يترك أبو حنيفة لنا أي كتاب في الفقه ، وانما وصلتنا آراؤه الفقهية ومذهبه كما دونها تلاميذه الكثيرون كأبي يوسف قاضي قضاة الرشيد ، ومؤلف كتاب « الخراج » ومحمد بن حسن الشيباني * ولكن من الكتب التي نسبت الى أبي حنيفة : الفقه الكبير - العالم والمتعلم - الرد على القدرية *

٢ - الامام مالك : (٩٦ - ١٧٩ هـ) عربي الاصل * ولد وعاش في المدينة ولم يغادرها الا الى مكة حاجا ولذلك تأثر بأهل المدينة واعتبر إجماع أهل المدينة على عمل من الاعمال من السنة * لان الرسول عاش بينهم أكثر أيام بعثته فشاهدوه عن كثب واقتبسوا أعماله وأفعاله ، ونظرا لان أهل المدينة حفظوا الكثير من الاحاديث فقد اعتمد الامام مالك على الحديث كثيرا بعد القرآن ، ولم يفت في أمر لم يقع كما فعل أبو حنيفة ، ولم يفرع الفروع ويفترض الفرضيات ولم يعمل بالرأي ، وأهم ما وصلنا عن الامام مالك كتابه « الموطأ » وهو كتاب حديث أكثر

منه كتاب فقه ويدلنا على طريقته الفقهية * وهي كما يقول الفقهاء : وسطية بين الحرفيين المتمسكين بظاهر النصوص ، وأصحاب الرأي الذين لم يكن للنقل ولا للنص عندهم أهمية كبيرة *

٣ - الامام الشافعي : (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) عربي من قریش يلتقي نسبه من جهة أبيه مع نسب الرسول عليه السلام في عبد مناف * ولد في غزة وحملته أمه في حدائقه بعد موت أبيه الى مكة حيث درس الحديث على علمائها * ثم وفد الى المدينة فتتلمذ على الامام مالك وحفظ الموطأ * ومن ثم أخذ في الرحلة في سبيل العلم فجاء الى بغداد وتعلم فقه أبي حنيفة وأقوال العراقيين ثم ذهب الى مصر حيث أمضى بقية حياته الى أن أدركته منيته *

وكان مذهب الشافعي وسطا بين مذهب أبي حنيفة المتوسع في الرأي ومذهب مالك المعتمد على الحديث ، فقد درس الشافعي على هذين الامامين ورأى مبالغة كل منهما في طريقته وشاهد بنفسه خلال تجواله الطويل ، انماط الحياة المختلفة في الحجاز والعراق ومصر ، واختلاف الناس في حضارتهم واقتصادهم * وأدرك سبب تشدد أبي حنيفة في قبول الحديث واستسلام مالك الى كل حديث يجمعه ، فجمع بين المذهبين في كثير من المسائل وقرب الشقة بينهما * وكانت طريقته في الاجتهاد كما قال هو عنها : « الاصل قرآن وسنة ، فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الاسناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر الفرد أو الحديث على ظاهره ، واذا احتمل معاني فما أشبه منها ظاهرة أو لاها به ، واذا تكافأت الاحاديث فأصحها اسنادا أو لاها ... ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للاصل لم وكيف ؟ وانما يقال للفرع لم ؟ فاذا صح قياسه على الاصل صح وقامت به الحجة » *

أشهر كتبه « الام » واسلوبه جدلي فيه كثير من الاستدلالات بالحديث واستعمال القياس . ومن تلاميذه الامام الرابع أحمد بن حنبل .

٤ - الامام الحنبلي : هو أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ) عربي الاصل ولد ومات في بغداد ، لكنه كان كثير الرحلة كالشافعي ، زار العراق والحجاز واليمن والشام واتصل بعلمائها واستمع الى كبار الفقهاء والمحدثين في عصره ، وعاصر المأمون وحركته العلمية ، ولم يقل بقول المعتزلة بأن القرآن مخلوق ، وكان بينه وبين المعتزلة مناقشات عقلية ودينية وفقهية كثيرة ، تشدد فيها برأيه ونقض حجج المعتزلة فتغلبوا عليه بنفوذهم السياسي وأذاقوه أنواع العذاب من ضرب وسجن دون أن تلين قناته أو يقول بقولهم ، وبقي مسجوناً الى ما بعد وفاة المأمون وأخيه المعتصم حيث أفرج عنه .

وينحو ابن حنبل منحى أستاذه الشافعي ، الا أنه أنكر عليه أخذه بالرأي واعتبر الحديث أفضل من الرأي . فعاد الى رأي المالكي ، وصار ابن حنبل إمام أهل الحديث في عصره .

وقد اشتهر بتدوين ما يسمع من الثقة ، ونقل ما يقرأ من كتب من سبقه ، وخاصة رواية ماجاء في موطأ مالك من فتاوى وأقضية للصحابة ، وما أفتى به مالك ، وخصوصاً ما كان يبينه على عمل أهل المدينة ، وكان يقول عن نفسه : « أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر » وقال مرة لرجل سأله لم يكثر من الكتابة وقد أصبح إمام المسلمين : « مع المحبرة الى المقبرة » . وأشهر كتبه « المسند » ويعتبر أكبر موسوعة لاحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ولفتاوى الصحابة وأقضيئهم .

انتشار المذاهب الاربعة :

تبلورت المذاهب الفقهية في العالم الاسلامي السني على هذه المذاهب الاربعة ، وانتشر كل مذهب في قطر أو أقطار دون سواها . فالمذهب الحنفي انتشر في العراق والشام والاناضول وآسيا الوسطى والباكستان وكان مذهب الحكومة العثمانية الرسمي . والمذهب الشافعي انتشر في القطر المصري وفي جزر اندونيسيا ، والمذهب الحنبلي انتشر في نجد والحجاز . والوهابيون في الحقيقة أتباع هذا المذهب .



العلوم العربية

اللغة العربية : لغة عرب الجاهلية هي اللغة العربية السليمة ، لغة جميع العرب ، مع وجود لهجات مختلفة باختلاف القبائل ، ومعاني لبعض الكلمات تختلف من لهجة الى أخرى . وأوجه للصرف والنحو مختلفة ، الا أن القبيلة الواحدة تتكلم بلهجة واحدة وتتبع أسلوبا واحدا ، فهناك من يستعمل مثلا للفعل فاعلين كأصحاب لغة « أكلوني البراغيث » ولم يكن ذلك خطأ في عرفهم ، وكان يوجد في الجاهلية على ما يظهر لغة راقية فصحة هي لغة الشعر التي يفهمها الجميع ويتبعون فيها أصولا متقاربة دقيقة للتخاطب ، وفيها اختلاف بين القبائل .

وبعد الاسلام اختلط العرب الفاتحون بسكان البلاد المفتوحة ، في السكن والتزاوج وفي كل مرافق الحياة ، ولم تعد الامبراطورية العربية مكونة من شعب واحد بلغة واحدة ونزعة واحدة ودين واحد ، بل اصبحت رقعتها معرضا تعرض فيه كل أمة ما كان لها من لغة وعلم ونظم سياسية واجتماعية ، واذا كان العرب قد شعروا أنهم دون هذه الامم علما وفلسفة ونظما سياسية واجتماعية واقتصادية ، فانهم تغلبوا على هذه الامم حرييا وتغلبوا عليهم بنشر لغتهم ودينهم ، وما لبث لاسلام أن أصبح دين الغالبية العظمى من السكان ، وما لبثت اللغة العربية أن طغت على سائر اللغات المحلية وسادت عليها وأصبحت الاداة لنشر الثقافة والحضارة بين

هذه الامم المختلفة ، بعد أن زادت في مادة لغتها وتركيبها وأساليبها مما دعا اليه ارتقاء الحضارة واتساع العمران ، وأصبح كل متأدب من أي جنس ، انما يجري حكمته أو أدبه أو شعره أو فلسفته وعلمه بالعربية وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ولما هجر الدين اللغات الاعجمية ، وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان على دينه . فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع الاقطار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك في جميع أمصارهم وصارت الالسنه الاعجمية دخيلة فيها وغريبة » وليس في مقدور هذه الاقوام الاعجمية المختلفة التي أصبحت العربية لغتها ، أن تنطق بها كأهلها بالسليقة، فأوجدت أنواعا من اللكنة ، وأحدثت أوضاعا من الخطأ ، وفشا اللحن والتصحيف والتحريف في سكان المدن والموالي ومالبيث أن وصل الى بيوت الخلفاء والامراء ، وخاف العلماء ضياع اللغة بعد أن أصبحت لغتين أو كادت ، لغة الكتابة ولغة الكلام، وكان العرب قد أخذوا بأساليب البحث العلمي ، فوضعوا للغتهم قواعد للنحو والاعراب ، ولشعرهم أوزانا وعروضا ، ولمفرداتهم معاجم وفقه اللغة ، وبذلك حفظوها من الضياع ، ووقفوا في وجه التيار العامي الذي اتجهت اليه وهي مايسمىها الجاحظ لغة المولدين والبلديين .

علم النحو وقواعد اللغة :

قال الجلال السيوطي في رسالته : الاخبار المروية في سبب وضع علم العربية : قدم اعرابي في زمان عمر ، فقال من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . فأقرأه رجل « براءة » فقال : ان الله بريء من المشركين ورسوله «بالجر» فقال الاعرابي اوقد برىء الله من رسوله . ان يكن الله قد برىء من رسوله فأنا ابرأ منه ... (فبلغ الخبر عمر بن الخطاب فاستدعى الاعرابي وسمع مقالته) فقال

له : ليس هكذا يا اعرابي * ان الله يرى من المشركين ورسوله (بالضم) فقال
الاعرابي وأنا والله ابرأ مما يرى الله ورسوله منه * فأمر عمر أن لا يقرىء القرآن
الا عالم باللغة * وأمر أبا الاسود الدؤلي فوضع النحو *

بينما تروي كتب أخرى أن أبا الاسود الدؤلي قال : دخلت على أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب فوجدت في يده رقعة * فقلت ماهذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : اني
أملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الاعاجم) فأردت
أن أضع شيئاً يرجعون اليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الي الرقعة وفيها مكتوب :
الكلام كله اسم وفعل وحرف * والاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما انبأ به ،
والحرف ما افاد معنى * وقال لي : انح هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك * واعلم
يا ابا الاسود ان الاسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر * وانما
يتفاضل الناس يا أبا الاسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (وأراد بذلك الاسم المبهم) *
قال : ثم وضعت بابي° العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام الى أن وصلت
الى باب ان واخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضتها على علي أمرني بضم لكن اليها *
وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه الى أن حصلت ما فيه الكفاية *
فقال : ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت فلذلك سمي النحو *

ويروي آخرون انه على أثر توافد الرقيق الى المدينة عاصمة المسلمين الاولى ، فشا اللحن
فيها بكثرة أذهلت أولي الامر ، ففكر الامام علي بوضع قواعد نحوية للغة ليتبعها
الاعاجم فلا يخطئون ، فشا اللحن بعد ذلك في العراق ، لاقبال الاعاجم على التكلم
بالعربية لغة الحكام ، وكانت في العراق مدينتان عربيتان وسط محيط أعجمي هما :
الكوفة والبصرة ، فأقبل العراقيون عليهما يتعلمون لغة أهلها ، ووضع أبو الاسود
الدؤلي المتوفى عام ٦٧ هـ أساس علم النحو ، في مدينة البصرة ، وقلده أهل الكوفة
بوضع قواعد نحوية ، وعلى ذلك نشأت مدرستان للنحاة منذ العصر الاموي :

مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة تنافستا على التسامي في الدراسات اللغوية والنحوية من منتصف القسم الثاني للعهد الاموي حتى استقطبا في مدرستين للنحو تبعهما كل العالم الاسلامي ، ولم تظهر بعد توحيدهما في مدرسة بغداد التي جمعت بين المدرستين ، مدرسة للنحو غيرهما * وقد أخرجت كل من المدينتين ثلاثة أجيال من فطاحل علماء النحو ، فمن علماء الكوفة حماد الراوية ، وأبو عمرو الشيباني ، وابن الاعرابي وابو عبيد والكسائي والفراء وابن منظور ، ومن علماء البصرة : أبو عمرو ابن العلاء وأبو محرز خلف بن حيان الاحمر ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى * والاصمعي والجمحي *** والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه ، والاختش * وغالية هؤلاء من أصل عربي ، لان فقه اللغة العربية والدراسات النحوية وما يتصل بها تتطلب السليقة العربية الاصلية والمنطق السليم ، وكل ما فله غير العرب من هؤلاء العلماء ، هو التنسيق العلمي * واذا كان بعض الغربيين يرى في شهرة سيبويه المسلم الاعجمي في هذا الباب أثرا للاساس الاجنبي في قواعد اللغة والنحو والصرف ، فان الواقع يثبت ان علماء هذه الابواب من المعرفة انما افادوا من العقلية العلمية الخصبية التي اكتسبوها في العصر العباسي الاول من خلال تمثلهم للثقافات الفلسفية والعلمية الاجنبية ، وليس مما نقلوا أو طبقوا لغتهم على اصول ونحو اللغات الاخرى اذ اعتمدت كل مدرسة على لهجات قبائل معينة ، وفتشت في القرآن وفي أشعار العرب على ما يؤيد مذهبها ، وكثيرا ما احتدم الجدل العلمي بين نحاة البصرة الذين عرفوا باسم أهل المنطق لاتباعهم الاساليب المنطقية في ابحاثهم وبين نحاة الكوفة الذين خالفوهم واعتمدوا على السماع *

وأشهر علماء الكوفة : الكسائي الذي كان مهذبا لولدي الرشيد : الامين والمأمون وهو فارسي الاصل * ثم تلميذه الفراء ، والمفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات *

وأشهر علماء البصرة أبو الأسود الدؤلي واضع الحجر الاساسي لعلم النحو وأبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض ومؤلف كتاب « العين » أول قاموس لغوي في العربية * وسيبويه صاحب «كتاب سيبويه» الذي نظم النحو ورتبه وبوبه ، وجمع فيه خلاصة ابحاث من تقدمه من علماء البصرة والكوفة وبقيّة من اشتغل بالنحو ، وصار هذا الكتاب المرجع الاول لعلماء النحو من بعده يقتبسون منه ويحاكونه *** والاصمعي وأبو عبيدة اللذان تألق نجمهما في عهد الرشيد ، والمبرد مؤلف كتاب الكامل •

الشكل والتنقيط :

كانت الكتابة العربية قبل الاسلام قليلة الاستعمال ، لا يعرفها الا القليل • وكانت أحرفها بدون تنقيط فالجيم تكتب كالحاء والخاء ، والباء تكتب كالتاء والثاء ، وكانت كلمة خبر يمكن أن تقرأ خبر ، حير ، جير ، جبر ، كما كانت الاحرف بدون شكل أي ليس لها علامات تشير الى الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة • وقد وضعت أدوات الشكل هذه في أول العصر الاموي لتساعد على القراءة الصحيحة ، وأمر الحجاج من بعدها بتمييز الاحرف المتشابهة شكلا فوضع كائبا وتلميذا أبسي الأسود الدؤلي النقط لها وهما نصر بن عاصم ويحيى بن عامر وبذلك صارت الابدجية العربية كما نعرفها اليوم متميزة لا لبس في كتابتها ولا غموض •

يقول ابن خلكان : « ان الناس غبروا يقرؤون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفا وأربعين سنة الى أيام عبد الملك بن مروان • ثم كثر التصحيف (بمعنى غفلة القارئ عن مواضع النقط فيقرأ خبر مكان خير أو حبر) وانتشر في العراق • ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم أن يضيفوا لهذه الحروف المشتبهة علامات • فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها • فغبر الناس بذلك زمانا لا يكتبون الا منقوطة فكان مع استعمال النقط أيضا يقع التصحيف فأحدثوا الاعجام •• (تنقيط الحروف) ••• كما يروى أن الحركات احدثت أيضا زمن الحجاج •

ويرى بعض الكتاب ان الاعجام والحركات كانت مألوفة من قبل منذ أيام الجاهلية ، ولكن الحجاج فرضهما في القرآن الكريم *** ويستدلون على ذلك ان الناس ظلوا حتى العصر العباسي لا يستعملون الاعجام والتحريك في الكتابة العادية ، ويعتبرونهما احتقارا للمكتوب اليهم •

ويعتقد أن أبا الاسود الدؤلي ، اول من ابتدع علم النحو ، ووضع أساس الشكل للأحرف العربية ، انما استعان بطريقة السريان في وضع هذه الرموز ، اذ كان كثير المخالطة لهم ، وربما درس وتعلم على أيدي أساتذة منهم ، واستمر استعمال الرموز التي اختارها ابو الاسود وتلاميذه من بعده للشكل والاعجام سائدا طوال العصر الاموي ومطالع العصر العباسي ، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي، فوضع رموزا أوضح ، جعل أساسها صور الحروف التي تتولد من مدها فرسم الضمة واوا صغيرة توضع في أعلى الحرف ، وجعل رمز الكسرة ياء صغيرة توضع تحت الحرف ، ورمز الفتحة ألفا مسطوحة تكتب فوقه • واذا كان الحرف المتحرك منونا كرر رمز الشكل فيكتب مرتين *** وتمم بقية العلامات فوضع المد والتشديد وجعله الجزء الاول من حرف الشين أخذا من كلمة شديد ، ووضع لهزمة القطع رأس عين (ء) وجعل لالف الوصل رأس حرف صاد (ص) *** الخ

المعجم وفقه اللغة :

رغب بعض العلماء في عصر التدوين ، بجمع كلمات اللغة ومفرداتها وتفسير معانيها المختلفة ، فرحل أكثرهم الى البادية يستمع الى الاعراب ويدون ما يسمع من معانيها • وكانت أول كتبهم تضم المفردات دون ترتيب ، ثم صاروا يجمعون الكلمات التي تتعلق بموضوع واحد ، ويضعونها في باب واحد مثل كتاب الانواء وكتاب الابل للاصمعي • ثم ظهرت الكتب التي تجمع بين دفتيها جميع الكلمات ومعانيها أي ظهرت القواميس المرتبة ترتيبا هجائيا وأولها كتاب العين للفراهيدي، وقد ابتدأه بالكلمات التي تنتهي بحرف (ع) ثم أتبعها بالكلمات المنتهية بالأحرف الحلقية

وهكذا الى الاحرف الشفوية ثم الاحرف الهوائية * ومن المعاجم الاولى كتاب « الجمهرة في اللغة » لابي بكر بن دريد ، والصحاح للجوهري ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ولسان العرب لابن منظور ، والمحيط للفيروزابادي *

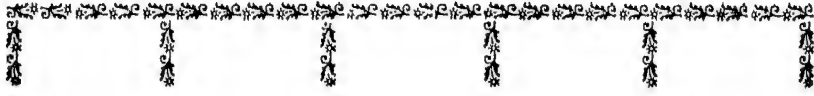
البلاغة :

فسدت الملكة اللغوية عند العرب باختلاطهم بالاعاجم واستعمالهم الكلمات والتعابير العامة ، فعمد العلماء الى الكشف عن روائع أساليب القرآن وفصاحته وبلاغته ، ليحاكيه المتأدبون ويقلدوه ، وتعرضوا لاقوال القدماء وشرحوا ما فيها من استعارات وتشابيه وأوجه بلاغة * وأشهر من كتب في ذلك :

- أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٦ هـ) في كتاب مجاز القرآن *
- الجاحظ (٢٥٥ هـ) في كتابيه « اعجاز القرآن » و « البيان والتبيين » *
- أبو الهلال العسكري (٣٩٥ هـ) في كتابه « الصناعتان : الشعر والكتابة » *
- الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » *

العروض :

درس الخليل بن أحمد الفراهيدي أشعار العرب فوجد أوزانها محدودة فحصرها في خمسة عشر وزنا سماها بحورا ، ثم جاء الاخفش فزاد عليها البحر المتدارك فأصبحت ستة عشر * ووضع العلماء للشعر مصطلحات خاصة حتى أصبحت علما عرف بالعروض *



الشعر

الشعر في الجاهلية :

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ومجمع مآثرهم ومفاخرهم ، وسجلا لأعمالهم وتقاليدهم وعقائدهم ، وكانت القبائل تفتخر بنبوغ شاعر منها يذود عن حياضها ويدافع عنها ، ويهجو أعداءها ويحمس شبابها في القتال ، وكانت تقام للشعر مباريات في الاسواق العامة كسوق عكاظ ، وقيل أن درر القصائد الجاهلية كانت تعلق على الكعبة تقديرا لها ، وبلغت قبل الاسلام سبعا وقيل عشرة •

الشعر في صدر الاسلام :

عندما نزل القرآن الكريم بلغة عربية فصحة ، لا هي شعر ألفه العرب ، ولا نثر عرفوه ، بهرهم جماله ، وقهرتهم قوته ، فانصرفوا عن الشعر اليه يقرؤونه ويتفهمون آياته ، وكان لمعاني القرآن وأسلوبه وللمثل العليا الدينية الجديدة والفضائل التي طلب الاسلام من أتباعه التحلي بها أن تأثر الشعر العربي بها في أغراضه ومعانيه وكلماته وأبوابه ، فذكرت الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشعر ، وكان أبرز شعراء هذا العصر حسان بن ثابت الأنصاري وعبد الله بن رواحة •

الشعر في العصر الاموي :

استرداد الشعر قيمته بعد كبوته ، لأسباب مختلفة منها :

١ - تشجيع الخلفاء والامراء للشعر والشعراء لأغراض سياسية وقومية واغداق الاموال عليهم وتقريبهم كما كان شأن الاخطل وجريير والفرزدق في عهد عبد الملك .

٢ - النزاع الحربي بين العلويين والامويين والخوارج والزييريين ، فعمد كل فريق الى الشعر يؤيد دعواه ويجلب له الانتصار ويهاجم خصومه ويفند مزاعمه ، فنشأ الشعر السياسي الذي لم تعرفه الجاهلية كشعر الطرماح شاعر الخوارج وعبد الله بن قيس الرقيا شاعر الزييرية ، ومضر الكميث الاسدي شاعر الشيعة .

٣ - الترف : عمد معاوية بعد أن نقل عاصمته من الحجاز الى الشام الى الاغداق على أهل الحجاز حتى يلهيهم بالاموال عن فقدان مركزهم السياسي ، ففشا الترف بين شباب الحجاز واندفع بعضهم وراء اللذائذ يتصيداها ، وظهر ذلك في شعرهم الغزلي الرقيق كشعر عمر بن ابي ربيعة .

وظهر في بعض القبائل غزل شريف تنزه عن الفحش ، وكان أكثر ما يكون في بني عذرة وخزاعة فسمي بالغزل العذري كشعر جميل بثينة ، وكثيرة عزة .

الشعر في العصر العباسي :

ما كاد العصر العباسي يبتدىء حتى ظهرت آثار الحضارة العربية الزاهرة في كل فن من الفنون ، وفي كل ناحية من النواحي الاجتماعية ، وظهر ذلك كله جلياً واضحاً في الشعر .

فمجالس الخلفاء والامراء وما فيها من شراب وقيان ومغنين ومغنيات ،

وحياة بغداد وما فيها من سعة وبهجة ، وعادات الامم التي تكون منها مجموع السكان وميلهم الى الانغماس في الملذات ، وتشجيع الخلفاء والولاة وامراء الدويلات المستقلة وظهور المتكلمين ، ووصول الفلاسفة والمنطق اليونانيين الى العرب * * كل هذا جعل الشعر العربي يصل في هذا العصر الى درجة الكمال وتعدد الابواب والاعراض وتنوع الاسلوب ، وأهم ما طرأ على الشعر :

١- تنوع الشعر الوصفي ، فوصف الشعراء أحوال النفس وانفعالاتها ، ووصفوا المعارك كأبي تمام والمنتبي ، ورسوموا صوراً قوية لمجالس الشراب واللهو والتهتك كأبي نواس والحسين بن الضحاك وبشار *

٢- ظهرت الشعورية في أشعار الاعاجم لتقاوم العزة القبلية والعصبية للقومية العربية *

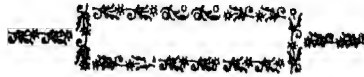
٣- رقت ألفاظ الشعر ، واتسع خيال الشعراء ، وازداد تأنيقهم واهتم بعضهم بالبديع والتكلف اللفظي والصناعة كشعر ابن المعتز والوأياء الدمشقي *

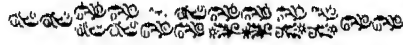
٤- كما تنوع الاسلوب فظهر الشعر الغزلي الرقيق الذي يدل على حياة الرفاه الجديدة البعيدة كل البعد عن حياة العرب الاولى ، وظهر التشبيب بالعلماء ، والاشادة بالخمرة ووصف آنياتها وشرابها كشعر أبي نواس وبشار ، وحاول جماعة من الشعراء الوقوف في وجه تيار اللذة والتشبيب والغزل ، فأكثروا من الزهد في شعرهم كأبي العتاهية ، واستعمل غيرهم المذاهب الفلسفية والتصوف في شعره كالمعري وابن سينا وابن الفارض والحلاج ، واقتبس بعضهم حكم الفرس والهند واليونان وعقدها شعراً خالداً كأبي تمام والمنتبي ، وتقرب قسم آخر من الخلفاء والامراء بوصف قصورهم ومراكبهم وحفلاتهم وأعيادهم وغزواتهم وانتصاراتهم كأبي تمام والمنتبي أيضاً ، ولم تترك ناحية من نواحي الحياة العامة ، الا تطرق اليها الشعراء ، ووصفوها ، حتى القصص على لسان الحيوانات كقصائد لافوتتين

الشاعر الافرنسي فقد نظم مثلها شعراء العرب كأبان اللاحقي الذي نظم كتاب
كليلة ودمنة ، وقد حافظ هؤلاء الشعراء على أوزان الشعر الجاهلي وقوافيه
ولكن رقت ألفاظهم ، وأكثروا من العناية بالصناعة والبديع والتكلف اللفظي .

الشعر في الاندلس :

نافس خلفاء الاندلس ، خلفاء بغداد في الاغداق على الشعراء ورعايتهم
وتشجيعهم ، وامتاز الشعر الاندلسي باتساع أفق الخيال والدقة في وصف مجالس
الشراب والحدائق والطبيعة والقصور ، ومال شعراء الاندلس الى الاوزان القصيرة
وابتدعوا نوعين من الشعر هما : الموشحات التي لا تلتزم فيها قافية واحدة ولا وزن
واحد ؛ والزجل وهو شعر عامي لا يتقيد بقواعد اللغة واصولها . وأشهر شعراء
الموشحات أحمد بن عبد ربه ولسان الدين بن الخطيب ، وأشهر الزجالين أبو بكر
ابن قزمان القرطبي .





النثر والخطابة

في الجاهلية :

طغى الشعر على جميع فنون الادب الجاهلي ، وقد وصلت نماذج محدودة من سجع الكهان وخطب بعض الجاهلية مثل اكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الايادي .

في صدر الاسلام :

شجع الاسلام الخطابة ، وجعلها واجبا في مواسم معينة كالجمعة والعيدين ، ونزل القرآن نثرا لا شعرا ، وكتب الرسول رسائل الى الملوك والامراء يدعوهم فيها الى الاسلام باسلوب ثري ، فارتفع شأن الكتابة والخطابة ، واقتبس الكتاب اسلوب القرآن والحديث وتأثروا ببلاغتهما ، وامتاز النثر في صدر الاسلام بايجازه وبلاغته وهجره سجع الكهان واغترافه من معاني الاسلام ، وأشهر الخطباء : الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدون ومعاوية وسحبان وائل .

في العصر الاموي :

أوجد معاوية ديوان الرسائل ، وافرد له الموظفين الأخصائيين ، وعرب عبد الملك الدواوين ، وشجع الكتابة بالعربية ، فأقبل الاعاجم على العربية يدرسونها ويتعلمونها حتى يحفظوا بمقام مرموق في الدولة ، وما لبثت الكتابة ان أصبحت في أواخر العصر الاموي صناعة خاصة لها نظمها وأساليبها ، فقد تحولت من البساطة والايجاز الى التوسع في الاسلوب وتنوع الاغراض والمبالغة بفضل عدد

من الكتاب غير العرب الذين نقلوا أساليبهم القديمة الى العربية مثل عبد الحميد الكاتب الذي يعد أول من أطال الرسائل وفق أكمام البلاغة *

ووصلت الخطابة في هذا العصر الى القمة للحاجة الماسة اليها في الدعاية السياسية للأحزاب المختلفة من شيعة وزيرية وخوارج تثور على الأمويين وتحاول الانقاص من سلطتهم السياسية ، ولا تزال الخطب التي وصلتنا عن هذا العصر تعد نموذجاً رفيعاً لقن الخطابة العربية كخطبة الحجاج في أهل العراق ، ومن أشهر خطباء هذا العصر ، معاوية ، وعبد الملك ، والحسين بن علي وابن الزبير والمختار بن أبي عبيد الله الثقفي وقتيبة بن مسلم والحجاج *

في العصر العباسي :

كثرت الترجمة وراجت صناعة التعريب في العصر العباسي ، واضطر المترجمون الى التفتيش عن معاني جميع الاصطلاحات والكلمات الاعجمية ، في جميع العلوم والفنون التي تعرضوا لترجمتها كالفلسفة والمنطق والاخلاق ، والطب والفلك والكيمياء والرياضيات ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً منقطع النظير ، لمرونة اللغة العربية وسعة باب اشتقاقها ، وبذلك ظهرت الكتابة العلمية الى جانب الكتابة الادبية في مختلف ابوابها من الرسائل الاخوانية الى الرسائل الادارية والسياسية الى صناعة الكتابة التي ظهرت في « المقامات » * وكثير من كتاب هذا العصر وعصر الدويلات المنفصلة وصل الى أرقى المراتب السياسية فاستلم الوزارة وسمي بذي الرياستين : رئاسة القلم ورئاسة السيف ، ولهذا أصبحت الكتابة فناً خاصاً له أساليبه وأدبه حتى وضع بعضهم الكتب المختلفة في أدب الكتابة وصناعتها وحاجات الكاتب كما فعل القلقشندي في كتابه « صبح الاعشى » *

واشهر كتاب هذا العصر : ابن قتيبة مؤلف عدد كبير من الكتب الادبية منها : أدب الكاتب - عيون الاخبار - المعارف - الشعر والشعراء الذي نادى

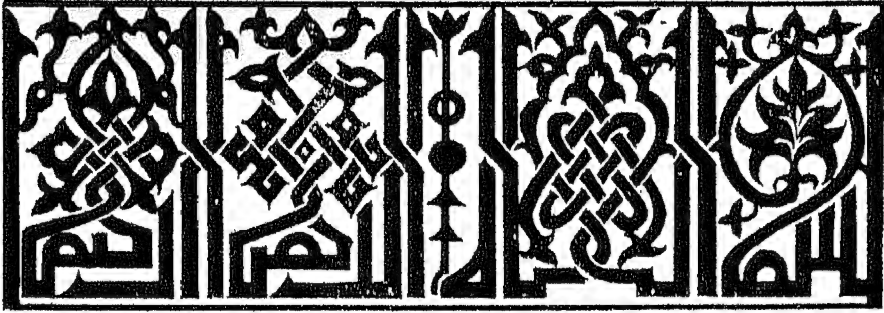
فيه بالتجديد وانحى على كل قديم لوماً • وعمر بن بحر الجاحظ ومن مخلفاته :
كتاب الحيوان وفيه كثير من تحري القضايا العلمية ومن الملاحظة والتجربة ،
وكتاب البخلاء وكتاب البيان والتبيين • وبيدع الزمان الهمداني والحريري ويعدان
أشهر من كتب في المقامات •

شكل - ١٣٨ -

ابو زيد السروجي سراج الغرباء وتاج
الادباء ، كما وصفه الحريري في مقاماته ،
وهو يحدث جماعة من اهل العراق ،
حديث بعض المقامات • والرسم ملون
في الاصل ، وموجود في نسخة مخطوطة
لكتاب مقامات الحريري من القرن الثالث
عشر الميلادي .



اما الخطابة فلم ترق الى ما رقي اليه الشعر والنثر لان الدولة قامت على
أكتاف الفرس والاعاجم وهم لا يتقنون العربية ولا يتأثرون ببلاغة خطبها التي تدعو
الى قتال أو تأييد فكرة • ولأن العباسيين وأمراء الدويلات المستقلة شجعوا الشعراء
والكتاب والمؤلفين ولم يشجعوا الخطابة بنفس المقدار ، اللهم سوى الخطب
الدينية في المساجد التي خبا نورها في عصر الدويلات واصبحت تقليداً رتيباً
للاقدمين ، ثم عادت الى القوة والنضج ابان الحروب الصليبية لحض الناس على
الجهاد والتطوع للقتال •



العلوم الاجتماعية

١ - التاريخ

العرب امة اشتهرت بالتاريخ
مارغوليوت
العرب اول من ارتخوا حوادثهم باليوم
والشهر والسنة

التاريخ : التاريخ لغة التعريف بالوقت ، يقال : : أرخ الكتاب وورّخه أي بين وقت كتابته كما جاء في لسان العرب * وتاريخ الشيء وقت حدوثه وعلم التاريخ يعني العلم الذي يتضمن ذكر الوقائع وأوقاتها وأساليبيها ، ومظاهر الحضارة ونظرها وعوامل تفرقها واطمحلالها .. والمؤرخ هو كاتب التاريخ *

وكان أغلب ما ألف في التاريخ العربي بعد الاسلام ، بقصد المنفعة والعبرة ، والحصول على ملكة التجارب ، حيث كان المسلمون يرون في كتاب الله مثلاً يقتدى به ، فقد قص القرآن كثيراً من أخبار الامم الماضية للتذكرة والعبرة .. وربط المسلمون التاريخ بكل العلوم مثل : الادب والسياسة والاجتماع والفقه والجغرافيا والرحلات * فكان بحق علم العلوم *

تطور التاريخ عند العرب :

أ - في الجاهلية :

تناقل عرب الجزيرة أخبار أيامهم ووقائعهم وشجاعة فرسانهم وكرم ساداتهم واطلعوا على بعض أخبار الأمم المجاورة عن طريق قوافل التجارة التي كانت ترد هذه البلاد وتختلط بتجارها ، وأرخوا حوادثهم بالنسبة لأحداث كبيرة كخراب سد مأرب ، وعام الفيل وموقعة ذي قار ، وعرف عرب الجاهلية شيئاً من أخبار اليهودية والمسيحية ممن كان يدين بأحد هذين الدينين ويعيش بين ظهرانيتهم .

ب - في الاسلام :

تعرض القرآن الكريم لأخبار الأمم القديمة وأحوالها ، فزادت مادتهم في معرفة التاريخ وجاء ذكر الاخبار في القرآن مقتضباً دون تفصيل لأنه أوردتها في سبيل العظة لا في سبيل الشرح التاريخي ، فدفع ذلك المسلمين الى التساؤل والبحث عن المزيد من هذه الاخبار كقصة آدم وبدء الخليقة ، والشجرة المحرمة ، وقصة الناقة ، ويوسف وسليمان وغير ذلك .

ومع الفتح اطلع العرب المنتصرون على أحوال الأمم الاخرى وسمعوا أخبارها السالفة ، وكان معاوية مثلاً يستمع في كل يوم الى اخبار غيره من الملوك وسيرهم ليتجنب مساقطهم ويتبع أحسن أساليب الملك .

وزادت مع الزمن مادة التاريخ الاسلامي ، من اخبار الرسول واعماله وأقواله الى أخبار الراشدين وأخبار الفتوح وما جرى فيها من حوادث ، وأخبار الفرق التي تنازعت للوصول الى الحكم ، وكان ذلك كله ينقل شفاهاً ويخضع لعامل التغيير والتبديل ، والمبالغة أو الاقتضاب ، ولما جاء عصر التدوين اهتم العرب بتدوين التاريخ لأسباب :

١ - رغبة العرب في معرفة تاريخهم السياسي وسيرة زعمائهم .

٢ - رغبة المسلمين في معرفة كل ما يتصل بحياة الرسول العربي من أعمال وأقوال ليستعينوا بها على تفسير القرآن .

٣ - الرغبة في معرفة أنساب القبائل العربية وعلاقتها مع بعضها وأنساب كثير من الأسر التي ازداد تمسكها بعروبتها وفخرها بذلك مع ازدياد الحركة الشعبية *
٤ - تشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة ، للكتاب بتسجيل حوادث زمانهم لتطلع عليها الأجيال القادمة *

٥ - ميل الكتاب الذين ينتمون الى بعض الفرق تسجيل أخبار فرقهم الدينية والسياسية وتتبع حوادث الفرق المناوئة * فقد دفعت الشعبية كلا من العرب والعجم الى ذكر مناقبهم ومساوئ خصمهم *

٦ - اقبال علماء اللغة على تدوين الادب العربي من شعر وخطابة وأمثال ومفردات لغوية فذكروا الحوادث المتصلة بكل هذا ، ولا تزال كتب الادب العربي القديم منهل رواد التاريخ لكثرة ما تحتويه من مادة تاريخية غزيرة *

٧ - الرغبة العلمية التي سيطرت على كثير من علماء الادب واهابت بهم الى الاقبال على العلم للعلم لا لنفع مادي أو معنوي ، فدون بعضهم أخبار التاريخ لهذه الغاية النبيلة فقط دون أن يتأثروا بارتضاء الطبقة الحاكمة أو فئة سياسية أو دينية معينة ، ولهذا كانت أبحاثهم أكثر تجرداً من غيرها *

الكتب التاريخية :

١ - القصص التاريخية وأيام العرب : استمر القصص التاريخي ، الذي تناقله عرب الجاهلية بما دخله من الاساطير والميثولوجيا الى ما بعد الاسلام ، كما استمر اهتمام المسلمين بتناقل اخبار «أيام العرب» * التي تتعرض لحروب الجاهلية الكبرى كحرب البسوس وداحس والغبراء وذي قار وغيرها ، وما أظهر فيها المقاتلون من صنوف البطولة ، وضروب الشجاعة ، وما أضفى المحدثون عليها من خيال خصب ، يجذب اليه السامع ويشده الى متابعة الاخبار ، والتعصب لهذا البطل أو ذاك ، أو لهذه القبيلة أو تلك ، وكانت هذه القصص والايام تنقل شفاهاً ،

ويدخل عليها التحريف والتعديل ، ويستشهد فيها بالشعر والاراجيز الشعرية التي كانت تعتبر سنداً للرواية * * ومن أشهر القصاصين العرب بعد الاسلام عبيد بن شربة الذي ألف لمعاوية بن ابي سفيان كتاب « أخبار الماضين » * ووهب بن منبه (١١٠ هـ) *

٢ - كتب المغازي والسيرة : تبحث كتب المغازي في غزوات الرسول عليه السلام والحروب التي اشترك فيها هو وأصحابه ، وتبحث كذلك في مناقب الغزاة والمجاهدين *

أما كتب السيرة ، فتتخصص بدراسة شخصية الرسول عليه السلام وأقواله وأفعاله وما شهدته فأقره أو استنكره ، ومن اجتمع بهم ، وماذا دار في مجالسه * * وتتعرض الى جميع سيرة النبي الكريم ، في جميع مراحل حياته ، الخاصة والعامة ، ونظراً لأن القرآن الكريم ذكر قوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى » اهتم المسلمون بالسيرة النبوية ليقنطدوا بها ، وينتقلقوا بأخلاق الرسول الفاضلة ، ويعتمدوا في تشريعهم وتنظيمهم الاداري والاجتماعي والمالي والقضائي عليها * * لذلك اعتمدت السيرة ، كما اعتمد علم الحديث على الاسناد للتأكد مما يدون فيها ويروى عن اعمال الرسول عليه السلام وأقواله وتوسع الكتاب في العصر العباسي فأضافوا الى أبحاث المغازي الحروب التي خاضها الصحابة بعد وفاة الرسول فذكروا معارك القادسية واليرموك ، كما ذكروا الحروب الاهلية كوقعة الجمل وصفين *

وأول من ألف في المغازي « أبان بن عثمان » (١٠٥ هـ) ولكن أشهر من كتب فيها محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) *

كما يعتبر ابن اسحاق (١٥١ هـ) أول من كتب في السيرة كتاباً بإذن الخليفة المنصور لم يصلنا وانما وصلنا من كتابه « المغازي » ما أخذ عنه ابن هشام (٢١٣ هـ) وقد طبع كتابه عدة طبعات ويعد المرجع الرئيسي في هذا الباب *

٣ - كتب الطبقات : عند جمع الحديث والتحقيق في صدقه ، صنف المحدثون في طبقات حسب أهميتهم في رواية الحديث ، ثم صنف المؤرخون على نفس النمط كتباً في طبقات الصحابة أو الاطباء أو الشعراء أو الادباء أو الفقهاء أو النحاة أو العلماء . واشهر كتب هذا النوع : طبقات الصحابة للواقدي (٢٠٧ هـ) طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (١٣٩ - ٢٣٢ هـ) والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) وطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة (٢٦٨ هـ) .

٤ - كتب الفتوح: بعد أن جمع المؤرخون غزوات الرسول وحروبه في كتب سموها المغازي ، وأصبحت مرادفة لكتب السيرة ، اهتموا بفتوح البلدان والامصار ليعرفوا أيها فتح حرباً وأيها فتح صلحاً لأن الضرائب تختلف في كل من الحالين . وأشهر كتب هذا النوع : فتوح الشام للواقدي - فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩ هـ) .

٥ - تواريخ البلدان : وضعت كتب خاصة ، لتأريخ مدن وأقطار خاصة كتاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١ هـ) ويحقق فيه المجمع العلمي العربي اليوم ، وينشر أجزاءه واحداً بعد واحد ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) والخطط للمقريزي (٨٤٥ هـ) ونفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب للمقري .

٦ - التراجم : وتبحث في حياة مشاهير الرجال وأعمالهم وأقوالهم سواء كانوا علماء أو أدباء أو خلفاء ، مثل معجم الادباء لياقوت الحموي ، ووفيات الاعيان لابن خلكان .

٧ - التواريخ العامة : ولا يقتصر بحثها على تاريخ العرب أو جزء من بلادهم ، بل يشمل التاريخ العام منذ بدء الخليقة حتى عصر الكاتب واعتمد الكتاب على تاريخ الامم الاخرى غير العربية الى ما نقلوه عنهم من ذلك : تاريخ الامم والملوك للطبري (٣١٠ هـ) ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (٣٤٦ هـ) والكامل لابن الاثير (٦٣٠ هـ) وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (٨٠٨ هـ) .

طريقة تدوين التاريخ :

اتبع المؤرخون العرب في تدوين كتبهم طريقتين :

أ - **الحوليات** : وهي ذكر الحوادث سنة بعد سنة * فلكي نستقصي أخبار رجل من الناس او حادثة وقعت في عدة سنين يجب أن نرجع الى جميع السنين التي حصلت فيها ، فنجد الكتاب مثلاً يقول : وفي سنة كذا حدث كذا من الحوادث حتى اذا انتهى من هذه السنة انتقل الى التي بعدها *

ب - **التاريخ المتسلسل** : ويبدأ المؤرخ بالحادثة فيسردها من أولها الى آخرها أو بتاريخ دولة أو منطقة فيعرضها كوحدة مستقلة *

أشهر المؤرخين :

الطبري : وكتابه تاريخ الامم والملوك أهم الكتب التاريخية العربية * وله عدة طبعات أديها طبعة ليدن في هولندا بتحقيق المستشرق دي جوي *

ابن الأثير : وكتابه المشهور « الكامل في التاريخ » وفيه بحث واف عن مصر والاندلس *

أبو الفداء : صاحب حمة (٧٣٢ هـ) وكتابه « المختصر في أخبار البشر » وهو هام في بحثه عن النصف الاول من القرن الثامن الهجري الذي عاصره *

ابن العبري : (٦٨٥ هـ) وهو راهب مسيحي ألف كتاب « تاريخ مختصر الدول » *

المسعودي : صاحب مروج الذهب وابن خلدون أعظم كتاب المغرب *

واليك أشهر المؤرخين المسلمين في كل قرن :

١ - أشهر مؤرخي القرن الثاني الهجري :

عروة بن الزبير (٩٤ هـ / ٧١٢ م) وقد ألف السيرة - وهب بن نبيه
(١١٠ هـ / ٧٢٨ م) ألف عن ملوك حمير - ابن شهاب الزهري (١٢٤ هـ / ٧٤٢ م)
تكلم في المغازي ابن سحاق (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) الذي منحه ابن خلدون لقب
« أستاذ » على كتابه في السيرة النبوية *

٢ - أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري :

الواقدي (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) - ابن الكلبي (٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) - ابن
هشام (٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) - ابن سعد (٣٢٠ هـ / ٨٢٢ م) - ابن عبد الحكم
(٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) - ابن قتيبة (٢٨٦ هـ / ٨٨٩ م) - البلاذري (٢٧٩ هـ /
٨٩٢ م) - الدينوري (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) - اليعقوبي (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م)
النوبختي *

٣ - أشهر مؤرخي القرن الرابع الهجري :

الطبري (٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) - ابن البطريق (٣١١ هـ / ٩٢٣ م) - ابن
عبد ربه (٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م) - الصولي (٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م) - المسعودي
(٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) - ابن القوطية (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) - ابن النديم
(٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) *

٤ - أشهر مؤرخي القرن الخامس الهجري :

ابن حزم (٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م) - ابن مسكويه (٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) -
البغدادي (٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) - الثعالبي (٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م) - الماوردي
(٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) - الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) *

٥ - أشهر مؤرخي القرن السادس الهجري :

اسامة بن منقذ (٥١٢ هـ / ١١١٨ م) - ابن عساكر (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م)

وييلي ذلك (القرن السابع) : ابن الأثير (٦٢٠ هـ / ١٢٣٣ م) - ابن الجوزي (٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) - القفطي (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) - ابن أبي أصيبعة (٦٦٧ هـ / ١٢٧٠) - ابن خلكان (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) - (القرن الثامن) أبو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) - لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) (القرن التاسع) ابن خلدون (٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) - القلقشندي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) - المقرئ (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) - (القرن العاشر) السيوطي (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) - (القرن الحادي عشر) المقرئ (١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م) - حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) .

٢ - الجغرافيا والرحلات

معنى الجغرافيا :

كلمة جغرافيا يونانية الاصل معناها علم وصف الارض وأطلق العرب على هذا العلم أسماء متعددة منها علم تقويم البلدان - علم المسالك والممالك - علم مسالك البلدان وامصار .

تطور علم الجغرافيا

١ - في الجاهلية :

انتشرت بين عرب الجاهلية كثير من المعارف الجغرافية وخاصة ما يتعلق بالانواء والهداية بالنجوم لمعرفة الجهات ومسالك الطرق الصحراوية واتساع الممالك المجاورة وما يصلح منها للتجارة ، لأن العرب كانوا واسطة النقل التجاري ، فكانت لقريش نفسها في كل عام رحلتان : رحلة الشتاء ورحلة الصيف .

ب - في الاسلام :

خرج العرب من جزيرتهم للفتح ، وانساحوا في بلاد امبراطورية واسعة شملت معظم العالم المتمدن في حينه ، فاطلعوا على أحوالها الجغرافية من طبيعة أرض وانتاج واقليم ونشاط بشري فزادت معارفهم الجغرافية بطبيعة الحال ولكنهم خصوا الجغرافيا كعلم قائم بذاته بكثير من عنايتهم فلم يكتفوا بترجمة أبحاث اليونان مثل كتاب المجسطي لبطليموس ، بل درسوها وزادوا عليها وقاموا بالتجارب العديدة ، ففاسوا محيط الارض ورحلوا براً وبحراً وسجلوا ملاحظاتهم ، فلا غرو أن يعترف الاوروبيون اليوم أن علم الجغرافيا قفز خطوات واسعة في ظل العرب في وقت نسي الناس في العصور الوسطى المعاصرة نهضة العرب أكثر المعلومات الجغرافية البسيطة التي كان يعرفها اليونان ، ولعل مما دفع الى تقدم علم الجغرافيا عند العرب :

١ - الفتوح : يستلزم الفتح عادة معرفة الطرق والمسالك ، واماكن المياه وتموين الجيش والمسافات الواقعة بين المراكز المدنية وما شابه ذلك ، كما يستتبع احتلال بلاد عديدة والبقاء فيها والتعرف الى طبيعتها ، ودراسة مشاكلها الاقتصادية لجباية الضرائب ولادارتها بشكل يغني السكان لتغني الحكومة .. وهذا كله صادف العرب في فتوحهم ، وألفوا الكتب العديدة التي جمعت الى أخبار الفتح أخباراً جغرافية متنوعة *

٢ - الحج : وفرض على من استطاع اليه سبيلا من المسلمين ، فأخذ أبناء الامبراطورية العربية المترامين يفدون من كل فج عميق الى الحجاز ويطلعون على الطرق الموصلة اليه ، وأحوال الجماعات التي يمرون بها وقد سجل الكثيرون ذلك *

٣ - تدوين الادب والتاريخ : فقد رحل العلماء الى البادية يتتبعون أخبار القبائل وأقوالها فدوّنوا خلال ذلك مشاهداتهم الجغرافية كما فعل الهمداني في كتاب « صفة جزيرة العرب » *

٤ - **الرحلات :** كثرت الرحلة في العصور الاسلامية واشتهر عدد من الرحالين الذين دونوا جميع ما شاهدوه حتى غدت كتبهم أحسن مصدر لنا عن أحوال عالم العصور الوسطى ، والرحلة كانت لأسباب سياسية أو تجارية أو علمية أو حباً بالرحلة والتعرف على أرض الله الواسعة * * وجميعها كانت من عوامل تنشيط الابحاث الجغرافية * ومن أشهر هؤلاء الرحالة ابن بطوطة وابن جبير *

٥ - **الترجمة :** لم يتجه المترجمون الى علم واحد ، بل نقلوا جميع ما عثروا عليه من كتب قديمة ، فكان من بينها كتب جغرافية مثل المجسطي لبطليموس الذي ذكرنا أنه نقل الى العربية *

اشهر الجغرافيين ومؤلفاتهم :

١ - ابن خرداذبه (٢٣٢ هـ) مؤلف كتاب « المسالك والممالك » واعتمد في بيان حدود الارض ومسالكها وممالكها على المجسطي لبطليموس *

٢ - ابن حوقل (٣٨٠ هـ) وصف في كتابه « المسالك والممالك والمفاوز والممالك » رحلته من العراق الى الشام وجزيرة العرب ومصر والمغرب والاندلس وصقلية ، وزين الكتاب بكثير من الخرائط *

٣ - المقدسي (٣٨٠ هـ) وكتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » وهو مزين بالخرائط وفيه وصف للعالم الاسلامي الذي زاره بنفسه *

٤ - الادريسي : أشهر جغرافي العرب في أوروبا لأن الكرة التي صنعها من فضة لملك صقلية النورماندي ما تزال محفوظة في برلين حتى اليوم ، وكتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » مترجم الى معظم لغات أوروبا الحديثة * فقد ترجم الى الالمانية ١٨٢٨ م والايطالية ١٨٨٥ م والاسبانية ١٧٩٣ م والفرنسية ١٨٣١ م وطبعت خريطة ملونة منه باللاتينية ١٩٣١ وطبعت نسخة بالعربية ١٩٥١ *

يقول عنه المؤرخ غوتيه : ان الشريف الادريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون ولم يكن لأوروبا مصور للعالم الا ما رسمه الادريسي . ويقول دوسلان ان كتاب الادريسي لا يمكن ان يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له ، وان بعض اجزاء من العمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الامور المتعلقة بها . وتعتبر دائرة المعارف الفرنسية هذا الكتاب « أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى » .

٥ - ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) ولعله أول من صنف البلدان تصنيفاً جيداً كالمعاجم وذكر أحوالها وتاريخها ، في كتابه « معجم البلدان » وهو من أهم الامهات التي نعتد عليها الآن لمعرفة مواقع البلدان التي يرد ذكرها في التاريخ .

ومعجم البلدان ليس بكتاب بلدان فحسب . بل انه كتاب تاريخ أمم وتراجم رجال وعادات وأقوام وتقاليده شعوب . واحتوى من الادب درراً ، ثراً ، وشعراً ، ومن القصص طرائف ، بعضها المضحك ، وبعضها المبكي ، وبعضها تقتبس منه العبرة الهادئة .

٦ - ابن جبیر : وهو رحالة أندلسي قام بثلاث رحلات واسعة ابان الحروب الصليبية سجلها في كتابه « رحلة ابن جبیر » بأسلوب أدبي رفيع ، وطريقة علمية دقيقة الملاحظة .

٧ - ابن بطوطة (٧٧٧ هـ) رحالة اندلسي ساح في أكثر أجزاء العالم الذي عاصره ووصل الى أماكن لم يصل اليها ماركو بولو الرحالة الجنوبي ، فقد وصل الى روسيا وتركستان والهند والصين وجزيرة سرنديب (سيلان) وجزر اندونيسيا ومر بمكة عدا البلاد الاسلامية ، وجمع مشاهداته بكتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » والمشهور باسم « رحلة ابن بطوطة » .

٨ - الحسن بن محمد الوزان : ويعرفه الاوربيون باسم ليو الافريقي ، وهو

رحالة عربي من مواليد غرناطة بالاندلس ، وقضى شطرا من حياته في تونس ومراكش ، وأسر في رحلة بحرية ، وقدم هدية الى البابا ليو العاشر الذي عمده بنفسه وسماه باسمه ، وكتب وهو في روما ، كتابه « وصف افريقيا وتاريخها » ونشره باللغة الايطالية ، وبعد أن مكث في ايطاليا من ١٥١٨ الى عام ١٥٥٠ م تمكن من الفرار الى تونس ، حيث رجع الى الاسلام حيث توفي مسلما عام ١٥٥٢ م في عهد آخر ملوك بني حفص . ويعتبر كتابه وصف افريقيا أول مرجع ساعد الاوروبيين على معرفة افريقيا التي كانت لا تتعدى المناطق الواقعة شمال خط الاستواء وهي أرض البربر - ليبيا - السودان الغربي - اثيوبيا - بلاد المغرب ومصر .

المصورات الجغرافية :

رسم العرب خرائط لأكثر الامكنة التي زاروها وعرفوها . وذكروا أن المقدسي زين كتابه « أحسن التقاسيم » المار ذكره ، بخريطة مثل فيها الاقاليم وحدودها وخطوطها ، ولونها فجعل الطرق المعروفة بلون الحمراء ، والرمال بالصفرة ، والبحار المالحة بالخضرة ، والانهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة . والخريطة لم تصلنا الا أن وصفها يدل على انها تشبه خرائطنا الحديثة من حيث التلوين .

جاء في التنبيه والاشراف ان الخليفة المأمون أمر برسم صورة يظهر فيها العالم بأجوائه ونجومه وقاراته وبحاره ومواطنه وسكناه وصحاريه ومدنه وعرفت باسم الخريطة المأمونية ، اجتمع على صنعتها عدد من جغرافيين عصره فاقت كل الخرائط التي رسمها مارينوس وبطليموس وغيرهما من القدامى وكانت مصورة بأنواع الاصباغ .

ويصف المقرئزي الخريطة التي صنعت للخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥) والتي انفق عليها اثنين وعشرين الف درهم فيقول انها عبارة عن « مقطع من الحرير الازرق ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب ، وسائر ألوان الحرير . فيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها

وأنهارها ومسالكها • وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر • وقد كتبت على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير كما كتب عليها : ما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله • في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » •

ولم يكتف العرب برسم الخرائط البرية ، بل رسموا كثيرا من الخرائط البحرية للبحار التي جابوها وخاصة ما بين خليج البصرة والهند • ويذهب بعض العلماء المحدثين الى أن العرب هم أول من رسم الخرائط البحرية •

الاكتشافات الجغرافية والمعلومات العامة :

اشتهر من جغرافيي العرب البحار أحمد بن ماجد الذي دل فاسكو دي غاما على طريق الهند ، و « الفتيان المغررون » الذين قاموا برحلات عديدة في المحيط الاطلسي ويعتقد أنهم وصلوا الى أمريكا •

هذا وقد عرف العرب كروية الارض ، وقاسوا أبعادها في عهد المأمون بطريقة لم يسبقهم اليها أحد ، واتخذوا إحدى جزر الباليار مبدءاً لخطوط الطول •

وانتقل علم الجغرافيا ، وما يتعلق به من معلومات فلكية الى الاندلس خلال القرن الثالث الهجري خلال امارة عبد الرحمن بن الحكم رابع الامراء الامويين ، الذين عنوا بالكتب العلمية وانفقوا في جلبها من المشرق ، وكان مما أحضر الى قرطبة ترجمة كتاب السند هند وفيه معلومات فلكية عن حساب النجوم ، وكان من اثر اطلاع علماء قرطبة على هذه الكتب ان انتشرت بينهم فكرة كروية الارض وكيف قاسها المسلمون في زمن المأمون وان الفصول تتبادل في نصفي الكرة الارضية واشتهر من علماء قرطبة مسلم بن أحمد بن ابي عبيد الليثي ، ومعاوية بن الشباسي ... حتى ان احد فقهاء قرطبة وفلاسفتها وهو ابن حزم ، قد أعلن تحيزه لجانب العلماء ، ضد العامة وجهلاء العلماء الذين حاربوا هذه الافكار العلمية ، وقال بكروية الارض واستدل على ذلك لا بالمشاهدة ولا بما قام به علماء المأمون من

قياس وانما بما جاء في القرآن الكريم ، ورأى ابن حزم ان القول بكروية الارض
وبغيرها من المعلومات يؤيد الدين لا ينقضه (١) .

(١) كان كثير من علماء الدين والادب قد هاجموا المشتغلين بالجغرافيا والحساب
والفلك . ومما يروى ان الشاعر ابن عبد ربه عندما سمع ان العلماء يتخذون آلات
فلكية ويقولون بكروية الارض وان الصيف في الجنوب يقابله شتاء في الشمال هاجم
المشتغلين بهذه العلوم بقوله :

ايـن الـزيـج والقـانوـن ن والاركنـد (اسم لزيـج) والكمـة

وايـن السـنـد هـنـد البـطـل ل والجدول هـل ثـمـة

سـوى الـافـق عـلى اللـه تـعالـى مـنـشـير الرـمـة

بينما قال ابن حزم بأن أوضح بيان في تكوير الارض قوله تعالى : « يكور الليل على
النهار ويكور النهار على الليل » .



بسم الله الرحمن الرحيم

هـ - العلوم الكونية

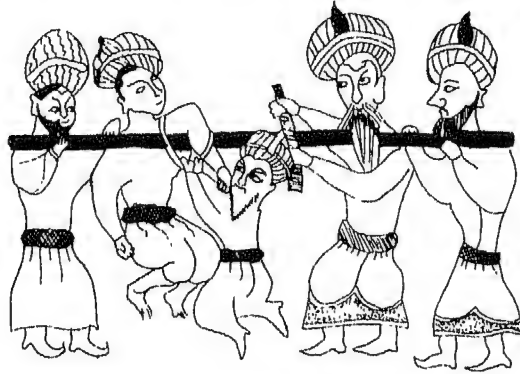
آ - العلوم الطبية

الطب : الطب والدين هما أول ما اهتم به الانسان القديم عندما أخذ ينتقل من حالته الهمجية الى التمدن ، واحتكر الطب رجال الدين عند أكثر الامم القديمة ومنهم العرب القدماء كما ذكرنا ، واختلط التطبيب بالشعوذة ولا يزال حتى الآن من يعتقد بأثر التماائم والتعاويد في طرد الشياطين التي تتلبس الانسان أو تخالطه * وعرب الجاهلية عرفوا كثيرا من أمور الصحة والتطبيب الطبيعي لحاجتهم اليه ، واشتهر أمر كثير من أطبائهم وكان بعضهم حتى في عصر الرسول العربي يذهب الى مدرسة جنديسابور الطبية ومستشفاهها لدراسة الطب فيها * وروي عن الرسول نفسه ما يقارب الثلاثمائة حديث عرفت بالطب النبوي أو طب النبي تحتوي على قواعد لحفظ الصحة والاستحمام والشراب والمأكول والزواج والامراض *

وبعد الفتح ، اعتمد الخلفاء والناس في العصرين الاموي والعباسي على أطباء غير عرب وغير مسلمين ، وكان أكثر أطبائهم من النصارى الذين بقوا على دينهم

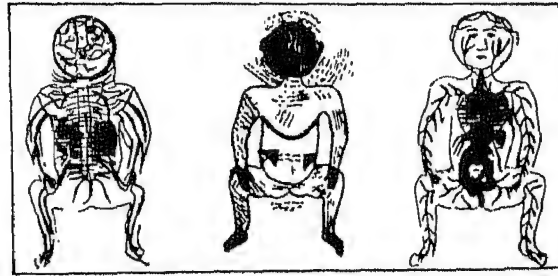
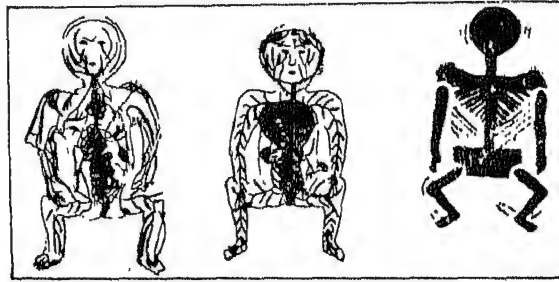
ولاقوا من احترام الخلفاء والشعب ما دفع الكثير منهم أن يهجر بلاده ، ويفد الى البلاد العربية ، وساهم هؤلاء الاطباء بأكبر نصيب في حركة النقل ، فوضعوا بين أيدي تلاميذهم العرب خلاصة الابحاث الطبية اليونانية والسريانية والهندية ، وأنشؤوا المستشفيات التي تمرن بها طلاب الطب العرب ، فنشأ من تفاعل الطب الاعجمي والطب العربي القديم ، وتجارب الاطباء غير العرب والعرب فيما بعد طب عرف بالطب الاسلامي الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب « الملوكي » لابي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب ألفه للملك عضد الدولة بن بويه وجمع فيه كل ما وجدته متفرقا من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في أواسط القرن الرابع الهجري . وما زال هذا الكتاب المعول عليه في الطب حتى ظهر كتاب « القانون » لابن سينا وهو موسوعة في الطب والصيدلة ، لابحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها .

الاطباء : بقي النصارى والهنود وأطباء جنديسابور يحتكرون هذه المهنة طوال العصر الاموي والصدر الاول من العصر العباسي حتى اذا اكتمل عصر الترجمة ، واطلع عليها العرب ، نبغ عدد من الاطباء العرب المسلمين الذين ساهموا في النهضة الطبية جنباً الى جنب مع الاطباء غير العرب . وبلغ من كثرة الاطباء



شكل - ١٣٩ -
رسم من مخطوطة عربية يمثل عملية تجبير عظم الكتف
(من رسم القرن السادس الهجري)

من جميع الاجناس ، في العواصم الاسلامية المختلفة ، ان الحكومات المحلية كانت تجري لهم امتحانات رسمية وتمنحهم شهادات للعمل ، وقد ورد نص احدى هذه الشهادات في الجراحة كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم * باذن الباري العظيم نسمح لـ (فلان) بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم ويتقنه حق الاتقان حتى يبقى ناجحاً وموفقاً في عمله ، وبناء على ذلك فان بإمكانه معالجة الجراحات حتى تشفى ، ويفتح الشرايين ، واستئصال البواسير وخلع الاسنان ، وتخييط الجروح وطهارة الاطفال * * وعليه أيضاً أن يتشاور دوماً مع رؤسائه ويأخذ النصيح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم » كما كان للاطباء في كل مدينة كبيرة نظام ، فعليهم رئيس هو الذي يمنحهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب ، وأشهرهم سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد + ويقال مثل ذلك في الصيادلة ، وتخصص الاطباء في الشرق



شكل - ١٤٠ -
لوائح تشريحية وجدت في مخطوط للطب العربي الاسلامي

والاندلس فهناك الجراح والفاصد والكحال والاسناني وطبيب أمراض النساء ، وطبيب المجانين ، كما انفرد بعض الاطباء لتطبيب جماعات معينة ، فللخلفاء أطباء ينقطعون اليهم يداوونهم مع عائلاتهم ، وللوزراء مثل ذلك ، وللجيش أطباء متخصصون يرافقونهم في حلهم وترحالهم * ولم تقتصر مهنة الطب على الرجال بل اشتهر عدد من النساء الطبيبات أمثال رفيدة وأم سليم وأم سنان وأمينة بنت قيس الغفارية وكعية بنت سعد الاسلمية * في صدر الاسلام وأخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها ، وزينب الشامية طبيبة نساء خلفاء بني أمية ، وبنت ديهين اللوز الدمشقية ، وكان الاطباء يجازون قبل السماح لهم بالعمل في هذه المهنة * وكانت فحوص الاطباء (كولوكيوم) التي تمنح الاجازة تعقد في العواصم الاسلامية المختلفة من شرق وغرب * ولنضرب مثلاً واحداً عنها ما ذكرته المصادر عن « اجتماع اربعة من علماء فاس في ٨ شوال ١٣١٠ لامتحان طبيب مغربي ، فشهدوا بعد استفساره بتضله في الطب وقوانينه وتطبيقاته ، ومعرفته بتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ، ووظائفها ، وعددها ، وعدد العظام ، وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ، ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب الطبية ، وخواصها واسمائها ، وطرق اذابتها ، والاوقات المناسبة لوصفها للمرضى * وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب اجازة » (١) *

ومن أشهر الاطباء المسلمين :

أبو بكر الرازي : (٨٥٠ - ٩٣٢ م) بدأ بدراسة الطب بعد أن بلغ الثلاثين من عمره ، وسرعان ما أصبح « الطبيب الاعلى » انتخب من بين مائة طبيب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد ، وكان أول من دون من العرب ملاحظاته على مرضاه ، وراتب تطور المرض وظواهره ، وأثر العلاج فيه وسجل ذلك كله ، وكان يراجع بنفس الوقت كل ما وقع تحت نظره من كتب طبية ، فكان كثير الملاحظة ، عظيم الانتاج ، الف عشرات من الكتب وأشار الى مصادرها اليونانية والهندية

(١) عبد العزيز بن عبد الله : الطب والاطباء بالمغرب ص ٨٩ - ٩٠

والفارسية والعربية * وهو أول من وصف الجدري والحصبة في كتيب هو خير ما وصلنا من تراث أطباء العرب القدماء ، وهو أول من قال بالعدوى الوراثية وأول من استخدم الماء البارد في الحميات المستمرة مما أخذ به علم الطب الحديث ، وكان الى جانب ذلك كيماويا * وهو أول من استعمل الزئبق وأملاحه على القردة ليرى مفعولها فيها * وأخص مؤلفاته :

١ - الحاوي : ويقسم الى قسمين أحدهما « الاقراذين » وهي كلمة مأخوذة عن اليونانية ومعناها رسالة صغيرة ويقتصر بها على تركيب الادوية ويقابلها اليوم كلمة فورما كويا Pharmacopeia وثانيهما مجرد ملاحظات سريرية جمعها تلامذته بعد وفاته من قيودات المستشفى العضدي ومن مذكراته * وقد ترجم الحاوي الى اللاتينية ترجمه فرج بن سليم (المعروف باللاتينية باسم فراجوت) وطبع مرارا في البندقية في القرون الوسطى *

٢ - رسالة في الجدري والحصبة : وهي أوجز وأفضل مما كتب في الطب العربي القديم ترجمت الى اللاتينية وطبعت عدة مرات ، وفي القرن الماضي ترجمت الى الانكليزية ١٨٤٨ م وطبعت بالعربية في بيروت وعلق عليها فان ديك *

٣ - الكتاب المنصوري : كتبه الرازي للامير منصور حاكم خراسان وهو عشرة أقسام أكثر ترتيباً ووضوحاً من الحاوي النظري والعملي ، وترجم الى اللاتينية وبقي كتاب التدريس المقرر في جامعات أوروبا الطبية هو كتاب «القانون» لابن سينا حتى القرن السابع عشر ، وطبع عدة طبعات في ميلانو والبندقية وليون وبادوا وبال *

٤ - كتاب الاسرار : وهو كتاب كيماوي يبحث في الادوية وتركيبها وتحضيرها وخصائص الاجسام ، ترجم الى اللاتينية عام ١١٨٧ م وبقي الكتاب المدرسي حتى ترجمت كتب جابر بن حيان وحلت محله في التدريس *

٥ - الكتاب الجامع : وقد جمع فيه الرازي العلوم الطبية قديمها وحديثها

مضافاً إليها اختبارات الواسعة *

٦ - كتاب طب الفقراء ، أو كتاب السى من لا يحضره طبيب ويبحث في الاسعافات الأولية في حالة غياب الطبيب والادوية الموجودة في كل مكان وفائدة الماء البارد ومداداة الزكام ، ومنافع الحمام ومضاره *

ابن سينا : (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) اذا كان ابن سينا أسطع نجم في سماء الطب العربي ، فانه من ألمع الشخصيات العلمية الاسلامية جمع الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والموسيقى واللغة معاً ، فهو بالنسبة للعصر العباسي ، ليوناردو دوفينشي بالنسبة لعصر النهضة الاوربية ، فلا غرو أن ميز ابن سينا من بين سائر علماء عصره بلقب الرئيس أو الشيخ ، واسمه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ولد قرب بخارى في بيت له اشتغال بخدمة الدولة ، وتلقى العلوم العقلية والشرعية في بيت أبيه ، وقد نضج عقله وجسمه نضوجاً سريعاً مبكراً ، وكانت له ذاكرة غريبة ، فقد حفظ القرآن في سن العاشرة من عمره ، ودرس الفلسفة والطب في بخارى وأصبح طبيباً يمارس الطب ويعلمه في السادسة عشرة من عمره ، وبعد عام أسعدده الحظ بشفاء الامير نوح بن منصور الساماني على يديه فقربه اليه وأذن له بالدخول في دار كتبه ، فانكب على التهام ما فيها من كتب في الطب والفلسفة ومختلف العلوم فانفتح عليه الكثير من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ، وكان ذلك كله من غير استعانة بمعلم ، وقد قال عن نفسه أنه ملك جميع العلوم والمعلومات الميسورة لجيله حتى سن الواحدة والعشرين ، ولم يكتسب بعدها سوى خبرة ونضجاً * واشتغل ابن سينا بالسياسة فتعرض لتقلباتها ، وأخذ يتنقل من قصر أمير الى قصر أمير حتى قلد الوزارة لشمس الدولة في همذان ، ثم سجن وافرغ عنه * وهكذا جمع ابن سينا بين العلم والفلسفة والطب والسياسة حتى مات في سن السابعة والخمسين في همذان *

استثمر ابن سينا كل دقيقة من حياته استثماراً تاماً ، ففي النهار يعنى بشؤون الدولة ، أو الطب أو التدريس ، وفي الليل يتمتع بمحافل الصداقة والانس واجتناء

لذات الهوى ، ثم يعكف على القراءة والكتابة ، ويتناول المنبهات ليطرد النعاس ، وقد قيل فيه « وكم شهدته الليالي عاكفاً على التأليف ، قلمه في يده ، وقدح الشراب الى جانبه ، مخافة أن يغلبه النوم » *

وابن سينا أول من وصف التهاب السحايا الاولي وصفا صحيحا ، ووصف أسباب اليرقان وصفا مستوفيا ، وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ أو عن سبب خارجي ، وفرق بين داء الجنب وألم الاعصاب ما بين الاضلاع ، ووصف السكتة الدماغية الناتجة من كثرة الدم ، ووصف أعراض حصى المثانة * وانتبه الى أثر المعالجة النفسانية في الشفاء ، ومساعدتها للعقاقير فقال : « علينا ان نعلم أن أحسن العلاجات وأنجعها هي العلاجات التي تقوم على تقوية المريض النفسانية والروحية وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه واسماعه أعذب ألحان الموسيقى وجمعه بالناس الذين يحبهم » *

وتأليفه الطبية تمتاز بحسن وضعها وبترتيبها وابرازها في قالب منطقي قوي الحجة قاطع البرهان مما جعل كتاباته شديدة التأثير على رجال العلم في القرون الوسطى حتى قال اوسلر عن كتابه القانون أنه « كان الانجيل الطبي لاطول فترة من الزمان » لانه كان كتاب التدريس الطبي عند العرب والافرنج لمدة تنوف على الثمانية قرون * واذا تجاوزت تأليفه المائة ، في مختلف العلوم فان أهم آثاره الطبية هي :

١ - القانون في الطب : وهو أفضل تراث في الطب العربي ، ويقسم الى خمسة أقسام تبعث في تشريح جسم الانسان ، وفي حفظ الصحة والوقاية من الامراض وفي العلاج عموماً والادوية المفردة مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وفي الحميات والقروح والجراحة والكسر والسموم وأمراض الجلد وما اليها * ترجم القانون الى اللاتينية وطبع أكثر من ثلاثين طبعة *

٢ - الارجوزة في الطب : وهي قصيدة من الشعر من ١٣١٤ بيتاً جمعت أصول الطب وحفظ الصحة وأنواع العلاج ، ترجمت الى اللاتينية وعلق عليها ابن رشد وابن

زهر تعليقاً حسناً *

٣ - عدة كتب ثانوية منها : كتاب الشفاء وكتاب النجاة وكتاب الادوية القلبية *

ابن زهر (١) : (١٠٩٤ - ١١٦٢ م) ابنغ ابناء عائلة اندلسية عرف أكثر رجالها بالطب ، وهو آخر العلماء المسلمين القلائل الذي حصر جهده في الطب فقط * ويدعى ابا مروان عبد الملك بن ابي العلاء بن زهر ، وكان ينتقد آراء ابن سينا والاطباء المشاركة لكثرة ما فيها من آراء فلسفية غير منطبقة على الملاحظة ، وهو يرى ان الطب شيء والفلسفة والمنطق شيء آخر * من اشهر كتبه « التيسير في المداواة والتداير » أهدها لتلميذه الفيلسوف ابن رشد * ويحوي وصفا للأمراض واضحا وخاليا من النظريات الفلسفية * * وقد كتب ابن زهر وصفا دقيقا لبعض الأمراض وخاصة التهاب غشاء القلب (ويظهر انه كان مصابا به) وأعراض السرطان *

(١) ينتمي إلى أسرة زهرا العربية التي توطنت اشبيلية في الاندلس منذ أواخر القرن العاشر الميلادي . وأول أطباء هذه الأسرة هو الطبيب عبد الملك بن محمد وكنيته أبو مروان الذي مارس الطب في القيروان بتونس والقاهرة ومات في الاندلس (١٠٧٨م) وفاقه ابنه زهر في صنعة الطب وكنيته أبو العلاء بعد أن درس هذه المهنة في قرطبة والتحق ببلاط المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية من العباديين ، ولما فتح يوسف بن تاشفين اشبيلية صار زهر وزيرا له وتوفي عام ١١٣١ م وكان قد أنجب ولدا عام ١٠٩١ ، هو الذي أصبح المع هذه الأسرة والمعروف بابن زهر Avenzoar الذي يعتبر أكبر سروري (كلينيكي) في الاسلام بعد الرازي لكثرة ما اعتمد على التجربة . واسمه الكامل عبد الملك بن ابي العلاء زهر وكنيته أبو مروان كجده (١٠٩١ - ١١٦٢) وكان ابنه سحر طبيبا أيضا واشتهر باسم « الحفيد » لانه ابن ابن زهر (ولد في اشبيلية ١١١١ م) ومات في مراكش ١١٩٩ م وينسب اليه كتاب في أمراض العين . وولد لهذا الحفيد ابنة أصبحت طبيبة مولدة ماهرة وخلفتها ابنتها أيضا في الطب والتوليد . اما ابن الحفيد واخو الطبية المولدة ، فيدعى عبد الله بن الحفيد وصار طبيبا ناجحا في خدمة الموحدين وأصفر ولديه صار طبيبا من بعده ويمثل الجيل السادس للأطباء من أسرة زهر .

ابن نفيس : من مواليد دمشق في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي ، وتعلم في مدارس دمشق ، ثم رحل الى القاهرة وتولى رئاسة المستشفى المنصوري ، وقد جمع الى جانب الطب ، علوم اللغة والفلسفة والمنطق والفقه والحديث . ومن كتبه كتاب « الموجز » وهو ملحق لقانون ابن سينا ، وكتاب « شرح تشريح القانون » وفيه وصف لأول مرة في تاريخ الطب للدورة الدموية الرئوية ، وتبيان بأن الدم ينقى في الرئتين ، وهو اول اكتشاف سبق أول القائلين به من الاوربيين (سرفيتوس) بثلاثة قرون .

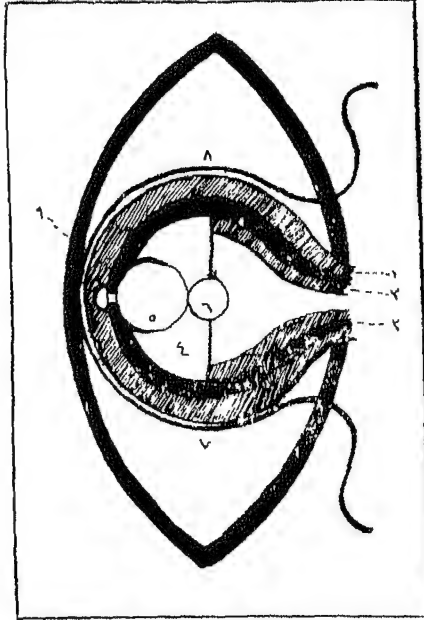
الزهرائي : وهو ابو القاسم القرطبي خلف بن العباس الزهراوي ، جعله كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » من أكبر جراحي العرب واستاذ علم الجراحة في أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة الاوربية حتى القرن السابع عشر ، والكتاب عبارة عن دائرة معارف طبية تحتوي ثلاثين فصلا مبوبة في ثلاثة أقسام : الطب الداخلي — الاقرباذين والكيمياء — الجراحة . وامتاز القسم الثالث وهو الجراحة بذكر جميع المعلومات الجراحية في زمانه بطريقة واضحة مع رسوم آلاتها وآلات خلع الاسنان . ومن دراسة كتبه تبين انه أول من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة وبحث في التهاب المفاصل وبالسلس واكتشف مرآة خاصة للمهبل وآلة لتوسيع باب الرحم للعمليات وأشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء في حال اجراء عملية جراحية لامرأة لان ذلك أدعى الى الطمأنينة والراحة .

وفي كاتدرائية ميلانو بايطاليا صورة ملونة مصنوعة من الزجاج القديم فيها رسم للزهراوي مع الطبيبين المسلمين : ابن سينا والرازي تخليداً لهم جميعاً وتقديراً .

الاختصاص في الطب : هل ظهر الاختصاص في الطب عند العرب المسلمين ؟ اذ كان من صفات « الحكمة » أن يلم الحكيم بالطب والفلسفة والرياضيات والطبيعة والموسيقى وغيرها من المعرفة فهو يتعدى التخصص في فرع واحد من الطب ؟ الواقع أن بعض الاطباء ، رغم اطلاعه على سائر فنون الطب والعلوم الاخرى التي تكون منه انساناً مثقفاً ، فإن عدداً منهم تبجر في نوع واحد ، وانقطع للعمل

فيه، كطبيب ومؤلف، وكان أمره كأمر الاختصاصيين في وقتنا الحاضر، لا يتخصصون إلا بعد حصولهم على شهادة طبية عامة ++ من ذلك مثلاً :

الكحالة : من مشاهير الكحالين عيسى بن علي وهو من تلاميذ حنين ابن اسحاق صاحب كتاب تذكرة الكحالين ، وعلي بن عيسى صاحب كتاب في علاج العين ، وعمار الموصلي مؤلف كتاب علاج العيون وفيه تشريح مفصل للعين وأمراضها ، والشاذلي ، وابن عزوز المراكشي مؤلف كتاب امراض العينين ، وابن رصيف البغدادي وغيرهم ، الى جانب الاطباء الآخرين الذين ألفوا في مختلف فنون الطب ، ومنها أمراض العين كابن سينا (علاج العين) والرازي وغيرهم .



شكل - ١٤١ -

صورة العين وطبقاتها مرسومة في رسالة لحنين بن اسحاق ، والمخطوطة محفوظة في الخزانة التيمورية بالقاهرة .
وأسماء طبقات العين كما جاء في المخطوطة هي :
١ - الصلبة ٢ - المشيمية ٣ - الشبكية ٤ - الرطوبة البيضية
٥ - العنبية ٦ - الجليدية ٧ و ٨ - الملتحمة ٩ - القرنية .

وقد جاء في كتاب المنصوري للرازي وصف هيئة العين كما يلي « العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات وترتيبها على ما أصف ان العصبة المجوفة التي هي أول العصب الخارج من الدماغ تخرج من القحف الى قعر العين وعليها غشاءان ، غشاء الدماغ * * ويسميه المشرحون الطبقة الصلبة * * والغشاء الرقيق ويسمى الطبقة المشيمية لشبهها بالمشيمة (خلاص الجنين عند الولادة) * * ويتكون في وسط الغشاء الشبكي جسم لين رطب في لون الزجاج يسمى الرطوبة الزجاجية وفي وسطه الرطوبة الجليدية * *



شكل - ١٤٢ -

صورة ملونة من مخطوطة طبية عربية :

طبيب عربي ، يحاضر طلابه ، في علم الطب ويشرح لهم تصالب العصب البصري وأمراض العين وطلابه يسجلون في كرايسهم أقوال مدرّسهم الطبيب .

وروي ان بعض الكحالين مال الى التنويم المغناطيسي بحكم صنعته ، فقد ذكر داود البصير الانطاكي في تذكرته في مادة مغنطيس ما يلي « يصنع من

المغنطيس كحل ومن الحديد كحل آخر ، وتكحل من شئت من الحديد ، وتتكحل أنت من المغنطيس فاذا أطلت النظر اليه فانه ينقاد اليك وقد جربه ابن سينا * »

٢ - طب الاسنان : تفرد بعض الاطباء لمداواة الاسنان ، ومن الرسائل الخاصة بذلك رسالة ما يضر الاسنان وسائر بدن الانسان للشيخ أحمد الحنفي الحصوني، وهي مخطوطة محفوظة في خزانة في المدينة المنورة * ومن رسوم الآلات الجراحية الموجودة في كتاب الزهراوي ، رسوم الآلات لقلع الاضراس ولجردها أي لتنظيفها ونشر الاسنان النابتة على غيرها ، وتشبيك الاضراس بخيوط الفضة والذهب وقطع اللحم الزائد في اللثة ، مع وصف لهذه الآلات والعمليات التي تجري فيها ، ومن أجمل ما قيل في وصف اسناني (طبيب الاسنان) قول الصفي الحلبي :

لح الله الطبيب فقد تعدى وجاء لقلع ضرسك بالمحال
اعاف عن كلتا يديه الطبي وسلط كلبتين على غزال

مما يدل على ان استعمال كلمة « كلبة » على آلة الطبيب التي يقطع بها الاضراس قديم * »

٣ - الجراحون : وهم أكثر أطباء العرب والمسلمين ، ويسمى الجراح أيضا في بعض كتبهم « الجرائحي » فقد جاء في كتاب ابن بطالان (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي) : يحتاج الجرائحي ان يكون عالما بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها ليتجنب في فتح المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاورتار والالياف * كما جاء في نفس الكتاب أسماء بعض أدوات الجراح وهي : كلبة الاضراس ، مكاوي الطحال والرأس ، النشاب ، صناير السبل ، زراقات القولنج ، قاثاخير (اسمها الميل في أيامنا) التبويل ، ملزم البواسير ، مخروط المناخير ، رصاص التنقيط (آلة الرص للالزاق والضم) ، منجل التأكيل ، مخالب التشمير ، محك الجرب ، منشار القطع ، مهت القدح (المبزل) ، مجرفة الاذن ، مقص السلح

(الخراج البارد) ، خشبة الكتف ، حمال الورك ، مفتاح الرحم ، نوار النسا (لعرق النسا) ، مكمدة الحشا ، مقده الشوصة (ذات الجنب) درج المكاحل ، مرهمدان المراهم ، دست المباضع * * والمدورات والشفرات والمزوبات والحربات وقأس الجبهة وصنارة الصدغ * *

اكتشافات العرب الطبية : يصعب على الباحث ان يعرف ما نقله العرب عن غيرهم من الامم وما اوجدوه بانفسهم ، الا أن الغربيين يقرون في كتبهم ان المسلمين هم أول من استخدم البنج في الطب استخرجوه من الزيوان او الشيلم ، وهم أول من استخدم الكاويات في الجراحة ، وأول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في السلولين * ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون في معالجة الجنون ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة ، وكتبوا في الجذام ، ووصفوا الحصبة والجذري ، وخالفوا القدماء بكثير من الادوية والطرق العلاجية مما يقوم عليه الطب الحديث *

المستشفيات العربية : اهتم حكام المسلمين اهتماماً بالغاً بالرفاه العام لشعوبهم ، واتفق الامويون بسخاء على المستشفيات العامة المجانية ، وكذلك فعل العباسيون وحكام الدول المنفصلة * وظهرت في العالم الاسلامي مستشفيات متخصصة لانواع من الامراض ، وكثيراً ما كان يطلق على المستشفيات اسم بيمارستانات * والكلمة مشتقة من (بيما) بمعنى مريض و (ستان) بمعنى محل * أي محل المريض ، وقد خففت اللفظة أحياناً ففيل (مارسانات) * وأهمها :

١ - مستشفيات الجذام : وهي أول أنواع المستشفيات ، كان يجمع فيها المجذومون ويعزلون عن المجتمع حتى لا يسري دأؤهم الى غيرهم ويعالجون ، واول مستشفى للجذام في الاسلام أنشأه الوليد بن عبد الملك (٧٠٧ م) بينما بني أول مستشفى للجذام في أوروبا في القرن الثاني عشر نقله اليها الصليبيون عن سوريا * ولكن بقيت أوروبا بشكل عام لا تداوي الجذام حتى روي ان الملك فيليب الجميل أمر بحرق جميع المجذومين في فرنسا * عام ١٣١٣م *

٢ - مستشفيات المجانين : أقيمت منذ العصر الاموي في سوريا ، وافردت حجر خاصة في المستشفيات العامة لمدواواتهم سريريا ونفسيا وبينما كانت أوروبا تداوي المجانين بالضرب المبرح *

٣ - المستشفيات العسكرية : أقيمت مستشفيات خاصة للجيش ، تنتقل معه ، وتحمل أدواتها على الجمال والبغال ، ويرافق المستشفى مرضات يتخصصن بتمريض جرحى الحرب والجند *

وقد روى ابن خلكان ان المستشفى العسكري للسلطان محمود السلجوقي كان ينقل على أربعين جملا ، وبينما كان اسعاف الجنود في أوروبا يلقي على عاتق الجندي نفسه ، ولم يوجد الصليب الاحمر ، والمرضات في الجيش الا من بعد حرب القروم ١٨٥٤ - ١٨٥٦ م في أوروبا ، كان المسلمون قد سبقوهم بأكثر من ألف عام الى ذلك *

٤ - مستشفيات السجون : أوجدت في بغداد في العصر العباسي الاول فقد جاء في طبقات الاطباء أن الوزير علي بن عيسى بن الجراح كتب الى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد كتابا جاء فيه : « فكرت مد الله في عمرك ، في أمر من في الجبوس وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم ، وجفاء أماكنهم أن تنالهم الامراض ، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاؤون من الاطباء فيما يعرض لهم ، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون اليهم في كل يوم وتحمل اليهم الادوية والاشربة ويطوفونها في سائر الجبوس ويعالجون فيها المرضى » *

٥ - مأوى العجزة والعميان واليتام : واوجدت منذ عصر الوليد بن عبد الملك وزادت في العصر العباسي *

٦ - المستشفيات المتنقلة : في العصر العباسي اوجد هذا النوع من المستشفيات التي تنتقل في الريف والقرى البعيدة عن المدن والتي لا يوجد فيها أطباء ، وتذهب خاصة الى الاماكن المرزقية ، ويكثر عملها وعددها عند انتشار بعض الاوبئة ، وربما

كان ذلك أول خدمة طبية في العالم للريف وسكانه •

٧ - محطات الاسعاف : وتقام بالقرب من الجوامع ، وفي أوقات الصلاة خاصة ، وقد أفرد ابن طولون في مسجده مكاناً خاصاً للاسعاف ، عليه أطباء متناوبون ليل نهار يسعفون المصابين والناس أجمعين حين الحاجة •

٨ - المستشفيات العامة : لم تخل منها مدينة كبيرة ، لا في المشرق ولا في المغرب ، وكان الخلفاء والامراء والاغنياء يتبارون بإنشائها والتبرع لها ووقف الاوقاف الواسعة للانفاق عليها •

ومهمة المستشفيات العربية المتعددة واضحة ، يكفي أن نقرأ ما جاء في نص وقف البيمارستان المنصوري في القاهرة لنذكرها ، فقد ذكر ان السلطان وقف هذا البيمارستان « لمدواة مرضى المسلمين الرجال والنساء ، الاغنياء والفقراء ، ومصر وضواحيها ، من المقيمين بها والواردين اليها من البلاد والاعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وسائر أمراضهم من أمراض الاجسام قلت أو كثرت ، اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت ، واختلال العقول .. مما تدعو حاجة الانسان الى صلاحه واصلاحه بالادوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب والاشتغال فيه .. يقيم فيه المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم الى حين برئهم وشفائهم » •

ووصف ابن جبير الاندلسي المستشفى الذي بناه صلاح الدين في القاهرة بأنه « قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً .. وعليه قيّم من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير .. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي • وبين يدي ذلك القيّم خدمة يتكلفون بتفقد المرضى بكرة وعشية .. وإزاء هذا الموضع مقتطع للنساء المرضى .. وموضع متسع للفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين • ولهم أيضاً من يتفقد كل يوم أحوالهم » •

وهذه المستشفيات جميعها كانت تلحق بها صيدلية مجهزة بالادوية ، وتقدم الدواء والغذاء بل والكساء أحياناً مجاناً دون تفريق في اللون أو الجنس أو الدين بين القادمين عليها ، وكثيراً ما كانت ادارة المستشفى تدفع للمعافين الفقراء مالا يساعدهم على كسب قوتهم بعد الشفاء . كما كان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب ، يدرس الطلاب فيها المؤلفات الطبية ويتمنون ويعاينون المرضى يومياً في المستشفى .

الكيمياء والصيدلة : لعل الفكرة التي كانت سائدة عند علماء العصور القديمة والوسطى ، وهي امكان تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة ، هي التي دفعت خالد بن يزيد بن معاوية الى استدعاء الراهب مريانوس من الاسكندرية ، وتكليف اسطفان القديم بترجمة كتب الكيمياء اليونانية الى العربية كما ذكرنا في بحث النقل والترجمة . * الا أن هذه الغاية المادية وان بقيت تحمس الكثيرين الى بذل المال بسخاء على التجارب الكيماوية ، أو علم الصنعة كما يسمونها ، فانها لم تكن الحافز الوحيد لتقدم هذا العلم ، لان العناية بالطب ، وترجمة الكتب الطبية المختلفة ، دعي الى العناية بتحضير الادوية وتجهيزها ، فنشطت بذلك صناعة الكيمياء والصيدلة معاً ، ولعل جميع من ذكرنا من أطباء ، ومئات الاطباء الآخرين الذين لم نذكرهم ، كانوا صيادلة عارفين بتركيب الادوية وتجهيزها ، وكانوا على سعة اطلاع بالشؤون الكيماوية تنميها لعلمهم ولمهنتهم ، ولم ينفرد الا القليل بشؤون الكيمياء ، دون الطب ، ولهذا بقي اسم جابر بن حيان يلمع في سماء الفكر العلمي ، ويرفرف وحيداً في عالم الكيمياء ، حتى عده برتيللو صاحب كتاب « تاريخ الكيمياء في العصور الوسطى » انه أول واضع للقواعد العلمية لعلم الكيمياء ، واعتبره بالنسبة للكيمياء كأرسطو طاليس بالنسبة للمنطق ، ولكن جابراً لم يكن وحيداً في تبجّره في علم الكيمياء ، فقد تتلمذ على جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٧ هـ الموافق ٦٩٩ - ٧٦٥ م) الذي قرأ جميع ما ترجم خالد بن يزيد بن معاوية ، كما كان لجابر تلاميذ كثيرون لعل أشهرهم أبو بكر الرازي ، الطبيب والفيلسوف والكيماوي .

جابر بن حيان : ويعرف بالكوفي نسبة الى الكوفة التي أقام فيها ، وبالصوفي نسبة الى تبخره في الصوفية وانتسابه الى مذهب التصوف ، وهو من مواليد القرن الثاني للهجرة (بين سنتي ١١٢ أو ١٢٣ - ١٩٥ هـ الموافق ٧٣٠ أو ٧٤٠ - ٨١٠ م) عاش في بلاط هارون الرشيد واتصل عن قرب بالبرامكة وخاصة يحيى بن خالد البرمكي وابنيه الفضل وجعفر وينسب اليه أكثر من خمسمائة مؤلف في الكيمياء^(١) ، ويرجح أن بعضها كتبه تلاميذه الكثيرون ونسبوا اليه ، إما لأنهم تعلموها منه ، أو احتراماً منهم لاستاذهم ، كما يظهر أن بعض من كتب في اللاتينية في هذا العلم نسبها اليه أيضاً لتلاقي رواجاً في أوروبا ، لأن كتب جابر بن حيان Geber كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرس في أوروبا خلال عدة قرون حتى جاء برتيللو في القرن الماضي ونظم هذا العلم على أسس حديثة وفيه يقول لوكيرك في كتابه « تاريخ الطب العربي » : كان جابر من أكبر الشخصيات في القرون الوسطى لا يساويه شخص آخر في زمانه في سعة معارفه . وقد وجه عبقريته الى فرع معين هو الكيمياء وصار السيد فيه بدون منازع ، واليه يعود الفضل في حمله عصبة من التلاميذ المجتهدين على متابعة الابحاث مدة قرون ، فهيئوا الوصول الى عصر العلم الحديث . وابن حيان هو أول من حضر حامض الكبريتي المعروف بزيت الزاج . ويعتبر العلماء الحاضرون أن استهلاك كمية هذا الحامض واستثماره هو مقياس لثقافة الشعوب وتقدمها نظراً لأهميته في الصناعة الحديثة ، فجابر بن حيان على من المحسنين الى الجنس البشري والى الصناعة القائمة التي تدين بكثير من انتاجها

(١) يسميه الاوربيون Geber وأشهر كتبه في اللاتينية Summa Perfectionis وهو ترجمة كتاب « الخالص » . وقد حاول بعضهم أن يتخذ من الفرق بين لفظتي جابر العربية وجبر اللاتينية مطعناً ضد ابن حيان فيدعي أنهما شخصان مختلفان وهذا ليس من الحقيقة في شيء كما يعترف برتيللو .

والواقع ان حياة جابر اقترنت بكثير من الغموض والاختلاف في الرواية ، فبعضهم يذكر انه عربي وآخرون يذكرون انه فارسي ، ويظهر ان صناعته أثارت حسد الناس حتى انهم عزوا غناء البرامكة وثروتهم الى جابر حين علمهم بعض الصنعة واستخرج لهم الذهب من المعدن الخسيس ، ويعللون ذلك باضطرابه للفرار من وجه الرشيد ، بعد نكبة البرامكة واختبائه في الكوفة حتى أيام المأمون .

الى تحضيره الكيميائي ، كما يعزى اليه اكتشاف حامض النيتريك وماء الذهب
(التترو هيدروكلورين) وهيدرو كسيد الصودا والسليمانى (كلوريد الزئبق)
والانتيموان •

وأشهر تأليفه : كتاب الخالص (حسب رأي هرمر فى كتابه تاريخ الكيمياء) -
كتاب الوصية (نسخته بالمتحف البريطانى) كتاب شرح المجسطى (منه ثلاث نسخ
فى اكسفورد وبودلى وكمبردج) - كتابا البيان والنور (فى الهند) - كتاب الشمس
وكتاب القمر (أى كتاب الذهب والفضة • فى المكتبة الاهلية بباريس) - كتاب
التراكيب (المكتبة الاهلية بباريس) كتاب الاسرار (المتحف البريطانى) كتاب
الارض أو ارض الاحجار (طبعه برتيللو عن مكتبة ليون والمكتبة الاهلية بباريس)
وعشرات غيرها ، ونخص بالذكر الكتاب الذى لا يزال بأصله العربى موجوداً
وهو « كتاب السموم » ، وفى المكتبة التيمورية بمصر نسخة من كتاب السموم
كتب عليها أن مؤلفها « هو ابو موسى جابر بن حيان الصوفى تلميذ جعفر الصادق ،
وان هذه النسخة نسخت بشيراز سنة ثلاث وخمسمائة خراجية » مما يدل على أنها
من أقدم الكتب العربية التى وصلت إلينا •

والكتاب مقسوم الى ستة فصول : الفصل الاول فى أوضاع القوى الأربع
وحالها مع الادوية المسهلة والسموم القاتلة وحال تغيير الطبائع والكيموسات المركبة
منها أبدان الحيوانات • والفصل الثانى فى أسماء السموم ومعرفة الجيد منها
والرديء وكمية ما يسقى كل واحد منها وكيف يسقى وأوجه إيصالها الى الأبدان •
والفصل الثالث فى ذكر السموم العامة الفعل فى سائر الأبدان والتى تخص بعض
أبدان الحيوان دون بعض والتى تخص بعض الاعضاء من أبدان الحيوانات دون
بعض • والرابع فى علامات السموم المسقاة والحوادث العارضة عنها فى الأبدان
والانذار فيها بالاخلاص والمبادرة الى علاجه • والخامس فى السموم المركبة •
والسادس فى الاحتراس من أخذ السموم قبل أخذها فاذا أخذت لم تكدر تضر ،
وذكر الادوية النافعة بها السموم اذا شربت من بعد الاحتراس •

وقد قسم السموم الى ثلاثة أنواع : حيوانية ونباتية وحجرية : فمثال الاولى مرارة الافعى ومرارة النمر ولسان السلحفاة وذنب الابل والارنب البحري والضفدع والعقارب والكلب الكلب ° . ومثال الثانية البيش وقرون السنبل والافيون والبنج الاسود والشيخ والجوز مائل ، وبزر قطرنا والكمأة ، وصمغ الشذاب ، وعنب الثعلب والحلتيت ومثال الثالثة : الزنجار والزئبق والزرنيخ والنورة والزاج والشبة وبرادة الحديد وبرادة الذهب +

وقد ذكر جابر بن حيان في كتاب العلم الالهي القواعد التي يجب اتباعها لاجراء التجارب الكيماوية وهي قوله :

GEBERI PHILOSOPHI
AC ALCHIMISTAE
MAXIMI DBALCHIMIA.
LIBRI TRES.

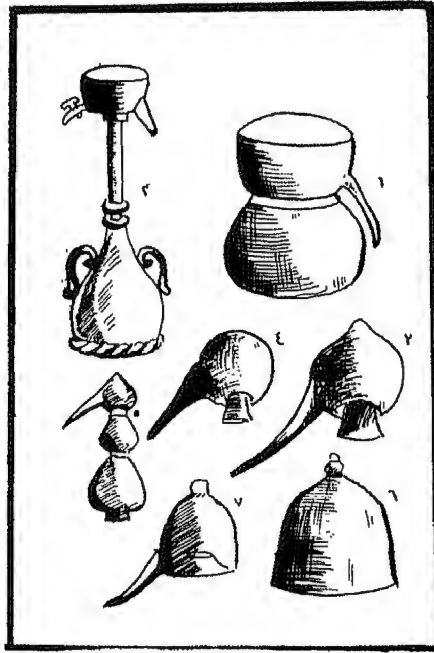


شكل - ١٤٤ -

صورة موجودة في مخطوطة تمثل فرن جابر بن حيان الذي اقتبسها الاوربيون وذاع استعماله لديهم في اعمال الكيمياء والسيما في القرون الوسطى .

- ٦١٤ -

- ١ - عين الغرض من التجربة واتباع التعليمات الخاصة بها *
- ٢ - تجنب المستحيل وما لا فائدة منه *
- ٣ - اختر للتجربة الوقت الملائم *
- ٤ - كن صبوراً ومثابراً وصامتاً متحفظاً *
- ٥ - اختر لمعمل التجارب مكاناً منعزلاً *
- ٦ - لا تصادق الا من تثق به *
- ٧ - لا تغتر بالظواهر لان هذا يؤدي بتجربتك الى نتيجة خاطئة *



شكل - ١٤٥ -

- أدوات عربية كيميائية هي :
- ١ - قرعة وأنبيق مصنوعان من النحاس وهذا مما يعرف بالأنبيق البارد .
 - ٢ - قطعة من أنبيق طويلة الرقبة .
 - ٣ - أنبيق كبير .
 - ٤ - أنبيق مدور صغير .
 - ٥ - أنبيق بثلاثة حوصلات .
 - ٦ و ٧ - أنبيقان لاستخراج ماء الكبريت .

واذا أطلقنا على العصر الذي عاش فيه جابر ، اسم عصر جابر بن حيان ، كما سماه جورج سارطون فان عصره عرف كثيرا من الامور الكيماوية الهامة منها :

آ - تقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز أي الحصول على حامض الخليك النقي بتقطير الخل * أي أن جابر بن حيان أو احد علماء عصره أدرك أن درجة الغليان في حامض الخليك ادنى من درجة غليان الماء ، وهكذا فتح الى العالم سرا من أسرار التحليل الكيماوي الصحيح البسيط ، ذلك أنه أدرك أن للسوائل المختلفة درجات غليان مختلفة ، فاذا أحبنا فصل سائلين ممزوجين أو بضعة سوائل ممزوجة معا فما علينا الا أن نرفع المزيج على النار ونبدأ بتصعيده أي بتقطيره ، ونرفع درجة الحرارة شيئا فشيئا ، فكلما وصلنا الى درجة معينة انفصلت مادة معينة من ذلك المزيج *

ب - نظرية الكبريت والزئبق في المعادن : وهي القول بأن المعادن (واعتبرها العرب سبعة معادن) تتألف من كبريت وزئبق بنسب متفاوتة ، فاذا زادت كمية الكبريت في معدن ما ، كان ذلك المعدن أكثر هشاشة (أسهل كسرا وانقساماً) وأكثر قبولا للصدأ وكان أخف ؛ واذا كانت نسبة الزئبق فيه أكثر فان ذلك المعدن يصبح أليّن ولكن غير قابل للصدأ ولا مطاوعا للانقسام وكان أثقل وزنا (نظرية غير صحيحة اليوم لكنها تتحدى نظرية أرسطو القائلة بوجود العناصر الاربعة والتي بقيت مقبولة في أوروبا حتى القرن السابع عشر) *

ج - استعمال ثاني أكسيد المانغنيز في صنع الزجاج : وذلك لازالة اللون الازرق أو الاخضر الذي يميل اليه لون الزجاج الطبيعي *

د - تحضير مداد مضيء من المرقشيشا الذهبية Golden masite (يبريت الحديد أو كبريتيد النحاس) ليستخدم بدل الذهب الغالي الثمن في كتابة المخطوطات الثمينة *

- هـ - تحضير نوع من الطلاء الذي يقي الثياب البلل ويمنع الحديد الصدأ .
- و - استخدام مادة الشبه في تثبيت الالوان في الصباغة .
- ز - صنع ورق غير قابل للاحتراق .

الرازي : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، ولد في الري من أعمال فارس جنوبي طهران وتوفي عام ٣١١ هـ ، ذكرنا شيئا عنه كطبيب ، وهو صيدلي وكيمائي من الطراز الاول ، تأثر بتعاليم جابر بن حيان ، ونسب اليه أنه أول من استطاع تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب فاتخذ صحونه وأدوات سفرته من الذهب الخالص ، ولذلك كان طعامه لذيذا لانه مطبوخ في قدور من الذهب ، لكنه امتنع عن تعليم صنعته لاي انسان لاعتبارات أخلاقية ، كما يعزى هذا التحويل قبله الى جابر بن حيان ولم يثبت تمكن الرجلين من هذه العملية .

وقد سلك الرازي في بحوثه وتجاربه مسلكا علميا خالصا فهو يذكر في كتاب « سر الاسرار » تجاربه مبتدئا بوصف المواد التي يشتغل بها ثم الادوات والآلات التي يستعملها ثم الطريقة التي يتبعها في تحضير الخميرة (ويقصد بها المركب) . وهذا هو النهج الصحيح في البحث العلمي .

مكتشفات العرب الكيماوية والصيدلانية : أطلق المسلمون على العقاقير تعبير « عجائب المخلوقات » ويقصدون بذلك ان الله تعالى خالق السموات والارض ، وخالق كل شيء ، قد خلق هذه العقاقير ليستعملها الانسان وتعود عليه بالنفع والخير . وعلى الطبيب أن يعرف طرقها وكيف تشفي من الامراض وكيف تعالج .

واذا أخذ المسلمون فن العقاقير عن ديوسقوريدس Dioskurides (المتوفى حوالي عام ٧٠ م) وجالينوس Galen (المتوفى حوالي عام ٢٠٠ م) فقد زادوا عليه واستكملوه بفضل خبراتهم الطبية التي اقتبسوها مما كان في بلاد ما بين النهرين والهند والشرق الاقصى وشمالى افريقيا .

وقد أشار البيروني (المتوفى عام ٤٤٠ هـ - ١٠٥٠ م) في مقدمة « كتاب الصيدلة » الى ما للعقار من مكانة خاصة بين الاطعمة والسموم فقال : « وجميع ما يتناول بقصد أو بجهل فمقسم اول الامر الى أطعمة وسموم ، والادوية واقعة في البين لانها بالاضافة الى الاغذية مفسدة ، والى السموم مصلحة ، لا يظهر فعلها الا الطبيب الحاذق المشفق لها ، ولهذا توسط بينها وبين الاغذية ماسموه دوائيا ، وبينها وبين السموم ما سموه دواء سميا . واعتمدها الاطباء بعد اصلاح قواها والاحتياط لدفع غوائلها حتى تم الانتفاع بها . »

ووجب على الطبيب ، كما وجب على الصيدلاني معرفة خصائص « عجائب المخلوقات » فقد ذكر أحمد الغافقي (المتوفى عام ٥٦٠ هـ - ١١٦٤ م) في كتابه « الجامع في الطب في الادوية المفردة » انه اذا كان أطباؤنا يرون أن هذا انما يلزم

شجرة شبيهة بشجرة صلب شديدة الصلابة والصلابة العزوة
شجرة بعضها بغير قاعه المذاق ونبت زياتي ونحوها كان
ظليله رابا حزنه قعره فيها الجلود موكب في الموضع الذي
تعال لماناوش الذي من الجبل الذي يقال لها بعاونا وامن هذا



النبات اذا شرب يفتح اسباب الالتهام ويبرد البرد اذا اجتمع

شكل - ١٤٦ -

صفحة من مخطوطة كتاب طبي منسوب لديوسقوريدس ، وهو أحد الكتب التي ترجمها العرب المسلمون عدة ترجمات وهذه النسخة مكتوبة في بغداد عام ١٢٢٤ م وتمثل نباتا طبيا كتب شرحه واوصافه وفوائده وكيفية استعماله ، مع نظريته . وكانت رسوم النبات الطبي توضح دائما الشرح حتى لا يخطئ الطبيب أو الصيدلاني (العطار) به .

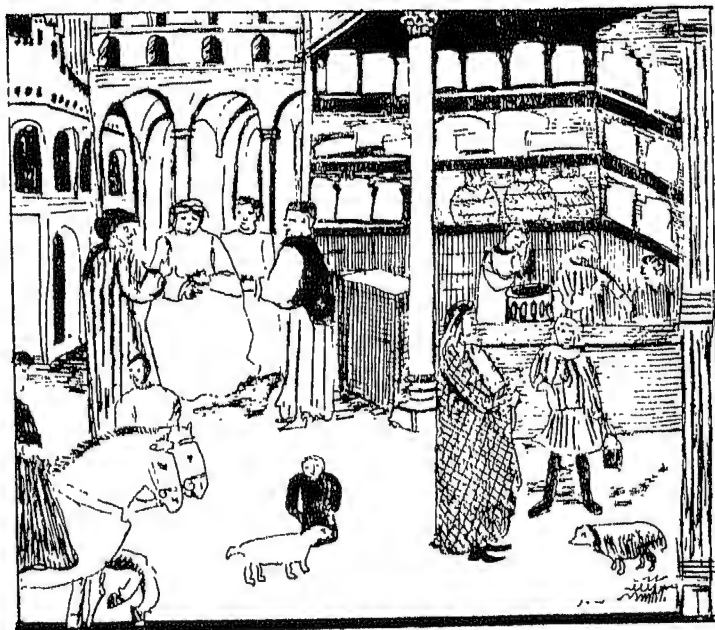
الصيدلاني دون الطبيب لكان ظنهم صادقا لولا أنهم يتولون بأنفسهم عمل الادوية المركبة + وما أقبح بأحدهم ان يطلب أدوية مفردة فيؤتى بأدوية لا يعلم هل هي التي أرادها أم غيرها فتركها ويسقيها عليه مقلدا فيها الدجالين ومتعاطي الحشائش ، قوم لا يقرؤون الكتب ولا يعرفون من الادوية الا أقلها » +

وكانت الادوية المفردة هي العقاقير الاصلية ، سواء كانت نباتية أو معدنية أو حيوانية ، فاذا ما جمعنا عقارين أو أكثر حصلنا على الادوية المركبة التي سماها علماء المسلمين « الاقرباذين » وأعلنوا في كتبهم وابعاثهم ان قوى الادوية المفردة ستبلغ حدا بعيدا من التأثير باكمال بعضها بعضا + ومنها صنفوا المراهم والشراب والمعاجين والحبوب وغيرها +

وكان تحضير الادوية المركبة من وظائف الصيدلاني فقد ذكر البيروني ان « الصيدلاني هو المحترف بجمع الادوية على أحمد صورها ، واختيار الاجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التي خلدها له مبرزو أهل الطب » +

وقد وضع لطريقة تحضير الاقرباذين كتب فيها القواعد الاساسية لهذه العملية دعيت « بالدستور البيمارستاني » أي بدستور المستشفيات + وكانت « الصيدلة اشرف الصنائع بعد صناعة الطب » كما ذكر كوهين العطار (أي الصيدلاني) (المتوفى عام ٦٥٨هـ - ١٢٥٩م) في كتابه « منهاج الدكان » +

وأول من ألف بعلم الاقرباذين في الدولة الاسلامية باللغة العربية هو يوحنا ابن ماسويه ثم سابور بن سهل من مستشفى جنديسابور ثم ابن التلميذ عميد أطباء بغداد ومؤلف « الاقرباذين الكبير » وتعرض لهذا البحث أكثر الاطباء المسلمين مثل علي بن ريان الطبري (٢٤٦هـ / ٨٦٠ م) في كتابه « فردوس الحكمة » والرازي (٣١٣هـ / ٩٢٥ م) في كتابه « الحاوي في الطب » وابن سينا (٤٢٨هـ / ١٠٣٦ م)



شكل - ١٤٧ -
صورة قديمة في مخطوط تمثل دكان عطار (صيدلية عربية)

في كتابه « القانون في الطب » والزهاوي (٤٠١هـ / ١٠١٠م) في « كتاب التصريف »
وابن القف (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) في « كتاب العمدة في صناعة الجراحة » *

وأوجد العرب طرق التقطير والترشيح والتكليس والتحويل والتبخير
والتدوير والتبلور وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر وتترات
الفضة (حجر جهنم) والراسب الاحمر والبورق وحامض الطرطير وملح البارود
والقلي والزرنينخ وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) والبوتاس وروح النشادر *

أما الادوية الجديدة التي اكتشفها او استعملها العرب فمنها السنامكة والكافور
والصندل والراوند والمسك والمر وجوز القيق والتمر هندي والحنظل وجوز الطيب

والقرفة * وهم الذين اخترعوا الاشربة والكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية ومنها الورد ، وتوصل ابن سينا الى تغليف الجيوب التي يصفها للمرضى منعاً لمرارتها أن تؤذي اللسان ، وتوصل أطباء العرب الى عمل الترياق المؤلف من عشرات الادوية ، وحسنوا تركيب الافيون والزئبق وتوسعوا في استعمالها ، وهم أول من استعمل الحشيش والافيون والزيوان للتخدير *

والصيدالة ، كالأطباء كانوا خاضعين منذ عهد المأمون ، للامتحان والحصول على اجازة الممارسة وللتفتيش المنظم ، وكان الصيدالة يدعون « عطارين » ولهم عميد يرأسهم *

ولما فتح العرب الاندلس حملوا اليها علومهم ومؤلفاتهم ، فكانت سراجاً منيراً انتشر شعاعه في أوروبا وحفز أهلها الى الاشتغال بهذه العلوم التي وصلت اليهم من الشرق ، وكان لزاماً عليهم اذ ذاك ان يترجموا الكتب العربية ، وقد فعلوا ذلك وبدؤوا به في أواخر القرن الحادي عشر * وكانت الطريقة الشائعة في الترجمة ان تحمل نسخة من الكتاب العربي الى مدينة طليطلة Toledo و يقرؤها باللغة الاسبانية أحد المغاربة الذين اعتنقوا المسيحية ثم تدون عباراته باللغة اللاتينية *

وأول كتاب كيميائي نشر في انكلترا ينسب الى Robert of Chester نقله من العربية سنة ١١٤٤ م ، وموضوعه « تركيب الكيمياء » والمقصود بالكيمياء هنا تلك المادة التي تؤثر على المعادن الدنيئة فتحويلها ذهباً *** واعتمد روجر باكون الانكليزي Bacon (١٢١٤ - ١٢٩٢ م) على مؤلفات ابن سينا في الكيمياء *** وتتابع بعد ذلك ظهور المؤلفات الكيميائية بين موضوع منها ومنقول من العربية ، حتى اذا ما حل منتصف القرن السادس عشر كانت هذه المؤلفات شائعة في معظم البلاد الاوروبية . ومما يؤسف له أن الكيمياء اتجهت في اوربا اتجاهاً مادياً ، اذ أصبح الغرض منها تدبير الذهب والفضة ، وانحصر بحثهم في تحضير تلك المادة التي يتحول بتأثيرها المعدن الرخيص الى أحد هذين الفلزين ، وكان العرب يسمونها الاكسير Elixir

أما الاوربيون فأطلقوا عليها اسم حجر الفلاسفة Philosopher's stone أو الصبغة Tincture وليس هناك شك في أن بعض العلماء كان يعتقد بإمكان الحصول على حجر الفلاسفة ، وكانوا متأثرين في ذلك بما قرؤوا عنه في الكتب العربية وبايمانهم بصدق نظرية ارسطو • وقد خدعتهم بعض الظواهر التي توصلوا الى مشاهدتها في تجاربهم العملية الكبيرة ♦♦♦

كان جابر خبيراً بالعمليات الكيميائية الشائعة كالإذابة والتبلور والتقطير والتكليس والاختزال •

ولجابر بحوث أخرى في الكيمياء يعجز عنها الحصر منها :

١ - كشفه أن مركبات النحاس تكسب الذهب لونا أزرقا •

٢ - استنباطه طرقا صالحة لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن وصنع الجلود والشعر •

وللبيروني كتاب « الصيدنة في الطب » (بالنون وليس باللام) يذكره بن أبي أصيبعة بقوله : « استقصى فيه البيروني معرفة ماهيات الادوية ، ومعرفة أسمائها ، واختلاف آراء المتقدمين فيها ، وما تكلم كل واحد من الاطباء وغيرهم فيه ، وقد رتبته على حروف المعجم » وقد نشر هذا الكتاب في برلين عام ١٩٣٢ من قبل ماكس مايرهوف ، وتقوم على تحقيقه جامعة البيروني في طشقند في الاتحاد السوفيتي حيث يدرسه الكيميائي السوفيتي عبد الله كاريموف من كلية الدراسات الشرقية في هذه الجامعة •

ومن الصيادلة المسلمين عز الدين الجلدي وهو كيميائي مسلم توفي ودفن في القاهرة عام ١٣٦٠ م واسمه الكامل عز الدين ايدير بن علي الجلدي • ترك مؤلفين في الكيمياء : نهاية الطلب والتقريب في أسرار التركيب • ويبلغ كل منهما نحواً من

ألف صفحة تحوي أهم أوصاف المواد ، وطرق تحضيرها ، وتنقيتها ، وتفاعلاتها ونواتج اتحادها ، وحواصل فصلها *** والتغيرات التي تحدث عليها بالإضافة او الفصل ، وكيفية المحافظة على نقاوة هذه المواد *

وثبت اليوم ان الجلدكي هو أول من وضع القوانين في الكيمياء الحديثة ، حين قرر « ان المواد لا تتفاعل الا بأوزان معينة » وهو القانون الذي وضعه براوست بعده بخمسة قرون باسم « قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي » وقد نبه ، في كتبه المشتغلين بالعمليات الكيميائية الى اتخاذ الاحتياطات ، للبعد عن خطر استنشاق الغازات والابخرة الناتجة منها ، وأوصى باستعمال الكمادات ***

ويعتبر أول من فصل الذهب عن الفضة بمعاملة المخلوط بحامض الآزوتيك ** وهي الطريقة المستعملة حتى الآن **

وللجلدكي كتاب البرهان في أسرار الميزان يبحث في الصوت وعلله والصدى ورجعه * ومنهم أبو القاسم المجريطي (القرن التاسع الميلادي) : زعيم الكيميائيين المسلمين في الاندلس الذي اهتم بتجارب الاحتراق والتفاعلات الناتجة عنه ، والتغيرات التي تتم عن أوزانها ؛ وأهم كتبه : « رتبة الحكيم » وفيه وصايا لطالب الكيمياء ، وما يجب أن تتوفر فيه من شروط « اذ يلزمه أن يتثقف أولا في الرياضة بقراءة اقليدس ، وفي الفلك بقراءة المجسطي لبطليموس ، وفي العلوم الطبيعية بقراءة أرسطو ، ثم ينتقل الى كتب جابر بن حيان والرازي ليتفهمهما *** ثم يدرب يديه على اجراء التجارب ، وعينه في ملاحظة المواد الكيميائية وتفاعلاتها ، وعقله على التفكير فيها » *

علم النبات : اهتم العرب بالنبات كعلم ، وترجموا كتبه الاجنبية في عصر الترجمة العباسي وأول كتاب ترجم هو كتاب ديوسقوريدس في النبات والاقرباذين ترجمه اصطفن بن باسيل في أيام الخليفة المتوكل ، الا أن المترجم لم يستطع أن يجد لكل الالفاظ اليونانية مرادفا عربيا ، فترك كثيرا منها على أصلها ، وبقي هذا الكتاب على

علته الكتاب النباتي الوحيد ، حتى ترجم ترجمة ثانية أدق في الاندلس عام ٩٥١ م ، عندما أهدي امبراطور الروم الخليفة الناصر الاندلسي نسخة من هذا المؤلف مزينة بالرسوم (٩٤٨ م / ٣٣٧ هـ) وأرسل اليه الراهب تقولا الذي يعرف اللاتينية واليونانية فقام بترجمته ترجمة دقيقة بمساعدة الاطباء المحليين الذين يعرفون اللاتينية ، ووضعت جميع الاسماء العربية التي كان قد جهل مرادفها ابن باسيل . وبذلك أتم الاندلسيون مابدأه المشاركة ، ومالبت العرب ان درسوا كتاب ديوسقوريدس وعلقوا عليه ، فنشر الطبيب الاندلسي ابن جلجل في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي كتابا عن الاشياء التي أغفلها العالم النباتي اليوناني وألحقها بترجمة ابن باسيل فجاء الكتابان مؤلفا كاملا ، ونشر بعده أبو حنيفة الدينوري كتابا من تأليفه الخاص جمع فيه ملاحظاته الشخصية فكان بحق أول المؤلفين العرب في علم النبات ، ثم جاء أبو جعفر احمد بن محمد الغافقي ونشر (١١٦٥ م) كتابه « الادوية المفردة » ذاكرا كل نبات باسمه العربي واللاتيني والبربري ، وعنه نقل العالم النباتي ابن البيطار ، وأصبح علماء النبات العرب من بعد ذلك لا يعتمدون على النقل وانما على الدراسة والملاحظة والتجربة ، فكانوا يراقبون النبات ويرسمونه في مختلف مراحل نموه ، ويدرسون تكاثره ، وتدريبه وتفسيفه ، وتطعيمه وماشاكل ذلك ، فنبت عدد من النباتيين الذين يعتبرون بحق أساتذة العالم في هذا العلم، منهم:

رشيد الدين الصوري : (١١٧٧ - ١٢٤١ م) : عميد الاطباء في دمشق. ولد في صور ودرس الطب في دمشق ، ألف كتابا على اسم كتاب الغافقي سماه « الادوية المفردة » ، وزينه برسوم النبات بألوانها الطبيعية ، وصف فيه ٥٨٥ عقارا منها ٤٦٦ من فصيلة النبات و ٧٥ من المعادن و ٤٤ من فصيلة الحيوان . وكتابه أول كتاب مصور في علم النبات باللغة العربية . وقد وصفه ابن ابي أصيبعة بقوله : « وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الادوية المفردة وذكر أيضا أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون . وكان يستصحب مصورا ومعه الاصباغ والليف على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه ابن

الصورى الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجهد في محاكاتها * ثم انه سلك أيضا في تصوير النبات مسلكا مفيدا وذلك أنه كان يرى النبات للمصور في ابان نباته وطراوته فيصوره ثم يريه أيضا وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه أيضا وقت ذواه وييسه فيصوره ، فيكون النبات الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء مايمكن أن يراه به في الارض فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين » *

ابن الرومية : هو أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الاموي ويعرف بابن الرومية * ولد في اشبيلية ٥٦١هـ / ١١٦٥ م وتوفي فيها (٦٣٧هـ / ١٢٣٩ م) *

وكانت قاعدة الحكومة الموحدية بالاندلس ، ومركز العلوم والآداب بعد ان تضاءلت هبة قرطبة السياسية والادبية * وجمع ابن الرومية من علم الحديث وعلم النبات ومن كتبه في علم النبات : شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبية على أوهام ترجمتها - التنبية على اغلاط الغافقي - الرحلة النباتية - المستدركة - الادوية المفردة *

ابن البيطار : فاق استاذہ ابا العباس بن الرومية وأصبح علما من أعلام النبات لما قام به من أسفار الى بلاد اليونان وبلاد الروم ، وجميع بلاد العالم الاسلامي ، ليجمع بمن يعاني هذا الفن من مسلمين وعرب ومن يونان ورومان ويدارسهم في أنواع النبات ، وخواصه وفوائده ، وكان في كل ترحاله يدرس النبات في منابته ويدرس الحجر الذي ينمو فيه ، والارض التي تنبت ، والعوامل المختلفة المتركة عليه ، حتى اذا جمع خبرة طويلة مستندة على الملاحظة الدقيقة ألف كتابيه « المعني في الادوية المفردة » و « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » *

ويصف ابن أبي أصيبعة هذا الكتاب الاخير فيقول : « استقصى ابن البيطار

في كتابه الجامع ، ذكر الادوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها ، وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه » • بينما تقرأ في مقدمة الكتاب قول ابن البيطار نفسه : « بهذا الكتاب استيعاب القول في الادوية والاعذية المستعملة على الدوام ، والاستمرار عند الاحتياج اليها في ليل كان أو نهار ، مضافا الى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار • واستوعبت فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الفضل ديسقوريدس بنصه ، وهذا ما فعلته أيضا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه • ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يضعاه • وأسندت في جميع ذلك الاقوال الى قائلها ، وعرفت طريقة النقل فيها بذكر ناقلها : واختصت بما تم لي به الاستعداد وصح لي القول فيه ووضح عندي الاعتماد عليه » •

يضاف الى فضل ابن البيطار هذا بالنقل ، والامانة في النقل ، وبالتجربة ، أنه رتب كتابه على حروف المعجم لتقريب مأخذه ، وليسهل على القارئ والطلبة مطالعته دون مشقة وعناء ، وأشار ، الى كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمنقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم — كما يقول ابن البيطار — على النقل ، واعتماده هو على التجربة والملاحظة •

كما يمتاز هذا الكتاب أيضا بذكر أسماء الأدوية بسائر المصادر المتباينة التي اطلع عليها ، وعرف بها ، مع ذكر منابت الدواء ومنافعه وتجاربه الشهيرة • فهو معجم نباتي طبي ترجم فيما بعد الى اللاتينية والفرنسية والالمانية •

وابن البيطار يدعى ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد في القلعة المالكية على مقربة من مالقة باسبانيا ، وساح في اسبانيا والمغرب ومصر وسوريا وآسيا الصغرى ، ولما كان في مصر دخل في خدمة الملك الكامل الايوبي وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيسا على العشابين وكبير العطارين والصيدالة ، في مصر كلها ، وكانت وفاة ابن البيطار في دمشق عام ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ •

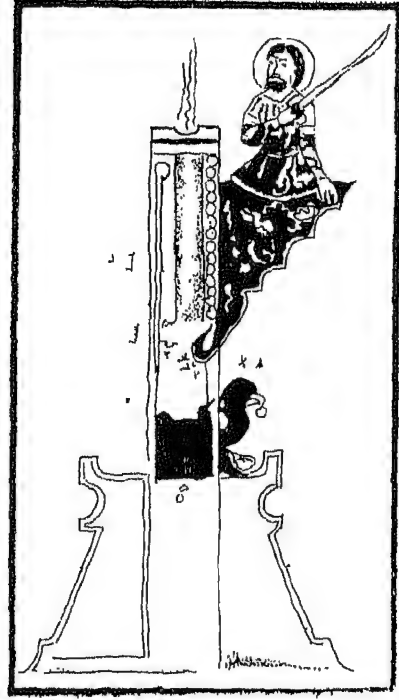
ونشر ابن البيطار وهو في مصر كتابا ثالثا سماه « المغرب » ضم ٢٣٣٠ فصلا
عن الاطعمة والادوية النباتية ، وقد عثر فيه عن ٣٠٠ وصفا لادوية كانت مجهولة عند
الذين تقدموه وتناولوا هذا الموضوع ، وهذا دليل على مزية المؤلف الشخصية في
البحث علاوة على قيمة جمع هذه المعلومات من مختلف المصادر * ولهذا اشتهر
ابن البيطار ولا يزال يعرف في أوروبا بلقب « ابو علم النبات » كما يلقب هيردوت
« أبو التاريخ » *

ب — العلوم الطبيعية

العلوم الطبيعية : اطلع العرب على علوم اليونان الطبيعية كما اطلعوا على علومهم الطبية والكيمائية وفلسفتهم وترجموا هذه الكتب ودرسوها ، ثم انتقدوها ، وأخذوا بدورهم يجربون النظريات القديمة ويراقبون التجارب ، فيزيدون عليها وينتقدون أو يعدلون اخطاءها ، ثم يضعون ملاحظاتهم الجديدة عليها وبذلك — كما يقول وايدمان — أسدوا الى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن ، وفرادي ، وروتنجن ، لانهم بعد أن فهموا النظريات اليونانية وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ، وضعوا نظريات وبحوثا جديدة مبتكرة . وقامت عبقريتهم في هذه العلوم على خمس دعائم هي : تفهيم الخرافات القديمة — سعة اطلاعهم على علوم الاقدمين — رحلاتهم الكثيرة للبحث والتنقيب — تجاربهم موازنتهم بين مختلف مظاهر الطبيعة ، من جماد وحيوان ونبات وانسان ، ودراسة أوجه النسب والخلاف بينها . وأهم العلوم الطبيعية عندهم كانت : علم الميكانيك أو الحيل وعلم الفيزياء .

علم الميكانيك : وسماه العرب علم الحيل وقسموه الى قسمين : أحدهما يبحث في آلات الحركات وصناعة الاواني العجيبة ، وثانيهما في جر الاثقال بالقوة اليسيرة . ودرسوا في هذا العلم كثيرا من الادوات الميكانيكية كالرافعة والمخل ، واللولب والاسفين وغيرها ، وكان اعتمادهم اولا على الكتب المترجمة مثل كتاب الفيزيكس لارسطو وكتاب الحيل الروحانية وكتاب رفع الاثقال وكتاب الآلات المصونة ، وكتب قطيبيوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها ،

صورة تمثل احدي « الحيل » التي ابتدعها العرب، وتمثل شمعة كبيرة وطائراً وسيافاً ، وكرات . ويعتقد ان هذا الجهاز كان ساعة زمنية ، فكلما ذاب الشمع ، بمدة محدودة ، سقطت كرية فتتحرك مقعد السياف فلهز سيفه وسقطت الكرية على الطائر فتتحرك واسمع صوتاً خاصاً به . اما المدة الزمنية لكل حركة فلم نستطع معرفتها ، وهي حتماً بالدقائق لا بالساعات .



من روائع علم « الحيلة » العملية اي الآلات التي صنعها العرب هذه الدمية البشرية المرسومة في مخطوط عربي وفيها شرح لفائدتها واستعمالاتها :

يملاً الإناء بماء زلال ، ويوضع في الإناء الصغير فوقه ماء الورد ، او عطر مركز ، وتمسك الدمية بيدها على الأنبوب الذي يصل اناء العطر باناء الماء ، فحين يغسل الضيوف او اصحاب الدار ايديهم قبل الطعام او بعده ، يحرك الثقل المربوط بيد الدمية الأخرى فتتحرك الدمية وتسمح للعطر ان ينزل قطرات من الماء، وينفتح صنوبر الماء تلقائياً . وهكذا يغسل الناس ايديهم ووجوههم او يتوضؤون بالماء المعطر . (من مصنوعات القرن السابع الهجري) .



وما لبث العرب بعد ترجمة هذه الكتب واشباهها أن قاموا بالتجارب وألفوا الكتب الجديدة في هذا العلم * وأشهر علماء العرب في هذا المضمار هم :

ابناء موسى بن شاكر : وموسى أحد المنجمين المعنيين بشؤون الفلك في بلاط المأمون ، رزق بثلاثة أولاد هم محمد وأحمد وحسن رعى المأمون تربيتهم فأوكل أمر العناية بهم الى اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، حتى اذا ما شبوا دفع بهم الى يحيى ابن أبي منصور رئيس بيت الحكمة فتفتحت أمامهم في تلك الاكاديمية كل أنواع المعرفة والعلوم ووسائل الدرس والاستفادة ، حتى برزوا في علوم الفلك والرياضيات والميكانيكا والهندسة والموسيقى والطب والحكمة وعلم حياة الفلسفة^(١) * وبرزوا أول ما برزوا في ميدان الترجمة العلمية ، حين أصبحوا مشرفين على قسم العلوم في بيت الحكمة وكان أكبرهم وأشهرهم « محمد » يشرف على ما يترجم في بيت الحكمة من كتب الجبر والمقابلة * وقد سافر عدة مرات الى آسيا الصغرى واليونان تفتيشا على كتب الفلسفة والرياضيات والفلك والميكانيك *** وقد أوكل المأمون الى هؤلاء الاخوة أمر اختيار المترجمين والكتب والمواضيع المترجمة ، فيعزى اليهم اكتشاف حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين وابن أخته حبش بن الاعسم ، وثابت بن قرة الذي نقلوه من الشام الى بغداد للعمل معهم في الترجمة والتأليف الرياضي *** ثم ما لبثوا ان تحولوا من الترجمة الى الدرس والتجربة والرصد والتأليف ، ونبع محمد في الفلك والرياضيات والفلسفة والطب ، ونبع أحمد في علم الميكانيكا ، وبرز الحسن في علم الهندسة * وبعد أن عمل الاخوة الثلاثة في دار

(١) يقول ابن النديم في الفهرست ص ٣٧٨ - ٣٧٩ : « وهؤلاء الاربعة ممن تباهى في طلب العلوم الفرعية وبدلوا فيها الرغائب واتعبوا فيها نفوسهم وانفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم فأرضوا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبدل السني فأظهروا عجائب الحكمة ، وكان الغالب عليهم العلوم الهندسية والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل » ويقول ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان ج ٥ ص ٧٩ « ولابناء موسى بن شاكر كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد » .

الرصد المأمونية في الشماسية في أعلى بغداد، أنشؤوا مرصدا خاصا بهم في دارهم التي أقاموها عند باب « الطاق » في جانب الرصافة من بغداد * وساهموا في عملية قياس محيط الارض التي تمت في عهد المأمون في صحراء سنجار في شمال العراق وصحراء تدمر في بر الشام *

وألّف هؤلاء الاخوة عددا من الكتب ، فلهم مشتركون كتاب يحتوي على قياسات المساحات المسطحة والمستديرة * ويعرف في أوروبا باسم كتاب الاخوة الثلاثة في الهندسة بعد أن ترجمه جيرار الاكويني *

وكتاب حيل بني موسى جمعوا فيه علم الميكانيك القديم ، وتجاربههم الخاصة، وهو يحوي على مائة تركيب ميكانيكي ، عشرون منها ذات قيمة عملية ، وكتاب القرسطون ويذكره ابن النديم في الفهرست ، وكتاب الآلات الحربية *

وكان اهتمام أحمد منصبا على الاختراعات العملية ذات الفوائد المنزلية ولعب الاطفال والانتقال وغيرها ، وقد جاء وصفها في كتاب فن الآلات الروحية^(١) من ذلك اختراعه لبراميل تملأ بالخمير وتفرغ من ذاتها كميات معينة من الشراب تعقب كل كمية منها فترة استراحة محددة ، وآلات تمتلئ بالسوائل وتفرغها تلقائيا ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائيا ويصب منها الزيت ذاتيا ولا تستطيع الرياح اطفاءها ،

(١) جاء في كتاب ارشاد القاصد الى أسمى المقاصد للانصاري أن علم مراكز الانتقال هو علم يتعرف منه كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل حد في الجسم عنده يتعادل بالنسبة الى الحامل ، وأن فن الآلات الروحية علم يتبين فيه كيفية ايجاد الآلات المرتبة على ضرورة عدم الخلاء ونحوها من آلات الشراب وغيرها ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات كقدحي العدل والجور . ويشرح كتاب كشف الظنون هذين القدحين بقوله : أما قدح العدل فهو اناء اذا امتلأ على قدر معين يستقر فيه الشراب وان زيد عليها ولو بشيء يسير ينصب الماء ويتفرغ الاناء عنه بحيث لا يبقى قطرة ، وأما قدح الجور فله مقدار معين ان صب فيه الماء بذلك القدر القليل يثبت ، وان ملئ يثبت ايضا، وان كان بين المقدارين يتفرغ الاناء ، كل ذلك لعدم امكان الخلاء .

ومعالم خاصة لبعض الحيوانات ، لا يستطيع استعمالها الا لما وضعت له ، ونافورات
تندفع مياهها في صور شتى ***

بينما ألف محمد ، دون مشاركة أخويه كتاب حركة الفلك الاولى وكتاب
المخروطات ، وكتاب المثلث ، وكتاب الجزء وكتاب أولية العالم ، وكتاب مائية الكلام،
وكتاب الشكل الهندسي وكتاب التقاويم لمنازل السيارات *

وألف الاخ الثالث الحسن كتاب الشكل المدور والمستطيل ، وكتاب مساحة
الاکر ، وكتاب قسمة الزاوية بثلاثة أقسام متساوية وغيرها (١) *

وغير أبناء موسى كثيرون ممن اشتغلوا بهذا العلم (٢) ، ودرسوا نواحي مختلفة

(١) من مقال لسليم طه التكريتي ، العربي ١٥٥ .

(٢) ذكر أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري في كتابه « الحيل الجامع بين
العلم والعمل » انه « صنع زورقا عليه صور بعض ندماء السلطان ، وصور جماعة من
مطربات مجلسه ، واتخذ من خشب فيه دكة عليها صور الملك جالسا ، وعن يمينه حاجبه
قائما ، وعن شماله حامل السلاح ، وبين يديه غلام في يده قدح كأنه يسقي ، ودون ذلك
جماعة من الندماء جلوس عن اليمين وعن الشمال ، وبين ايديهم أواني الشراب ،
وقبالة الملك دكة عليها زامرة ... ووراء الدكة الجوّاري الملاح ، وعلى حافة الزورق
ملاحان بأيديهما مجدافان ، فيوضع الزورق على سطح الماء في بركة كبيرة ، فلا يكاد
يسكن ، بل يتحرك ، وكلما تحرك ، فان الملاحين يتحركون ، لانهم على محاور ،
والمجاديف تحركهم بحركتها في الماء ، فاذا مضى نصف ساعة تزمّر الزامرة ، وتلعب
الجوّاري بالملأهي بأصوات يسمعونها من حضر ، ثم يسكتن ، ثم يعدن الزمر واللعب ... »

وفي هذا الكتاب المحفوظ بالخزانة التيمورية بالقاهرة صور عديدة للساعات المائية
والدوايب والآلات المنوعة ووصف المقرّي في النفخ ساعة كانت عند أبي حمو سلطان
تلمسان : « لها ابواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية ، فمهما مضت ساعة ،
وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت منه جارية وفي يدها
رقعة مشتملة على نظم فتضعها بين يدي السلطان ، ويسراها على فمها مؤدية بالمبايعة
حق الخلافة .

وصنع أبو عنان المريني على يد موقتة علي التلمساني عام ٧٥٨ ساعة من نحاس
مقابلة لباب مدرسة الجديدة بسوق القصر بالمغرب وجعل شعار كل ساعة ان تسقط
صنجة في طاس .

منه ، فشرح بعضهم صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى وكيفية ترشح مياه الآبار من الجوانب وبينوا كيفية صعود المياه الى الاماكن العالية بالقلاع ورؤوس المنارات وطبقوا ذلك في حاجاتهم اليومية وفي قلاعهم المرتفعة ، وكان علم السوائل عندهم من فروع الحيل . ولليروني في كتاب « الآثار الباقية » شروح وتطبيقات كثير من الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها . وكتب بعضهم كالخازن^(١) في الاناييب الشعرية ومبادئها وتعليل ارتفاع الموائع وانخفاضها فيها ، وهذا البحث قادهم الى البحث في التوتر السطحي Surface Tension وأسبابه . واهتم بعضهم الآخر بتطبيق مبادئ الميكانيك عمليا ، فأوجد عددا من الروافع المبنية على القواعد

⇒

وجاء في وصف مقصورة جامع مراكش المصنوعة ايام الموحدين انها كانت تتحرك جدرانها ونبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفة الازرار الموضوعة في المدخل الخاص عند دخوله المقصورة . . اذ كانت تدار هذه المقصورة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزرائه بمصلاها منها ، وتختفي اذا انفصلوا عنها وقد اتخذها المنصور بجامعه المتصل بقصره في مراكش ، وفيها يقول أبو بكر بن مجبر شاعر المغرب في وقته :

طورا تكون بمن حوته محيطة	فكانها سور من الاسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوة	فكانها سر من الاسرار
وكانها علمت مقادير الوري	فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالامام يزورها	في قومته قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تختفي بعده	تكون الهالات للاقمار

وذكر المقرئ في النفح انه زار مراكش عام ١٠١٠ فلاحظ أن حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت آثارها (راجع كتاب مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ - تأليف عبد العزيز بنعبد الله) .

(١) الخازن : من رياضيي العرب المشهورين ويسمى محمد بن حسن أبو جعفر الخازن ، ونبغ في اوائل القرن الرابع للهجرة ، وهو أول عربي حل المعادلات التكعيبية هندسيا بواسطة قطع المخروط .

الميكانيكية لجر الاثقال بقوى يسيرة أو لرفعها أو لوزنها ، وفي كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي شرح لكثير من هذه الآلات كالمخل والبيرم والاسفين واللوب والقرسطون وغيرها ، وقد دفعهم هذا الى اتخاذ أنواع من الموازين المختلفة منها الموازين الدقيقة التي تضاهي أدق الموازين الكيميائية الحديثة الموضوعه ضمن صناديق من الزجاج ؛ اذ ثبت من بعض الابحاث ان فرق الخطأ في وزن بعض مواد تجاربهم كان أقل من أربعة من ألف جزء من الغرام^(١) ومنها الموازين الكبيرة كالقبان الذي عزوا خاصته الى النسبة ، فذكر أخوان الصفا في احدى رسائلهم قولهم «ومن عجائب خاصته النسبية ما يظهر في الابعاد والاثقال من المنافع ، على ذلك ما يظهر في القرسطون أعني القبان وذلك أن أحد رأسي عمود القرسطون طويل بعيد من المعلق ، والآخر قصير قريب منه ، فاذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل وعلى رأسه القصير ثقل كثير تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القليل الى الكثير كنسبة بعد رأس القصير الى بعد رأس الطويل من المعلق » (٢) .

ومن الابحاث الهامة ، التي دخلت عندهم في بحوث علم الجيل حساب الوزن النوعي فاخترع الخازن آلة لمعرفة الوزن النوعي لاي سائل ، وكان البيروني يستخرج الثقل النوعي بوزن الجسم في الهواء أولا ثم بوزنه في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل مثقوب على علو معين ، ثم يزن الماء الذي أزاحه الجسم ، فمن حجم الماء المزاح كان يعرف حجم الجسم ، ومن قسمة وزن الجسم في الهواء على وزن الماء المزاح يحصل على الثقل النوعي للجسم الموزون . واستنبط غيره آلات خاصة لحساب الثقل النوعي حسابا دقيقا ، فالرازي استعمل ما سماه بالميزان

(١) وزن الاستاذ فلندر بتري ثلاثة نقود عربية قديمة فوجد ان الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الغرام فقال : انه لا يمكن الوصول الى هذه الدقة في الوزن الا في استعمال أدق الموازين الكيماوية ، وبتكرار الوزن مرارا حتى لا يبقى فرق ظاهر في رجحان أحد الموازين على الآخر ، ولذلك فالوصول الى هذه الدقة لما يفوق التصور ولا يعلم أن أحدا وصل الى دقة في الوزن مثل هذه الدقة .

(٢) المعلق هنا نقطة الارتكاز ، وقد ألف ثابت بن قره كتابين في الموازين أحدهما في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك ، والثاني في القرسطون .

الطبيعي ووصفه في كتابه محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي * والخازن وصف في كتابه ميزان الحكمة عددا من الموازين التي استعملها العرب في تجاربهم وفيه أيضا وصف لميزان غريب التركيب لوزن الاجسام بالهواء والماء * ولعل الدافع اليهم رغبتهم في معرفة الوزن النوعي للاحجار الكريمة والمعادن ، وقد صنفوا الجداول الكثيرة للاوزان النوعية للمعادن كالذهب والزئبق والفضة ، وللبن البقر والجبن والزيت وللحجار الكريمة كالياقوت الاحمر ، والزمرد واللازورد والعقيق ، وهي جميعها قريبة مما اتفق عليه الآن ، مع العلم أن الوزن النوعي اليوم يؤخذ بالنسبة للماء المقطر ، بينما لم يكن كذلك عند العرب (١) *

ولعل فكرة الاوزان النوعية هي التي حدث بالعالم العربي الاندلسي عباس ابن فرناس (٢) الى التفكير بالطيران ، فقد أدرك كيفية طيران الطيور في الفضاء ،

(١) في كتاب عيون المسائل من اعيان المسائل لعبد القادر الطبري جداول للانتقال النوعية كما ذكرنا ، ونحن نورد هنا جدولا مختصرا للاوزان النوعية التي حصل عليها البيروني والخازن مع مقارنتها بالارقام الحديثة :

المادة	ارقام البيروني	ارقام الخازن	الارقام الحديثة
الذهب	١٩٢٦ ١٩٠٥	١٩٠٥	١٩٢٦
الزئبق	١٣٧٤ ١٣٥٩	١٣٥٦	١٣٥٦
النحاس	٨٩٢ ٨٨٣	٨٦٦	٨٨٥

كما أن البيروني لاحظ أن الفرق بين الثقل النوعي للماء البارد والماء الحار ٤١٦٧٧ ر. كما قام الخازن بتجارب أخرى على مختلف السوائل .

(٢) ويدعى أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني الاموي المتوفى عام ٢٧٤ هـ ٨٨٤ م . بعد عمر ناهز على الثمانين . نشأ ودرس في قرطبة مركز العلم والفن والادب في أوربة . . . صار طبيبا خاصا للأسرة الحاكمة ، وخدم الحكم بن هشام وابنه عبد الرحمن ومحمد بن عبد الرحمن . ولكنه نبغ أيضا في الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية والنحو فأطلق عليه لقب « حكيم الاندلس » .

تذكر الروايات أنه قام بالاعمال التالية :

١ - قام بدراسة ثقل الاجسام ومقاومة الهواء لها ، وتأثير حفظ الهواء عليها اذا

←

وأن ثقلها النوعي يخف لمكان الريش منها ولمقاومة الهواء لجناحي الطير ، فكسانفسه ريشا وجعل له جناحين وقذف نفسه من برج في مدينة قرطبة فطار مسافة قصيرة ثم سقط على مؤخرته لانه غفل أن يجعل لنفسه ذنبا يقاوم الهواء أثناء سقوطه على الارض .

وقد بحث العرب في سقوط الاجسام وانتقدوا قول أرسطو الذي بقيت أوروبا تتبعه حتى القرن السابع عشر عندما برهن غاليلو (١٦٤٢ م) بتجربته فساد رأي أرسطو في سقوط الاجسام ، ثم أوجدت قوانين سقوط الاجسام . فقد كان أرسطو يقول أنه اذا ألقي جسمان من شاهق ، وكان احدهما أثقل من الآخر مرتين مثلا ،

⇒

ما طارت في الفضاء . وقام بأول تجربة بشرية للطيران : كسا نفسه بريش اتخذه من سرقى الحرير (شقف الحرير الابيض والواحدة سرقى) لمتانته وقوته ، وهويتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين من الحرير ايضا يحملان جسمه اذا ما حركهما في الهواء . . . وأعلن للناس أنه يريد أن يطير في الجو وأن طيرانه سيكون من الرصافة - ظاهر مدينة قرطبة - فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا البطل يتهاوى في سماء قرطبة . وصعد فوق مرتفع ، وحرك جناحيه ، وقفز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن المحل الذي وقف فوقه والناس ينظرون اليه بدهشة واعجاب ، ولما هم بالنزول الى الارض ، تأذى في ظهره ، وفاته ان الطائر انما يقع على رنكه (ذيله) . (وقد قام بعد قرن من الزمان اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى ٣٩٣ هـ - ١٠٠٣ م) بتجربة ثانية ، حين صعد سطح الجامع القديم في نيسابور بعد أن اتخذ لنفسه جناحين كجناحي الطير وانما من مصراعي باب) .

٢ - اخترع الآلة الفلكية المسماة ذات الحلق .

٣ - عمل الميقاتة لمعرفة الاوقات وهي تقوم مقام الساعة في وقتنا .

٤ - اتخذ في داره هيئة السماء وصور فيها الشمس والقمر ، والكواكب ومداراتها ، والفيوم والرعد والبرق .

٥ - صنع نوعا من الزجاج الحجري (الكريستال) .

فالجسم الثقيل يصل الى الارض في نصف المدة التي يقتضيها الجسم الخفيف ، وجاء العرب فجربوا قول أرسطو فوجدوا فيه نقصا وخطأ ، فقد جاء في كتاب : « ميزان الحكمة » للخازن أن هنالك علاقة بين سرعة الجسم والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه ، وأن قوى الثقائل تنجبه دائما الى مركز الارض^(١) كما بحث الخازن نفسه في الضغط الجوي .

٢ - علم الفيزياء : وبحث العرب في جميع العلوم الفيزيائية ، ولكن أبحاثهم لم تصلنا جميعها لان أكثرها ترجم الى اللغات اللاتينية واليونانية وأهمل أسماء المؤلفين العرب وانتحل اسماء أوربية جديدة ، ولولا ان الصفة العلمية ، والروح التي تسود بعض مناصفي العلماء الاوربيين المعاصرين من التفتيش عن الحقيقة واسناد الامور الى أصحابها لبقينا نجهل أن أكثر هذه النظريات كان من وضع العرب ، واذا لم تكن بصيغتها النهائية كدساتير ، فهم على الاقل هيؤوا لهذه الدساتير ومهدوا لها على أن تأخذ شكلها القانوني (بشكل قوانين ثابتة) وكل كتاب جديد يعثر عليه في زوايا المكتبات العامة ، يكشف لنا جانبا عظيما من اهتمام العرب بهذا النوع من العلم البحث ، واذا كانت بعض العلوم التي ذكرناها في البحث السابق ضمن اطار الميكانيك ، وهي من فرع الفيزياء ، فلأن العرب كانوا قد وضعوها ضمن علم الحيل ، وهي بحسب تقسيم العلوم الحالي تدخل ضمن العلوم الفيزيائية ، وأهم أبحاث العرب في هذا المضمار :

(١) وشرح العرب الجاذبية فقال ثابت بن قرة : ان المدرة تعود الى السفلى لان بينها وبين كلية الارض مشابهة في الاعراض أعني البرودة والكثافة والشيء ينجذب الى اعظم منه . وشرح الرازي هذه العبارة بقوله : اننا اذا رمينا المدرة الى فوق فانها ترجع الى اسفل فعلمنا أن فيها قوة تقتضي الحصول في السفلى حتى اذا رميناها الى فوق اعادتها تلك القوة الى اسفل .

١ - الضوء : ويسميه العرب علم البصريات أو علم المناظر ، وقد اهتم به العرب منذ بدء اهتمامهم بالعلوم والفلسفة خاصة ، وليس من المبالغة القول مع القائلين بأنه لولا البصريات وتناجح العرب فيها لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب فيما بعد ، فالكندي ألف حوالي ١٦٥ هـ (٨٧٠ م) كتابين أحدهما في « اختلاف المناظر » وثانيهما في « اختلاف مناظر المرأة » ، وابن سينا المتوفى عام ٤٢٨ هـ (١٠٢٧ م) الطبيب والفيلسوف والرياضي والفيزيائي اشتغل كثيرا في هذا الباب وأوجد بعض النظريات الجديدة^(١) ولكن الذي تخصص في هذا الباب ، وانفرد فيه ، وبقي رائد علم الضوء^(٢) في القرن السابع عشر للميلاد هو :

ابن الهيثم : أبو علي بن محمد حسن البصري المعروف بابن الهيثم ، ظهر في البصرة ونجح في علم الحيل والبصريات ، وسمع عن النيل وفيضانه ، ففكر بطريقة لخزن مائه فقال كما يروي ابن القفطي في كتابه اخبار العلماء ياخبار الحكماء « لو

(١) عرف ابن سينا البصر بأنه « مرآة يتشبع فيها خيال المبصر (بفتح الصاد) مادام يحاذيه فاذا زال ذلك المبصر ولم يكن قويا انسلخ » وعرفه بصورة أدق بقوله : « هو قوه مرتبة في العصبه المجوفة تدرك ما ينطبع في الرطوبة الجبلية في أشباح الاجسام ذوات اللون المتأدية في الاجسام الشفافة بالفعل الى سطوح الاجسام الصقيلة » وانتقد ابن سينا نظرية البصر اليونانية فقال : « وقد غلط من ظن أن الابصار يكون بخروج شيء من البصر الى المبصرات (بفتح الصاد) يلاقيها » وأثبت ابن سينا اول من أثبت في العالم أن شبح الجسم الملون هو الذي ينعكس على العين ، ووضع برهانا هندسيا طبيعيا لذلك بقوله : « اذا فرض جسمان متساويا الحجم على بعدين مختلفين ، فان الجسم الابعد يرى أصغر من الجسم الاقرب لان صغر الشبح في رأي العين ناتج من زاوية البصر التي ينعكس عليها الشبح الى العين » .

(٢) عرف الانصاري علم الضوء بقوله : علم المناظر علم يتعرف منه أحوال المبصرات في كميتها وكيفيتها باعتبار قربها وبعدها عن المناظر واختلاف شكلها وأوضاعها وما يتوسط بين المناظر والمبصرات وعلل ذلك ، ونفعته معرفة ما يغلط فيه البصر من أحوال المبصرات ويستعان به على مساحة الاجرام البعيدة والرؤيا المحرفة ايضا .

كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل النفع في كل حالاته من زيادة أو نقصان» فسير إليه الحاكم بأمر الله جماعة أحضرته الى مصر فأخذ يدرس أحوال النيل وسار مع مجراه حتى وصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل فعائنه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ عما وعد به ، وعاد خجلاً منخذاً واعتذر فقبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه وخشي ابن الهيثم انتقام الحاكم فتظاهر بالجنون وبقي على حاله حتى مات الحاكم ، فأظهر العقل وعاد سيرته الاولى من الدراسة والبحث وأخذ بتأليف كتبه التي أهمها كتاب « المناظر »^(١) وهو كتاب علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنتاج ، مبوب تبويبا علميا منطقيا ، يشبه الى حد كبير أحسن الكتب المبوبة حديثا مما يجعلنا نقر بفضل ابن الهيثم لا من الناحية العلمية فحسب ، بل من ناحية التأليف والبحث المنطقي المتسلسل ، وقد ترجم هذا الكتاب الى

(١) قال ابن ابي أصيبعة : « كان ابن الهيثم فاضل النفس قوي الذكاء متفنا في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه » وجاء في دائرة المعارف البريطانية « أن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس في علم البصريات » وقال سارتون Barton : أن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القائلين المشهورين في العالم كله . وقال مصطفى نظيف الذي نشر كتاب ابن الهيثم وعلق عليه : « أن ابن الهيثم بدأ البحث من جديد . . . وأعاد بحوث الذين تقدموه ، لا لاستقصاء البحث فحسب ، بل لقلب الاوضاع أيضا . . . فظاهرة الامتداد على السموات المستقيمة ، وظاهرة الانعكاس ، وظاهرة الانعطاف ، تلك الظواهر التي استقصى ابن الهيثم حقائقها ، لم تكن تتعلق البتة بالشعاع الذي زعم المتقدمون بأنه يخرج من البصر . ورأى ابن الهيثم وكان أول من رأى أن الابصار يكون به . فابن الهيثم قلب الاوضاع الفكرية وأنشأ علما جديدا . لقد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى والحدود التي نريدها الآن . وأثر ابن الهيثم في هذا لا يقل في نظري عن اثر نيوتن في الميكانيك ، فاذا عد نيوتن رائد علم الميكانيك في القرن السابع عشر فان ابن الهيثم خليفه أن يعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد .

اللاتينية وبقي الكتاب الوحيد الذي يقرأه الباحثون في هذا العلم طوال العصور الوسطى ، وقد درسه أكابر علماء أوربا في هذا الباب ، مثل روجر بايكون (٦٩١هـ/ ١٢٩٢ م) واضع أساس العلم التجريبي ، وكبلر صاحب قوانين كبلر المشهورة بالفلك ، وليونارد دافنشي عبقرى عصر النهضة وبرتيللو مؤسس الكيمياء الحديثة ، ونقل عنه هؤلاء وغيرهم ، فكتاب جون بكام (١٢٩١ م) في « المناظر » ليس سوى مختارات وافية من كتاب ابن الهيثم ، وكتاب فيتلو الالماني في المناظر أيضا ليس الا مأخوذا بالحرف الواحد من كتاب المناظر لابن الهيثم .

وكتاب ابن الهيثم يقع في الاصل في سبعة مجلدات ، تبحث في علم المناظر ، وفي تشريح العين ورسمها وأسماء أقسامها ، ولعله أول من وضع لاقسامها أسماء عربية ترجمت الى اللغات الاجنبية لاتزال تعرف بها الى الآن مثل الشبكية Retina والقرنية Cornea والسائل الزجاجي والسائل المائي ، ويبحث الكتاب في وظيفة كل جزء من أجزاء العين وفي كيفية النظر الى الاشياء بالعينين في آن واحد ، وكيف تسير الاشعة من النور ، من الجسم المرئي الى العينين ووقوع ذلك على الشبكية في محلين متماثلين من العينين ، ثم يبحث في العدسات وقوى تكبيرها (١) وينتقل بعدها الى بحث النظريات الضوئية المختلفة ، فيذكر أقوال المتقدمين ويؤيدها بتجاربه أو ينتقدها أو يكملها ، ويؤيد أقواله بالتجارب التي قام بها بنفسه ، ويرسم ما يحتاج منها الى رسم ، ويشير الى كيفية اجراء التجربة ويذكر شروطها (٢) ويقارن بين

(١) ترى دائرة المعارف البريطانية أن ابن الهيثم أوفى الشرح في تشريح العين، وان بحثه مهد السبيل لاكتشاف الاستريسكوب ، كما مهد السبيل بحثه عن العدسات لاصلاح عيوب العين بالعدسات .

(٢) نجد مثلاً في كتاب المناظر لابن الهيثم القانون اليوناني القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس على سطح مستو عاكس متساويتان ، ثم نجد تنمة هذا القانون السدي اوجده ابن الهيثم وقوله « وان زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد »

ما يحدث في الطبيعة وما يمكن مشاهدته وتجربته في المعمل « المخبر » مثل ذكره
للغرفة السوداء وهي صندوق محكم الاغلاق يمر النور من عدسة في أحد جوانبه
فيعكس أشباح ما يمر عليه من الاجسام على الجانب المقابل (وهذا أساس آلة
التصوير) ومقابلة ذلك مما يحدث في العين حين الرؤيا ♦

كمال الدين الفارسي : (أواخر القرن السادس الهجري) ، استهواه ما كتبه

⇒

ونجد ما عرف عنده باسم « مسائل ابن الهيثم » وهي النظريات والمسائل التي أوجدها
بنفسه مثل ذلك قوله : « اذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف نجد على
المرايا الكرية والاسطوانية النقطة التي تتجمع فيها الاشعة بعد انعكاسها ؟ » وقد أجاب
عنها ابن الهيثم نفسه باستعمال القطع الزائد لان حلها يحتاج الى معادلة من الدرجة
الرابعة وهذا ما شغل رياضيي اوربا مدة طويلة نظرا للصعوبات الهندسية التي تنشأ
عنها . ويذكر ابن الهيثم كيف صنع مرآة مكونة من بعض حلقات كرية ولكل منها
نصف قطر معلوم ومركز معلوم اختارها بحيث ان جميع الحلقات تعكس الاشعة
الساقطة عليها في نقطة واحدة . ويستعمل ابن الهيثم جهازا يتركب من حلقة مدرجة
من النحاس تغمر وهي في وضع رأسي الى نصفها في الماء ، وفي الحلقة ثقب صغير وعلى
سطح الماء قرص مثقوب عند مركزه وموضوع بحيث ينطبق مركزه على مركز الحلقة ،
وقاس به زاوية السقوط والانكسارية ووجد خطأ نظرية بطليموس القائلة بأن زاويتي
السقوط والانكسار ثابتة . . . ووضع ابن الهيثم جداول أدق من جداول بطليموس
للانكسار ووصل الى بحث الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار فسبق العالم الى
القول « ان الضوء الذي يصل الينا من الاجرام السماوية يعاني انكسارا باختراقه
الطبقة الهوائية المحيطة بالارض . . فالنجم يظهر على الافق قبل أن يكون قد بلغه
فعلا ، وكذلك نرى الشمس او القمر على الافق عند الشروق والغروب وهما في الحقيقة
يكونان تحت » وبين ان من نتائج الانكسار وعدم ظهور قرص الشمس او القمر
بالقرب من الافق مستديرا بل يضيوا ، وعلل ابن الهيثم رؤية هالة حول الشمس او
القمر بالانكسار حين يكون في الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد فالنور الذي يمر
منها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة ، فيصل النور الى عين الرائي كأنه صادر من
نقطة حول الشمس أو القمر فتظهر الاشعة في دائرة حول الجرمين المذكورين أو
حول أحدهما .

ابن الهيثم في الضوء فدرسه ، وتابع الدراسة والتجربة وتسجيل ما حصل عليه من نتائج هي تنمة لأعمال ابن الهيثم ، وألف كتاب « تنقيح المناظر لذوي الابصار والبصائر » ومخطوطة أصلية منه موجودة الآن في المانيا ، وترجمات الى اللاتينية والعبرية والهندية وبعض اللغات الاوربية متوفرة في أكثر المكتبات العلمية .

ويذكر الفارسي في مقدمة كتابه سبب تفرغه لعلم الضوء فيقول : « ولما رأيت كلام بعض أئمة الحكمة عن غير واحد منهم أن الضوء يشرق من النير على خطوط مستقيمة ، فإذا صادفت سطحا كسطح الماء انعكست عنه على زوايا مساويات للزوايا المضادة ، ونفذت فيه على سمة الاشراق عليه ، وانقطعت فيه على سمت الانعكاس والنفوذ والانعطاف ، وكلها متساوية فتحيرت في هذه الاحكام من أين مأخذها *** وتفرغت اليها مدة *** وفي حديثه عن قوس قزح يبين ترتيب ألوانه وانها عبارة عن اللون الابيض المتحلل الى عناصر ، بالانكسارات والانعكاسات ، فيقول : «التقازيح ألوان مختلفة متقاربة فيما بين الزرقة والخضرة والصفرة والحمرة الداكنة ، تحدث من صورة نير قوي واردة الى البصر بالانعكاس والانعطاف أو بما يركب منهما » .

البيروني : محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي وهو من مواليد خوارزم عام (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) تنقل بين خوارزم وغزنة والهند وأخذ العلم فيها جميعها ونبع في الرياضيات والفلك والفيزياء والحيل والتاريخ ، وامتاز بابتكاراته في بحوثه العلمية ، وارتدت كتاباته طابعا خاصا هو طابع دعمها بالبراهين والحجج المنطقية ، اطلع سخاو Sachau العالم الالماني الشهير على كتبه فقال «ان البيروني يتقن الى جانب العربية اللغات السريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية » اتخذه محمود الغزنوي صديقا ومستشارا واعتمد عليه في تصحيح حسابات الروم والسند وما وراء النهر ، فأفاد من فتوحات الغزنوي في الهند ، حيث تعلم الهندية فيها وما فيها أيضا من فلسفة يونانية ، واطلع على الرياضيات الهندية وسنذكر أثره في الرياضيات

أما البيروني كعالم طبيعي فقد ذكرنا آله التي اخترعها الحساب الوزن النوعي ، وأثره في ما يعرف بعلم السوائل عند بحثه في ماء الفوارات وصعود المياه الى القلاع المرتفعة ، وقد قام بحفر الآبار المعروفة باسم الآبار الارتوازية ، وشرح كيفية تجمع المياه وصعودها الى أعلى فيها * وزاد عدد مؤلفات البيروني عن المائة والعشرين مؤلفا في مختلف العلوم ترجم أكثرها الى اللغات الاوربية *

والبيروني هو أول من أعلن أن سرعة الضوء أعظم كثيرا من سرعة الصوت *

والبيروني ، الى جانب كل ما ذكرناه يؤمن بانسانية العلم وبالوحدة الشاملة التي يؤدي اليها العلم * فيدعو الى التوحيد بين العقول وازالة التنافر بينها ، وتقريب بعضها من بعض والتفاهم على أساس المنطق والحقيقة وعلى هذا الاساس فقد رأى البيروني في وحدة الاتجاه العلمي في العالمين الاسلامي والعربي اتحاد الشرق والغرب * وكأنه كان يدعو الى ادراك وحدة الاصول الانسانية والعلمية بين الشعوب في عالم واحد * فهو رغم أصله الاعجمي يطري العربية ولغتها وينصف الهند والاغريق فيقول: « كل واحدة من الامم موصوفة بالتقدم في علم ما أو عمل * واليونانيون قبل النصرانية موسومون بفضل العناية في المباحث وترقية الاشياء الى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها * وديننا نحن والدولة عريبتان توأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية * وكم احتشد طوائف من التوابع في الباس الدولة جلايب العجمة فلم ينفق لهم في المراد سوق *** والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والاوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها * وأقيس هذا بنفسه *** فأننا في كل واحدة دخیل ولها متكلف والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية» *

وقد أثبت البيروني معظم مؤلفاته في مخطوطه « الفهرس » وقد جاء فيه : « *** اسماء الكتب التي اتفق لي عملها سنة سبع وعشرين واربعمائة ، وقد تم

من عمري خمس وستون سنة قمرية ، وثلاث وستون سنة شمسية *** » ثم
يصنف مخطوطاته ومؤلفاته في عشرة أبواب هي :

- ١ - أطوال البلاد وعروضها وفيه خمسة عشرة رسالة
- ٢ - الحساب وفيه ثماني رسائل
- ٣ - الاوقات والازمنة وفيه خمس رسائل
- ٤ - المذنبات وفيه خمس رسائل
- ٥ - الآلات وطريقة عملها وفيه خمس رسائل
- ٦ - الشعاعات وفيه أربع رسائل
- ٧ - تحقيق يتناول القمر وهو كتاب واحد يبلغ عدد صفحاته ٣٦٠ ويذكر
بعد ذلك ١٠ مقالات في الفلك والطبيعة وخواص المعادن والهندسة *
- ٨ - التنجيم وفيه ستة رسائل
- ٩ - ١٢ رسالة نقلها عن الآداب الهندية والفارسية *
- ١٠ - العقائد وفيها كتاب واحد هو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مردولة *

ويذكر البيروني بعد ذلك خمسة كتب أخرى أتم تأليفها منها كتاب مترجم
عن السنسكريتية ، وكتاب « القانون المسعودي » ويذكر انه تابع البحث وسيؤلف
كتبا أخرى « معروفة من الله لو تأخر الاجل ، وسلمت الحواس ، وصح
البدن *** »

ولعل القانون المسعودي الذي كتبه البيروني عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠ م وأهداه
الى السلطان مسعود الغزنوي من أعظم موسوعات المسلمين في علوم الفلك
والجغرافية والهندسة والرياضيات ، مما يجعل البيروني أحد الموسوعين العالمين ،
الذين أלוأ بمختلف العلوم والفنون في عصره ، وقد طبع الكتاب كاملا في الهند عام
١٩٥٤ وأبوابه الهامة هي :

- ١ - مبادئ علم الهيئة بأجمال وإيجاز *
- ٢ - علم التواريخ الرياضي - أي تواريخ الأمم المختلفة ، واستخراج بعضها من بعض *
- ٣ - حساب المثلثات ، ولا سيما المثلثات الكروية *
- ٤ - دوائر الكرة السماوية والاحداثيات الناشئة عنها * وما يحدث بسبب حركة الكرة السماوية اليومية الظاهرية حول الأرض من مطالع البروج في الفلك المستقيم ، وفي البلدان ، ومن سعة المشارق والمغارب ، ومن ارتفاعات الشمس في الأقاليم ، ثم معرفة عروض البلدان من قبل أظلال المقاييس وما أشبه ذلك *
- ٥ - صورة الأرض وأبعادها * وكيفية تقويم أطوال البلدان ، وحساب المسافات بين بلدين معلومي الطول والعرض *** وسمت القبلة ، ومسائل شتى تتعلق بالأطوال والعروض الجغرافية ، وقسمة الأرض بالأقاليم وأوضاع المدن المشهورة بالطول والعرض *
- ٦ - حركات الشمس وكيفية تبينها بشكل هندسي *
- ٧ - حركات القمر وتوضيحها بشكل هندسي ، وبيان اختلاف مناظر القمر في الارتفاع والطول والعرض *
- ٨ - اتصالات النّيرّين وكسوفاتهما وحساب رؤية الهلال *
- ٩ - الكواكب الثابتة ومنازل القمر فيها *
- ١٠ - حركات الكواكب الخمسة المتحيرة في الطول والعرض ، وبيانها بشكل هندسي *
- ١١ - مسائل من حساب المثلثات الكروية * وعلم الهيئة الكروي *
- ١٢ - حساب اتصالات الكواكب ومطارح الشعاع *

ب - الصوت : بحث العرب في الصوت ومنشئه وقوته واداهم ذلك الى البحث في الموسيقى والآلات الموسيقية والنقر عليها وأنواع الانغام ، ففي رسائل اخوان الصفا مثلا نجد تعليلا لحدوث الصوت الناتج عن حركة الاجسام المصوتة في الهواء « الذي لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الاجسام كلها فاذا صدم جسم جسما آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه الى أن يسكن ويضمحل » *

وقسم العرب الاصوات الى أنواع : منها الجهير ، والخفيف ومنها الحاد والغليظ وشرحوا العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت الذي يحدث من جهة أخرى ، وعللوا الصدى * وشرح الفزويني سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد بقوله « اعلم أن الرعد والبرق يحدثان معا لكن يثرى البرق قبل أن يسمع الرعد لان الرؤية تحصل بمראה البصر ، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت الى الصماخ وذلك يتوقف على تموج الهواء * وذهاب النظر (أي سير النور) أسرع من وصول الصوت » *

ج - المغناطيسية وبيت الابرّة : أخذ العرب المغناطيسية عن اليونان الذين هم أول من عرف خاصية الجذب في المغناطيس ، وعن الصينيين الذين هم أول من عرف خاصية الاتجاه فيه * وثبت انهم استعملوا الابرّة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه وقد جاء في كتاب كنز البحار : « ومن خواص المغناطيس ان رؤساء البحر الشامي اذا اظلم عليهم ولم يروا من النجوم ما يهتدون به الى الجهات الاربع يأخذون اناء مسلوأ ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه الى بطن السفينة ثم يأخذون ابرة وينفذونها في قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذي في الاناء

فتطفو على وجهه ، ثم يأخذون حجراً من المغناطيس كبيراً ملء الكفء ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين فعندما تدور على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة ، فإن الابرّة تستقبل بجهتها جهة الجنوب والشمال * ورأيت هذا الفعل منهم عياناً في ركوبنا البحر من طرابلس الشام الى الاسكندرية في سنة اربعين وستمائة » * واختلف الباحثون في أن العرب هم أول من استعملها ، أم اقتبسوها عن الصين ، فمن مؤيد للرأي الثاني ، ومن منكر له ، فسيديو ينكر على الصينيين استعمال الابرّة بقوله : « وكيف يظن ان أهل الصين استعملوا بيت الابرّة مع انهم لم يزالوا الى عام ١٨٥٠ م يعتقدون ان القطب الجنوبي من الكرة الارضية سعيّر يتلظى » وهو يؤكد ان العرب هم أول من استعملها ويؤيده في قوله سارتون ، ويؤكد الجميع استعمال العرب لها ونقل اوربا بيت الابرّة عن طريق العرب ويذكر بعض كتاب العرب البوصلة باسم « الحك » (بكسر الحاء) *

د - الرقاص : وسماه العرب المواري ، ومخترعه ابن يونس المصري المتوفى عام ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م واسمه الكامل ابو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس ، وجاء بعده عالم آخر باسم كمال الدين بن يونس المتوفى ٦٤٠ هـ و ١٢٤٢ م فلاحظ تذبذب الرقاص وعرف كثيراً من قوانينه ، وكان الفلكيون العرب يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أثناء رصد النجوم ، وعلى هذا ، فنسبة اختراع الرقاص للعالم الايطالي غاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) نسبة مجحفة بحق العرب ، لان العرب استعملوه قبله بستة قرون ، واستعملوه في الساعات الدقيقة *

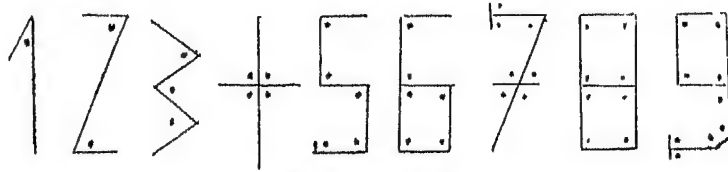
وقد ذكر سميث في كتابه تاريخ الرياضيات « ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليليو الا ان كمال الدين بن يونس لاحظته وسبقه في معرفة شيء عنه » *

ح - العلوم الرياضية

العلوم الرياضية : تشمل الرياضيات الحساب والجبر والهندسة والمثلثات كما تشمل علم الفلك ، وجميعها تحتاج الى قوة تجريد ، ورقي عقلي ، ولم يشتهر العرب قبل الاسلام بأي نوع من هذه العلوم . وان خلطوا التنجيم بعلم النجوم ، وقد وصلنا كثير من القصص التي تبين ضعف محاكماتهم الرياضية ، فلما كان صدر الاسلام لم يهتموا كثيرا بالرياضيات لانهم تركوا أمر الجباية والدواوين للموالي والذميين ، ولكن ما كاد عبد الملك يعرب الدواوين ، ويستعمل العرب فيها ، حتى انكب كثير منهم على تعلم الكتابة الرسمية والحساب ، واندفعوا وراء ذلك ، حتى قال ابن التوأم « علم ابنك الحساب قبل الكتاب » ، وما لبثوا أن مهرّوا في هذه العلوم كما مهرّوا في غيرها ، ولعل علماءهم فاقوا في هذا المضمار جميع علماء الفروع الأخرى .

١ - الحساب : أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم ، وقد هذب العرب أرقام الهنود وكونوا منها سلسلتين عرفت أحدهما بالأرقام الهندية ولا تزال تستعمل في جميع البلاد العربية والإسلامية . وعرفت ثانيتهما بالأرقام الغبارية وهي التي تكتب فيها شعوب أوربا أرقامها وتسميها أرقاما عربية

وقد سميت أحرفا غبارية لان الهنود كان يرشون غبارا ناعما على لوح من خشب



شكل - ١٥٠ -

الأرقام العربية موضوعة على أساس عدد الزوايا

١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

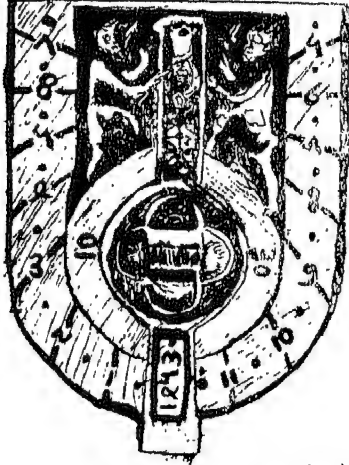
١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

١٢٣٤٥٦٧٨٩

١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

١٢٣٤٥٦٧٨٩٠

الارقام الهندية المستعملة حوالي
عام ١٠٠٠ م
الارقام الهندية التي استعملها
المشاركة العرب
الارقام العربية المستعملة في
اسبانيا حوالي عام ١٩٧٦
الارقام العربية المستعملة في
اوروبا الغربية حوالي عام ١٣٦٠
الارقام العربية المستعملة في
ايطاليا حوالي عام ١٦٠٠



شكل - ١٥١ -

تطور الارقام من الهندية الى العربية الى الارقام المستعملة في الغرب
اليوم ، كما نشرتها اليونسكو في كتاب تاريخ الانسانية

ودخل على هذه الارقام بعض التحوير فصارت الى ما نعرفه اليوم :

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٩ ٧ ٨ ٦

ويعتقد آخرون ان هذه الارقام مأخوذة من بعض الاحرف العربية وقد جمعوها
في الايات الآتية :

الف وحاء ثم حج بعده	عين وبعد العين عو ترسم
هاء وبعد الهاء شكل ظاهر	يدو كمخفاف اذا هو يرقم
صفرا ن ثامنهما وقد ضما معا	والواو تاسعها بذلك تختتم
1 2 3 4 5 6 7 8 9	أ 2 ح ح ع ع و
	و 8 7 6 5 4 3 2 1

ويذكر البيروني « ان الارقام الهندية كانت مختلفة باختلاف مناطق الهند ، وان العرب انتقوا منها ما رأوه مناسبا لهم ، واكتفوا بطريقتين مختلفتين لكتابة الارقام »
الطريقة التي تكتب فيها في مشرق العالم العربي ١ ، ٢ ، ٣ ... والطريقة التي تكتب
في مغربه ١ ، ٢ ، ٣ ... وقد اقتبس الغربيون الطريقة المغربية عن طريق الاندلس .

وقسم العرب الحساب العملي الى قسمين : الغباري وهو الحساب الذي يحتاج
استعماله الى أدوات كالورق والقلم ، والهوائي وهو الحساب الذهني . وأوجد
العرب رقم الصفر ، وكان الهنود يستعملون « سونيا » أي الفراغ لتدل على معنى
الصفر ، ثم استعمل العرب رقما للصفر (١) . هذا ولما كان اساس الكتابة بالارقام
العربية هو الصفر ، فقد أطلق على الارقام اسم الاصفار في اللغتين الفرنسية والالمانية

(١) ان اول كتاب عربي ظهر فيه الصفر مرسوما نقطة كما نرسمه اليوم كان عام
٢٧٤ هـ (٨٧٤ م) بينما اول كتاب هندي استعمل فيه الصفر كان عام ٢٧٦ هـ أي
بعد عامين من ظهور الكتاب العربي . وقد سهل استعمال الصفر العمليات الحسابية
البسيطة والمركبة ، اذ أصبح الصفر لأول مرة يسمى « عدما » كما فهم الاوربيون في
العصور الوسطى خطأ ، فسموه « لا شيء » ولكنه كمية ما ، يطرأ من جرائها على
الاعداد تبدل أساسي ، فكل عدد مضروب بصفر ناتجه صفر وتقسيم عدد على عدد
يتناهى الى الصفر ، واذا رفعت اللانهاية الى صفر حصل منها « واحد » .

Chiiffres و ziffern واقتبس اسم الصفر في اللغات الاوربية فصار Cipher
 Zero و Zephirum . وتذكر المصادر الغربية أول من دعا لاستخدام الارقام
 العربية من الاوربي هو ليوناردو (١٢٠٢ م) وظهرت من بعده في النقوش المختلفة
 في اوربا ، وظهرت في العملة في سويسرا (١٤٢٤ م) وفي النمسا (١٤٨٤ م) وفي
 فرنسا (١٤٨٥ م) وفي المانيا (١٤٨٩ م) وفي اسكتلندا (١٥٣٩ م) وفي انكلترا
 (١٥٥١ م) .

وقد تغيرت هذه الارقام في أثناء الطريق ، فالواحد والتسعة لم تتغير تغيرا
 يذكر ، والاثنان والثلاثة تغيرت تغيرا طفيفا . ففي الهند تكتب مائة ٢ ، ٣ وعند
 عرب المشرق رأسية ٢ ، ٣ وعند عرب المغرب أفقية ٢ ، ٣ . أما الستة والسبعة
 والثمانية فقد اختلط بعضها ببعض لدرجة صعب التفريق بينها في النقوش والمخطوطات
 القديمة . وأما الصفر فقد عبر عنه خلو الخانة . ثم اصبح عند الهنود يكتب دائرة
 فيها نقطة . أي خانة خالية . فأخذ عرب المشرق النقطة وتركوا الدائرة ، وأخذ
 عرب المغرب الدائرة وتركوا النقطة . ووضعوا علامة الكسر العشري وبحسوا كثيرا
 في الكسور العشرية . وقد قسم مؤلفوهم الحساب الى أبواب منها ما يتعلق بحساب
 الصحاح ومنها ما يتعلق بحساب الكسور ووضعوا ذلك كله في فصول : الاول في
 الجمع والتضعيف ، والثاني في التنصيف ، والثالث في التفريق (الطرح) والرابع
 في الضرب والخامس في القسمة ويدخل فيه ما يسمونه القسمة بالمحاصصة أي التقسيم
 التناسبي ، والسادس في التجذير واستخراج الجذور .

واهتم معلمو الحساب بأصول تعليمه الى الصبية الصغار بطرق حسية سهلة ،
 وأكثروا من استخراج المجهول بطرق لا تختلف عن الطرق الحديثة ، وعرفوا المتواليات
 الحسابية والهندسية على أنواعها وذكروا قوانين جمعها ، كما ذكروا قواعد خاصة
 لاستخراج الجذور وجمع المربعات المتوالية والمكعبات وبرهنوا على صحتها .

ويقول الاستاذ قدرى حافظ طوقان الذي بحث في العلوم عند العرب في عدة

مؤلفات : « ان لهذه الارقام مزايا منها : أنها تقتصر على عشرة اشكال بما فيها الصفر . ومن هذه الاشكال يمكن تركيب أي عدد مهما كان كبيرا . بينما نجد ان الارقام الرومانية تحتاج الى أشكال عديدة وتشتمل على أشكال جديدة للدلالة على بعض الاعداد . أما الارقام اليونانية والعربية القديمة القائمة على حساب الجمل فان عددها كان بقدر عدد أحرف الهجاء (١) :

ومن مزايا الارقام العربية او الهندية : أنها تقوم على النظام العشري وعلى أساس القيم الوضعية بحيث يكون للرقم قيمتان ، قيمة في نفسه ، وقيمة بالنسبة الى المنزلة التي يقع فيها .

يقول محمد بن موسى الخوارزمي : « حساب الهند قوامه تسع صور يكتفى بها في الدلالة على الاعداد الى ما لا نهاية له ، واسماء مراتبها اربعة ، وهي الآحاد والعشرات والمئون والالوف » فالواحد يقوم مقام العشرة ، ومقام مائة ، ومقام الف ، ومقام عشرة آلاف ، ومائة الف ، والف الف . . . الى ما لا نهاية له من العقود . ويقوم الاثنان مقام العشرين ، ومقام المائتين ، ومقام الالفين . . . وكذلك سائر العقود على هذا القياس . . . وانما يعرف ذلك بمراتب الوضع . . . الدوائر الصغار تسمى الاصغار ، توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها اعداد .

ولعل من أهم مزايا هذا النظام ادخال الصفر في الترقيم واستعماله في المنازل الخالية من الارقام .

ومما لا شك فيه أن هذا النظام هو من المخترعات الاساسية والرئيسية ذات الفوائد الجلى التي توصل اليها العقل البشري ، فلم تنحصر مزاياه في تسهيل الترقيم

(١) مثال ذلك :

حرف أ بدلا من رقم ١ حرف ب بدلا من رقم ٢ حرف ج بدلا من رقم ٣ حرف د بدلا من رقم ٤ حرف ي بدلا من رقم ١٠ حرف ك بدلا من رقم ٢٠ حرف ل بدلا من رقم ٣٠ حرف ق بدلا من رقم ١٠٠ حرف ر بدلا من رقم ٢٠٠ حرف غ بدلا من رقم ١٠٠٠

وحده ، بل تعدته الى تسهيل جميع أعمال الحساب * ولولاه لما رأينا سهولة في الاعمال الحسابية ، ولاحتياج المرء الى استعمال طرق عويصة وملتبسة لاجراء عمليتي الضرب والقسمة ، حتى أن هاتين العمليتين كانتا تقتضيان جهدا كبيرا ووقتنا طويلا **

ولسنا بحاجة الى القول أنه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الارقام العربية والهندية غيرها من الارقام ، ولما كان لها أية ميزة ، بل لما فضلتها الامم المختلفة على الانظمة الاخرى المستعملة في الترقيم *

ومن الغريب أن الاوربيين لم يتمكنوا من استعمال هذه الارقام الا بعد انقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها ، أي أنه لم يعم استعمالها في أوروبا والعالم الا في أواخر القرن السادس عشر للميلاد *

ومن المرجح أن العرب وضعوا علامة الكسر العشري *** فقد وضع بعض علمائهم « الكاشي » عند حساب النسبة التقريبية للرمز π ويقصد بالكاشي الفاصلة العشرية ، ولذلك يتبين أن العرب سبقوا الاوربيين في استعمال النظام العشري *

ويشرح أحد العلماء المعاصرين طرق انتقال الارقام العربية الى أوروبا وكيف بدأت في ايطاليا ، وكان عليها أن تعبر جبال الالب الى أوروبا وكانت رحلتها شاقة محفوفة بالعقبات ، لان الكثيرين نظروا اليها بادية الامر نظرة الشك والريبة فتساءل رجال المال والاعمال : ألا يمكن بمنتهى السهولة لمن شاء الخداع ، أن يغير الصفر 0 مثلاً ليصبح ستة أو تسعة 6 أو 9 .

ولكن الارقام العربية بدأت برغم هذا تثبت وجودها ، اذ يكفي كتابة أربعة أرقام على كنيسة ليسجل عام بنائها * واستهوت تلك الارقام الناس فكتبوها على مقابر الموتى ، ثم دخلت رويدا رويدا الى سجلات الموظفين والتجار محل الارقام الرومانية الطويلة التي كانت تشغل صفحات وصفحات فالرقم DCCCCLVIII أصبح يكتب بثلاثة أرقام بسيطة هكذا 998

ب - الجبر : الجبر كلمة عربية يعود الفضل في ايجادها الى أبي عبد الله محمد ابن موسى الخوارزمي مؤلف كتاب « حساب الجبر والمقابلة » وعنه أخذ الاوربيون قسموا العلم *Algebre* والخوارزمي لم ينتدع هذا العلم كله ، بل رتبته ورقى به الى درجة العلم ، وتعرض لكثير من شؤونه ، ذلك لان المصريين القدماء كانوا قد عرفوا حل المعادلات من الدرجة الاولى والثانية وعرفوا الجذر المربع ووضعوا له علامة * فقد ورد في بردية من عهد أحمس معلومات جبرية، أما في الهند فقد ورد هذا العلم في كتب أريابهاثا (٤٧٦ م) وبراهما جيتا (٥٩٨ م) وماهافيرا (٨٥٠ م) . وعند الصينيين ورد في كتب تشانج تسانج (٢١٣ ق م) وسن تسو (القرن الاول الميلادي) ولي هو (٢٦٣ م) ، وتشانج تشوتشن (القرن السادس الميلادي) . وعند الاغريق في كتب ديوفانتس (٢٥٠ م) ولكن جميع هذه الامم لم تعالج الجبر كما عالجه الخوارزمي . ففي كتابه الجبر والمقابلة قصد بالجبر نقل الحدود من أحد طرفي المعادلة الى الطرف الآخر ، وقاصدا بالمقابلة اختصار مايجوز اختصاره بعد عملية الجبر . ثم ايجاد النتيجة . وقد عني في هذا الكتاب بمعادلة الدرجة الثانية فرتبها وبوبها وصنفها وعالج كل صنف منها ، واستعمل في حلها الجبر والمقابلة ، واعترف بالجذور الصماء في معادلة الدرجة الثانية . وقد لخص أحد الشعراء العرب علم الجبر بقوله :

على ثلاثة يدور الجبر المال والاعداد والجذر
بالمال كل عدد ربع وجذره واحد تلك الاضلع
والعدد المطلق ما لم ينسب للمال أو للجذر فافهم تصيب

وكذلك فالهنود حلوا معادلات من الدرجة الثانية وعرفوا الكميات الموجبة والكميات السالبة وميزوا بينها ، فلما جاء الخوارزمي واشتهر بالرياضيات وقربه الخليفة المأمون ألف كتابه في الجبر وحل المعادلات الجبرية وأوضحها دون أن يستعمل

الرموز من الاحرف الابدجية^(١) ثم جاء من خلفه من العلماء فأوجدوا رموزا خاصة وهي تخالف الرموز الشائعة اليوم^(٢) ، وقد وصلنا عن عمر الخيام (٥١٧هـ/ ١١٢٣م) حل معادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط حتى قال كاجوري : « ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطع المخروط من أعظم الاعمال التي قام بها العرب » وبذلك يكون العرب قد سبقوا ديكارت وبيكر في هذه البحوث والعرب هم الذين اكتشفوا النظرية القائلة بأن مجموع مكعبين لا يكون مكعبا ويذهب ظن الكثيرين من اللغماء المعاصرين الى أن العرب مهدوا لاكتشاف اللوغاريتمات، بعد أن أرادوا ابن يونس قد توصل في أبحاثه في المثلثات الى مثل اللوغاريتمات * وقرأوا كتاب

(١) ترجم كتاب الخوارزمي الى اللغات الاوربية وبقي مصدرا لعلم الجبر مدة طويلة ، وفي السنين الاخيرة ، عثر على نسخة منه باللغة العربية محفوظة باكسفورد في مكتبة بودلين كانت نسخت في القاهرة بعد موت الخوارزمي بنحو ٥٠٠ عام فنشرت عام ١٨٣١ ، وعلق عليها الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور محمد موسى احمد وقد قسمت الاعداد فيها حسب رأي الخوارزمي الى ثلاثة ضروب وهي جذور واماويل وعدد مفرد لا ينسب الى جذور ولا الى مال . فالجذر هو ما يرمز له بالجبر الحديث بالرمز (س) والمال س ٢ والعدد المفرد هو العدد الخالي من (س) واستعمل غيره من العرب لفظة « شيء » للمجهول ؛ ولمضروبه في نفسه كلمة مال .. ومضروب المال في المجهول يساوي « كعبا » أي انه س ٢ × س = س ٣ ، وما يتفرع عن هذه مال المال أي س ٢ × س ٢ = س ٤ ، ومال الكعب أي س ٢ × س ٣ = س ٥ وكعب الكعب أي س ٣ × س ٣ = س ٦ واستعملوا التعبير « جزء الشيء » ليدل على معكوس الشيء أي $\frac{1}{س}$ ، وجزء

المال ليدل على $\frac{1}{س}$ وجزء الكعب ليدل على $\frac{1}{س^3}$. وقد قسم الخوارزمي المعادلات

الى ستة اقسام : اموال تعدل جذورا أي م س ٢ = ب س واماويل تعدل عددا أي م س ٢ = ب و جذور تعدل عددا أي ب س = ح واماويل وجذور تعدل عددا أي م س ٢ + ب س - ح وجذور وعدد تعدل اموالا أي ب س + ح = م س ٢ .
(٢) لقد استعمل ابو الحسن القلصاوي في مؤلفاته لعلامة الجذر الحرف الاول من كلمة جذر (ح) وللمجهول الحرف الاول من كلمة شيء (ش) يعني (س) ولربيع المجهول الحرف الاول من كلمة مال (م) يعني س ٢ ، وللكعب المجهول الحرف الاول من كلمة مكعب (ك) يعني س ٣ ، ولعلامة المساواة حرف (ل) وللنسبة ثلاث نقط

سنان بن الفتح الحراني في الجمع والتفريق الذي شرح فيه الطريقة التي يسكن بواسطتها اجراء الاعمال الحسابية التي تتعلق بالضرب والقسمة بواسطة الجمع والطرح ، كما مهد العرب لنشأة علم التكامل والتفاضل Calculus (١)

ج - الهندسة : ترجم العرب في عهد أبي جعفر المنصور كتاب اقليدس اليوناني في الهندسة وسموه « الاصول » * ثم ترجم عدة ترجمات أخرى بعد المنصور وسمي بالاصول كما سمي كتاب « الاركان » ووجدوا الهندسة في كتاب اقليدس قد



شكل - ١٥٢ -

صورة رمزية أوربية في العصور الوسطى تمثل النزاع بين مدرسة الخوارزمي في الحساب وبين المدارس الاوربية الاخرى
(عن كتاب تاريخ الانسانية ج ٤ ص ٨٧٢ نشر اليونسكو)

(١) نشرت وزارة التعليم العالي السورية كتاب الباهر في الجبر للسموئل المغربي ، من مخطوطة قديمة وفي هذا الكتاب كثير من المعلومات الجبرية التي عرفها العرب .

وصلت الى غاية الكمال لان اقليدس جمع فيه بين عامي ٣٣٠ - ٣٢٠ ق.م خلاصة أبحاث اليونان ولم يترك شاردة ولا واردة من هذا العلم الا وجعلها بين دفتيه ، وفضل العرب في علم الهندسة اهتمامهم بها في وقت أهملها الاوربيون ، وبقيت الترجمات العربية هي المعتمدة في أوروبا وعنها يأخذون الهندسة اليونانية حتى عام ١٥٨٣ م حينما عثروا على نسخة مكتوبة باليونانية من كتاب اقليدس فترجموها فوجدوها طبق الاصل العربي *

وقد أطلق العرب على الهندسة العملية اسم الهندسة الحسية ، وأطلقوا على الهندسة النظرية اسم الهندسة العقلية *** وطبقوا النظريات الهندسية في الحياة العملية * ولم يقف العرب عند دراسة هندسة اقليدس بل ألفوا فيها تأليف جديدة ، فابن الهيثم ألف كتابا على نسق « الاصول » « يستحق أن يعتبر واسطة بين كتاب القواعد المفروضة والبراهين الاستقرائية لاقليدس ، وكتاب المحال المستوية السطوح لاوبولونيوس وبين كتابي سمسون وستيوارت » كما يقول سيديو * ومحمد البغدادي ألف رسالة موضوعها تقسيم أي مستقيم الى أجزاء متناسبة مع أعداد مفروضة برسم مستقيم ، تشمل على اثنين وعشرين قضية هندسية * وكتب غيرهما في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية واستخراج المسائل الحسابية بطريقتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وفي التحليل والتركيب الهندسيين ، وفي تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية وفي محيط الدائرة ، وغير ذلك مما يتعلق بالموضوعات التي تحتاج الى استعمال هندسة ، وبنوا كيفية ايجاد نسبة محيط الدائرة الى قطرها * وكان حساب الكاشي لها قريبا جدا من العدد الثابت π فكان في حسابه ٣١٤١٥٩٢٦٥٣٥٣٥٨ * وأطلق العرب على متوازي المستطيلات الذي تختلف أبعاده الثلاثة اسم المجسم اللوحي ، والذي قاعدته مربع وارتفاعه يختلف عن ضلع المربع اسم المجسم اللبني اذا كان الارتفاع أقل من ضلع المربع ، والمجسم البيري اذا كان ارتفاعه اكبر من ضلع القاعدة * وقالوا بأن الخط من نقطتين ، والسطح من خطين ، والجسم من سطحين وقالوا بأن المقادير هي

الكمية المتصلة وهي أربعة : الخط والسطح والجسم والزمان ، وتعرضوا للأشكال:
البيضي والهلالى والمخروط الصنوبري والاهليلجي والظلي والزيتوني *

واشتغلوا في علم تسطيح الكرة^(١) والذي يتناول في الاكثر رسم الخرائط الجغرافية
لأنها تنقل ما هو مرسوم على كرة ، الى سطح مستو ، وبالعكس *

وأوجد ثابت بن قرة حجم المجسم المكافئ الناتج من دوران قطع مكافئ حول
محوره ، ثم زاد ابن الهيثم فأوجد حجمه اذا دار حول أي قطر أو أي رأس * وحل
الكوهي كيف يمكن انشاء قطعة كروية تكافئ قطعة كروية أخرى معلومة ، وتكون
مساحة سطحها الجانبي مساوية لمساحة السطح الجانبي لقطعة كروية ثالثة معلومة *

وبعد أن اطلع العرب على محاولة الاغريق حل معادلة الدرجة الثانية هندسيا ،
حاولوا حل معادلة الدرجة الثالثة هندسيا أيضا * وقد وضع الماهاني (٨٥٣ م) مسألة
أرخميدس وهي (قطع كرة بمستو بحيث تكون النسبة بين المساحة الجانبية للقطعتين
الناتجتين مساوية نسبة معلومة) على صورة معادلة تكعيبية * وكان ابو جعفر الخازن
(٩٦١ م) أول من حل هذه المعادلة بتقاطع القطوع المخروطية * وتبعه الكوهي
(٩٨٨ م) وابن الهيثم (١٠٢١ م) وقد حل أبو الجود المعادلة $s^3 - 2s^2 + s = 1$ *
الناتجة عن ايجاد ضلع المسبع * أما عمر الخيام فقد أبدع وتفنن وقسم هذه المعادلات
الى ثلاثية الحدود ورباعيتها وقسم كلا منها الى أنواع * وحل كل نوع * وحاول ابو
الوفا (٩٤٠ - ٩٧٧ م) حل المعادلة الرباعية هندسيا *

(١). طوقان : مآثر العرب في الرياضيات والفلك . جاء في كشف الظنون : « علم
تسطيح الكرة هو علم يتعرف كيفية نقل الكرة الى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر
المرسومة على الكرة وكيفية نقل تلك الدوائر من الدائرة الى الخط . وتصور هذا العلم
عسير جدا يكاد يقرب من خرق العادة ولكن عملها باليد كثيرا ما يتولاه الناس ولا عسر
فيه مثل عسر التصور ودعوى عسر التصور ليست على اطلاقه بل هو بالنسبة الى من
يمارس علم الهندسة ، ومن الكتب المصنفة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس والكامل
للفرغاني والاستيعاب للبيروني » .

ويمكننا أن نلحق بالهندسة « فن الزخرفة العربية أو الأرقشة » Arabesque الذي يعتمد في جملة على قواعد هندسية في رسم المضلعات وترتيب الخطوط وأوراق وأثمار النباتات ترتيباً هندسياً متناسقاً ♦

د - المثلثات : إذا كانت الهندسة علماً يونانياً ، فإن المثلثات كالجبر « علم عربي » بحث ، فال يونان لم يهتموا بعلم المثلثات لذاته ، بل لأنه يساعدهم في علم الفلك ، والهنود لم يتقدموا في هذا العلم إلا تقدماً بسيطاً فيما يتعلق بقياس الجيب^(١) (قياس الزاوية المفروضة بالضلع المقابل لها مقسوماً على الوتر في المثلث القائم الزاوية) ولكن العرب هم أول من نظم هذا كله علماً قائماً بذاته مستقلاً عن علم الفلك ، وكان الفضل في ذلك إلى أبي الوفاء البوزنجاني ، ونصير الدين الطوسي (٦٧٣ هـ ١٢٧٢ م) ♦

واشتغل العرب بالمثلثات المستوية ، والمثلثات الكروية وأثبتوا فيها اثباتات جديدة ، وحلوا مسائل على المثلثات الكروية القائمة الزاوية والمائلة الزاوية واستعملوا المماسات والقواطع ونظائرها في قياس الزوايا والمثلثات ووصفوا الجداول التي ذكرت أنها مهدت لاكتشاف قانون اللوغاريتمات^(٢) واخترع العرب حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم وتريح من استخراج الجذور المربعة ♦

هـ - الفلك : يعزى ظهور علم الفلك إلى العرب القدماء في بلاد ما بين النهرين ، ومصر ، وعن البابليين العرب أخذ هذا العلم كل من الإغريق والهنود ، وجميع هذه الأقوام خلطت بين الفلك أو علم النجوم وبين التنجيم ، وربط حركات الكواكب وأبراجها بما يجري على سطح الأرض من أحداث وحظوظ سعيدة أو شقية ،

(١) كلمة جيب مشتقة من الاصطلاح الهندي جيفا

(٢) كان اكتشاف اليونان لا يتجاوز الأنساب في المثلثات المنتظمة أي النسبة بين كل زاوية من زوايا المثلث وبين الضلع المقابل لها ، واكتشف الهنود قياس الجيب أي قياس الزاوية المفروضة بالضلع المقابل لها مقسوماً على الوتر في المثلث القائم الزاوية . أما العرب فعرفوا جيب التمام أي قياس الزاوية المفروضة بالضلع المجاور لها مقسوماً

والغريب ان هذه العلاقة بين النجوم وبين التنجيم لاتزال شائعة الاعتقاد عند كثيرين من أبناء عصرنا ، وظلت كراسي تدريس النجامة في بعض الجامعات الاوربية ، مثل جامعة بادوا وجامعة ميلانو قائمة حتى أواخر القرن السادس عشر .

فلما جاء الاسلام ، ونزل القرآن أتى على ذكر كثير من القضايا الفلكية، ففي سورة يس قوله تعالى « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون ^(١) القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » وفي سورة يونس : « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعقلون . ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون » .

وكانت تعاليم الاسلام وفرائضه تقتضي معرفة واسعة في الفلك ، فأوقات الصلاة واختلافها بحسب الموقع الجغرافي والفصل الموسمي ، واتجاه المسلمين الى الكعبة في صلواتهم ، ورؤية هلال رمضان والصوم ، وصلاة الكسوف أو الخسوف وما شابه ذلك يقتضي من علماء المسلمين معرفة كثير من القضايا الفلكية مثل عرض المكان الجغرافي وحركة الشمس في البروج وسمت القبلة ، وقد اضطروا الى بحثها في مسائل عويصة متصلة بشروط رؤية الهلال واحوال الشفق فبرزوا في ذلك واخترعوا حسابات وطرقا بدیعة لم يسبقهم اليها أحد من اليونان والهنود والفرس .

على الوتر في المثلث القائم الزاوية ، وعرفوا التماس وهو ما كانوا يسمونه الظل والظل التمام . وتوصلوا الى اثبات أن نسبة جيوب الاضلاع بعضها الى بعض كنسبة جيوب الزوايا المؤثرة بتلك الاضلاع بعضها الى بعض في أي مثلث كروي ، وكشفوا العلاقة بين

$$\frac{\sin \alpha}{\sin \beta} = \frac{\sin \gamma}{\sin \delta} \quad \text{حاس}$$

وعملوا الجداول الرياضية للتماس والقاطع وتمامه ، واوجدوا الطريقة لعمل الجداول الرياضية للجيب وحسبوا جيب ٣٠ درجة .
(١) العرجون : قرط البلح .

ولكن هذا الاهتمام بالفلك كعلم له علاقة وثيقة بأداء فرائض الدين ، لم يمنع الكثيرين من الخاصة والعامة ، من الاعتماد على التنجيم ، بل كان للمنجمين مكان مرموق في أعين الخلفاء حتى أن أبا جعفر المنصور العباسي كان يصطحب معه دائماً نوبخت المنجم الفارسي ، فلما كبرت سنه أمره بإحضار ابنه ليقوم مقامه في صناعة التنجيم (١) .

وجاء اهتمام العرب المسلمين بترجمة كتاب الفلك ، بعد اهتمامهم بعلم الصناعة في عهد خالد بن يزيد ، إذ ترجم أول كتاب للفلك في أواخر العصر الأموي ، وهو كتاب « عرض مفتاح النجوم » المنسوب لهرمس الحكيم وتمت ترجمته قبل سقوط الدولة الأموية بسبع سنين . ولكن العباسيين اعتبروا من أبي جعفر المنصور رقوا بالفلك رقياً عظيماً ، ووصلوا فيه إلى أبحاث جديرة بالاهتمام وتطبيقات عملية في عصر المأمون . فقد أمر المنصور محمد بن إبراهيم الفارابي بترجمة كتاب « السندهند الكبير » الذي يبحث في حركات النجوم ومطالع البروج والكسوف وغيرها ، وهذا الكتاب هو الذي اختصره الخوارزمي وزاد فيه دراساته الخاصة وصنع منه زيجه الذي اشتهر في كل البلاد الإسلامية ، وقبل أن ينقضي عهد المنصور ترجم يحيى بن البطريق كتاب الأربع مقالات في صناعة أحكام النجوم لبطليموس ، وما وافى عصر المأمون حتى أصبح الفلكيون والكتب المترجمة والمؤلفة ، وأشكال الأسطرلابات وأنواعها ، أكثر من أن تعد ، فقد اصلحت أغلاط المجسطي لبطليموس ، وألفت أزياج جديدة ليحيى بن أبي منصور ، ولموسى بن شاكر ولابنائه ولثابت بن قرة والبلخي والبتاني Albatanius (المتوفى ٩٢٩ م) والفرغاني Alferganus كما وضع

(١) جاء في الترجمة اللاتينية لكتاب الفارابي (احصاء العلوم) الذي فقد أصله العربي أن علم النجوم يشتمل على قسمين أحدهما علم دلالات الكواكب على المستقبل . والثاني العلم التعليمي وهذا هو الذي يعد من العلوم ويبحث فيه عن الأجرام السماوية وعن الأرض من ثلاثة وجوه : ١ - عدد الأجرام وأشكالها وترتيبها في العالم وأبعادها . ٢ - حركاتها وأشكالها وكسوتها . . . ٣ - الأرض وحركاتها وفصولها ومظاهرها .

العلماء المسلمون في المغرب والاندلس جداول فلكية مشابهة مثل أزياج المجريطي، والزرقاني الذي عاش في أواخر القرن الحادي عشر وثبت أن الملك الفونسو اعتمد على أبحاثه وجداوله في الأعمال الفلكية التي تمت في عصره بعد أن ترجمت المصادر العربية إلى اللاتينية * كما يمكن أن نشير هنا إلى ثلاثة علماء مغاربة اشتهروا في ميداني الفلك والرياضيات ترجمت كتبهم وأبحاثهم إلى اللاتينية وانتفع من دراستها فلكيو الغرب وعلماءه أمثال : كبلر وباكون والبرتو ماجنو ، وليوناردو فيبوناتشي وغيرهم * وهؤلاء العلماء المسلمون المغاربة هم : أبو العباس بن البنا (المتوفى عام ١٣٢١ م) وقد انتهت إلينا بعض مخطوطاته في الرياضيات والفلك إلى جانب صنعته في الطب ، والحسن بن عمر المراكشي الذي عاش أيضا في النصف الأول من القرن الثالث عشر وأبو حسن علي المراكشي الذي عاش في النصف الثاني من نفس القرن الثالث عشر وقد هاجر إلى الاندلس حيث قام بعدة بحوث فلكية *

وبعد أن درس العرب المسلمون كتب الفلك عند الأمم التي سبقتهم في مضمار الحضارة خرجوا إلى العمليات والرصد ، ففي عصر المأمون استخرجوا بطريقة علمية طول درجة من درجات خط نصف النهار ، تعد إلى الآن أحسن طريقة ، كما وضع البيروني نظرية بسيطة لمعرفة مقدار محيط الأرض ذكرها في آخر كتابه «الاسطرلاب» *

والعرب المسلمون أول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة ، وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها في أفلاك آخر وقالوا باستدارة الأرض وبدورانها ، وحسب البتاني ميل فلك معدل النهار فوجده ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة أي قريبا من الصواب المعترف به اليوم مع خطأ لا يتعدى الدرجة الواحدة ، ووفق البتاني نفسه في حساب طول السنة الشمسية وحصل على نتيجة لا تختلف عن النتائج الحديثة بأكثر من دقيقتين و ٢٢ ثانية * ورصد غيره الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وكتب عن كلف الشمس قبل أن تعرف أوروبا أسباب هذا الكلف مدة قرون ، ووضع عبد الرحمن الصوفي مؤلفا في النجوم الثابتة وعمل

لها الخرائط المصورة ، وذكر أكثر من ألف نجم مع رسمها كوكبات في صورة الاناسي والحيوان *** ويذكر أحد العلماء أن خمسين بالمائة من أسماء النجوم المعروفة باللغات الاجنبية هي من وضع العرب ومستعملة بلفظها العربي في هذه اللغات الحديثة ومنها مجموعات النجوم المعروفة باسم الواقع Vega والطائر Altair والذئب Deneb وفم الحوت Famalhout وإبط الجوزاء أو (منكب الجوزاء) Betelgeuse والدبران Aldeberan كما اقتبس الغرب من العرب سمت الرأس Zenith والنظر Madir وسمت السموت Asimuth والجهة Algieba والجنب Algenib وفي الشعر العربي اشارة الى كثير من النجوم :
والتظهير

قال أبو نواس :

مضى ايلول وارفع الحرور واذكت نارها الشعرى العبور
ويقصد انه بعد ان انتهى ايلول (سبتمبر) وذهب الحر ، اشرقت الشعرى مع شروق الشمس أي أن الشعرى تشرق مع شروق شمس تشرين الاول (اكتوبر) *

قال أبو فراس الحمداني :

أما ترى الشمس حلت الحمللا وطاب وزن الزمان واعتدلا
ويقصد ان الشمس تكون في برج الحمل في فصل الربيع *

وقال الطغرائي :

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دائرة الحمل
ويقصد بدائرة الحمل ، برج الحمل وهو في فصل الربيع *

وقال أيضا :

وان علاني من دون فلا عجب لي اسوة بانحطاط الشمس عن زحل

وقال المبرد :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت يراها حديد العين ستة أنجم
على كبد الجرباء وهي كأنها جبيرة در ركت فوق معصم
وقال عمر بن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله • كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استهلّت وسهيل وإذا استهل يمان
(الثريا وسهيل مجموعات نجوم) •

وقال آخر :

سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

والسما كان مجموعة نجوم ويعرف ذو الرمح باسم المرشد وسيفه ويستدل به على الجهات كنجم القطب ولكنه يشير الى الجنوب بدل الشمال •
وهنا لا بد من الكلام عن مشكلة علاقة الشمس والارض • فقبل ان عالميون انانيا، من القرن الرابع ق.م أثار لأول مرة في التاريخ ، قضية فحواها أن الارض تدور حول الشمس ، ثم جاء بطليموس بعده بخمسائة سنة تقريبا ، فأقر العكس ، وجعل الشمس تدور حول الارض ورغم أنه ثبت بعد الف واربعائة سنة أنه كان مخطئا في رأيه ، حين برهن كوبرنيك العكس ، فان العرب لم يقبلوا جميعا برأي بطليموس ، اذ بينما وافق عليه الرازي وابن سينا ، فان ابا الريحان البيروني شك في قول بطليموس ، وانتقده وهو يستعرض رأي علماء الفلك الهنود في دوران الشمس حول الارض ، ورجح ان تكون الارض تدور حول الشمس في كتابه مفتاح علم الهيئة • وهكذا نرى ان بعض علماء المسلمين لم يقبلوا اقوال الاقدمين كمسلمات بل انتقدوها ، وانهم قالوا عن دوران الارض حول الشمس قبل كوبرنيك •



شكل - ١٥٣ -

صورة بعض الكواكب وما رمز به اليها من اناسي وحيوان مرسومة في كتاب
 « صور الكواكب » تأليف عبد الرحمن الصوفي
 المحفوظ بمتحف المتروبوليتان في نيويورك

قياس محيط الارض في عصر المأمون : ونضرب مثلاً واحداً من أعمال العرب المسلمين الفلكية ، قياسهم محيط الارض * فقد جاء في كتاب الزيج الكبير الحاكمي لابن يونس المحفوظ بمكتبة لندن : « ذكر سند بن علي في كلام وجدته له أن المأمون أمره هو وخالد بن عبد الملك المروزي أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الارض * قال : فسرنا لذلك جميعا ، وأمر علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحري بمثل ذلك فسارا الى ناحية أخرى » قال سند بن علي : « فسرت أنا وخالد بن عبد الملك الى ما بين واسط وتدمر ، وقسنا هنالك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بـ سطح كرة الارض فكان سبعة وخمسين ميلا (الميل العربي يساوي ١٩٧٣ر٢ مترا) وقاس علي بن عيسى وعلي بن البحري فوجدا مثل ذلك وورد الكتاب من الناحيتين في وقت متفقين » *

وذكر احمد بن عبد الله المعروف بحبش في الكتاب الذي ذكر فيه ارساد أصحاب المتن بدمشق ان المأمون امر بأن تقاس درجة من أعظم دائرة من دوائر بسيط كرة الارض ، قال فساروا لذلك في برية سنجار حتى اختلف ارتفاع النهار بين القياسين في يوم واحد بدرجة ، ثم قاسوا ما بين المكانين * * * ميلا وربع ميل منها أربعة آلاف ذراع بالذراع السوداء التي اتخذها المأمون * وأقول انا وبالله التوفيق أن هذا القياس ليس بمطلق بل يحتاج مع ارتفاعي نصف النهار بدرجة الى ان يكون القائمون جميعا في سطح دائرة واحدة من دوائر نصف النهار ، والسبيل الى ذلك بعد ان نختار للقياس مكانا معتدلا خاصيا ، ان نستخرج خط نصف النهار من المكان الذي ينتدىء من القياس ثم نتخذ جبلين دقيقين جيدين طول كل منهما نحو خمسين ذراعا ثم نمر احدهما موازيا لخط نصف النهار الذي استخرجناه الى ان

ينتهي ، ثم نضع طرف الجبل الاسفل في وسطه ونمره راكبا عليه ثم نرفع الجبل الاول ونضع أيضا طرفه في وسط الجبل الثاني ونمره راكبا عليه * ثم نفعل ذلك دائما ليحفظ السميت وارتفاع نصف النهار يتغير دائما بين المكان الاول الذي استخرج فيه خط نصف النهار والمكان الثاني الذي انتهى اليه الذين يسرون ، حتى اذا كان بين ارتفاعي نصف النهار في يوم واحد درجة بالكيتين صحيحتين تبين الدقيقة في كل واحدة منها ، قيس بين المكانين فما كان من الأذرع ، فهو ذرع درجة واحدة من أوسع دائرة تمر ببسيط كرة الارض ، وقد يمكن ان يحفظ السميت عوضا عن الحبلين بأشخاص ثلاثة تسير بعضها بعضا على سمت خط نصف النهار المستخرج ، وينقل اقربها من النصف متقدما ثم الذي يليه ثم الثالث دائما ان شاء الله تعالى *»

ويعقب نيليني على ذلك قوله : ان ما يستخرج من زيج ابن يونس وكتب غيره أن جماعة من الفلكيين قاسوا قوسا من خط نصف النهار في صحراويين ، أي البرية عن شمال تدمر وبرية سنجار ثم أن حاصلي العملين اختلفا فيما بين $56\frac{1}{4}$ من الاميال و (٥٧) ميلا فاتخذ متوسطها $56\frac{5}{8}$ من الاميال تقريبا « أي أن طول الدرجة عند فلكيي المأمون ١١١ر٨١٥ مترا وطول المحيط ٤١٢٤٨ كم وهو قريب جدا من الحقيقة * ويتابع نيلينو تعليقه بقوله : « أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجري كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل ، فلا بد لنا من اعتبار ذلك القياس من أعمال العرب العملية المجيدة المأثورة » *

وذكر غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : « كانت بغداد مركزا مهما لمباحث علم الفلك ولكنها لم تكن المراكز الوحيدة لهذه المباحث ، فالمراسد التي كانت قائمة في البلاد الممتدة من آسيا الوسطى الى المحيط الاطلنطي كثيرة ، فمنها ما كان في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطيطة وقرطبة الخ *»

« وكان علماء الفلك في افريقيا ولا سيما في طنجة وفاس ومراكش ينافسون

علماء الفلك في الاندلس * * وان أبا الحسن المراكشي الذي كان يعيش في القرن الثالث عشر من الميلاد عين ، بضبط لم يسبقه إليه أحد ، العرض والطول لآحدى وأربعين مدينة افريقية بين مراكش والقاهرة أي ما مسافته تسعمائة فرسخ فقيّد مشاهداته في كتابه « جامع المبادئ والغايات في علم الميقات » وهو يحوي معارف ثمينة لآلات الرصد العربية * .

المرصد وآلاتها وازياجها : شاهد العرب عندما فتحوا مصر مرصدا قديما في الاسكندرية ، ولما اهتموا بالفلك ، بنوا أول مرصد في دمشق في العهد الاموي ، وبقي هذا المرصد وحيدا حتى كان عصر المأمون ، فأمر باتخاذ المراصد الفلكية وقدم لها ما تحتاج من أموال لبنائها ولتجهيزها بأدوات الرصد ، فبنى مرصد جبل قاسيون في دمشق ، ومرصد الشماسية في بغداد ، وبنى بنو موسى مرصدا آخر خاصا لهم على طرف الجسر في بغداد ، وقد استخرجوا حساب العرض الاكبر من عروض القمر وقلدهم غيرهم من العلماء المشتغلين بالفلك وتتابع بناء المراصد بعد المأمون في أنحاء المملكة الاسلامية * فبنى شرف الدولة مرصدا ، رصد فيه الكواكب السيارة التي كانت معروفة ، وأقام الفاطميون مرصدا على جبل المقطم عرف بالمرصد الحاكمي ، وأنشأ نصر الدين الطوسي الفلكي الشهير ، مرصدا في مراغة وجلب له أدق الآلات^(١) وكان أشهر مراصد الشرق الذين اعتمد الاوربيون عليهم في عصر النهضة الاوربية .

وقد ألف بعضهم كتابا بأسماء آلات الرصد وأوصافها ، منهم الخازن في كتابه « الآلات العجيبة » ومنهم تقي الدين الراصد الذي وصف الآلات التي اخترعها بنفسه ، وأشهر هذه الآلات :

الاسطرلاب : أشهر الآلات الفلكية * وكلمة اسطرلاب جاءت من اليونانية

(١) قال الطوسي « اني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي من دمشق والفخر المرافي الذي كان بالموصل ، والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس ، ونجم الدين بن دبيران القزويني ، وقد ابتدأنا في بنائه سنة ٦٥٧ هجرية بمراغة » .

وأصلها أسطرلابون وهي مؤلفة من « أسطرا » بمعنى النجم و « لابون » بمعنى المرأة أي مرآة النجوم ومن Astra الاغريقية جاءت كلمة Astronomy بمعنى علم النجوم ويقال ان اصلها كلمة (استرلابيوم) اليونانية وقد قالت العرب عن معناها انها تعني ميزان الشمس بينما المعنى الاصلي مقياس النجوم . وقال بعضهم ان اصل الكلمة فارسي (ستاره ياب) . وقد نعتها العرب باسم « الآلة الشريفة » لتقديرهم لفوائدها في المساعدة على حل مئات المسائل الفلكية والرياضية في المشكلات عامة والمثلثات الكروية خاصة من جيوب ، وجيوب تمام ، وظلال وظلال تمام وقواطع وقواطع تمام ولما تمثله من عمليات رياضية وهندسية تحكمت في رسم الخطوط التي حوت على سطحها . . واستخدمها العرب في رسم مرتسم الكرة الارضية على مسطح ، ومن أبواب استعمالها أيضا : قياس الارتفاعات والمسافات وأعمال الآبار ، وارتفاع النجوم والكواكب السيارة والثابتة ، والزمن ، وتحديد أوقات الصلاة بالساعة والدقيقة من زوال وظهر وعصر وشفق ومعرفة قوس الليل ، ومطالع البروج . وفي كتاب فهرست كتاب العمل بالاسطرلاب لعبد الرحمن بن عمر الصوفي ٣٨٦ بابا لفوائد هذه الآلة الفلكية .

وقد اقتبس الاوربيون الاسطرلاب من الاندلس وأفريقيا واستخدموه في الملاحة البحرية أكثر من أي استخدام آخر (١) .

وللاسطرلابات عدة أنواع منها التام والمسطح والهلالى والزورقي والعقربي والقوسي ومنها التام والمجيب .

وأبسط أنواعه مؤلف من قرص معدني مقسم الى درجات ، ويدور على القرص عداد ذو ثقبين في طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب من حلقتة تعليقاً عمودياً ، ثم يوجه

(١) يمكن لمن يريد أن يعرف الكثير عن الاسطرلاب وكيفية قياسه بعدد من العمليات الفلكية والرياضية بشكل مفصل عليه الرجوع الى مقال للدكتور ابراهيم شركة في مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد ١٩ .

العداد نحو الشمس فمتى مرت أشعة الشمس من ذينك الثقبين قرىء ارتفاع الكواكب من الحد الذي وقف عليه ذلك العداد *

اللبنة : وهي جسم مربع مستو يعرف به عرض المكان وأبعاد الكواكب *

الحلقة الاعتدالية : يعلم بها التحويل الاعتدالي *

ذات الاوتار : وتتألف من أربع اسطوانات مربعة أدق من الحلقة الاعتدالية *

ذات الحلق : وهي خمس دوائر مصنوعة من نحاس ، الاولى دائرة نصف النهار وهي مركوزة على الارض ودائرة معدل النهار ، ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل والدائرة الشمسية ، التي يعرف بها سمت الكواكب *

ويعزى الى الفيلسوف العالم العربي الاندلسي عباس بن فرناس اختراعها وادخال تعديل عليها ، اذ يروى انه صنع هذه الآلة ورفعها الى الامير عبد الرحمن ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٧٨ هـ) مرفقة بهذه الايات التي تعرب عن وظائفها وفائدتها :

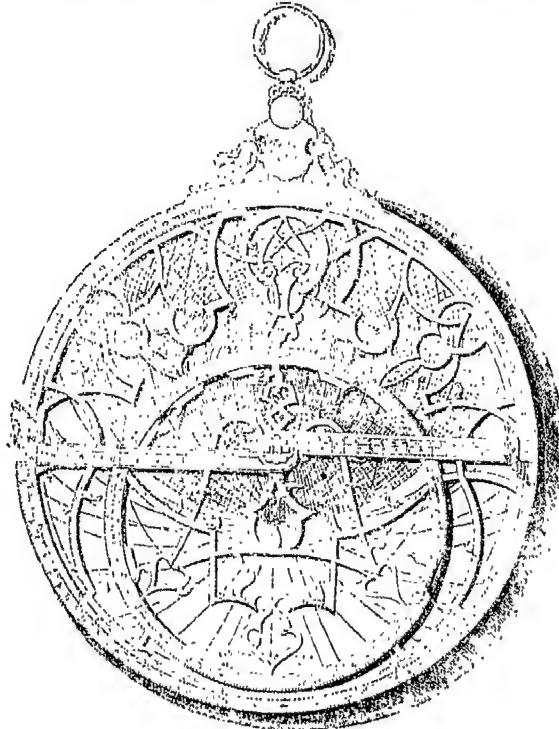
قد تم ما حملتني من آلة	أعيا الفلاسفة الجهابذ دوني
لو كان بطليموس ألهم صنعه	لم يشتغل بجداول القانون
فاذا رأته الشمس في آفاقها	بعثت اليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التي حجت معا	دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيها بالنهار كما بدت	بالليل في ظلماتهن الجنون

ذات السمات والارتفاع : وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعها ، وهي من مخترعات المسلمين *

الميقانة : وتدل على الجهات وتحدد أوقات الصلاة * اذ تروي كتب الادب ان

عباس بن فرناس قدم هذه الآلة هدية الى الامير عمر بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)
منقوشا عليها الايات التالية :

الا انني للدين خير أداة اذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تنر كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن امام المسلمين محمد تجلت عن الاوقات كل صلاة
ذات الشعبتين : وتتألف من ثلاث مساطر على كرسي خاص يعلم بها الارتفاع .
أما الازياج فهي كلمة أعجمية مفردا « زيچ » عرفها ابن خلدون في مقدمته :
ومن فروع علم الهيئة علم الازياج وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص
كل كوكب من طريق حركته ، ولهذه الصناعة قوانين في معرفة الشهور والايام
والتواريخ الماضية وأصول متقررة في معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف



شكل - ١٥٤ -
اسطرلاب الاندلسي
- ٦٧١ -

الحركات واستخرج بعضها من بعض ليضمونها في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين وتسمى الازياج *

ونستطيع أن نختم بحثنا بأن فلكيي العرب تحققوا كروية الارض وانها سابعة في الفضاء * وفسروا دوراتها وحركات جميع الكواكب السيارة ، وقاسوا خط الهاجرة أي خط دائرة نصف النهار ، وقاسوا مواقع البلدان الهامة ، وتمكن أحدهم وهو الفلكي ثابت بن قرة الحراي (توفي ٢٨٨ هـ - ٩٠١ م) من استخراج حركة الشمس وحساب طول السنة النجمية ، فكانت معه ٣٦٥ يوما وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان ، وقاسوا محيط الارض ، ورسموا خرائط القبة السماوية واكتشفوا اختلاف سير القمر بين سنة وأخرى ، وأوجد أبو الوفاء البوزنجاني



صورة مأخوذة من كتاب « صور الكواكب الثابتة » للمؤلف

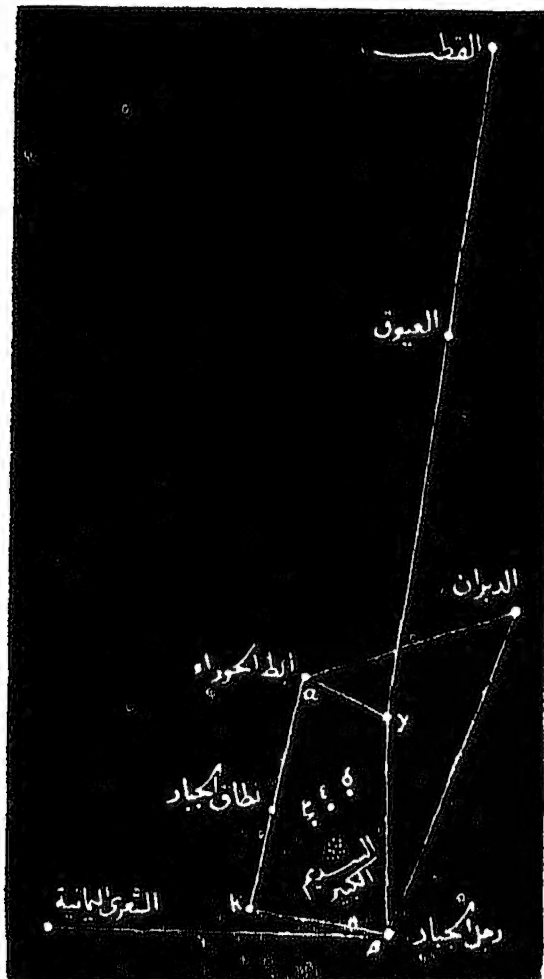
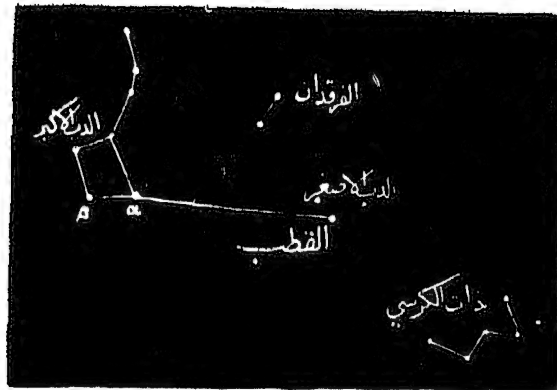
شكل - ١٥٥ -

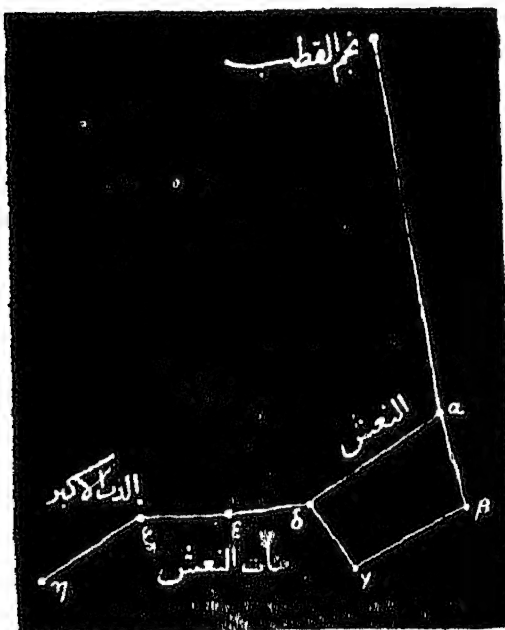
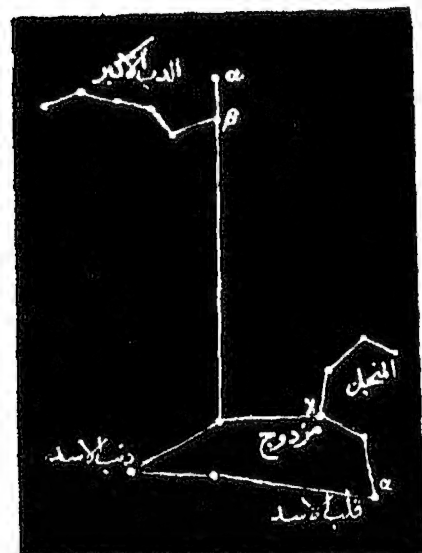
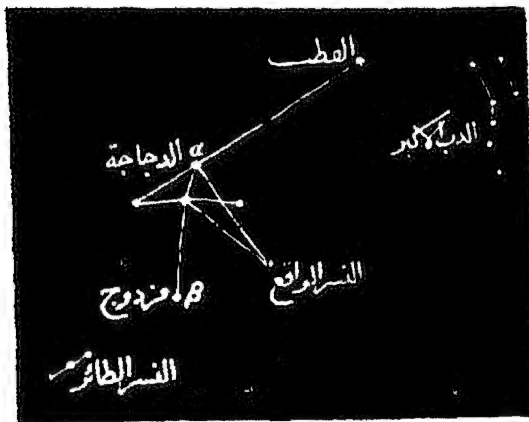
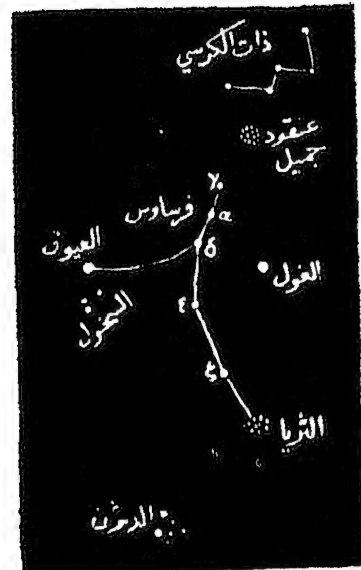
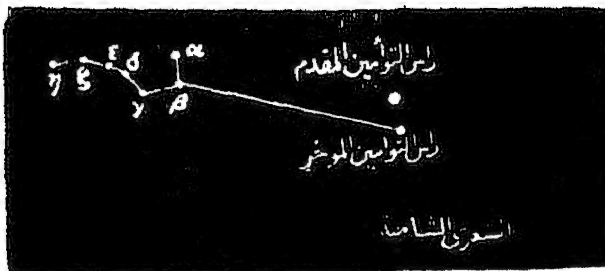
صورة مأخوذة من كتاب « صور الكواكب الثابتة » للصوفي تمثل بعض الاجرام السماوية وتجمعها في شكل يساعد الفلكيين على دراستها ومتابعة مواقعها

- ٦٧٢ -

(توفي ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م) احدى المعادلات الضرورية لتقويم مواقع القمر سميت معادلة السرعة * ودرسوا الكلف على وجه الشمس ، وعرف ابن رشد (توفي ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م) بواسطة الحساب الفلكي وقت عبور عطارد على قرص الشمس ، فوجده وشاهد بقعة سوداء على قرصها في الوقت المعين ، ودرسوا نسبة مساحة الكواكب بعضها الى بعض ، وعرفوا أن الارض أصغر من الشمس ، ولاحظوا حركة الاوج والحضيض في الحركات الدورية ، وانتقدوا نظام بطليموس الفلكي وأصلحوا أخطائه ، وأدرك أبو سعيد أحمد بن محمد السجستاني (القرن الرابع الهجري) ان الارض متحركة وان الفلك بجميع ما فيه ، سوى الكواكب السبعة ، ثابت ، فاستنبط اسطرلاباً خاصاً عرف بالاسطرلاب الزورقي ، وهذا يخالف رأي بطليموس القائل بأن الارض ثابتة وهي مركز النظام الشمسي ، أي أن الشمس والكواكب تدور حول الارض ، ولم ينتقدها من علماء أوروبا أحد قبل كوبرنيقوس (١٥٤٣ م) *

★ ★ ★





٦ - العلوم الفلسفية والفرق الدينية

الفلسفة والفلاسفة : لم يكن لعرب الجاهلية فلسفة شبيهة بفلسفة الاغريق لأن طبيعة بلادهم كانت تدعوهم الى الكفاح في سبيل الحياة ، والانسان - كما يقول الفلاسفة - يجب أن يعيش قبل أن يتفلسف ، ولكن بعد الاسلام ، عندما دخل كثير من اتباع الديانات الاخرى ومن الاجناس غير العربية في الاسلام بدؤوا بنقل بعض الفلسفة الاغريقية وغيرها الى المسلمين ، ولما أقبل المسلمون على الكتب الاعجمية يترجمونها ويدرسونها ، ويفسرونها ويلقون عليها ، كانت الفلسفة الاغريقية وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة أكثر ما جذبتهم الى دراستها وتفهمها ، وكان العلماء الذين بدؤوا ينبغون في العصر العباسي الاول أشبه بعلماء العصور القديمة والوسطى ، ملمين بأكثر من علم واحد ، فكان كثير منهم يشتغل بالرياضيات والفلك والتنجيم والكيمياء معا ، كما أن كثيرا من أطبائهم كان يشتغل بالفلسفة وبالعلوم الاخرى ، فالاختصاص لم يظهر لا في الشرق ولا في الغرب حتى هذا التاريخ ، وكان الرجل لا يعتبر عالماً أو فيلسوفاً الا اذا أحاط بأكثر من علم ، ولكن يغلب عليه اسم رياضي ، أو فلكي أو منجم ، أو طبيب ، أو فيلسوف ، أو موسيقي ، فيما اذا تغلبت هذه الناحية عليه على سائر العلوم الاخرى التي يتقنها .

وعلى هذا الاساس يمكن ان نعتبر كثيرا من علماء العرب فلاسفة وخاصة في أول نشأة الفلسفة ، ولكن المؤرخين المتأخرين ، يفرقون بين الفيلسوف وبين المشتغل بغيره من العلوم ، مما يدلنا على أنهم حاولوا التفريق بين ذوي الاختصاص ، ومهدوا السبيل للاختصاص العلمي ، فتراهم مثلاً لا يلقبون الغزالي بالفيلسوف وهو قد

اعتمد كثيرا على الفلسفة في طريقته التي اتبعها للبرهان المنطقي والاثبات العقلي لتعاليم الدين • والفلسفة كما عرفها الفارابي • اسم يوناني معناه إثبات الحكمة • والفيلسوف معناه المؤثر للحكمة • والمؤثر للحكمة هو الذي يجعل المؤكد من حياته والغرض من عمره الحكمة : بينما عرفها ابن سينا بأنها الحكمة وهي « صناعة نظر يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه ، وما عليه الواجب مما ينبغي أن يكسبه فعله لتشرف بذلك نفسه وتستكمل ، وتصير عالماً معقولا مضاهياً للوجود ، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة ، وذلك بحسب الطاقة الانسانية » • لكن ابن رشد يعتبر « فضل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات من جهة دلالتها على الصانع ، وكلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت بصانعتها أتم » •

أما أشهر من نبغ في الفلسفة في الاسلام فهم :

الكندي : واسمه أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وهو عربي الاصل من قبيلة كندة ، نشأ في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد ونبغ في الترجمة ، وأخذ بترجمة الكتب الفلسفية اليونانية — ولم يذكر في عدد المترجمين لانه لم يكتسب من هذه المهنة — واطلع على آراء المعتزلة ورسائل اخوان الصفا وتأثر بها • ولم يكتف بترجمة كتب ارسطو ، بل انتقد بعضها وعلق عليها ، وألف كثيرا من الكتب الفلسفية ولكنها لم تصلنا كما هي ، وانما اطلعنا عليها من بعض ما ترجم منها الى اللغات الاجنبية في عصر النهضة الاوربية ، وما نقله من أتى بعده من الفلاسفة عنه ، ولقد لقب بفيلسوف العرب •

وقد أورد ابن النديم أسماء كتب الكندي في ثمانى صفحات وعدها سارتون فوجدها مائتين وسبعين كتابا • • ومن دراسة ما وصلنا منها عرفنا أن الكندي كان واسع المعرفة بعلوم وفلسفة الاغريق ، وأن من خصائصه الدقة في تحديد الالفاظ الفلسفية وفي وجوه استعمالها ، وبناءه البحث الفلسفي على أسس من الرياضيات • وتفسيره أوجه النشاط في الطبيعة تفسيراً الهياً ، وتلخص فلسفة الكندي بالافكار التالية :

أ - الاعداد متناهية في نفسها ، وسلسلة الاعداد غير متناهية في خيالنا لان
بإمكاننا أن نزيد عدداً بالجمع أو بالتضعيف بلا نهاية ، ولكن المعدودات متناهية
لأنها أجسام ولأنها أشياء مادية مخلوقة * ألم يقل تعالى :

« وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (سورة يسن) * والرياضيات عند
تكون بالافتناع بل بالبراهين *

ب - كل جسم متناه في المكان ومتناه في الزمان من أوله * والجسم جزء من
الطبيعة ، والطبيعة هي الوجود المتحرك (الخاضع للحركة) والمتعلق بالسببية ،
اذ لا يوجد جسم بلا سبب ، وما كان له سبب فلا يمكن أن يكون أزلياً * وللعالم
شكل ، والشكل الوحيد الممكن للعالم هو الشكل الكروي ، فالعالم اذن متناه من
حيث المكان ومحدود (على شكل الكرة) * والزمان شيء * وهو قياس للحركة
وحادث بحدوثها * وهذا كله يعني أن العالم والحركة والزمان متناهية وحادثة *

ج - تكون المعرفة من طريق العقل ومن طريق الحواس ، ومن طريق المخيلة
التي هي رتبة وسط بين العقل والحس * أما النبوة فهي ضرورية للبشر في المعرفة
وفي الهداية *

٢ - الفارابي : وهو فارسي الاصل من خراسان ويسى ابو نصر محمد بن
محمد بن طرخان الفارابي * تنقل في أمهات المدن الاسلامية ومكث مدة بدمشق ،
وأخذ الفلسفة في بغداد وحران ، ويذكر ابن خلكان أنه قرأ ببغداد علوم الفلسفة
وتناول جميع كتب أرسطو ، وتمهر في استخراج معارفها والوقوف على أغراضه
فيها * ويقال انه وجد كتابا لأرسطو ، وعليه مكتوب بخط ابن نصر الفارابي ، اني
قرأت هذا الكتاب مائة مرة * ولقب الفارابي بفيلسوف المسلمين والمعلم الثاني ،
على اعتبار أن أرسطو كان يلقب بالمعلم الاول ، وقد كان يجيد الضرب على العود
وألف كتاب الموسيقى الكبير *

ومن كتب الفارابي : رسالة في العقل وينحي فيه منحى أرسطو ، وكتاب احصاء العلوم ويقسم العلوم فيه الى خمسة أقسام * وكتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطوطاليس ويحاول فيه نفي الخلاف بين هذين الفيلسوفين لانهما حكيمان منظوران وامامان مبرزان ولا يمكن لحكيمين كبيرين أن يختلفا * وسبب الخلاف الظاهر بين فلسفتهما قصور الناس عن فهمهما * وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ويشمل قسمين متميزين : الاول فلسفي عقلاني ، والثاني في الفلسفة السياسية وقد استقى نظرياته السياسية في هذا القسم من البيئة التي كان يعيشها في القرن الرابع للهجرة حيث كانت توجد خلافة عباسية (هي مدينة فاضلة كبرى) ودولة بويهية (مدينة فاضلة وسط) ودولة حمدانية (مدينة فاضلة صغرى) والدول الفاطمية والساسانية والاشييدية وهي من مضادات الخلافة العباسية * كما يبدو أنه استقى فكرة المدينة الفاضلة من أفلاطون ، وفكرة اقرار المدن غير الفاضلة لان أهلها راضون عنها رغم ما فيها من فساد من أرسطو *

٣ - جماعة اخوان الصفا وهم جماعة سرية ذوو نزعة شيعية ، وكانوا موضع عطف بني بويه في بغداد وقد صرحوا أن غرضهم صلاح الدين والدنيا والاقتداء بالحكماء وبالفيثاغوريين ، وأن مذهبهم النظر في جميع العلوم الطبيعية والرياضية والالهية وأنهم لا يعادون علماً من العلوم ولا مذهباً من المذاهب * واستطاعت هذه الجماعة - كما يقول براون - ان تتمم ما بدأه المعتزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف * ولقد نشر هؤلاء الجماعة عدداً من الرسائل بلغت واحداً وخمسين رسالة ، تبحث في كثير من النواحي الفلسفية ، حتى أصبحت أشبه بدائرة معارف عامة ، وتعرض الى الكلام عن الرياضيات والمنطق والطبيعات « فترد كل شيء الى النفس وما لها من قوى ، وتنتهي أخيراً الى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي » ومن أشهر مؤلفي هذه الرسائل : المقدسي ، والزنجاني ، والمهرجاني ، والعرفي ، وزيد بن رفاع * ويدل مسلك حياتهم العملية أنهم كانوا

مشاركين في العلم والمال • وأنهم يرون أن النجاة في الآخرة لا تكون بالعبادة والاخلاق فقط بل بالاحاطة بالعلوم والمعارف أيضا •

٤ - ابن سينا : وقد ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب ، في الفلسفة والطب ، اشتغل بكثير من الوظائف الادارية في الدولة السامانية في بخاري ، وقد اقتفى أثر الفارابي في بحث المنطق ، وزاد عليه في أبحاثه في الالهيات ،



شكل - ١٥٦ -
الرئيس ابن سينا يحاضر طلابه في الطب والفلسفة .
الرسم موجود في مخطوطة عربية من القرن العاشر الميلادي

كما شرح الهيات أرسطو ، وحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة والجماعة ، ولم يقيد نفسه بمذهب من المذاهب بل كان يأخذ من كل مذهب بما يلائم تفكيره وميوله . ولقد أداه بحثه الى اعتبار العقل هادي النفوس النافعة الانسانية ، ومن أشهر كتبه كتاب الشفاء ويعتبر موسوعه فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات والهيآت وقد ترجم الى اللاتينية ومنها الى بعض اللغات الاوربية ، وضاع أصله العربي ويقال أنه كان في ثمانية عشر مجلداً . والذي وصل إلينا من هذا الكتاب هو موجزه بقلمه ويسمى النجاة ، وله كتاب الاشارات وفيه ينحو نحو الافلاطونية الحديثة في بحثه . لكنه لم يقيد نفسه بمذهب فلسفي واحد ، بل كان متخيراً أخذ من كل فيلسوف ما أعجبه .

٥ - ابن باجه : فيلسوف اندلسي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في عصر دولة المرابطين وأكثر كتبه كانت شرحاً لمذهب أرسطو وله كتاب يسمى تدبير المتوحد ، وترجم الى اللاتينية .

٦ - ابن طفيل : ولد ابن طفيل القيسي القرطبي الاشبيلي في مدينة كواديش قرب غرناطة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ومات بمدينة مراكش المغربية سنة ١١٨٥ م . وخرج الملك المغربي آنذاك في جنازته تقديراً للمكانة العظيمة التي كان يحظى بها عنده .

والكتاب الوحيد الذي نعرفه له هو كتاب « حي بن يقظان » وقد وجد له صدفه بخزانة القرويين ، قصيدة شعرية في الطب تجاوزت الثلاثمائة بيت . وقد ذكر انه كان كاتباً لحاكم غرناطة وطيباً خاصاً لثاني ملوك الموحدين بالمغرب وفي مدينة مراكش بالذات وهو ابو يعقوب يوسف .

وكان ابن طفيل أحد ثلاثة فلاسفة اندلسيين : ابن باجة ، ابن طفيل ، ابن رشد . وكان أصغر من الاول واكبر من الثاني . هذا الثلاثي يعد من أكبر فلاسفة الاندلس

والعرب والمسلمين ، وهم لم يكونوا فلاسفة فقط ، بل كانوا مفكرين أحرارا وقادة للرأي في زمانهم ويبتعثهم *

ان ابن طفيل لم يكن اشراقيا كما انه لم يكن صوفيا ، ولا زاهدا متنسكا ، ولا بداعية الى فكرة معينة يريد ان يلفت نظر المجتمع والناس اليها * ليس هو المتزمت ، ولا بالجاحد الملحد الثائر على ما يعتقد الناس في عصره * بل هو عالم نظري ، يكتب للخاصة دون الكافة ، ويبحث بكل نزاهة واخلاص وصدق عن التوفيق بين العقل والايمان *

ان ابن طفيل فيلسوف تأملي ، وليس جوليا ، انه ليجت عن الحكمة الخالصة الصحيحة ويعتقد جازما ان العقل وحده والعلم والبدية والحدس العقلي هو الطريق الوحيد للوصول الى الحقيقة * ولهذا كان في هذا المضمار المبدع الاول والمكتشف الاول لمبدأ « التربية الذاتية » قبل غيره من العلماء سواء منهم الاوريون أو غيرهم *

يقول العلامة الاسباني الكبير مينيندث ايبلايو : « ان كتاب حي بن يقظان هو العمل الفلسفي والادبي والديني والتربوي والنفساني الاكثر أصالة وعمقا في تاريخ الادب الاسباني العربي على الاطلاق ان هذا الكتاب لا يهم الفلاسفة فحسب ، بل يهم كل من يهتم بتاريخ الفكر الانساني قاطبة » *

ويقول رينان : « قد يكون حي بن يقظان الكتاب الوحيد عن الفلسفة الشرقية اطلاقا الذي يستطيع أن يملك اهتمامنا بطريقة متواصلة دون ان يقودنا الى النواحي التاريخية » *

وترجم ابن طفيل الى العبرية عام ١٣٤١ م واللاتينية عام ١٦٧١ م والانكليزية ١٧٠٨ م والهولندية ١٦٧٢ و ١٧٠١ م والالمانية ١٧٢٦ و ١٧٨٣ م والفرنسية ١٩٠٠ م والاسبانية ١٩٠٠ و ١٩٣٤ م *

ان « حي » عن طريق التأمل والزهد والتنسك والملاحظة والحدس العقلي يصل الى معرفة وجود الذات العلوية •• ان ابن طفيل يفضل الانسان الذي يصل الى الاعتقاد عن طريق العقل على المؤمن عن طريق التلقين ان الاخلاق الدينية عنده هي حرية التفكير من أجل الوصول الى الحقيقة • ومن الناحية الاجتماعية يعتقد ابن طفيل جازما ان الانسان يجب أن يساير ويتعايش مع المجتمع الذي يعيش فيه ويأخذ بيده الى طريق الايمان •

ان ابن طفيل وكأنه يعيش بين ظهرائنا الآن في هذه المرحلة العصبية من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية ويدعونا الى الروية في تفكيرنا وسبر أغوار نفسياتنا العربية ، ويدعونا الى الحب والاصالة والخير والجمال والايمان بالله العلي القدير جل علاه • وما أحوجنا الآن الى مفكرين مثل ابن طفيل رضي الله عنه وأرضاه^(١) •

٧ - ابن رشد : أشهر فلاسفة الاندلس ، كان تلميذ ابن طفيل ، وشرح كتب أرسطو ورد على الغزالي بكتاب تهافت التهافت ، وانتقد الفارابي ومنطقه ، ولقد اتهم بالزندقة لكثرة أبحاثه العقلية فأمر خليفة الموحدين باحراق كتبه النفيسة جميعها واحتفظ له بالكتب الطبية والرياضية •

ومما يلاحظ على الفلسفة الاسلامية بصورة عامة انها اعتمدت على الفلسفة الاغريقية وخاصة فلسفة ارسطو ، كما اعتمدت على الافلاطونية الحديثة وخاصة ان هذا المذهب انما نشأ وانتشر في الاسكندرية ، وقد أصبحت الاسكندرية من أملاك العرب ، وأخذ المسلمون منها ما يلائمهم ، واهتموا بناحية التوفيق بين الفلسفة والدين •

علم الكلام : يعرف المؤرخون علم الكلام بأنه العلم الذي يبحث في العقائد

(١) راجع مقال الدكتور محمد احمد المليجي الاستاذ بجامعة محمد الخامس بمدينة فاس - العربي ١٤٥ •

وفي الرد على المخالفين بالأدلة العقلية • فهو مبني على أن أصحابه يؤمنون بالعقائد الدينية وبصحة هذه العقائد الإسلامية ، ثم يجادلون بالجدل والاقتناع ، والمنطق والفلسفة برهان صحة هذه العقائد واقتناع المخالفين أو غير المؤمنين بصحتها إقناعاً عقلياً ، كما اقتنعوا هم بالقرآن وتعاليمه وجدانياً ، لذلك اختلفت طريقة بحثهم عن طريقة البحث الفلسفي الذي يتطلب من صاحبه أن يكون خالي الذهن من أي فكرة خاصة ، فيستقصي الحقيقة ، ويقرها ويؤمن بها ، ولقد كانت هناك أسباب كثيرة أدت الى نشوء هذا العلم وتطوره حتى أصبح علماً له قواعده وأسس وأنصاره وأتباعه منها أن الفرق الإسلامية أخذت تختلف في كثير من القضايا وتحتكم الى الجدل تارة والى السيف تارة أخرى في تأييد دعواها ، فهناك قضية الخلافة ومن أحق بها ؟ وهل هي إرث لآل النبي أم انتخابية شورية أم ملكية كما جعلها الامويون ؟ وهل أخطأ أبو بكر وعمر بقبولهما الخلافة مع وجود علي وهو أحق منهما أم أصابا ؟ وهناك امر مرتكب الكبيرة ، هل هو كافر ، أم مؤمن ، أم له منزلة بينهما ؟ ومنها أن القرآن تعرض للاديان الاخرى ورد عليها ، فأخذ علماء الدين ينهجون نهجه للرد على المخالفين ، وكان كثير من أتباع الديانات الاخرى قد دخلوا في الاسلام ، فأثاروا كثيراً من مسائل دياتهم القديمة والبسوها لباس الاسلام ، فدعا المسلمين الى دحض هذه المفتريات الجديدة بالطرق العقلية المنطقية السليمة ، كما أن نزاعاً جدلياً أثير بين الاسلام وأتباع الديانات الاخرى ، كل يؤثر دينه ويجادل فيه ويدعو اليه ، وكان غير المسلمين يعتمدون على الفلسفة والمنطق في تأييد دعواهم ، فتسلح المسلمون بنفس سلاحهم ليحاربوهم به ، زد على ذلك أن بعض الفرق الدينية كالمعتزلة أخذت على عاتقها الدعوة للاسلام ، والرد على المخالفين ، فدعاها هذا الى الاطلاع على الفلسفة والاحاطة بأقوال الفرق الاجنبية وحججها ، وكان شأنهم شأن المتدينين من اليهود والنصارى ، الذين جابهاوا فلسفات قديمة مخالفة ، فدرسوا هذه الفلسفات ليدحضوها بنفس أساليبها وطرقها ، واذا كان علم الكلام بدأ في أواخر العصر الاموي ، فانه ينع في العصر العباسي ، وقد أخذ به المعتزلة كما أخذ به أتباع الفرق الاجنبية الاخرى كالشيعة

والمرجئة والخوارج ويشبه الاستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام موقف المتكلمين في الدين الاسلامي ، بموقف محام مخلص اعتقد بصحة قضيته وتولى الدفاع عنها ، بينما يشبه موقف الفلاسفة بقاضٍ عادل تعرض عليه القضية فيبحثها ليصدر حكمه فيها ..

التصوف : إزاء ميل كثير من الخلفاء والامراء والاعنياء الى حياة الترف والنعيم ، وظهور كثير من مظاهر اللهو والتمتع بملاذ الدنيا من أثاث فاخر ، وطعام مختلفة ألوانه ، وشراب ، وموسيقى وغناء وقيان وامتلاك للاملاك الواسعة ، إزاء هذه الحركة التي أخذت تباشيرها بالظهور منذ العهد الاموي وبدت واضحة جلية في العصر العباسي وما رافقه وتلاه ، رأى جماعة من المسلمين أن يزهّدوا في الحياة ويعيشوا عيشة الكفاف ، وينصرفوا الى العبادة والتقوى عسى ربهم أن يدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ، جزاء ما كسبت أيديهم ، وقد ارتدى هؤلاء الملابس الصوفية ، مقلدين كما يقولون بعض الصحابة كعمر بن الخطاب وسلمان الفارسي وأبي عبيدة بن الجراح ، وأطلق على هؤلاء اسم الصوفيين — وهناك أقوال أخرى في أصل كلمة صوفية سنشرحها ولعل ما ذكرناه من أصلها — وفي ذلك يقول المسعودي في مروج الذهب : « ولما تقدم الزمن بالمسلمين وصارت المادية والبذخ ، حافظ بعض المسلمين على سنة خلفاء الرسول في اللبس ، واحتجوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادة والتبذير اللذين انغمس فيهما معاصروهم ، فاطلق عليهم الصوفيون^(١) » ولم يكن للمتصوفين الاوائل أي نظام أو فلسفة أو تعاليم أو مظاهر ، ولكن في القرن الثالث عندما تسلح المتكلمون بالفلسفة للاقناع والحجة في صحة

(١) اختلف العلماء في أصل اقتباس كلمة « الصوفية » فقال المتصوفون انها مشتقة من الصفا وان الصوفي رجل صافاه الله . وقال آخرون ان الاسم مشتق من الصف الاول الذي كانوا يجلسون فيه للصلاة في المسجد . أو من الصفة وهي دكة في مسجد الرسول في المدينة ينقطع عندها أناس للعبادة . وقال بعض المستشرقين ان كلمة صوفية تعريب لكلمة سوفيا اليونانية اي الحكمة ، واجمع أكثرهم على انها من الصوف اللباس الغالب على الزهاد .

تعاليم الاسلام ، رأى المتصوفون أن يتقربوا الى الله عن طريق آخر هو هذا النوع من حياة الزهد والتكشف والتعلق بالله عز شأنه ، حتى يصلوا الى معرفة الله ، لا عن طريق المنطق والمجادلة وانما عن طريق الكشف والاشراق الالهي * * ويقول بعض المؤرخين أن فلسفة التصوف في هذا العصر قامت على مذهب الافلاطونية الحديثة لوجود شبه في فلسفتها ، ذلك أن الافلاطونية الحديثة مذهب حب لا تنطرق اليه الاعراض المادية ولا النزعات الحسية ، والمتصوفة يحبون الله حباً روحانياً شالياً من الماديات أو النزعات أي يحبونه على حد التعبير العلمي حباً أفلاطونياً ، كما يقولون ان التصوف اقتبس بعض تعاليم هندية وفارسية وغيرها ، ولكن بدرجة أقل من تعاليم الفلسفة الاغريقية *

وكانت رابعة العدوية شهيدة الحب الالهي وهي من أشهر المتصوفات تقول :
الهي ان كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقني بنار جهنم ، وان كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمنيها ، وأما اذا كنت أعبدك يا الهي من أجل محبتك فلا تحرمني من جمالك الأزلي * وكانت تقول أيضاً : حبي لله لا يترك مجالاً في قلبي لحب مخلوق * أي أنها تحب الله لذات الله لا لأن بيده الجنة والنار ، يكافئ المؤمن والمحسن ويجازي المسيء *

تطور الصوفية - فلسفتها وطرقها : ما لبث التصوف أن أصبح مذهباً خاصاً ، وظهر كثير من المتصوفين ، بعضهم مغالٍ وبعضهم معتدل ، حتى خرج بعضهم عن القول المألوف عند عامة المسلمين ، كالحسين بن منصور الحلاج ، الذي كان من غلاة المتصوفين ، وبلغ من غلوه أن ادعى الألوهية في عهد المقتدر العباسي ، وكان مجوسياً من فارس ثم أسلم ، ذهب الى الهند وتعلم الشعوذة وأخذ يؤثر على بعض أتباعه الذين ظنوا فيه النسك والعبادة ، وكان يحفر في بعض الطرقات - كما في صلة تاريخ الطبري - موضعاً يضع فيه زقاً فيه ماء ، ثم يحفر موضعاً آخر يضع فيه طعاماً ، ثم يسير مع أصحابه الى الموضع الاول ، فاذا احتاجوا الى

ماء نبش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء ، فيشربون ويتوضؤون ، ثم يسير الى الموضع الآخر فيخرج منه الطعام ، ويوهم أصحابه أن ذلك من كرامات الاولياء ...

وادعى بعض أتباعه أنه أحيا بغاء ميتة ، وقد خالف في كتبه بعض تعاليم الاسلام فأباح الحج الى غير مكة بشروط وضعها ، وأباح افطار رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر وأفطر في اليوم الرابع على ورقة من الهندب (وهي نبات) ، وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل الى آخره مرة واحدة فيكفيه ذلك عن الصلاة ما عاش بعدها .. الى آخر ما هنالك من أمور ..

أما المعتدلون من المتصوفة فلم يصلوا الى ما وصل اليه الحلاج وأتباعه ، ولكنهم اتبعوا طرقاً وتعاليم خاصة ، ووضعوا للوصول الى معرفة الله ، وانكشاف وجهه تعالى اليهم طريقاً يدعى من سلكه (السالك) ومن يعاهده الناس على طريقته (المسلك) ومن يقطعه (الواصل) والسير فيه يدعى عندهم (سفر أو حج) ولا بد لقطعه من (مقامات) هي التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا . ولا بد للسالك من شيخ يهديه هذا الطريق حتى يكون سعيه مشكوراً ، ووضعوا لذلك كثيراً من النظريات لا نريد أن نطيل بشرحها من خصائص مباحث الفلسفة ، منها نظرية (مذهب الاشراق) أي يشرق الايمان في قلب صاحبه اذا خلصت نفسه من الشوائب وتجرد من كل شيء سوى الله ، ونظرية (المعرفة) أي معرفة الله ولا تكون الا باشغال القلب والروح والسريرة بالله تعالى ، ونظرية الحب الالهي وغيرها ، وقد اتخذوا كثيراً من التكايا والزوايا ، وصاروا يقيمون الاذكار بصوت عال أو منخفض ، ويعقدون الحفلات العامة ، ويدقون بالطبل والزر ، وأنواع الآلات الموسيقية ، وانصرف كثير منهم الى حياة الاستكانة في هذه الاماكن لا يعمل أعمالاً دنيوية ويعيش على ما تجود به أكف المؤمنين الاغنياء لهم ، ولا يزال حتى يومنا كثير من هذه المذاهب التي تمت الى التصوف بصلة ، وهي تختلف بعض الاختلاف في عاداتها وتقاليدها كالمذاهب ، والاحمدية والسنوسية ، والنقشبندية ، ومنها أيضاً طريقة المولوية اتباع جلال الدين الرومي الافغاني ، والذين كانوا الى

عهد قريب في سورية يقومون بحفلات خاصة يدورون بها دورانا متزنا ويلبسون الطرايش الطويلة والفساتين الفضفاضة فيكون لدورانهم منظر أخاذ *

الفرق الإسلامية : منذ واجه المسلمون أول مشكلة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ المسلمون يتساءلون في كثير من القضايا كيف تحل ، وما هو وجه الصواب فيها وما هو وجه الخطأ ؟ وما المقصود من هذه الآيات أو الاحاديث وما هو غير المقصود ؟ وهل تفسر بالمعنى الظاهر او لها معان مستترة ؟ ومن أحق بأن يلي أمورهم وهل إمامتهم واجبة دينا او غير واجبة ؟ وهل الانسان في الدنيا مخير أم مسير ؟ الى غير ذلك من أمور لم يتفقوا عليها جميعا ، فنتج عن ذلك كثير من الفرق الدينية كالخوارج والمرجئة والشيعة والمعتزلة ، واستعمل بعضهم السيف ، وخاض الحروب للدفاع عن رأيه ، كما حاول بعضهم الوصول الى الخلافة بكل الطرق ، واعتزل فريق آخر القتال والفتنة ولم يرض ان يخطئ هذا أو يكفر ذلك ، وترك الامور لله الى يوم القيامة ، ولقد تطورت هذه المذاهب وأصبحت لها في كل عصر تعاليم وقواعد تختلف فيه عن العصر الذي سبقها او لحقها *

الخوارج : نشأ الخوارج في وقعة صفين عندما رفع جماعة معاوية المصاحف بإشارة عمرو بن العاص وقالوا كتاب الله بيننا وبينكم ، فقبل بعض جماعة علي رضي الله عنه وأوقفوا القتال ، وقال جماعة آخرون انها خدعة لا يعتد بها وقالوا لا حكم الا لله ، وما لبثوا ان خرجوا على علي فسموا خوارج واجتمعوا في حروراء بالقرب من الكوفة فدعوا بالحرورية وكان سبب خروجهم أنهم رأوا ان التحكيم خطأ ، وطلبوا من علي أن يقر على نفسه بالخطأ ، بل بالكفر لانه قبل التحكيم ، وكان رفضه سببا لقتاله ، وما لبثوا ان وضعوا لانفسهم نظرية في الخلافة ، وهي ان الخليفة يجب ان يختار اختيارا حرا من المسلمين ، ولا يشترط فيه ان يكون قرشيا بل يصح ان يكون عبدا حبشيا ، واذا اختير فلا يصح له ان يتنازل عن الخلافة او يحكمهم ، ويتبع تعاليم الله في سياسته واذا حاد عنها يجب عزله ، ومن ذلك نرى أن الخوارج انما نشأت فرقة سياسية ، خرجت على علي ، وحاربته وحاربت الامويين ، وما لبثت

أن مزجت السياسة بالدين لتأييد دعواها ، وكان أكثر أفرادها من العرب ، ومن الاتقياء الوريثين ، ورأت صحة خلافة أبي بكر وعمر ، وعثمان في سنيه الأولى الى أن حاد عن الصواب ، وعلي الى أن رضي بالتحكيم ، ولم ترض بخلافة معاوية ولا أحد من بعده ودافعت عن عقيدتها بالقوة ، ومزجت هذه العقيدة بأبحاث لاهوتية ، فقالت بأن الايمان ليس الاعتقاد فحسب ، بل لابد من القيام بأوامر الدين كالصلاة والصوم والصدق والعدل ، والالتناء عن نواهيه كشرب الخمر ، ولعب الميسر والربا وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق *** وما لبثت هذه الفرقة أن انقسمت الى فرق كثيرة زادت عن العشرين فرقة اختلفت في بعض التفاصيل واتفقت في الاساسين اللذين ذكرناهما وهما : مسألة الخلافة ، ومسألة الايمان وأن العمل بأوامر الدين جزء من الايمان *** فمن فرقهم المغالية فرقة الازارقة اتباع نافع بن الأزرق الذي اعتبر اضحابه وحدهم على حق في دعواهم ، وكل ماعداهم من المسلمين مخطيء ، بل هم أشبه بكفار العرب وعبداء الاوثان ، أي لا يقبل منهم الا الاسلام او السيف أي الا قبول مذهبهم هو باعتباره الاسلام الصحيح ، والا وجب قتالهم ، فكان بذلك المسيحي والموسوي وغيرهما من أصحاب الكتاب أقل عداء للازارقة من المسلم غير الازرقى . ولم يكن الازارقة يصلون وراء غيرهم ، ولا يأكلون من ذبائحهم ، ولا يتوارثون منهم ولا يورثونهم وقد حاربوا الامويين حربا لا هوادة فيها ، وأرسل لهم الحجاج المهلب بن أبي صفرة لقتالهم .

ومن فرقهم من أداه اجتهاده في تعاليم الدين الى القول بأن المخطيء معذور اذا اجتهد وأخطأ ، فمن أداه اجتهاده الى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور ، كالنجدات اتباع نجدة بن عامر ، وقد انتشروا في اليمن والطائف واليامة وحضر موت .

ومن فرقهم الصفرية اتباع زياد بن الاصفر ، والاباضية وهم الذين هاجروا الى شمالي افريقيا ولا تزال أعقابهم الى اليوم ، ولم ينقرضوا كغيرهم من الضوارج ، وهم موجودون في جنوب القطر الجزائري في المنطقة المعروفة باسم الاحجار من الصحراء الكبرى ويعرفون باسم المثلثين .

وإذا كان الخوارج لم يأخذوا بشيء من التعاليم الفلسفية ، كما قلنا ، فإنهم برعوا في ناحيتين عظيمتين هما شجاعتهم في الحروب وأدبهم الرفيع من شعر وخطابة وعلم باللغة يضاف الى ذلك ورع أكثرهم وتقاه ، حتى لقد يقال ان احدهم طعن في القتال فجعل يسعى الى قاتله والرمح في جسمه ويقول : « وعجلت اليك رب لترضى » وفي كتب التاريخ أمثلة كثيرة عن شجاعتهم حتى لقد كان كثيرا ما تتغلب فئة قليلة منهم على جيش كبير العدد ، ولقد هددوا العراق مرارا وكلفوا الدولة الاموية اكبر جهد لاختاد حركاتهم ، ولكن أمرهم ضعف في العصر العباسي •

الشيعة وفرقها : كان من أثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم دون ان يوصي لمن يخلفه ، أن ذهب تفكير المسلمين مذاهب شتى ، ظهرت في اجتماع بني ساعدة وانتهت بسبيعة أبي بكر ، ولكن مازهبت الصدمة العظيمة التي مني بها الصحابة بوفاة الرسول ، حتى أخذ فريق يفكر بأولية أناس للخلافة دون أناس ، وتروى الكتب التاريخية أن علي بن أبي طالب بايع أبا بكر بعد تردد ، اذ كان يرى في نفسه أحقية للخلافة ، اذ هو أقرب الناس الى النبي ، ولكن عليا لم يطالب بالخلافة بالحاح ولم يذكر ولا حديثا واحدا على لسان الرسول عليه السلام لمح له بالخلافة من بعده أو أوصى له بها • ولقد فكر جماعة من الصحابة بأن الخلافة ارث ادبي ، وليس أحق بالارث الادبي من الذي يرث الاشياء المادية ، وأقرب الناس قرابة من الرسول عليه السلام هم بنو عمومته : العباس وعلي ، والعباس لم ينازع عليا ذلك ، فكان علي أحق الناس بالخلافة • ولقد نفخ في بوق هذه الدعوة أحد يهود اليمن الذين أسلموا وهو عبد الله بن سبأ وأخذ ينشر بين المسلمين فكرتين اقتبس أحدهما من أصول الديانة الموسوية والاخرى من المعتقدات الفارسية حيث كان يحكم بلاده الفرس ، وهاتان الفكرتان هما : الوصاية بمعنى ان عليا هو وصي محمد عليه الصلاة والسلام ، اوصى له بالخلافة نسا ولا يجوز لغيره أن يغتصبها منه كما كان أنبياء بني اسرائيل يوصون للرسل من بعدهم • وفكرة حق الملوك الالهية المقدس أي أن علي بن أبي طالب الواجبة خلافته بعد الرسول ، يستمد حكمه من الله ، ويحكم بوحي من الله

أو أمر منه ولا يجوز ان ينزع في ذلك • ويظهر لنا من دراسة تاريخ علي بن أبي طالب ، وابن سبأ أن عليا لم يرض أن يقبل أفكار ابن سبأ هذا ، ولكن قتل علي واغتصاب معاوية الحكم منه ، وموت الحسن ثم قتل الحسين في كربلاء أثار نفوس كثير من الناس واتخذوا حب آل علي دينهم وسموا علويين أو شيعة ، ويذكر كثير من المؤرخين ان معركة كربلاء كانت أكبر سبب في بعث مذهب التشيع في نفوس الكثيرين ، وخاصة ان الفرس وهم الذين يعتقدون بحق الملوك الالهية المقدس الذي ذكرناه ، كانوا يرون في أولاد الحسين بن علي خلفاءهم الطبيعيين ، اذ أنهم يحملون أشرف دم عربي وهو دم علي وفاطمة من ناحية الاب ، وأشرف دم فارسي حيث يرون ان الحسين بن علي تزوج إحدى أسيرات الحرب وكانت بنت يزجرجد الثالث آخر ملوكهم ، وبذلك جمع هؤلاء الاولاد أشرف الدمين معا ، دم الاسلام والعروبة ودم ملوك الفرس ، ولكن هذه الفكرة الاساسية التي اعتمدت على حب علي وآله لقرابته من الرسول بالنسب تطورت وتشعبت واختلفت أشياءها فرقا وشيعا ، حتى قيل ان عدد الفرق الشيعية فيما بعد أصبح نيفا وسبعين فرقة ، وتتفق هذه الفرق بالدعوة لآل علي بالخلافة لكنها تختلف اختلافا تصاعديا حتى يصل بعضها الى الاتحاد والكفر وتآليه علي وأولاده ، اذ بينما تعتقد الفرق المعتدلة ، ان أبا بكر وعمر وعثمان اخطؤوا لقبولهم الخلافة مع وجود من هو أحق منهم وهو علي ، ترى الفرق المعالية أن هؤلاء الخلفاء قد كفروا وخرجوا عن الدين لانهم اغتصبوا الخلافة اغتصابا ، وأن عليا وأولاده من بعده معصومون عن الخطأ لان صفات الله تعالى قد حلت فيهم وتقمصت اجسامهم ، واقتبست فرق منهم بعض المعتقدات الدينية الاخرى من فارسية او هندية او مسيحية او يهودية ، ولقد غدا التشيع في بعض الظروف المذهب الذي يتستر به كل من أراد بث سمومه في الدين وفي أتباعه ، — كما يقول أحد الكتاب — وكانت بعض الفرق تعبد بعض الشيعة كالألهة ، أمثال من كان يعتقد بالوهية الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين • أما فرقهم فكثيرة وأهمها :

١ - الزيدية : وهم أكثر الفرق اعتدالا في آرائهم وأقربهم الى أهل السنة ،

فهم يرون أن خلافة أبي بكر وعمر صحيحة ، لأن عليا بايعها ، مع أفضلية علي بها ، ووضعوا لذلك قاعدة ، وهي أنه يجوز امامة المفضول مع وجود الافضل فاذا وجد امام منهم ورضي عن الخليفة القائم به فتجوز خلافة هذا الخليفة دون الامام ، وهم أيضا يعترفون بأنه لم يرد نص رسمي عن الرسول في وجوب الامام ، وليس في الامام جزء الهي ، ويشترطون في الامام أن يطالب بالخلافة ويقاقل في سبيلها حتى ينالها ، ولقد قام رأس هذه الفرقة وهو زيد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، في عهد هشام بن عبد الملك بثورة انتهت بقتله وصلبه سنة ١٢١ هـ كما قام ابنه يحيى من بعده ولحق به بعد أربع سنين ، ولعل اعتدال هذه الفرقة في تعاليمها يرجع الى أن زيدا امامها الاول قد تنلذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة وأخذ عنه كثيرا من آراء المعتزلة فأثر ذلك في عقلته ومعتقداته * ولا يزال لهذه الفرقة أتباع كثيرون في اليمن *

ب - الامامية : وسميت بهذا الاسم لقولها بوجود امام نص على خلافته الرسول عليه السلام ، فهم يتبرؤون من أبي بكر وعمر ويعتبرونهما خارجين عن تعاليم محمد ، بل كفارا ، لأن الرسول قد أوصى لعلي من بعده نصا وتلميحا ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان فكل من لا يؤمن بأئمتهم يكون ناقص الايمان ، لا يتم اسلامه الا بذلك ، وجعلوا أئمتهم معصومين من الخطأ ، ومحيطين بالعلوم جميعها ، مظهر منها وما بطن ، ولكنهم اختلفوا في أشخاص الائمة ، فحصرها بعضهم في أولاد علي من فاطمة فقط أي حرمها من أولاد محمد بن الحنفية ثالث أولاد علي ، وجعلها بعضهم في الابن الأكبر ، لايجوز تحويلها او اغتصابها ، واعتبر بعضهم أن عليا لم يموت ، وان الائمة خالدون ، ولكنهم يغيبون ، وسيعودون ليملؤوا الدنيا عدلا كما ملئت جورا وظلما ، ولقد قسموا الى فرق عديدة ، أيدت كل فرقة اماما من الائمة ، وتأثرت كثيرا أو قليلا بمعتقدات المذاهب الاخرى من براهمية وبوذية وزرادشتية وموسوية وعيسوية * وأهم الفرق الامامية :

الامامية السبعية او الاسماعيلية : وقد انشقت هذه الفرقة من الامامية لانها

اعتبرت الامام اسماعيل بن جعفر الصادق سابع الائمة المتسلسلين من علي امامهم ، وذلك أن أباه جعفر الصادق كان قد أوصى له بالامامة ، ثم اتهم اسماعيل بشرب الخمر فحول الاب الامامة من بعده الى أخيه موسى الكاظم ، ولقد مات اسماعيل في حياة أبيه ، ولكن اتباعه انكروا موت اسماعيل ، وقالوا قد تغيب « ولا يموت حتى يملك الارض ويقوم بأمر الناس » كما قالوا بأنه لايجوز لأبيه جعفر ان يحول الخلافة منه الى أخيه موسى حتى بعد وفاة أخيه اسماعيل ، لان الامامة لا تنتقل من أخ الى أخ بعد الحسن والحسين ، ولا تكون الا في الاعقاب ... ولقد تأثر الاسماعيلية بمذهب الافلاطونية الحديثة وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقا غريبا ، كما استخدموا ما نقله اخوان الصفا في رسائلهم عن هذا المذهب الافلاطوني ، وقالوا ان للقرآن ظاهرا وباطنا - ولذا سماهم البعض باسم الباطنية - ولتدلع الاسماعيلية دورا دينيا وسياسيا كبيرا في تاريخ الدولة الاسلامية ، واستطاع بعض فرقهم - اذ انقسموا الى فرق أيضا - أن يؤسس دولة كبيرة نازعت الدولة العباسية السلطة والنفوذ وهي الدولة الفاطمية في مصر وافريقيا ، كما كان منهم فرقة القرامطة اتباع عبد الله بن ميمون القداح وحمدان بن الاشعث الملقب بقرمط الذين أولوا القرآن تأويلا خاصا بهم ، وحلّلوا اتباعهم من قيود الشريعة والقيام بتكاليفها من صلاة وصوم وزكاة ، كما طبقوا الاشتراكية بين اتباعهم *

٢ - الامامة الاثني عشرية : ولقد قبل هؤلاء بتحويل الامامة من اسماعيل الى أخيه موسى الكاظم بن جعفر الصادق حسب وصية أبيه - ولذلك يدعون احيانا باسم الامامية الموسوية - وبسلسلة أئمتهم الى اثني عشر اماما ، أولهم علي بن أبيي وآخرهم الامام محمد المهدي الذي مات أبوه وعمره خمس سنين ، وقد دخل محمد المهدي هذا سردابا في مدينة سامراء وأمه تنظر اليه ، ولكنه لم يعد ، ولم يقف احد له على أثر بعدها ، فلذلك يعتقد أتباعه أن محمداً قد اختفى سنة ٢٦٥ هـ ولا يزال مختفيا حتى اليوم ، وهم ينتظرون عودته ليملاؤ الارض عدلا كما ملئت جورا ، ولذلك سموه الامام المنتظر ، والقائم بالامر والحجة * يقولون ان الله أخفى امامهم

الثاني عشر هذا عن أعين الخلق ولكن لا يزال حيا ، وهو يظهر من حين لآخر ويتصل بغيره ، ويبدئه تقرير حفظه أشياءه وكل هذا معجزة ومكرمة له .. ولقد تبع هذا المذهب اسماعيل الصفوي وجعل مذهب الشيعة الامامية الاثني عشرية المذهب الرسمي للدولة الصفوية في فارس في القرن السادس عشر الميلادي ، وأضاف الى الاذان بعد ذكر الشهادتين ، عبارة « أشهد أن عليا ولي الله » ولا يزال هذا المذهب مذهب دولة ايران الى اليوم *

٣ - المرجئة : لم تكن المرجئة في أول امرها فرقة متميزة ، وان كانت تضم تلك الفئة من الناس التي لم ترض ان تغمس يدها في فتنة ، ولا تؤيد حزبا أو تعاكس آخر ، ولا أن تحكم على هذا بالكفر أو الايمان ، بالخطأ أو الصواب ، بل أرجأت أمر الجميع الى الله تعالى يحكم فيهم يوم القيامة ، اذ رأت جميع من قام بالفتن من المسلمين ، ممن لهم مقام محفوظ ، ومركز ممتاز ، وأفضلية في الاسلام ، فرجال الفتن في عهد عثمان ، وطلحة والزبير ، وعائشة ، وعلي ومعاوية ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن والحسين ، ومن قبلهم جميعا أبو بكر وعمر وعثمان وهؤلاء كلهم وأمثالهم الذين ظهرت الاحزاب الدينية والسياسية تؤيدهم أو تناصبهم العداء كانوا من الصحابة ومن المقرين للرسول ، ولقد اجتهدوا وأخطأ بعضهم وأصاب بعضهم ، وتراشق أكثرهم بالتهمة ، فكفّر الخوارج عثمان في أواخر حكمه ، وعلياً بعد ان حكم ، ومعاوية وغيرهم * ونسب العلويون والشيعة الى علي صفات ليست له ، واتهموا الشيخين أبي بكر وعمر بالتآمر ضده واغتصاب الخلافة منه ، وذهب الخوارج في قضية الخلافة مذهبا شديدا خاصا حتى كانت لديهم أشبه بالنظام الجمهوري ، وأخذ الشيعة على وجوب الامامة بالنص وبالارث ، فكان لديهم أشبه بالنظام الملكي ، أما المرجئة فوققوا وقفة المتفرج ، لا يميلون الى هذا ولا الى ذاك ، ولا يكفرون ولا يؤيدون ولا يعاكسون أي فرقة بل قالوا اننا نترك أمرهم الى الله يوم القيامة ، ولكن هذا الموقف السلبي الذي كان في أول نشأتهم ، مالبث أن دخلت عليه كثير من التعاليم وانقلبوا من حزب سياسي الى حزب ديني ، اذ بحثوا في كثير

من المسائل الدينية ، وأخذوا الفلسفة في العصر العباسي ، لكن حزبهم مالبث أن تلاشى في أواسط العصر العباسي ويقول حسن ابراهيم حسن أن حزب المرجئة ظهر في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الاول الهجري وان المرجئة قاموا بدور هام في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، اذ قالوا بأنه لا يحل للحكومة ان تعامل المسلمين من غير العرب ، كما لو كانوا لايزالون على كفرهم ، وجأهروا بأن جميع المسلمين اخوة في الدين لا فرق بين عربي وأعجمي ، أي نادوا بمبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الاسلام ، ولقد خرج منهم الحارث بن سريج بثورة ضد الامويين في بلاد ما وراء النهر لاشتطائهم في جمع الضرائب من الاهلين ، وما عثم أن زعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والاخذ بناصر المظلومين . . وهذا مخالف لما قاله الاستاذ أحمد امين من أن موقف المرجئة كان موقف تأييد للحكومة القائمة ، ولكنه موقف سلبي لا ايجابي ، أي لا يقاتلون مع الحكومة او ضدها ، أما أبحاثهم الدينية اللاهوتية فأهمها وقوفهم موقفا وسطا بين الخوارج والشيعة في مسألة تحديد الايمان والكفر ، فلم يقبلوا رأي الشيعة القائل بأن الايمان بالامام والطاعة له جزء من الايمان . بل اعتبروا كل من أسلم وآمن بالله مؤمنا ولو أهمل القرآن أو ارتكب الكبائر ، وغالى بعض المرجئة برأيه فقال : ان الايمان هو الاعتقاد بالقلب ولو أعلن المؤمن الكفر بلسانه ، وعبد الاوثان أو لزم اليهودية والنصرانية وعبد الصليب طالما أنه يبطن في قلبه الاعتقاد بالله ورسله . . . وعلى الجملة فيمكن اعتبارهم الفئة المسالمة من الناس ، حاولت أن تسالمهم جميعا ، وان شذت قصة ثورة ابن سريج التي ذكرناها .

٤ - **المعتزلة** : اختلف المؤرخون في أصل تسمية معتزلة ، فبعضهم نسبها الى واصل بن عطاء عندما اعتزل حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة ، وكوّن لنفسه حلقة خاصة ، على أثر السؤال الذي عرض على الحسن وكان يشغل عقول كثير من اتباع المذاهب وهو هل مرتكب الكبيرة كافر أم مؤمن ؟ ولقد أفتى واصل بأنه لا

كافر ولا مؤمن ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، وبعضهم نسبها الى اعتزال واصل وأشباهه الاقوال الشائعة عندهم في الحكم على مرتكب الكبيرة ، وأفتوا بشيء جديد لها ، أو نسبها الى قولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين معا . وعلى كل فلقد ظهر في البصرة ، في أواخر العصر الاموي حزب عرف بالمعتزلة ، كان يضم نخبة من العلماء ، ما لبثوا أن اطلعوا على الفلسفة وعلم الكلام ، واعتمدوا عليهما في اثبات آرائهم ، وهم يختلفون عن كلمة معتزل أو معتزلي التي ظهرت في العصر الاول للإسلام بمعنى اعتزل عن الخصام او الخلافات الحزبية والسياسية أي بمعنى قريب من معنى المرجئة في أول عهدهم .

ولقد أدى الى نشوء مذهب الاعتزال ظهور فرق صغيرة أخذت تبحث بعض القضايا الجدلية التي اعترضت للفكر الانساني منذ أخذ يتفلسف ، وتناولها أكثر الفلاسفة القدماء بالبحث والشرح ، وهي قضية الجبر والاختيار أي هل الانسان مخير أو مسير ؟ ولقد أخذ المسلمون عندما بدأ عقلهم يتفلسف يتساءلون هذه الاسئلة ، والتفتوا الى القرآن يستمدون منه الهاما وهداية ، فاذا فيه آيات تؤيد الجبر ، وان كل شيء في الكون بأمره وتسخير ، وأخرى تؤيد الاختيار وان للانسان عقلا يستطيع أن يميز به الخبيث من الطيب والصالح من الطالح ، ولقد قال الجبر جماعة من المسلمين ، أي قالوا بأن الانسان مجبور في أعماله ، لا اختيار له ولا قدرة ، وان الله قدر عليه الحالة لا بد أن تصدر منه رغب أم كره ، وسمي هؤلاء الجماعة بالجبرية — كما سموا بالجهمية نسبة الى رئيسهم جهم بن صفوان — وقال آخرون بالحرية أي أن الانسان حر الآراء وله قدرة على أعماله وسموا بالقدرية ، وجاء المعتزلة وأخذوا بعض مبادئ الجبرية وبعض مبادئ القدرية ، وبنوا لانفسهم تعاليم كثيرة خلاصتها :

١ - القول بان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن : ولكنه فاسق يستحق النار لفسقه ، أي القول بالمنزلة بين المنزلتين ، منزلة بين الكفر والايمان .

٢ - القول بالقدر : أي أن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هم الذين يخلقون أعمالهم والله تعالى عادل ، فيثيب الإنسان ويعاقبه حسب أفعاله •

٣ - القول بالتوحيد ، فليس لله صفات أزلية من علم وقدرة وحياة زائدة على ذاته ، بل الله عالم وقادر بذاته •

٤ - القول بسلطة العقل : وقدرته على معرفة الحسن والقيح ولو لم يرد بهما شرع ، وقد جاء الشرع طبق طبيعة الشيء قبيحا أو حسنا ، وأمر بالشيء الحسن ونهى عن الشيء القبيح ولا يستطيع الشرع أن يعكس الامر •

٥ - القول بخلق القرآن أي أن القرآن مخلوق ، أي هو أصوات وحروف خلقها الله في غيره فوصلت الى نبيه عن طريق الوحي كما جاء في قوله تعالى : وما كان لبشر أن يكلمه الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء •

٦ - القول بأن العالم حادث : فالله تعالى وحده القديم ، والعالم ليس بقديم بل حادث على خلاف رأي أرسطو ومن نحا نحوه من الفلاسفة •

ولقد استخدم المعتزلة الفلسفة اليونانية ، بعد ان صبغوها بالصبغة الاسلامية في تأييد آرائهم ، وكانوا أول من خلق علم الكلام في الاسلام ، وأخذوا يردون على اليهود والنصارى والمجوس وما أتوا به من شكوك في الدين الاسلامي حول كثير من القضايا ، ويقنعوهم بالحجة والمنطق الجدلي والاقناع العقلي •• ولقد أثروا في السياسة عندما اتبع مذهبهم الخليفة المأمون ، وصار يجبر الناس على القول بخلق القرآن ويضطهد كل مخالف لرأيه ، واقتدى به أخوه المعتصم ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن وأهان الامام أحمد بن حنبل وسجنه لرفضه القول بذلك ، وتشدد ابنه الواثق بالله في فرض هذا المذهب على الناس ، حتى انه اعتبر كل من

لا يقول بخلق القرآن خارجا على الاسلام ، لذلك اشترط في تبادل الاسرى مع الدولة البيزنطية ولم تتبادل به الدولة الاسلامية ، ولكن عاد الخلفاء بعد ذلك الى الدول البيزنطية ولم تتبادل به الدولة الاسلامية ، ولكن عاد الخلفاء بعد ذلك الى عدم التداخل في آراء الناس ومعتقداتهم . ويجمع الكتاب على أن المعتزلة ، رغم اعتمادهم على سلطان الحكومة لنشر افكارهم ، يعدون فلاسفة الاسلام ، لانهم درسوا العقائد الاسلامية دراسة عقلية مقيدون انفسهم بالحقائق الدينية الاسلامية غير منطلقين في غير ظلها . فهم يفهمون نصوص القرآن في العقائد فهما فلسفيا ، ويعدون أيضا حماة الاسلام لانهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وردوا كيد الزنادقة والملاحدة والكفار في نحورهم وكان وجودهم عاملا في وقف تيار الزندقة الذي طم في أول ظهور الدولة العباسية . ولا ينكر هؤلاء الكتاب أن للمعتزلة شذوذا في الفكر ، وشذوذا في الفعل ، ويبدو ذلك في المحنة التي أنزلوها بسخالفهم وشدة حملتهم على الفقهاء والمحدثين ابان قوتهم وتبني الدولة لآرائهم (١) .

(١) يقول الدكتور مصطفى الصاوي الجويني :
« لقد وقف المعتزلة منذ البدء من تفسير القرآن والحديث المروي موقفا عقليا واضحا ، وذلك انهم اعتبروا العقل قبل الشرع . وعلى هذا ارتضوا خمسة اصول فكرية لم يخالفوا فيها ، وان خالفوا في مسائل فرعية منها - وهي : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومما بحثوه : هل الارادة الانسانية حرة مختارة أو مجبرة مسيرة ؟ اما العقل فيشير الى استحالة ان يجبر الله امرا على فعل ثم يحاكمه عليه ، اذن فلتؤول الآيات في هذا المجال الفكري بعدئذ بفنون وحيل .

وقد اخطأ المعتزلة حين وقفوا من ظاهر النص القرآني موقفين متعارضين : الظاهر ماساند مذهبهم ، والا رفضوه ونادوا بالتأويل وباعمال العقل ...
والحق أن خطأهم الاكبر انما يكمن في اعتمادهم لمبادئهم الفكرية اعتمادا قاطعا بانما حاولوا به أن يخضعوا الدين - وفيه من الغيبات ما فيه - لتلك المبادئ . وكانت التهم الاولى في ذلك العقل الذي جمحوا به جموحا أوردهم موارد الشطط والتعسف مسخرين في سبيل تلك الغاية ما وعوا من معارف .
ولئن كانت بدايتهم دفاعا عن الاسلام من طعنات أعدائه ، فلقد كانت نهايتهم تعصبا مذهبيا لغاية التعصب ومرد ذلك كله تأويلهم النص القرآني .

ويقول المحامي الاستاذ ظافر القاسمي :

« ليس في تاريخ الحركات الفكرية الاسلامية اعجب ولا اغرب من الازمة التي خلقها المعتزلة في اوائل القرن الثالث الهجري حول خلق القرآن .

لم يكن بين السنة والمعتزلة اي خلاف حول القرآن الكريم ، لا من حيث نصوصه ، ولا افكاره ولا اي شأن من شؤونه وانما اختلفوا حول قدمه وحدوثه .

قال اهل السنة بأنه قديم

وقال المعتزلة بأنه مخلوق

واتفق ان تسلط المعتزلة على الخليفة المأمون ، فقال بقولهم ، وأخذوا في اكراه مخالفهم على اعتناق مذهبهم وسلكوا لذلك طرقا تختلف كل الاختلاف مع ما دعوا اليه من حرية فكرية ، ومن تحكيم العقل ، وتقديمه على النقل .

ان مشكلة خلق القرآن لم تكن الا مظهرا من مظاهر الترف العقلي عند العرب فسي اذهى عصورهم .

وان الدولة قد تتبنى عقيدة فرعية وتعتبرها اهم المسائل في حياتها . وان العقيدة لا تخلو في اي عصر من العصور من ناصر لها ، يركب في سبيلها اعظم الاخطار . . . وان الترف لا يدوم ، وان كان عقليا فما أسرع ما يزول . وان كثيرا من أصحاب العقائد تخالف أفعالهم أقوالهم » .

الفهرس

بين يدي الكتاب (المقدمة)

٥٦-٧ الباب الاول : حضارة عرب الجاهلية

٢٠-٩ الفصل الاول : حضارة عرب الاطراف في الجاهلية

٩ عرب الجاهلية - ١٠ مصادرنا عن العصر الجاهلي - ١٢ حضارة المناذرة والفساسنة :
تأثر المناذرة والفساسنة بالفرس والبيزنطيين - ١٥ مدينة بصرى - ١٩ مدينة الحيرة .

٥٦-٢١ الفصل الثاني : حضارة عرب الحجاز في الجاهلية

٢١ الحياة الاجتماعية - ٢٤ الاخلاق والعادات العربية - ٢٧ مكانة المرأة في الجاهلية -
٢٩ الحياة الفكرية - ٣٠ الشعر - ٣٢ الامثال والحكم - ٣٣ القصص - الخطابة -
٣٤ المعارف العربية - علم النجوم - ٣٥ علم الانواء - الطب والبيطرة - ٣٦ الانساب -
٣٧ الفراسة والقيافة - ٣٨ الكهانة والعرافة - ٣٩ العقائد الدينية قبل الاسلام -
٤٣ اليهودية - النصرانية - ٤٤ الحياة الاقتصادية - ٤٥ اسواق العرب - ٥٠ المدن -
مكة - ٥٣ الكعبة - ٥٥ يثرب - ٥٦ الطائف .

٦٩٩-٧ الباب الثاني : حضارة العرب المسلمين

٧٥-٥٩ الفصل الاول : انظمة الحكم في الاسلام

٥٩ الجاهلية والاسلام - ٦١ تعاليم الاسلام - ٦٢ الاعمال - ٦٤ القرآن - ٦٧
الحديث - أثر الاسلام في حياة العرب - ٧٠ تطور نظام الحكم في الاسلام - نظام
الحكم في عهد الرسول - ٧٢ نظام الحكم بعد الرسول - ٧٣ الشورى والبيعة .

١٠٠-٧٦ الفصل الثاني : الخلافة الاسلامية

٧٦ الخلافة - ٧٧ معنى كلمة خلافة - القرآن والسنة ونظام الحكم - ٧٩ آراء الفرق
الاسلامية والمؤرخين حول اختيار الخليفة - ٨٢ نشأة الخلافة وتطورها - الخلافة
زمن الراشدين - ٨٥ انتخاب الخلفاء الراشدين - الخلافة زمن الامويين - ٨٦ الخلافة
زمن العباسيين - ٨٧ سلطة الخليفة ومقارنتها بنظم الحكم الاخرى - ٩٢ القاب
الخليفة - ٩٣ الشورى - ٩٤ شروط الخلافة وصفات الخليفة - ٩٥ ولاية العهد -
٩٧ البيعة - علامات الخلافة - ٩٨ شارات الخلافة - ٩٩ تعدد الخلافة -
ضعفها وزوالها .

١٠١-١١٥ الفصل الثالث : الوزارة

١٠١ تعريف الوزارة - ١٠٢ الوزارة قبل العصر العباسي - الوزارة زمن العباسيين -
١٠٤ - نوعا الوزارة - وزارة التفويض - ١٠٥ وزارة التنفيذ - ١٠٦ عدد الوزراء -
١٠٧ سلطة الوزير - ١٠٩ ضعف شأن الوزارة - ألقاب الوزراء ورواتبهم - ١١١
تعيين الوزراء وعزلهم - ١١٢ الوزراء في الاندلس - ١١٣ الوزارة لدى الفاطميين
والمماليك .

١١٦-١١٨ الفصل الرابع : إمرة الامراء والسلاطين والملوك

١١٦ امير الامراء - ١٧١ السلطان - ١١٨ الملك

١١٩-١٢١ الفصل الخامس : الحجابة

١١٩ الحجابة زمن الراشدين والامويين - ١٢٠ الحجابة زمن العباسيين - ١٢١
الحجابة في مصر والاندلس والمغرب .

١٢٢-١٣٠ الفصل السادس : الولاة وادارة الولايات

١٢٢ الولايات وادارتها زمن النبي - ١٢٣ الولايات وادارتها زمن الراشدين - ١٢٤
زمن الامويين - ١٢٥ زمن العباسيين - ١٢٦ أنواع الولايات - إمارة الاستكفاء
أو التفويض - ١٢٧ إمارة الاستيلاء - ١٢٨ الإمارة الخاصة - تعيين الولاة وعزلهم
- ١٢٩ راتب الولاة .

١٣١-١٤٠ الفصل السابع : الدواوين

١٣٢ نشأة الدواوين وأقسامها زمن الراشدين - تطور الدواوين - ١٣٧ تعريب
الدواوين - ١٣٨ الدواوين في العهد العباسي .

١٤١-١٤٧ الفصل الثامن : البريد

١٤١ مصلحة البريد وزمن انشائها عند العرب - ١٤٣ البريد زمن العباسيين وانشاء
ديوان له - مهمة صاحب البريد - ١٤٤ وسائل نقل البريد - الثقل البري - ١٤٥
النقل الجوي - ١٤٦ النقل المائي - المخابرات بالنار والدخان - ماذا ينقل
البريد - محطات البريد .

١٤٨-١٥٤ الفصل التاسع : الشرطة

١٤٨ نشأة الشرطة - ١٥٠ تطور الشرطة وسلطة صاحبها - ١٥١ أعمال الشرطة

وواجباتها - ١٥٣ تعيين صاحب الشرطة والشروط التي يجب أن تتوفر فيه .

١٥٥-١٧١ الفصل العاشر : القضاء

١٥٥ تعريف القضاء - مصادر التشريع الاسلامي - ١٥٨ التشريع الاسلامي والقانون الروماني - ١٥٩ تطور القضاء - القضاء زمن النبي - ١٦٠ القضاء زمن الراشدين - ١٦٢ القضاء زمن الامويين والعباسيين - ١٦٣ ديوان المظالم - ١٦٥ دار العدل ومجلس القاضي - مساعده القاضي - ١٦٦ القضاء واهل الذمة - ١٦٧ شروط القاضي وتعيين القضاة - ١٧٠ رواتب القضاة وملابسهم .

١٧٢-١٧٨ الفصل الحادي عشر : الحسبة

١٧٢ اصل الكلمة - ١٧٣ منشأ الحسبة - الحسبة والقضاء - ١٧٤ اعمال المحتسب - ١٧٧ مجلس المحتسب وراتبه .

١٧٩-٢٠٤ الفصل الثاني عشر : النظام العسكري - الجيش

١٧٩ المقاتلون في صدر الاسلام - ١٨٠ الجهاد في الاسلام - ١٨١ وسايا امرأ الجيش - ١٨٣ الجندية الاجبارية - ١٨٤ ادخال العناصر غير العربية في الجيش - ١٨٥ المستنكرات ١٨٧ التدريب العسكري - فرق الجيش - ١٩١ عدد الجند - إمرة الجيش - ١٩٤ اسلحة الجند - ٢٠٠ اساليب القتال - ٢٠٣ رواتب الجند .

٢٠٥-٢١٨ الفصل الثالث عشر : النظام البحري - الاسطول

٢٠٥ العرب والملاحه - نشأة الاسطول وتطور الملاحة في العصور الاسلامية - ٢٠٨ دور الصناعة - ٢١١ السفن الحربية واشهر انواعها - إمرة الاسطول - ٢١٦ اشهر المعارك البحرية - ٢١٨ تراث العرب في الملاحة .

٢١٩-٢٣٩ الفصل الرابع عشر : مالية الدولة

٢١٩ بيت المال - ٢٢٠ موارد بيت المال - ٢٢١ الخراج - ٢٢٣ العشر - الزكاة - ٢٢٥ مصرف الزكاة - ٢٢٧ الجزية - ٢٢٨ القنينة - الفء - ٢٢٩ الواردات الاخرى - ٢٣٢ الواردات غير المشروعة - ٢٣٣ طرق الجباة - ٢٣٤ نفقات الدولة - ٢٣٦ النقد - ٢٣٧ دار الضرب .

٢٤٠-٢٧٩ الفصل الخامس عشر : المجتمع العربي الاسلامي

٢٤٠ شكل المجتمع الاسلامي - ٢٤٣ طبقات المجتمع الاسلامي وتطورها - ٢٤٤ المجتمع

في عهد الرسول والراشدين والامويين - ٢٤٨ في العصر العباسي - ٢٤٩ في الاندلس - ٢٥٠ الموالى - ٢٥٦ اهل الذمة - ٢٦٤ الرقيق - المرأة .

٢٨٠-٣٢٤ الفصل السادس عشر : النظام الاقتصادي

٢٨٠ الزراعة - ٢٩٥ المعادن والصناعة - ٣٠٦ التجاره وطرق المواصلات .

٣٢٥- الفصل السابع عشر : الفنون

٣٢٥ ميزات الفن الاسلامي - ٣٢٧ تطور الفن العربي الاسلامي - ٣٣١ عصور الفن الاسلامي - ٣٤٣ المدن الاسلامية - بناء المدن في الاسلام - ٣٤٥ مدن العراق - البصرة - ٣٤٦ الكوفة - ٣٤٧ واسط - ٣٤٨ بغداد - ٣٥١ سامراء - ٣٥٤ مدن الشام - ٣٥٥ الرملة - الرصافة - الرقة - ٣٥٦ مدن مصر - الفسطاط - ٣٥٧ القاهرة - ٣٥٨ مدن المغرب - القيروان - ٣٥٩ المهدية - فاس - ٣٦١ مدن الاندلس - قرطبة - ٣٦٢ الزهراء - ٣٦٤ الزاهرة - غرناطة - ٣٦٦ العمارة الاسلامية - ٣٧٨ المساجد وظواهرها المعمارية - ٣٧٩ الحرم الشريف في القدس - ٣٨١ المسجد الاموي بدمشق - ٣٨٥ جامع القيروان - ٣٨٦ جامع الزيتونة - ٣٨٨ مسجد قرطبة - ٣٨٩ مسجد سامراء - جامع ابن طولون - ٣٩٣ الازهر - ٣٩٥ مساجد العصر المملوكي - ٣٩٧ مساجد العصر السلجوقي - ٣٩٨ مساجد العصر المغولي في ايران - ٤٠٠ مساجد العصر الصفوي - مساجد العصر الهندي المغولي - ٤٠١ مساجد العثمانيين - ٤٠٣ المآذن - ٤٠٩ القصور - ٤١٩ الابنية الحربية - قلعة حلب - ٤٢٠ قلعة الحصن - القلاع الاخرى - ٤٢١ الرباط - ٤٢٣ الفنون الجميلة - النقش والتصوير وصنع التماثيل - ٤٣٠ مدارس التصوير في البلاد الاسلامية - ٤٣٦ الكتابة والخط - ٤٤٣ الزخرفة والنقش التزييني - ٤٥٤ الفنون الصناعية - الخزف - ٤٦٠ الزجاجيات - ٤٦١ المسوجات - ٤٦٣ السجاد - ٤٦٤ الحفر - ٤٧٢ الفسيفساء - ٤٧٣ الفناء والموسيقى - تطور الفناء منذ الجاهلية حتى العصر الاموي - ٤٨٠ الفناء في العصر العباسي - ٤٨٣ الموسيقى النظرية في المشرق - ٤٨٧ موسيقى الاندلس - ٤٨٩ اثرها في اوربا - ٤٩١ حياة الترف في المدن - ٤٩٣ في الطعام والشراب - ٤٩٤ في الملبس والمسكن - ٤٩٥ في الحفلات والمآدب والاعياد - ٤٩٧ انواع التسلية - ٤٩٩ الحياه الفكرية - الثقافات السابقة للاسلام - ٥٠٠ الثقافة اليونانية - ٥٠٦ الثقافة الفارسية سر ٥١١ الثقافة الهندية - ٥١٥ اليهودية والمسيحية - ٥١٦ الفكر العربي الاسلامي - ٥٢٣ تمازج الثقافات واثره - ٥٢٧ طرق تسرب

الثقافات الاجنبية الى الثقافة العربية - ٥٢٩ النقل في العصر العباسي - ٥٣٣ طريقة الترجمة - ٥٣٥ المدارس - المدارس والمؤسسات العلمية - ٥٣٦ المذاهب الفكرية - ٥٣٧ المؤسسات العلمية - ٥٤٢ المكتبات - ٥٤٤ مكتبات بغداد - ٥٤٥ مكتبات القاهرة - ٥٤٦ مكتبات الشام - مكتبات المغرب - ٥٤٧ مكتبات الاندلس - ٥٤٨ العلوم الدينية - العلوم الاسلامية - علوم القرآن - علم القراءات - ٥٤٩ التفسير - ٥٥٢ المفسرون وكتبهم - ٥٥٤ الحديث وأصوله - ٥٥٥ وضع الحديث - ٥٥٧ تدوين الحديث - ٥٦١ الفقه الاسلامي - ٥٦٢ المذاهب الفقهية - ٥٦٦ انتشار المذاهب الاربعة - ٥٦٧ العلوم العربية - اللغة العربية - ٥٦٨ علم النحو وقواعد اللغة - ٥٧١ الشكل والتنقيط - ٥٧٢ المعاجم وفقه اللغة - ٥٧٣ البلاغة - العروض - ٥٧٤ الشعر - في الجاهلية وصدر الاسلام - ٥٧٥ في العصرين الاموي والعباسي - ٥٧٧ في الاندلس - ٥٧٨ النثر والخطابة - ٥٨١ التاريخ - ٥٨٨ الجغرافيا والرحلات - ٥٩٥ العلوم الطبية - الطب - ٥٩٦ اطباء - ٦٠٣ الاختصاص في الطب - ٦٠٨ اكتشافات العرب الطبية - المستشفيات العربية - ٦١١ الكيمياء والصيدلة - ٦١٢ جابر بن حيان - ٦١٧ الرازي - مكتشفات العرب الكيميائية والصيدلانية - ٦٢٣ علم النبات - ٦٢٤ رشيد الدين الصوري - ٦٢٥ ابن الرومية - ابن البيطار - ٦٢٨ العلوم الطبيعية - علم الميكانيك - ٦٣٠ البناء موسى بن شاكر - ٦٣٧ علم الفيزياء - ٦٣٨ الضوء - ابن الهيثم - ٦٤١ كمال الدين الفارسي - ٦٤٢ البيروني - ٦٤٦ الصوت - المغناطيسية وبيت الابر - ٦٤٧ الرقاص - ٦٤٨ العلوم الرياضية - الحساب - ٦٥٤ الجبر - ٦٥٦ الهندسة - ٦٥٩ المثلثات - الفلك - ٦٦٦ قياس محيط الارض في عصر المأمون - ٦٦٨ المراصد وآلاتها وازياجها - الاسطرلاب - ٦٧٦ العلوم الفلسفية والفرق الدينية - الفلسفة والفلاسفة - ٦٧٧ الكندي - ٦٧٨ الفارابي - ٦٧٩ اخوان الصفا - ٦٨٠ ابن سينا - ٦٨١ ابن باجة - ابن طفيل - ٦٨٣ ابن رشد - علم الكلام - ٦٨٥ التصوف - ٦٨٦ تطور الصوفية -

ISBN: 1-57547-342-9